منحدة وخصائصه

دكتورتبدالحليم حفني



بسم الله الرحمن الرحيم "ربّ الشرّح لى صَدرى و يَسَر لى المُسْرى وَ احْلُل عُقَدْةً من لسَانى يَفْقَهوا قَوْلى" صَدق الله العظيم قرآن كريمُ

بت مالترالرحمرًا لرّحيمُ

تفسديم

تيسيرا على ناقد هذا البحث ، في استيضاحه ما يراه غير واضح ، وفي وقوفه أمام ما يراه غير قويم ، أو غير واف من جوانب البحث ، أرى أن أخفف عنه بعض التسردد والوقوف ، فقد يكون الباحث أقدر من غيره على ادراك ذلك كله في بحثه .

ولناقد هذا البحث أن يئسق في صدق عوني له ، فانني لا أرى بين باحث العلم وناقده خصومه ، بل على العكس ، أرى فيهما رفيقي جهدا واجتهاد ، في أنبل ميدان تعرفه البشرية ، لأنه الميدان الذي يقود البشرية الى أمام ، وسط معوقات عاتية عنيفة تشدها الى وراه ، ولست أرى في باحث العلم وناقده الا جنديين ، يحاول كل منهما بما أتيح له من جهد ، أن يساهم في تقدم البشرية ، ولو قيد شعره ، أو يحميها من القهقرى في أهون الفروض .

وليس على باحث العلم بأس في أن يعين ناقده على نقده ، بل أراه واجبــــا تفرضه أمانة العلم ، ويوجبه شرف الميدان نفسه ، أعنى ميدان العلم •

ولا يستطيع باحث العلم أن يزعم لنفسه ولا للناقد أنه أحاط بموضوعه علما ، وأنه سد منه كل ثغرة ، وإنما يستطيع أن يقول: هذا جهدى واجتهادى، لم أدخر منهما شيئا ، وليس يضير باحث العلم ألا يبلغ بجهده واجتهاده غاية الشوط ، فالله العليم الخبير قد وضع للعلماء شعارهم الأسمى فى قسوله تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ووضع للعالم منهاجه الاقوم فى قسوله سبحانه « وقل رب زدنى علما ، فلن يضير الباحث اذن الا يبلغ جهده واجتهاده غاية الشوط ، وأنما يضيره أن يدخر جهدا استطاعه ، وأن يقصر عن غساية كان يمكنه بلوغها ، وإذا كان هذا يضير الباحث ، فأن هناك أمرا يملؤه ضيرا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وهو التفريط عن عمد ولو ذرة فى أمانة العلم ، هذه الأمانة التى رسم النبى صلى الله عليه وسلم منهاجها للعلماء فى قوله « رحم الله أمرءا سمع مقالتى فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامم » •

ويخيل الى أن أول ما يتبادر الى ناقد البحث ، سؤال تقليدى ، هــو للذا اخترت هذا الموضوع لبحثك ؟

وأنهم من هذا السؤال أن الناقد يشير بسؤاله الى بعض النواحي ، منها ان موضوع الصعاليك وشعرهم ، لم تحدده البحوث ، بمعنى أن هذا الموضوع لم تتوفر عليه جهود من الباحثين ، حتى تجعل منه موضوعاً واضح المعلومـــات نبر الطريق ، كشأن غيره من الموضوعات التي أصبحت واضحة مجتمعة الجوانب، ولكن موضوع الصماليك وشعرهم لا زال متناثرا في شتات الكتب ، ومتفرقات المراجم، فالباحث فيه لن يجد كتبا عن الصعاليك ، ولا عن شعرهم ، كمسل يجد في كثير من الموضوعات ، وانما عليه أن يجوب كل المراجع العربية القديمة ليجد خبرا عابرا في هذا الكتاب، أو ترجمة لشاعر منهم في كتاب آخـر، أو متناثرات من شعرهم ، وقد يتصفح الباحث كتابا كاملا فلا يجد فيه عنهــــم شيئًا ، وأن وجد فلن يجد سوى هذه المتفرقات ، ولا أعلم أحدا في القــــديم أفرد الصعاليك ببحث مستقل سوى السكرى في كتاب اللصوص ، ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا فيما نعلم ، وانعا نقل عنه بعض العلماء القدامي ، ومنهم البغدادي في خزانة الأدب (١) ، كمالا أعلم أن أحدا في الحديث فعل ذلك سوى الدكتور يوسف خليف في بحثه عن الشعراء الصعاليك في العصر الجاهسلي فحسب ، وأغلب الظن أن تناثر موضوع البحث وصعوبته ، كانا اهم ما صدرف الباحثين عن الاتجاء اليه ، ايثارا للعافية ، وتجنبا للخطا في موضوع لم تتحدد فيه البحوث ، ولم تتضم حوله الآراء والاتجاهات •

فأفهم من سؤال الناقد كأنه يشير الى هذه الصعوبة التى تكتنف موضوع البحث ، والى هذه الظلال التى تعتم بعض جوانبه ، وكانه يقول : هل و ثقت من بحثك فى موضوع كهذا ، حتى تقدمه فى رسالة علمية ؟

وأقول له: أن هذه الصعوبة وهذه الظلال ، لم يكن أحدهما مفاجئاً لى أو غريباً على • بل لعلهما كانا أهم ما دفعنى الى اختيار الموضوع ، فاننى ارى أنه من العبث أن يبدد الباحث جهده فى موضوع فرغ منه الباحثون أو كادوا ، وأنه من العبث أن يترك الباحث موضوعاً يمكن أن ياتى فيه بجديد من الجهد والموضوع فى حاجة الى هذا الجهد ، والى هذا الجديد ، الى موضوع يرى حوله كثيراً من الجهود • ويرى فيه كثيراً من التجديد الذى يستنغد جوانب الموضوع أو يوشك •

وكون البحث رسالة علمية لا أرى أنه يغير من الأمر شيئا ، فالمفروض في كل بحث أن يكون علميا ، وكل ما يمكن أن تضيفه صفة الرسالة العلميـــة

[·] ٢٢ _ ١٩/٢ للمثال ١٩/٢ _ ٢٢ ·

هو اقتضاؤها مزيدا من الجهد ولعل هذا أيضا مما حفزنى الى اختيار صعوبة هذا الموضوع ، مقدرا أن حاجة الرسالة العلمية الى مزيد من الجهد ، كموضوع هو في حاجة الى مزيد من الجهد ، كموضوع هو ألصعاليك وشعوهم :

وبالنسبة فازمنة موضوع البحث ، يخيل الى أن الناقد يستنتج من عموم عنوان البحث أن يسأل السؤال التالى :

لماذا لم تحدد زمنا معينا لموضوع البحث ؟

وأفهم من سؤال الناقد كان ينبغى تحديد عصر معين لموضوع البحث كالعصر الجاهلي، أو الاسلامي ، أو نحو ذلك من التحديد الزمني الذي يعين على حصر البحث وشموله ، والذي يؤلف عادة في الرسائل العلمية .

وأجيب عن ذلك بأنني التزمت هذا التحديد في البحث كله ، ســـواء في الحديث عن الشعراء الصعاليك ، أو شعرهم ، فقسه ميزت الشسعراء الجاهليين منهم عن المخضرمين ، وعن الاسلاميين ، كما فعلت ذلك بالنسبة للمخضرمين وللاسلاميين ، حسب ما أتاحت لي الروايات والأخبار ،والروايـــات والأخبار في هذا الموضع غير غامضة ولا ملتوية في جملتها ، وأن لم تخل من ذلك في تفاصيلها ، فالذي لا تنص الرواية صراحة على أنه جاهلي أو مخضيرم أو اسلامي ، تسوق من أخباره ، أو من مضمون شعره ما يكشف عن الظروف المحيطة به في صلاته وبيئته ، فنعلم من أي عصر هو ، فأن لم تفعيل الرواية هذا ولا ذاك ، وجدنا في رواية أخرى ما يســــ ثغرات الرواية الأولى ، وكذلك الأمر في شعرهم ، فبالاضافة الى التزامي في الاستشهاد والتمثيل نسبة كل شعر الى صاحبه ، مما تعلم منه من أي عصر هو بالاضافة الى ذلك كان التفريق الأساسي في الموضوعات ، وفي الخصائص ، فقد أشرت خيلال الحيديث عن الموضوعات التي طرقها شعرهم ، الى الموضوعات التي خلا منها شعرهم في عصر من العصور ، أو التي انفرد بالحديث فيها شعر عصر آخر ، وكذلك في الحديث عن الخصائص ، راعيت الحديث عن الخصائص التي يتسم بها شعر الصعاليك كله في سائر عصوره ، والتي تميزه عن شعر غير الصعاليك ، وراعيت المديث عن الخصائص التي ينفرد بها شعر الصعاليك الجاهلين ، مشيرا الى انفــراده في بعض المواضع عن شعر صعاليك الاسلام خاصية ، أو عن غيرهم عامة من الشعراء سواء أكانوا صعاليك أم لم يكونوا ، وكذلك فعلت في تمييز خصائص شعر صعاليك الاسلام عن غيرهم على النهج السابق ، والخضرمة ليست فترة زمنية حتى تجعل لها خمسائص مستقلة ، بمعنى أنه لم تكن بسين الجاهلية والاسلام فترة زمنية ، بالنسبة للمنتقلين بعقيدتهم من الجاهلية الى الاسلام فشمر الصماليك اذن اما جاهلي ، واما اسلامي ، وليست بينهمـــا مرحلة ثالثة بالنسبة للمخضرمين ، الا في نقتطين متقاربتين في المضبول ، هما أثر الاسلام في شعر المخضرم ، وأثر الاسلام من الناحية الدينية الروحية في عصر المخضرمين ، وقد أشرت الى هاتين النقتطين ، في فصلى صراع السلطة ، وخصائص شمعر صعاليك الباهلية .

وحتى في الحديث عن بيئة الصعلكة ونشأتها واسبابها ، فرقت بين عصرى الجاهلية والاسلام ، في مقتضيات كل منهما بالنسبة للصعلكة ·

ولكننى لم أوضح هذا التفريق بين العصور ، أو شمول البحث لها في العنوان الأننى لا أبحث عصرا واحدا أو عصرين مثلا ، حتى أحدد ذلك ، وانما أبحث شعرا لصعاليك كله ، أعنى ما وصل الينا في كل العصور ، وقد كان العنوان وافيا في الدلالة على هذا المعنى من حيث شموله لشعر الصعاليك مجملا، أما التفصيل فمن شأن البحث ، وليس من شأن العنوان .

ولكن هذا السياق فيما أظن قد يجر الناقد الى سؤال أهم من السؤال السابق، وهو : كيف يسوغ جمع شعر مختلف العصور والبيئات ، لبحثه فى موضوع واحد ، أو لوضعه في بحث واحد ؟

وأقول له: قد يبدو غريبا حقا جمع شعر لشعراء من قبائل وبيئات كثيرة مختلفة ، ومن عصور كثيرة ومختلفة أيضا ، والمألوف في البحوث العلمية الادبية بحث نوع واحد من الأدب ، أو أدب واحد ، لبيان ما فيه خصائص ، أو مدى تأثير الظروف المختلفة فيها ، أو بحث نوعين من الأدب ، للمقارنة بين ما يحملان من خصائص ، ولكن شعر الصعاليك متعدد البيئات ، ومتعدد الشعراء ، ومتعدد الصور ، وهذا موضع الغرابة التي قد تبدو من بحثه على هذه الصورة .

ولكننا لا نجد لهذه الغرابة موضعا حين نعلم أن شعر الصعاليك يعتبر وليد بيئة واحدة ، لا نعنى بها تشابه طبيعة شبه الجزيرة ، وانما نعنى أن شسعر الصعاليك فى جملته نابع من حياتهم فى الصعلكة ، وحياتهم فى الصعلكة كانت دائما تختار أماكن معينة ، يكاد الصعاليك على اختلاف عصورهم لا يختلفون فى صفات هذه الاماكن وصورتها ، لان أماكن معينة هى التى تصلح لمزاولة الصعلكة، هى الجبال وصحراواتها ، فى الصورة التى صورها شعرهم ، ومن هذا نعسلم أن بيئتهم واحدة ، لا تختلف من بدو الى حضر ، ولا من ريف الى مدن ، ولا من خصب الى جدب ، ولا غير ذلك مما يؤلف تأثيره فى شعر الشاعر ويختلف به شعر شاعر عن غيره ، فشعرهم كله وليد بيئة واحدة ، هى الجبال والصحراوات شعر بل وليد جبال معينة ، وصحراوات معينة ، تئيج لهم مزاولة مهنتهم ، كما وصغوها فيما سيأتى من البحث ، وكذلك بالنسبة للعصور ، فمع أن منهم شعراء فى الجاهلية ، وشعراء فى صدر الاسلام ، وشعراء فى عصر بنى أمية ، وشعراء فى العصر العباسى ، الا أن هذه العصور وان كانت ذات تأثير كبير فى

شعر غيرهم ، فهى غير ذات تأثير بين فى شعرهم ، لأن تأثير هذه العصور ليس من حيث انها أزمنة ، فالزمن لذاته ليس مؤثرا ، ولكن من حيث المجتمعات التى صاحبت هذه العصور ، بمعنى أن مجتمع العصر العباسى متسلا ، يختلف فى حضارته وظروفه المختلفة عن مجتمع العصر الأموى ، وعن مجتمع العصر الجاهل وهكذا نجد الاختلاف فى حقيقته بين المجتمعات ، وليس بين العصور ،

والصعاليك بحكم حياتهم فى الصحراوات والجبال ، وبحكم عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمعات ، لم يتأثروا كثيرا باختلاف المجتمعات وظروفها ، الا من شذ منهم وقد أشرت اليه فى البحث ، أما سائر الصعاليك ، فقد جمعتهم على اختلاف أزمانهم وأماكنهم ، بيئة واحدة ، ونفسية واحدة ، وحياة واحدة ، وأهداف واحدة ، وقد لا يكون بينهم من الاختلاف ما يكون فى حياة الشخص الواحد من تقلب الأحوال النفسية والمعيشية به ، وقد لا يكون بين شعرهم كله ـ تن حيث اختلاف الروح ـ ما يكون فى شعر شاعر واحد ،

وكل ما في شعر الصعاليك من فواصل ، هو ما بين الشعر الاسلامي والجاهلي لهم ، فالاسلام هو الشيء الوحيد الذي استطاع أن يترك في شعرهم أثرا، ولذلك جعلته فاصلا في المقارنة بين شعرهم الجاهلي والاسلامي ، على أن تأثير الاسلام في شعرهم لم يكن كاملا ، فقد أثر الاسلام من الناحية الروحية فيهم ، فأظهر في شعرهم جانب التوبة وجوانب أخرى محددة بسطت حديثها في البحث ، وأهمها روحي أيضا ، وهو الشعور بالذنب ، أما التغيرات الاجتماعية التي أضفاها الاسلام على المجتمع ، فلم يكن تأثيرها في الصلحاليك كبيرا ولا بينا .

ومن حيث انه لم يكن في شعر الصعاليك من فواصل تؤثر فيه الا الاسلام، لذلك لم أجعل غيره فاصلا في الحديث عن شعرهم ، فاختلاف العصور ، من أموى الى عباسى الى غير ذلك ، لم يكن له كما قلت تأثير بين في شعورهم .

والخص للناقد هذه الاجابة ، بأن شعر الصعاليك من حيث البيئة يعتبر نوعا واحدا ، لا يحتاح بحثه الا الى بيان انعكاس هذه البيئة فيه ، وقد تحدثت عن ذلك وعلى الأخص في فصلى شعر الطبيعة ، وخصائص شعر صعاليك الجاهلية ومن حيث العصور ، يعتبر شعر عصرين ، هما الجاهلية والاسلام ، وقد بينت أثر كل منهما فيه ، مقارنا بينهما ، في مواضع معنونة بلفظى الجاهلية والاسلام ، وخاصة في فصلى الصعلكة في الجاهلية ، والصعلكة في الاسلام ، وفصلى خصائص شعر الجاهلين ، وخصائص شعر الاسلام ،

وفيما يتعلق بالاستشهاد بالشعر ، قد يسالني الناقد : لم أكثرت من الاستشهاد بشعرهم في بعض المواضع ، وقللت منه في بعض آخر ؟

منكن من الأمثله ، للدلالة على شيوع هذا كان نوعين ، نوعا يقتضى حشد أكبر عدد منكن من الأمثله ، للدلالة على شيوع هذا المعنى في شعرهم ، واهم ما يتمثل فيه عنا النوع ، للوضوعات ، فحين اقول مثلا أنه يشيع في شمعرهم الحديث عن الممثلة الفقر ، فلا يبرز مقد كبير من الأمثلة لشعراء عديدين ، حتى يبدو فعلا أن حديث الفقر شمائع في شعرهم ، وهكذا بقية الوضوعات ،

والنوع الآخر هو بقية المعانى التي يكتفى في التدليل عليها بالمحدود من الأمثلة وعاية مايلزم في هذا النوع التمثيل لاكثر من شياعر ، أو للجاهلية والاسلام أن كان المقام يدعو أو يدعى اشتراك العصرين في موضوع الحديث .

واستبعد أن يكون الناقد قد عنى فيما عنى أننى لم استشهد كثيرا بشمر غير السماليك وهذا الفسير ، استبعد ذلك لأن موضوع البحث ليس مقارنة بين شعر الصعاليك وغيرهم ، وانما بيسان منهج شعر الصعاليك وغيرهم ، وانما بيسان منهج شعر الصعاليك ، والخصائص والسمات الغالبة عليه ، فهو بحث موضوع ذاتى ، وليس بحث مقارنة ، لذلك لم يكن هناك ما يدعو ال كثرة الاستشهاد بشعر غيرهم ، الا فيما يوجبه سياق معين ، وقد فعلت ذلك ، كما فى الحديث عن التصريع فى معلم شعرهم ، فان الحكم على شعر الصعاليك من حيث تصريع المطلع ، يستوجب أن نرى تقاليد غيرهم من الشعراء فى مدى التزامهم التصريع، لنعلم حينند ، هل كان علم التزام الصعاليك للتصريع أسلوبا خاصا بهم ، أم جريا على شيء مألوف ؟

وهناك سؤال لا أظن أنه يغوت الناقد ، وهو : كيف منهجك في المراجع ؟
فاقول له : ان د شعر الصعاليك ، الذي هو موضوع البحث ليس له قط

- فيما أعلم - مراجع محددة مستقلة ، وانما هي بعض البحوث المسدودة في
بعض جوانب محدودة ، معظمها في صورة فصل موجز من كتاب ، أو ترجمسة
لبضعة شعراء من مشهوري الصعاليك كالشسسنفري وتابط شرا والسليك بن
السلكة،وقد اشرت الى اهمها في مصادرشعرهم ، وذلك باستثناء البحث الذي
اشرت آنفا اليه (۱) وهو جزء من الموضوع ، وحول موضوع هذا البحث ، وليس
أشرت آنفا اليه (۱) وهو جزء من الموضوع ، وحول موضوع هذا البحث ، وليس
في صلبه ، ولا اظنني استقدت منسة غير الارشاد الى بعض المراجع ، على أنني
أعتقد أن أهم مرشد إلى المراجع ، لبحثي وللبحث المذكور ، هسو تاريخ الأدب
العربي (۲) ، وذلك في سياق حديثه عن ثلاثة من شعراء الصعاليك هم تابط
شرا والشنفري وعروة بن الورد ، ولكنه في هذا السياق ذكر أهم المراجع التي
ورد فيها ما يتعلق بهؤلاء ، سواء في المراجع القديمة أو البحوث الحديثة ، بل

⁽١) بحث الشعراء المساليك في العمر البعامل للدكتور يوسف خليف ٠

⁽٢) للمستشرق كادل يروكلمان وقد ترجمه الى العربية الاستاذ النجاد .

كاد يستقصيها ، أن كنت أملك هذا التعبير ، ولكنى أعتقد أن منهجه في المراجع خير نواة لأى بحث عن الصعاليك وشعرهم .

وأقول « نواة » لان المراجع مهما تعددت ، فليس فيها بحث عن الصماليك وشعرهم ، وانما فيها نصوص متناثرة ، متفرقة أشد التفرق ، يستطيع الباحث مع ذلك بجهدم أن يكون منها مادة لبحث علمي .

وأتصور الناقد يقطع على حديثي ليقول: ولكنك لم تستوعب كل المواجع القديمة التي يمكن أن يكون فيها شيء من شعر الصعاليك ، فأذكر الناقد بما قلت في بدء هذه المتاقشة ، من أنه لا يظن أن مرجعا من المراجع القديمة يخلو من شعر الصعاليك ، ومع ذلك فقليل منها يحوى من شعرهم قدرا مفيدا ، أما الكشير فبعضه يردد متناثرات مكررة في مراجع أخرى ، وبعضه لا يحوى من شعرهم شيئا ذا غناء ، وعلى سبيل المثال ، فأن يتيمة الدهر للثعالبي بأجزائها الأربعة لا تحوى سوى يضعة أبيات من شعرهم ، قد لا تبلغ الخمسة ، متفرقة غير مجتمعة (۱) ، وزهر الآداب للحصري كذلك ، مع اختلاف في نسبة بعض هذا البضع ، ومع ليس في بعضه الآخر ، كاللبس الذي لم يوضع بين صخر الهذلي وأبي صخر الهذلي (۱) والأول صعلوك جاهل سيأتي حديثه ، الثاني اسلامي أموى غير صعلوك وهذان المرجعان مثال لما يعانيه الباحث عن شعر الصعاليك من جهد في بعض المراجع ثم يخرج منها بغير طائل ، وفضلا عن هذا الجهد في غير طائل بالنسبة لبعض المراجع ، فاني أطن أن استقصاء كل ما في المراجع غير طائل بالنسبة لبعض المراجع ، فاني أطن أن استقصاء كل ما في المراجع بالقديمة على اختلاف أنواعها ، فوق طائة أي باحث ،

ولكن الذى عنانى ، والذى أعتقد أنه وفى بحاجة البحث ، هو جمع أكبر قدر ممكن من شمرهم ، مراعى فيه تمثيله لأكبر عدد من شمرهم ، ولكل النواحى التى يعنى البحث بدراستها وابرازها .

وکما بدأ الناقد حدیثه بسؤال تقلیدی ، فاننی أتوقع أن یختمه أیضیا بسؤال تقلیدی ، هو : علی أی أساس رتبت أبواب بحثك ؟

وأجيبه بأن الشعر في حقيقته هو مشاعر صاحبه نحو غيره ، أيا كان هذا الغير أعنى سواء كان هذا الغير من نوع الناس ، أم من نوع البيئة ومشاعدها ومخلوقاتها ، أم من أي نوع آخر ، بل حياة الشاعر نفسه وما يعانيه فيها ، وشخصه هـ و بدأته وأحاسيسه يعتبرهما الشاعر من أهداف شـعره ، مبينا مشاعره نحوهما ، وأصل هذا المعنى قرره ابن رشيق في قوله « وانها سـمى

⁽١) أظر للمثال جد ٤ ص ١٣٣٠

⁽٢) أنظر للمثال زهر الأداب (مامش المقد الفريد) ص ٢٩٨٠

⁽٣) أنظر خزانة الأدب للبندادي ٢٧٧/٢ وحماسة أبي تمام ١٢٠/١ ·

الشاعر شاعرا لأنه يشمر بما لا يشمر به غيره ، (١) ، والبغـــدادي في قوله « وسمى الشاعر شاعرا لأنه يشمر لا يشمر له غيره » (٢) ، ومعنى ذلك أن الشعر ليس الا تعبيرا عن مشاعر صاحبه نحو موضوع الشمعر ، وهذا المعنى بجوانب آخرى متصلة به لم يعد موضع خلاف بين النقاد ، وحيث كان الشعر تميرا عما حوله ، لزم أن تلقى ضوءا على هذا الذي هو حوله من البيئة والظروف، لترى مدى تاثير ما حوله فيه ، ومدى تعبيره عما حوله ، وشمعراء البحث هم الصعاليك ، وهم طائفة من الناس لم يجمعهم نسب ولا مكان ولا زمان ، وانسا جمعتهم وحدة الظروف ، ووحدة الوسيلة لمقاومة هذه الظروف ، وهـــــذا الذي جمعهم أو اجتمعوا فيه نسميه الصعلكة ، واذن فقد كانت موضوعات البحث في جوهرها وتلخيصها ، هي شعر الصماليك من حيث مدى تأثير الظروف المحيطة به فيه ، ومن حيث تصويره لهذه الظروف وتعبيره عنها ، مع مراعاة أن كــــل الظروف المحيطة بهذا الشمر كانت تدور حول حياة الصعلكة، نتيجة لتفسرغ الصماليك لهذه الحياة ، واعتزالهم بها عن المجتمعات ، وقد تمثل هـــذا في الموضوعات وفي الخصائص ، وقد اقتضى الحديث عن شعر الصعاليك ، بيان الظروف التي أحاطت به ، وقد تمثل هذا في نشياة الصعلكة وأسبابها في الجاهلية والاسلام ، وقبل ذلك كله لزم أن تعرف طبيعة الصعلكة تفسها ، وقد تمثل مدًا في البحث اللغوى والاجتماعي عن مدَّلول الصعلكة ، وقد كان ترتيب هذه الموضوعات في البحث كما يلي :

المعلكة والظروف والأسباب التي سمحت بنشأتها ، وأن نلم بصورة مهما تكن موجزة فينبني أن تكون كافية لانارة البيئة التي عاش فيها الصعاليك ، والحياة التي احاطت بهم ، لأن شعرهم لن يكون - كأى شعر آخر - الا تعبيرا وتصويرا لهذه الحياة والبيئة ، وقد جعلت هذا الموضوع الباب الأول لانبناء البحث كله على فهم الصحاكة . وعلى تأثير بقية الباب في موضوعه الذي هو شمر الصعاليك .

Y - قبل الحديث عن شعر أى شاعر يقتضى الوضع أن نعرف من هدا الشاعر ؟ وما صفاته وما مميزاته انكان له ميزات ؟ لأن شعره ثمرة مشاعره وعقله ، وهو حكم عليهما أيضا ، لذلك جعلت الحديث عن الشعراء الصعاليك الباب الثانى ، وراعيت فيه الاقتصار في ترجمة كل شاعر على ما يحدد شخصيته ويميزها عن غيرها ، مبينا زمنه من حيث الجاهلية أو الخضرمة أو الاسسلام ، وراعيت أيضا أن العدد الذي ترجمت له ، والذي جملت شعره موضوع البحث

⁽١) أنظر المبدة ١٩٣/١ ٠

⁽٢) خُرَالة الأدب ١/١٨٤ الشاهد ٣٨٠

بحيث يكون عددا كافيا في تمثيل صعاليك العصر الذي ينتمى اليه ، وقد بلغ عدد الذين ترجمت لهم من فترات الجاهلية والخضرمة والاسلام ثلاثين شاعرا ، كل شعراء فترة على حدة ، وذكرت عددا آخر مشيرا الى بعض مراجع اخباره ، لمن اراد أن يطلب المزيد من تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم .

٣ ـ وبعد ذلك كان من الطبيعي الحديث عن شعر هؤلاء الشسعراء على ضوء ماسبقه من حديث صعلكتهم وبيئتها وظروفها ، فجعلته الباب الثالث ، وقد بيئت فيه مصادره ، والاختلاف الذي وقع فيه ، ثم ركزته الحديث على صلب البحث ، وهو منهج شعرهم واتجاهاته الموضوعية ، وقد بدا منه أن شسعرهم صورة من حياتهم في الصعلكة بكل ما في هذه الحيساة من آلام الفقر وآثاره ، والهموم والشعور بالمطاردة ونحوهن ، وبكل ما فيها من حاجة الى اسلحة حسية وأسلحة نفسية ، وقد جعلت ذلك في فصول محددة ، رتبتها حسب ما يقتضيه منطق حياة الصعلوك ، مشيرا الى هذا المنطق حينذاك ، وبالطبع لا تخلو حياة انسان من اجتماعيات ، وقد صور الشعراء الصعاليك اجتماعياتهم في شعرهم ، فتحدثت عن ذلك ، مبينا منهجهم في هذا النحو أيضا ، وقد كان منهجهم فيه خول حياة الصعلكة ومقتضياتها أيضا .

٤ ـ والنتيجة المنطقية لكل ما سبق أن ترى هل كان شعرهم من الإصالة والشاعرية الصادقة بحيث يمثل حياتهم هذه المنفردة المتميزة عن غيرها فى كل شىء ؟ فجعلت هذا الحديث بابا رابعا واخيرا ، لبيان الخصائص والسمات التى يتسم بها شعرهم فى جملته ، والتى تبدو مميزة له عن غيره ، ولما كان الإسلام كما قلت هو الفاصل الوحيد الذى أثر وخاصة الجانب الروحى منه فى شعر الصعاليك ، لدلك بينت هذا التأثير فى مقارئة بين شعر الجاهليين والإسلاميين منهم * وبعد هذا فلست أزعم للناقد أن هذا البحث قد أغلق الباب على الباحثين فى الصعاليك وشعرهم ، بل على العكس أرجو أن يكون هذا البحث فتحا للباب فى الصعاليك وشعرهم ، بل على العكس أرجو أن يكون هذا البحث فتحا للباب فى المامهم ، وليس غلقا له ، فإن فى أشخاص الصعاليك من الصحفات المتميزة ، ومن المؤسم المامهم ، الم

ولست أشك في أن الدارس للصماليك وشعرهم يخرج من دراسته هذه ، بصورة تختلف اختلافا الآيكن كاملا فهو غير يسمير عن الصمورة التي كانت مرتسمة في ذهنه وذهن كثير غيره عنهم ، وما اظن هذا الدارس الا منتهيا الى اسف غير ضعيف على طائفة جنت عليها بيئتها ، وجنى عليها مجتمعها ، حيث دفعاها أو ساهما باكبر قسط في دفعها الى الشر دفعا ، ثم طمسا ما فيها من خير وفضل باغلاق السبل في وجهه أو تحويله الى شرور عاتية ،

وما أظن هذا الدارس الا موافقا لى على أن هذه الطائفة لو أتيح لها مجتمع

غير مجتمعها لكان لكثير من أفرادها شأن غير هذا الشأن ، ويكفى أن منهم من لو أفصفه الناس لعدوه من رواد الاشتراكية في التاريخ كله ، كعروة بن الورد ، ويكفى أيضا في خلقهم أنهم جميعا كانوا أعف الشسعراء لسانا ، سواء حين يرضون وحين يسخطون *

وما أطن هذا الدارس أيضا الا موافقا لى على ما هو أهم من ذلك لموضوع البحث ، وهو أن شعر الصعاليك الا يكن جيدا رائعا كله، فإن كثيرا منه وخاصة كثيرا من جاهليه يسمو إلى قمة في جودة الشماعرية والتصوير تنافس أسمى ما وصل اليه الشمعر العربي أن لم تجاوزه في بعض الأحيسان ، كما في لامية العرب ، وبعض شعر الهذلين ، وأن هذا الشعر أن يره البعض متخلفا يعض الشيء في بعض النواحي غير الموضوعية كعلم وفائه بكل الأغراض التي مطرقها الشعر العربي ، فقد تقدم على غيره في نواح أخرى كان فيها أتم من نضج غيره ، كالأسلوب القصصي ، والتمثيل الواقعي لحياة أصحابه وأشخاصهم وفي ختام هذا الحديث أقول : مع أن في المحاورة السابقة فيما أظن عونا أن أقول : أنه لم يكن في ذهني فاقد حقا حين لجأت الى هذه المحاورة ، ولكنني وجدتني أضيق بجفاف كثير من المقدمات ، فأشفقت على قارىء هذه المقدمة أن يحس نحو ما بالضيق الذي أحسه نحو كثير من المقدمات ، فلجأت الى هذه المحاورة ، ولمنا ما أن تخفف بعض ما قد يكون فيها من جغاف ، وقبل ذلك كله ، وبعده واجها ، أسال الله جل علمه التوفيق .

د • عبد الحليم حفني

الباب الأوك

الصعلكة

قال القساموس المحيط « صسعلكه أفقره ، · · والصسعلوك الفقير ، وتصعلكت الابل طرحت أوبارها ، وعروة الصبعاليك هو ابن الورد ، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه ، وصعلك الثربدة أذا جعسل لها رأسا ، والمصعلك من الأسنمة الذي كأنمسا حدرجت أعلاه حدرجة ، وقال الأصمعي في قول أبي دؤاد يصف خيلا :

قد تصعلكن في الربيع وقرع جله الفرائض الأقدام •

قال تصعلكن دققن وطار هفاؤها عنها ، والفريضة موضع قدم الفارس ، • • وصعلك البقل الابل أي سمنها • • » •

وفي هذا نرى أن المعنى المباشر للصعلكة هو الفقر ، وأنها في استعمالاتها الأخرى تدور أيضا حول الفقر ، أما بمعناه المباشر وهو التجرد ، فان الفقر في الانسان هو التجرد من الفنى ، وكذلك التصمطك في الابل بالتجرد من أو بارها وصعلكة الثربدة تجريدها من الضخامة ، وهكذا ، وأما بأثاره كالضمور والهزال مشل تصعلك الأسنمة باستدارتها وضمورها بالنسبة للأسنمة الأخرى المنبعجة والضخمة ومن هذا تصعلك الخيل في الربيع في البيت السابق ، كما أشار الاصمعى الى ذلك في شرحه للبيت السابق بقوله لا دققن ، وطار عفاؤها عنها ، وأما كون تصعلكها في الربيع فقصد يكون خلك لان الشاعر أراد اجهاد الخيل وارهاقها بركوبها والتنقل بها وراء الرزق ذلك قريرجي نموه في الربيع ، ويؤيد ذلك قوله « قرع جلد الفرائض الأقدام » والفريضة موضع قدم الفارس ، أي أن جلود الخيل من كثرة احتكاك الا قدام بها في الركوب ، وحثها على السرعة ، قد تقرعت ،

فيمكن اذن رد كل هذه الاستعمالات الى معنى الفقر أو آثاره من ضحمور

وهزال ونحو ذلك ، ولا يصطعم بهذا مثل قوله « وصعلك البقل الأبسل أى سمنها ، ومع ذلك يمكن حمله على آثار الفقر أيضا ، فقد يراد أن الابل حين تسمن تسلك مسلك الصعاليك سابلعنى العرفى للصعلكة سامن النفرود والهياج ، والصعلكة بهذا العرف تعتبر في أهم جوانبها أثرا من آثار الفقر .

وقال في لسان العرب و الصعلوك الفقير الذي لا مال له ، زاد الازهـــرى ولا اعتماد ، وتصعلك الرجل اذا كان كذلك ، قال حاتم :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكلا سقاناه بكاسيهما الدهر فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر

وتصعلكت الابل خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها ، ورجل مصعلك الرأس مدوره ورجل مصعلك الرأس صغيره ، وقال شمر : المصعلك من الاسنمة الذي كانما حدرجت أعلاه حدرجة كانما صعلكت أسفله بيدك ثم مطلتك صعدا أي رفعته على تلك الدملكة والاستدارة ، قال الأصمعي يصف خيلا :

قد تصعلكن في الربيع وقرع جلد الغرائض الأقدام قال : تصعلكن دققن وطار عفاؤها (١) عنها ٠

ومن هذا نرى أن صاحبى اللسان والقاموس متفقان على أن المعنى الأصل المسعلكة هو الفقر ، وأن استعمالاتها تدور أيضا حول التجرد الذى هو معسنى الفقر أو أثر من آثاره ، وأن صاحب اللسان تقدم عن المعنى اللغوى للصعلكة خطوة نحو المعنى العرفى لها بقوله « وزاد الأزهرى ولا اعتماد » فان قوله « ولا اعتماد » يعبر عن معنى دقيق فى مفهوم الصسعلكة بالمعنى المعروف لها ، وإذا كان الفقر من أهم الدوافع الى الصعلكة ، فإن ما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء أنهم رفضوا أن يعيشوا عالة على غيرهم أو أن يجعلوا من أحد من الناس عمادا لهم ، فى حين رضى بعض الفقراء لأنفسهم عيش الذل ، واستدرار الحسنات، ويعبر أحد الصعاليك وهو بكر بن النطاح عن هذا المعنى فيقول :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس بسال(٢)

وأما الجوهرى فيقول في الصحاح عن الصعلكة الصعلوك الفقير ٠٠٠٠ وصعاليك العرب ذؤبانها ، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنب كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم ممسل يغنمه ، والتصملك الفقر ، قال الشاعر ٠

⁽١) المقاء بكسر المين قال في القاموس هو الشمر الطويل الوافي ٠

⁽٢) حماسة ابي تمام بد ٢ ص ٩٣ .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى .

أى عشينا زمانا ، ويقال تصعلكت الابل أذا طرحت أوبارها ٠٠ وبهدا نجد أن الصحاح يتفق مع لسان العرب والقاموس المحيط (١) في أن المعدن الأصل هو الفقر ، وأن استعمالاتها تدور أيضا حول التجرد ٠

ولكننا نلاحظ أن الصحاح بقوله « وذؤبانها » قد تقدم نحو المدلول العرفى للصعلكة خطوة كانت أوسع من خطوة اللسان ، فقد أشار بدلك ألى أن الصعلكه تستعمل فيما تستعمل فيه كلمة « ذؤبان » وحين نذهب اليه اعنى الصحاح ، في شرحه لكلمة « ذؤبان » نراه يقول « وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون »، فقد صرح اذن في شرحه لكلمة « ذؤبان » أن الذؤبان هم الصعاليك، وأن الصعاليك ليسوا مجرد الفقراء ، وانها يتلصصون ، في حين أنه لم يذكر هذا المعنى صراحة في شرحه للفظ الصعلكة .

ومن العجيب أن المعاجم الأخرى شاركتالصحاح أيضا في أنها كانت أكثر توضيحا لمدلول الصعلكة الاجتماعي أو العرفي عند شرحها لمادة « ذأب » أمادة الصعلكة نفسها فقد اكتفت بالتركيز على معنى الفقر والاستعسالات التي تدور حوله وحول آثاره ولوازمه .

وكذلك فعلت معظم كتب الأدب واللغة ، فمع أننا نجدها تسوق أخبار الصعاليك على أنهم قطاع طرق أو فتاك أو لصوص نجدهم عندما يتعرضون لشرح كلمة صعلوك لا يكادون يتعدون الفقر أو التجرد من المال كما فعل المبرد(٢) والقالى (٣) ، وقليل من هذه الكتب ما يتحدث عن المعنى العرفى للصعلكة ، كما ورد فى جمهرة أشعار العرب حيث يقول « الصعلوك الفقير ، وهو أيضا المتجرد للفارات » (٤) ، وهو – فيما نعلم – أكمل تعريف أوردته الكتب لمعنى الصعلوك أو لشرح الصعلكة أما الكتب الأخرى فلا نملك الا أن نسمجل عليها شيئا عن قصور فى شرحها للصعلكة ، وكذلك دواثر المعارف التى أخذت عنها (٥) .

حيث اكتفى معظمها باعتبار أن الصعلكة هي الفقر أو التجرد من المال ٦١) وأورد بعضها زيادات وان كانت تشير الى المدلول العرفي (٧) ، الا أنهـالا تصــرح

١) مع مراعاة أن القاموس متأخر عن الصحاح وآخذ عنه كما في خطبة القاموس ٠

⁽۲) الكامل جـ ١ ص ٣١٠ ٠

⁽٣) الإمالي ج ٢ ص ٢٨٢ ٠

⁽٤) جمهرة أشعار العرب للقرش ص ١١٥ ٠

⁽٥) مثل دائرة معارف القرن العشرين ٠

⁽٦) كما نى القاموس مادة (صملك) والكامل جد ١ ص ٣١٠ والأمال جد ٢ ص ٢٨٢ - (٧) كما زاد في اللسان (ولا اعتماد) وفي السحاح (وصماليك العرب ذوبانها) وكلامها

به · مع انها جميعاً تتفق ولكن في مواضع أخرى غير موضع لفظ الصعلكة ، على السعملوك ليس هو مجرد الفقير ، فكتب اللغة (١) تشرح الصعلكة على انها اللصوصية والتذوّب ولكن في مادة أخرى - كما سياتى - هي مادة ذاب ، وكان أبل بها أن تسوّل ذلك في مادة الصعلكة نفسها ·

وكتب التراجم واللغة والأدب تصف أشخاصا بأنهم صعاليك ، وتسسوق أخبار صعدتهم على أنها لصوصية وغارات وفتك ونحو ذلك ولكن معظمها حين يشرح لغظ الصعلكة يعرفها أيضا بأنها الفقر والتجرد من المال (٢) دون أن يعرض لمعلولها العرفي الذي يتحدث عن الصعاليك به •

٢ - الصملكة والفاظ أخرى :

والواقع آن هناك ألفاظا أخرى تشارك الصعلكة في مدلولها ، ولا يسمى البحث في هذا الموضوع أن يتجاهلها ، لأن في تجاهلها أخلالا بجوائب من الموضوع نفسه ، وذلك أن موضوع البحث لا تعنيه الصعلكة بمدلولها اللغوى وهو الفقر، وأنما يعنيه مدلولها العرفي ، وهو اللصوصية وقطع الطريق ، وباقى أساليبهم العدوانية ، وهذا المدلول تؤديه أو تؤدى بعضه ألفاظ أخرى تعارفت كتب التاريخ والأدب العربي أن تصف بها هذه الطائفة التي نحن بطلدها ، دون تحمديد فاصل بينها ، بحيث نجد بعضها يتداخل فيؤدى معنى البعض الآخر ، كما فعلت معاجم اللغة في احالتها معنى التصعلك على التذؤب واللصوصية .

وهذه الألفاظ كثيرة ، وأشهرها ، لص ، وذئب ، وفاتك ، وخليم ،وشيطان وشاطر ، وبعض هذه الألفاظ ألصق بالصعلكة من يعض .

ومن الواضح أن أقرب هذه الالفاظ الى المدلول العرفى للصعلكة هو اللص، وذلك بحكم وضعه اللغوى ، وبحكم استعماله .

وقد لقيت كلمة و ذؤبان ، اهتماما في توضيح مدلولها العرفي أكثر من الاهتمام بغيرها ، ففي القاموس المحيط « ذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » وفي الصحاح و وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون » وفي اساس البلاغة و من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشطارهم » وفي لسان العسرب ويقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب ، وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم الذين يتلصصون ويتصعلكون» (٣) وهكذا تتفق كتباللغة مع الروايات

⁽۱) كالصحاح ولسان العرب والقاموس المحيط ، أنظر فيها مادة (صعلك) ومادة (ذاب) (۳) أنظر على سييل المقال الكامل للبرد ج ١ ص ٣١٠ وشرح التبريزي لحماسة ابي تمام ج ١ ص ١٥٩ والامالي للقالي ج ٢ ص ٢٨٢ .

⁽٢) أنظر مادة (ذاب) في الكتب السابقة .

الأدبية والأخبار على وصف الصعاليك بأنهم من ذؤبان العرب، وتتفق أيضــــا على أن لفظى ذؤبان وصعاليك يؤديان معنى واحدا يدور حول السطو واللصوصية.

وأما لفظ « فاتك » فقد تذيذب بين استعمالين ، استعمال في معنى السطو وقطع الطريق ، أى في معنى الصعلكة ، واستعمال عام يدور حول الجراةوالشجاعة وان كان فيه شيء من أساليب الصعاليك ، فأما الاستعمال الأول فقد ورد كشيرا في تراجم الصعاليك كأبي خراش (۱) ° وسعد بن ناشب (۲) ، وفي أخبار أخرى ، كما يروى الميداني عن فاتكين مجهولين يقول أحدهما للآخر « هل لك أن نتعاقد ألا نلقى أحدا من عشديرتك أو عشيرتى الاسسليناه ، قال : نعم ، فتعاقدا على ذلك ، وكلاها فاتك يحذر صاحبه ، فلقيا رجلا فسلباه ، النج »

وأما الاسنعمال الثانى وهو الجرأة والشجاعة ، فنجده فى كتب الماجسم يقول: القاموس المحيط » فاتك: جرىء شجاع ، وفتك به انتهز منه فرصة فقتله أو جرحه (٣) ٠٠ » ونلاحظ أنه يضيف الى الجرأة والشجاعة معنى آخر هو المفافلة والعيلة ، وهذا المعنى هو الذى يربط الفتك بالصعلكة ويجعلهما عند التطبيق فى وصف شخصى ما يلتقيان بحيث يؤدى أحدهما معنى الآخر ،وهذان المعنيان للفتك ، الجرأة والغيلة ساقهما الصحاح حيث يقول: « الفاتك : الجرئة والغيلة ساقهما الصحاح حيث يقول : « الفاتك : الجرىء والجمع فتاك ، والفتك أن يأتى الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليف فيقتله ، وفى الحديث (قيد الإيمان الفتك) (٤) .

وأما صاحب لسان العرب فقد أضاف الى المعنيين السابقين معنى آخر ، هو مضاء العزيمة وعلو الهمة مع الاستقلال بالرأى ، فنجده يقول « الفتك : ركوب ما هم من الأمور ودعت اليه النفس ، والفاتك : المجرىء الصدر ، وفاتك : جرىء وفتك بالرجل انتهز منه غرة فقتله أو جرحه ، وقيل هو القتل أو الجرح مجاهرة ، وكل من قتل رجلا غارا فهو فاتك ، ومنه الحديث أن رجلا أتى الزبير (بنالعوام) فقال له : ألا أقتل لكعليا ؟ قال فكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فقال سهمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قيد الايمان الفتك ، لا يفتك مؤمن ، قال أبو عبيد الفتك : أن يأتى الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتله أبو عبيد الفتك : أن يأتى الرجل صاحبه وهو غار غافل حتى يشد عليه فيقتله

⁽١) خزانة البغدادي ٢٩٩/١ وشرح حماسة أبي تمام ٢٩٦/١ ٠

⁽٢) الكامل للمبرد ١٢١/١٠.

⁽٢) أنطر مجمع الأمثال ٢/٣٠٠

⁽٤) مهذب الأغانى ١/٩٩ ٠

⁽٥) أنظر القاموس المحيط مادة (فتك) ٠

⁽۱) أنظر تاج اللغة وصحاح العربية للجوهرى مادة (فتك) وفى شرح حماسة أبى تعام للتبريزى جـ ١ ص ٢٣ (الفاتك الذى يفاجى عيره بالمكروه) وفى مجمع الأمثال جـ ٢ ص١٠٧ (الفتك يعنى الفيلة وهى القتل مكرا) ٠

وان لم يكن أعطاء أمانا قبل ذلك ، ولكن ينبغى له أن يعلمه ذلك قال المخبـــل السعدى :

واذ فتك النعمان بالناس محرما فمل من عوف بن كعب سلاسله وكان النعمان بعث الى بنى عوف بن كعب جيشا فى الشهر الحرام وهمم

وقال الفراء: الرجل يفتك بالرجل: يقتله مجاهرة ٠

وقال ابن شميل : تفتك فلان بامره : مضى عليه لا يؤامر احدا •

وقال أبو منصور: أصل الفتك في اللغة ما ذكر أبو عبيد، ثم جعـــلوا كل من هجم على الأمور العظام فاتكا قال خوات بن جبير .

على سمتها والفتك من فعلاتي (١) »

فنجد اللسان يحدد ثلاثة معان للفتك ، أحدها عام ، وهو الجرأة والشجاعة وهو وان كان من صفات الصعاليك الا أنه عام فيهم وفى غيرهم ، فالصلة فيه بين الفتك والصعلكة غير واضحة ، أما المعنيان الآخران وهما الغيلة واستقلال العزيمة فهما من شعارات الصعاليك وخصائصهم • لأن الغيلة وانتهاز الغفسلة من لوازم الصعاليك ، الذين يعتمد عيشهم وسلوكهم على السطو والغسارات واللموصية ، وكذلك استقلال العزيمة ومضاؤها من لوازمهم أيضا بحكم اعتماد حياتهم على دكوب المخاطر والتعرض للمهالك والتصدى الدائم لمجابهة الاعداء ، سواء كان هؤلاء الأعداء مهاجمين أو مدافعين ، ولذلك نجد هذا المعنى شائعا في شعر الصعاليك ، حيث يفخرون دائما بمضاء عزيمتهم واستقلالها ، وعسدم ركونهم الى المشورة أو التردد كما يقول سعد بن ناشب عن نفسه •

اخى غمرات لا يريد على الذى يهم به من منظع الامر صاحب الذا هم القى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانب ولم يستشر في دايه غير نفسه ولم يرض الاقائم السيف صاحبا(٢)

ويقول ني مرة أخرى :

اذا هم القي بين عينيسه عزمه وصمم تصميم السريجي ذي الأثر (٣)

وعمرو بن براقة يجعل لنفسه عالما وحده ، فانه حينما يوغل الليل في اللجي حتى يكفهر ، وحينما يوغل كل شيء في النوم حتى يصفو المجروب للبوم، يتحول هو الى قوة مقدمة حازمة فيقول :

⁽١) أنظر لسان العرب لابن منظور مادة (فتك) .

⁽۲) حماسة أبي تمام جد ١ ص ١٤ ٠

⁽٢) المعدد السابق جد ١ ص ٢٧١ والسريجي : السيف ٠ الأثر : قرند السيف ٠

اذا الليل أدجى واكفهس ظلامه وصاح من الأفسراط بوم جواثم ومال بأصحاب الكرى غالباتسه فانى على أمر الفسواية حاذم (١)

وهذان المعنيان هما الرابطة بين الفتك والصعلكة ، وهما اللذان جعسلا لفظ فاتك يطلق في أغلب حالاته مرادا به الصعلكة في معنساها العرفي من اللصوصية وقطع الطريق وما ينحو منحاهما •

ولكننا في حالات قليلة نجسد لفظ فاتك يوصف به أشخاص ليسسوا من الصعاليك مرادا به مجرد الجرأة والشسجاعة ، كمسا وصف عمرو بن كشوم بأنه فاتك ، مع أنه كان سيد تغلب غير منازع بل ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة (٢) بل يضربون به المثل في الفتك (٣) فالمراد في وصفه به مجرد الشبجاعة ، وضرب المثل به اشارة الى قصة فتكه بعمرو بن هند ، وكذلك ضربوا المثل في الفتك بأشخاص آخرين ، اشارة الى قصة مشهورة لكل منهم كان فيها المثل في الفتك بأن غلب عدم وان كان أغلب هذه القصص فيها طابع الغدر والغبلة الا أنها لا تكفي لجعلهم من الصعاليك ، وذلك كقولهم أفتك من البراض (بن قيس الكناني) وافتك من الجادف (بن حكيم السلمي) ، وافتك من الحارث بن ظالم (٤) ،

وبالاضافة الى ما سبق نستفيد من بحث هذا اللفظ ما يوحيه معنـــاه وفهم العرب له من معانى الخلسة والغيلة والمغافلة ، وأثر ذلك فى حياة الصعاليك وتاثر مجتمعاتهم به . .

خليع:

فى الصحاح « تخالع القوم اذا نقضوا الحلف بينهم ٠٠ وغلام خليـــع هو الذى خلعه أهله فان جنى لم يطلبوا بحنايته (٥) ، ٠

وفى لسان العرب « ١٠ وغلام خليع وهـــو الذى خلعه أهله فان جنى لم يطالبوا بجنايته ، والخولع الغلام الكثير الجنايات ، والخليع الرجـل يجنى الجنايات يؤخذ بها أولياؤه فيتبرون منه ومن جنايته ، ويقولون انا خلعنا فلانا فلا ناخذ أحدا بجناية تجنى عليه ، ولا نؤاخذ بجناياته التى يجنيها ، وكان يسمى في الجاهلية الخليع ، وفي الحديث » وقد كانت هــذيل خلعوا خليعا لهم في الجاهلية « قال ابن الأثر كانوا يتعاهدون ويتعاقدون على النصرة والاعانة ، وأن

⁽۱) الأمالي جد ٢ ص ١١٩ وفي مهذب الخضري لأغاني الأصفهاني جد ١ من ٩٢ مع اختلاف في بعض الأافاط ٠

⁽٢) خزالة الأدب للبغدادي جـ ٢ من ٣٢٨ ومهذب الحضري الأغاني الأصفهاني جـ ١ ص ١٩٣

⁽٣) مجمع الأمثال جد ٢ ص ٧٨ الي ص ٩٠٠

⁽٤) المصدر السابق جد ٢ ص ٧٨ الي ص ٩٠٠

⁽٥) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري مادة (خلع) ٠

يؤخذ كل واحد منهم بالآخر فاذا أرادوا أن يتبرءوا من انسان قد حالفوه أظهروا فلك للناس وسموا ذلك الفعل خلما ، والمتبرأ منه خليع أى مخلوع ، فلا يؤخذون بجنايته ، ولا يؤخذ بجنايتهم فكانهم خلموا اليمين التى كانوا لبسوها معه »(١)

وقال نى القاموس المحيط و ٠٠٠ وكان نى الجاهلية اذا قال قائل هذا ابتى قد خلعته كان لا يؤخذ بعد بجريرته وهو خليع ومخلوع ٠٠ والخلعاء جماعتهم ، وبطن من بنى عامر بن صعصعة كانوا لا يعطون احسدا طاعة ٠٠٠ والخصولع المقامر للجسدود الذى يقبر أبدا ، والغسلام الكثير الجنسايات كالخليم ٠٠٠ » (٢) ٠

فالصحاح ساق قما يتعلق بموضوعنا معنيين يشيران الى بعض التقاليد العربية ، التي وضحها اللسان والقاموس ، فمن تقاليدهم الاحلاف ، سسواء كانت بين فرد وجماعة أم بين جماعتين ، فيمكن لشخص في أى ظرف من الظروف التي تحتاج عونا ومبندا أن يلجأ الى غيره يطلب جواره وحماه ، ويسعى ذلك جولرا أو حلفا ، كما يمكن أيضا لجماعة أو قبيلة أن تحالف خرى ، فاذا احتاج للجير أو الحليف الى التخلى عن جواره أو حلفه فعليه أن يعلن ذلك للناس ، كما أن الحلف والجوار في عقدهما يستلزمان ذلك حتى يأخذ الجار أو الحليف كل حقوق جاره أو حليفه ، يعلن المجير للناس أنني أجررت فلانا . فيصبح كل حقوق جاره أو حليفه ، يعلن المجير ، ويعلنون أيضا أننا حالفنا بني فلان ، العلوان على البجار ، عدوانا على المجير ، ويعلنون أيضا أننا حالفنا بني فلان ، فيصبح العدوان على حلفائهم عدوانا عليهم ، وعندما يحتاجون الى قض الحلف في حل من حلفائهم ، ويسمى فض الحلف بين الجماعات نقضا كما يسمى تخالها ، والى هذا قصد الصحاح ، أما بالنسبة للفرد فيسمى خلعا ، ويسمى للتقوض عهده خليها ،

وهنائى عادة تعنينا للموضوع أكثر من غيرها ، وهى خلع القبائل لبعض أبنائها ، وذلك ــ كما اتفقت كتب اللغة ــ فى حالة واحدة ، هى أن تكثر جنايات شخص بحيث يصبح عبئا تقيلا على قومه ، لأن الجنايات كان يترتب عليهـــا أحد أمرين ، أما الانتقام بالسيف ، وذلك أذا كانت الجماعة المعتدى عليها ذات عزة وقوة ، فتأبى الا أن تنتقم بالسيف ، وأما المطالبة بالدية وذلك فى الأحوال المادية ، وكلا الأمرين ، الانتقام والدية مرهق ثقيل ، فحينما تتكرر حوادث شخص وجناياته بحيث يصبح ضره لأهله أكثر من نفعه ، وعند ما يرونه عبنا لا تطيقه حياتهم يتبرون منه ومن جناياته ، فلا يطالبون أحدا ولا يطالبهم أحد

⁽١) أسان العرب لابن منظور مادة (خلع) •

⁽٢) القاموس للحيط للغير وزايادي مادة (خلع) .

بجناية جناها أو جنيت عليه ، ولكن بشرط أن يكون التبرؤ علنيا مشهورا بحيث يبلغ الجماعات الأخرى وكان ذلك يتم غالبا في الاسهواق لانها كانت تجمع أناسا من مختلف القبائل والانحاء ، ولكن المعنى الذي يهمنا في ههذا الموضوع ، والذي ينبغي أن نقف عنده هو اجماعهم _ كما رأينا _ على أن هناك سببا معينا من أجله وحده تخلع القبيلة أحد أبنائها وتتبرأ منه ، هذا السبب هو كثرة جنايات هذا الفرد (۱) وبالتالي نتساءل : ومن الذي تكثر جناياته ؟ لا شك أنه شنخص فرغ حياته لارتكاب الجنايات ومزاولة الأعمال التي تترتب عليهها الجنايات ، وهذه الصفة لا تتحقق الا في شخص يتخذ من ههذه الحياة مهنة أو عيشا دائما له ، وحيئذ لا تجد طائفة تنطبق عليها هذه الصفة الا الصعاليك الذين عرفهم صاحب جمهرة أشعار العرب بغوله « الصعلوك : الفقير ، وههو

ولذلك نجد معظم الصعاليك موصوفين بهذا الوصف كابى الطمحان القينى ، وقيس بن منقذ بن الحدادية ، وصخر الغى الهذل (٣) والأحيس السعدى (٤) •

والذين بم يوصفوا بهذا الوصف من الصعاليك نعتقد أن السبب في عدم خلعهم ظروف خاصة تتعلق بارتباطهم بأقوامهم ، كالشنفرى الذى لم يرتبط بقومه لأن بنى شبابة بن فهم أسروه منذ صغره فعاش فيهم ثم فى بنى سلامان ابن مفرج بعد قصة المفاداة به (٥) فلم تكن بقومه حاجة الى أن يخلعوه لأنب بعيد عنهم ولا يطالبهم أحد بجناياته ، وكعروة بن الورد الذى لم بخلعه قومه لأنه كان مصدر نفع وقوة لهم ، بل كان من معالم مجدهم التى ظلوا يتناقلونها أجيالا ، كما فى أحاديثهم عنه الى عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سهيان ،

وهناك ألفاظ أخرى كشيطان وشماط وعبار تدور في فلك الألفاط السابقة لم نر ما يدعو الى الاطالة بالحديث فيها ·

⁽١) يراعى ما ذكره القاموس من تسمية بنى عامر بن صمصمة خلما الأنهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة وأهمية ذلك في الصلة بين الخلم والهمملكة •

⁽٢) جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ١١٥٠٠

⁽٣) أنظر على سبيل المثال تراجم مؤلاء بالأغاني للاصبهائي ٢٦/١، ٩٩ ، ١٨٥/٢ .

⁽٤) المقد الغريد جد ٣ ص ٢٩٠ •

 ⁽٥) شرح المفضليات عن ابن الابناری ج ۱ ص ۱۰۸ و تاريخ الأدب العربی لکارل بروکلمان
 ج ۱ ص ۱۰۶ ومهذب الأغانی ۱/۹۵ ـ ۹۹ -

 ⁽٦) أنظر هامش الاصعيات ص ٣٥ والتنبية على أوهام القالى للبكرى ص ١٠٠٠ ومهذب
 الأغانى ٢٣/٢٠٠٠

ونخرج من هذا الحديث اللغوى بأن لدى العرب الفساطا يكهل مدلول بعضها مدلول البعض الآخر ، وأنها وان اختلفت مدلولاتها من لصوصية أو فتك أو غارة أو نحوهن الا انها تنتهى الى سلوك معين ، هذا السسلوك يتميز بانه سلوك « عدوانى » مهما اختلفت صوره وأساليبه ، ويتميز أيضا بأنه سسلوك دائم بالنسبة لصاحبه ، بمعنى أنه لا يمثل حادثا أو حوادث محدودة ، وانما يمثل السلوك الدائم الذى يبلغ درجة الوصف ، بحيث يحقق صفة دائمة يوصف بها صاحب هذا السلوك ، ونخرج أيضا بأن هذه الالفساط أصبح عنوانها « الصعلكة » وأنها حين تطلق ، فالمجال الطبعى لها هو مجال الصعاليك ،

على أن أهم ما نستفيده من اختلاف هذه الألفاظ ، هو تنوع أساليب الصعلكة ، حيث يدل كل لفظ منها على أسلوب معين في مزاولة صاحبه لسلوكه العدواني ، فنخرج منها بأن للصعلكة أساليب متنوعة في مزاولتها ، وأن الروايات حيثما تنسب لفظا منها الى أحد الصعاليك في ترجمته ، فانها تعنى أسلوبه وطريقته التي عرف بها في الصعلكة ، وهذا لا يعنع أن يكون للصعلوك الواحد أكثر من طريقة ، حينها ينسب اليه أكثر من لفظ من هذه الألفاظ في ترجمته وأخباره .

الصعلكة في العرف العربي :

انتهينا في الحديث السابق الى أن رجال اللغة قاربوا بين مدلول عدة الفاظ كصعلوك وذئب وخليع وفاتك ولص ، وجعلوها في جملتها تنتهى الى غاية واحدة ، هي التعبير عن « سلوك عدواني » وأن هذه الألفاظ تعتبر صورا وأساليب لهذا السلوك ، فأحيانا يكون لصبوصية ويسمى صاحبه لصل ، وأحيانا يكون تذوبا أى فيه خلق الذئب ويسمى صاحبه ذئبا ، وأحيالا يكون فتكا فيه طابع المفارة والغيلة ، ويسمى فاعله فاتكا ، وما الى ذلك ، وأن هذه الأساليب تدخل في مفهوم الصعلكة ، كما رأينا في المعاجم السابقة مثل قولهم « ذؤبان العرب صعاليكها الذين يتلصصون (١) » فهاذا التعبير يتضمن ثلاثة ألفاظ هي ذئب ، وصعلوك ، ولص ، وقد جعلها كلها مجتمعة تؤدي معنى واحدا هو الصعلكة بالمعنى العرفي الذي هو موضوع هذا الحديث ، فالصعلكة اذن عند اللغويين يمكن أن تكون مجموع الصغات التي تؤديها هذه الألفاظ الأخرى كذئب وفاتك وخليع ولص ، كما يفهم من شرحهم لتلك الألفاظ عامة ، وكها

وقلنا هناك أن اللغويين اهتموا بشرح الصعلكة في مواد أخرى غير مادتها ، أما في مادة (الصعلكة) نفسها فقد اهتموا ببيان أصلها وهو الفقر ،

⁽١) الصحاح للجوهري بادة ذاب ٠

وقصروا في بيان مدلولها العرفي ، وهو السلوك العدواني المستمر في صوره المختلفة .

وتريد هنا أن تعرض للصعلكة لنرى موضعها من الاستعبال والعسرف العربي فتقول:

المر أما الاستعمال العربي سيواء في الجاهلية والاسلام ، فنجده يغاب عليه ديط الصعلكة بمداول آخر غير الفقر أو مع الفقر .

فحينما يتحدثون عن الصماليك يتحدثون عنهم على أنهم فئة خاصة تتميز عن المجتمع بطابع خاص ، شعاره الاعتداد بالنفس دون الأهسل أو القبيلة ، ووسيلته العدوان في أى صورة تتهيأ له ، فيقطع الطريق حينما يتاح له قطعها ، ويسطو ويغزو متى وجد الى ذلك سبيلا ، ويغتك حينما تمكنه الغرة ،ويتلصص ان لم يجد الى ما سبق وسيلة ، ويجعل غايته من ذلك كله الحصول على الغنى والمال في أغلب الأحيان أو تحقيق مآرب خاصة دائما ،

ولنسق بعض الأمثلة استشهادا على ذلك ٠

ففي قصة النعمان بن المنذر حينما رفض أن يزوج كسرى قائلا لرسول كسرى « أما كان في عين السواد وفارس ما يغنيه عن بناتنا ؟ » فغضب عليه كسرى ، مما اضحطر النعمان الى أن يستجير بالقبائل حتى نزل سرا في بني شيبان عند هانى، بن قبيصة ، ثم قال له هانىء « عندى رأى لست أشير به لأدفعك عما تريد من مجاورتى ، ولكنه الصواب ، فقال : هاته ، قال : ان كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه الا أن يكون بعد الملك سوقة ، والموت نازل بكل أحد ، ولأن تموت كريما خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك ، أمض الى صاحبك واحمل عليه هدايا ومالا ، وألق نفسك بين يديه ، فاما أن يصفح عنك فعدت ملكا عزيزا ، واما أن يصيبك ، فالموت خير من أن تتلعب بك صعاليك العرب ، ويختطفك ذئابها (١) » .

فليس من المعقول أن يكوئ هاني، بن قبيصة قصد بالصعاليك مجرد الفقراء ، فان الفقراء ليسوا مصدر خطر يخوف به أو منه الناس ، وانها المعقول أن يكون هاني، خوف النعمان من قطاع الطرق ومحترفي الغارات الذين يمكن أن ينالوه في مخبئه أو أثناء تنقله بين القبائل ، كلما انكشف نزوله لدى قبيلة التقل إلى غيرها ، فمدلول الصعلكة في هذه القصة غير الفقر ،

وفي قصة مقتل المتنبى يقول فاتك الأسدى للمتنبى قبل رحلته ألتي قتل

⁽١) خزانة الأدب للبغدادي جد ١ ص ٢٦١٠

فيها د والطريق بينك وبين دير قنة خشن قد احتوشته الصمالكة ، وبنو أسد يسيرون في خدمتك الى آن تقطع هدف المسافة ، فيقول المتنبى : ما أبقى الله بيدى هذا الأدهم وذباب الجراز الذي آنا متقلده فانى لا أفكر في مخلوق (١) ولكن تشاء الظروف ان يكون مقتل المتنبى على يد هؤلاء الصعاليك الذين خوقه منهم فاتك .

رمن الواضح أن مدلول الصعلكة هنا قطع الطريق وليس الفقر · والقصة الأولى كانت في الجاهلية ، والثانية في الاسلام ·

ونجد الشعر ، وخاصة شعر الصعاليك أكثر توضيحا لهذه الحقيقة ، مع مراعاة أن الشعراء ليسوا الا جزءا من مجتمعهم ، يتحدثون بلغته ، ويصدوون عن معارفه وأعرافه ، فهذا الشاعر الجاهلي عمرو بن براقة وهو أحد الصعاليك يفسر لنا الصعلكة في حواد مع أمرأة *

يبين فيه أنه هو والمرأة يعرفان أن الصعاليك طراز آخر غير الفقراء ، وذلك في قصة غارة أغارها. انتقاما لغارة أغير عليه بها ، فيقول عن المرأة التي أرادت أن تنبطه عن الغزو بأنه لم يبلغ مبلغ الصعاليك في جرائهم واقدامهم ودكويهم المخساطر .

يقسىول :

تقول سليمي لا تعسرض لتلفة وليلك عن ليسل الصعاليك نائم

وقد رد عليها منكرا تجاهلها أنه صعلوك ، وتجاهلها صفاته باعتباره فردا من الصعاليك فيقول لها ٠

حسام كلون الملح أبيض مساوم قليسل أذا نام الخسل السالم وصاح من الافسراط بوم جواثم (٢)

وكيف ينام الليسل من جل ماله الم تعلمى أن المسماليك نومهسم اذا الليسل أدجى وأسجهرت نجومه

فالضملكة منا أيضا ليست هي الفقر •

كذلك حين نتتبع أخبار الصحاليك المنبثة والمتفرقة في مراجع ألأدب والتاريخ العربي نجدها جميعا تحصرهم في صفتين ، اللصوصية وقطع الطريق

⁽۱) خزائة الأدب للبغدادى ج ۲ ص ۱۹۷ وانظر معجم ما استعجم للبكرى ج ۲ ص ۳۰۰ عن استعجم البكرى ج ۲ ص ۳۰۰ عن استعجال خليع وفاتك ليفير بهم على ينه لحيان و وانظر شرح التبريزى لحباسة ابى تمام ج ۱ ص ۲۰۰ عن استعمال المحملكة في الجاهلية ، سيك يقول خفاف بن ندبة عن عباس بن مرداس ذاما اياه اله (يكالب المحماليك على الأسلاب) وهو صريح في أن المقصود بالصملكة أساليب السلب والغزو و

⁽٢) الأمال للقال ب ٢ ص ١١٩ ٠ واسجهرت نجومه : ابعضت كناية عن توغل الليل -

يما يمكن أن تحتوى عليه هاتان الصفتان من أحداث السيطو والإغارة والفتك والسلب وما الى ذلك بما لا يدع مجالا للشك فى أن الصعلكة أخذت فى العرف والاستعمال العربي صورة غير صورة أصلها اللغوى وهو الفقر ، وأن هيذه الصورة ليست حديثة فى العرف العربى ، وأنها هى قديمة قدم التاريخ العربى ، قان بعض الصعاليك الذين تحدثوا عن الصعلكة بهذه الصورة ، وتحدث عنهم العرب بهذه الصورة أيضا كأنوا فى فجر التاريخ العربى كالشنفرى وابن براقة والسليك .

ولكن من الحق أن نقول ان لفظ الصعلكة استعمل أحيانا في أصله اللغوى وهو الفقر كما يقول حاتم:

حيينا زمانا بالتصعلك والغنى فكلا سقانا بكاسيهما اللهر (١)

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يستغتم بصعاليك للهاجرين (٢) قال صاحب الأمالى « قال أبو عبيدة معناه يستنصر ، والصعلوك: الفقير في كلام العرب » •

وقد يبدو في ظاهر الأمر أن ذلك يعود بالكلمة إلى الغموض والذبذبة في المدلول من حيث استعمالها مرة في الفقر ، ومسرة في اللصوصية وقطم الطمريق .

ولكن الواقع أنه لا غرابة فى ذلك ، حيث يمكن اعتبار لفظ الصعلكة من الكلمات التى نقلت من الأصل اللغوى الى مدلول عرفى أو اصطلاحى ، أو غلبة فى الاستعمال ، كما نقل لفظ الحج من الأصل اللغوى وهو القصد الى حج بيت الله الحرام وغلب استعماله فيه ، وكما نقل لفظ الزكاة من الأصل اللغوى وهو الطهارة الى الصدقة المفروضة فى الاسلام على الأموال .

فمثل هذا النوع من الألفاظ ينتقل به العرف أو الاصطلاح الى مدلول جديد غير مدلوله اللغوى مع وجود رابطة بين المدلولين ، أو اشتراك في ناحية أساسية بينهما في المعنى م

ومما هو معروف أن المدلول الجديد للفظ لا يمنع استعماله في معنها الأصلى ، فاستعمال العج مثلا في القصد الى الكعبة بالوصف المحدد لذلك ، لا يمنع من استعمال لفظ الحج في معناه الأصلى وهو القصد الى أي شيء •

وهذا يفسر استعمال الصعلكة في المدلولين ، الأصلى والعرفي ، فقد نقلها

⁽۱) الأمالي للقالي جد ٢ ص ٢٨٣ وقد شرحه القالي بقوله يعنى بالفقر والغنى والبيت في المسلحاح ولسان العرب مادة صعلك ٠

⁽٢) الأمالي للقالي ب ٢ ص ٢٨٢ ٠

العرف من المعنى الأصلى وهو الفقر الى مدلول آخر هو العدوان غير المشروع في صورة اللصوصبه أو قطع الطريق وهذا المداول الجديد لا يمنع من استعمالها في معناها الأصلى وهو الفقر كما وردت فعلا فيما أشرنا اليه •

وهذا أيضا تفسير لما نجده من استعمال بعض الشعراء للفظ الصعلكة في المعنيين في قصيدة واحدة ، فهذا عروة بن الورد العبسي يقسارن بين النوعين ، الصعلوك الفقير ، الذي رضى لنفسه عيش الخمول والمسكنة ، متسقطا حسنات الناس وأفضالهم • مهينا نفسه بالذل والحاجة الى الناس ، والصعلوك المتحرك المتحفز ، الذي يضع نفسه نوق الناس ، فارضا رهبته وبأسه عليهم ، وتجه عروة لاثما النوع الأول أشهد اللوم ، راضيا عن الثاني أشه الرضي فيقول عن الأول :

غي الله صمعلوكا اذا جبن ليله مضى في الشاش آلفا كل مجرز (١) يعبد الغنى من دهسره كسل ليسلة اصاب قراها من صديق ميسر (٢) قليل التماس المال الا لنفسيه ينام عشهاء ثم يصبح قاعهدا

ويقول عن النوع الثاني مقارنا بينهما :

والله مستعلوك مستفيحة وجهسه وان بعسدو الا يامنسون اقتسرابه فدلك أن يلق المنيسة يلقهسا

اذا هو أضمعي كالعريش المجمور (٣) يحث الحمى عن جنبه المتعفسر

كفسوء شهاب القابس المتنور (٤) مطالا عسل اعسدانه يزجرونه بساحتهم زجسر النيح الشسهر (٢) تشوف أهــل الغائب المتنظر (٦) حميدا ، وان يستغن يوما فاجدر (٧)

فقد استعمل لفظ صعلوك في النوع الأول في مداوله اللغوي البحت ، وهو الفقير المجرد من المال ، واستعمله في النوع الثاني في الدلالة العسرفية

 ⁽١) لحى : لعن • المشاش : رءوس المظام الليئة التي تمضم • مجرر : مكان الجرر • أى يجمع العظام اللينة مكان الدبائع ليقتات بها ، من باب المبالغة الساخرة وفي رواية الأغاني مسافى من الصافاة بمعنى الاصطفاء .

 ⁽٢) يغنى غاية ما يتمناه أن يتأخسل عليه صديق أو محسن بأكلة •

⁽٣) العريش : خيمة من خشب أو جريد ٠ المُجود : الساقط ٠

⁽٤) صفيحة وجهه : بشرته · القابس : الذي يقبس النار · المتنور الشيء

⁽a) مطلا : مشرفا على أعداله يهددهم بالفرو والسطو · المنيم : اشارة الى نوع من الأقدام كاتوا يشربونها • الشبهر : الشبهور •

الماثب المرتقب السطو منه يشغلهم شغل الأمل بسودة الغاثب المرتقب الاوية •

⁽٧) الاصمعيات ص ٣٥ وديوان الحماسة جد ١ ص ١٥٩ مع اختلاف يسير في الألفاط ومهلب الأغاني ٢٣/٢ وفي معاهد التنصيص للعباسي جد ٣ ص ١٢١ ٠ البيت الأول (لحي الله معلوكا ٠٠) لعروة والتصيدة منها عشرة أبيات في الكامل ج ١ ص ٧٨ م الاستقامة ٠

للفظ ، وهي الشخص المتحفز دائميا للسطو والعدوان وذلك في فصسيدة واحسدة

وكذلك فعل السليك بن السلكة ، فقد استعمل اللفظين في قصيدة واحدة، احدهما في المدلول اللغوي ، والآخر في المدلول العرفي فيقول مخاطبا امرأة : فسلا تصسلي بصسعلوك نؤوم اذا أمسى يعسد من العيسال ولكن كسل صمعلوك ضمروب بنصل السيف هامات الرجال (١)

ولكن الذي يلفت النظر أننا اذا تجاوزنا المعاجم التي تهتم بشرح المغردات كلسان العرب والقاموس المحيط ، الى الكتب التي تهتم بالأدب والأدباء كخزانة الأدب للبغدادي والامالي للقالي والأغاني للاصبهاني والكامل للمبرد نجد أن أكثر هذه الكتب أيضًا تقتصر في شرحها للصعاوك على أنه الفقير أو الذي لامال له (٢) ، مع أنها في الوقت نفسه تسوق أخبار هذا الصعلوك على أنه من قطاع الطرق واللصوص والفتاك ، دون أن تشير في شرح لفظ الصعلوك الى هذا المعنى ولعلها في ذلك تلتزم دقة النقل عن الماجم •

- وحين ناتي الى مناقشة المعاجم في شرحها للفظ صعلوك ، وكيف أن معظمها اقتصر على الأصـــل اللغوى وهو الفقر ، دون اشــــارة الى المعنى العرفى وهو اللصوصية وقطع الطريق •

نستطيع أن تعلل ذلك بأن الفقر الذي كان من أبرز الدوافع للصـ عاليك في سلوكهم مسلكهم المعروف ، والذي لازمهم حتى بعد سلوكهم هذا المسلك حتى أصبح طابعا ظاهرا في حياتهم وفي أشعارهم هو الذي جعل معظم كتب المعاجم تكتفي في شرحها للصعلكة بأنها الفقر •

وكون الفقر من أبرز دوافع الصعاليك الى الصعلكة ، وكونه من أبرز المعانى التي دار حولها شعرهم حقيقة لا مراء فيها ، كما سبق من وصف ابن براقة لنفسه بأنه « جل ما له حسام ، وكما يبين السليك سبب تصعلكه في قوله ٠

اشساب الراس أنى كسل يسوم أدى لى خسالة وسسط الرحسال يشــق عـــلى أن يلقين ضـيما ويعجــز عــن تخلصهــن مــالى

فقد جعل سبب تصعلكه أمرين ، أحدهما تعرضه لفارات صعاليك ومغيرين آخرين يسبون حرماته وحرمات أهله ، فهو يريد أن ينشىء قوة يرد بها عنه وعن أهله هذا العدوان ، والأمر الآخر هو فقره وعجـــزه عن فداء الأسيرات منهـــم بيسال ٠

⁽١) الكامل للمبرد جد ١ ص ٣١٠ م الاستقامة ٠

⁽٦) على سبيل المثال الكامل للمبرد جدا ص ٣١٠ م الاستقامة ، والأمالي جدا ص ٢٦٢ في وصف عروة والأمائي بد ٢ ص ٢٨٢ ٠

⁽٥) الكامل للمبرد جد ١ ص ٣١٠٠

والشنفرى يتفنن فى تصوير فقره بل حرمانه فى أبلغ صدور الحرمان والشنفرى يتفنن فى تصوير فقره بل حرمانه فى أبلغ صدور الحرمان والشدما تأثيرا فى النفس فهو يتحدث عن الجوع ، فيقول انه أصبح اليفا له حتى أنه امتدى لل طريقة يعالجه بها هى تجاهله وعدم المسالاة به ، وهى نوع من الرياضة الروحية والنفسية تزاول فى كثير من أنحاء العالم اليوم وخاصة فى الهند المتدى اليها الشنفرى عن جوعه وعن الهند المتدى اليها الشنفرى عن جوعه وعن المتناطة بعزته وكرامته مع هذا الجوع .

الديم ملسال الجسوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (١) وأستف ترب الأرض كي لا يسرى له عسلي من الطسول امرؤ متطول (٢)

ويرسم الشنفرى أيضا صورة من صور الجوع والحرمان القاسيين ، وطيه المعلم على جوع شديد ، وعيشه على القوت الزهيد فيقول :

وأطوى على الخبص الموايا كما انطوت خيسوطة مارى تفار وتفتل (٣) وأعو على القوت الزهيد كما غدا ازل تهاداه التنسائف اطحسل (٤)

وهكذا تكاد لا تجد شعرا لصعلوك يخلو من الحديث عن الفقر والحاجة ،ولعل منا ما جعل اكثر كتب اللغة تكتفى فى شرحها للفظ صعلوك بأنه الفقير ، على الحديار أن الصعاليك مهما يكن مسلكهم فهم فقراء ،

ولكن هذا إلى غيره ان يكن نوعا من الاعتذار والتبرير عن كتب اللفسة فاته لا يعفيها من توجيه تهمة التقصير في ادائها لمدلول هذا اللفظ، فان استعمال الصملكة في اساليب العدوان بصوره المختلفة أمر مشهور سواء في الجاهليسة والاسلام كما مثلنا له من الروايات ومن الشمر ، وكتب اللغة نفسها لا تجهسل ذلك ولا تنكره ، بل ترويه فيما تروى ، وعلى سبيل المثال فان لسان العرب من الكتب التي أوردت شعرا كثيرا للصماليك في سياق شرحه للالفاظ ، حيث حفل شعرهم ، وخاصة الجاهلي منه بذخيرة واسعة من الالفاظ القليلة التداول والتي تحتاج لل تفسير .

⁽۱) الأمالى للقال جد ٣ ص ٢٠٦ · مطال : من المماطلة · أشرب عنه : أعرض · ذهل عن الثبيء نسيه ·

العلول : الن ٠

 ⁽٣) الخمص : المجوع • المحوايا : الامعاء • الخيوطة : السلوك والخيوط • مارى رجل مضهور بالتحل وتفار : تحكم •

 ⁽٤) أَذِل : الذَّاب - التناقف : المفاوز - أطحل : أغير اللون - والأبنات من اللامية - المستد السابق وشرح الألفاظ عن أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخفري -

وقد بلغ من شهرة الصعاليك بسلوكهم المذكور، أنه يكفى فى ذكر شخص، أو الترجمة لشاعر أن يوصف بأنه صعلوك فيعرف أنه من اللصوص وقطاع الطرق كما ورد فى الأغانى وخزانة البغدادى وغيرهما •

ومع أن كتب اللغة لا تجهل ذلك ولا تنكره ، فأن معظمها لم يشر في تفسيره لهذا اللغظ ألى ذلك أو حتى الى أنه يستعمل أحيانا في هذا المعنى ، أو أن هناك طائفة من الفقراء أو الصعاليك اشتهروا بهذا السلوك ، بل الأكثر غرابة أنها تاتى بلغظ الصعلكة في سياق اللصوصية وقطع الطريق ، ولكن في مادة أخرى غير مادتها ، كما فعل القاموس المحيط في مادة (الذئب) حيث يقول و وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم « أما في مادة ، صحيعلك ، فأنه يقول « والصعلوك كعصفور الفقير ، وتصيعلك افتقر « فلم يذكر عن المدلول العرفي للصعلكة شيئا ، مع أنه أتى بها في سياق هذا المدلول في مادة أخرى كما سبق ، ومع أن القاموس تحدث في مواضع مختلفة عن الصعاليك ، كحديث عن تابط شرا في مادة (غال) وعنه وعن الشنفرى في مادة (غرب) وأن كان حديث عنهما غير دقيق ، كعنه أياهما من الاسلاميين ، مع أن الرواة لا يختلفون في أنهما حاهليان ، وكحديثه عن فرس حاجز بن عوف الازدى في مادة « ذاب » وعن فرس السليك بن السلكة في مادة « نحم » ، وكذلك فعل لسان العسرب كما سبق .

وقد كانت كتب اللغة أكثر توضيحا لهذا المدلول في الفاظ أخرى نحسير لفظ الصعلكة ، كالذوبان ·

ع ـ من الصعلوك ؟

الاجابة عن عدا السؤال في غيباية الأهمية لكل بحث أو حديث عن الصعاليك ، لأن الحديث عن الصعاليك عبني أساسا على تحديد : من الصعاليك ؟

أ _ مفهوم الصحلكة :

على الرغم من فهم المجتمع لطبيعة طائفة الصماليك وسلوكهم ، وحديث علمه في الرغم واضبع ، وعلى الرغم أيضا من فهم علماء اللغة القدامي لذلك ، فقد

رأينا في تعريفهم للصعلكة قصورا وشيئا من ميوعة أتاح المجال لذبذبة الفهسوم وخضوعه للاستنتاج ، فقد كانت هناك جوانب موضع اتفاق بينهسم ، حول الألفاظ التي تدور في فلك الصعلكة ، وكانت هناك جوانب أخرى لم تبلغ هذه الدرجه ، ونستطيع أن نجمل هذه الجوانب فيما يأتي :

العرفى ، حيث جعلوها تدور فى أنها مترادفة فى أدائها لفهوم الصعلكة العرفى ، حيث جعلوها تدور فى قلك واحد ، وأحالوا بعضها على بعض كما رأينا فى أحاديث كتب المعاجم ، فحينما يتكلمون عن الصعاليك يقولون أنهم ذؤبان العرب ، من هم ؟ فيقولون : أنهم صعاليك العرب ، ومن صعاليك العرب ؟ فيقولون : هم الذين يتلصصون ، أو هم لصوص العرب ، ولم يرد قط فيما نعلم أنهم اختلفوا فى هسذه المدلولان .

واذن فلا شك في آن الوصف بكلية « لص » أو بكلية « ذئب » يساوى تماما الوصف بكلية « صعلوك » من حيث الاستعمال العربي أعنى بصرف النظر عن الأصل اللغوى الذى أخذت منه كل هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا في أن الصعاليك واللصيوص والذؤبان – من حيث المفهوم العرفي لسلوكهم – طائفة واحدة ، وأن اختلاف هذه الألفاظ لا يعني شيئيا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة في أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذى أخذت منه كل من هذه الألفاظ ، واذن فلا شك أيضا في أن الصيعاليك واللصوص والذؤبان – من حيث المفهوم العرفي لسلوكهم – طائفة واحدة ، وأن اختلاف عذه الألفاظ لا يعني شيئا ، اللهم الا اختلاف أفراد الطائفة واحدة ، في أساليبهم وطريقة مزاولتهم للمعنى الذي يجمعهم وهو الصعلكة ، بعني أن بعضهم يفعل ما يشبه أفعال الذئاب ، ولكنه من الطائفة نفسها ، وبعضهم يفعل أفعال اللصوص ، ولكنه أيضا من الطائفة ، والبعض الآخر كأصحاب يفعل أفعال اللصوص ، ولكنه أيضا من الطائفة ، والبعض الآخر كأصحاب الفارات ، هو كذلك من الطائفة ، ولكن الطائفة كلها غلب عليها لقب «الصعاليك » +

٧ ـ هناك لفظ يعتبر بحكم ملابساته ، وبحكم ما ورد حوله من روايات مقصورا على الصعلكة ، وملحقا بالألفاظ السابقة ، وهو لفظ « خليع » فان ملابساته السابقة للخلع من حيث ان سببه كثرة الجنايات ، واللاحقة للخلع ، من حيث ان حياة الخليع ، وتشرده واعتماده على نفسه بعد الخلع ، من شأنه أن يجعله ينزداد اصرارا على جناياته ، ونشاطا في السعى لتحصيل معاشه ، وكل ذلك هو طريق الصعلكة ، مع مراعاة استبعاد احتمال أن تكون جناياته التي تسببت في خلعه ، جنايات لم يقصه منها ما يقصده الصعاليك ، فأن خلع قرمه إياه دليل واضح على أن هذه الجنايات لمصلحته الشخصية ، فأن خلع قرمه إياه دليل واضح على أن هذه الجنايات لمصلحته الشخصية ،

أعنى أنها جنايات صعلكة ، وليست لصلحة قومه ، والا لم يكن من العقول بمنطق الجاهلية أن يخلعوه • ويؤيد هذا أن كل الذين وصفوا بهذا الوصف من الأشخاص المحددين كانوا فيما نعلم من الصعاليك ، والذين لم تحدد أشخاصهم كما ورد في الحديث الشريف « وقد كانت هذيل خلعوا خليما لهم . في الجاهلية ، (١) فلم يكن مثل هذه الرواية من الوضوح بحيث يتاح لنسأ تتبع حياة هذا الخليع ، لنعلم من أي نوع كان ، ولكن الروايات لا تنــــفي أنه من الصعاليك ، بل تشير الى أنه من الصعاليك ، أو تقوى احتمال هذا ، ينسبته الى هذيل ، التي كانت أشهر قبائل العرب بالصب علكة ، وبالعدائين الذين كان عدوهم أداة من أهم أدوات الصمحلكة ، وفي ديوان الهذليين أوردالسكرى خمسة من صماليكهم ، هم خويلد بن مرة المكنى بأبي خراش ، وابنه خراش وأخوه عروة الذي قتل في غزوة صعلكة كان فيها هو وخراش ، وكذلك صحر الغي ، وحبيب الأعلم (٢) والمهم أنه لا توجد لدينا روايات فيما نعلم تنفى أن كل من وصعفوا بهذا الوصف كانوا من الصعاليك ، ولا روايات تصف بهذا اللفظ شخصا ليس من الصعاليك ، ونستبعد بالطبع ما شاع منذ أواخس العصر العباسي من اطلاق الحلاعة على الصفات الخلقية ، فان حديثنا عن هذا اللفظ محصور كما سبق في حالة واحدة ، هي حالة الذين خلعهم أقوامهم لكثرة جناياتهم ، وهؤلاء هم الذين نعنى أن الروايات لم تذكر أن أحدا منهم لم يكن صعلوكا • واذن فنستطيم أن نقول انه يمكن الحاق لفظ « خليم » للذي خلعه قومه بالألفاظ السابقـــة التي تعتبر نصا في الصعلكة •

٣ _ الألفاظ الأخرى التى وصف بها الصعاليك ، مثل ، فاتك ، وشيطان ، وشيطان ، وشاطر ، وإن كان الوصف بها غالبا على الصعاليك كما ورد فى تراجم معظمهم ، الا أنها ليست مقصورة عليهم ، فقد وصف بها أشخاص من المؤكد أنهم لم يحترفوا الصعلكة ، وإن كانوا زاولوا بعضض أساليبها فى بعض الأحيان أو لبعض الظروف ، فقد وصف شخصان من أكبر سسادات العرب ببعض هذه الألفاظ ، هما عمرو بن كلثوم الذى وصف بأنه فاتك (٣) وعامر بن الطفيل الذى وصف بأنه د من شياطين قومه » (٤) وحقا انهما وصفا بذلك لمزاولتهما بعض أساليب الصعاليك ، ولكننا لا نستطيع أن نعد مثلهما من الصعاليك ، لعدم احتراف الصعلكة ،

ولذلك لا تستطيع الاعتماد على هذه الألفاظ وحدها في نسبة شمخص

⁽١) أنظر لسان العرب لابن منظور مادة (خلم) ٠

⁽٢) أنظر شرح ديوان الهذليين للسكرى ٠

⁽٣) أنظر خزانة البغدادي ٢/٨٨٣ ومجمع الأمثال للملداني ٢/٨٨ -

⁽٤) خرالة البقدادي ٢٦٤/٢ •

الى الصعلكة الا اذا صاحبتها قرائن تؤيد ذلك، وان كنا فى كل حال نستفيد من مدلولها فى خلق من يوصف بها وسلوكه ، اعنى ان كل من يوصف بلفظ منها معناه أنه يزاول عملا من أعمال الصعاليك ، واسلوبا من أساليب صعلكتهم ، ومن هنا نخرج بنتيجة مهمة هى أن مدلولات هذه الالفاظ من صميم الصعلكة وأساليبها ، وأننا اذا كنا لا نراها كانية فى ادخيال صاحبها فى طائفة الصعاليك ؛ فليس لقصور هذه الإلفاظ فى الدلالة عيل الصعلكة ، بل لمعنى واحد ، هو أنها لا تدل على الاحتراف للصعلكة ، وكان الفارق بينها وبين الفاظ ، صعلوك وذئب ولص ، أن هذه الثلاثة لا تطلق الا على الذين اتخذوا من الصعلكة حرفة أو مهنة دائما ، أما الفاظ فاتكوشيطان ونحوهما ، فتطلق لمزاولة أسلوب من أساليب الصعاليك ، سواء صدر من صعلوك محترف للصعلكة ، أم من غيره ،

ب ـ من الصعلوك ؟

واذن ففي الاجابة المحددة على هذا السمارال لابد من مراعاة أمرين احدهما أن كل الالفاظ السابقة تدل على أساليب مختلفة للصعلكة ، والاخر أن هناك فارقا أساسيا في مجرد مزاولة مدلولات هذه الالفاط ، وبين من يتخذها حرفة دائمة ،

وعلى ضوء ذلك ننظر الى محساولة بعض الباحثين ان يضع تعريفا للصعلكة (١) وقد كان تعريف ان الصعلكة هى « الغزو والاغارة للسلب والنهب، والواقع أنه لو كان عذا المعنى استنتاجا ، أو تحديدا لبعض المواضع لما عنائل كثيرا أن نناقشه ، ولكن وضعه فى قالب التعريف ثم تكريره اياه على أنسب تعريف للصعلكة ، هو ما يضطرنا الى مناقشته اضللوارا ، فمن بدهيات التعريف كما يقول المناطقة أن يكون جامعا مانعا ، ولكننا لا نرى فى هسذا التعريف جمعا ولا منعا ،

فهو غير جامع ، لأن لفظى الاغارة والغزو ، لا يشملان كل اسساليب الصعلكة ، كاللصوصية مثلا ، والباحث نفسه نقل أحاديث كتب المعاجم ، ومن بينها عدم اختسلافهم في أن اللصسوصية مرادفة للصعلكة ، فلماذا اقتصر على أسلوبي الفزو والاغارة تاركا اللصسوصية وغيرها من أساليب الصعلكة ؟ وقد يقال ان الروايات تجعل بعض هذه الألفاظ متداخلا في بعضها الآخر ، بمعنى ان الروايات أحيانا تكتفى بمداول أحد هذه الالفاظ بالنسبة للصعلوك ، وتعنى

⁽١) أعنى الدكتور يوسف خليف في يحث القسعراه المسماليك في الحبر الجامل انظر ص ٨٨ وما قبلها ٠

به مدلول غيره من الألفاظ ، كان يوصف صعلوك يأنه فاتك صرادا به كل أساليب صعلكته ، فكذلك فعل الباحث الذي نناقشه ، حيث اكتفى بالغنود والاغارة للدلالة على كل أساليب الصعلكة ، ولكن ذكره أكثر من لفظ ، يلزمه ان يسوق كل الألفاظ التي تدخل في نطاق الموضوع ، والآخر أن هناك أساليب يبعد جدا أن يشملها لفظ الغزو أو لفظ الاغارة ، كقطع الطريق الذي يعتبسر من أبرز أساليب الصعلكة ، أن لم يكن أبرزها على الاظلاق ، نمن البعيسد جدا أن نتصور قطع الطريق داخلا في معنى الغزو والأغارة ، بحكم الوضيع اللغوى لهذين للغظين ، وبحكم استعمالهما آيضيا ، فالتعريف أذن غير جامع لانه لا يشمل كل أساليب الصعلكة ،

وكذلك هو غير مائع لأنه يسمح بادخال غير الصعاليك في مفهسوم الصعلكة ، ومن حيث أن مجرد الغزو والإغارة للسلب والنهب ليس مقصدورا على الصعاليك ، بل كان طابعا عاما في الجاهلية _ التي هي موضوع بحثه _ والأخبار والروايات تفيض بما هو معروف من غارات القبائل بعضها عسلى بعض ، ولم يكن الثار كل أهدافها ، بل كثيرا ما كانت الغارة لا تستهسدف الا السلب والنهب ، اظهارا لبأس المغيرين ، وارهابهم القبائل الأخرى كمـــــا أن كثيرًا من الأفراد والعصابات من غير الصعاليك كانوا يزاولون أحيانا أخص أعمال الصماليك كقطع الطريق ، وبعض هؤلاء كان من أبرز سسادات العرب وسياتي أن كثيرا من سادة العرب ومشهوريهم زاولوا أساليب الصماكة مستهدفين أيضا السلب والنهب ، كعمرو بن معد يكرب ، ودريد بن الصمة ، والنابغة الذبياني الشباعر المشهور ، وكثير غيرهم (١) ولا شك أن هــــــذا التعريف يشملهم ، لأنهم كانوا يغزون ويغيرون للسلب والنهب ، ومع ذلك فلا نستطيع أن نعدهم من الصعاليك ، كما لم يستطيع أحمد من الرواة والمؤرخين أن يعدهم منهم ، وقد كان يمكن أن تضيف الى ذلك أن الصعلكة ليست قاصرة على السلب والنهب ، بل مما تحدث عنه الصعاليك كثيرا ، وجعلوه هدف اساسيا ، الثار والانتقام كما يقول عمرو ذو الكلب .

وابرح في طوال الدهـ حتم اقيم نسـاء بجلة بالنعال (٢)

وكما يجعل أبو خراش طلب الثار قرينا لطلبه المغنم « لادرك ذحـــلا أو الشبف على غنم ، (٣) ولكننا نرى أن الغرض الأساسى من الصملكة هو المغنم ، وأن الأغراض الأخرى عارضة أو هي وأيدة الصملكة ·

١١) أنظر فصل الصعلكة في الجاهلية من هذا البحث ٠

⁽١٤ ديوان الهذليين ١١٥/٣ وأبرح بمعنى لا أبرح ، والنمال اشادة الى عادة نساء الجاملية في ضربهن صدورمن بالنمال في البكاء على الميت *

⁽۲) أنظر ديوانه ص ۸۰ ، ۸۲ *

على أن هناك ملاحظة آخرى في عدم شمول التعريف ، وهي أنه من أهداف السماليك وغيرهم في التنائم سبى النساء ، كما نرى في أخبار كثير منهسم كروة بن الورد (١) والسليك بن السلكة (٢) ولسمنا نرى أن لفظى السلب والتهب يشملان سبى النساء ، الا بتكلف لا نرى ما يدعو اليه .

وأذن فمن الواضع أن هذا التعريف غير جامع للموضوع ، وغير مسانع

واذا كان لايد من محاولة وضع تعريف للصعلكة ، فنأمل أن يكون التعريف الإقرب هو « احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم » •

وعلى طريغة المناطقة نقول : نعني بالاحتراف ملازمة العمل الذي يشمسيه الحرفة ، من حيث استمراره ، ومن حيث كونه العمل الاساسي في حياة صاحبه وللورد الأسامي لميشنه ورزقه أيضا ، ووضعه في التعريف ليخسرج الذين يزاولون أعمال الصعلكة ولكن في غير صورة الاحتراف ، كغارات بعض القبائل على بعض ، وكمزاولة بعض الافراد لاعمال الصعلكة في غير احتراف ، كسا أشرقا الى أعمال بعض السادة والمشهورين الذين كانوا يغزون ويغيرون ويقطعون الطريق بتصد الغنيمة ، ولكنهم لم يحترفوا هذا السماوك ، وقولنا « السلوك العدواني ، نعني به كل الأساليب التي فيها عدوان على الغير مقصود به الغنيمة، كالمصوصية وقطع الطريق والغارات ونحو ذلك ، ووضعه في التعريف ليشمل كل هذه الأساليب ومع أنهما لفظان متواصفان يكمل أحدهما معنى الآخر ، الا به اخراج مالا يوصف بأنه سلوك عملي ومع ذلك يكون عدوانا ، ويقصد بــــه أحياتا الكسب، ويتخذه صاحبه حرفة أيضا ، كالهجاء الذي احترفه بعسم الشعراء ليتكسبوا به كالخطيئة ، أعنى بالرهب منه ، فلولا لفظ « سلوك » لشمل التعريف مثل هذا ، لأن الهجاء بالنسبة لمثل هذا الشاعر ، احتراف ، وهو عدوان ، ومقصيود به الكسب والمنتم في رحلاته بهذه الحرقة ، ولفظ د عدواني ، يقصد به اخراج مثل التسول ، فاته احتراف سلوك معين بقصيد الكسب وللفنم ، ويعرج أيضا المدح الذي احترفه بعض الشعراء متنقلبن بـــــه قاصدين الكسب والغنم ، ولكن اجتماع اللفظين ، سلوك عدواني ، يخسرج كل ما شابه ذلك من غير اعمال الصعلكة ، مع شموله لكل اساليب الصـــعلكة واعمالها • وقولنا ، بتصد المعنم ، ليشمل الواقع في حياة الصعاليك ويعبر عنه ، فإن احترافهم للصملكة مقسود منه التعيش ، ومجابهة الفقر ، وليخسرج ايضًا احتراف سلوك عنواني لغير قصد الغنم ، كاحتراف مهلهل بن ربيعـــة

⁽١) للرجع السابق ٢/١٢٠ والدحل الثار وأشيف أشرف ،

⁽٢) انظر شرح التبريزي لحماسة ابي تمام ١/٣٧٨ في شرح رثاء أم السليك اياه ٠

أخى كليب الحرب ضد قاتلى كليب اربعين سنة • لا يرى لغير الحرب والنسار في حياته موضعا ، ومع ذلك لا يعد مثل ذلك من الصعلكة ، لانه لا يقصد به المغنم ، ومع أن د قصد المغنم » لفظان متضايفان أيضا يكمل احدهمسا معسنى الآخسر ، الا أن لكل منها دلالة مسستقلة ، غير دلالة الاضافة في اجتماعها ، فلفظ د قصد ، يخرج به السلوك العسدوائي الذي تترتب عليه مفانم غير مقصودة لذاتها ، كالحروب ، فليس كل من يحصل على غنيمة من الحرب ، مهما زاول الحرب أو احترفها يعتبر صعلوكا ، لأن سلوكه ليس أساسه د الفنيمة ، وإنما جاءت الفنيمة نتيجة وليست قصدا ، ولفظ د المغنسم » أثرتاه على غيره من التعبيرات مثل د الحضول على المال ، أو د السلب والنهب » ليشمل بعض أهداف الصعاليك كسبى النساء ، فانه يعتبر مغتمبا ، ولكنسه لي يعتبر حصولا على مال ، أو سلبا ونهبا ، الا بتكلف لا نرى ضرورة تدعسو الهه ه

ومن ذلك نرى أن تعريف الصعلكة بقولنا هي « احتراف السلوك العدواني يقصد المغنم » شامل لجوانب الصعلكة ، ومانع غيرها من مشاركتها في التعريف

نشأة الصعلكة

أ ـ أسبابهــا

من الصعب تحديد بدء الصعلكة من الناحية الزمنية لأكثر من سبب ، فمن ذلك أن التاريخ العربى نفسه قبل الاسلام غير محدد على وجه الدقة ، والمؤرخون حين يحددون بدء التاريخ في أمة من الأمم يلجأون غالبا الى أمرين ، أحدهما روايات المؤرخين وكتاباتهم عن عده الأمة بصورة محددة ، والآخر الآثار التي تركتها أجيال هذه الأمة في توال وتتابع بحيث يمكن مقارنة آثار جيل بجيل تحيد ، أو نسبة كل مرحلة من مراحل هذه الآثار الى جيل معين .

ولكن الجزيرة العربية لظروف كثيرة أهمها عدم قيام دولة جامعة فيها قبل الاسلام لم يتيسر لها أحد الأمرين السابقين بصورة مجدية للتاريخ ، فلم يظهر فيها قبل الاسلام مؤرخ يسجل لنا تاريخها ، ولظروف كثيرة أيضا كعزلتها وعدم قيام دولة جامعة فيها قبل الاسلام لم يتردد عليها مؤرخون يسجلون لنا تاريخها ، وأيضا لظروف كثيرة لا بقتضى المقسام سردها لم تكن لها آشار

ذات قيمة تاريخية من حيث تحديد التاريخ • فلم يبق لنا من تاريخهـــا قبل الاسلام الا هذه الروايات المتناثرة التي لا تخلو من اضمطراب حيسما ، ومن طابع اسطوری خبرانی حینا آخر ، والتی کان احمم مصمدد الحفساط علیها أمرين ، أحدهما اعترزاز العرب بالشميع ، ولذلك نجمه أقرب مما رواه الجاهليون من تاريخهـــم الى الحقيقية هو ما رووه من شــم مجتمعاتهـم وأسلافهم ، والناني تقديس القبيلة لأمجادها وخاصيسة مظاهر القوة فيها وفي تاريخها ، ولذلك نجد أن كل ما وصل الينا من تاريخ الجاهلية يكاد ينحصر في مدين مرالشيعر والأمجاد • ومما لا شك فيه أنه لولا قيام الدولة الاسيلامية الدابت هذه الروايات كما ذاب غيرها في ثنايا العصور ، وأقول الدولة لأنالاسلام كمجرد دين ليس من شأنه أن يحقق هذه الغاية التاريخية ، ولكن ميزة الاسلام أن ِ مِن أحداقه الأساسية تكوين الدولة • وحين قامت هذه الدولة حققت فيما الروايات التي لم تستطع أن توغل في الجاهلية أكثر من نحو قرن ونصف من قبل هذا التاريخ صالحة للتاريخ ولا ملائمة للعقول (٢) كاحاديثهم عن بقايا عاد وطسم وجديس ٠

والصعلكة لم تكن حدثا من الأحداث الطارئة أو العارضة في حياة المجتمع العربي قبل الاسلام ، وانما كانت ظاهرة نبعت من ظروفه ولازمته كجرز منه، ولذلك لا نتوقع أن يكون لها تاريخ مستقل ، وانما يرتبط تاريخها بتاريخ المجتمع نفسه ونتيجة لذلك نجد أن الصعلكة لازمت كل العصور الجاهلية التي ورد لنا منها تاريخ وكل أماكن الجزيرة العربية تقريبا ، وفيما ياتي من الأمشالة توضيح لذلك ،

وحين نأتى الى بيان الأسباب التى أدت الى ظهرور الصعلكة في المجتمع الجاهلي نقول:

قبل الخوض في تفصيل هذه الأسباب ينبغي أن نفرق بين الأحداث سواء كانت عادية أو غير عادية ، وبين الظواهــــ الاجتماعية ، فالا حداث كالحروب والثورات وما يعرض في حياة الجماعات والأمم تتميز بأنها محدودة بزمــان ومكان ، وترتبط بها أسباب مباشرة في أغلب الأحيان ، وغير مباشرة في أقلل

⁽۱) أنظر خزانة الأدب للبغدادي جد ٢ ص ٩٩ - ١٠٣ على سبيل المثال وانظر تاريخ الأمم والملوك المطبري جد ٢ ص ٤٤٧ - ٤٧٦ -

 ⁽۲) المصدر السابق جد ۲ ص ۱۰۹ عن أصل السهم وشامة القبر حيث يزعمون أن السهم
 ولدته القوس وشامة القبر أثر بن جناح ملك •

الأحيان ، ويرتبط بها الاثنان في كثير الاحيان ، ويكفى لتعليلها أحيانا سسبب واحد .

اما الظواهر الاجتماعية _ كانتشار عادة الثار مثلا في مجتمع ما _ فلا ترتبط غالبا بسبب مباشر ، و لا يحدها زمن معين ، ولا مكان معين ، ولا يكفى في تعليلها غالبا سبب واحد .

فمشلا في المجتمع الجاهل نرى حرب البسوس، مع أنها طلت نحو أربعين عاما تزلزل أماكن كثيرة في الجزيرة العربية (١) الا أنها لا تعدو أن تكون حدثا من الأحداث العارضة في المجتمع ، ويمكن تحديد الأماكن التي دارت رحاها فيها ، وكذلك زمانها ، ويمكن تحديد السبب المباشر لها ، وهو رمى كليب ناقة البسوس بسهمه ، واستنفار البسوس جيرتها ، والسبب غير المباشر هو التنافس والصراع الخفي بين جساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، ودويهما من بكر وتغلب ،

أما الصملكة فلا يمكن أن نستبرها حدثا عارضا في المجتمع الجاهلي ، ولا يمكن أن نحصرها في زمن أو أزمان ، ولا يمكن أن نحصى الذين دخلوا نطاقها _ من الشعراء وغير الشعراء _ فقد لازمت التاريخ الجاهلي منذ كان تاريخا ، وشملت كل أماكن الجزيرة تقريبا كما سنتبين من الأمثلة ، وكذلك لا نستطيع أن نقرنها بسبب واحد مباشر أو غير مباشر بحيث يكون هذا السبب وحيدا في نشأتها .

ولئن كان الفقر قد ارتبط بالصعلكة من حيث أن مدلولها اللغسوى يعنى الفقر ، ومن حيث ان الصعاليك كان يغلب عليهم الفقر ، فائنا لا نسستطيع أن نجعل الفقر سببا وحيدا ولا حتى سببا مباشرا للصعلكة ، وذلك لعدة أسباب، منها أن المجتمع الجاهل ليس المجتمع الوحيد الذي تعرض للفقر ، فما أكسر ما تعرضت جماعات وأمم في القسديم والحديث وفي عصرنا الحاضر (٢) لفقر أشد من فقر العرب ، بل لمجاعات طاحنة ، ومع ذلك لم يلزم أن يترتب عليها طهور ظاهرة كالصعلكة في المجتمع العربي ، ومنها أننا تجد من أحاديث الرواة عن الصعاليك (٣) ، ومن شعر الصعاليك أنفسهم (٤) أن الفقر وحسده لم يكن هو الدافع لهم دائما الى الصعاليك أنفسهم (٤) أن الفقر وحسده لم يكن هو الدافع لهم دائما الى الصعاليك ، ومنها أن كثيرا من سلوك الصعاليك وخاصة قطع العربي والفتك والاغارة والسلب ، لم يكن وقفا على الصعاليك ولا

⁽۱) خزانة الأدب للبقدادى جـ ٢ ص ٣٣ ـ ٢٩ فى قصة طويلة وأحداث كثيرة وكذلك المقد الفريد جـ ٢ ص ٧٧ ـ ٨١ .

⁽٢) كما يشاهد في كثير من ولايات الهند منذ بضم سنوات حتى الآن ٠

⁽٣) أنظر الأمال للقال جد ٢ من ١١٨٠ •

⁽٤) انظر المقد القريد جد ١ ص ٣٤ (باب قرمبان العرب) *

من يوصفون بالفقر وحدهم ، وانما زاوله كثير من سادات العرب وزعماء الشيائل والاغنياء (١) الذين لا يمكن أن يعدوا من الصـــعاليك ، ولا يمكن أن يوصفوا بأن الفقر هو الذي دفعهم ألى سلوك ما يسلكون .

ولسنا بذئك نقلل من أهمية الفقر في كونه من أسباب الصعلكة ، فالواقع أنه من الأسباب البارزة والمهمة في الصعلكة ، والكننا ننفي أن يكون هو السبب الموحيد أو للباشر للصعلكة ، ولكنها أسباب كثيرة مختلفة ، متفاوتة في أهميتها والنسبة للصعلكة .

ويمكن أن تحصر أهم هذه الأسباب فيما يأتي :

١ _ عدم وجود دولة جامعة

ولسنا نعنى الشكل الظاهرى لمعنى الدولة الجامعة ، وإنها نعنى عــدم وجود قوة حيوية متحركة تسيطر على الأمة ، ويحس أفراد شعب هذه الأمة ، يأتهم مرتبطون بهذه القوة وخاضعون لها خضوعا يؤثر في سلوكهم •

وليس من اللازم أن تكون هذه القوة في شكل دولة بالمعنى المفهوم للدولة، بل قد تكون كذلك، وقد تكون هذه القوة في صورة قانون يخضع له أفراد الأمة ويحسون بسلطانه على نفوسهم وسلوكهم، وقد تكون غير ذلك، فليس للهم في الشكل وانما في المضمون، وأن أيا من الامور السابقة أذا فقد سلطانه على النفوس ليصبح مجرد شكل طاهرى، فأنه يفقد أشعاعه، وبالتالى يفقد كيانه الحقيقي من حيث التأثير والتوجيه و

فالقانون مثلا اذا نقد صفة الالزام ، وضعف سلطانه على النفوس ، بحيث لا يشعر الافراد بانهم ملزمون بتنفيذه ، فانه يفقد كيانه الحقيقي كقانون ، ويصبح مجرد اسم وميكل لا حياة فيه ولا تأثير له ، وكذلك الشان بالنسبة للدين وللدولة وغرهما .

فهذه القوة المؤثرة الجامعة هي التي نعني فقدانها في العرب قبل الاسلام · فلم تكن لهم دولة جامعة ، ولا قانون جامع ، ولا دين جامع ·

فأما عن الدولة ، فمن المعروف أنه لم تقم للعرب قبل الاسسلام دولة تجمعهم في تاريخهم كله ، وأنه لم يكن هناك الا هذه الدويلات أو الامارات التي قامت في جنوب الجزيرة وشمالها .

⁽١) على سبيل المثال مجمع الأمثال بد ٢ ص ٨٧ _ ٩٠ والأمال للقال بد ٢ ص ٢٧١ (عن دريد بن النسلة) ٠

ففى الجنوب قامت دولة معين فى شمال اليمن ، ركانت على جانب لا بأس به من القوة والثروة (١) ، وظل حكمها تحو خمسة قرون ونصف (٢) .

ثم قامت بعدها دولة سبأ (٣) التي تبوأت بحديث القرآن الكريم عنها - حكانا رفيعا (٤) ، وكانت جنوب معين ، ثم انتقل سلطان معين اليها ، وظل حكمها نحو ثمانية قرون (٥) ، وخلال حكمها تهدم سد مارب الذي كان لتهدمه اثر كبير في حياة العرب الاجتماعية ، حيث ترتبت على انهدامه هجرات كثيرة ، عمت انحاء الجزيرة تقريبا كمسيرة بني ثعلبة بن عمرو الى يثرب ، فيتكون منهم فيما بعد الا وس والخزرج ، وكذلك بنو حادثة بن عمر - وهم خزاعة -الى مكة حيث أجلوا جرهما القحطانية عن الحرم واحتلوه مكانها ، وكذلك سار بنو عمران بن عمرو نحو عمان فأصبحوا فيما بعد أزد عمان ، وسار بنو جفنة ابن عمرو الى الشام ونزلوا بماء يقال له غسان فنسبوا اليه ، وسار بنو لم بن عدى الى الحيرة وأقاموا فيها ، ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة ، وسارت طبيء بعد هجرة الأزد الى الشمال فنزلوا بالجبلين أجأ وسلمي في الشمال الشرقي من المدينة ، وسارت كليب بن وبرة من قضاعة الى باديــة السماوة طرف شمال نجد (٦) وهكذا كان لحادثة سيل العرم وانحطام السه اثر كبير في مجرى الحياة الاجتماعية في الجزيرة كلها (٧) وهذا مما يعنينا في موضوع البحث فان القحط والمجاعات التي يخلفها السيل وتهدم السه الذى ترتكز عليه الحياة الاقتصادية ، ثم ما تعانيه القبائل المهاجرة من قسوة العيش أثناء الهجرة ، ثم في المكان الذي تهاجر اليه في بدء تكون حياتها الاقتصادية ، واحتكاكها في خلافات وحروب مع القبائل المقيمة في هذا المكان نتيجة للصراع على ملكية موارد البيئة ، وعلى تثبيت الكيان الاجتماعي والنفوذ القبلي ، كل ذلك من العوامل التي تلقى ضوءا على نشأة الصملكة بما يمكن أن تساهم به في نشأتها ٠

ونعود الى حديث سبأ فنقول انه بعد تفكك المملكة السبئية قامت المملكة الحميرية التي طل حكمها لليمن من قبل الميلاد المسيحى بنحو قرن حتى غزو

⁽١) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراميم ج ١ ص ٢١٠

⁽٢) الصدر السابق للدكتور حسن ابراهيم جد ١ ص ٣٣٠

⁽٣) المصدر السابق للدكتور حس ابراهيم ج ١ ص ٢٤٠٠

 ⁽٤) سورة النبل الأيات ١٩ - ٤٤ •

⁽٥) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٢٤ - ٢٥ ٠

۱۱ من ۱

 ⁽٧) انظر معجم ما استعجم للبكرى عن هجرات التبائل العربية وانسابها جـ ١ من ص ٥
 ص ١٩٠٠ وانظر الزمغشرى في الكشاف تفسير الآية ١٨ من سبأ ٠

الأحباش لليمن في قصة الفيل الشهيرة قبيل الاسلام (١) ، واستس حكمهم نحو مبعة قرون .

هلم ممالك الجنوب ، وقد كانت في الطرف الجنوبي للجزيرة •

وأما في الطرف الشمالي فقد قامت مملكتان صغيرتان ، وكان نفوذ الملك فيها يكاد يكون محصورا في أبناه قبيلته ، فهو في واقع أمره رئيس قبيلة ، ومتأذ عن رؤساء القبائل بأنه ملك متوج ، وبأن سلطانه أثبت ، بما يحوط من وسائل الملك ، وهاتان المملكتان هما مملكة الحيرة ، وهي من المناذرة الذين جأوروا الفرس ، وموقعها على بحيرة النجف قرب الكوفة ، ومنهم النعمان أين المنذر (٢) ،

ومملكة غسان ، من قبائل قضاعة التي هاجرت من اليمن الى شرق الاردن (حاليا) وهاجر بطن منهم (من الازد) الى الشام على ماء يسمى غسسان فسموا به ، واستقروا فيما حول دمشق وتدمسر ، متجولين في فلسطين ولبتان (٣) (حاليا) -

أما الحجاز _ تهامته وغوره (٤) _ ونجد فلم يعرفا في تاريخهما كله قبل الاصلام نظام الملك والدولة اثما عاشا على النظام القبل. •

ومن هذا العرض السريع نستنبط أنه لم تكن للعرب دولة تجمعهم بحيث يضعرون معها بالخضوع والانقياد ، وأن هذه الممالك التي قامت لم تبسط سلطانها على الجزيرة ، وانها كان بعضها أشبه بالنظام القبلى كما في ممالك الشمال ـ الحيرة والغسانية ـ وبعضها كان أشبه بالامارات المحلية كالمملكة المعينية والحميرية ، على أن هذه الامارات لم يستقر فيها الملك بالمعنى الحقيقي الكامل له ، وانما غلب عليها نظام العشائر والقبائل في عصـــور كثيرة ، فالمملكة المعينية مثلا لم تكن ملكا خالهما ، وانها كانت خليطا من ملسوك متوجين ومن رؤساء عشائر (٥) ، والمملكة الحميرية كانت نهبا في الصراع بين الحميرين والكهلانيين (٦) فلم يكن لاحداهما اذن من السلطان الثابت والهيبة المستقرة ما يبسط أثره على الحياة ـ الاجتماعية وعلى سلوك الأفراد ، ومن ثم المستقرة ما يبسط أثره على الحياة ـ الاجتماعية وعلى سلوك الأفراد ، ومن ثم من سبل السلوك ، سواء كان هذا السلوك معملكة أو غيرها .

⁽۱) تاریخ الاسلام للدکتور حسن ابراهیم جـ ۱ ص ۸ ــ ۱۱ ·

⁽٢) تاريخ الاسلام السابق جـ ١ ص ٣٣ ٠

⁽٣) خزانة البندادي يد ٣ ص ٣٠٢ تقلا عن الصنحاح والاصنمى ، وفي القاموس المحيط مادة (تجد) يعل القود هو تهامه ،

⁽٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٢١ ه

⁽۱-۵) للمندر السابق بد ۱ ص ۲۲ ۰

ونجد الصماليك أنفسهم يمتزون بهذا المنى ، ويتوارثونه ، مفتخرين بانهم لا يرون لأحه سلطانا على حياتهم وسلوكهم حتى بعد أن أصبحوا في ظل الملك والسلطان فهذا عبد الله بن سبرة الحرشي يقول:

اذا شالت الجسوداء والنجم طالع فكل مخاضسات الفسرات معابر وانى أذا مسن الأمسير باذنسه على الاذن من نفسى أذا شئت قادر(١)

ومالك ب زالريب صعلوك بني مازن ، لا يخضعه سلطان بني أمية القـــوي العريض فيتوعدهم وعيد الند المكافئ، ، ولا ترهبه سطوة المجاج الثقفي وبأسه العنيف ، فيهجوه الهجاء البالغ ، ويسخر منه السخرية المسرة الوجعة ، في تعريضه بتعليم الحجاج الصبيان في سابق عهده فيقول لبنى مروان وللحجاج.

أن تنصفونا يال مروان نقترب اليكم والا فاذنروا ببعرا فان لنا عنكم مراحسا ومرحسلا بعيس الى ديع الفسلاة صوادى فغى الأرض عن دار المدلة مسدهب وكل بسلاد أوطنت كبسلادى فماذا ترى الحجاج يبلغ جهسده فلولا بنو مروان کان ابن یوسف زمان هو العبد المقسسر بذلسه

اذا نحسن جاوزنا حفير زيساد كما كان عبدا من عبيد ايساد يراوح صبيان القرى ويغادى (٢)

ولم يكن هناك حينئذ من يتوقع منه أن يجترىء على الحجاج على الأخمص بمثل هذا الهجاء غير مثل مالك بن الريب ، لا لأنه مالك أو غيره ، وانما لأن. أحد الصعاليك الذين يملكون من سعة الأرض مالا يملكه غيرهم ، حيث يرون _ دون غيرهم ــ أن كل مكان على وجه البسيطة يمكن أن يكون وطنا لهم ، كمــــا يقول مالك فيما سبق د وكل بلاد أوطنت كبلادي ، وفوق ذلك فان الهجرة ليست عبثا ولا مبغضة لهم ، وانما هي أمنية يعبر عنها مالك في هذا التعبير الجميل عن شوق ناقته الى ريم الفلاة فيما سبق ٠

فان لنا عنكم مراحسا ومرحسلا بعيس ألى ديح الفسلاة صوادى

وهذه النزعة في صعاليك المجتمع الاسلامي ، أعني نزعة الشعور بالتحرر من السلطة ، لم تكن وليدة البيئة ولا العصر ، فانهما لم يكونا حينذاك يسمحان الصعاليك منذ الجاهلية .

وأما في الجاهلية فلم تكن هناك سلطة « رسمية ، فوق الصعاليك حتى نستشبهد لاستهائتهم بها ، فلم تكن هناك الا سلطة المجتمع بعاداته وتقاليده ،

⁽١) ديوان الحماسة لأبي تمام جد ١ ص ١٨٥ وفي شرح التبريزي أن عبد الله بن سبية من اللمتاك وحرش موضع باليس ٠

⁽۲) الكامل للمبرد جد ١ ص ٣٠١ .

وحتى هذه السلطة أباها الصماليك ، لأنهم لا يؤمنون بأى سلطان من أى نوع ، . وتجد عدم النزعة شائمة في شعرهم ، فالشنفرى يعبر عن ثورته على المجتمع البشرى كله بالهجرة عنه الى مجتمع الوحوش ، ساخطا على الأول ، راضيا عن الثاني فيقول من اللامية الشهيرة ٠

اقيموا بئي أمي مسمور مطيكم تعمرك عافى الأرض ضيق عل امرىء

فاني الي قسوم سسواكم الميسل وفي الأرض مناى للكريم عن الأذى وفيها لسن خاف القلي متعسرُل سری داغیا او راهیا وهـ و یعقـل

ثم يتحدث عن القوم الذين يريد أن يهجر الناس جميعا من أجلهم ، فأذا هن ذئب ونير وضيم ٠

ولى دونكـــم اهلـــون سـيد عملس وأرقط زهلول وعرفساء جيسال هم الأهسل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جسر يخدل

وتأبط شرا يأبي أن يخضع لأعراف المجتمع وتقاليده ، ويصر على أن يغرض نفسه وسلوكه على المجتمع ، فاذا لم يقبل الناس منسه ذلك فان في الأرض متسعا له لا يعبر عنه بالأماكن ، وانما بالآفاق .

ائي زعيم لئن لم تتركسوا عمللي ان يسسال الحي عني اهسل آفاق أن يسال القبوم عنى أهبل معرفة فسلا يخبسرهم عن ثابت لاقي (١)

وهكذا نجد نزعة التحرر من السلطة والنفور منهسا شائعة في شمسعر الصماليك ، ومعنى ذلك أن الصعلكة والسلطة _ الحقيقية المتمكنة _ لايتفقان ، فقد وجدت أو بمعنى أصبح شاعت الصعلكة لعدم وجود هذه السلطة ، ومفهوم ذلك أنه حين توجد هذه السلطة لا توجد الصعلكة ، ولو كظاهرة اجتماعية ، وهذا لا ينفى وجودها كحالات فردية ، فان الشذوذ لا يخلو منه مجتمــع • وهذه الحقيقة هي التي نهدف للوصول اليها ، فان عدم وجود هذه السلطة في للجتمع الجاهلي كان من الأسباب الأساسية في وجود الصعلكة كظاهرة ،

هذا عن الدولة ، وأما عن القانون كصورة من صور القوى المهيمنة المحددة السلوك أقراد المجتمع ، فنقول أنه من الواضع أنه لم يكون هناك قبل الاسلام قانون عربي ، والواقع أنه بانتفاء وجود الدولة ينتفى وجــود القانون ، لأن السلطة ينتفى الوجود الحقيقى للقانون ، ولو انترضنا وجود قانون بسدون سلطة منفذة حامية له يصبح وجوده كلا وجود ، من حيث تأثيره والزامسة للاقراد ، والأدنان _ حتى الباطل والبدائي منها _ بوصفها تشريعات اجتماعية

⁽١) الأمالي للقالي حد ٣ من ٣٠٥ .

⁽٢) المضليات للضبي ص ٢٧٠

وخلقية روحية ، قوتها ليست في ذاتها وانما في القوة الالهية التي يعتقدها أفراد المجتمع كامنة ورامها ، فاعتناق الفرد لأى دين ، وانقياده لسه ليس مصدره الدين نفسه ، وانما القوة الالهية التي يعتقد أنها مصدر هذا الدين وحماه ، والتزامه الانقياد لهذا الدين انما مصدره الخوف من هذه القوة الكابنة وراه هذا الدين ، بصرف النظر د في هذا المعنى د عن صحة عقيدته أو بطلائها ، فالمهم هو مجرد اعتقاده ودرجة هذا الاعتقاد ، فإن ذلك هو الذي يحدد انقياده ومدى تأثره في نفسيته وسلوكه ،

وحين نتحدث عن العرب الجاهليين في مجال التشريع بنوعيه الوضعي والديني نقول :

اما من ناحية التشريع والقانون فهو كما نقول أنه من المعروف أنه لم يكن هناك قانون بهذا المعنى ، وكل ما كان هناك هو العرف الاجتماعى ، فى صورة أعراف وتقاليد تواضع عليها المجتمع نتيجة لظروفه ومقتضيات حياته ومعيشته كتحريم القتال فى الأشهر الحرم ، وحماية الجار ، وخلع الشخص الذى تكثر جناياته فيعلن قومه أنهم برآء منه ومن جناياته فلا يأخذهم أحسد بعده بعريرة له (١) .

الا أن هذه الأعراف كان ينقصها وجود القوة التي تضمن تنفيذها ، فلم يكن لها من قوة أو سلطة الا العرف الاجتماعي ، ولهذا كان تنفيذها يتأثسر بالاعتبارات الذاتية أكثر من القيود الاجتماعية ، بمعنى أن القبيلة تجاه هذه الأعراف ، كانت تنظر الى ذاتها أولا ، فاذا وجدت في نفسها الشجاعة والقرة بحيث لا تستطيع القبائل الأخرى أن تجبرها على تنفيذها كانت حينئذ ترى نفسها في حل من التقيد بها ، ما لم يرتبط بها معنى آخر كالاعتزاز بالكرامة والحلق ، حين ترى في التحلل من الموقف الذي يقتضيه العسرف ما يسى الى سمعتها أو كيانها بين القبائل ، على أن مسألة المجتمع كانت تأخذ أحيانا وضعا نسبيا ، فتستطيع القبيلة اذا كانت ذات كيان قوى أن تجعل من نفسها مجتمعا خاصا يمكن أن يخالف عرف المجتمع العام اذا وجدت في ذلك مصلحة درم بالحج من داخل الحرم ، في حين كان يتعين على سائر العرب أن يحرموا من خارجه ،

ولهذا نجد التقيد بهذه الأعراف يأخذ عند العرب طابعا عجيباً من التناقض، فيتشبثون أحيانا بها الى حد المبالغة الشديدة ، ويستهينون بها أحيانا الى حد التجاهل ، بل قد يتعدون حدودها الى النقيض .

⁽١) القاموس المحيط مادة خلم .

فبثلا ايواء الضيف ، كان من هذه الأعراف ، حتى أن ما يترتب عليه من المود والبلل كان من أهم معرمات السيادة ومجالات الفخر ، وقعه بلغ من كالشائهم فيه الى حد مثل قصص حائم الطائي المشهورة في الجود ، والى مثل الساة أبي خراش _ احد معاليك بني هذيل _ التي كان حرصه فيها على اكرام شبيوقة سببًا في هلاكه ، حينما أخذ يهيى. لهم الطعام والذبيحة ، ثم رجــاهـم الله يعشروا ماء من مكان قريب فأبوا الا أن يعضره هبسو ، فنزل على ارادتهم وأحشر الله ، ولكنه أثناء عودته به تلدغه حية ، ولكنه يتحامل على نفسه فيكمل وسطته بالماء اليهم ، ويزداد تحاملا فيابي الا أن يتم لهم الطعام دون أن يخبرهم على الله المعلم عليهم شهيتهم للطعام ، وتبلغ الصورة ذروتها حينما يبيت عندهم وجو يمالي سكرات الموت دون أن يخبرهم بامر اللدغة ، حتى لا يفسسد على أورجهم التمتع بضيافته وبالنوم الهنيء، ثم يصبحون فينظرون فاذا هو يحتض ويكون ختام ضيافتهم تشييع جنازة أبي خراش ، وقد عقب عمر بن الخطاب بعد على قصة أبى خراش وأضيافه اليمنيين ، بأنه لولا أن تذهب سنة الأمسس 🌿 يستشاف يمنى بعدها أبدا ، (١) وجعل الأصمعي هذه القصة سبيا في نهى التي عن اختنان فم القربة (٢) بل قد تذهب المالغة ببعضهم الى حسد استطاقة الوحوش ، كما فعل الفرزدق بن غالب حينما استضاف ذائبا ، وابي الله الله الله الله المعام ليقول بعد ذلك مفتخرا ٠

وأظلس عسسال وما كان صاحبسا ظما دنسا قلت ادن دونسك انني فبت السد الزاد بيني وبيشه وقلت له لما تكثر فاحكيا تحش فان عاهسدتني لا تخونني وأثت أعرؤ يا ذئب والغساد كنتما ولو غرنسا نبهت تلتمس القسرى

رفعت لنـــاری موهنا فاتانی (۳) وایاك فی زادی اشتركـان على فىسوء نساد مرة ودخسان وقائسم سیغی من یدی بمکان نكن مشل من يا ذئب يصطحبسان اخيين كانسا ارضعسا بلبان رماك بسهم أو شباة سنان(٤)

ومع حلم الصور التي ترتفع بالاهتمام بالضيف وبالجود الى هذه الدرجة نجد صوراً أخرى تنزل به الى أدنى درجاته بل تتجاوز حدوده الى صور غريبة من البخل والشم تبلغ من كثرتها حد أن يغرد لها الجاحظ كتابا كاملا (٥) •

ومن أعرافهم حفظ الجوار ، فقد كان من حق الحليع والمستضعف والحائف وغيرهم أن يلجأ الواحسد منهم الى من يجيره ، ومن الحق على المجير أن يعدمى

⁽۱) خزالة الأدب للبقدادي ج ١ ص ٢٩٧ .

⁽١) الميوان للباط بد ؛ ص ٢٦٧ واختنائها الشرب من ليها بعد كسره الى الحارج • (٢) الأطلس الذلب الأغير ، وحسال خليف المشية : وقعت لنارى أى وقعت المارى له اى أطهرتها له ليحشر اليها ه

۲۱٦ من ۲۱٦ ٠

 ⁽⁴⁾ الخر كتاب البخلاء للجاحد .

جاره مما يحمى منه نفسه وأهله ، ونرى في هذا العرف أيضا صبورا من المتناقضات فأحيانا تبلغ صور المحافظة على الجوار الى ذروة الرفاء ، كالسموال ابن حيان الذى يضرب به المثل فى الوفاء (۱) والذى بلغ من وفائه أن أمرا القيس الكندى استودعه دروعا له ثم مات ، فاراد ملك كندة أن يستولى على هذه المدروع فأبى السموال أن يسلمها الا الى ورثة امرىء القيس ، فغزاء الملك وحاصره ، فتحصن منه السموال ولكن الملك اسستطاع أن يأسر ابن السموال ، ثم طلب الملك السموال فأشرف عليه من الحصن ، فقال له الملك متوعدا وابن السموال عنده : سأذبح ابنك أن لم تسلم الدروع وتحت وطأة البشاعة التي ارتسمت في نفس السموال لذبح ابنه قال له : أنظرني الى غد ، ثم جمع قومه وأهل بيته فكلهم أشار بتسليم الدروع ، ولكن الوفاء كان أقوى في نفس السموال من كل شيء ، فحين أصبح أشرف على الملك مكررا رفضه في حزم واصرار ، وجاء الملك بابن السموال ليذبحه أمام عينى أبيه ، ثم ذبحه والسموال ينظر اليه ، واحتفظ السموال بالدروع ، ثم قدم بها الموسم فسلمها والسموال ينظر اليه ، واحتفظ السموال بالدروع ، ثم قدم بها الموسم فسلمها الى ورثة امرىء القيس ثم قال :

وفيت بادرع الكنـــــــــــــــــــــــ اذا ما خـــان اقــــوام وفيت وقالـــوا انــه كـنـــز رغيب ولا والله اغـــد ما مشيت (٢)

بل بلغ ببعضهم أن يجير بالقبر ، كما كان الفرزدق يجير من استجار بقبر أبيه (٣) كما أجار المرأة الجعفرية التي استجارت بقبر أبيه وفي ذلك يقول : عجود تصلى الخمس عادت بغالب فلا والذي عادت به لا اضيرها (٤)

بل كان بعضهم يجير الوحوش فتصبح حمى له لا يمس ، كما كان كليب ابن ربيعة يقول:

« وحش ارض كذا في جواري ، فلا يهاج » (٥)

ومع ذلك فهناك صور أخرى كان ينزل فيها الحفاظ على الجار الى درجة واهية من الوقاء ، تبلغ أحيانا حد التجاهل والتنكر ، فمن ذلك قصة السليك ابن السلكة مع ابن مويلك الخثعمى ، فقد استجار السليك بابن مويلك ، واذا أسد بن مدرك الخثعمى يعدو على السليك وهو قافل من احدى غزواته فيقتله ، واراد ابن مويلك مجيره أن يثار له أو يطلب ديته ، ولكن أسدا يقسول :

⁽١) مجمع الأمثال للميدائي جد ٢ ص ٢٧٤٠٠

۲۷۰ ، ۲۷۶ می ۲۷۴ ، ۳۷۰ .

⁽٣) الكامل للمبرد بدا ص ٢٩١٠ •

⁽٤) الكامل للمبرد جد ١ ص ٢٩١ .

 ⁽٥) خزالة البلدادي جـ ٢ س ٢٤ والبلد التريد جـ ٢ ص ٧٨ ٠

والله لا أديه ولا كرامة ، ولو طلب في ديته عقالا ما أعطيته ويقول : الله وقتسل سليكا ثم أعقله كالشور يضرب لما عافت البقر (١) ومكذا تنتهى حياة السنيك دون ثار أو دية ، كما كان ينبغى في عسرف الجاهلية

ومحرز بن المكعبر الضبى يهجو بنى عدى الذين أغير على ابله فلم يحركوا ساكنا وهو جارهم ، حتى اضــط الى أن يستجير بجيران آخــرين من بنى مازن (٢) فيقـــول :

أبلغ عديسا حيث صادت بها النوى وليس للهسسر الطالبين فنساء كسالى اذا الاقيتهم غير منطق يلهى به المتبول وهو عنساء فهلا سعيتم سمعى عصبة مازن وهل كفلائي في الوفاء سواء ؟ (٣)

وهكذا حين نتنبع تقيد المجتمع الجاهلي بأعرافه وتقاليده (٤) ، نجه هذا التقيد يخضع أكثر ما يخضع لعاملين ، القوة والمنفعة الذاتية ـ لا العهامة _ فحيثما وجدت المنفعة الذاتية كانت أول الأهداف ، وهذا لا يمنع أن تكون هناك أهداف أخرى من المصلحة العامة والحفاظ على الحلق الاجتماعي والتقاليد المتوارثة ، ولكنها جميعا ناتي بعد ذلك الهدف ، وهو المصلحة الذاتية ،

ونخلص من هذا الى أن أحد شقى التشريع ، وهو القانون الوضعى لم يكن معروفا لدى العرب الجاهلين ، وانه كانت هناك أعراف وتقاليد اقتضتها طروف المجتمع وطبيعته ، ولكن هذه الأعراف لم تأخذ صفة الالزام بحيث يتقيد الأفراد بالتزامها ، ولعدم وجود سلطة تقوم على تنفيذها .

والصعاليك كانوا اقدر أفراد المجتمع على انتهاك هذه الأعراف والتنكر لها ، لانهم يملكون أمرين مهمين في هذا المجال ، أحدهما القوة المتحررة من كل قيد وسلطان ، والتي تسير دفة الحياة في مجتمعهم ذاك ، والآخر أنهم أكثر أفراد

⁽١) مهلب الأغاني للخضري ٢/١٦٧ .

⁽٢) شرح ماسة أبي تمام للتبريزي جد ٢ ص ١٩١٠ .

 ⁽٣) ديسوان الحماسية لابي تمام ج ٢ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ • والنوى : البعد • والشطر الثاني من البيت الأول معناه أن الثار لا يذهب مادام صاحبه يطلبه • والمتبول : ذو المعاوة والحقد •

^(\$) وعن النهاك تقليد الحرم أنظر معجم ما استعجم للبكرى جد؟ ص ٥٣٠ فى قتل زهيد بن هرة محرما وشعر أبى خراش فيه وأنظر أيضا لسان العرب مادة فتك عن فتك النمان وقتله في بنى عوف بن كعب أثناه الشهر الحرام وشعر المخبل السعدى فى ذلك وانظر هجاء أبى خراش قى الندر بالجوار ديوان هذيل ؟

المجتمع وطوائفه تحللا من روابطه وعراه ، بل لا يربطهم بالمجتمع الا ما يرون فيه منفعة لهم ، سواء كانت مادية أو أدبية ، لذلك لم يكن المجتمع بما فيه تقاليد وأعراف حجرا على حريتهم وسلوكهم ، ولذلك نرى الشنفرى يقتل قاتل أبيه وهو محرم بالحج ، مخالفا بذلك عرف المجتمع ، بل مفاخرا بذلك فيقول :

قتلنا قتيسلا مهديسسا بملبسد جماد منى وسط الحجيج المسوت جزينا سلامان بن مفرج قرضهسا بمسا قدمت ايديهم واذلت (١)

وأما عن الشبق الآخر من التشريع ، وهو التشريع الديني فنقول :

الواقع أن الأديان نوع من التشريعات ، سواء أكانت تشريعا روحيا ، وخلقيا اجتماعيا ، كسائر الأديان ، أم كانت تشريعا كاملا ، روحيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، وهو الاسلام بالذات •

وفى كل حال فالدين نوع من التشريع ، والقوة التى تحمى هذا التشريع هي الايمان ، الايمان بأن وراء هذا التشريع قوة تحميه ، وتعاقب وتثيب عليه ، ولذلك نجد سلطان الأديان وتأثيرها محصورا في المؤمنين بها ، ونعنى بهذه القوة القوة الالهية لدى المؤمنين بالأديان السماوية ، وحين ننظر الى السدين في الجزيرة العربية قبل الاسلام ، نجد أن الوثنية هي الدين الغالب ، ان كان للوثنية أن تسمى دينا ، بل تكاد تكون هي الدين الوحيد الذي طغي وسيطر عليها ، فباستثناء الأقليات المتنصرة في شمال الجزيرة وخاصة في غسان ، وفي جنوبها وخاصة في نجران والجماعة التي تهودت في اليمن بزعامة (أسعد أبو كرب) أحد ملوك حمير (٢) وما انبئق عنها من جماعات محدودة ، وخاصة في يثرب (المدينة) وما حولها ، باستثناء هذه الأقليات كانت الجزيرة بصفة عامة وثنيسة ،

على أننا نلاحظ أن هذه الأقليات كانت منزوية منطوية على نفسها ، ولم يكن نشر أديانهم والتبشير بها من أهدافهم ، وحتى المتحنفون (٣) لم يكن تنصرهم تأثرا بغيرهم ، وانما كان هروبا من الوثنية التي لم تسغها عقولهم ، ومرحلة من مراحل سعيهم وراء الحقيقة الكاملة التي أظهرها الاسلام ، فلم تحدثنا الأخبار عن نشاط تبشيرى في الجزيرة ، الا ما كان من (يوسسف دو نواس) الحميرى الذي حرق المسيحيين في نجران ليحملهم على اليهودية (٤) ، والذي أثار عمله هذا موجة من النشاط الديني لأول مرة في الجزيرة ، حيث

⁽١) المفضليات للضبيي ص ١١١ وبنو سلامان بن مفرج هم قبيلة حرام بن جابر قاتل أبيه وأنظر لسال العرب مادة فتك عن التهالي هذا العرف ٠

⁽٢) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جد ١ ص ٢٨٠٠

⁽٣) ورقة بن نوفل وزملاؤه ٠

⁽٤) تاريخ الإسلام للدكتور حسن ابراهيم جـ ١ ص ٢٩ وكان ذلك سنة ٣٤٥ م ٠

ترتب عليه أن غزت الحبشة اليمن لتثار لشهداه دينها ، ثم حاولسوا نشر المسيحية بهنم الكعبة الذى لم يستطيعوا تحقيقه كما فى قصة الفيل المعروفة ، وكافئ عده الموجة قبيل الاسلام ، كما كانت من عوامل التمهيد النفسى له ، حيث سرت فى الحجاز لأول مرة موجة حية من الاحساس بالأديان السماوية والمحراع حولها ، فالحجاز بالذات كان مركز الوثنية الذى لم تزعزعه هسزة دينية قبل الامسلام ،

ومهما يكن من شيء ، فلم يكن هناك دين يوصف المجتمع الجاهل بالانتماء له ، وأما الوثنية فلا توصف بأنها دين ، وانما هي مظهر من مظاهر البدائية لا تشريع له ، وقصاري تأثيرها في المجتمع من الناحية الروحية ارضاء جانب من غريزة التدين في الانسان ، واحساسه الفطري بالقوة الالهية ، ولذلك يعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله « وقالوا ما نعيدهم الا ليقربونا الى الله زلفي ، على أف عبادتهم للاصنام آلت الى نوع من التنافس والعصبية ، حيث خصت كل قبيلة نفسها باله (صنم) تعبده وتتقرب اليه ،

وأما من الناحية الاجتماعية السلوكية فلم يكن لعبادتهم الأصنام فيها أثر ، فلم تحدثنا الأخبار فيما نعلم أن أحدا منهم امتنع عن سلوك معين خوفا من الأصنام ، أو زاول سلوكا معينا تقربا اليها .

واذا كانت عبادة الأصنام لم تحمل أحدا من الأفراد العاديين في المجتمع على شيء ، ولم تستطع أن تمنح أحدا منهم عن شيء ، فأولى ألا تحمل ولا تمنع الصعاليك والفتاك ، الذين لا يؤمنون بشيء الا بأشخاصهم ، ضاربين بالمجتمع وما قيه ، وبسخطه ورضاه عرض الحائط ، كما يقول أحدهم :

غلام اذا ما هم بالفتك لم يبل الامت قليسلا ام كثيرا عدواذله (١)

وحتى المشورة التي تواضع المجتمع على انها سداد وحزم ، يرونهما هم ترددا وعجزا ، كما يقول قائلهم :

وما العجر الا أن تشساور عاجزًا وما الحسرم الا أن تهسم فتفعلا (٢)

وثنتهى من هذا الحديث الى أنه لم تكن هناك سلطة من دولة أو قـــانون أو دين ، تمنع وجود طائفة كالصماليك ، أو تحجر على سلوكهم حين يوجدون .

⁽١) الكامل للميرد بد ١ ص ٢١ -

⁽٢) للسنر السابق •

على أن عدم وجود هذه السلطة ترتبت عليه أمور أخرى نعتقد أنها ساهمت في نشأة الصعلكة وفي انتشارها ، وأهم هذه الأمور ظهور زعامات غير متزنة في المجتمع الجاهلي ، كانت هذه الزعامات تتمثل في رؤساء القبائل والعشائر ، وهؤلاء الرؤساء لم يكن هناك قانون ينظم وصولهم الى الرياسة ، وانما كانت هناك صفات تعارفوا على أن يسودوا من أجلها من يتحلى بها ، وأن اختلفت نظرة القبائل الى هذه الصفات ، وصاحب الخزانة يسوق لنا طرفا منها نقلا عن الجاحظ في كتاب شرائع المروءة : وكانت العسرب عن الجاحظ فيقول « قال الجاحظ في كتاب شرائع المروءة : وكانت العسرب تسود على أشياء ، أما مضر فتسود ذا رأيها ، وأما ربيعة فمن أطعم الطعام ، وأما البحن فعلى النسب ، وكان أهل الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ست خصال ، السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان وأصبحت في الاسلام سبعا ، وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ قال ببذل الندى ، وكف الأذى ، ونصرة المولى ، وتعجيل القرى ، وقد يسود الرجل بالعقال والعفة ، والأدب والعلم ٠٠٠ (١)

ولكنا مع ذلك نجد أن هذه الصفات ليست ملتزمة ، والرواة أنفسهم يتحدثون بذلك ، فصاحب الخزانة أيضا ينقل عن الأصمعى « قال الاصمعى : ذكر أبو عمر بن العلاء عيوب جبيع السادة وما كان فيهم من الخلال المدومة الى أن قال : ما رأيت شيئا يمنع من السؤدد الاقد رأيناه فى سيد ، وجدنا الحداثة تمنع السؤدد ، وساد أبو جهل بن هشام وما طر شاربه ودخل دار الندوة وما استوت لحيته ، ووجدنا البخل يمنع السؤدد ، وكان أبو سفيان بخيلا عاهرا ، وكان عامر بن الطفيل بخيلا قاهرا وكان سيدا ، والظلم يمنع من السؤدد وكان كليب بن وائل ظالما وكان سيد ربيعة ، وكان حديفة بن بدر طالما وكان سيد غطفان والحمق يمنع السؤدد وكان عيينه بن حصن أحمق وكان سيدا ، وقلة العدد تمنع السؤدد وكان السيل بن معبد سيدا ولم يكن بالبصرة من عشيرته رجلان والفقر يمنع السؤدد وكان عتبة بن ربيعة معلقها وكان سيدا » (٢) .

ومن هذا الاختلاف والاضطراب في تحديد مقومات الرياسة والسيادة ، وفي الطباق هذه المقومات على الذين تسند اليهم السيادة والرياسة نقول أنه من الواضح أنه لم يكن للزعامة كما قلنا قانون وأو عرفي ينظم الوصول اليها .

ومن باب أولى لايوجد قانون ـ ولو عرفى أيضا ـ يحدد المقومات التى ينبغى التحلى بها أو المحافظة عليها أثناء الزعامة ، وآية ذلك أن الروايات فيما

⁽١) خزانة الأدب للبقدادي جـ ٢ ص ٢٦٩ ٠

⁽٢) المعدر السابق ج ٢ ص ٢٧٠ ٠

نعلم لم تحدثنا عن زعيم خلعه قومه من الزعامة لاختلال مقومات معينة ، أو اخلاله بصفات محددة ، ومن ذلك مؤلاء الذين عددهم الأصمعى آنفا •

ويمكن أن نستخلص مما تحدثنا به الروايات عن نظرة العسرب الى السيادة ، أنها كانت تحتاج الى دعامتين ، أولاهما قوة الشخصية ، ونعنى بقوة الشخصية المدلول الخاص لهذا التعبير ، وليس مجرد القوة أو شدة البأس ، فقد كان في القبائل كثير من هذا النوع ، وكانوا يوصفون بأنهم شجعان أو فرسان أو فتاك ، ولكن لم يوصفوا بأنهم سادة ، والدعامة الثانية هي الوراثة ولو غير المباشرة ، بأن يكون طالب الزعامة من بيت ألفت فيه الزعامة ، سواء كان أبوه زعيم أم غير زعيم ،

وليس هذا الجديث مما يعنينا لذاته ، وانما يعنى الموضوع منه أنسه حينما لم تكن لهؤلاء الرؤساء ضوابط أو أسس تقوم عليها رئاساتهم اندفع بعضهم في بغي لا يتقبله المجتمع ، وظلم تأباه طبيعة مجتمع لم يألف الذل قط ، بل ولا مجرد الخضوع ولكن هذا البعض استطاع أن يستغل بعض الظروف في شخصيته أو عصبيته ، فيطغي ويبغي ، كما فعل كليب حين كان يحمى المراعي والوحوش ومواقع السحاب (١) وصورا أخرى من البغي والطغيان من وكهؤلاء السادة الذين تحدث عنهم الأصمعي آنفا (٢) ، وهذا البغي والطغيان من شأنه أن يدفع بعض النفوس الأبية الى التمرد ومحاولة صده والحروج عليه كما فعل جساس بن مرة في قتله كليبا ، وكما فعل علقمة بن علائة في صراعه مع عامر بن الطغيل الذي عده الأصمعي من السادة القاهرين الظالمين كما سبق،

على أنه من مظاهر ظلم بعض هؤلاء السسادة احتكارهم موارد الرزق المحدودة في البيئة ، وتضييقهم بذلك على الناس بما فيهم أقوامهم ، ويدل على ذلك ما تفيض به الأخبار من ثراثهم الفاحش أذا قورن بالفقر الشسديد الذي يعانيه الناس من حولهم ، ومن أمثلة البغى في مصادر الرزق ما سسبق من احتجاز كليب التغلبي سيد ربيعة للمراعي بل ولمواقع السحاب لنفسد دون الناس جميعا بما فيهم قومه ٠

وبذلك يكون مؤلاء السادة قد ساهموا مع الظروف في قسوتها على مجتمع محدود الموارد • ومن الطبيعي أيضا أن يكون هذا السلوك من جانب بعض الرؤساء عاملا من عوامل تمرد بعض الأفراد ، ولجوثهم إلى وسائل كالصعلكة •

فاته اذا كان في المجتمع من يابي الظلم ويتمرد عليه ، ويرفض البغي ويتصدى له ، واذا كان في المجتمع من يؤلمه الفقر الذي سماهم السادة في

⁽١) خُزَانَةُ الْبِغْدَادي جِ ٢ ص ٢٤ ، والمئد النريه ج ٣ ص ٧٨ ٠

۲۷۰ مرانة البغدادي بد ۲ من ۲۷۰ .

خلقه ، وإذا كان في المجتمع من تغريه أموال هؤلاء السادة بالتلصص اليها والسطو عليها ، فأولى الناس بذلك هم الصعاليك ، لأنهم أكثر الناس امتلاكا للوسائل المضادة ، وأقواهم على استخدامها ، سواء أكانت مضادة البغى والظلم ، أم مضادة الاحساس بالفقر ، أم مضادة الثراء والغنى .

٣ _ علم التوازن بين الفقر والفنى:

أجمعت كتب اللغة ومعاجمها كما رأينا ، وكذلك دوائر المعسارف التى أخذت عنها (١) على أن أصل الصعلكة الفقر ، ولا شك أن هذا يلقى ضوءا قويا على نشأة الصعلكة وكذلك على حياة الصعاليك المادية ، حيث يبين من هذا الضوء أن من أبرز ما قامت عليه الصعلكة في نشأتها وفي حياتها الفقر *

وشعر الصعاليك أنفسهم ينطق بهذه الحقيقة ، بل يمكن أن يقال أن الفقر
كان أبرز المعانى التي ترددت فى شعرهم على الاطلاق ، بل نكاد لا نجد شاعرا
منهم لم يتحدث عن الفقر فى صورة من صوره ، وصور الفقر عند الصعاليك
لم تكن تمثل فقرا عاديا ، وانها فقرا قاسيا ، وكانت آثاره من الجوع والهزال
والحرمان أشد امعانا فى القوة ، والسليك يرسم لنا صحورة بينة الصدق عن
الجوع وآثاره ، فيقول أنه حتى فى الصيف الذى تكثر فيه البحان البحادية
وخيراتها يبلغ منه الجوع أحيانا أن يأخذه الدوار حين يقف فتظلم عيناه ،
يقول :

وحتى رايت الجبوع بالصيف ضرنى اذا قمت تفشاني ظلال فاسدف(٢)

ولحديث الشعر عن الفقر موضعه حين نتحدث عن الشميع ، ولكن الذي يعنينا الآن هو مساهمة الفقر في نشأة الصعلكة وحياتها ، من ذاوية اتصاله ما أعنى الفقر ما بالفتى •

والواقع أن الفقر ليس جديدا ولا غريباً على البيئة في الجزيرة العربية ، وخاصة في الحجاز (٣) فهي بيئة أهم مواردها الرعى ، ثم قليــــل من الخصب الزراعي في مناطق محدودة من اليمن وخاصة بعد تهدم سد مأرب ــ وفي شمال الجزيرة ، وبقع متناثرة في تجد وحول يثرب (المدينة) يضاف الى ذلك النشاط

⁽١) مثل دائرة معارف القرن العشرين جد ٥ مادة (صملك)

 ⁽۲) مجمع الامثال للميدائي به ۲ ص ۱۰ ومهلب الافائي به ۱۹۷/۲ واسدف أي دخل في السدفة وهي الظلام -

⁽٣) أنظر مقدمة ابن خلدون ص ٨٣ المقدمة الخامسة قصيل اختلاف أحوال العبران في الحميب والجو .

التجارى الذي يعتمد على موارد البيئة من ناحية ، واحتياجاتها من ناحية آخرى -وكلامما تبعا لذاك معدود أيضا ·

واذن نالفقر من حيث هو ليس غريبا ولا نادرا في بيئة كهذه البيئة ولكن الفقر من حيث هو لا نعتقد أنه يكفى أن يكون سببا في الصعلكة ، وانمسان نمتغد أن الاحساس بالفقر هو الذي يصلح أن يكون سببا ، والفرق كبير بينه الفقر والاحساس به من حيث ما يترتب عليهما من آثار في حياة صاحبيهما ، وليس هذا الفارق في الفقر وحده ، وانما في كل الماني التي يمكن أن تترتب عليها آثار اجتماعية ، فالثورات على الظلم مثلا ليس مصدرها الظلم نفسه وانها مصدرها الله المسلم بالظلم نفسه

ولا نعنى بالاحساس مجرد العلم ، فكثير من الفقراء يعلمون أنهم فقراء والقروض أن يعلم الفقير أنه فقير ولكنهم مع ذلك يستكينون لقسطهم وحظهم من المياة ، لأن هذا العلم لم يبلغ من نفوسهم مبلغ الانفعال والتأثر ، ولكن بعضا آخر منهم يبس هذا الاحساس نفسه ، ويثير حوافزها فيترتب على ذلك ما يترتب في حياته من سلوك وأحداث ، وهناك عوامل في المجتمع من شانها أن توجه اللقر نفسه ، وتوجه الاحساس به ، ومن أهم هذه العوامل ما ياتي :

١ - ضعف موارد البيئة جعـــل ميزان التعــادل بين الافراد والجماعات حساسا من الناحية المادية فاذا أثرى فرد كان ثراؤه على حساب الآخرين ، واذا غنيت جماعة كان غناما يمثل حبوطا أو فقرا في حياة جماعة آخرى من الناحية المبيئية والمادية ، كما يعبر المعرى عن هذا المنى في سياق فلسفى فيقول .

غن زيد يكسون لفسائر عمسرو فلا فقسر يسدوم ولا غنسسا-

ومن الطبيعي الا يكون هناك توازن أو تقارب في الثروة بين الافراد وبين الجماعات في بيئة أبرز شرائعها السيف وشعة البأس ، فكلما كان الفرد أشه بأسا وأمضى سيفا أتيع له أن يحصل على أكبر قدر من كل شيء ، ومن هسند الأشياء الثروة ، وكلما كانت الجماعة أو القبيلة أشد بأسا وأرهب جانبا دنت منها الأهدال والقايات وفي مقدمتها الثراء .

واخبار الثراء الفاحش الذي وجبل اليه بعض المرب دون بعض تفيض بها الروايات والأخبار وبعضها مشهور كثراء عثمان بن عفان وصفوان بن أمية منذ الجاهلية ، وكالاف الآلاف التي تركها عبد الرحمن بن عوف عند موته ، بل كان بعضهم يحتكر لنفسه موارد الطبيعة من المراعي ومواقع الغيث ، كقصص كليب المشهورة ، ومن مؤلاء الأثرياء غالب أبو الفرزدق ، الذي أصاب الناس مجاعبة فكان ينحر لقومه كل يوم ابلا يطعمهم حتى نحر ذات يوم مائة ناقة (١) ، وبلغ

⁽١) خزالة البغدادي ب ٢ ص ٢٤٦ وفي الأمال ب٢٠ ص ٥٣ أن الإبل التي تسرما مائطل

من شهرته بكثرة ابله ، أنه حين دخل على على بن أبي طالب سساله على : من الشيخ ؟ قال : أنا غالب بن صعصعة ، قال هو الابل الكثيرة ؟ قال : نعم (١) ، ومن هؤلاء أيضًا سحيم بن وثيل بن حنظلة الذي نافس غالبًا في نحر الابل ، فنحر لقومه ذات يوم نحو ثلاثبائة ناقة (٢) •

ويتضبح هذا الثراء ني الديات والمغارم التي كان يلتزمها سادة القبسائل وزعماؤها في الجنايات لتي كانت و تعفي بالمثين (٣) ، من الابل كما يقـــول زهير بن أبي سلمي في قصيدته المشهورة ، وكما فعل الحارث بن أبي سفيال الذي الزم نفسه دية قدرها الف بعير (٤) ، وكما فدى هوذة بن على نفسه من أس بني سعد بثلاثمائة بعير (٥) ، وكما تحمسل حاتم عن قيس بن خفاف ثلاثمائة بعير (٦) ومصــادر هذه الثروة كانت الابل ومراعيها في البادية أما في المدن فكانت مصادرها التجارة ، كتجارة قريش الشهورة ، ورحلتيها في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام (٧) كل عام وهما اللتان يتحدث عنهما القرآن الكريم في قوله تعالى « لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشـــتاء والصـــيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ، وكلطائم النعمان بن المنذر ، التي كانت تشبه القوافل التجارية ، يرسلها الى الأسواق لتباع فيها ، ومن ذلك أنه كان يرسل الى سوق عكاظ كل عام بلطيمة تباع له مناك (٨) بالسوق ٠

ونتيجة لذلك نجد فضلا عن الافراد جماعات وقبائل اشتهرت في جملتها بالثراء منذ عصمور الجاهلية كقريش الذين يصمفهم الزمخشري بأنهم كانوا كسابين بتجارتهم وضربهم في البلاد(٩) وكآل المنذر لما لهم من امارة ولطأثم كما سبق ۱

⁽١) أمالي القالي ب ١ س١٥٣٠

⁽۲) خزالة البغدادي جـ٣ ص ٢٤٩ وفي المعدر نفسه جـ ١ ص ١٨٢ عن ابن دريد أن سحيما عاش في الجاهلية أربعين سنة وفي الاسلام ستين سنة وغالب بن صعصعه معاصر له فثرازهما يمثل الجاهلية والاسلام والقصة أيضًا في الامال جـ ٣ ص ٥٣ ٠

⁽٣) خزانة البقدادي جـ٢ ص ٢١٧ وتعفى أي تمحى بالثنات يقصه الديات ٠

⁽²⁾ شرح حماسة ابن تمام للعبريزي بد ٢ ص ١٧٤ ٠

۱۰۹۵ معجم ما استعجم للبکری ج ۳ ص ۱۰۹۵ ۰

^{· 11/4 7/11 (4)}

⁽٧) تفسير الكشاف (سورة قريش) الجزء الرابع ص ٦٣٩ •

⁽٨) مجمع الأمثال ج ٢ ص ٨٧٠٠

⁽٩) تفسير الكشاف د سورة قريش) جد ٤ ص ٦٤٠٠

وهذا الثراء المجاور للفقر ، هو الذي نعنيه في اثارة الاحساس بالفقر ، وفي آثارة التطلع للغني معا ، فبعض الفقراء الذين وجدوا في نفوسهم صعات خاصة – هي صفات الصعاليك – من حساسية النفس وقوة العزيمة ، آلم هذه المساسية في تفوسهم أن يرتعوا في البؤس والحرمان ، بينما يلاصقهم أناس آخرون يرتعون في الثراء والنعيم ، وقد لا يكون كثير من هؤلاء الأغنياء أحت منهم بالغني ، ثم ينظرون قاذا في نفوسسهم قوة قوية ، وارادة ماضية ، ففيم استكانتهم لحرمان لا يرونه حقسا عليهم ؟ وفيم قعودهم عن آمال لا يعجزهم تحقيقها ، أو تحقيق بعضها على أسوأ الظنون ؟ وفيم رضاهم بالهوان بين الناس ؟ والعصاليك أنفسهم يتحدثون عن جولان هذه الماني في نفوسهم ، فهذا عروة ابن الورد يخاطب أمراته قائلا :

ذرينى للغنى اسسعى فانى واحقسرهم واهونهسم عليهسم يبسساعاه القسريب وتسزدريه وتلقى ذا الغنى وله جسلال قليسل ذنبسه والذنب حتم

وكما يقول تابط شرا .

رأیت النساس شرهم الفقسیر
وان اسی لسه کسرم وخسیر
حلیلته وینهسره العسسسغیر
یکاد فؤاد مسساحیه یطسیر
ولکن للغنی رب غفسور (۱)

اذا المرء لم يحتسل وقد جد جده أضاع ولاسي المره وهو مدبر (٢)

Y - تواحى البيئة نفسها غير متفقة في خسبها وجودها بالحير ، فمع أن الجزيرة السربية معروفة بأنها منطقة صحراوية جبلية في جملتها ، تتمثل في سلاسل من الجبال والصحراوات تتخللها طولا وعرضا ، وتعتمد على الامطار التي تتساقط في فترات متقطعة على أرض غير خصبة ، وعلى قليل من العيون التي تشبه الآبار ، والتي غاية ما يرجى منها أن تكفى الملتفين حولها في مشربهم وحفظ حياتهم ، نقول مع ذلك نجد في الجزيرة مناطق محدودة اشتهرت بالخصب والجودة، وقد يكون هذا الخصب نسبيا ، أعنى بالنسبة الأرض المجدبة حولها ، ولكننا لا يعنينا تقويمها لذاتها ، وانها تعنينا نظرة المجتمع حينداك اليها واكباره لخصبها وتطلعه الى هذا الحصب ، فمن هذه المناطق المشهورة بالخصب بعض الاماكن في اليمن وخاصة فيما حول مارب حين جعل السبايون منها جنة فياضة بالحيرات ، كما يصف القرآن الكريم ذلك في قوله « لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان كما يصف القرآن الكريم ذلك في قوله « لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان غريبين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فاعرضوا فأرسلنا عليهم سبيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط وأثل وشيء فأرسلنا عليهم سبيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط وأثل وشيء

⁽١) العقد اللريد جه ١ ص ٢٣٧ (ياب السعى للرزق) ٠

⁽۲) ديوان الحماسة لأبي تمام ج ١ ص ١٧. •

من سدر قليل ، (١) ويقول ابن عباس عن خصبها « كانت اخصب البلاد واطيبها تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيدها وتعبر بين تلك الشجر فيمتلي المكتل بما يتساقط فيه من الثمر ، (٢) .

ومن همذه المناطق الخصبة الطائف وما حولها وشهرتها كمصيف لسادة العرب، وشهرتها أيضا بكرومها وثمارها قديمة منذ عصور الجاهلية ،ومن كرومها هذا الحائط لذى لجأ اليه النبى صلى الله عليه وسلم فى أزمة لجوئه الى ثقيف وتخلى ثقيف عنه وايذائها اياه فى القصة المشهورة ومن مناطق الحصيب المشهورة أيضا يثرب (المدينة) المعروفة بثمارها وخاصة النخيل ، ومنها أيضا منطقة نجد فى بعض نواحيها ، ومنها بعض مناطق السماوة ، مثل بيشة التى وصف جرير بن عبد الله خصبها للنبى صلى الله عليه وسلم (٣) ومنها قطر ألتى اشتهرت فى القديم بكثرة خمورها (٤) لكثرة الكروم فيها ، ومنها اليمامة التى يقول عنها الطبرى « واليمامة اذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيرا ، لهم فيها صنوف الثمار ، ومعجبات الحداثق » (٥) والحصب البادز فى هذه المناطق كان يجاوره فقر مدقع فى المناطق نفسها بتفاوت أفرادها فى الثراء وطغيان بعضهم على أنصبة الآخرين فيها ، وكان يجاوره أيضسا فقر مدقع فى الأحياء والقبائل القريبة منها بطبيعة الحال ٠

وهنا يثور الاحساس بالفقر عنه بعض الفقراء ، حين يجدون جيرتهم واقرباءهم يتمتعون بما يتمتعون به ، في الوقت الذي يعانون فيه هم ما يعانون ، وهنا أيضا يثور في نفوسهم التطلع للغني والحصول على المال ، حين يجدونه قريب المنال .

وليس من المصادفة أن نجد معظم الصعاليك والفتاك ينتمون الى هذه المناطق الحصبة ، فمثلا نجد من منطقة مأرب عددا كبيرا ، ومنهم حاجز بن عوف الازدى ، وأبو الطمحان القينى ، ومالك بن حريم الهمدانى ، وعبد الله بن سبرة الحرشى، ومن منطقة الطائف وما حولها صعاليك هذيل وهم كثير ، منهم أبو خراش والأعلم وصخر الغى ، ومن منطقة اليمامة صعاليك بنى تميم وهم كثير أيضا ، ومنهم عبدة ابن الطبيب والسليك بن السلكة ، وسعد بن ناشب ، ومن منطقة يثرب وما حولها عدد كبير أيضا منهم عروة بن الورد العبسى وتأبط شرا الفهمى ، مع مراعاة أننا لا نتحدث الا عن الشعراء من الصعاليك ، والمفروض أن الذين لم يكونوا شعراء اكثر من الشعراء ، ومع مراعاة أن هؤلاء البارزين من الصعاليك الذين تحدثت

⁽١) سورة سبأ الآيات من ١٤ الى ٢١ .

⁽٢) تفسير الكشاف للزمخشري الآيات السابقة ج ٣ ص ٤٥٤ ٠

⁽٣) انظر معجم ما استعجم للبكري جد ١ ص ٢٩٣٠

⁽³⁾ أنظر المستر السابق جـ ٣ ص ١٠٨٢ •

⁽a) تاريخ الأمم والملوك ب ١ ص ٢٥٢ ·

عتهم الرويات والاخبار كان معظمهم رؤساء عصابات من الصماليك كما يتحدث السمايك عن رفاقه في العمابة فيقول:

- وياتوا يظنون وصعبتى اذا ماعلوا نشزا اهلوا واوجلوا (١) وكما يقول تابط شرا عن الرفاق ٠
- مسياق غايات مجد في عشيرته مرجع الصوت هدا بين ارفاق (٢) و كعصابات عروة بن الورد الشهورة ني أخباره ٠

بتى فى هذا المجال أن نشير الى مصدر من مصادر الثروة فى المجتمع العربى التحديم ، وهو التجارية وما يرتبط بها من الأسواق والطرق التجارية وما لذلك من أثر فى الصعلكة .

والتجارة كانت بالنسبة للمدن موردا أساسيا يعتمدون عليه في حياتهم الاقتصادية ، كما تحدثنا عن قوافل قريش ، وعن لطائم النعمان بن المنذر ، وكذلك كانت لكسرى لطائم تمتد بينه وبين عماله بالجزيرة في اليمن مدة احتلال الغرس لها ـ وفي الشمال عند المناذرة ، ومن هذه اللطائم لطيمته التي أرسلها اليم عامله على اليمن فاغار عليها بنو تميم وأخذوها بعد أن قتلوا بعض خفرائها وأسروا البعض الآخر (٣) •

وكان لتجارة القوافل طريقان معروفان منسة القدم ، وكلاهما يبدأ من طفار بجنوب اليمن وهي التي كانت تسمى ريدان (٤) في عواصهم المالك اليمنية المقدمة ، ويسلك أحدهما في تعاريجه بشرق الجزيرة متجها الى الشمال في محدثاة الخليج العربي ، ويسلك الآخر في تعاريجه وانحناءاته أيضا غرب الجزيرة مار! بالحجاز ومحاذيا البحر الاحمر (٥) وكان الطريقان يمسران بمعظم البلاد والقنيائل العربية ،

وفضلا عن نشاط القوافل التجارية التي كانت تتردد بين الجزيرة وبين معاقك أخرى كالفرس والروم والحبشة والهند، وتخترق في ترددها هاتين الطريقين مارة بالبلاد والقبائل العربية، قاصدة في أغلب الأحيان أسواق العرب بالحملة مناك كانت هناك التجارات الداخلية المحلية، بين ما تحد ومشترية، فضلا عن ذلك كانت هناك التجارات الداخلية المحلية، بين عاقباً قلى العرب وهذه الاسواق، سالكة أحدى الطريقين أو طرقا فرعية أخرى من

⁽١) مهذب الخضري لأغاني الاصبهائي ٢/١٦٧ ٠

 ⁽۲) المفضليات للضبى ص ۲۷ · وهذا أي دافعا صوته بالأمر والنهى ·

⁽٣) أنظر معجم ما استعجم للبكرى جد ٣ ص ١٠٥٩ ٠

⁽٤) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جد ١ ص ٢٨ ٠

 ⁽۵) انظر الشمراء الصماليك للدكتور يوسف خلف ص ١٧٤ عن مراجع المرى •

شانها أن يهيئها أو يبحث عنها المقيمون في مكان لانفسهم حتى توصلهم بالأماكن والمجتمعات الأخرى *

وأما أسواق العرب فكانت كثيرة منبثة حول أهم البلاد والطرق ، وقد عدد صاحب كتاب الشعراء الصعاليك منها نعو ثلاث عشرة سوق متفرقة في أنحاء الجزيرة كلها ومنها الاسواق الشهورة كعكاظ ومجنة وذي المجاز (١) .

ومع ذلك فهناك أسواق أخرى وان كانت غير مشهورة ، تحدث البكرى عن يعضها ، مثل سوق الحربة - بفتح الحاء وسكون الراء - التى يقول عنها « وخربة سوق من أسواق العرب في عمل اليمامة ، وفيه أدركت أم الوردالعجلانية بثار ذات النحيين الهذلية (٢) « في قصة ساقها تتعلق بالمثل العربي « أشغل من ذات النحيين ، وقصة هذا المثل (٣) ،

والذي يهمنا في حديث التجارة والاسواق أنها كانت من العوامل المهمة في خلق الصعلكة ، فهذه القوافل التي كانت توغل في مجاهل الصحراء ، والتحار الذين كانوا يترددون بتجارتهم على الاسواق في هذه الطرق والمجاهل ، كل ذلك كان صيدا ثمينا يغرى طوائف الصعاليك منقطاع الطرق واصحاب الغارات بان يتعرضوا لها ويستميتوا في الفوز بها ، بل انها كانت تغرى القبائل نفسها وعلى رءوسها سادتها بأن يتعرضوا لها ويقاتلوا دونها ، ولذلك كان من المعروف عندهم أن أصحاب القوافل لا يستطيعون أن يعبروا هذه الطرق بقوافلهم الا اذا أمنوا القبائل التي يمرون بها سواء بحلف أو اتاوة ، أو خفارة قوية ، كما ورد في اخبار النعمان بن المنذر في لطائمه التي كان يتاجر بها في الأسواق ، حيث قال ذات مرة _ وعنده البراض (بن قيس الكناني) وعروة بن عتبة الرحال _ من يجيز لى لطيمتي هذه حتى يقدمها عكاظ ؟ فقال البراض أنا أجرها على كنانة • قال النعمان : ما أديد الا رجلا يجيرها على الحيين من قيس وكنانة ، فقال عروة الرحال أنا المجيزها على أهل الشبيح والقيصوم من نجد وتهامة ٠٠ وفيهـا قصة فتـك البراض وعروة الرحال في هذه الرحلة (٤) • ومن ذلك قصة لطيمة باذام عامل كسرى على اليمن والتي كان خفيرها هوذة بن على ، فأغار بنو تميم على اللطيمة وقتلوا خفراءها وأساور كانوا معها وأسرت بنو سعد هوذة بن على ٠٠ (٥) وفي أخبار السليك بن السلكة و أنه كان يعطى عبد الملك بن مويلك الخنعمي اتاوة من غنائمه على أن يجيزه فيتجاوز بلاد خثعم الى من وراءهم من أهل اليمن ، (٦) •

⁽١) أنظر المصدر السابق ص ١٢٧ نقلا عن البعقوبي وابن حبيب وياقوت ومسادر أخرى ٠

⁽٢) معجم ما استعجم جد ٢ ص ٤٩٠ •

⁽٣) أنظر مجمع الأمثال جد ١ ص ٣٧٦٠

⁽٤) أنظر المعدر السابق جد ٢ ص ٨٧ وفيه القصة كاملة ٠

⁽٥) الظر معجم ما استسجم للبكرى جد ٣ ص ١٠٥٩ مادة (حدو) وقيه القصة كاملة •

⁽١) مهذب الخضرى لأغاني الاصبهاني جد ١٦٧/٢٠

ولم يكن يسلم من هذا الخوف الذي يؤرق التجار والمنتقلين باموالهم الا قريش كما يقول الزمخشري « وكانت لقريش دحلتان : يرحلون في الشتاء الى البيمن وفي الصيف الى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتيهم آمنين لانهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم (١) ،

وننتهى من هدا الحديث الى أن الفقر وان كان من الاستباب البارزة فى الصحلكة الا انه لذاته لم يكن السبب الوحيد ولا الأهم ، وانها الأهم هو احتكاكه بالغنى ، غنى أصحاب الابل فى البادية أو « أرباب المخائض ، كما يسميهم الصحاليك فى شعرهم ، وغنى أصحاب التجارة فى المدن والبلاد ، وهدان المحاليك ، كما كان المجالان ، مجال المخائض ، ومجال التجارة أهم مجالات الصعاليك ، كما كان الصغاليك أهم خطر يهدد هذين المجالين ، ولذلك نرى يزيد بن الصقيل العقيسلى أحد الصعاليك يمن على أصحاب المخائض بعد توبته ، ويبشرهم بالأمن والاطمئنان بعد هذه التوية فيقول :

الا قل لأرباب المخافض اهملسوا فقد تاب ممسا تعلمون يزيد (٢) والاحيمر السعدى ــ أحد الصعاليك ــ يجعل من سيفه سلطانا قاهرا قادرا على أموال التجار فيقول:

تعيرني الاعسدام والبدو معرض وسيغي باموال التجساد زعيم (٣)

ثم تاب الاحيمر أيضا فراح يتحدث عن حزن ومرارة لا يستطيع أن يخفيها كلما مرت قوافل التجار أو عبرت زوامل المتاع ، وكلما عاوده الحنين الى الصعلكة ولكنه مع ذلك ينصع زملاء السابقين في الصعلكة أن يتناسوا خيرات العراق واليمن التي يجوز بها التجار عليهم ، ويتوبوا مثلما تاب فيقول :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مروا من الحسزن قل للعبوص بنى اللغناء يحتسبوا بن العراق وينسو طرفة اليمن (٤)

۱۱) تفسیر الکشاف (سورة قریش) جد ٤ مس ۱۳۹ ٠

⁽۲) الكامل للمبرد جد ١ صن ٦١ •

 ⁽٣) الأمال ثلقال جد ١ من ٨٤ والاعدام الفقر *

⁽١٤) العمدر السابق جد ١ من ٤٦ والزاملة الناقة عليها حملها والبز الثياب ٠

٤ _ طبيعة الأرض والحبياة:

أ ــ الأرض:

نتيجة لما هو معروف من أن أرض الجزيرة العربية يغلب عليها الطابع الجبلى الصحراوى ، نجد أن هذه الطبيعة تخلق حصونا طبيعية لابنائها ، تحميهم حينما يلتمسون الحماية ، وتخفيهم حينما يطلبون الخفية ، وأرض هذه طبيعتها من شأنها أن تغرس في أبنائها طبائع خاصة يتوارثونها وتؤكدها لهم وسائل حياتهم ، وابن خلدون يقول عن هذه الطبيعة التي أوحتها البادية الى أبنائها وعن حمايتها لهذه الطبيعة يقول عن العرب بالبادية ، وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر (١) ، وابن خلدون من أول المنادين بأن الانسان في خلقه وسلوكه ولغته ولونه ونفسيته ابن بيئته ، وأن البيئة بكل ما تحويه من أرض ومناخ وخصب وراء كل اختلاف وتغاير بين البشر (٢) .

والبيئة العربية في الجزيرة كل ما فيها قاس عنيف ، ففقرها وجد بها قاس عنيف (٣) ومناخها في كلتا حالتيه كذلك ، برد شديد ، وحر اشد منه ، كها يصف خالد بن صفوان لهشام بن عبد الملك بردبيشة السماوة فيقول «حتى اذا كنا ببيشة السماوة بعث الله علينا ريحا حرجفا (باردة) المجحرت لها الطير في أوكارها والسباع في أسرابها ، فلم أهته لعلم (جبل) لا مع ، ولا لنجم طالم ، (٤) .

ويصف الشنفرى ليلة أشتد فيها البرد ، حتى أن صاحب القوس ليضطر الى تحطيم فوسه ـ التى تقوم عليها حياته ـ ليستدفىء بها وبأدواتها فيقول ·

وليلة نحس يصطلى القوس ربها وأقطعه اللاثي بها يتنبسل (٥)

ويصف الشنفرى أيضا يوما من أيام الحر الشديد الذى ملا الجو لوابا يشبه الخيوط حتى ان الافاعى التى درجت وعاشت فى الصحراء لم تحتمل وطأة هذا الحر فيقول:

ويــوم من الشعرى يدوب لوابه افاعيه في رمضـاله تتململ (٦)

⁽١) المقدمة ص ١٤١ فميل (العرب لا يتغلبون الا على البسائط) •

 ⁽٢) أنظر المقدمة من ص ٧٨ الى ٨٧ المقدمات الثالثة والرابعة والخامسة •

⁽٣) أنظر المبدر السابق ص ٨٣٠

⁽٤) معجم ما استعجم للبكرى جد ١ ص ٢٩٣٠

 ⁽٥) الأمالى للقالى جـ ٣ من ٢٠٥ وتحس : برد شديد ويصطلى يستدنىء وربها صاحبها ٠
 (٦) المصدر السابق جـ ٣ من ٢٠٦ ٠ الشعرى الحر الشديد الرمضاء الرمال الحامية من الحرارة ٠

كل شيء في هذه الصحراء اذن قاس عنيف ، فلا عجب أن تنجب أبناء قساة أشداء •

وقد كانت بهذه الطبيعة ، وبما تيسره من الاختفاء في مجاهلها وجبالها ومتاهاتها ، من العوامل البارزة في نشأة الصعلكة وحياتها ·

ولذلك نجد أن الصحاليك على الرغم من نشساتهم في أماكن قريبة من المخصب ، ألا أنهم يفضلون دائما أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة الصعبة المنال، فنجدهم يالفون الجبالوالقفار والأماكن التي يخشي غيرهم ارتيادها ، وحين ننظر الى شعرهم نجده حافلا بذكر هذه الأماكن الوحشية المبعدة في الوحشة والامتناع ، فتأبط شرا يتحدث عن موضع موحش يخافه العرب لاعتقادهم أنه لا يخلو من السعالي والغول وهو رحا بطان (١) ، ولكن تأبط يالف هذا المكان ولا يخاف غيلانه وسعاليه ، بل يتحدث عن قتله احداها فيقول ،

الا من مبلغ فتيسان فهسم بما لاقيت يوم رحى بطسان بانى قد لقيت الفسول تهوى بقفر كالمسمعيفة مستحصحان

وليس هناك ما يوجب اعتقادنا بأنه حادث خرافة ، فليس من مانع أن يكرن قتل فعلا نوعا من الحيوانات الوحشية التي تقرب في صفتها من الارصاف الاسطورية أو الحرافية للغول ، وهناك حقا بعض هذه الأنواع كبعض فمسائل القرود ، ويتحدث تأبط شرا أيضا عن بعض الجبال التي يألفها كجبل اسمه مروان فيقول :

ولا بالشسسليل دب مروان قاعسدا باحسن عيش والنفائي نوفسل (٢)

والشنفرى يتحدث عن الأماكن الكثيرة التي يرتادما ويتنقل بينها ، ويصفها بانها جميعا أماكن نائية متغورة « هنالك يلقى المتغورا ، ومنها عصوصر ، الجبل المداني لبني سلامان الذين كان يعيش فيهم فيقول :

أهشى باطسراف الحماط وتسارة تنفض رجسلى اسسبطا فعصوصرا ويوما بدات الرس أو بطن منجسل هنسالك يلقى القامى المتغورا (٣)

ويتحدث عن أبعاده في الغزو حتى يبلغ أماكن موغلة في البعد ، وجميعها جبال موحشة فيقول :

غزوت من الوادي الذي بين مسعل وبين الحشا هيهات أبعدت غزوتي(٤)

⁽١) أنظر معجم مااستمجم بدا ص٢٥٧ وليه القصة وكذلك أنظر القاموس للحيط مادة (غال)

⁽٢) للصندر السابق جد ٤ ص ١٢١٧ ٠

⁽٣) المعدد السابق جـ ٣ من ٩٤٦ •

⁽٤) المصدد السابق جـ ٣ ص ٤٣٩ وفيه عن الحاسة ؛ هو جبل صامع مرتام ٠

ومن الجبال الاخرى جمدان، وكان يرتاده مالك بن الريب وعنه بقول:

سرت في دجى ليل فأصبح دونها مشارف جمدان الشريف فغوب (١) ومنها الفرط وكان يرتاده عمرو بن براقة ويذكره بقوله:

اذا الليل ادجى واكفهر ظلامه وصاح من الأفراط بوم جوائم (٢) ومال بامسحاب الكرى غالباته فانى على أمر الفواية حسازم (٣) ومنها ثبير وكان يرتاده أبو خراش الهذلى ، ويتول عن قلته التي تسمى غينا :

لقع علمت هدديل أن جارى كنى اطراف غيث من ثبير (٤) ومن الجبال أيضا تعشار ، وكان يرتاده عبدة بن الطبيب وعنه يقرل :

مساحبت قيسا صحبة فوهقسه بتعشار لم اسمع له بعد قاليا (٥) وأما المفاوز وأماكن القفر والوحشة التي اختص الصعاليك بالفتها والتردد عليها فكثيرة ، ومنها كراء وتيمن اللذان يذكرهما عروة بن الورد قائلا:

تعمل بواد من كسراء مفسلة تعاول سلمى ان اهساب واحصرا وكيف يرجيها وقد حيسل دونها وقد جاورت حيا بتيمن منكرا (١) ومنها حلية ، التي يتحدث عنها الهذل فيقول :

كانها ابطنت احشاؤها قصيبا من بطن حلية لا رطبا ولا نقدا (٧)

والاحيس السعدى يحدثنا عن فترة من حياته فى هسنة الاماكن المقفرة المرحشة فيقول « كنت ممن خلعنى قومى وأطل السلطان دمى وهربت وترددت فى البوادى حتى ظننت أنى قد جزت نخل ونار ، وكنت أرى النوى فى رجيع

⁽۱) معجم ما استعجم للبكرى جـ ٢ ص ٣٦٣ وعن جمدان يقول : هو جبل بالحجاذبين قديد وعسفان *

 ⁽٢) المساول جد ٢ ص ٣٩٣ وعن الفرط يقول : هـ و الجبل المسـغير وجسه الفراط ٠

⁽٣) الأمالي للقالي جد ٢ ص ١١٩ وفي مهلب المنشري لأغاني الأصبهاني جد ١ ص ١٣ وهو كلملة لمدي البيت الأول وكلاهما من قميلة ٠

⁽٤) معجم ما استعجم للبكرى جد ٣ ص ١٠١٢ ° ويقول عن غينا : هي قلة ثبير وهي التي قد أعلاه °

⁻(٥) المسلو السابق ج١٠ ص ٣١٦ (حرف القاء والمين) وقيه عن تعشار على خلاف : هو جبل في بني ضبة ٠

⁽١) المسلد المابق جـ٤ ص ١١٢١ وفيه عن كراه : من أرض بيشة كثيرة الأسد وعن تيمن : أرض قبل جراش وكراه في شق اليمن *

⁽٧) المعدر السابق جـ٢ ص ٤٦٣ وليه من حلية : أجمة باليمن معرونة وهي مأسدة .

الذئاب، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش ولا تنفر منى لانها لم تراحدا قبل ٠٠٠٠ (١) وسواء صحت هذه التفاصيل أم لم تصح فان الرواية على أى خال تدل على أنه ألف أماكن لم يألفها غيره والذى يعنينا من حديث هـذه الاماكن أنها كانت بمثابة حصون للصعاليك حين يلم بهم خطر أو يتعقبهم طالب أو مطارد، وما كان أكثر مطالبيهم ومطارديهم، الكثرة ما كانوا يجنون ويعتدون، بل كانت أحيانا مستراحا لهم حتى حينما يشعرون بالضيق بالناس والنفور منهم ، وما كان أكثر ما يضيق الناس بهم ويضيقون بالناس ، لما بين حياتهم وحياة الناس من اختلاف وتصارع ولذلك نجد هذا المعنى شائعا في شـعر الصعاليك معبرا عن روح النقور من المجتمع ، والاستعداد ، بل الشوق للهجرة الى القفار والاماكن الموحشة بالذات ، كما يقول الشنفرى في اللامية :

اقيمـوا بني أمي صـــدور مطيكم فاني الى قوم سسواكم لأميـــل

ثم بين هؤلاء القوم الذين يهفو اليهم ويتمنى الرحيل نحوهم ، فاذا هم صنوف من الوحوش فيقول:

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعسرفاء جيال هم الأهل لا مستودع السرذائع لديهم ولا الجانى بما جريغدل (٢) ومالك بن الريب يعبر عن هذه المعانى فيقول:

فان لنا عنكم مراحسا ومسرحلا بعيس الى ديح الفلاة صسوادى ففى الأرض عن دار السلالة ملهب وكل بلاد أو طنت كبسسلادى (٣)

فحتى ناقته ألفت الفلاة وريحها فهى صادية اليها ، وقوله «كل بلاد أوطنت كبلادى » يدل على روح التنقل وحب الهجرة ، بل يوحى معناه فى جملته بأنه لا يربط نفسه بمكان معين ، ولا يرى له وطنا يشده اليه ، ويقيده بالاقامة وانما كل الأرض وطنه ، مادامت تحقق له ما يريده ، وتنحى عنه مالا يريد وهسله المعنى شائع فى شعر الصعاليك ، ولذلك كان شعرهم أقل حنينا الى الأماكن ، أو تعلقا بمكان معين ، وهذه الروح كانت من عوامل صعلكتهم وأسبابها ، كماكانتمن لوازم الصعاكة أيضا ، لأن المشدود الى مكان معين لا يصلح أن يكون صعلوكا ،

⁽١) المقد القريد جـ٣ ص ٢٩٠ (الطبعة الأزهرية سنة ١٣٢١ هـ) والصحيح تحل وبار كما في الشعر والشعراء وغيره ٠

⁽٢) الأمالي للقالي جد ٣ ص ٢٠٥٠

⁽٣) الكامل للمبرد جد ١ ص ٣٠٢ ٠

رب) طبيعة أخياة :

سيطرت على المجتمع العربى حينداك ظروف كثيرة كان من شأنها ان تساعد على نشأة الصعلكة وعلى استمرارها ، ويمكن أن نجمل أهم همده الظروف فيما يلى :

السوة والعنف ، ونعنى بطبيعة البيئة ناحيتها الطبيعية لل بطبيعة ارضلها القسوة والعنف ، ونعنى بطبيعة البيئة ناحيتها الطبيعية لل بطبيعة ارضلها ومناخها لل والاجتماعية بوضع الصلات الاجتماعية والاقتصادية بين الجماعات والقبائل والافراد .

وقد تمثل هذا العنف الذي اقتضته طبيعة البيئة في أكثر من ناحية ، أهمها الصراع الدائم المستميت بين القبائل ، والعزو والاغارة ، وكلاهما كان ينبع في ظاهره من أسباب ملموسة ، ولكنه كان في حقيقة أمره يمثل تشبث كل جماعة بالحياة ، وحرصها على اثبات الكيان •

فاما الصراع فتمثله أيام العرب المشهورة كيوم ذى قار ويوم الفجار، وقد حولت هذه الأيام حياة العرب الى رحى من الحروب لا تكف عن الدوران، لا يتوقف سيل طحناها من الآدميين، حتى أن بعضها كون سلسلة من الأيام المتلاحقة التى ظلت عشرات السنين، حتى أصبحت تهدد طرفيها بالفناء كحرب البسدوس (٢) وداحس والغبراء (٣) وقد تتبع العلماء هذه الأيام احصا وتاريخا، ولكن الذى يهمنا من هدف الأيام الآن انها طغت حتى شملت كل الجزيرة واستوعبت كل الأجيال التى بلغنا تاريخها من الجاهلية، وان الاشتراك فيها كان ضريبة عينية على كل فرد من أفراد القبيلة طالما يستطيع حمل السلام بل كان الأطفال يشتركون فيها من باب تدريبهم على القتال وفنونه، والاستعانة بكل قوة في القبيلة ، كما يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينبل على أعمامه في حرب الفجار وهو صبى صغير وأما الغزو والاغارة فكانت وجها أخر للصراع بين الجماعات والقبائل، هذا الصراغ الذي كانت أهدافه غدي المباشرة من التشبث باغياة واثبات الكيان أهم وأعمق من أسبابه الجاشرة ، سواء كانت هذه الأسباب انتقاما وقصاصا، أم كانت طمعا ورغبة، أم كانت امواء في الما الغبود أخبارهم حافلة بالغارات التى تبدأ غالبا بالطمع في المال

⁽١) القدمة ص ١٤١ °

⁽٢) أنظر خُرَانة الأدب للبغدادى حـ٢ ص ٢٦ ــ ٢٩ وما كان بين بكر وتغلب من أيام مفل شيبان والذناتب وواردات ومباءة وعنيرة ٠٠ النح وظلت هذه الحروب بينهم أربعين سنة " أنظر مجمم الأمثال جـ١ ص ٣٧٤ ــ ٣٧٧ ٠

⁽٣) أنظر خزانة المقدادى جدا ص ٨٩ و جد٢ ص ٣٦١ من أيسام أخرى وكذلك الأمالى جد٣ ص ٥٣ عن بعض أيامهم •

ثم ناخذ طابع الدور والتسلسل كما يقول المناطقة ، تغير جماعة على أخرى رغبة في مالها ، فتضطر الجماعة الأخرى للانتقام بغارة ترد بها عسلي الجماعة المعتدية ، وتعود هذه الى غارة انتقامية وهكذا (١) ، وهذا الوضع نجــده شائعا عاما بين سائر القبائل ، حتى ان أسلوب الغارات من حيث هو لم يكن وقفا على طائفة معينة بل كانت تزاوله كل طبقات المجتمع (٢) وفي مقدمتهم زعماء القيائل وسادتها ، بل تحول أسلوب الغارات عندهم الى نوع من قطع الطريق كما رأينا في أخبار القوافل واللطائم وحتى هذا النوع الذي يبدو لنا انحرافا في السلوك الاجتماعي ، لم يكن في نظرهم كذلك ، بل كان مظهوا من مظاهر القوة والمنعة ، ولذلك نجد اخبار قطع الطريق تتردد كثيرا في تراجم سادة القبائل ورؤسائها ، على انهم كانوا يقطعون الطريق ، لا على القوافل واللطائم فحسب ، وانما على الأفراد أيضا ، ومن هؤلاء دريد بن الصمة سيد بني جسم الذي ورد في أخباره انه بينما كان خارجا في فوارس من بني جشم اذ رأى رجلا معه ظعمنة ــ امرأة في هودج ــ فأمر فرسانه أن يسلبوا الوجل ظعينته ، في قصة طويلة (٣) ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي في حوادث قطعه للطريق (٤) ومنهم عامر بن الطفيل الذي بلغ من سيادته في بني عامر انهم حين مات تصبوا حول قبره نصبا ميلا في ميل ، وجعلوها حمى لا تنتشر فيه راعية ، ولا يسلكه راكب رلا راجل ، بل أن بعضهم استضيق هذا الميل قائلا : ضيقتم على أبي على ، ومع ذلك كان عامر بن الطفيل يوصف بأنه من شياطين العرب (٥) وقطاع طرقها ، ومنهم الحارث بن بدر أحد سادة بني تميم المشهورين الذي جعلوا قطعه للطريق ثم توبته من أسباب نزول حكم قطاع الطرق في قوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ٠ الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعملوا ان الله غفور رحيم ، (٦) ومنهم النابغة الذبياني الشاعر الشهور ، الذي ورد انه كان يغزو للسلب والغنيمة مع رفيقه زبان بى منظور أو زياد بن سيار (٧)

⁽۱) أُنظر على سبيل المثال معجم ما استعجم للبكرى جدا ص ١٩٦ وجد ص ٥٣٠ عن هذيل وقبائل اخرى وخزانة البقدادي جدا ص ٨٩ عن عبس وقبائل اخرى ٠

⁽٢) أنظر تفسير الكشاف للزمخشرى آية ٣٣ المائدة عن تطع قوم ملال بن عويس الطريق وخزانة البقدادي جـ٢ ص ٢٦٨ عن تصص أخرى ٠

⁽٣) أنظر الأمالي للقالي جـ٢ من ٢٧١ .

⁽٤) أنظر خزانة البغدادي جـ٢ ص ٢٦٧ ونهاية الارب للنويري ١٩١/٢ - ١٩٦٠ •

⁽۵) أنظر خزانة البغدادى جـ٢ ص٢٦٤ وأنظر شرح الغضليات عن ابن الإنبارى ص ٣٦٠ وعن سيادته مجمع الأمثال جـ٢ ص ٨٦ ٠

⁽١) أنظر تفسير الكشاف للزمخشري في الآيتين ٣٣ ، ٣٤ سورة المائدة •

⁽٧) أنظر المملة لابن رشيق ٢١١/٢ •

فلم يكن السطو والغزو وقطع الطريق اذن شذوذا أو انحرافا في عرف المجتمع الجاهلي وانما كان ميدانا مرموقا ، يتنافسون فيه ، ولكنه لم يكن يبرز فيه الا ذوو القوة والبأس الشديد وكان هذا البأس هو كل ما يحتاجه شخص أو جماعة لبفتحوا لأنفسهم هذا الميدان على مصراعيه ثم لا يلقون من المحتمع بعد ذلك الاكل تهيب واكبار .

والصعاليك كانوا يملكون هذه القوة وهذا الباس ما فى ذلك شك ، كما يبدو ذلك واضحا فى أخبارهم وأشعارهم ، بل كان معظمهم يملك قوة كادوا ينفردون بها عن المجتمع ، هى سرعة العدو الذى يصفونه بأنه يسبق الخيل كما فى أخبار كثير منهم مثل الشنفرى والسليك وأبى خراش وتأبط شمسرا وابن براقة (١) هذه القوة كانت تمثل حصنا دائما متنقلا مع كل منهم ، يتيح لهم حرية الحركة والتنقل ، ويتيح لهم الأمن من المخاطر ، وفى الوقت نفسه لا يلقى سلوكهم انكارا من المجتمع عن حيث أنه سلوك شائع حتى بين السادة النعماء .

على أن هذه الحروب والغارات ، وما تبعها من فتك وجنايات ، قد غيرت مجرى حياة كثير من أفراد القبائل ، فبعضهم كثرت جناياته و ثقلت آثارها على قومه حتى اضطروا الى خلعه فلم يجد أمامه الاطريق التصعلك (٢) ، وبعضهم اكنشف في نفسه صفات معينة من الجرأة أو سرعة العدو أو حسن التسلل فسجعه ذلك على الاتجاه للصعلكة ، كهذيل التي اشتهرت بكثرة غاراتها (٣) وكثرة هجماتها حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبقه الخيل (٤) وقد كانت عذه القوة والسرعة في العدو لذاتها من العوامل الهامة في الصعلكة كما كانت من أهم أسلحة الصعاليك .

٢ ــ كانت فى البيئة التى يعيش فيها الصعاليك عوامل كثيرة من شأنها أن تدفع الى الصعلكة وتيسر السبيل أمام اللاجئين اليها ، ومن هذه العوامل الفراغ الكبير الذى يتخلل حياة الأفراد فى بيئة لا عمل فيها الا الرعى للذين يملكون ما برعونه أو يجدون من يرعيهم ، وكثير من الأفراد لا يجدون هذا ولا ذاك فماذا يفعلون ليجدوا ما يقتاتون به ؟ وماذا يفعلون ليشغلوا فراغهم الدائم ويملأوا به حياتهم الفارغة ؟ وماذا يفعلون ليثبتوا لأنفسهم وللناس مجرد وجودهم فى الحياة ؟ لاشىء الا الصعلكة ، فان فيها متسعا للجميع ، وجوابا لكل وجودهم فى الحياة ؟ والصعاليك أنفسهم يتحدثون عن هذا المعنى كثيرا ، حامدين

⁽۱) أنظر شرح الغضليات عن ابن الانبارى ص ۲۷ و ۱۰۸ ومعجم البكرى جـ ٤ ص ٣٥١ والأغانى فى تراجم هؤلاء وغيرهم من المدائين من الصعائيك ٠

⁽٢) أنظر على صبيل المثال العقد القريد جـ٣ ص ٢٩٠ •

⁽٣) أنظر معجم ما استعجم للبكرى على سبيل المثال جـ١ ص ١٩٦ وجـ٢ ص ٥٣٠ ٠

⁽٤) معجم البكرى جدة ص ٣٥١ *

خروجهم من هذا الفراغ ، لاثمين في شدة على من ارتضى لنفسه أن يكون فارغ الحياة نؤوما ، مضيعا بين الناس ، كما يقول تأبط شرا :

فلا تعمل بصعلوك نسؤوم اذا اسى يعد من العيسسسال (١) وكما يقول عروة بن الورد :

ا الله مسعلوكا اذا جن ليسله مصافى المشاش آلفا كل مجزر ويسخر عروة سخرية مرة من فراغ هذا الفارغ فيقول :

ينام عشاء ثم يصبح ناعسا يحث الحصا عن جنبسه المتعاسر يعين نسساء الحي ما استعنه ويمسي طليحا كالبعير المحسر (٢)

ويقول الأحيمر السعدى أيضا مستخفأ بنؤوم الضحى كناية عن الفراغ :

وقالت ابى دبع القسوام وشساقها طويل القنساة بالفسسحاء نؤوم فان آك قصدا في الرجسال فانني اذا حل أمسسر ساحتي لجسيم (٣)

ومن هذه الظروف والعوامل التي كانت بارزة في البيئة ، والتي كانت من شانها أن تدفع الى الصعلكة وتحميها سهولة الهجرة ، وتيسر الاختفاء ، وكلاهما من الأمور الهامة بل اللازمة لحياة الصعاليك • فالصعاليك خفيفو الحركة لا يقيد حركتهم شيء ، ولا يثقلهم متاع • ليس لهم مما يشد الناس الى الأرض شي فليست لهم حرفة ثابتة ، من زراعة أو صناعة ، وليس لهم مما يملكه الناس من عقار أو شيء ثابت ، فالصعلوك « جل ماله حسام » (٤) كما يقول عمرو بن براقة ، وهذا مما يجعل ارتباطهم بالأماكن ضعيفا ، وبحكم مسلكهم واتجاههم العاشي يزداد ارتباطهم بالأماكن ضعفا ، فكل الأمكنة مادامت تحقق لهم مآربهم سواء ، كما يقول مالك بن الريب « كل بلاد أوطنت كبلادي » (٥) •

والواقع ان طابع الهجرة والتنقل صفة عامة في بوادى العرب لضعف ارتباط مصالحهم بالأرض نفسها ، ولذلك نجد الفرق واضحا بينهم وبين أصحاب الأرض المنزرعة ٠

ولكن الصورة بالنسبة للصعاليك أوضح ، فلئن كانت الهجرة في جيأة مجتمعهم ظاهرة أو أحداثا متكررة ، فانها بالنسبة اليهم قوام حياتهم وصفتهم

⁽١) الكامل للمبرد جدا ص ٣١٠

 ⁽٢) ديوان الحباسة لابي تمام جدا ص ١٥٩ ومصافى من المصافاة والمشاش العظم اللين والمجزر مكان الذيح أي كل همه جمع العظام من المجازر ليأكلها والطليح المحسر الكل المتعب ٠
 (٣) الأمالي للقالي جدا ص ٤٨ وربع القوام وقصدا كلاهما معناه متوسط الطول ٠

⁽٤) الأمالي جـ٢ س ١١٨ .

⁽٥) الكامل للمبرد جد ١ ص ٢٠١ .

الدائمة وقد تبعد بهم الهجرة أو تدنو ، ولكنها تنقل دائم على أى حال ، والشنفرى يصور فى بيتين أثنين تنقله بين خمسة أماكن فيها الجبال والقفار والمتاهات فيقــول :

أمشى باطـــراف الحمــاط وتارة تنفض رجلي أسبطا فعصوصرا ويوما بذات الرس أو بطن منجــل هنالك يلقى القـاصي المتغورا (١)

على أننا نجد الفاظه تنبئ عن عمق احساسه بالتنقل ، فهو لم يقل اننى أرتاد هنده الأماكن لأستقر فيها ، وانما قال أنه كأنه يمر بها مرورا ، ولذلك اختار هذا التعبير البليغ وهو «تنفض رجلى » •

وهدفهم من هذا التنقل بطبيعة الحال هو ما تقتضيه حياتهم فى الصعلكة من حاجتهم الى الأماكن التى يزاولون فيها صعلكتهم ، والتى يحتمون فيها من نتائج هذه الصعلكة ، وذلك ان مجالات الصعلكة بما فيها من لصوصية وسطو وسلب ليس لمزاولتها مكان معين ، بل غالبا ما يكون نشاط الصعلوك بعيدا عن متاع أهله وقومه ، فيركز نشاطه على القبائل الأخرى وخاصة الذين بين قوما وبينهم عداوات حتى يجد من قومه عونا اذا دعت الحاجة ، والمسافات بين القبائل بعيدة مترامية ، مما يضطر الصعلوك الى اجتياز أماكن كثيرة قبل أن يصل الى أدنى مكان يحقق له غرضه من غارته ، على انهم كانوا كثيرا ما يبعدون في غزواتهم ، حتى ان بعض صعاليك السراة ويثرب واليمامة كان يبعد في غارته حتى يبلغ اليمن ، كما كان بعض اليمنيين يعكسون الأمر ، كما ورد كثيرا في أخبارهم المتناثرة مما لا نرى حاجة الى الافاضة فيه الآن (٢) ،

ولكن الذى يعنينا من هـــذا الحديث ان ظروف الصعاليك الشخصية والاجتماعية كانت تيسر لهم التنقل الى أوسع مداه ، وان طبيعة الارض بجبالها وقفارها كانت تتيح لهم الحصانة والحماية الى أوسع مدى أيضا ، ومن أمثلة ذلك اخبار الاحيمر السعدى وان ذلك كله كان من العـــوامل البارزة فى الصعلكة .

⁽۱) معجم ما استعجم للبكرى ج ٣ ص ١٩٤٦ والحماط وأسبط وعصوصر وذات الرس وبطن منجل كلها أماكن ٠

⁽٢) وأنظر الشعراء الصعاليك للدكتــود يوسف خليف ص ٧٥ ـ ٨٦ وكما في أخباد السليك أنه كان بغير على اليمن مع أنه من بنى تميم باليمامة ومنازلهم باليمامة وما حولها قرب شمال الجزيرة • أنظر ترجمة السليك وأخباره بمهذب الأغاني (بالفهرس)

ه - عوامل أخرى :

وهناك من عوامل الصعلكة عوامل أخرى غير ما سبق ، وان كنا لا نسلكها في العوامل العامة لكونها يغلب عليها الطابع الفردى ، الا أننا لا نستطيع أن نتجاهل تأثيرها مهما قل في ظاهرة الصعلكة

ويمكن ان للخص أهم هذه العوامل فيما يأتى :

(أ) عوامل فردية:

وأعنى بها العوامل التي من شأنها أن تتعلق بالفود وحده ، وتنصب عليه آثارها دون أن يشاركه المجتمع أو الجماعة فيها ، وهي ظروف كثيرة منها ظرف الاغربة والأغربة عند العرب تعبير يقصدون به نوعا من أبنائهم ، وهو النوع الذي يولد أسود ، لأن أمه من الاماء السود ، وفي وصفهم بالأغربة ما يشير الى لونهم لأنه تشبيه بلون الغراب ، وهؤلاء الأغربة كانوا يشقون أيما شاء لا بلونهم الأسود – وان كان اللون من مفاخر العرب – ولكن بنسبهم غير الخالص حيث أن أمهاتهم غير حرائر ، والعرب في الجاهلية لم يكونوا – في أغلب الأحيان – يعترفون بأبنائهم من الاماء اعتزازا بخلوص أنسابهم وتنقيتها من أي دم غير عربي ، وخاصة اذا كان هذا المولود أسود ، فانه يجمع في نظرهم بين خستين لا يرتضون نسبتهما اليهم ، هما عدم خلوص النسب والسواد فيبقي هذا الوليد ومن يخرج من نسله عبيدا كسائر العبيد ، مع علم والسواد فيبقي هذا الوليد ومن يخرج من نسله عبيدا كسائر العبيد ، مع علم أبيه بل والقبيلة كلها أحيانا بأنه ابنه ، كما حدث لعنترة بن شداد الذي قضي شطرا كبيرا من عمره عبدا ، لا يملك الا أن يرعى مع زملائه العبيد ، ولم يكن أعتراف شداد بعنترة ابنا له خروجا على هذه العادة ، وانما كان اضطرارا أملاه اعتراف شداد بعنترة ابنا له خروجا على هذه العادة ، وانما كان اضطرارا أملاه طرف كان يهدد كيان القبيلة وحياتها (١) ،

نكان هؤلاء الأغربة ينشأون فى ظروف قاسية على نفوسهم أشد القسوة متناقضة فى نفوسهم أشد التناقض ، كانوا يخرجون الى الحياة فيجدون انفسهم عبيدا يلقون كل ما يلقى العبيد من ضياع ومذلة وهوان ، ومع ذلك فهم موقنون فيما بينهم وبين أنفسهم كل اليقين بأنهم مظلومون عن عمد واصرار ، فهم فى حقيقة أمرهم أحرار لا عبيد ومن حقهم أن يكونوا من طبقة السادة ، لا من طبقة الارقاء ، وكان أشد ما يؤلهم بطبيعة الحال أن يجدوا هؤلاء الذين يرونهم _ فى الراقع _ اخوة لهم متسلطين عليهم ، مستعبدين اياهم .

⁽١) أنظر القصة في خُزالة اليقدادي جد ١ ص ٨٧ ... ٨٩

فأما العاجزون منهم وذوو الهمم الضعيفة فكانوا يبتلعون أحزانهم ، ثم يظلون يجترونها حتى يدركهـــم الموت أو يدركوه ، وأما الذين يجــدون فى نفوسهم قدرة على كسر هذا القيد ، ومهربا من هذا السجن الاجتماعي ، فانهم كانوا لا يترددون .

وأقرب طريق - وأن لم يكن أيسره - لديهم ، لكسر هذا القيد هو القيدوة في أى صورة من صورها ، فأن اعترفت القبيلة بهذه القوة ورغبت في الاستفادة منها - كما فعل قوم عنترة بن شداد - أصبح هذا الغواب فردا من القبيلة والا فأوسع مجال أمامه هو مجال الصعلكة الفسيح ، كما فعل السليك بن السلكة (١) ، على اننا نلاحظ أنه ليس من اللازم أن تكون الأم أمة كام خفاف أبن ندية (٢) الحرة والأخبار تحدثنا عن أن أغرية العرب في الجاهلية ثلاثة عنترة أبن شداد وخفاف بن ندية ، والسليك بن السلكة (٣) ، ألا أن خفافا لم يكن يشارك صاحبيه هذه الأزمة فقد كانت أمه حرة وليست أمه ٠

ومهما يكن من شى، فاننا نعتقد ان الأغربة فى الجاهلية كانوا أكثر من ذلك بكثير وانهم انما تحدثوا عن هؤلاء باعتبار انهم من الأشخاص البارزين الذين عنى العرب جميعا بأخبارهم ، وأعجبوا بما أوتوا من بسالة وقوة وشدة بأس .

والذى نريد أن نصل أليه من ذلك هو أن هذا الوضع - وضع الأغربة - الاجتماعى ، من شأنه - وان كان من الحالات الفردية - أن يكون من عوامل الصعلكة وأسبابها ، كما كان السليك بن السلكة الذى يقول عن احساسه بهذا المعنى « أنى لو كنت ضعيفا لكنت عبداً ولو كنت أمرأة لكنت أمة ، اللهم أعوذ بك من الحيبة ، أما الهيبة فلا أهاب أحدا (٤) ، وقد كان يمكن أن نتحدث هنا عن وضع الخلعاء ، ولكن الحلع - كما قلنا - نتيجة للجنايات والصعلكة ، وليس سببا لها ، ونحن نتحدث عن أسباب الصعلكة ،

ومن هذه العوامل الفردية حالات الأسر ، ومما سبق علمنا ان الغارات كانت أمرا شائعا متداولا في أنحاء الجزيرة كلها ، وان القبائل وعلى رأسها سادتها وزعماؤها كانت تزاول هذه الغارات ، أحيانا للانتقام ، وأحيانا للسلب بادىء ذى بدء ، وحتى في حال الانتقام لم يكن القتل وحده هدفا لها ، وانما كان السلب والأسر من أهم أهدافها ، لأنه مغنم مادى ، سواء كان سلبا أو أسرا

⁽١) أنظر ترجبته في شرح التبريزي لحماسة أبي تمام جدا ص ٣٧٨ وفيه أن أمه السلكة وهي سوداء وأنه أحد المدائين الذين لا تلحقهم الخيل وترجمة أخرى وقصة طويلة وأنظر مهذب الخضرى لأغاني الأصفهاني جـ١٦٧/٢ وبها ما سبق وترجمة طويلة ٠

 ⁽۲) انظر شرح الاصمعیات عن ابن الالباری ص۸ وفیه آن آمه ندبة و کانت سوداء وهی
 بنت شیطان بن قتان من بنی الحارث بن کعب •

⁽٣) في القاموس المحيط مادة (غرب) أضاف اليهم وابما هو أبو عمير بن الحباب •

⁽٤) مجمع الأمثال جا٢ ص ٩ ٠

فان الأسير كان يفدى نفسه أو يفديه قومه بالمال وأهم ما كانوا يحرصون على أسره النساء فى غاراتهم ، والظعائن (١) فى قطعهم للطريق ، كما سبق فى قصة دريه بن الصمة وظعينة ربيعة بن مكدم (٢) ، وفى أخبار السليك انه خرج فى تيم الرباب يتتبع الأريا فويغير على الاحياء والآموال حتى مر بأرض بين ديار بنى عقيل وسعد بن تميم فلقى رجلا من خثعم ٠٠ ومعه امرأة ، فأخذه حو والمرأة ، ثم أطلقه وبقيت المرأة (٣) ٠ ومثل هذا كثير فى أشعارهم ٠

وفى الحرص على أسر النساء _ بالاصافة الى معنى الاهانة للأعسداء والمنافسين _ معنى مادى ، فان قومها سيكونون أحرص على فدائها غسيرة على الحرمات ، فان لم يفدوها تصبح هى ومن تلده عبيدا لآسرها ، وهسذا كسب بالنسبة اليهم كبير .

والذي يعنينا من هذا هم الأسرى ، فانه وان كان كثير منهم كان يفهى نفسه أو يفديه قومه ، ألا أن بعضهم كان يظل عبدا ، اما لجهل قومه بمكانه أو بآسريه كما حدث في قصة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليب وسلم الذي وهبته اياه خديجة زوجه ، وكان زيد قد سبى وهو صغير من قومه بني كلب ، ثم أشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، ثم قدم حجاج من كلب الى مكة فعرفهم وعرفوه ، فأخبروا أباه حارثة وعمه كعبا ، فقدما مكة وعرضا على محمد قداء ، فقال ان اختاركم فهو لكم بغير قداء ، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار عنى من اختارتي أحدا ، فاختار زيد محمدا ورفض الذهاب مع أبيه ، فقام محمد الى الحجر فاعلن أن زيدا منذ اليوم أبني يرثني وأرثه وهي مرتبة فوق مجرد الحرية ، فطابت نفس أبيه وانصرف راضيسيا (٤) ، وأما لرفض الآسرين الفداء ، وذلك غالبا ما يكون في حالات أسر النساء حرصا وأما لرفض الآسرين الفداء ، وذلك غالبا ما يكون في حالات أسر النساء حرصا وتشفيا ، وأما لعجز الاسير عن الفداء ،

وهنا نجد هذا الاسير يمر بالحالة النفسية التي يمر بها الأغربة ، يشعر في قرارة نفسه بأنه عربي حر ، وانه كان ينبغي أن ينال من الحقوق ما يناله السبادة ، بل أن يكون سيدا منهم ، ولكنه يجد الواقع عكس ما تحدثه به نفسه كما حدث للشنفرى الذي أسره بنو شبابة بن فهم من قومه وهم بنو الأواس ابن الحجر ، فمكث فترة في بني شبابة حتى أسر بنو سلامان بن مفرج رجلا من بني شبانة فغدوم بالشنفرى ، وهكذا انتقل الشنفرى الى بني سلامان وعاش فيهم عيش العبيد يرعى ابلهم ، وقد شغله العمل والرعى وعدم الاحتكاك الكثير

⁽۱) في القاموس مادة (طمن) الطعينة : المرأة مادامت في هودج (وهذا . يكون اثناء السفر) (٢) الأمال للقالي جـ٣ ص ٢٧١٠ ٠

⁽٣) أنظر القصة في شرح التبريزي لحماسة أبي تمام جا١ ص ٣٧٨٠٠

⁽٤) أنظر خزانة البندادي جا ٢ ص ١١٠٠٠

بالناس عن الاحساس المثير بوضعه الاجتماعي ، ولكنه حينها بدأ يحتك هاجت في نفسه كل الأحاسيس بالأوضاع التي فرضها عليه هـذا الظلم الاجتماعي فثار ثورته العارمة ، وصب هذه الثورة على بني سلامان في نقمة عجيبة ، بدأت باندفاعه الى الصعلكة ، وانتهت بقتله من بني سلامان تسعة وتسعين رجسلا فيما تتواتر به الروايات ، وكان بدء ثورته حينما صفعته ابنـة الرجل الذي يعيش في كنفه ، احتقارا له ، ونفورا من نداثه اياها بقوله «يا أخيه مترفعة عن أن يكون أخاها ، أو اهانة له على التفكير في الزواج منها – على اختسلاف الروايات ، وأغلب الظن ان وراء هذه القصسة المبتورة قصة حب خالج قلب الشنفري وأضاءه بآمال مشرقة براقة أسكرته حينا من الدهر ، فتناسي نفسه وتناسي الوضع الاجتماعي في غيبوبة هذا الحب العميق ، ولم توقظه من هـذه الغيبوبة الا لطمة قعسوس ابنة الرجل الذي يعيش في كنفه ـ فاذا هو يقظ الغيبوبة الا لطمة قعسوس ابنة الرجل الذي يعيش في كنفه ـ فاذا هو يقظ كاقوى ما تكون اليقظة ، حازم أمره كأشد ما يكون الحزم ، واذا هو منطلق الى كاقوى ما تكون اليقظة ، حازم أمره كأشد ما يكون الحزم ، واذا هو منطلق الى الصعلكة بأقصى ما يملك من ارادة ـ وما كان أقوى ارادته _ وبأسرع ما يملك من عدو _ وما كان أسرع عدوه (١) _ ليصبح من أبرز أعلام الصعاليك ، وأشعر شعرائهم (٢) .

فقد كانت الظروف الشخصية التى احاطت بالشنفرى من أسره وشعوره بالهوان بين أناس لا تربطه بهم رابطة ، ولا يرى لهم عليه حقا بل ولا يراهم خيرا منه شخصا أو نسبا ، كل ذلك كان سببا قويا وأصيلا في اتجاه الشنفرى الى الصعلكة ، ومن يدرى لو كانت قد تهيأت له ظروف أخرى مستقيمة وادعة كيف كان يكون ؟ أغلب الظن انه كان يصبح سيدا مرموقا وزعيما قائدا لا في الأزد وحدها ، فان عقليته الفذة التي تبين من خلال شعره ، وارادته الفذة أيضا كما تحدثنا عنها أخباره ليسا من طراز عادى في الناس ، وانها من طراز تبخل الحياة بمثله أن يكون كثير التكرار ، والتبريزى يلخص رأى العرب في عقلية الشنفرى فيقول « يضرب به المنسل في الحياق والدهاء (٣) ، فلننظر الى ما كان يعانيه في صعلكته وتنقله الدائم ، من صور عجيبة غاية العجب

⁽۱) أنظر ترجمته وأخباره وشمره فى شرح المغضليات عن ابن الانبارى ص ١٠٨ وشرح ديوان الحماسة للتبريزى جـ١ ص ١٨٧ ومهذب الخضرى الأغائى الاصبهانى جـ١ ص ١٠٥ ومجمع الأمثال جـ٢ ص ٢٠٤ وتاريخ الأدب العربى لكاول بروكامان جـ ١ ص ١٠٤ ثم أمال القالى ج٣ ص ٢٠٥ ، ٣٦ وأعجب المجب فى شرح الأمية العرب للزمخشرى والكامل للمبرد جـ٢ ص ٧٧ والحقا صاحب القاموس المحيط فى عده من الاسسلاميني الأغربة (مادة غرب) مع أنه جاهلى وله فى معجم البكرى جـ٣ ص ٤٣٩ ، جـ٣ ص ١٤٦ وفى الحيوان للجاحظ (بالغهرس) ٠

 ⁽۲) أنظر الشوامخ للدكتور محمد صبرى ض١٢٥ والحياة المربية من الشرور الجامل
 للدكتور الحونى ص ٣٣٤ ٠

⁽٣) شرح الحماسة جدا ص ١٨٧٠

قاسية أشد القسوة ، في احتمال الجهد والجوع والبرد والمر والمخاطر ، وقدرته الأشد عجبا على تصوير هذا كله (١) في صور حية ناطقة ، بل انه ليخيسل الى من يدرس شعره أن الصور نفسها تشارك الشنفرى في احساسه وانفعاله ، فتتلوى من الجوع حينما يتحدث عن الجوع ، وترتعش من وقع البرد حينمسا يتحدث عنه ، وبتأفف من وهج القيظ حينما يتحدث عن المر . وهكذا ، وحين ننظر الى صلابته في قُوة ارادته ، وتصميمه على انفاذ عزمه كما آلى على نفسه أن يقتل من بنى سلامان مائة رجل فقتل منهم نسعة وتسعين ، ثم حال الموت بينه وبين اكمال المائة ، ومن طريف ما يروى ان أحد بنى سلامان مر بقبر الشغوى فاصطدمت رجله بجمجمة الشنفرى فعقرت رجله فمات ، فكملت بهذا السلامي المائة التي كان الشنفرى يتمنى أن يبلغها من بنى سلامان وهو حي (٢) ومع ان مثل هذا الحبر يبدو غريبا غير مصدق ، الا أن علماء الروح اليوم لا يرون في مثله غرابة ، بل ينسبون للأرواح ما هو أبعد من ذلك وأشد غرابة ، فليس بغريب في منطقهم صدور مثل قلك عن روحه بعد موته (٢) .

وننتهى من هذا الحديث إلى انه كانت هناك ظروف كنظرة المجتمع إلى الأغربة ، وظروف الأسرى وما يلقونه فى حياتهم كانت تدفع أصحابها إلى أى مسلك يحررهم من هذا الظلم الاجتماعى وكانت الصعلكة أقرب هذه السبل اليهم ، كما حدث للسليك والشنفرى ، ومما لاشك فيه أن كثيرين كانت ظروفهم مثل ظروف هذين ، وأن بعضا غير قليل منهم سلك ما سلكاه ، غير أنه لم يحظ بعناية التاريخ منهم الا أولئك الذين كانوا مثار اعجاب المجتمع ، والذين فرضوا أنفسهم على التاريخ بما أوتوا من مواهب ومقومات حية متحركة ، وأغلب الظن أن شخصا كعنترة بن شهداد كان الحاجز بينه وبين الصعلكة اعتراف أبيه بنسبه ، فأن عنترة كان يملك من القوة والاباء والنفود من الهوان ما يملكه أقوياء الصعاليك ، وقد مو عنترة قبل تحريره بالظروف النفسية التي يعر بها الأغربة والأسرى الذين نحولوا إلى صعاليك ، فلو لم يعترف أبوه بنسبه ، فمن المرجح أنه لم يكن ليستسيخ الذل والهوان مع ما في نفسه من مقومات العزة والأنفة ، ولم يكن ليستسيخ الذل والهوان مع ما في نفسه من مقومات العزة والأنفة ، ولم يكن حينئذ أمامه للهروب من وضعه الاجتماعي والحروج عليه الا الصعلكة ،

⁽١) أنظر للمثال الأمية العرب في الأمال ج ٣/٢٠٥ وأعجب العجب في شرح المية العرب. للزمخشري •

⁽٢) أنظر ترجمته في الممادر السابقة •

⁽٣). أنظر العالم غير المنظور للأستاذ على عبد الجليل راضي ٠

(ب) الوراثة:

الوراثة من العوامل الانسانية الموجهة لحياة البشر جميعا ، بل هي عنصر الحياة الأول ، أعنى انها عنصر الامتداد لحياة الكائنات الحية جميعا بما فيها النبسات .

وعلماء الوراثة اليوم يسلمون بسيطرتها حتى على نزعات السلوك المختلفة كالشذوذ فى أى ناحية من نواحى النزعات السلوكية ، وكادمان الجمر وأن كان كثير منهم مع تسليمه بأثر الوراثة لا يرى فيها تعارضا مع أهمية تأثير البيئة وليست التفاصيل مما يعنى موضوعنا ، وأنما يعنينا هذا الحديث عن نزعات السلوك وأثر الوراثة فيه •

والعرب كانوا يعرفون الوارثة ويقدرون آثارها · بل كانوا يعتزون بها الى حد المبالغة والافراط في كثير من الأحيان ، حتى انه يمكن ارجاع كثير من عاداتهم الاجتماعية الحيوية الى تقديرهم للوراثة ، وذلك ، كنفورهم أحيانا من التزوج بغير العربيات حفاظا على توارث المم العربي فيما يلد لهم من أولاد ، وبالتالي اذدراءهم لمن يولدون بينهم من أمهات غير عربيات ، وقد ظلت هذه النظرة فيهم حتى بعد الاسلام ، وأحبارها أوضح وأكثر من أن تحتاج الى بيان ·

ومن الزاوية التى تعنينا وهى زاوية السلوك ، فان العرب كانوا يدركون أثر الوراثة فيها ، ولهم أخبار وأمثال فى ذلك كثيرة مشهورة ، منها قولهم « شنشنة أعرفها من أخزم » (١) ومنها « من أشبه أباه فما ظلم » (٢) وفى الحديث الشريف « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » على أنهم بلغوا بالوراثة فى فهمهم لها حد النزعات النفسية ومن ذلك قصة المنافرة التى قامت بين سيدى عشيرتين من العرب ، حتى انتهيا الى أن قال أحدهما :

أبادلك العسماوة ما حيينسا

فرد عليه الآخر بقوله:

ونحسن اذا متنسا نورثهسا البنينا

ومن الطبيعى والحالة هذه أن يكون سلوك الصعلكة النابع من النزعة النفسية موروثا ، وحيث أن الصعلكة كما قلنا كانت ظاهرة اجتماعية غير محدودة

⁽۱) مجمع الأمثال جـ١ ص١٣٦ وملخصه أن أيا اخرَم الطائى كان له ابن يسمى اخرَم ، وكان عاقا له ، ثم مات وترك بنين له ، فوثيوا يوما على جدهم يضربونه حتى أدموه ، فقال : ان بنى ضربونى باللم شنشنة أعرفها من أخرَم

قدهب الشعل الأخير مثلا ، وتبثل به عس بن المنطاب اعجاباً بعبد 11 بن عباس واشارة الى أنه ورث مداد الرأى من أبيه ، ومن أمثلتهم في مذا «السما من السمية» ،

⁽١) مجمع الأمثال ٢/٣٠٠٠ .

العدد بالنسبة الى مزاوليها ، فان الوراثة من شأنها أن تحافظ على بقائها ما دامت الظروف مهياة لها ، وان تنمى عدد روادها ومزاوليها ، وحين نتتبع بعض أخبار القبائل نجد ان منها ما اشتهر بصفات معينة ظل أنرادها يتوارثونها حتى أصبحت صفة لهم يعرفون بها ومن ذلك تسمية بعض بنى عامر بن صعصعة بالخلعاء لانهم كانوا لا يعطون أحدا طاعة » (١) فقد اتفق هذا البطن أنمن بنى عامر في صفة واحدة مستركة بينهم هي الصفة السابقة ، وسموا من أجلها باسم معين ولاشك ان للوراثة أثرا ظاهرا في شيوع صفة معبنة بين جماعة دون مجتمعهم الذي يعيشون فيه ، وكذلك نجد بطنا من عبد القيس يسمون الرواطي كانوا يوصفون بأنهم لصوص (٢) ويسرى هذا الوصف عليهم .

وحين نعضى فى تتبعنا لأخبار القبائل وأخبار الصعاليك ، نجد أن بعضها اشتهر بتخريج عدد كبير من الصعاليك ، بالاضافة الى شهرتها بكثرة غاراتها واشتراكها فى صراعات متوالية حتى أصبح طابع الغارات والسطو والفتك والصعلكة صفة غالبة عليها ، ومن هؤلاء بنو سعد ، من بنى تميم ومن صعاليكهم السليك بن السلكة ، وعبيد بن أيوب ، وعبدة بن الطبيب والأحيمر السعدى (٣) ومن هذه الجماعات التى كانت بهذه الصغة بنو مازن وهم أيضا بطن من بنى تميم ومن صعاليكهم سعد بن ناشب (٤) ومنهم مالك بن الريب وأبو حردبة اللذان يقول عنهما الراجز :

الله نجساك من القصيم وبطن فلج وبنى تميسم ومن غسويث فاتح العسكوم ومن أبى حسردبة الأثيسم ومالك وسيفه السسموم (٥)

ومن هذه الجماعات أيضا هذيل ، وهي مشهورة بكثرة الغارات (٦) ، وكثرة الخلعاء (٧) والصعاليك ومنهم أبو خراش وصخر الغي والاعلم ، ومن

⁽١) القاموس المحيط مادة (خلم) .

⁽٢) أنظر معجم ما استعجم للبكرى جـ٣ ص ١٠٨٢ .

⁽٣) تراجمهم وأخبارهم متفرقة في مصادر كثيرة منها المقد الفريد ج٣ ص ٢٩٠ عن الأحيمر وعن السليك شرح التبريزي لديوان الحماسة ج١ ص ٣٧٨ وعن عبيد بن أيوب الكامل ج١ ص ٢٠٠ وعن عبدة بن الطبيب عن شرح ابن الانبادي للمنضليات ص ١٣٤ وغاراتهم كثيرة خلال صده التراجم وغيرها وانظر على سبيل المثال معجم البكري ج٣ ص ١٠٨٢ ٠

⁽٤) أنظر شرح التبريزي لحماسة أبي تمام جـ١ ص ١٤٠٠

⁽ه) أنظر معجم البكرى جـ٣ ص ١٠٢٧ وفيه أن أبا حردبة ومالك بن الريب لصان مازنيات ولمالك ترجمات في مصادر أخرى ٠

⁽١) أنظر للمثال معجم البكري جـ١ ص ١٩٦ ، ٢٠١ ، جـ٢ ص ٥٣٠ •

⁽٧) أنظر مثلا لسان العرب مادة (خلع) ومهذب الأغاني جـ٢ ص ١٨٥ ٠

توارث مقومات الصعلكة في هذيل شهرتها بكثرة العدائين الذين لا تلحقهم الحيل ، حتى ان أبا خراش كان أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبقه الحيل (١) وسرعة العدو كانت من أهم أسلحة الصعاليك -

ومع ذلك فلسنا نقول ان هذه الوراثة مجردة من أثر البيئة ، فان الوراثة وخاصة اذا كانت جماعية تتحول نفسها الى بيئة ، بمعنى ان الصعلول حين يرث نزعة الصعلكة ، ثم ينشأ فاذا هو فى بيئة تظللها هذه النزعة ، تصبح الصعلكة المنتشرة من حوله بيئة فى ذاتها تهيىء المجال لابراز عنصر الوراثة واستغلاله ، وكثيرا ما تختلط الوراثة بالبيئة ، فى مثل هذه الحال التى يوث فيها الوليد ميراثا ثم ينشأ فى بيئة يشيع فيها سلوك هذا الميراث ، وقد عبسر الشاعر العربى عن ذلك بقوله :

وينشأ ناشئ الغتيان منا على ما كان عسوده أبوه

وانها يتميز عامل الوراثة عن عامل البيئة حينما ينفرد صاحبه بصفة أو سلوك غير مألوفين في مجتمعه ، ويمكن أن ينطبق هذا على تلك الجماعات التي تميزت بسلوكها المعين كالرواطي ومع تكرارنا لملاحظة أن أسلوب الغارات والسطو والصعلكة كان ظاهرة مألوفة في المجتمع الجاهلي كله ، الا اننا نلاحظ أن هذه الجماعات سيطر عليها هذا الأسلوب ، حتى لصق بها كصفة غالبة على أفرادها ومتعاقبة فيهم ، بصورة تميزهم عن الجماعات الأخرى .

وهنا نتساءل : ما الذي جعل هذه الجماعات تتميز بهذا السلوك على هذا الوضع الشائع ، وحين نجيب عن ذلك ، ننظر فاذا جماعات أخرى تشارك هذه الجماعات في ظروفها وموقعها من البيئة ولكنها لا تتصف بما اتصفت به الجماعات الأخرى ، ومثال ذلك هذيل ، فان شهرتها بالغارات والحلعاء والصعاليك لا تشاركها فيها قبائل أخرى تشاركها الظروف والبيئة ومن هذه القبائل هوازن وسليم وغفار (٢) ، وكلهم في ظروف هنذيل الجغرافية والاجتماعية ، وكذلك الاقتصادية ، وأهم ما في هذا الموقع من عوامل الصعلكة ومقتضياتها من الغارات والخلع والفتك وغير ذلك وقوعه حول طريق القوافل الأساسية الموصلة بين والسام ، وحول الطرق الفرعية الموصلة بين مكة وقبائل الشمال في اتصالهم بمواسم الحج ، ووقوع هذا الموقع أيضا قريبا من أهم أسواق العرب وهي عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وهذه الموامل وان كانت من أهم ما أشاع الصعلكة في هذيل الا أن نقطة التساؤل هي : ولماذا لم تكن هذه القبائل المعلكة في هذيل الا أن نقطة التساؤل هي : ولماذا لم تكن هذه الظروف ؟

⁽١) مسجم البكرى جـ٤ ص ٣٥١ ٠

⁽٢) أنظر الخريطة بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيسم جـ١ ص ٩ ومعجم البسلدان ومعجم ما استعجم عن أماكن هذه القبائل ٠

وحينتذ لا نجد ما تستريح اليه النفس في الاجابة سوى ادخال عامل الوراثة المدى تدل عليه شهرة مذيل بتوارث أهم أسلحة الصعاليك وهو سرعة العدو حتى أن أبا خراش الهذل كما قلنا كان أحد عشرة اخوة كلهم لا تسبقه الحيل •

وكذلك الجماعات الأخرى مثل بنى مازن وبنى سعد، وكلاهما من بنى تميم فانه وان كانت بعض القبائل قد شاركتهم شهرتهم بالصعلكة كبنى عبد القيس الذبن اشتهر منهم الرواطى بأنهم لصوص (۱) الا ان هناك قبائل اخسرى تقع قى مثل موقعهم من البيئة وتشاركهم ظروف الحياة ومع ذلك لم يشع فيها أسلوب الصعلكة، كبنى بكر وبنى تغلب، وطيئ وغطفان (۲) وأهم ما تشترك فيه هذه القبائل من عوامل الصعلكة هو وفوعها حول أحد الطريقين الرئيسين للتحارة، وهو الطريق الشرقى الذي يحاذى الخليج العربى ويصل ما بين ظفار في جنوب اليمن الى شمال الجزيرة : ثم العراق والشام ، وكذلك قربها من الخطرة المؤدية الى الموانئ الواقعة قديما على الخليج العربى وقربها أيضا من الخطرة التى اشتهرت ببعض الحسب بالنسبة الى غيرها من الأماكن واختلاف اليماعة التى اشتهرت ببعض الحسب بالنسبة الى غيرها من الأماكن واختلاف بما من مبرد غير عامل الوراثة ، وان كانت هذه الوراثة فى أغلب أحيانها ممتزجة بظروف البيئة ودواقعها ه

وهذا عبید بن أیوب العنبری یقرر ان صعلکته انها هی وراثة عن آبائه فیقسول :

رأت خلق الأدراس اشعث شساحبا عسلى الجدب بساما كريم الشسمائل تعسود من آبائسه فتكاتهسم واطعامهم في كل غبراء شسامل (٣)

واذن فالوراثة فى صورها السابقة كانت من الأسباب التى ساهمت فى نشأة الصعلكة وفى حياتها ، سواء آكان أثر الوراثة من حيث النزعة النفسية الى العدوان وما يلابسه من نواحى الصعلكة أم من حيث الدوافع المباشرة التى كانت تشجع على الصعلكة وتدفع اليها ، كتوارث صقة العدو ونحوها من الأدوات المباشرة فى مراولة الصعلكة والتهيؤ لها ، وهذا النوع الأخير وان كان يعتبر من قبيل الاستعداد الشخصى الا أن اقترائه بالوراثة يزيد من فاعليته ومن توجيهه فى مجال معين من السلوك .

⁽١) أنظر معجم ما استمجم للبكرى ١٠٨٢/٣ .

⁽٢) أقتل غريطة بلاد العرب قبل الاسلام بتاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم جدا ص ٦ الحيوان للجاعد ١٦٥/٦ .

(ج) الاستعداد والشدود:

قلنا اننا في هذا الفصل من فصول اسباب الصعلكة نحاول أن نعرض لبعض العوامل والأسباب التي وان لم تكن ذات طابع عام فاننا لا نستطيع تجاهلها في مقام حصر الأسباب التي من شأنها أن تكو ندافعا من الدوافيع

ونعنى بالاستعداد التهيؤ الفطرى في الشخص للاتجاه الى الصعلكة ، سواء أكان تهيؤا من الناحية النفسية كالميل الغريزى للعدوان ، أو امتلاك قوى نفسيه معينة تستلزمها حياة الصعلكة كالجراة وقوة العزيمة ، وشدة التحمل أم كان تهيؤا جسميا كامتلاك صفات معينة تحتاجها حياة الصعاليك احتياجا أساسيا كخفة الحركة وسرعة العدو ، وحسن التسلل والمراوغة ونحو ذلك ،

ونعنى بالشذوذ وجود صفة أو تهيؤ فطرى معين ، فى فرد أو أفراد ينفردون به عن سائر أفراد مجتمعهم فيصبحون بهذا الانفراد شاذين عن الوضع العام فى المجتمع •

وقد شاءت مشيئة الله القدير الحكيم ، أن يبدع الكون وما فيه في نظام عدا عجيب ، ظل وسيظل فهمه فوق مستوى العقول ، فلا يتاح للعقول من نظام هذا الكون الا أهونه وأيسره ، أما أجله وأعظمه فهو في مناى عن عقول البشر مهما عظمت هذه العقول .

ومن نظام الله العجيب في كونه ، أن نرى النقيضين في كل شيء ، لا يوجد مطلق قط في الحياة ، وانما تقيده مجاورة نقيضه له ، الخير معه الشر ، والظلام معه النور ، والذكاء معه الغياء ، والحياة معها الموت وهكذا .

وفى حياة الناس الشجاعة يجاورها الجبن ، والجـــود يجاوره البخل ، والصدق يجاوره الكذب ، والكرم يجاوره اللؤم وهكذا ·

على أن النقيضين لا يسيران فى خط واحد ، وانما يتدرجان الى قمتين متناقضتين ، ينتهى كل منهما الى احداها ، فالذكاء والغباء مثلا ، نجد عامة الناس يتفاوتون فيهما ، ولكن فى مجال متقارب ، بينما يشذ بعض الناس فيرتفعون الى درجات عليا من الذكاء ، يتفاوتون فيها أيضا ويتدرجون حتى يكون بعضهم فى القمة العليا ، بينما يشذ بعض آخرون فيتدرجون الى اسفل متفاوتين فى الغباء ، ويظلون فى التدرج ، حتى ينتهى بعضهم الى القمة السفلى وهى الجنون ،

ومن يدرى ، فلعله لو اطلع مطلع فى مثل هذا المجال ، لوجد الناس يكونون ما يشبه الهرمين ، أحدهما الى أعلى ، والآخر الى أسميمن ، وأن التدرج فى كلا الهرمين متساو ، وأن حجم الهرمين نفسه متساو ، وتكون النتيجة أن يكون

عدد الأذكياء في كل درجة من درجات هوم الذكاء يقابله ويساويه عدد الأغبياء في الدرجة نفسها من هرم الغباء ٠

ومن يدرى أيضًا فلعل هناك أشياء كثيرة في الحياة بنظام كهذا النظام ٠

ومن يدرى أيضا قلعل كل ما فى الناس من صفات الخير والشر يتدرج فى هرمين متضادين أيضا كهذا النظام ، بحيث يتساوى عدد الحيرين ، وعدد الشريرين فى كل درجتين متقابلتين من هذين الهرمين .

ومن الحقق ان التاديخ لم يعرف جيلا كاملا في أمة كاملة من الناس حطم هرم الشر _ ان كان حقا هرما _ وخرق التوازن بين قوتي الخير والشر ، بحيث ذابت قوة الشر في جميع صورها التي يتصف بها الناس من صفات وسلوك فلم يبق منها الا الشذوذ الغردي الذي تأبي سنة الحياة الا أن تتشبث به في كل شيء ، من المحقق ان التاريخ لم يعرف هذا الجيل الكامل في الأمة الكاملة الا جيل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهذه حقيقة لا نظن ان هناك من يمادي فيها ولو كان من أعداء الاسلام ، ولعل في هذا تفسيرا لقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، ولقول النبي « خير القرون قرني ، ،

ومهما يكن من شيء بالنسبة لموضوعنا ، فان الخير والشركل منهما يمثل استعدادا فطريا عند بعض الناس ، وإذا كان في الناس من هم مهيئون بطبعهم للخير فان فيهم أيضا من هم مهيئون بطبعهم للشر ، بل ان من الناس من يرى ان سخس نوازع الشركالظلم هي الأصسل في الانسان ، وإن الامتناع عنها انما يكون لظروف تمنعه من مزاولتها : كما يقول الشاعر العربي :

والظلم من شيم النفوس فان تجــد ذا عفية فلعـاة لا يظلم

وحين نعرض هذا المعنى - على غرابته عن العرف - على التحليل لا نجد فيه بعدا كبيرا عن الحقيقة ، فأن الظلم بمعنى الجور على حقوق الآخرين يمثل لحدى الغرائز الفطرية في الانسان ، وهي غريزة الأنانية ، التي يسلم علماء النفس يأنها احدى الغرائز في الانسان وهكذا كل صفات الشر التي تتصل بالغرائز البشرية يمكن اعتبارها هي الأصل في سلوك الفرد ، وأن الظروف الخارجية هي التي تحول بينه وبين مزاولتها ، وهي ظروف كثيرة تختلف من مجتمع الى آخر ، فأحيانا تتمثل هذه الموانع فيما يسميه علماء الاجتماع ، سلطة المجتمع » بمعنى شعور الفرد بأن المجتمع ينكر هذا السلوك ويسخط عليه وأحيانا تتمثل في التشريع الذي يحرم هذا السلوك ويحدد له عقابا ، سواء أكان التشريع دينيا أم دنيويا ، وسواء أكان العقاب أيضا بشريا أم الهيا ، وأحيانا تتمثل هذه الوانع في سلطة العقل ، بمعنى أن يدرك الفرد قبح هذا السلوك عنه ،

⁽١) الآية ١٠٩ من سورة آل عبران ٠

والصعلكة في جملة مضبونها نوع من الظلم ، ببعنى الجود على حقوق الآخرين ، في أى صورة من صور الجور ، فالاستعداد الفطرى لها في طبيعة الافراد ليس غريبا على الغرائز البشرية ، مالم تتجمع حول هذا الاستعداد الموانع التي أشرنا اليها لتحول بين الفرد وبين ابراز هذا الاستعداد وقد رأينا ان الموانع السابقة قد ضعفت في المجتمع الجاهلي ، حتى أفلت منها زمام السلوك في المجتمع كله ، لا في مجتمع الصعاليك وحدهم ، حتى جعلوا الظلم ـ الذي تعتبر الصعلكة نوعا منه ـ شعارا لهم يعبر عنه شاعرهم بقوله :

ومن لم يدد عن حوضه بسلاحه يهلم ومن لا يظلم الناس يظلم

حتى أصبح كثير من أفراد المجتمع - غير الصعاليك - يزالون كثيرا من أساليب الصعلكة كالغارات والسطو وقطع الطريق ، وفى مقدمتهم بعض سادة القبائل الذين كانوا يزاولون هذه الأساليب اما بأنفسهم ، كما مثلنا بعمرو بن معد يكرب وعامر بن الطفيل ودريد بن الصمة والحارث بن بدر ، وأما بمقاسمتهم الصحاليك غنائمهم التى يغنمونها ، كما كان يفعل عبد الملك بن مويلك الحزاعى (۱) ، والعباس بن مرداس السلمى (۲) *

على انه مهما وجدت الموانع ، ومهما بلغت هذه الموانع من القوة ، فهناك الشذوذ الفردى الذى يعتبر أقوى من الموانع جميعا ، والذى نعتقد انه سنة الحياة التي لا تتخلف في كل شيء ، حتى في القواعد العلمية ، ولذلك حكم العلماء مطمئنين بأنه د لكل قاعدة شواذ ، وحتى هذا المجتمع الاسلامي الذي كان خير أمة أخرجت للناس ، لم يخل من الشذوذ الغردى ، ولذلك أقيمت كل الحدرد الشرعية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أفراد مثلوا هذا الشذوذ في سلوكهم (٣) .

وكذلك اليوم نرى الدول التي بلغت فيها موانع الانحراف درجة عالية من سيادة السلطة والقانون كما في أوربا وأمريكا ، لم تخل ولن تخلو دولة منها قط عن الشذوذ الفردى ، بل ان بعضها تجاوز فيه الانحراف حالة الغردية الى ما يشبه الظاهرة الاجتماعية ، وفيما يتعلق بالصعلكة ، نجد صورةمنها في هذه الأمم فيما يسمونهم هناك درجال العصابات الذين يسلكون مسلك صعاليك العرب نفسه ، ويهدفون الى ذات الغاية التي استهدفها الصعاليك ، وهي الحصول على المال ، بل اننا لو حاولنا أن ندرس موقف هذه الأمم من صعاليكها ، أعنى

⁽١) أينظر مهذب الأغانى في أخبار السليك ١٦٧/٢ -

⁽۲) أنظر شرح التبريزي لماسة ابي تمام جا١ ص ٢٥٠ في حديث خفاف بن ندبة عن العباس بن مرداس ٠

⁽٣) كما أقيم حد الزنا بالرجم على المرأة الفامدية ، وحد السرقة على المرأة التى ورد فى قصتها حديث دواف لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطمت يدها، وحد القذف على قاذفى المفيدة ابن شعبة ، وحد الشرب على أبي محجن الثقلي والشمون .

من يسمونهم رجال العصابات لرأينا أن موقفها يتضمن الاعتواف بأن السلوك العدوانى ، الذي يمكن أن يسمى بالظلم - باعتباره السابق - والذي يمنسل سلوك الصعابيك يتضمن الاعتراف بأن هذا السلوك يمثل استعدادا فطريا غريزيا ، وذلك بتركيزها في وسائل الاعلام والترفيه على تجسيم سلوك الصعاليك ب العصابات - وابراز أحداثه وأهدافه ، والتفنن في تصسويرها ونشرها ، ومعنى هذا ، أن ذلك من حاجات المجتمع النفسية ، لأن وسائل الأعلام والترفيه أنما تستهدف أرضاء الاستعداد والحاجات النفسية والعقلية لدى التسراد .

وليس من شأن موضوعنا أن يفيض في مثل هذا الحديث ، ولكن الذي يعنينا هو أن الاتجاه الى الصعلكة في جذوره النفسية العميقة يمثل استعدادا فطريا يتعلق ببعض غرائز الأنانية والذاتية ، وأن هذا الاستعداد ان لم تكبع جماحه موانع خارجية يبرز ممثلا في سلوك يعبر عن هذا الاستعداد ، وأنه حتى مع وجود الموانع وقونها فأن الشذوذ الفردي حتم في كل حال ، ونصل من هذا الى أن الاستعداد الفطري سواء تمثل في اتجاه شائع أو في شذوذ فردي يعتبر من الدوافع الى الصعلكة ، وإننا لا نستطيع أغفال الحديث عنه في مقام حصر أسباب الصعلكة والدوافع اليها ،

وفي ختام الحديث عن أسباب الصعلكة ونشأتها ، نقول ان ما سقناه من أسباب ودوافع وان كان لا يمثل الاستقصاء الكامل للأسباب ، الا انه يمثل فيما نعتقد الأسباب المباشرة والقريبة من المباشرة ، وانه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كالشعور بالقرابة بين العرب ، فان شعور القبائل العربية بأنها جميعا تنتمى الى أصل واحد ، هذا الشعود يغرس في نفوسهم معنى التكافؤ ويجعلهم لا يتقبلون البغى أو الظلم من أحد ممن تجمعهم به هذه القرابة ، ويرون من حقهم أن يكونوا أكفاء له ، ويجعل وقع البغى والظلم في هذه الحالة تقيلا على النفوس مثيرا لها أكثر من أثارة ظلم الأجنبي وبغيه ، وشاعرهم يعبر عن هذا المنى بقوله :

فظلم ذوى القربي أشهد مضاضة على النفس من وقع الحسام الهند(١)

وقد يكون هذا المعنى من الأمباب التى زادت نيران الحروب والصراع بينهم اشتالا ، وهذه الحروب تخلف فيما تخلف ظروفا تهيىء المجال للصعلكة ، وأشخاصا الفوا حياة الغارات والسطو يستطيعون أن يستغلوا هذا الألف فى مجال كالصعلكة ، نقول انه وان كانت هناك أسباب غير مباشرة كهذا السبب الا انها أسباب تعتبر بعيدة ، ويبدو الارتباط بينها وبين الصعلكة واهيا ،

⁽١) من شعر طرقة بن العيد •

مما يجعل في تتبعها شيئا من الشطط والغلو ، والحديث الشريف يشير الى معنى الاستعداد الفطرى ، أو اليه والى الوراثة معا في قوله « الناس معادن خيارهم في الاسلام » (١) •

الصغلكة في الجاهلية

١ _ الضعلكة والجتمع:

رأينا في حديث كتب اللغة وفي أحاديث الروايات انهم لم يضعوا للصعلكة صفة محددة ، ولا نوعا معينا من السلوك ، فأحيانا يصفونهم بالذئاب لأن سلوكهم يشبه أسلوب الذئاب (٢) وأحيانا يصفونهم بأنهم لصوص (٣) وأحيانا يصفون الصعلوك بأنه المتجرد للغارات (٤) ، وبأنهم ذوو الأسسلاب أي الذين يفنمون من غاراتهم اسلابا (٥) ، وأحيانا يصفون بعضهم بأنهم فتاك (١) أو بأنهم خلعاء من الذين خلعهم ذووهم لكثرة جناياتهم (٧) ، وبأوصاف أخرى في هذا المحيط(٨)ونخرج من هذا كله بأن الصعلكة ليس لها فيعرفهم فقوم أو سلوك محدد ، وأن هذه الصفات التي ساقوها متفرقة في جملتها تكون مفهوم الصعلكة ، وصفات الصعاليك ، وأننا يمكن أن تجمل ذلك في أن الصعلكة هي د احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم ، سواء كانت في صورة لصوصية أو قطع طريق أو سطو أو غارات أو اغتيال ،

وعلى ضوء ما سقنا من أسباب الصعلكة ونشأتها فى الجاهلية ، ومن علاقتها بالمجتمع ، نرى ان الصعلكة كانت جزءا من ظاهرة عامة حينذاك ، من حيث ان معظم أساليب الصعلكة كان يزاولها كثيرون غيرهم كالفتك وقطع الطريق ، بل بعضها كان مظهرا شائعا تقوم عليه حياة القبائل كالفارات ، والفارق بين

⁽١) انظر صحيح البخادي ٠

⁽٢) أنظر لسان العرب مادة (ذأب) والمسحاح مادة معملك ٠

⁽٣) المصدر السابق مادة (دُأْب) *

⁽٤) جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ١١٥٠

 ⁽٥) انظر حدیث خفاف بن ندبة عن عباس بن مرداس شرح التبریژی للحماسة جد ۱ ص ۲۰۰ .
 (٦) انظر مثلا مهلب الإغانی عن نضالة بن شریك ٢/٠٢٠ وعن قیس بن منفذ ١٩٩/١ .

عن صحر الغي

 ⁽٨) مثل شيطان وخارب · أنظر مهذب الأغانى ·

الصعاليك وغيرهم في هذا ، انهم كانوا يتخذون من هذه الحياة ما يشبه الحرفة في التفرغ لها والمداومة عليها والانقطاع لها ، وان غيرهم كان يتخذ منها ما يشبه الهواية التي تزاول في ظروف نفسية واجتماعية معينة • غير ان شيوع أساليب الصعلكة في المجتمع ، لم يجعل الصعلكة من حيث هي شدوذا ينكره المجتمع بل كانت تمثل غاية ما يتنافس فيه الأفراد وهو القوة ، بل يرى بعض الباحثين انها كانت مفخرة (١) •

ومما لاتسك فيه ان الصعلكة لم تكن تلقى في الجاهلية انكارا ، وان الصعاليك لم يكونوا موضع النفور أو الازدراء أو البغض ، فلم تحدثنا أخبارهم فيما نعلم قط عن انكار أو ما يشبه الانكار لهم أو لصعلكتهم ، مع أنه كانت لهم مجامع عامة للسورى ، كدار الندوة في مكة ، وكالمجامع المشهورة في الأسواق وخاصة سوى عكاظ ، وكانوا يتباحثون في هذه المجامع في أمورهم العامة ويعالجون مشاكلهم المشتركة ، ويعلنون قراراتهم وما يستحدثونه مى عرف أو اتفاق أو حكم ، ومع ذلك فلم يثر موضوع الصعلكة ولم يناقش فيها ، ولم يرو الرواة أن قبيلة من القبائل حائت بين أبنائها وبين سلوك الصعلكة ، وأما موضوع الملع الملك كانوا يخلعون به أحدهم ، فم يكن لسلوك الصعلكة من حيث هو وأنما تفاديا للمفارم التي يجرها ، ولذلك أجمعت كل الروايات على أن سبب الخلع هو كثرة الجنايات من حيث مطالبة أهل الخليع بها ، أعنى من حيث كونهم مطلوبين للاعداء بها ، فكان خلعهم للشخص تفاديا للمغارم ، وليس انكارا للسوك من حيث هو •

بل على العكس كانوا ينظرون الى الصعلكة على انها مظهر من مظاهر القوة والمنعة ، وان أفرادها كسب كبير لقبائلهم ، وسلاح قوى يذود عنهم قوى كثيرة ممائلة ، ويحصهم من عداوات كثيرة ممريصة ، ويحتاجون اليه حين تدعو الحاجة ، ففى أخبار هذيل ان أبا جندب الهذلى حينما أراد أن ينار الأخية االاسود مر بنى لحيان جمع الخلعاء والفتاك ليغير بهم على ينى لحيان (٢) فى أخبار المرىء القيس انه حينما أراد أن يثار الأبيه جمع جموعا من حمير وغيرهم من ذرّ بان العرب وصعاليكهم (٣) بل كانوا يصرحون بالفخر بهؤلاء الصعاليك فمن الأخبار ان عمر بن الخطاب سأل الحطيئة الشاعر العبسى : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال كنا ألف حازم ، قال وكيف ؟ قال « كان فينا قيس بن زهير حازما لا نعصيه ، وكنا نقدم أقدام عنترة ، وناتم بشعر عروة بن الورد » (٤) وعروة هذا من أعلام الصعاليك •

⁽١) أنظر الحياة العربية من الشمر الجامل للدكتور الحوفي ص ٢٣١٠

⁽٢) أتظر معجم البكري جد ٢ من ٥٣٠ ٠

⁽٣) أنظر الشعراء المساليك ص ٣٣ نقلا عن الخزانة للبغدادي -

⁽٤) التنبيه على أوهام القالى للبكرى ص ١١٣ ومهلب الأغاني ج ٢٣/٢٠٠

والواقع ان الصعاليك أثاروا في المجتمع الجاهلي موجة عاتية من الرعب والفزع ، كما تحدثنا بذلك أخبارهم واحاديث المجتمع عنهم ، فارهبوا أصحاب الابل على مراعيهم وحظائرهم ، وارهبوا التجاد في طرقهم ومسالكهم ، وأرهبوا المارة في سبلهم ومعابرهم (١) ،ولكن ذلك لم يكن ليحظ من قدرهم في المجتمع الجاهلي بالذات ، بل أحاطهم بهالة من الرهبة والاعجاب والاكبار ، وأصبحوا أمنية القبائل ، تتمنى كل قبيلة أن يكون من أبنائها من يشبه هؤلاء الاقوياء العناة ، الذين ترتعد منهم فرائص البادية ، ويرن صدى ذكرهم وأحاديثهم في طول الجزيرة وعرضها • وحتى حكماء العرب ، كانوا يرون مجد القبيلة وقوتها وحمايتها غاية تبورها كل الوسائل ومن حكمهم المسهورة في ذلك قولهم « ما خلا قوم من السفها، ألا ذلوا ، فما دام الأمر يتعلق بمجد القبيلة فهم يتمنون حتى السفهاء ، فضلا عن الصعاليك الذين لم يكونوا سفهاء ، وانها كان الكثير منهم من الشبخصيات اللامعة التي أوتيت من المواهب العقلية والبدئية حظا مرموقا ، وأوتيت أيضا من بريق اسمها ودويه في الآذان حظا أكبر واعظم وهذا السليك بن السلكة يجعله عمرو بن معد يكرب فارس اليمن أحد أربعة لا يخشى غيرهم في الجزيرة كلها فيقول عمرو : ما أبالي أي ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقني دونها عبداها أو حراها وعنى بالعبدين عنترة العبسي والسليك بن السلكة ، وبالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث البربوعي (٢) وقد عبر المجتمع عن اكباره للصعاليك في المراثي التي رثي بها كثير منهم (٣) وكانت مواهب الصعاليك من أشد ما تحتاج اليه البيئة حينذاك ، ومن أهم ما يحرص أبناء البيئة على التنافس فيه ٠

ومن ذلك القوة والشراسة وصعوبة المراس التي يدرك سعد بن تاشب اثرها في نظرة المجتمع الى صاحبها فيقول:

وفي اللين ضعف والشراسة هيبة ومن لا يهب يحمل على مركب وعر (٤)

وكون الصعاليك يمثلون غاية القوة الفردية في المجتمع الذين يعيشون فيه أمر واقع كما سيأتى خلال الحديث عن شعرهم ، وكانت هذه القوة من مقومات مركزهم في المجتمع .

ومن ذلك ميزة كادوا ينفردون بها عن مجتمعهم وهي ميزة العدو الخارق

⁽١) من الأدلة على ذلك نزول حكم خاص بقطاع الطرق فى القرآن الكريم وهو فى الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المائدة فى قوله تعالى (انما جزاه الذين يحاربون الله ورسوله ويسمون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)
(٢) خزانة البغدادى جـ٢ ص ٣٦٣ .

 ⁽٣) أَنظر للتعثيل مهذب الأغاني جـ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، جـ١ ص ٢٣٤ وحداسة أبي تمام
 جـ١ جـر ٣٧٨ ٠

⁽٤) أمالي القالي جد من ١٧١ .

للعادة ، وهو ما يصورونه بأنه لا تسبقه أو لا تلحقه الخيل ، وقد اشتهر كثير من الصعاليك بهذه الميزة ، منهم الشنفري والسليك وتأبط شرا وابن براقة وأكثر ما كانت سرعة العدو شهرة في هذيل الذين كان أبو خراش فيهم أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبيقه الخيل كما قلنا ، وأبو خراش هذا هو الذي رأى الوليد بن المغيرة ذات مزة يريد أن يرسل فرسين له في سباق فقال له: ما نجعل لي أن سيقتهما عدوا ؟ قال أن سيقتهما فهما لك ، وسابق أبو خراش الفرسين فسيقهما وأحدهما (١) وكان هذا العمل منجانب الوليد بن المفيرة تعبيرا ومثالا لاعجاب المجتمع بهذه المبزة واكباره لها • والأخبار عن مطاردات الخيل لكثير من العدائين كالسليك وتأبط شرا والسنعرى وابن براقة وانتصارهم فيها تثير العجب والاعجاب معا ، حتى ضرب ببعضهم المثل في العدو (٢) ومن المواهب التي أعلت من شأن الصعاليك في المجتمع الجاهلي الشعر ، والشعر من أهم أستلحة العرب في السلم وفي الحرب على السواء ، ولذلك كان أبرز مفخرة لهم ، وحتى أنه كان من عاداتهم الشهورة أن القبيلة التي يظهر فيها شاعر تفد القبائل ألأخرى لتهنئتها بهذا السلام الذي وهبت اياه ، وحتى ان النبي صلوات ألله وسلامه عليه لاحساسه بخطورة هذا السلاح في هذا المجتمع ، ضاق في أول الأمر بأن المسلمين لا يملكون من هذا السلاح ما يكفي للذود عنهم، حتى هيا الله لهم حسان بن ثابت فطابت به نفس النبي وكان يدعو الله ليهان يؤيده بروح القدس ، وقد حدث ذات مرة أن بلغ النبي أن أبا سفيان يهجوه ، فقال : اللهم أنه هجاني ، وأني لا أقول الشعر ، فاهجه عني ، فقام عبد الله بن رواحة يعرض على النبي أن يهجو أبا سفيان ، فقال له النبي : لست له ، ثم قام حسان ابن ثابت ، فقال له النبي : أنت له ، وهجا حسان أبا سفيان (٣). •

وصعاليك الجاهلية كان فيهم الشعراء الذين يفرض شعرهم نفسه على المجتمع بل وعلى التاريخ والذين يعدون في الصفوة المجيدة والمتازة في شعواء المجتمع المجتمع الجاهلي، كالشنفري وأبن الورد وتأبط شرا والهذليين وهذا الشعر كان ولاشك من مدعمات اكبار المجتمع لهم ، بل نستطيع أن نقول ان مركزهم الشعري كان من أهم ما أضفي على الصعلكة نفسها ثوب الجلال والتفدير في المجتمع الجاهلي ، كما يقول الحطيئة لعمر بن الخطاب ، كنا نأتم بشعر عووة بل ان الشعر من أبرز العوامل التي حفظت لهم كثيرا من تقدير المجتمع لهم بعد الاسلام ، كما رأينا من اقرار عمر بن الحطاب للحطيئة في كلامه عن شعر بعد الاسلام ، كما رأينا من اقرار عمر بن الحطاب للحطيئة في كلامه عن شعر عروة بن الورد ولد

⁽١) خُزانة البغدادي جدا ص ٢٩٩٠ ،

⁽٢) أنظر مجمع الأمثال جـ٢ ص ٤٧ ، ٣٢٣ .

⁽٢) العقد الغريد جـ٣ ص ١٠٨ .

لأحييت أن أتزوج اليهم (١) وقول عبد الملك بن مروان : ما يسرني أن أحسدا من العرب لم يلدني ولدني الا عروة بن الورد لقوله :

وانی امرؤ عـــافی انائی شرکة وانت امرؤ عافی اناءك واحــد اتهـزا منی ان سمنت وان تری بجسمی شحوب الحق والحق جاهــد افرق جسمی فی جسوم کثیرة واحسو قراح الماء والماء بـــارد (۲)

وانه وان كان من نواحي اعجاب هؤلاء الخلفاء بعروة الناحيــة الخلقية الاشتراكية التي عرف بها الا اننا لا نغفل أثر الشعر في هذه التزكية ، وكونه كان الأداة التي حملت أخلاقه الى الناس ، وعلماء النقد العربي لا يتجاهلون قدرهم الشعرى ، كما ذهب أبو عبيدة مثلا في وضع شعر عروة في الطبقة الثالثة (٣) بالنسبة لسائر شعراء العرب ، وكما عد صاحب الأغاني السليك « من شعر شعراء العرب » (٤) على أنه ينبغي أن نلاحظ في مقام حديثنا عن صعلكة الجاهلية ، أن ما وصل الينا من صعاليكها وأخبارهم دون ما كأن يتوقيم بكثير ، ففي مجتمع كالجاهلية يبلغ فيه شيوع الصعلكة وخطرها حدا يجعل النسريع الاسلامي يفرض لها عقوبات صارمة تتمثل في حد قطع الطريق الذي ورد في قوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوامن الأرض ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم • الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم ، (٥) وفي حد السرقة الذي ورد في قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا تكالا من الله والله عزيز حكيم · فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم ، (٦) ومن المنطقى في أي قانون أو تشريع أن تكون العقوبة تخفيفا وتشديدا على قدر الجريمة ، ومن الواضح في هذين الحدين الاتجاء الى أقصى الشدة في العقاب ، وهذا يعنى خطورة الجريمتين المشرع لهما ، ويتضمن انتشارهما بصورة تهدد أمن المجتمع كله واستقراره ، ويؤيد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم في بدء دعوته ، حرص على أن يجعل من أهم ما يغري به الناس ليقبلوا على الاسلام هو تبشيرهم بأن الاسلام سيحقق لهم الأمن في طرقهم ومسالكهم حيث يقول : والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الركب من صنعاء الى حضْرموت ، لا يخاف الا الله والذَّئب على غنمه ، ، وأخطر من كانوا يهددون

1

⁽١) أنظر مهذب الأغاني عن عروة بن الورد ٢٣/٢٠ -

⁽٢) المصدر السابق عن عروة جـ٢٣/٢٠ .

⁽٣) جمهرة أشعار العرب للقرشي **في**ن ٣٤ ·

⁽٤) مهذب الأغانى عن السليك ١٦٧/٢٠.

⁽٥) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة المائدة ٠

⁽٦) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة المائلة •

مده الطرق مم الصعاليك ، وهم أيضا أخطر من تنطبق عليهم أحكام الحدين السابقين في القرآن الكريم .

ومع ذلك قلم يبلغنا من عرّلاء الصعاليك الا العدد المعدود ، ومن الواضح في تعليل ذلك ال التاريخ العربي قبل الاسلام لأسباب كثيرة أشرنا الى يعضها فيما سبق نم يصلنا منه الا ما يتعلق بالأمجاد القبلية لحرص أبنائها على تناقلها وبالطراثف لمين الناس بطبعهم اليها ، وبالشعر لتمجيد العرب أياه وخاصة جيده ، ولذلك ثلاحظ أن كل ما ورد الينا من أخبار الصعاليك في الجاهلية يمكن رده الى عده الأسباب ، أما الأخبار التي لا تحمل طابعا من هذه الطوابع فلم بصل الينا منها شيء ذو غناء ،

وفى ختام هذا الحديث عن موقف المجتمع من الصعاليك نحب أن نشير الى أن ماورد مما يوحى بمهانة أو تحقير لبعضهم كان لا يمثل رأى المجتمع ، كما ورد فى أخبار قيس بن الحدادية (بن منقذ) أنه قال لجماعة طلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا لهم : أن قومى لن يفدونني ولو طلبتم بى عنزا جرباء ماأعطيتموها(١) فائما قال ذلك لأن قومه كانوا قد خلعوه ، فهو يعبر عن حقيقة صلته بقومه لا عن قيمته ، ولا عن تقويم قومه أياه ، كذلك قصة المفاداة بالشنفرى انما كانت أسره قبل أن يصبح صعلوكا (٢) .

٢ ـ أساليب الصعلكة:

واذن _ كما قلنا آنفا _ فلم يكن للصعلكة أسلوب واحد معين ، وان كان يجمعه جميعا انه سوك عدواني يستهدف الغنيمة ، ولذلك تعددت وسائل مزاولتها واختلفت باختلاف استعداد الصعلوك وامكانياته الذاتية ، فان كل صعلوك انما يزاول ما يناسب امكانيات القوة والاستعداد فيه ، واختلفت أيضا باختلاف الظروف التي تتيح للصعلوك مزاولة صعلكته ، وعلى ضوء ما آمنا به نستطيع أن نتصور أن أهم مجالات الصعلكة ، الطرق التجارية سواء أكانت أساسية أم فرعية وخاصة في مواسم عبور القوافل ، ومواسم الأسسواق والمراعي وخاصة مراعي الابل ، والحظائر الخاصة بها ، ثم ما يعرض من ظروف طارئة غير منتظمة ،

ولسنا نريد من هـــذا الحديث استقصاء حوادث الصعلكة في الجاهلية وانما نريد أن نعرض لنماذج تمثل انواع الصعلكة من لصــوصية أو سطو وغارة أو قطع طريق •

⁽۱) مهذب الأغاني ۱/۹۹ - ۱۰۵ ٠

⁽٢) شرح حاسة أبي تمام عن التبريزي جدا ص ١٨٧٠

فمن ذلك ما ورد فى اخبار لسليك ، انه خرج ذات ليلة يريد الغسرو ومعه رجلان كمال يقول صاحب الأغانى أو جماعة كما يقول مجمع الأمشسال وكانت ليلة ذات مطر وبرد ، فعرض له بيت منفرد من البيوت ، فواعد أصحابه أن ينتظروه فى مكان قريب معين ، ليستطلع لهم ، ثم تسلل الى مؤخرة البيت وكان البيت ليزيد بن رويم الشيباني وكان شيخا ، واذا الشيخ وامراته بفناء السيت ، وظل السليك فى مؤخرته منتظرا يفحص البيت بعينه الحاذقة ، فاذا بن الشيخ يأتى بالإبل من مراتعها ، فيقول له أبوه غاضبا منكرا عودته : الملا انتظرت بها وعشيتها ساعة من الليل ؟ قال ابنه : انها أبت العشاء ، قال الشيخ : العاشية تهيج الآبية ، فذهبت فى مثالهم ، ثم قام الشيخ مغضبا فنفض ثوبه فى وجوه الابل لترجم ، وعاد بها الى مراتعها ، ثم جلس اللهين قنفض ثوبه ويعلوه بالسيف فيطير رأسه ، ثم يطرد الابل حتى يأتى بها مسحابه من ثوبه ويعلوه بالسيف فيطير رأسه ، ثم يطرد الابل حتى يأتى بها أصحابه ويقول بعد ذلك واصفا الابل وتمكنه منها :

وعاشية رج بطان ذعرتها بسيوط قتيل وسطها يتسيف

كان عليه لون برد محبر اذا ما أتاه صارخ متلهف وواصفا لهفة أصحابه في انتظاره ، وظنهم الظنون بابطائه :

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى اذا ما علوا نشزا أهلوا واوجف وباتوا

ومتحدثا عما يلاقيه في مثل عمله هذا من مخاطر ، وعن السبب الذي يضطره الى هذه المخاطر ·

وما نلتها حتى تصعلكت حقبـــة وكدت الســـباب المنية أعرف وحتى دايت الجــوع بالصيف ضرنى اذا قمت تغشاني ظلال فاسدف (١)

وفى أخبار السليك أيضا أنه خرج فى رفقة حتى أتوا جوف مراد باليمن فاذا أبل كثيرة بالوادى فقال لصاحبيه : انتظرا قريبا حتى آتى الرعاء ، فأعلم لكما علم الحى ، أقريب هم أم نعيد فأن كانوا قريبا رجعت اليكما ، وأن كانوا بعيدا قلت لكما قولا ألحن به لكما فأغيرا ، فأنطلق حتى أتى الرعاء ، فلم يزل يسندرجهم فى الحديث حتى علم أن الحى بعيد لا يلحقوه أن طلبوه فقال للرعاء : الا أغنيكم ؟ قالوا بلى فتغنى بأعلى صوته :

 ⁽١) أنظر مجمع الأمثال ج٢ ص ٩ ومهذب الأغانى ج٢/٢٦٧ مع اختلاف بينهما في ألغاظ.
 الشعر ٠

يا صاحبي الا لاحي بالسمسوادي الا عبيسد وآم بين أذواد اتنتظران قليلا ريث غفلتهم أم تغدوان فان الريح للفسادي (١)

خلما سمع صاحباه ذلك أتياه فأخذوا الابل وذهبوا بها ، ولم يبلغ الصريخ المي حتى كانوا قد مضوا بالابل (٢) .

ومن أساليب السليك في الصعلكة أنه كان أثناء رحلاته وغاراته يجمع من يعترضه من الصعاليك فيضمهم اليه حتى يكون منهم عصساباته (٣) وأن كانت عصاباته في أغلب الآحيان كما يبدو من أخباره لا تتجاوز نفرا قليلا *

على أن السليك لم تقتصر صعلكته على الابل ، بل تعدتها الى خطف الناس وأسرهم بغية الحصول على الفداء ، ففي أخباره أنه أثناء خروجه للفارات ذات مرة لقى رجلا من خثهم ومعه أمرأة فأخذهما ، ثم فاوض الخثمي على الفيداء (٤) .

واما تأبط شرا فكان يؤثر أن يغزو وحده على رجليه (٥) لثقته في سرعة عدوه ، حيث كان أحد ثلاثة هم أعدى العدائين في العرب (٦) هو والشنفرى وعمرو بن براقة وكلهم من الصعاليك وفي أخباره قصته مع زوج أمه ـ أبيي كبير الهالى ـ الذي أزاد أن يستدرجه ليقتله بتواطؤ مع أمه ، حينما أحس أبو كبير غيرة تأبط على أمه ، قال أبو كبير لتأبط شرا « هل لك في أن تغزو ؟ قال : ذلك من أمرى ، فخرجا ليلا حتى أذا أدركهما مسلما اليوم الثماني أبصرا نارا ويعرف أبو كبير أنه نار أعداء لتسأبط شرا ، فوجهه اليها فرأى عليها رجلين من ألص العرب فوثبا الية يريدان قتله ، فلما كان أحدهما أقرب اليه من الآخر عطف عليه فقتله ، ورجع إلى الآخر قرماه أيضا فقتله ، ثم جاء إلى نارهما فأخذ الخبز وجاء إلى أبى كبير ، فألح عليه حتى أخبره بالخبر فخاف أبو كبير منه فلما رجعا قال أبو كبير ، فألح عليه حتى أخبره بالخبر فخاف أبو كبير منه فلما رجعا قال أبو كبير : أن أم هذا الفلام لا أقربها أبدا ، (٧) وأما عروة بن الورد فكانت عصابته كثيرة العدد ، لأنه كان يمشابة مدرسة يتخرج فيها الصعاليك واشتهر بأنه كان مأوى خيرا لهم ، ولذلك لقب بعروة الصعاليك ، وصاحب فكاني ببسط صورة من ذلك فيقول « وكان عروة اذا أصابت الناس سمنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمم أشباه شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمم أشباه

⁽١) أم لمن البيت الأول جمع أمة والواد جماعات الابل الذكور والربع التوة والنصر •

⁽٢) مجمع الأمثال جا٢ ص ١١٠٠

⁽٣) أنظر المندر السابق چ٢ من ١١ ٠

⁽٤) . أنظر شرح التبريزي لحماسة ابي تمام جدا ص ٣٧٨ ٠

⁽٥) أنظر خزالة البغدادي جـ١ ص ٩٥ ؛ ٩٦ ترجمته وسبب تسببته تابط شرا والخلاف

⁽١) أنظر شرح المفضليات عن ابن الابتاري ص ٢٧٠

⁽V) انظر شرح الحماسة عن التبريزي بدا س ١٩٠٠

مؤلاء من دون عشيرته ثم يحفو لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم ومن توى منهم اما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب اليه قوته خرج به معه ، فأغار وجعل لأصحابه الباتين في ذلك تصيبا ، حتى أفا أخصب الناس والبثوا ، وذهبت السنة ، الحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبة من غنيمة ان كانوا غتموها ، فربما أتى الانسان أهله وقد استغنى » (١) وهذه الشهرة عنمه من شأنها أن تجهذب اليه الراغبين في التصعلك والذين يأنسون في انفسهم استعدادا له ، وكان هذا الخير الذي يغيضه عليهم مصدره بطبيعة آلمال الصعلكة ، لأن عروة لم يكن غنيا ، بل لم يكن له مال ، وكان أكثر المتحدثين عن الفقر والحاجة (٢) ، وهذه النفقات للكثيرة التي كان يحتاج اليها لاعالة هذا العدد الكبير كانت تقتضى منه بطبيعة الحال أيضا كثرة الغارات ، وكثرة المشتركين فيها ليحصلوا على أكبر مغنم مستطاع ، ومن غزواته هذه الغزوة التي تعتبر مثلا من أمثلة اشتراكية الصعاليك ، حينما غنم من عزوته تلك مائة من الابل وامرأة وقسم الابل بني اصحابه بالسواء وكان نصيبه كواحد منهم ، غير انه اخسذ وقسم الابل بني اصحابه بالسواء وكان نصيبه كواحد منهم ، غير انه اخسذ نصيبه من الابل في صنائعه من الصعاليك ذلك عليه ، حتى اضطر الى أن يتنازل عن نصيبه من الابل في مقابل المرأة ، فابي صنائعه من الصعاليك ذلك عليه ، حتى اضطر الى أن يتنازل عن نصيبه من الابل في مقابل المرأة ، فابي صنائعه من الصعاليك ذلك عليه ، حتى اضطر الى أن يتنازل عن نصيبه من الابل في مقابل المرأة (٣) .

وكان من أصحاب هذه الغازات التي تستهدف القبائل قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية والذي يقول عنه صاحب الأغاني انه و أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب، وممن كان يعدو على رجليه عدوا يسبق الخيل » (٤) ومن هؤلاء المغيرين على القبائل عمرو بن براقة ، ومن أخباره قصة غزوته لحريم الهمداني التي استاق فيها كل شيء لحريم والتي يخاطب همدان بعدها قائلا:

وكنت اذا قـــوم غزوني غزوتهم فهل آنا في ذا يالهمدانظالم) (٥)

ومنهم عمرو بن العجلان المعروف بذى الكلب والذى يقول عنه صاحب الاغانى «كان يغرو بنى فهم غزوا متصلا » (١) ، والتى تصف أخته ربطة سبيه المذارى فتقول :

والخسرج العاتق العساداء ملعنه في السبي ينقع من أردانها الطيب (٧)

⁽١) مهذب الأغاني جـ٢/٢٣ .

⁽٢) أنظر ديواله ٠

⁽٣) أنظر مهذب الأغاني ج٢/٢٢ .

⁽t) أنظر ترجمته بمهذب الأعاني جا ص ٩٣ ·

 ⁽٥) التمية والتمييدة في الأمال جـ٢ ص ١١٨ ومهذب الأغاني جـ١ ص ٩٢ وثلاثة أبيات منها في المقد الغريد جـ١ ص ٣٤ ٠

⁽١) أنظر ترجمته في مهلب الأغالي جـ٢ من ١٨٨٠٠

⁽V) المسدر السابق جـY ص ١٨٨ وليه بتية التصيه ·

والشنغرى يصور لنا بالشمر غزوة من غزواته يبدو انه كان فيها وحده فيقول انه في ليلة شديدة البرد معطرة خرجت غازيا _ يمكان يسمى الفعيصاء _ وعدت ومازال الليل حالكا ، ولكنى فى غزوتى هذه د ايمت نسوانا وايتمت الله ه واصبح أهل الحى يتساءلون منقسمين فى رأيهم عن أحدث هذه الآثار _ التي يبدو انها كانت قتلا وليس حصولا على مال _ فبعضهم يقول ان الذى معلا بالليل أنها هو ذلب أو وحش ، ويرد البعض الآخر مؤكدا أنه سطو عفريت من الجن ، وليس من الناس (١) ، وفى أخباره الأخرى انه كان يغير على الأزد،

على ان أساليب الصملكة في الجاهلية لم تكن تخلو من طرافة في مزاولتها كما يروى الجاخط عن أسلوب جعدر بن ضبيعة في سرقة الابل فيقول : « كان جعدر اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة فجمل فيها قردانا ثم نشرها بقرب الابل ، فاذا وجنت الابل مسها نهضت ، وشد الشنة في ذنب بعض الابل فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ثم كان يثب في ذروة ما فد منها ويقول : ارحم الغارة الضعاف ، يعنى القردان • قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا (٢) •

وعروة بن الورد مع كثرة رفقته وأتباعه من الصعاليك واللائذين به في أحبان كثيرة ، الا أنه كان كما يبدو من أخباره يعتمد على نفسه في الهجوم وكانت أساليبه تدور حول التسلل بمفرده الى حظائر الماشية كما في قصته مع الرجل الذي كانت امرأته تخونه مع عبده ، أو السطو كما في قصته مم أصحاب الكنيف (٣) .

الصفلكة فى المسلام

أشرقت الأرض بنور ربها حينها أهل عليها نور الاسلام ، فأضاء القلوب وأضاء الأرض وما عليها ، وأحست الصعلكة بعشى شديد أمام هذين التورين نور القلوب الذي لا يتيع لأصحابه أن ينحرفوا الى متاهات الظلمة والتواء

 ⁽١) أنظر اللامية في الأمالي جـ٣ ص ٢٠٥ من البيت ٥٠ الى ٥٧ وأول الأبيات (وليلة تحس ٢٠٠)
 (٢) الحيوان جـ ٥ ص ٤٣٣ مع أن التبريزي في شرح الحماسة جـ ١ ص ١٩٥ يصفه بقوله
 من القرسان المعدودين ، والقبعة القربة ،

⁽١٦) اطر أخباره في شرح ديوانه لابن السكين .

السلوك ، ونور الحياة الذي لا يترك فيها كهوفا للعبث ، ولا منعرجات ياوى اليها أولئك الذين لا تطيب لهم الحياة الا في الظلام ، ولا يحلو لهم العيش الا في التاهات والسبل الملتوية ، من أمثال الصعاليك وقد كانت اليد التي تحمل هذه الشعلة المشرقة يدأ فوية حازمة ، وأعنى بها التشريع الاسلامي نفسه .

هذا التشريع الذي راعى فيما راعاه _ فضلا عن عمومه وصلاحيته لكل العصور والبيئات ... ظروف البيئة التي نزل بها هذا التشريع ، وقد كانت أساليب الصعلكة من أبرز مشاكل البيئة حينئذ وأكثرها اقلاقا لطمأنينة المجتمع وازعاجاً لأمنه ، وتهديدا لحياة الأفراد وأموالهم ، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل في مقدمة ما يبشر به من هذا الدين الجديد انه يحقق لهم الأمن حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله والذئب عــــلى غنمه ، وحتى أن الله سبحانه يمن على قريش أن جعل لهم حرما آمنا بينما يتخطف الناس من حولهم فيقول « أو لم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » (١) فما كان أحوجهم حينتُل ألى تشريع يعالج لهم فيما يعالج هذا المشكل من حياتهم ، وقد عالجه التشريع الاسلامي بأحزم ما يكون الحزم ، وأحكم ما تكون الحكمة • ممثلا في حدى السرقة وقطع الطريق المشار اليهما آنفا ، ومن هذه الزاوية يعلم الذين يتهمون بعض الحدود والعقوبات في الاسلام بالشدة والقسوة ألا قسوة فيها ولا شدة اذا نظروا الى مدى فظاعة الجرائم التي استوجبت هذه العقوبات ، وأثر هذه الجرائم في أمن المجتمع واستقراره وطمأسينه ، واذكر نقاشا داد بيني وبين احد اساتذة علم الاجتماع في هذا الموضوع (٢) حينما كان مشرفا على بحث أعده في موضوع عادة الثار (٣) ، حيث سألني : وما الذي تراه لعلاج عادة الثار ؟ قلت : وسائل كثيرة ، ولكن في مقدمتها شريعة القصاص فتولاه ما يشسبه الدهشة ، ثم دار بيني وبينه حوار قصير ، كنت فيه أمثل وجهة نظر التشريع الاسلامي ، وكان هو يمثل جلال العلماء ، في سعيهم وراء الحقيقة ، وتسليمهم للحق فور انبلاجه ، قال بعد أن أفاق من دهشته : ولكنه تشريع بدائي ، ونحن في القرن العشرين فهل تريد أن نعود الى البدائبة الأولى ؟

قلت : لنسلم جدلا بأن شريعة القصاص بدائية ، ولكنى أسالك اليس شيوع عادة الثار في مجتمع ما مظهرا من مظاهر البدائية ؟

قال : بلي •

قلت : وعلماء الاجتماع في العالم وفي مقدمتهم « سافيني ، متفقون على أن

⁽١) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

⁽٢) هو الدكتور على فؤاد •

⁽٣) هو بحث (بركان الدماء : الثار) بدار الكتب المصرية رقم ٢٩٣٣ الى ٢٩٣٣ أصاحب مذا البحث .

اى تشريع فئ أى أمة وفي أى بيئة لن ينجع ألا أذا كان نابعا من عادات الأمة وتقاليدها وتاريخها مراعيا ذلك كله فيما يصدر عنه من بنود ، أليس كذلك ؟

قال . يلي ٠

قلت والتشريع الاسلامي هو التشريع الوحيد النابع من عادات أمتنا وتقاليدها وتاريخها والمراعي لذلك كله ، ومن أوضع ما يكون ذلك فيه القصاص اليس كذلك ؟

قال : يل ا

قلت : واذن فهل من الحكمة أن نعالج عادة الثار بتشريع القرن العشرين النابع من أمة تختلف عن أمتنا في عاداتها وتقاليدها وتاريخها ؟ قال بعد لحظة من التفكر : لا ، وأنا أؤيدك فيما تقول .

وكانت النقطة التي تدور حولها حكمة التشريع الاسلامي في القصاص في ذلك البحث ، حي أن الحكمة البالغة ليست في القصاص ذاته ، وأنمأ في مراعاة عادات الأمة وتقاليدها في تطبيق القصاص ، ويتركز هذا في اعتبار القصاص حقا مدنيا لا جنائيا ، بمعنى اشعار أولياء الدم أن القصاص حق لهم يملكون نيه التنفيذ ، والتعويض (الدية) والعفو ، وشعورهم بملكية هذا الحق فيه ـ مفتاح الاشكال ، كما أن الفارق بين التشريع الاسلامي وغيره في اعتبار القصاص حفا مدنيا أو جنائيا فيه أيضا كل الاشكال بالنسية للتشريعات الأخرى حيث تجاهلت عادات المجتمع وتقاليده في اعتبساره أن كل تعسمه على فرد من الجماعة تعد على الجماعة كلها ، وفيه كل النجاح بالنسبة لشريعة القصاص حيث راعت هذه العادات والتقاليد (١) وكان من حكمة تشريع الحدود والقصاص في الاسلام إنها تبدو في ظاهرها رهيبة عنيفة لتحدث اثرها في الزجر والردع ، ولكنها حينما تصل الى التطبيق والتنفيذ تكون قد انتهت الى درجة كبيرة من الرفق واللين ، تكاد تكون عكس صورتها الظاهرية (٢) ، ومن أمناة ذلك القصاص الذي يبدو مصبوعًا بحبرة قانية من الدم ، ولكنه في طريقه ال التنفية يمر بمراحل من عرض الدية والعفو حتى انه لو عفا واحد فقط من الورثة أو قبل الدية سقط القصاص ، والزم الباقون قبول الدية أو العفسو وهكذا حين ينتهى الى التنفيذ نجده في أغلب الأحيان أبيض ناصما بدل الحمرة التائية ، مع نجاحة في حسم الاشكال ، وهكذا الحدود ، تبدو أيضا رهيبة عنيفة ، ولكُّنها في طريفها الى التنفيذ يكفى لترقيقها وتلطيفها ، ان تمر بالحديث الشريف و ادراوا الحدود بالشبهات ، لأن الحدود والتصياص ، واي عقوبة في أى تشريع ليست مقصودة لذاتها ، وانما لاحداث أثرها في الردع والزجر •

⁽١) أنظر المسدر السابق (بركان النماء : الثار) ص ٨٠ وما يسدما

⁽٣) أنظر من هنا تبدأ لمحمد خالد ،

والحدود والقصاص قد أدت أثرها على أكبل وجه مستطاع ، وآية ذلك ان المجتمع العربي الذي طغت فيه أساليب الصعلكة والفتك والغارات ، سواء أكان مزاولوها من المحترفين وهم الصعاليك ، أم من الهواة وهم غير الصعاليك حتى أصبحت هذه الأحداث أبرز ما يلمسه الناظر الى المجتمع الجاهل ، هذا المجتمع ننظر اليه منذ سيطر الاسلام على شبه الجزيرة فنجد هذه الظاهرة قد اختفت ، سواء منها ما ظهر من قطع الطريق والفارات ، وما بطن من أساليب الفتك واللصوصية ، بل بن العجيب أنه حتى الشذوذ الفردى ـ الذي يفترض أنه لا يخلو منه مجتمع ـ أوشك على الانهجاء حين جاء الاسلام ، فاننا لو أحصينا ما ملغنا من حالات الشذوذ التي استوجبت تنفيذ الحدود ، وخاصة حد السرقة وقطع الطريق منذ سيطر الاسلام على شبه الجزيرة حتى نهاية خلافة عمر بن المطاب لما وجدنا هذه الحالات تتجاوز أصابع اليد الواحدة فيما نعلم ،

ومن أثر الاسلام فى الصعاليك اننا نجد التربة شائعة فيمن بلغتنا أخسارهم ، زمن هؤلاء التائبين الاحيمر السعدى الذى كان سيفه يهدد التجار وقرافلهم كما يقول :

تعيرنى الاعسدام والبدو معرض وسيفى باموال التجار زعيم

ثم تاب فلم يخف حنينه الى عادة سيطرت على حياته وهى الصعلكة ، ولكنه مع هذا الحنبن مصر على التوبة ، بل ناصح للصعاليك أن يسلكوا طريق التوبة فيقسول :

ومن هؤلاء التائبين يزيد بن الصقيل العقيلي ، الذي يقارن بين حال أصحاب المخائض قبل تربته وبعدها ثم اطمئنانه الى التوبة فيقول :

ألا قل لأرباب المخائض اهمـــلوا فقد تاب مما تعلمون يزيد وان امرءا ينجو من النار بعدما تزود من أعمالهـا لسميد (٢)

وليس معنى ذلك كله موت الصعلكة ، فان من عواملها ما هو طبعى ملازم للحياة ، كالاستعداد الفطرى والشذوذ الفردى فى المجتمعات م وبالنسبة الشبه الجزيرة العربية هناك عامل هام طبعى وهو طبيعة الأرض وما تيسره لأبنائها من الاختفاء والاحتماء ، يضاف الى ذلك أن سلطة الدولة بدأت تضعف ، وقبضتها بدأت تتراخى عن الأفر د حينما بدأت الفتن والخلافات تثور فى معظم أنحاء الدولة فى سلسلة طويلة متشمية ، بدأت هذه السلميلة بالخلافات بن على

⁽۱) آمالی القالی جدا ص ۱۸۰

⁽١) الكامل للمبرد جدا ص ٦١

وصاوية ، ثم المتدت حلقاتها ممثلة في الجروب بين العلويين والأمويين ، وبين الأمومين والعباسيين ، وبين العباسيين والعلويين ، بالإضافة الى ما تخلل ذلك من فتن الموارج والمذاهب المنحرفة ، والمتمردين ثم توالت الفتن بين بعض طواقف الأمة والبعض الآخر ، وبينهم جميعا وبين الأمم الطامعة ، والطوائف المتمردة في دوامة عاتية هيأت مجالا واسعا للصعلكة أن تعيد نشاطها ، فتوالي طهور مجموعات من الصعاليك لم تكد تخلو منهم الأمة في فترة من الفترات بل هيأت هذه الظروف للصعلكة أن تستعيد كثيرًا من مكانتها ، وأن تعخف نظرة السخط التي كانت تواجه بها أيام عنفوان الدعوة الاسلامية حتى أن صعلوكا كمبيد الله بن الحر استطاع بقوة شخصبته وبما جمعه حوله من صعاليك وأعوان ال يغرض نفسه في المجتمع كقوة تستعصى على الأمراء ومنهم ابن زياد والمختمار ومصعب بن الزبير ، بل تغرض التودد اليها على بعض الخلفاء كمعاوية وعبد الملك ابن مروان (١) ، وحتى استطاع أحد فتأكهم كعبد الله بن سبرة المحرشي أن يغرض قوته أيضًا حتى يستمين به الأمراء في طلائعهم لغزو الروم (٢) و نستطيع أن نجمل أهم ما يميز حياة الصباليك الاسلاميين بعد الفترة الأولى من الاسلام فيما ياتي :

١ - تغيرت النظرة الى الصعلكة بعد الاسلام ، فبعد أن كانت مجالا للفخر وميدانا للتنافس ، وموضعا للاعجاب ، أصبحت موضعا للسخط والانكار ، وان كانت في أغلب العصور لم تكن موضعا للاحتقار ، وفرق بين السخط والاحتقار وكان أهم مصادر هذا السخط الانكار الشديد الذي صبه الاسسلام عليها ثم زوال معظم الأسباب والظروف التي تهيئ لها الحياة المطمئنة الراضية ونتج عن ذلك تبدل كبير في وضعها بالنسبة للجاهلية ، فبعد ان كانت مظهرا شانما أصبحت مزاولتها _ مهما كثر مزاولوها _ شذوذا ، وأصبح مزاولوها مهما كثروا قلة يمكن اعتبارها حالات فودية في النسبة العسامة للمجتمع واصبحت نظرة المجتبع في جبلته اليها نظرة السخط والانكار والاضطهاد ولذلك نرى اضطهادهم شائعا في أخبسارهم ، فمن أخبسار الاحيس السعدى ان السلطان اهدر دمه وأن قومه خلعوه ، وأنه أصبح طريدا شريدا لا ملجاً له الا الفيافي والتفار، ولا أنيس له الا الوحوش وأصواتها (٣)، وهو القائل

عسوى الدَّتب فاستأنست بالذئب اذ عسوى ومسسوت انسان فكدت اطسير

⁽¹⁾ خزانة البندلدي جـ٢ ص ١٩ ـ ٢٢ تقلا عن كتاب اللصوص للســــكرى في ترجمة طويلة وتقصيل لهلم الأمثلك .

⁽١) عن شرح التيريزي لديوان الحاسة جدا ص ١٨٠ ،

⁽٢) العقد القريد جـ٢ ص ٢٩٠ .

ومن اخبار سعد بن ناشب المازني ان السلطان هدم داره (۱) فاضطر الى التشرد وهو القائل :

عليكم بدارى فاهدموها فانهسا تراث كريم لا يغاف العواقبا (٢)

ومن أخبار مالك بن الريب أنه أضطر ألى أن يهرب من مطاردة المجساج أبن يوسف وأنه مما قال في ذلك :

فان لنا عنكم مراحا وموحسسلا بعيس الى ديح الفيلاة صسوادى ففي الأرض عن دار المسللة مذهب وكل بلاد أوطنت كبيلادى (٣)

ومن اخبار شببب بن عمرو ان على بن أبى طالب وجه اليه شخصين يدعيان ابنى شميط ليقبضا عليه فنجا منهما بفرسه التى سماها العصا ، وفى ذلك يقول :

ولما أن رأيت أبنى شميط بسكة طيى، والباب دوني تجللت العصا وعلمت أنى رهيين مخيس أن أدركوني (٤) ولو أنى لبثت لهم قليلا لجروني ألى شيخ بطين (٥) شديد مجامع الكتفين باق على الحدثان مختلف الشئون

وقد قال على تعقيبا على قول شبيب :

تجللت العصا وعلمت انى رهـــين مخيس ان أدركوني

« والذى فلق الحب وبرأ النسمة لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعنى
الأودعته السجن وكان نتيجة الاحساسهم بسخط المجتمع ان ضعفت نزعة الفخر
فى شعرهم ، وخاصة الفخر بالصعلكة نفسها ، بعكس ما كان شائعا فى شعر
صعاليك الجاهلية ، بل ظهر حديثهم عن السجن وما يعانونه ، كما نجد فى
شعر جحدر بن معاوية (٧) ، وشعر الجرنفس (٨) وشعر مالك بن الريب (٩) .

٢ _ كان الصعاليك الاسلاميون في جملتهم أكثر اختلاطا بالمجتمعات من الصعاليك الجاهلين ، وقد يبدو هذا متعارضا مع قولنا انهم كانوا يواجهون

⁽١) شرح التبريزي الحماسة ابي تمام جدا ص ١٤

⁽۲) الكامل للمبرد جا ص ۱۲۱ °

⁽٣) الكامل للمبرد جدا ص ٣٠١ ٠

⁽٤) تجللت : ركبت - مخيس اسم سجن بناه على بن أبي طالب -

⁽o) بطين : عظيم البطن يعنى عليا كرم الله وجهه ·

⁽١) شرح التبريزي لحماسة أبي تمام جدا عن ٢٥٢ .

⁽V) أنظر معجم البكري جـ٤ ص ١١٤١ ·

⁽A) الحيوان للجاحظ جـ٧ ص ١٠٨٠ ·

۱۹) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢١٢ •

موجة من سخط المجتمع ، والواقع أنه كانت هناك ظروف جانبية او فرعيسة كانت تعترض هذا السخط او تتخلله في كثير من الاحيان ، ومن هذه الظروف ، أن عددا من الصعاليك كانت لهم من القوة والمنعة ما جعل الأطراف المتطاحنة في صراع المخلافات والفتن التي أشرنا اليها تحرص على أن تتقي شر انضمامهسم الى عدائهم ، وتحرص على أن تكسبهم في قواها ، كما في أخبار عبد الله بن الحر الذي تودد اليه كل من معاوية وعبد الملك بن مروان وعماليهما ، ولكنه ظل حصنا مستقلا عن الانطواء تحت أي سلطان ، وكذلك طلب منه الحسين بن على المون في القتال فابي وظل معتصما بقوته واستقلاله (١) *

وكان منهم الشعراء البارزون الذين حرص الولاة والأمراء على الاستفادة بشعرهم فقربوهم اليهم ، متجاهلين سلوكهم حينا ، وناصحين لهم بالتوبة أحيانا كما في أخبار بكر بن النطاح الحنفي مع أبي دلف وقرة بن محرز وما كانا يفيضان عليه من المطاء ويجريان عليه من الأرزاق ويهبانه من الهبات مقابل مدحه أبهسا واشادته بمكانهما ، وقد صنع صنيعهما أمراء آخرون توددا الى بكر وانتفاعا بشعره (٢) .

وكما في أخبار مالك بن الريب وسعيد بن عثمان والى خرسان (٣) وكما في أخبار فضالة بن شريك مع يزيد ن معاوية (٤) .

وكان من هذه الظروف التوبة المستمرة أو المتقطعة التي تعترض حيساة بعض الصعاليك فيهجرون صعاكتهم ليندمجوا في المجتمع ، ومن هذه الظروف أيضا أن الفقر والحاجة التي كانت تفرض على صعاليك الجاهلية قضاء كل أوقاتهم أو معظمها في الصعاكة طلبا للقوت قد خفت حدتها بعد الاسلام بتيسر الرزق وبسطة العيش فلم يكن الصعلوك الاسلامي في مثل حاجة الجاهلي الى قضاء حياته متجولا متنقلا وراء لقمة يسيرة من العيش ، يل كان خيرا منه حالا مما لا يضطره الى التنقل الدائم ، على أن المغانم بعد الاسلام كانت أجدى على الصعاليك منها في الجاهلية ، فقد يغنم الصعلوك غنيمة تكفيه أمدا ليس بالقصير على أننا لا ننسى أن الأخباد في الاسلام كانت في وصولها الينا أوضح منها في الجاهلية ، وخاصة فيما يعيط بالخلفاء والأمراء ، وهو مجال كانت تفتقده الحاة في الجاهلية ، ونتيجة لهذا الجانب من الألفة بين معظهم وبين المجتمع ظهر في شعرهم جانب لم يكن ملموسا في شعر صعاليك الجاهلية ، وهو جانب طهر في شعرهم جانب لم يكن ملموسا في شعر صعاليك الجاهلية ، وهو جانب

⁽١) أَعْظُو خَزَانَة البغدادي حِـ ٢ ص ١٩ - ٣٢ نقلا عن كتاب اللصوص للسكري •

 ⁽۲) أنظر مهذب المخضرى الأغانى الاصفهانى جـ٨ من ٨٤ والأمالى جـ١ من ٢٣٦ والمقد الفريد
 جـ١ من ٢٦٠ والكامل جـ٢ من ٨٨٠٠

⁽٣) أنظر الأمالي جـ٣ ص ١٣٥ وخزائمة البقدادي جـ٢ ص ٤٣ ــ ٥٢ دمهذب الأغــاني ٥٠/ ــ ١٩ ٠

⁽٤) أَيْظُر مَهِدُبِ الْخَشْرِي لِأَعْلَى الْأَصْفِهَاتِي ٢/٠/٢ •

المدح والهجاء والرئاء ، كما فى مدائح بكر بن النطاح لأبى دلف ومالك بن على الخزاعى وخربان بن عيسى (١) وكما فى مدائح ومراثى أبى الطمحان القينى لمالك بن سعد وبجير بن أوس بن حارثة (٢) وفضالة بن شريك لعاصم بن عسر يهجوه (٣) ، وان كان هذا الجانب يعتبر وهنا فى صلابة الصحاكة وعتوها وتبردها هذه الصلابة وهذا التبرد اللذان قامت عليهما الصعلكة وحفظا لها كيانها وحصناها من الضياع ، كما أنهما كانا من أهم مدعمات مركزهم سواء فى الجاهلية والاسلام ، على أن الذين ظهر فى شعرهم هذا الجانب الاجتماعى من الهجاء والمدح والرثاء عدد معدود ، ومع أن ما ورد منه غير قليل ، الا أنه يبلغ من الكثرة بحيث نعتبره من الطوابع الميزة ، أو المثلة لشعرهم ه

٣ ، مما يلاحظ في وضع الصعاليك الاسلاميين أنهم احتفظوا بالطابع العام لشخصية الصعاليك ، وهو ما أشرنا اليه من الصلابة والتبرد والاعتداد بالذات الى حد الاستهانة بكل شيء في سبيل هذا الاعتداد ، حتى الموت ، ولذلك تجد من أبرز ما يتردد في شعرهم جاهليه واسلاميه استصغار الموت ، والتحفز دائسا لاستقباله كشيء عادى مرتقب ، هذه الصفات المتنوعة من القوة في أشخاص الصعاليك ، يجمعها اعتبار الصعلوك نفسه قوة مستقلة تأبي عنى الخضـــوع والانقياد ، حتى ولو كان شخصا مفردا ليس ذا اتباع أو أنصار ، وحتى لو كانت القوَّة التي تريد أن تسبيطر عليه قوة غالبة في المجتمع أو متسلطة عليه، فاذا أحس الصعلوك أنه لن يستطيع الصمود أمام هذه القوة أو مقاومتها ، فانه لن يتردد في الهجرة الى أي مكان يحتفظ فيه بقوته واستقلاله وعزته ، كما يقول الشنفري في الجاهلية د وفي الأرض منأي للكريم عن الأذي (٤) ، وكما يقول مائك بن الريب في الاسلام د وفي الأرض عن دار المذلة مذهب (٥) ۽ فليس: للصعلوك مكان خاص يديل اليه ، وليس له مجتمع معين يهوى العيش فيه ، فأن هدفه الوحيد هو الاحتفاظ بحريته كما يريدها هو ، وبقوته كما يصرفها هو ، وبعد ذلك تتساوي لديه الأماكن والمجتمعات ، كما يقول مالك بن الريب قاصدا حدًا المعنى نفسه « وكل بلاد أوطنت كبلادى (٦) ، بل أنه يؤثر الفيافي والقفار اذا جارت مجتمعات البشر على حريته وقوته واستقلاله كما رسمهن لنفسه ومالك أبن الريب يقول في ذلك :

أن تنصفونا يال مروان نقترب اليكم والا فاذنوا ببعساد

⁽١) أنظر أمال التالي جدا ص ٣٣٦ ومهلب الأغاني جد مس ٨٤ وما بعدها •

⁽٢) أنظر أمالي القالي جـ١ ص ١٠١ ، جـ٢ ص ٣٣٥ ومهذب الأغاني ٣٦ ـ ٢٨ -

⁽٣) أنظر مهذب الأغاني جـ٢/٢١٠ .

⁽٤) أمال القالي جد؟ من ٢٠٥ اللامية ٥

⁽a) الكامل للمبرد جا ص ٣٠١ ·

⁽١) الكامل للمبرد جدا ص ٣٠١ .

فان لنا عنكم مراحا ومرحلا بعيس ال ربح الفلاة صوادي (١)

وكما فعل الاخيمر السعدى في هجرته الى الفيافي المقفرة الا من الوحوش (٣) وان الصعلوك ليؤثر الوحوش (على اختلاف أنواعها وعلى خطورة جيرتها) على بني آدم اذا ضيقوا على حريته أو حاولوا المساس بعزته كما يقول الاحيمر صعلوك الاسلام :

عبوى الذئب فاستانست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكسيدت اطسير (۳»

وقد قال قبله صعلوك الجاهلية الشنفرى:

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيال (٤)

والذى يعنينا من هذا ان صعاليك الاسلام احتفظوا بطابع القوة والاستقلال الذى تقوم عليه الصعلكة وتعتز به ، ولم تستطع قوة أن تخضعهم أو تسيط عليهم ، بل فرض بعضهم على كل القوى أن تتودد اليه بعد أن أعياما كمبيد الله ابن الحر الجعفى الذى أعيا الأمراء والولاة من مثل ابن زياد والمختار والمصعب ابن الزبير ، واضطر كلا من معاوية وعبد الملك بن مروان والحسين بن على أن يتوددوا اليه كما أشرنا ، وكما استطاع عبد الله بن سبرة الحرشى أن يجعل الولاة يستعينون به فى غزواتهم ومناوشاتهم كما قلنا ، فأمثال هذين استطاعوا أن بفرضوا قوتهم على المجتمع وعلى القوى المتعسادلة فى المجتمع ، والذين لم يستطيعوا أن يفرضوا قوتهم فروا بها الى حيث يكونون فى مأمن ،والى حيث يستطيعون أن يزاولوا حريتهم كما يحلو لهم ، كما فعل مالك بن الريب فى مروبه من المجاج (٥) وشبيب بن عمرو فى هروبه من على بن أبى طالب (٦) مروبه من المجاج (٥) وشبيب بن عمرو فى هروبه من على بن أبى طالب (٦) وحريته ، وكما فعل سعد بن ناشب الذى ترك داره للوالى يهدمها (٧) وآثر الفرار بقوته وحريته ، وكما فعل الاحيمر السعدى فى اختياره حياة الفيافى ومصاحبة وحريته ، وكما فعل الاحيمر السعدى فى اختياره حياة الفيافى ومصاحبة الوحوش على الاستسلام للسلطان (٨) م

وهذه الصلابة التي احتفظ بها الصعاليك واشتهروا بها في مجنمعاتهم ، . دعمت مكانتهم في المجتمع ، واضفت على صعلكتهم كثيرا من الهيبة ، وشيئا

⁽۱) المصدر السابق جـ١ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ وأنظر الكامل للمبرد ج١ ص ٢٠٠ والاصمميات ص ١٢٠ عن صعاليك آخرين ٠

۲۹۰ ص ۲۹۰ مل ۲۹۰ می ۲۹۰ ۰

⁽٣) معجم الشعراء من ٣٧ ٠

⁽٤) أمال القائل جـ٣ ص ٢٠٥ والسبد : الذئت والأرقط النبر والعرفاء الضبع .

⁽٥) الكامل للمبرد جدا ص ٣٠١ ،

⁽٦) شرح الخطيب لماسة أبي تمام جدا ص ٢٠٢٠ ،

⁽٧) الكامل للمبرد جدا ص ١٢١ وشرح التبريزي للحماسه جدا ص ١٤

⁽٨) المقد الفريد ج ٣ س ٣٩٠ ٠

غير يسير من التقدير ، بالإضافة الى أن النظرة الدينية التي وصمعهم بالانحواف والشذوذ والتأثيم الشديد ، وان كانت لم تنمح ، الا أنها بعد عصر الخلفاء ، وبعد تحدر الفتن في الأمة من كل صوب ، وبعد أن أصبح الصعاليك مجرد جزء من هذه الفتن ، خف لهيب النظرة الدينية اليهم ، لأن هذه النظرة لم تعد مركزة عليهم وحدهم ، بل كانت موزعة على فتن كثيرة ، لم تكن الصملكة اهمها ولا أخطرها .

ومن هذه القوة العنيدة التي استطاعوا أن يحافظوا عليها ، والتي كان من أهم وسائل احتفاظهم بها تهيؤ ظروف كثيرة لذلك ، أبرز هذه الظروفوان لم يكن أهمها شيوع الفتن المثلة في قوى كثيرة متصارعة متطاحنة ، من هذه القوة العنيدة انساب شعر كثير لهم ، لا يمثل الشعور بالشذوذ والانحراف ، وانما يمثل القوة والاعتداد بالنفس ، والتمادى فيهما الى درجة واضحة متميزة •

على أننا في خلال هذا لا تنسى الفارق بين الفترة الأولى من الاسلام ، وما وليها من العصور وبين العصور نفسها في موقفها من الصعلكة ، وتأثر الصعلكة بهذا الموقف ، وأن كانت الروايات غير واضحة كل الوضوح في التحديد الزمني لما ساقته من شعر ، الا أننا نحس أثر الفترة الأولى من الاسلام في شيوع التوبة بين الصعاليك ، وفي تحدث شعرهم بهذه التوبة وفي ظهور معنى يظهر لأول مرة في شعر الصعاليك وهو الحديث عن السجن والقيد ، حيث أن الذين لم يستطيعوا الهرب وقعوا في طائلة السلطان والشريعة ، فإذا هم في السجون والقيود ،

وفى الآية الكريمة التى تفارن بين حال اهل الحرم فى أمنهم ، وحال المجتمع الجاهل فيما عدا الحرم نرى التصوير العميق فى قوله تعالى « أو لم يروا أنحج جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (١) فهذا التعمير « يتخطف الناس من حولهم » يصور لنا حال المجتمع الجاهل ، ويشير الى أثر الصعلكة فيه ، ولذلك يتول الزمخشرى فى تفسير الآية كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضا ، ويتفاورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون آمنون فيها ، لا يغزون ولا يفاد عليهم مع قلتهم وكثرة العرب (٢) « ومن هذا يمكن أن نتصور الفارق بين الجاعلية والاسلام فى حاليهما ، وفى أثر الصعلكة فى كل منهما *

اساليبها:

اساليب الصعلكة تتحكم في تحديدها وتوجيهها عدة ظروف ، منها طبيعة الأرض ، وطبيعة المجتمع وحياته رمنها استعداد الصعلوك نفسه ، ومن هذه

⁽١) الآية ٦٧ سورة المنكبوت ٠

۲۲۰/۳۵ الکشاف فی الآیة السابقة ۲۲۰/۳۲۰

الظروف ما ظل ثابتا لم يتغير كطبيعة الأرض واستعداد الصعاليك ، ومنها ما طرأ عليه كثير من التغيير كعياة المجتمع بجوانبها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذا التغيير بدوره لم يكن ثابتا ، وانما اختلف باعثاني العصور والحكام ، وما يسود المجتمع من أحداث .

وحين ننظر الى أساليب الصعاليك الاسلاميين نجد أساليب صعلكتهم تبعا. لذلك مختلفة أيضًا ، ولكن التغيير الملموس الذي نحسه في الفارق بين أساليب الجاهليين والاسلاميين هو ضعف أسلوب الغارات الى حد الاختفاء في معظم المصور، وتبعه لذلك اختفاء نغبة الغارات والتمدح بها في الشعر، فبينما نجد الغارات أبرز ما يتحدث عنه صعاليك الجاهلية ويفخرون به في شعرهم ، وبينما يشيع في الروايات أيضا عنهم حديث الغارة ووصفهم بها ، نجد شعر الاسلاميين يكاد يخلو منها ، ونجه الروايات أيضا تتحاشى وصفهم بالغارات ، وهذا أثـــر مباشر لما طرا على الحياة الاجتماعية من تغيير ، فبينما كانت حياة القبائل في الجاهلية تقوم على غارات بعضها على بعض بصفة دورية متصلة لا تكف ولا تكاد تنقطم وقد اتخذ الصعاليك من هذه الحياة أسلوبا من أساليب صعلكتهم ، بينما الوضع كذلك في الجاهلية نجد طريقة الغارات تكاد تختفي في الحياة الاجتماعية بعد الاسلام ، ولم تعد الظروف تسمح بانتهاجها فتختفي تبعا لذلك من أساليب الصعاليك ، الا في الظروف الشخصية أو السياسية الشاذة حينذاك ، كما ورد في أخبار عبيد الله بن الحر حينما أحس نقمة معاوية عليه « ثم خرج عبيد الله مغضبا وارتحل الى الكوفة في خمسين فارسا وسار يومه ذلك ، حتى أذا أمسى بلغ مسالح معاوية ، فمنعوه من السير فشد عليهم وقتل منهم نفـــرا وهرب الباقون ، وأخذ دوابهم وما احتاج اليه ، ومضى لا يمر بقرية من قرى الشام الا أغار عليها حتى قدم الكوفة (١) فقد كان حددًا الظرف السياسي حينداك في الصراع العنيف بين معاوية وعلى ، وما استتبعه من ظهور الخوارج والطوائف المنشقة ، والمذاهب المنحلة وما الى ذلك من الظروف الشاذة ، كما أن شخصية عبيد الله بن الحر في شهرته بالقوة، وانقياد اتباع طيعين له من الظروف غير المادية أيضًا ، فقد كان وضع عبيه الله بن الحر في صعاليك الاسسلام أقرب الى وضع عروة بن الورد في صعاليك الجاهلية •

والذي يشيع في أسساليب صعاليك الاسلام كثيرا قطع الطريق ، كما تحدثوا بذلك في شسعرهم ، وكما ورد في وصف كشير منهم بأنه « يصبب العلريق (٢) » سواء أكان العلريق طريق القوافل أم طريق الأفراد ، وسواء أكان المغنم مالا ، أم بضاعة مما تحمل القوافل كما يقول الاحيمر السعدى :

⁽١) خُزَانة البندادي جـ٢ من ١٩٠٠

⁽٢) أنظر للمثال شرح التبريزي لحماسة أبي تمام جدا ص ٢٥٧ ومهدب الأغاني جد ٨ ص ٨٤

أشكو الى الله صبري عن زو ملهـــم

وما ألاقي اذا مسروا من الخزن قل للصوص بنى اللغناء يحتسبوا بز العسراق وينسسوا طرفة اليمن فرب ثموب كريم كنت آخماده من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)

فهو يتحدث عمـًا تحمله الابل من بز وثياب وطرف ، وفي أخبـار أبي النشسناش النهشلي أنه كان يعترض القوافل في شذاذ من العرب بين الحجاز والشام في عصر مروان بن الحكم (٣) ، ويتحدث أبو النشناش عن مغانمه فيقول أنه يستهدف الجزيل من المغانم، أي أنه يربأ بصعلكته عن اليسمر منها كما يقول:

وداوية يهماء يخشى بها الردى سرت بابى النشسناش فيها ركائبه ليدرك ثارا أو ليسدرك مغنمسا جزيلا وهذا الدهر جم عجائبسه ١٣١

وكذلك يبرز من أساليبهم الحديث عن سرقة الابل أيا كان أسلوب سرقتها، الما يتحدث عن ذلك يزيد بن الصقيل بعد توبته فيقول:

الا قبل الرباب المغسائض أهملوا فقد تاب مما تعلمون يزيد (٤)

وكما يقول الاحيمر السعدى في شعار جعله لنفسه :

واني لاستحيى من الله ان أرى أجسرر حبلا ليس فيه بعسير وان اســال الجبس اللثيم بعيره وبعران ربى في البلاد كثسير (٥)

ومن أساليبهم الغتك بما يوحيه الفتك من فهمهم له وحديثهم عنه ، من أساليب التغرير والغدر التي تنتهي بحياة المفرر بهم في أغلب الأحيان كما سبق في شرح اللفظ ، ومن أساليب الفتك أيضا أعمال المجازفة وركوب المخاطر ،كما يقول المبرد « والاقدام على الغرر وركوب الحطر ، قد يتحسن عند الفتاك (٦) ، وقد وصف كثير من صعاليك الاسلام بأنهم فتاك كسعد بن ناشب (٧)وعبدالله ابن سبره (٨) وفضالة بن شريك (٩) .

⁽١) الأمالي للقالي جدا ص ٤٨ والزوامل الابل اذا كانت محميلة ، والقطار الابل القطورة وراء 'بعض ٠

⁽٢) الأعالى للأصلهائي جد ١١. ص ٤٢ *

 ⁽٣) الاصبعيات ص ١٣٥ وانظر مالك بن الريب بعن القيندادي جـ٢ ص ١٠ •

⁽ه) الكامل للمبرد جدا ص ٦١ .

⁽٥) معجم الشغراء ص ٣٧ -

⁽١) الكامل جدا ص ١٢٠٠٠

⁽٧) المصدر السابق جا من ١٧١ •

۱۸۰ من شرح التبریزی للحماسة ج۱ ص ۱۸۰

⁽٩) مهذب الأغاني جـ٢/ ٢١٠ •

الباب الشاني

الشعاءالصعاليك

من الواضع أننا لا نعنى من حديث الصعاليك الا بالشعراء منهم ، وأن الشعراء ليسوأ كل الصعاليك ، بل المغروض في غير شك أن الشعراء منهم قلة قليلة بالنسبة لغير الشعراء ، ومن فضل الشعر على التاريخ الأدبى العربي أنه حفظ جانبا كبيرا من حياة الأمة العربية وتاريخها لولاه لم يكن ليبلغنا عنه شيء يغنى ، كما لم يبلغنا عن مجالات كثيرة شيء يغنى ،

أما غير الشمراء من الصعاليك ، فلم يكن هناك ما يدعو الروايات الى العناية بهم وخاصة بعد الاسلام ، فأن الاسلام ينكر الصعائة أشد الانكار ، فلم يكن يسمع الرواة أن يجعلوا من حديثها لذاته موضوعا يتناقلونه ويضمونه موضع العلم الذي يتناقلونه تعليما وأخبارا ، ولكنهم وجدوا من جلال الشعر وتعظيم العرب له مبررا للعناية بشعر الصعاليك وبعض أخبارهم .

ومن أمثلة ذلك أن مالك بن الريب اقترنت أخبار صعلكته بزميلين له ، أحسما شظاظ الضبى (١) الذي ضرب به المثل في اللصوصية ، فقيل ألص من شظاظ (٢) ، والآخر أبو حردبة المازني (٣) وأبو حردبة هـو الذي يقول عنه الراجز وعن مالك :

الله نجــاك من القصيــم ثم ومـن أبى حــردبة الأليـم ومالك وسـيفه السـموم (٤)

ولكن مالك بن الريب كان شاعرا ، فعنيت به الروايات ، أما صاحباه فلم يكونا شاعرين ولذلك ، لم يبلغنا عنهما شيء مقيد ، وهناك صسماليك من غير

⁽١) خزانة البغدادي ج٦ ص ٤٢ .

⁽٢) مجمع الأمثال جـ٢ ص ٢٥٧ •

⁽٢) أنظر معجم ما استعجم للبكرى جـ٣ ص ١٠٢٧ .

⁽¹⁾ المسدر السابق -

الشعراء ساقت الروايات عنهم ذكرا خاطفا لارتباطهم أو ارتباط اسمائهم بشيء آخر ، كذى ألشنة وهب بن خالد قاطع الطريق ، فملازمة الشنة وهي القرية له كانت في ذاتها حديثا ، وسببا في تعرض معاجم اللغة لذكره في سياق شرح الشنة (١) ومن الأدلة على أن الصماليك غير الشمراء كانوا آكثر بكثير من شعرائهم ما ورد من أن أبا جندب الهذلي حين أراد أن يتأر لأخيه الأسود بن مرة من بني لميان ، واعد كل خليع وفاتك أن يأتوه في موعد ومكان معينين ليغير بهم على بني غياق (٢) ومعنى ذلك أن هؤلاء الصعاليك من الحلماء والفتاك الهذليين كانوا عددا كبيرا ، في حين أنه لم يبلغنا من اخبارهم الا أخبار أبي خراش والأعلم وصمض الغي وغر قليل ، وذلك لأن مؤلاء كانوا شعراء .

ومسياق المديث عن الشعر يجعلنا مضطرين الى التمييز بين الشعراء الجامليين ، وللتضرمين والاسلاميين منهم ، لما لهذا التحديد الزمني ، وما يو تبط به من نظام الحياة والمجتمع من أثر في الشعر •

والواقع أن الحديث عن الشعراء الصعاليك وعن شعرهم يعيط به كثير من الالتواء والتبعثر ، والباحث في هذا المجال يجد مشقة أي مشقة في الوصول الى صور واضحة عن هؤلاء الشعراء وعن أشعارهم نتيجة لضعف التاريخ العربى القديم واضطرابه فيما يتعلق بالأفراد وبخاصة اذا لم يكن لهم وضع بارز في اللدين أو السياسة ، وعلى الأخص هؤلاء الصعاليك ، فلولا ما تميز به الاسلام من متماحة وبسطة وسعة في الأقق والفهم للأمور ، لكان الحديث عن الصعاليك في فاته جريمة ، لأن الصعلكة نفسها جريمة أي حريمة في الاسلام . ولكن سلاحين تذرع بهما العلماء في تداول رواياتهم ، أحدهما هذه البسطة والسعة في فهم الإسلام للأمور مما لا نرى ما يدعو للافاضة في حديثه ، ولكن يجمله مثل شعار العلماء في هذا المقام من قولهم و ناقل الكفر ليس بكافر ، فالمنكر شيء ، والحديث عنه وروايته شيء آخر ، والسلاح الثاني هو تعظيم العرب للشعر وجعله ميدانا للتناقس بينهم ، ثم اقرار الاسلام للشعر واعترافه بهذه المكانة له ، هــذان الماملان كان لهما الفضل فيما تعتقد في مجرد وصول أخبار الصعاليك الينا .

ولكن هذه الأخبار لكونها معتمدة على الروايات ، ولما يفرض في الروايات من اختلاف الرواه في قوة ذاكرتهم ، وفي دقتهم في النقل تعرضت الاضطراب وتعارض واضمعين في شعر الصماليك ولذلك نبجد معظم شعرهم تختلف فيسه الروايات، ومما يلطف من هذا الاختلاف أن معظم الخلاف منصب على الألفاظ ، واقله ما يصيب العاني كما سياتي ٠

والذى يعنينا منا هو أن تقول انساحين نتحدث عن الشعراء الصعاليك لانزعم أننا نستطيع الحصر على وجه اليقين ، لأن هؤلاء الشعراء وأخباهم متفرقة بل

⁽١) أنظر القاموس للحيط عادة شنن جـ٤ ص ٢٤١ ...

⁽۱) معجم البكري بدلا ص ۱۳۰ -

متناثرة فى كل الكنب القديمة تقويبا ، سواء آكانت كتب تاريخ ، أم كتب ادب ولغة ، أم كتب معاجم ، ولا تستطيع أن نزعم ، ولا نعتقد أيضا أن هناك من يستطيع أن يزعم أن فى وسعه أن يلم بجميع الكتب العربية ليستقصى كل ما فيها عن الصعاليك .

ومما يزيد موضوع الصعاليك صعوبة أنه موضوع لا زال بكرا ، وأول من أفرد الصعاليك ببحث خاص هو أبو سعيد السكرى في كتاب اللصوص ، وقد أخذ عنه نثير من الفلماء كالبغدادي في خزانته ولكن منهج السكرى لم يتصل ، ولم يجد من العلماء من يواليه ، واقتصر الحديث عنهم على الاستشهاد بابيات أو أخبار متفرقة في معظم الأحيان ، يتبين منها أنها غير مقصودة لذاتها ، وانما نتأييد ما هي مسوقة من أجله ، ولو قد وجد السكرى من يواليه لكان في تنظفر العلماء والباحثين ما يبرز لنا صورة واضحة أو قريبة من الوضوح محددة أو قريبة من التحديد فيما يتعلق بأشخاص الصعاليك وشعرائهم ، فيما يتعلق بأخبارهم وأشعارهم وفي برد كل ذلك الى الوضع الصحيح من التحديد الزمنى ، ونسبة كل شاعر وشعره وأخباره الى عصر معين وزمن معين ، ولكننا نتيجة لعدم تحقق ذلك نجد عناء في نسبة شعراء الصعاليك اليعصورهم وأزمانهم التي عاشوا فيها ، ولئن كنا نستطيع أن ننسب كلا منهم الى الفواصل الرئيسية في التاريخ العربي من الجاهلية والخضرمة والاسلام، فاننا نعيى بما هو أبعد من ذلك في الدقة ، من نسبة الجاهل الى عصر أو جيل معين في الجاهلية ، ومن الفصل الدقيق بين الشعر الجاهلي والاسلامي بالنسبة للمخضرمين ، بمعنى أنسأ حين ندرس شعر المخضرمين لا نجد الوسيلة الدقيقة أو الروايات التي ترشدنا الى فصل الشمر الذي قالوه في الجاهلية عن الشمر الذي قالوه في الاسلام ، الا أذا كان الشعر نفسه يتضمن ما يوحى بذلك ، أو كان يرتبط بحادث عرفت نسبته ال الجاهلية أو الاسلام ، ومع ذلك فقلما نجد هذه الاعتبارات ، ومن نسبة الصعلوك الاسلامي الى عصر أو جيل معين في الاسلام وان كان هذا الجانب أوضح الجوانب في موضوع الصعاليك ، أو بمعنى أدق ، أقلها في الغموض .

ولهذا كله لم يلق موضوع الصعاليك اقبالا من الباحثين المحدثين ، مع سعة البحوث الأدبية وتشعبها في العصر الحديث ، فبصرف النظر عن المقالات على ندوتها ، والفصول الموجزة العجلي والمسوقة ضمن موضوعات أخرى (٢) . لا نعلم بحثا أخرجته المطابع الا بحث « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي للدكتور يوسف خليف عن جانب واحد من الموضوع كما يبين من عنوانه مو الجائب الجاهل .

⁽١) للمثال انظر خزانة الأدب للبغدادي جـ؟ ص ١٩ ، ٢١ •

⁽۲) مثل ما جاء في فصل الفنى والفتر بكتاب الحياة العربية من الشسر الجاهل للدكتـور الحوقي من ۲۲۱ ـ ۲۳۶ ويمش للقررات بكلية اللغة العربية وحديث كارل بروكلمان في تاريخ الإدب العربي عن يعض العماليك كالشنفرى وتابط شراً وعروة من الورد .

فيعين تتحدث اذن عن الصعاليك لا نجد مغرا من الاعتصاد الكامل عل المربية القديمة ، متنقلين بين اشتاتها ومتناثراتها ، بل وكلماتها الخاطفة الحياة عن الصعاليك ما وسعنا التنقل ، راجين ألا يكون القصور ـ ان كان ـ شعيدا .

وحيث أن تراجم الشعراء لا تعنبنا لذاتها في هذا الموضوع ، لذلك نكنفي منها يميز الشاعر عن غيره ، أو يجدد مسلماته ، في أقصى ما يستطاع من المجاز ، تاركين التفاصيل بعد الاشارة الى أهم مصادرها ومراجعها لمن أراد الرجوع »

الجاهليون

۱ ـ الشنفرى : 🕤 🗴

نشأ في أزد اليمن ، ولكن بني شبابه بن فهم أسروه صغيرا ، فظل فيهم حتى أسر ينو سلامان بن مفرج رجلا من يتي شيابة ففدوه بالشنفري ، فعاش في بنى سلامان بنجد أسيرا كالعبد ، أو عبدا كالأسير ، حتى تعلق بفتاة هي بنت الرجل الذي يميش عندم، وأراد أن يتزوجهـا فأتفت من ذلك ، وأذنه ، وأحس المهانة في مقامه بين بني سلامان فلجأ الى الصعلكة ، واستفل معظم نشاطه فيها في الانتقام من بني سلامان ، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلا ، والشنفري حو النبي يغرب به للثل في سرعة العدو الذي يسبق الحيل ويضرب به المثل في لْمُلْقُ وَالْعُمَّاءُ ، وهو ابن أخت تأبط شرا رغم أنه أكبر منه سنا ، وكان أحــد رفقة ثلاثة ، اشتهروا يأتهم من أقوى الناس وإعداهم ، هو وتأبط شرا وعمرو بن براقة وهو أحمد شخصين لكل منهما ديوان شعر ، هو وعروة بن الورد ، وان كان ديوانه هو لم يصل الينا منه الا أقله ، وهو صاحب لامية العرب ، التي يعتن الشمع العربي كله باحتواله على مثلها ، والتي فتنت المستشرقين فأولعوا بها ويترجمتها ، حتى ترجمت الى نحو خمس لغات اجنبية ، وآلتي حظيت منذ القديم يأعماب الأدباء والنقاد، حتى أفرد الزمخشري لها كتابا لشرحها هو « أعجب العبب في شرح لامية العرب (١) » ويجعل بعض الباحثين شعره في المرتبة الأولى من حيث التمثيل والتصوير .

Carlo frate and

⁽۱) أنظر مند الأخبار وغيرما عنه وعن شعره متفرقة في المسادر الآتية : مجمع الأمثال ٢٠٥٠ والمقد الله ١٠٠٨ وأمثل التالي ٢٠٥٧ و ١٠٥٠ وشرح المفضليات ص ١٠٨ وشرح حماسة أبي تسلم للتبويزي ١٨٧/١ والكامل المبرد ٢٠٨٧ وتاريخ الأدب العربي لكارل يروكلمان

هو أابت بن جابر الفهمي ، خال الشنفري ، وأحد الثلاثة السابقين الذين اشنهروا بأنهم أقوى وأعدى من عرفهم زمانهم ، وقد بلغ من اعتداده بنفسه وبقوته وعدوه أنه كان يغير وحده على رجلية ولا يهاب أحدا ، والذي عدوه من أبطال البدو المعدودين ، حتى أن قصص مغامراته واقدامه تشبيه الأساطير، وإن كان معظمها موضع اتفاق بين الروايات مما يحمل على تصديقها ، والذي عرف مع شدة بأسه وصرامته ، بالمهارة البارعة في التخلص من المآزق البالغة الحطورة ، والتي لا يتاح الحلوص منها الا لشخص وهب حظا عظيمًا من الذكاء وسرعة البديهة والعدو الحارق للعادة في قصص كثيرة لا تكاد تختلف عليها الروايات ، وقد سجل معظمها في شعره ، وكان مم ذلك من مشاهير الشسعراء المجيدين (١) ، وأمه تصف للناس طريقة تربيتها اياه وكانها أحست تساؤلهم عن سر ما أوتيه من صفات لم يألفوها في غيره ، فهي تسوق لهم جانبا من تعليل ذلك كما روى الجاحظ في قوله د رووا جميما أن أم تابط شرا قالت : والله ما ولدته يتنا ، ولا سقيته غيلا ، ولا أبته على ماقة ، وقد شرح الجأحظ هذه الألفاظ بأن اليتنخروج الولود قبل رأسه وذلك علامة سوء ، وأن الغيل ارتضاع لبن الحبلي وذلك فساد شديد ، وأن المأقة هي مضمون العنف والحمق من الأم في ترقيص ابنها واعداده للنوم بطريقة مفزعة لا رفق فيها (٢) ، مع أن بعض الرويات تتهم أمه بالتواطؤ مع زوجها أبي كبر الهذلي على قتل تأبط شرا ، وهو غلام ناشىء ، حينما توقم أبو كبير الشر من تأبط شراً ، وأحس بالحقد في نظراته نتيجة لكثرة دخوله على أمه ، وقد استدرجه أبو كبر الى حيث يلقى هلاكه في احدى الغارات حتى انتهى

۱۰٤/۱ وما بعدها وأعجب العجب في شرح لأمية العرب للزمخشرى وأمالى القالى ٣٦/٣ والشوامخ لمحمد صبرى ص ١٢٥ ومهذب أغانى الأصفهانى ١٠٥/ ومعجم ما استعجم للبكرى ٢٢٩/١ ، ٥٥٩ المحمد صبرى و ١٤٤/ و ١٣٩٢ و ١٣٩٢/١ والحيوان للجاحظ في سبعة مواضع (بالمفهرس المجمع) وخالف صاحب القاموس فعده في الاسلاميين مادة (غرب) والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٥/١ ٠

⁽۱) انظر تقصیل ما سبق وأحداثا واخبارا عنه وعن شسعره فی المصادر الآتیة : مهذب الاغانی للأصفهانی ۱/۲۲۶ وامال القال ۱/۲۸ ، ۱۳٤/۲ ، ۲۷۸ ، وتنبیه البکری علی اوهام الاغانی للأصفهانی ۱/۹۲ ومجمع الأمثال ۲/۲۶ وخزانة البغدادی ۱/۹۲ ، ۱۸۹ ، ۱۹۳ والمغضلیات المضبی ص ۷۷ والاصبعیات ص ۱۳۵ وحماسة ابی تمام ۱/۲۱ ، ۱۹ ، ۱۸ ، ۱۸۱ ، ۱۸۲ وتاریخ الأدب العربی لکارل بروکلمان ۱/۱۰ والعقد الغرید ۱/۲۲ ، ۱۸۷ ومعجم ما استعجم للبکری ۱۸۷۸ ، ۱۸۷۰ ، ۱۸۷۰ و ۱۸۸۱ ، ۱۸۲۰ ، ۱۸۷۰ و ۱۸۸۱ ، ۱۸۲۰ ، ۱۸۷۲ و ۱۸۷۱ و ۱۸۷۱ ، ۱۸۷۲ و ۱۸۷۲ ، ۱۸۲۲ و ۱۸۷۲ و ۱۸۸۲ ، ۱۸۲۲ و الفهرس ۱۸۲۲ و المجمع) والحیوان للجاحظ ۱/۲۱ ، ۱۸۲ ، ۱۸۲۲ ، ۱۸۲۲ و اله المدول و المدول المدول و المدول و غیر صحیح والشعر والشعراء لاین قتیبة ۱۷۱۱ و ۱۸۲۲ و المدول و المدول المدول المدول و المدول المدول و المدول و غیر صحیح والشعر والشعراء لاین قتیبة ۱۷۲۱ و ۱۸۲۲ و المدول المدول و المدول المدول و المدول و المدول المدول و المدول و غیر صحیح والشعر والشعراء لاین قتیبة ۱۷۲۱ و ۱۸ و المدول و ا

⁽٢) الحبوان للجاحظ ١/٢٨٦ وشرح القصائد السبع لابن الانباري ص ٤١ مع اختلاف في بعض الألفاط ،

به الى عدوين له ، ولكن أبا كبير رجع أكثر خوفا من تأبط شرا وأشد فرقا حينها وجده قتل عدويه وعاد بطعامهما(١) ، وليس من اللازم أن نعتقد أن أمه تواطأت مع زوجها في هذه المؤامرة ، فيجوز أن يكون أبو كبير منفردا بها ، أو أنه نسب الى أمه الاشتراك ليخفف من جرمه ، وعلى فرض صححة الرواية كلها ، فليس من اللازم أن تكون متعارضة مع حديث أمه عنه ، ووصفها لتربيتها أياه .

٣ ـ السليك بن عمير السعدى :

وهو المشهور بالنسب الى أمه السلكة ، وكان من أغربة العرب ، لأن أمه كانت أمة سوداء فورث عنها لونها ، وكان لذكره وشهرته دوى فى أنخاء الجزيرة كلها ، حتى أن عمروبن معد يكرب يقول (ما أبالى أى ظعينة لقيت على ماء من أمواء معد ما لم يلقنى دونها عبداها أو حراها) وعتى بأحد العبدين السليك ، وقد ضربت به الأمثال التى بلغت من الشهرة فى أنحاء الجزيرة كلها حدا بارزا فلا يعد بضعة نفرالا ويكون السليك أحدهم سواء فى سرعة العدو أو فى مضاء العزيمة وشدة البطش أو فى الشجاعة والفروسية ، فالروايات تصفه بأنه أحد العدائين الأربعة فى العرب ، وأحد العربان الثلاثة ، وأحد خمسة يصفهم الجاحظ بقوله : « فهؤلاء أسد الرجال ، وأشدهم قلوبا وأشجعهم بأسا ، وبهم يضرب المثل (٢) ، حتى فى الحيل المشهورة عند العرب كان يسهم فيها بفرسه المشهورة بالنحام » حتى فى الحيل المشهورة عند العرب كان يسهم فيها بفرسه المشهورة بالنحام » •

وقد شمل نشاطه في الصعلكة أرجاء واسعة من الجزيرة حتى أنه كثيرا ما كان يغير في أنحساء اليمن مع أن موطنه في تميم باليمامة ، ولكثرة غاراته اشتهر بأنه د سليك المقانب ، والمقانب جماعات الخيل ، وقد استطاع بهده المقومات التي اقترنت بشخصيته الفذة في مجالها أن يوفع من خسيسته التي ورثها من سواد أمه ورقها ، فبدل ان كان موضعه المرتقب بين العبيد ، أصبح في موضع الهيبة والتقدير والاعجاب اللائي لم يحظ بهن في جيله سوى النفر المعدود ، وكان من أبرر دواهبه قوة شاعريته التي جعلته من الشعراء البارزين المجيدين في عدة مجالات ، والذين يتردد شعرهم في سائر انعساء شسبه الجزيرة (٣) ،

⁽١) شرح التبريزي لحماسة أبي تمام جدا/١٩ .

⁽٢) رسائل الجاحظ ١٩٢/١ .

⁽۳) أنظر ترجمته وتفاصيل أخباره وأشعاره في مجمع الأمثال ۱/۳ ، والمقد المريد ۷۱ مرا وأسال القال ۱/۳٪ وغزانة المبدد ۱/۸۹٪ وغزانة المبدد ۱/۸۹٪ وغزانة المبدد ۱/۸۹٪ وغزانة المبدد ۱/۸۹٪ وغزانة المبدد ۱/۷٪ والكامل للمبرد ۱/۷٪ وترح المفسسليات لابن الانيادي ۷۰۶ ، ۲۰۵ والكامل للمبرد ۱/۷٪ وداكرة معارفي-البستاني عادة (سلك ; ومجمع الأمثال ۳۰/۳ ، ۱/۲٪ ، ۷۶ ومعامد المتصيص الحرب ويتيمة الدمر للثمالي ۱/۳۷٪ والمبوان للجاحظ ۱/۸٪ ورسسائل الجاحظ ۱/۲۲٪ والشمر والشمر والشمراء لابن قتيبة ۱/۲۲٪ ومعجم ما استمجم للبكري في مواضع كثيرة منها ۳/۰۸، ۱۰۸۰،

٤ _ عروة بن الورد العبسى:

أمتاز عروة بأنه أضغى على الصعلكة كثيرا من الاحترام والتقدير سواء أكان في عصره الجاهلي أم فيما وليه من بعض عصور الاسلام ، وذلك بما تحلى بمه عروة من خلق فريد في السخاء والعطف الشديد على الفقواء ، واعتبار نفسه مسئولا عن تفريج كرباتهم وضوائق العيش عنهم ، ثم في تواضعه الشديد معهم ، وتطبيق أكرم صور الاشتراكية معهم سواء في بذله ما عنده لهم ، أو في مقاسمتهم إياه غنائمه في عزواته وغاراته من أجلهم في قصص وأخبار كثيرة أفاضت فيها الرواه وكتب القدامي ، ولذلك لقب حووة الصعاليك ، ويريدون بالصعاليك في هذا اللقب الفقراء ويعللون دائما سبب هذا اللقب بأن عروة كان يجمع الفقراء ليعولهم ويعطف عليهم ، ثم يسوقون أخباره في ذلك ، ولذلك يجمع الفقراء ليعولهم ويعطف عليهم ، ثم يسوقون أخباره في ذلك ، ولذلك ابن الورد ، ويقول أيضا : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدني ولدني الا عروة ابن الورد لقوله :

وانى امسرؤ عافى انائى شركة وانت امسرؤ عافى اناك واحسد

ولذلك يقول معاوبة بن أبي سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم ومن أخباره أيضا أن ابنا للحصين بن الحمام أتى باب معاوية ابن أبي سفيان ، فقال لحاجبه استأذن لى على أمير المؤمنين ، وقل : ابن مانع الضيم ، فاستأذن له فقال له معاوية : ويحك ، لا يكون هذا الا ابن عروة ابن الورد العبسى أو الحصين بن الحمام للرى ، أدخله .

وقد اقتضت منه هذه السماحة في خلقه ، وهمهذا التزاحم من الفقراء والصعاليك على بابه أن يكثر من غاراته وأن يبعد في أرجاء الأرض طلبا للغنائم والأسلاب .

وهو الوحيد من بين شعراء الصعاليك الذى وصلنا ديوان مطبوع له (١) جمعه ابن السكيت وكان من الشعراء المكثرين ، ويمكن أن يعد أكثر شسعراء الصحاليك تناولا لأغراض مختلفة وقد عده أبو عبيدة في الطبقة الثالثسة من الشعراء وعده صاحب جمهرة أشعار العرب من الشعراء ذوى القصائد المنتقيات وهو من الشعراء القليلين الذين كان لشعرهم تأثير في لحياة الاجتماعية ، ولذلك يقول الحطيئة لعمر بن الخطاب حينما سأله عن قومه : كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا الف حازم ، قال : وكيف ؟ ، قال : كان منا قيس بن زهير وكان حازما لا نعصيه ، وكنا ناتم بشعر عروة بن الورد ، ونقدم بأقدام عنترة ، وكان عبد الله ابن جعفر يوسى معلم ولده ألا بعلمهم قول عروة :

⁽١) للشنفرى ديوان مخلوط بدار الكتب المرية وينقل بعض الباحثين أنه مطبوع أنظر الشمراء المساليك د- يوسف خليف -

خويني للغنى اسعى فأنى رايت الناس شرهم الفقير ويقول : أن ذلك يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم (١) ٠

ه .. قيس بن منقد السلولي الخزاعي :

وهو الشهور بابن الحدادية ، وهي أمه ، وكان ذا بأس شديد ، وكان من الفتاك ومن شجعان الصعاليك ، وقد كثرت غاراته ، وثقلت جناياته على قومه فخلموه ، وأشهدوا على خلمه بسوق عكاظ عــــــلى الا يحتملوا جريرة له ، ولا بطالبون أحدا بجريرة يجرها عـــلى قيس ، ولكن ذلك لم يفت في عزمه ، ولم يعرفه عن غاراته وجناياته ، بل ازداد ضراوة وشراسة ، وجعل قومه حدفا من أحداف غاراته ، وأصبح مأوى للصعاليك والشداذ والخلعاء ، يغير بهم ويعتمد على بأسهم ، وكانت له مواقف يمثل فيها خلق السيد الكريم ، لا الصعلوك الخليع ، كقصة الغنائم الني استاقها في غارته على بني قمير من قومه خزاعة ، حينماً ناشده ابن محرف أن يرد ما استاقه من غنائم ، فقيال له قيس : الصعاليك فلا حيلة لي فيه •

وله شعر كثير ، يبرز فيه جانب الغزل وجانب الفخر بقومه قبل ان يخلعوه ، بالإضافة الى شعره في محيط الصعلكة (٢) •

٦ _ مالك بن حريم الهمداني (٣) :

مع ان الرويات تصفه بأنه من لصوص همدان ، الا أن أخباره تنبي، عن أن أسبوبه في الصعلكة كان يعتمد على الغارات أكثر من التلصص ، ومع ذلك

⁽١) أفظر ترجمته وأخباره وشعره في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٥٩ ــ ١٦٠ ، وشرح ابن السكيت لديوان عروة ، وديوانه ، وأمالي القالي ٢/ ٢٣١ ، ١٨/٣ ، ٥٩ ، ٢ / ٢٠٠ ، والتنبيه على أوحام القالي للبكري ص ١١٢ وشرح الاصمعيات لابن الانباري ص ٣٥ والاصمعيات ۳۵ ـ ۲۸ وحماسة أبي تمام ۱/۱۰۹، ۱۷۷، ۲/۳، ۲۰۸، ۳۰۱ وشرح حماسة ابي تمام للتبريزي ١/٩٥١ وتاريخ الأدب المربي لكارل بروكلمان ١٠٩/١ والكامل للمبرد ١٨٨١ ، ٢٦٢ والغاموس المجيط مادة (صعلك) ومعاهد التنصيص ٣/١١ والكامل ٢٦/١ وجمهرة أشمار العرب للقرشي من ٣٤ والعمدة لابن دشيق ٢/٥٥ والحبسوان للجاحظ ٢/٢٧٦ ، ٢٧٣/٠ . ٢٠٩/٦ وقبيان والتبيين للجاحظ ١/٢٤/ والأغاني للأسفياني ٢/١٢ ، ١٦/١٣ ، ٣٧/٣ _ ٣٨ ۷۲ ـ ۸۸ وسجم البكرى ۱۳۷۲/۳ ، ۸۹۲ ، ۹۹۹ ومواضع آخرى ٠

١٦١ - ١٤٤/١٤ للأصفهاني ١٤٤/١٤ - ١٦١ .

⁽٣) اختلف في ضبط حريم والأرجح أنه يفتح الحاء المهملة وكسر الراء ، وروى شريم الناء وحزيم بالزاى وسماء البحترى في حماسته خطا مليك بن حريم ٠

فان شعره ينبيء عن شخصية توية كريمة تلتزم منهج الحلق الحميد فيما تقتضيه الصلات الاجتماعية ، حيث نجد شعره يركز على الحديث عن الخلق والعفسة والدعوة اليهما ، ويعدم النقاد من فحول الشعراء ، وهو من القليلين الذين رويت لهم قصائد طويلة من شعراء الصعاليك وقد روى له الأصبعي في أصعبياته احداها وتبلغ أربعين بيتا ، وكانت بينه وبين عمرو بن معد يكرب منسافرات شعرية (١) ٠

٧ - صخر الغي الهذلي:

هو صحر بن عبد الله الخيثمي من هذيل ، كان مع أخوته صخير والأعلم وأبى عمر يكونون عصابة عتية عنيدة ، دائبة النشاط والغزو ، وقد ساقت لهم الأخبار قصصا طريفة في حسن التخلص والتموية على الأعداء ، وكانوا من العدائين ٠

ويعلل الأصفهاني سبب تلقيب صخر بالغي بقوله « ولقب بالغي لخلاعته وشدة بأسه ، وكثرة شره ، ، وبلغ من شدة بأسه واعتزاره بشبجاعته انه حينما أحاط به أعداؤه من بني المصطلق أبي أن يسام نفسه اليهم ، أو أن يحاول النجاة منهم ، بل ظل يقاتلهم ، ويرتجز بشمر مؤثر ، حتى قتل ٠

وكان شاعرا قويا عبيقا ، أبرز شعره شعر الصراع مع أعداله ، ومنافراته مع عدوه أبي المثلم ، وشعر الطبيعة الذي يعكس حياته في الصعلكة -

ولئن كانوا يقولون في أمثالهم « الفضل ما شهدت به الأعداء ، فأن في شهادة أبي المتلم لعدوه صخر ما ينبيء عن خلق صخر وشخصيته ومركزه في المجتمع ، فحينما قتل صخر رثاه أبو المثلم بقوله :

متلاف الكريهة لا سقط ولا وان . حامى التحقيقة نسال الوديقة معتاق الوسيقة جلد غير تنيسان (٢) ركاب سلهبة قطاع اقسران (٣)

لو كان للنهسر مال عنسه متلكم لكان للدهسر صخر ١١٠ قنيان ابي الهضيمة ثاب بالعظمة رياء مرقبة منساع مغلبة

⁽١) انظر ترحمته وأخياره وشعره في الأغاني للأصفهاني ١٤/٥٢ وأمالي القالي ٢/١٢٠ ، وحماسة ابي تمام ٣/٢ والميوان للجاحد ٢١٠/٢ وشرح الاصمعيات عن ابن الاتباري ص ٥٦ - ٦٣ وشرح التيريزي للحماسة ٢/ ٣١ ، ٢١ ، والأسمعيات ٥٦ - ٦٢ والعبدة لابن رشيق 1 Y./\

⁽٢) العقيقة : الراية والحرمات والوديقة الحر الشديد أي يسرع المسبر في الحر الشديد والرسيقة الابل

⁽٣) الرياه المشرف من مرتفع والمرقبة المنظره في رأس البعيل والمسلمية الفرس اللكر العظيم • والأبيات من العدد لابن رشيق ٢٦/٢ والبيان والتبيين للجاحظ (مادش) ٣/٢٦٠ .

مياط أودية حمسال الوية شهاد اندية سرحان فتيسان يعطيك ما لا تكاد النفس تســــلهه من التلاد وهوب غير مثان

وزاد الاصفهائي عليها البيتين التاليين :

يعمى الصحاب اذا جد الضراب ويكفى القائلين اذا ما كبل العسساني وينرك القرن مصغرا أنامله كان في ريطتيه نضخ ارقسسان (١) وفي هذه الأبيات من أوصاف القوة والشجاعة ، والخلق والمروءة والسماحة ما يكفى لرقع صخر الى صفوة البارزين في مجتمعه (٢) .

A - عبرو بن براقة الهمداني :

غلبت عليه نسبته الى أمه براقة ، واسمه عمرو بن منبه بن يزيد الهمداني وكان رفيقا للشنغرى وتأبط شرا في الصعلكة وعبرو يعتبر من الأشخاص القليلين الذين يعتبرون نموذجا لشخصية الصعلوك القوى العنيد ، الذي لا يصلم عن عزمه شيء ، ولا تقف في طريق أهدافه عقبة ، وقصته مع حريم الهمداني مثال لذلك ، حيث أغار حريم فسطا على ابل لعمرو ، وكان حريم مخوفا رهيبا ، فصمم عمرو على أن يغير عليه وقد حدره بعض الناس بقولهم « لا تعرض لتلفات حريم » ولكنه أنفذ عزمه ، وأغار على حريم فاستاق كل شيء يمنكه حريم ، وقد أخذته نشوة النصر ، فأنشأ قصيدة رائعة ، بل كل بيت قيها رائع . ومنها هذه الحكمة التي كان العرب يعتبرون مضمونها شعارا لهم وهدنا ، والتي لم تزدها العصور حتى اليوم الا أجلالا لها وأيمانا بها وهي :

متى تجمع القلب الذكى ومسارما وانفا حميا تجتنبك المطسسالم (٣) ومنها هذا البيت الذي يعتبر الصعاليك مضمونه شعارا وهدفا لهم ، وهو : ومن يطلب المال المنع بالقنا يعش ذا غنى أو تخترمه المخارم (٤)

⁽١) الأرتان اليرقان يمنى المعفرة والبيتان والأبيات السابقة في الأغاني ٢٠/٢٠ مع اختلاف يسير ني الإلفاط -

⁽٢) أنظر ترجمة صخر وأخباره وشمره في الأغاني ٢٠/٢٠ ، ومهذب الأغاني ٢/٥٨٠ وغزانة الشعلين ٢/١١ وأمال القبال ٢٠٤/١ ، ٢١٠ وزهر الآداب للحصرى ٢٢٩/١ ترجيحا وديوان الهذاين ٢/٥٠ والبيان ٢/٥٧٠ والمدة ٢/٢٦ ونهاية الأرب للنويري ٦/٥٠٠

⁽١) أخطًا عبد السلام هارون وأحمد شاكر محققا الإصمعيات في نسبة هذا الببت الى مالك أبن عريم في شرح الاصمعيات ٥٦ حيث قالا « ومالك هذا هو صاحب البيت السائر الحكيم : متى تبديع الذاب من الخ) والبيت من تصيدة ١٩ بيتا ذكرها القالى في الأمالى ١١٩/٢ والأصفهاني أنظر الأغاني (باللهرس) ومهذب الأغاني ٩٢/١ وفي العقد الفريد ١/٣٤ هذا البيت وبيتان معه ومعجم البكرى ٢٩٣/٢ وكل المسادر تنسبها لعدرو بن براقة .

 ⁽¹⁾ القنا جمع قناة وللخارم سبل للوت •

وقد تمثل الحجاج ببعض القصيدة في خطبته التي توعد فيها أهل العراق(١) وكان ابن براقة من العدائين المشهورين بأنهم لا تلحقهم الحيل ، وفيما تسوقه الأخباد من قصص عدوه مع الشنفرى وتابط شرا ، وفي صراع هذا العدو مع الأعداء والمغاد عليهم كثير من العجب والطرافة (٢) ، وقد عده صاحب المقد الفريد من فرسان العرب المعدودين في الجاهلية (٣) .

٩ _ الأعلم الهدلي :

اسمه حبيب بن عبد الله من هذيل ، وهو أخو صخر الغي ، ولئن كأن صخر أقوى من صخر في الصعلكة وبدو من أخباره أنه كان يتزعم العصابة التي كانت تعتمد من حيث أفرادها على صخر وصخير وأبي عمرو ، وكان الأعلم من العدائين البارزين ، ويبدو اعتزازه بهذه الميزة في شعره ، كما أن حياة الصعلكة وما تقتضيه من ارتياد القفار جعلت منه وصافا مجيدا لحيوانات الصحراء ووحوشها ، ويعتاز شعره بصفة عامة بالجودة البارزة في تصوير البيئة ومشاهدها ،

١٠ ... عمرو بن عجلان :

اسمه عمرو بن عجلان بن عامر جار هذيل ، واشتهر بعمرو ذى الكلب لانه كان يصطحب دائما كلبا له ، كما يقول ابن الاعرابى ، أو لانه اصطحب كلبا للصيد فنودى ياذا الكلب فغلب عليه واقترن به ، كما يقول أبو عبيدة ، وكان كثير الغزو والغارة وخاصة على بنى فهم ، وشعره القليل الذى بلغنا ينبىء عن سيطرة حب الغزو والتنقل عليه ، ويروون فى سبب موته انه نام ذات ليلة فى غزوة لبنى فهم ، فوثب عليه نمران فافترساه ، فادعت فهم قتله ، واخته حنوب تصفه لنا فى رثائها إياه فى شعر كثير (٤) ، منه قولها :

⁽۱) البيان والتبيين ۱۳۸/۲ وتعثل بالبيت الأول (متى تجمع القلب ٠٠ وبيت آخر هو : اذا قوم غزوتهم ١٠٠ فهل آنا في ذا يالهمدان طالم ؟ وفي الامال ۱۱۸/۲ حريم المرادي وليس الهمداني ٠ الهمداني ٠

 ⁽٢) أنظر مجمع الأمثال ٢/٢٤ والمسادر السابقة ، وسماه صاحب مجمع الأمثال ابن براق ومو غير دقيق لأن براقة أم عبرو .

⁽٣) أنظر المقد الفريد ١/٣٤ (باب فرسان العرب في الجاهلية والاسلام) •

⁽٤) أنظر ترجمته دشمره وأخباره في شرح السكرى لديوان الهذلين ٧٧/٢ وديوان الهذلين ٧٧/٢ _ ٨٨ دمهذب الأغاتى ٢/١٨ والحيوان للجاحظ ٢٣٦/٤ والبيان والتبيين للجاحظ ١/٥٧٧

فاقسم یا عمرو لو نبهساك اذا نبها ليث عريسسه وخرق تجاوزت مجهسوله فكنت النهار به شسمسه

اذا نبها منك داء عضسالا مفيتا مفيسدا نفوسا ومالا بوچناء حرف تشكى الكلالا وكنت دجى الليل فيه الهسلالا (١)

ونى شعر آخر لها تقول منه :

مثعنجر من نجيع الجوف اسكوب كانه من رجيع الجوف مخضوب (٢) الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها والتارك القرن مصفرا أنامله

وصاحب الأمالي يسوق ما يفهم منه أن عبرو بن عجلان كان من صرعى الغرام ، وأنه ضرب به المثل في كونه قتيل الحب (٣) ، وما ذكره السكرى في سبب موته من أن بنى فهم أرصدوا له على ماء حتى قتسلوه (٤) انسب من الروايات الأخرى ، ويؤيده شعر أخته في ديوان الهذلين ، ولعل الذي أدخل اللبس قول أخته قبل الأبيات السابقة الأولى « أتيح له نمرا أجبل ، (٥) ويمكن حمله على تشبيه القاتلين بالنمرين .

١١ ـ حاجز بن عوف الازذي :

من العدائين الذين اشتهروا بأنهم يسبقون الخيل ، ومن الصعاليك الذين سلكوا أسلوب الفارات فالأخبار تصفه بأنه كان من المغيرين على قبائل العرب وشعره يظهر فيه الاعتداد بسرعة العدو على رجليه ، ومع ذلك كان من أصحاب الحيل التي نالت شهرة في العرب فقد كانت له فرس اسمها ذئبة ، وكان حليفا لبنى مخزوم ، وله شعر يعتز فيه بحلفهم، وكان موته مجهول الموضح والسبب حيث خوج في بعض غزواته فلم يعد ، ولم يظهر له أثر ، والخته شعر في رثائه ، ويصفه صاحب الأغاني بأنه « شاعر جاهلي مقل ليس من مشهوري الشعراء » ويصفه أيضا بقوله « وكان حاجز مع غاراته كثير الفرار » وقسد وصفته عمته في رثائها إياه بقولها « كان حاجز لا يشبع ليلة يضاف ، ولا ينام ليلة يخاف » (١) ،

⁽١) العمدة لابن رشيق ٢/٢٢ والعريسة الشجر الملتف والخرق المكان الواسع ذو الرياح والوجناء النافة والعرف المهزولة .

⁽۲) الأغاني ۲۰/۲۰ ـ ۲۳ من قصيدة ٠

 ⁽٣) الامالي ٢/٢١٦ في شعر قيس بن ذريح ، وأنظر ترجمته وأخباره وشعره ورثا أخته في العبدة لابن رشيق ٢/٨١ والأغاني ٢٢/٢٠ ـ ٣٣ ومهذب الأغاني ١٨٨/٢ والحيوان للجاحظ ١٨٥/٢ ومعجم البكري ١٩٥/٣ ، ١٢١٦/٤ وديوان الهذلين ١١٣/٣ ـ ١٢٦ ٠

⁽٤) ديوان الهذليين ٣/١٢٠ -

⁽٥) ديران الهذلين ١٢١/٣ ،

⁽٦) أنظر ترجمته وأخباره وشمره ورثاء أخته وعمته في الأغاني للأسلهاني ٤٧/١٢ مـ ٥٠ والبياق والتبيين للجاحظ ١٩٣/١ والقموس المحيط (مادة ذاب) ومهلب الأغاني ١٩٣/١ ٠

١٢ - جعدر بن ضييعة بن فيس:

اسمه ربيعة ولقب جحدوا لقصره ، وهو من فرسان بكر الذين أبلوا في وحرب البسوس ضد تغلب ، واشتهر جعدر بيوم التحاليق ، حينما اتفقت بكر كلها على حلق رءوسها في هذا اليوم لتكون علامة يتميزون بها ، ويعرف بها بعضهم بعضاً ، ولم ينفرد منهم الا جحدر ، فقد كان دميم الوجه والجسم ، وأشفق أن تكتمل دمامته حينها يحلق راسه ، فناشدهم أن يبتوا على لته الأول فارس يطلع من الثنية حينما يبدأ القتال (١) ، وقال لهم في ذلك شعرا يعامدهم فيه على أن يجزوا لمته أن نجا منه أول فارس يلقاء من تغلب (٢) وكانت له مواقف شجاعة بارزة في أيام أخرى من أيام حرب البسوس ، فمن ذلك ما ورد من أن أحد خلفاء بني أمية أرسل أبنه إلى قتادة يسأله سؤال المتحن ، من قتل عبرا وعامرا التغلبين يوم قضة ؟ قال قتادة : قتلهما جحدر بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، فشمخص بها السائل ثم عاد الى قتادة ، فقال : أجل قتلهما جعدر ، ولكن قتلهما جميعا ؟ قال قتادة : اعتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزج نعادى بينهما (٣) ، ويصفه التبريزي بأنه من الفرسان المعدودين (٤) ولكن جعدرا مع فروسيته كان فيما يبدو من أخباره ضعيف الهمة في الصعلكة ، وكان يعتمد على أسلوب التلصيص وليس الغارة ، وكانت له حيل طريفة في التلصيص فمن ذلك ما رواه الجاحظ و كان جعدر اذا نزلت رفقة قريبا منه أخذ شنة (٥) فجمل فيها قردانا ثم نثرها بقرب الابل ، فاذا وجدت الابل مسها نهضت وشد الشيئة في ذئب يعض الابل ، فاذا سيعت صوت الشيئة وعبلت فيها القردان نفرت ، ثم كان يثب في ذروة ما ند منها ويقول : ارحم الغارة الضعاف ، يعني القردان ، قال أبو برزة : ولم تكن همته تجاوز بعيرا ، (٦) ٠

المخضرمسون

١ _ عباة بن الطبيب:

والطبيب اسمه يزيد بن عمرو من بنى تميم ، وعاش عبدة في الاسلام زمنا ليس بالقصير ، وساهم في بعض الوقائع والحروب ، وله قصيدة طويلة

⁽۱) شرح التبريزي لعماسة أبي تعام ١٩٥/١ ٠

⁽٢) ديوان الحماسة لأبي تمام ١٩٥/١ .

⁽٣) مصادر الشمر الجامل تقلا عن مصادر آخرى ٠

⁽٤) شرح الحماسة ١٩٥/١ ٠

⁽e) الثبنة القربة من الجلد الجاف الملد ·

⁽I) العيوان للجاعظ ٥/٢٢٢ ·

قالها على أثر موقعة القادسية ، وكان أسود اللون وتصفه الروايات بأنه من لصوص الرباب .

وشعره من أجود ماجادت به القرائح العربية ، وقد احتل شعره مكانا مرموقا ونال شهرة واسعة ، وتكاد لا نجد مؤلفا من القدامي الا ويشيع في أحاديث الاستشهاد بشعر عبدة ، وهو صاحب البيت الشهور في رثاء قيس بن عاصم المنقرى :

وما كان قيس هلكه هلك واحسيد ولكنه بنيان قسوم تهدما

والذى يرى أبو عمرو بن العلاء والأصمعى أنه أرثى بيت قالته العسرب ، والذى يقول عنه أبن الأعرابي هو قائم بنفسه ، ماله نظير في الجاهليسة ولا الاسلام ، وأنشدوا أمام عمر بن الحطاب قصيدته التي أولها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول (١) فلما بلغوا قوله:

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شميح واشفاق وتاميسل

قال عمر مرددا و والعيش شج واشفاق وتأميل ، ثم كان يردد هذا الشطر متعجبا من حسن تقسيمه وتفصيله وما يتضمنه من حكمة ، ومع أنهم يصفونه بأنه من الشعراء المجيدين المقلين ، الا أننا حين نتتبع بعض المصادر نجدها تسوق شعرا كثيرا له ، يدل على أنه مبتور من قصائد كثيرة لم تصل الينا (٢) ، وقد أجاد عبدة في كل ما تعرض له من أغراض ، وعبد الملك بن مروان يرى أن أجود ما وصفت به مناديل الحيل أوصافي عبدة بن الطبيب لها ، (٣) وقد عدد عبدة لبنيه حصيلة ما جمعه من حياته الطويلة في أربع مآثر ، فمما قاله في قصيدة جامعة في الحكم :

أبنى انى قسد كبرت ورابنى بصرى وفى لصلح مستمتع فلئن هلكت لقسد بنيت مساعيا تبقى لكسم منها مآثر أربع ذكر أذا ذكر الكسرام يزينكم ووراثسة الحسب القدم تنفع

⁽١) (القمبيدة بالمفسليات ص ١٣٥ وتبلغ ٨١ بيتا ومي التي قالها بعد القادسية ٠

ر ۱۲) من هذه للصادر معجم ما استستعجم للبكرى أنظر ۲/۲۰٪ ، ۲/۵۰۰ ، ۱۰۸۲/۳ ، ۱۰۸۲/۳ ومواضع أخرى والحيوال للجاحظ ٠

⁽٣) أنظر ترجمته وشعره وأخباره في المفضليات ١٣٤ ـ ١٤٩ وشرح المفضليات ١٣٤ نقلا عن الطبرى ١٣٤٤ و المراد المراد وأمالي القالي ١/٢٦ ، ٢٧٠ ، ٣٨/١ وحماسة أبي تمام ١/٨٣٨ ومعاهد التنصيص للمباسي ١٠٢/١ وشرح التبريزي للحماسية ١/٣٢٨ والحبوان للجاحظ ١/٤٠ ، ١/٢٤ ، ١/٤٠ ، ١/٢٤ والبيان والعبين ١/٢٢٢ ، ٢٤٠ ، ٢/٣٤ والبيان والعبين ١/٢٢٢ ، ٢٤٠ ، ٢٢٠ ومبالس ثملب ٢/٣٢١ ، ٢٤٣٠ ومبالس ثملب ٢/٣٢١ ،

ومقام ايسام لهسن فضيلة ولهى من الكسب الذي يفنيكم يوما اذا احتضر النفوس الطمع ونصيحة في المسدر صادرة لكم

عنسد الخفيظة والمجامع تجمع ما دمت أبصر في الرجال وأسمع(١)

٢ - ابو خراش الهدلي :

اسمه خويلد بن مرة من بنى هذيل ، وكان أحد عشرة أخوة كلهم عداء لا تسبقه الحيل وكان أبو خراش أبرزهم بوضعا وأشهرهم ذكرا ، وهو أحد فرسان العرب وفتاكهم ، أسلم وهو شيخ كبير ، ولم تثبت له صحبة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغ من شهرته بسرعة العدو ، وثقته بتفسه فيهـــا أنه دخل مكة يوما فرأى الوليد بن المغيرة يهيئ فرسين له للسباق ، فقال له أبو خراش : ما تجعل لى أن أنا سبقتهما ، قال : ان سبقتهما فهما لك ، وسابقهما فسبقهما ، وأخذ الفرسين ، والروايات تسوق أخبارا كثيرة عن مطاردة أعدائه اياه وعدم استطاعتهم اللحاق به ، ويبدو من أخباره أنه كان كريما سمحا الى حد بعيد ، وأن هذه السماحة كانت طبعا غالبا عليه ، حتى أنها كانت سببا في هلاكه ، كما ورد في قصة ضيوفه اليمانيين ، الـذين تزلوا عليه ، فهيأ شاة يذبحها لهم ، ولم يكن لديه ماء ، فسألهم أن يحضروا ماء من مكان قريب ، فأبوا الا أن يحضره هو ، فخرج بقربته تحت الظـلام ليعضر الماء ، وفي عودته لدغته حية ، فتحامل على نفسه وأسرع الى ضيوفه فأعطاهم الماء ، وظل متحاملا على نفسه فلم يخبرهم حتى لا يفسد عليهم اقامتهم عنده ، وأصبح ضيوفه فاذا أبو خراش في الموت ، فأقاموا حِتى دفنوه وحين بلغ عمر بن الخطاب ذلك ، قال : والله لولا أن تكون سنة الأمرت ألا يضاف يماني يعدها

ثم كتب الى عامله باليمن أن يأخذ النفر الذين نزلوا به فيغرمهم ديته ٠

وكان أبو خراش من الشعراء المجيدين ، والذين بلغنا من شعرهم قدر كبير ، وقد تمثل النبي صلى الله عليه وسلم ببعض شعره ، فقد كان أبوخراش يقول وهو يسعى بين الصفأ والمروة •

أتمسه اللسبه وقسد أتما لا هيم هدا خامس ان تما ان تغفر اللهم تغفر جما ١٠ النح (٢)

⁽١) القميدة في المغضليات للضبي ص ١٤٥ وهي ثلاثون بيتا ، وأنظر شعره في الصعلكة قى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٧١ م الغائجي ٠

⁽٢) يقول البعدادي في الغزانة أن االبيت الأول لأمية بن أبي الصلت أخذه أبو خراش وضم اليه آخر وتمثل بهما النبي ا

وقد تمثل به النبي وصار من الأحاديث النبوية التي تتداولهـــا كنب

وقد أجاد أبو خراش فى وصف الصحراء وحيوانها ، وفى حديثه عن سرعة العدو ، وفى رثائه لأخوية مرة وعروة (١) ، ومات مسلما فى خلافة عمر بن الخطاب ، وفى شيخوخته ، غزا ابنه خراش فى جيش عمر بن الخطاب فتوسل أبو خراش الى عمر بقصيدة ، فأصدر عمر قرارا بألا يغزو وحيه الا بعد اذنهما .

٣ _ فضالة بن شريك الأسنى :

صفه صاحب الأغانى بقوله « كان شاعرا فاتكا صعلوكا مخضرما أدرك الجاهلية والاسلام ، وفضالة من القلة بين شعراء الصعاليك الذين احتسكو بالمجتمعات وخاصة الأمراء ، فاضطرهم هذا الى أن يخوضوا فى المدح والذم ، ولكن فضالة مع جرأته فى الهجاء حتى على الأمراء ووجوه الناس كان عفيف الهجاء غير مقدع فيه ، ولكنه مع ذلك كان يبلغ من مذعومه مبلغا اليما ، ومن ذلك قصته مع عاصم بن عمر بن الخطاب حينما أبى عاصم أن يقريه فكان مما قاله فضالة فى هجائه :

الا أيها الباغي القرى لست واجدا قسراك اذا ما بت في دار عاصم اذا جنته تبغى القرى بات نائما بطينا وآسى ضيفه غير نائم

نفزع عاصم من هجانه واستغاث بأمير المدينة ، فهرب فضالة الى الشمام مستعيدًا بيزيد بن معاوية مادحا اياه ، وفضالة أو ابنه عبد الله على اختلاف الروايات ماحب القصة المشهورة مع عبد الله بن الزبير ، حينما وفد فضالة ما و ابنه على عبد الله بن الزبير ملتمسا العطاء بقوله : ان ناقتى قمد تعبت ودبرت ، فقال ابن الزبير : أرقعها بجله ، وأخصفها بهلب ، وسر بها البردين ، فقال : انى جنتك مستحملا لا مستشيرا ، فلمن ألله ناقة حملتنى اليك ، قال له ابن الزبير : ان وراكبها (٢) .

⁽۱) أنظر ترجمته وأخباره وشسمره في خزانة الأدب البقدادي ٢٩٧/١ ، والمقد الغريد ١/٥٣ ، ٢٦١ وصاصة أبي تمام ١/٣٢٦ وأمالي القال ٢٦٧/١ وشرح حماسة أبي تمام عن التبريزي ١/٣٢٠ والكامل للمبرد ٢٦٧/١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ والحيوان للجاحظ ٢٦٧/١ والبيان والتبيين للجاحظ ١٩٤١ ومعجم ما استمجم للبكري ٢/٥١٥ ، ٣٤١/٣ ومواضع أخرى وديوان الهذليني ١١٦/٢ - ١٧٢ وشرح ديوان الهذليني للسكري ١١٦/٣ وما بمدما والأغاني للأصفهاني ١٣/٢١ وما بمدما والأغاني للأصفهاني ٢٥/١٣ ، ما بمدما والأغاني للأصفهاني ٢٥/٢٢ وما بمدما و وتراش ابنه وهامش الحيوان ٤/١٥٣ ،

⁽٢) اى تعم وراكبها دعاء على الناقة وصاحبها ٥

ومن ذلك أيضًا قصة هجانه لابن معليع أمير الكونة ، حيث بلغ من عفة هجاء فضالة اياه ، أنه لم يهج من ابن مطيع الاكفيه ، ومع ذلك يلُّغ منسه ما لا يبلغه هجاء آخر حيث قال عن بيعة ابن مطيع :

دعسا ابن مطيع للبياع فجئته الى بيعة قلبى بها غير عسارف فقسرب لي شسناء لما لستها بكفي لم تشبه اكف الخيلائف معسودة حمل الهراوى لقومهسا فسرورا اذا ما كان يسوم التسسايف من الشسنات الكزم انكرت لسها وليست من البيض السباط للطائف

ومات فضاله قبل خلافة عبه الملك بن مروان (١) *

٤ _ أبو الطمحـان القيني :

هو حنظلة بن الشرقى القيني القضاعي ، يصغه الأصفهاني بقولـــه : « شاعر فارس خارب صعلوك من المخضرمين أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيث الدين فيهما ، ، وقد روت له الأخبار قصصا كثيرة في صعلكته ، وركوبـــه المخاطر ، وتنقله في أنحاء كثيرة من الجزيرة ، ومن ذلك قصته مع قيسبة بن كلثوم أحد ملوك اليمن ، وكان قد أسره بنو عامر أثناء قصده الى الحج بمكة ، فمر به أبو الطمحان وهو في القيد ، فاتفق قيسبة مع أبي الطمحان على أن يكتب قيسبة رسالة شعرية على رحل أبي الطمحان ، وعلى أبي الطمحان أن يشخص بها الى اليمن حتى يبلغها الى قومه مقابل مائة ناقة ، وقد أنفذ أبو الطمحان الاتفاق

ولكننا من خلال أخبار أبي الطمحان نلاحظ عليه ملاحظتين شذبهما عن أخص ما يميز الصعاليك ، احداهما اسفافه وتنزله الى أعمال ينفر منها خلق والتلصص الا أنهم كانوا يتعففون دائما عما ينافى المروءة والخلق الكريم ، ولكن أبا الطمحان لم يتعفف عن ذلك ، ومن هذا قصبته مع المرأة التي آوتـــه وأكرمته ، فسطا على شرفها ومالها ثم هرب ، وأكثر من ذلك أنه كان يفخر بهذه القصة وهي المعروفة بقصة الدير ، والأخرى أن شعره على كثرته وان لم يخل من جودة يخلو دائماً من روح العزة والاباء ، والاعتداد بالذات ، وهي الـــروح التي تعتبر أهم ما يميز شعر الصعاليك وأحاديثهم عن أنفسهم (٢) •

⁽١) أنظر مهذب أغاني الأصلهاني للخشري ٢١٠/٢ والبيان والتبيين للجاحظ ٢/٢٧٩ . 10/4

⁽٢) أنظر ترجمته وأخباره وشعره في الأغاني للأصفهائي ٢/١٣ _ ١٤ وأمالي القالي ١٠٩/١ ، ٢/ ٢٢٥ وحماسة أبى تمام ٢/٨٨ ، ٢٧٠ ، ١١٢ والكامل للمبرد ١/ ٣٠ والحيوان للجاحظ ٣/١٠٥ ، ١١٣ والبيان والتبيين للجاحظ ١/١٨٧ ، ٣/٥٣٥ والفسعر والشسمراء لابن قتيبة ٣٤٨/١ ومصادر الشعر الجاهل لناسر الدين الأسه ٣٣١ ٠

الاسلاميسسون

١ _ مالك بن الريب:

من بنى مازن بطن من تميم ، عاش فى خلافة معاوية بن أبى سغيان ، وكان يقطع الطريق مع رفقة اشتهر منهم شظاظ الضبى الذى ضرب به المثل فقالوا « ألص من شظاظ » وأبو حردبة المازنى الذى قال أحد الراجزين فى الحوف منه :

الله نجساك من القصيم ٠٠٠٠

ومن أبى حسردبة الأثيسم ومالك وسيفسه السمسوم (١)

ويعتبر مالك بن الريب أشهر الشعراء الصعاليك في الاسلام لعدة أسباب ، منها شدة بطشه في قطع الطريق كما يقول الراجز السابق ، وكما ورد في أخباره الكثيرة ، ومنها ما يدل على أنه كان يتحدى حتى منافسيه في قطيع الطريق ، ومن شهرة قوته أنه قتل أفلح الذي ظل يقطع الطريق على القوافيل وحده بخراسان عشرين سنة ، ومن تلك الأسباب أنه يعتبر من الشعراء البارزين في اجادتهم وكثرة ما جادوا به من شعر وشعره يعتبر في رقته وتعبيره الصادق السمح عن النفس لونا جديدا الى حد ما في الشعر العربي آنذاك ، وقد اكتسبت مرتيته التي رثي بها نفسه حين أحس الموت شهرة وذيوعا ، سواء من حيث اعجاب مجتمعه بها ، أم من حيث ولوع الرواة والمؤلفين بتناقلها وهي التي الوليسيا :

الا ليت شمعرى هل أبيتن ليلة بجنب الغفى أذجى القلاص النواجيا(٢)

وقد عدها صاحب جمهرة أشعار العرب من عيون المراثى (٣) • وله شعر عدم النقاد فى القمة التى حاول شعراء كشيرون أن يبلغوها أو يقلدوها فلم يوفقوا (٤) •

ومن تلك الأسباب ما عرف عنه من صفات تميز بها سواء في خلقه أو خلقه ، فيصفونه بأنه كان من أجمل العرب جمالا وأبينهم بيانا ، وبأنه كان من ذوى السماحة والمروءة ، حتى أنه حينما سأله سعيد بن عثمان والى خراسان عن سبب قطعه للطريق مع ما فيه من جمال وحسن بيان أجابه بأن

⁽١) معجم ما استعجم للبكري ١٠٢٧/٣ .

⁽۲) خزانة البندادي ۲/۷٪ ـ ٤٩ وأمالي القال ١٢٥/٣ والشمر والشمراء ٢١٢/١ والأغاني ١٨٥/٣ .

⁽٦) أنظر خزانة اليقدادي ٢/٢٥ والشعر والشعراء ٢١٢/١ .

⁽٤) جمهرة أشعاد العرب للقرش من ١٤٣ وساق التعبيدة كاملة ·

السبب عجزه عن مكافأة الاخوان ، وبأنه كان من الجرأة والتمرد بحيث توعد بنى مروان ، وهجا الحجاج بن يوسف هجاء موجما بعد أن تمرد على الحجاج واستعمى عليه (١) ،

٢ ـ بكر بن النطاح:

عاش فی صدر العصر العباسی وعاصر الرشید والمامون ، یصفونه بانه «کان شمجاعا بطلا ، فارسا شاعرا ، وبانه «کان صعلوکا یصیب العلریق ثم اتصر » وشهرته بالشعر آکثر من شهرته بالصعلکة ، حیث آن الروایات لم تکثر من أخبار تصعلکه ، بینما ساقت له شعرا کثیرا فی عدة أغسراض ، ویعدونه من الشعراء المجیدین کما یقول التبریزی «حسن الشعر جید التصرف فیسه » ولکننا حین نعرض شعره علی الطابع المیز لشعر الصعالیك تجده یقد جانبا کبیرا من روح العزة والاباء والصلابة التی یمتاز بها شعرهم ، هذا علی الرغم من أن بکرا کان کثیر الفخر بشجاعته فی شعره ، ولکن روح العزة التی نتحدث عنها فی شعر الصعالیك شیء غیر مجرد الفخر ، بل قد تکون شیئا غیر الفخر ، فقد یتحدث الصعلوك عن فقره أو جوعه أو تشرده أو اضطهاده أو أی الفخر ، فقد یتحدث الصعلوك عن فقره أو جوعه أو تشرده أو اضطهاده أو أی معنی من المعانی التی تقترن عادة بالمهانة والضعة واستصغار النفس ، ولسکن الصعلوك یجعل من هذا الهوان عزة واباء ، کما یقول الشنفری « وفی الأرض من دار المذلة منای للکریم عن الأذی » وکما یقول مالك بن الریب « فقی الأرض عن دار المذلة مجرة » وکما یقول الشنفری عن الجوع فی لامیته :

واستف ترب الأرض كي لا يسرى له على مسن الطبول امرق متطبول

ويمكن تعليل فقدان بكر بن النطاح لهذه الروح في كثير من شعره بانه يمكن تقسيم حياته الى قسمين ، قسم زاول فيه الصعلكة وتجاوب مع حياتها وأحداثها ومشاعرها ، وقسم أقلع فيه عن الصعلكة ، وهو الذي يصفونه فيه بانه « أقصر » فيه عن التصعلك ، ثم ركن الى أبي دلف الأمير متمتعا بعطائه ، مفيضا في مدحه ومدح أخيه معقل ، ولذلك نجد شعر بكر بن النطاح لا يسير على نغمة واحدة من حيث الروح الصعلوكية ، ولكن الروايات لم تحدد لنا أي شعره قاله في القسم الأول من حياته ، وأيه قاله في القسم الثأني ، ولكنسا نرى أثر القسمين واضحا في مثل ما بين البيتين الآتيين من فرق ، فبينما نجد في شعره مشل قوله :

⁽۱) أنظر ترجمته وشمره وأخباره فى غزانة البغهادى ٢٠/٢ ــ ٥٣ والأغانى للأصفهانى ١٨/١٣ ومواسّم أخى وأمالى القالى ١٠٥/١ ، ١٠٥/٣ والكامل للمبرد ٢٠١/١ وجمهرة القرشى ١٤٣ ـ ١٤٦ والشمر والشمر الابن تتيبة ١/٣١٢ ورسائل الجاحظ ١٩٣/١ والبيال والنبيبي للحاحظ ٢٩٣/١ والبيال والنبيبي

وصن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل(١) نجد في شعره مثل قوله مستجديا أبادلف:

على البركان البر أندي من البحر (٢) له راحة لو ان معشار جودها

فبينما البيت الأول ينطق بأنه من صميم شعر الصعاليك وتعاليهم عسل السؤال في أي صورة من صوره ، مؤثرين الغصب والسلب عليه كما يقول الأحيم السعدي:

وأنى لأستحى أن أسأل العبد اللثيم بعيره

وبعــران ربى في البلاد كثير (٣)

بينما البيت الأول كذلك، تجد البيت الثاني بعيد كل البعد عن روح الصعاليك وطابع شعرهم ، ونلاحظ أن النوع الأول قليل في شعر بكر ، بينما الثاني كثير متعدد الاغراض وخاصة في المدح والغزل والوصف (٤) .

٣ ـ عبيد بي أيوب العنبري

والعنبرى نسبة الى بنى العنبر من بنى سعد ، ويصفونه بأنه « من اللصوص ، وله في اتحاهه الشعرى طابع غريب من حيث الغرض ، فقد أولغ بالحديث عن الخرافات ، وشاع في شعره وصف مخلوقات وأوهـام غريبة ، كالغيلان والسعالي والجن ، حتى أصبح هــذا الاتجـــاه طابعا مميزا لشعره ، ويبدو أن عروبه من السلطان وتشرده وحيدا ، وخوفه الشديد في متاهات الصحراء ، وقفارها ، قد خيل اليه هذه الأوهام ، وشعره نفسه يراه أمامه أو يتخيله عدوا مخيفا ، وهو يصور مبلغ الحوف منه بمثل قوله :

لقتد خفت حتى لو تمسر حمامسة فان قيل أمن قلت هــذى خديعة وخفت خليلي ذا الصغياء ورابني وقلت فلانا أو فلانة فاحيدر (٥)

لقلت عـــدو أو طليعــة معشر وأن قيسل خوف قلت حقسا فشيم

٨٤/٨ مهذب الأغانى ٨٤/٨ ٠

⁽٢) السدر السابق ٠

⁽٣) الشعر والشعراء لابن قنيبة ص ١٨٣ م الخاتجي •

⁽٤) أنظر لترجمته وشعره وأخباره في مهذب الأغاني ٨٤٨ وأمالي القالي ١ ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٤ والعقد القريد ١٦/١ والتنبيه على أوهام البكري ص ٧٧ ، وديوان الحماسة لابي تمام ١٣/٢ .. ٩٥ ، ومعاهد التنصيص المعباس ١٩٠/٣ ، ١٩/١ ، ٩٩ وشرح التبريزي للحماسة · V /4

⁽٥) المبران للجامط ١٦٥/٦ ·

ونحس مبلغ سيطرة الفزع والحرف على نفسه في هذه اللهفة التي يبديها في طلبه للامن كما يقيول:

المُقتى طعم الأمن توسسل حقيقة على فان قامت فغمسل بنانيا خلمت فؤادى فاستطير فأمسبحت ترامى بى البيسة القفار تراميا (١)

ولكنه لم يجد هذا الأمن الذي تتعطش اليه نفسه ، فسيطر عليه فرع رحيب جمله يفرق من كل شيء في قرارة نفسه ، ثم يصور هذا الرعب والفرق في صورة بطولة وشجاعة يمتاز بها عن ساثر الناس ، فيتحدث عن أنه يخالط الفيلان والجن والوحوش ولا يخافها ، بل يصف أحاديثه معها ، ومخالطته ومعاشرته اياها ، كما فصل الجاحظ هذا الحديث في سرد ما تحدث عنه شعر عبيد من الفيلان ، وأساطير الضب والضغدع ، والسعلاة ، ومناكحة الجن رمحالفتهم ، والبربوع ، وقد علل الجاحظ هذه النزعة باستغلال الشساعر لسذاجة محيطه ويبدو أن عبيدا عرف أخيرا جدا طريقه الى الأمن حينما عرف طريق الرجوع الى الله ، والتوبة اليه ، ولذلك نراه يتحدث عن توبته حديثا يظهر فيه انكاره لما أسلف من أعمال ، ويظهر أيضا استخفافه بما أسلف مساير يتفق مع « العقل » الذي يتحدث عنه فيما يتحدث من قوله :

یارب عفول عن ذی توبسة وجسل کانه من طار الناس مجنون قد کان قسم اعمسالا مقاربسة ایام لیس له عقسل ولا دین (۲)

وقد سبقه الى الحديث عن مخالطة الوحوش من الصعاليك الأحيس السعدى غى حديث نثرى له (٣) ولكنه لم يسرف اسراف عبيد ، بل كان أقسرب الى التحفظ منه ، وتحدث تأبط شرا في شعره عن أنه قتل الغول (٤) ، وقلنسا فيما سبق أنه ليس من اللازم تكذيبه ، وليس من اللازم القول بأن فيه الاتجاه الى نزعة الوهم أو استغلال سذاجة مجتمعه البدوى ، وانما كان حديثا عن حادثة فردية ، يمكن حمل الأمر فيها على أنه قتل حيوانا غريبا عليه يظنه الغول كما تصورها أساطيرهم (٥) وستأتى مناقشة لهذا الموضوع في فصل الوهسم .

⁽١) المسادر السابق ٠

⁽٢) البيان والتبيين للجاط ١٦٢/٤

⁽٣) انظر المقد الغريد ٣/٠٢٠ والحيوان للجاحث ١٦٣/١٠٠

⁽٤) أنظر الشمر والشمراء لابن قتيبة ١/ ٢٧١ والقاموس للحيط مادة (غالى) *

⁽٥) أنظر أغبار عبيه وشمره وترجعته في الكامل للمبرد ١٠٠/١ والعيوان للجاحظ ٤/٢٨٤ ٥/١٦٨ ، ٢٤١ ، ٦/ ١٦٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٥١ ؛ ٢٠٠ والبيان والتبيت للجاحظ ١٦٢٠ -

٤ - عبيد الله بن الحسر الجعفي

كان عبيد الله من الشخصيات اللامعة في المجتمع ، بـل في الدولسة حينذاك ، وله تاريخ بارز ، منه أنه شهد القادسية وأبلى فيها ، وقد أحس في نفسم قوة ومنعة ، فاستعصم بقوته ومنعته وأبى ان يسلم قياده الأحد حتى الأمراء والخلفاء ، وأصبح من أوصافه أنه لا يعطى للأمراء طاعة ، وقد جمع حوله صفوة من ذوى القوة والفروسية ، يقدرون في بعض الأخبار بخمسين فارساً ، لم يكونوا من قومسه • أو من جماعسة معينسة ، ومعنى ذلك أنهم من المتمردين في أي صورة من صور التمرد كقطاع الطرق واللصوص ومن على شاكلتهم ، وأخذ يسيث بهم في البلاد ، ويغير على القرى والقوافل ، وبلغ من قوته أن حاول جبيع أطراف الخصومات في زمنه أن يستميلوه اليهم ، ومنهم معاوية بن أبي سفيان ، وعلى بن أبي طالب ، والحسين بن على ، وأمراء الامصار ، ولكنه أبي ، وظل معتصماً بقوته ، راسما حياته وسلوكه ، كما يريد هــو ، لا كما يريد له الحلفاء والأمراء ، وبلغ من شهرة قوته وأخباره أن التبس أمره على بعض المتأخرين من العلماء كابن الاثبر ، فعدوه من القسواد (١) مع أن السكرى ترجم له في كتاب اللصوص ونقل عنه ذلك البغدادي في الخزانة (٢) والجاحظ في رسائله يذكر بعض رفقائه في قطع الطريق ، كما يقول في مفاخر السودان والزنج والحبش قالوا : « ومنا الغداف صاحب عبيد الله بن الحر ، لم يكن في الأرض أشد منه ، كان يقطع على القافلة وحده ، بما فيها من الحماة والخفراء ، (٣) ، وزاد الجاحظ فذكره (بعد أن تحدث عن فروسيته) في سياق الحمقي حيث قال « ومن النوكي عبيد الله بن الحر وكنيته أبو الأشوس ، (٤) ، ويبدو أن عبيد الله كان من الذين مستهم عقدة الشعور برق الأمهات ، كما كان السليك وأضرابه من أبناء الاماء والأسيرات ، فأراد بالتمادي في مظهر القوة أن يعوض شعوره بهذا النقص الاجتماعي وبصعلكته وتمرده الانتقام من المجتمع لوضعه هذه الفواصل غير المنطقية بينه وبن أبناء الحرائر ، وعبيد الله نفسه يحدثنا بذلك فيقول:

ان تك أمى من نساء أصابها سباء القنا والرهفات الصفائي فتبا لفغسل الحر ان لم انل به كراثم ابناء النساء الصرائع (a)

ومات عبيه الله بن الحر طريه الأمراء ، وبروون في موته قصة تدل على

⁽١) ابن الأثير حوادث سنة ٦٨ وتقل عنه ذلك مؤيدا له عبد السلام هارون هامش الحيوان للجاحظ ١٣٤/١ ٠

⁽٢) خزانة الأدب للبغدادي ١٩/٢ ، ٢٢ •

[·] ١٩٣/١ الجاحظ ١٩٣/١ ·

⁽٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢١/١ .

⁽٥) الأمالي للقالي ٣/٠٢٠ .

مبلغ خطورته ، حيث وجه اليه امير الكوفة ستمائة فارس بينما لم يكن معه من أصحابه حينئذ الا عشرة ، ومع ذلك قاتلهم ، فلما تساقط أصحابه ، وبلغت منه الجروح ، انحاز الى معبر (١) فوثب اليه رجل نبطى قوى يريد أن يقبض عليه ، فلما يئس عبيد الله ، قبض على النبطى ، وألقى بنفسه وبالنبطي في النهر فماتا معا ، فرأي الناس شيخا يتوجع ، وكان أب النبطي ، قائلا : كان ابني يقتل الأسد ، وكان يخرج هذا المعبر من الماء فيقره ثم يعيده وحده ، حتى ابتلى بهذا الشيطان _ يعنى عبيد الله بن الحر الذي أغرقه معه _ وجعلوا يسكتونه وهو يردد: ما كان ليغرق ابني الا شميطان (٢) ، وكان عبيد الله من الشعراء المجيدين ، وله مدائح في الحسين بن على ٠

ه _ الأحيمر السعيدي

من لصوص بني سعد ، وأجمعت الروايات على أنه من الخلصاء ، حيث خلعه قومه بعد جناياته ، وطارده السلطان ، فهام على وجهه ، في مجاهـــل الصحراء ومكامنها ، ثم كان يحدث الناس بغرائب وحدته وتشرده ، وما يلقاه خلال ذلك ، وأنه لطول ألف الوحوش له أنست اليه ، فلم تكن تنفر منه ، ومثل هذه الأخبار وان لم تكن تدعو الى التصديق الا أنها على أى حال تصور حياة صاحبها في تشرده وحيدا وتعرضه للأخطار ، وقد صور الأحيمر حياته مذه في شعره ، وهو صاحب البيت المشهور :

عوى الدئب فاستأنست بالدئب اذعوى وصوت انسان فكسنت أطسير

كما صور في شعره صعلكته وتهديده لامن التجار وقوافلهم بمثل قوله : تعرني الاعدام والبسدو معسرض وسيفي بأموال التجساد زعيم وقد عده صاحب العقد الفريد من الفرسان القلائل في العرب ، وأن صح ذلك يحمل على حياته قبل خلعه وتشرده ٠

والأحيس تاب ، وتحدث عن توبته في شعره ، ولكن حديثه يوحي بتأصل نزعة التصملك في نفسه ، ولذلك نراه مترددا بين الرجوع الى الله ، والحنين الى أموال التجار ، وتصبيحة الصعاليك بالتوبة فمن ذلك قوله :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مسروا من الحسرن بز العراق وينسبوا طرفة اليمسن قل للصوص بني اللخناء يعتسبسوا فرب ثوب كريم كنت آخاه من القطار بلا نقد ولا ثمن

⁽۱) ما يسمى بالمامية « الكويرى ، قوق التهر ·

⁽٢) خزانة البغدادي ٢ (٢٣ وهامش الحيوان للجاحظ ١ / ١٣٤ .

وقد تحدث في شعره عن عدة أغراض أهمها ما يتعلق بحيساة خلمسه رصعلكته (١) وهو القائل :

وانی لاستعیی لنفس ان ادی امر بعسل لیس فیسه بعسی

٦ - يزيد بن العنقيل العقيلي

أما يزيد العقيل فقد كان كما يبدو من حديثه صادق التوبة عن الصعلكة، مطمئن النفس في رجوعه عنها ، فقد كان يسرق الابل ثم تاب ، ويبدو من شعره ما كان له من رهبة وخطورة عند أصحاب المخائض من الابل ، ولسندلك يطمئنهم يزيد بتوبته حين يقول :

الا قل لأرباب المغانض اهمل والله عند تاب مما تعلم ون يزيد ويبدو صدق توبته في مثل قول :

وان امرءا ينجو من النساد بعنما تسزود من اعمالها لسعيد والن ما بلغنا من أخباره وشعره قليل (٢)

٧ - أبو النشئاش النهشلي

غلبت مده الكنية عليه حتى طمست اسمه فلم تتحدث به الروايات ، وكان من لصوص بنى تميم ، واسع النشاط فى لصوصيته حتى أنهم يصفونه بأنه كان يقطع طريق القوافل بين الحجاز والشام ، وكان يجمع حوله رفقة من الشداد والصعاليك ، وأبو النشناش يجيد تصوير نفسية الصعاليك وحياتهم ومن ذلك قوله :

وداوية يهماء يغثى بها الردى مرت بابى النشناش فيها دكائبه ليدك ثارا أو ليسلوك مغنما جزيلا ، وهذا الدهر جم عجائبه ويصور شعار الصعاليك وآمالهم في مثل قوله :

فللمسوت خير للفتى من قعسسوده فقيرا ومن مولى تسنب عقارسه

⁽۱) أنظر ترجمته واخباره وشمده في الأمال للقال ٤٩/١ ، ٤٩ والعقد الفريد ١/٣٤ (باب فرسان العرب) و ٢٩٠/٣ والحياة العربية من الشعر الجامل للدكتور الموفي والشعر والمعراء لابن قتببة من ١٨٣ م الخاتجي والحيوان للجاحل ١٣٣/١ والبيان والتبين للجاحل ٢٠٠/٣ ، ٢ ٢٥ ٠)

⁽٢) أنظر الكامل للمبرد ١/١٦ وأمال القال ٢٠٢/٢ (هامض عل شك) ٠

ولم او مشل الهم ضاجعه الفتى فهت معلما او عش كريمها فاننى

ولا كسسواد الليسل اخطق طالب ادى الموت لاينجو من الموت عادبه(۱)

والنهشل نسبة الى بني نهشل .

٨ ـ سعد بن ناشب الماؤني

من بنى مازن من تميم ، اتخذ من البصرة موطنسا ، وزاول صعلكته وجناياته ، فهدم بلال بن أبى بردة والى بنى مروان داره وتوعده ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه الشديد ، واندفاعه بأساليب الصعلكة نحو غاياته ، بل سخر بشعره من هدم داره واستصغر أن يكون هدم الدار صارفا لمن كان فى مشل عزمه وقوته عما يريد .

ويبدو من خلال شعره أنه كان يتمتع بارادة قوية وعزم عنيه ، ويعتبر شعر سعد من خير ما يمثل شخصية الصعلوك الواثق من عزمه ، المتمكن من قوة ارادته ، وله أبيات كثيرة شائعة التردد مشهورة ، تصور قسة العسرم العنيد كقولسه :

اذا هم لم تسردع عزیمسة همه فیالرزام رشسحوا بی مقلسا اذا هم القی بین عینیسه عزمسه ولم یستشر فی رایسه غیر نفسسه

ولم يات ما ياتي من الأمر هائبا الى الموت خواضا اليه الكتائبا ونكب عن ذكر العواقب جانبا ولم يرض الاقائم السيف صاحبا

ولسيطرة هذه المعانى على نفسه نراها تتردد كثيرا في شعره ، فمن ذلك قوليه :

وفى اللين ضعف والشراسة هيبة ومن لم يهب يحمل على مركب وعسر وما بى على من فغاظهة ولكننى فه غل ابى على القسر اقيم صغا ذى الميسل حتى ادده واخطمه حتى يعسود الى القساد اذا هم القى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجي ذى الأثسر

ولم يخل شعره من الحديث عن خلقه ، فهو يقول انه كريم في فقره وغناه ، ان أعسر وافتقر فهو خير كريم ، وان غنى وأيسر فيساده شركة بينه وبين الناس •

ان تعسدليني تعسدل بي مسروءا كريم نثا الاعسسار مشترك اليسر

⁽۱) أنظر ترجمته وشعره في الاصمعيات ١٢٤ والخزانة للبغدادي ٢٦٢/١ وديوان الحماسة لأبي تمام ١١٥/١ وشرح الاصمعيات (هامش ص ١٣٤) وشرح التبريزي لحماسة أبي تمام (مامش ١١٥/١) والقاموس المحيط مادة (نش) ٠

ويصفونه بانه من الفتاك ، وأنه من مردة العرب ، وقد ورث الصعلكة عن أبيه كما يصفه ابن قتيبة بقوله « وكان أبوه ناشب أعور ، وكان من شياطين العرب » (١) ومو مازنى من عشيرة مالك بن الريب •

٩ _ توبة بن الحمير

أبوه الحمير بن حزم من بنى عقيل ، وكان توبة من اللصوص البارذين ، ولكن شهرته بعشق ليلى بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية غلبت عليه ، حتى أصبح هذا العشق قرين اسمه ، وكاد يطغى على صفته الأصلية وهى اللصوصية وزاد من هذه الشهرة أن ليلى كانت شاعرة ، بل لم يقدم عليها من شاعرات العرب سوى الحنساء ، وقد رثته ليلى بأشعار كثيرة ، وليلى هى التى يقسول توبة في حبها :

ولو ان ليل الأخيلية سسلمت على ودونى جنسدل وصفائسح لسلمت تسليم البشاشسة أوزقسا اليها صدى من جانب القبر صائح

وقد وفدت ليلي على عبد الملك بن مروان وهي كبيرة ، فقال لها : ما رأى توبة فيك حين عشقك ؟ قالت : ما رأى الناس فيك حين جعلوك خليفة ، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها .

وكان توبة واسع المجال في صعلكته ، ويبدو من أخباره أنه كان يركز غاراته على حمدان وبنى الحارث بن كعب مع أن بينهما وبين موطنه مفاوز ، ومن أخبار لصوصيته تلك الغارة التي أودت بحياته حين أغسار على بنى الحارث فلم يتمكن من الغنيمة فأغار في عودته على بنى عوف فاستاق ابلالهم بعد أن قتل منهم رجلا ، فلاحقوه ومعه أخوه وابن عم له أو مولى له يدعى قابض ، على اختلاف الرواية فقتلوه وأعرجوا أخاه وتتحدث الروايات عن أن توبة لبعاده في غاراته لله كان يحمل معه الماء ، وقد يبدو غريبا بعض الغرابة أن تجتمع في توبة صفتان غير متآلفتين ، حما عاطفة الحب العميق بما توحى به من رقة وسماحة نفس ، والصعلكة بما توحيه من صفات الجفوة والعنف ، ولكننا حين ننظر الى عوامل الصعلكة ودواعيها في المجتمع العربي كما أسلفنا نجد أنها لم تكن مجرد نزعة شريرة في نفس مزاوليها ، بل أحيانا لم تكن من النزعة الشريرة في شيء ، وانما كانت مظهرا اجتماعيا تولد من عوامل عديدة متشعبة ، وليل حبيبة توبة تحدثنا عن ماتين الصفتين في والم العام فتقول عن توبة :

۱۱) انظر ترجمته وأخباره وشعره فى أمال القال ۲/۰۷۱ ، ۱۷۱ والكامل للمبرد ۱۲۱/۱ دوروان الحماسة الأبى تمام ۱۱۶/۱ ، ۳۷۰ والعقد الفريد ۱۳۰/۱ وشرح التبريزى لحماسسة أبى تمام ۱۱۶/۱ والشعر والشعراه لابن قتيبة ص ۱۹۳۳ م الفائجي ٠

١٠ _ عبد الله بن سبوة الحرشي

منسوب الى حرش وهو موضع باليمن ، وكان عبد الله كما يبدو من أخباره من الأشخاص المعروفين في المجتمع بالقوة والبأس الشديد ، وتصف الروايات بأنه من فتاك العرب ، ولكن حادثة له مع الروم طغت على أخباره في الصعلكة والفتك ، ذلك أنه في فترات المناوشات التي كانت تحدث بين المسلمين والروم على الحدود مما يشبه ما يسمى اليوم بحرب العصابات ، استعان أحد الولاة بعبد الله بن سبرة ليغير في عصابة على بعض الروم ، وتختلف الروايات في تفاصيل هذه الغارة ، ولكنها تتفق على أن عبد الله بن سبرة قاتل في هذه الغارة بطريقا روميا فقتله عبد الله بعد أن قطع الرومي يد عبد الله أو اصبعيه على اختلاف الرواية ، وقد قال عبد الله في قطع يده شعرا كثيرا معتزا بأن قطعها اقترن بنصر له كبير (٢) .

١١ _ شبيب بن عمرو بن كريب:

احد لصوص طبيء ، وكان يقطع الطسويق في خلافة على بن ابي طالب ، فبعث اليه على أحمر بن شميط وأخاه في فوارس ، فهرب شبيب ، واسستطاع النجاة منهم ومن على بن أبي طالب وحين اطمأن الى نجاته قال في ذلك شعرا منه :

ولا رایت ابنی شهمه به ابنی شهمه ابنی شهمه والباب دونی (۳) تجللت العصا وعلمه انی رهین مغیس ان یثقفه ویتابع شعره واصفا علی بن آبی طالب بقوله :

ولو انى لبثت لهم قليه لجرونى الى شهيغ بطين (٥) شهديد مجهم الكتفين باق على الحدثان مختلف الشهون

 ⁽۲) أنظر ترجمته وشدره وأخباره فى التنبيه على أوهام القالى للبكرى ص ۲۲ ، ۳۳ ،
 وأمالى القالى ١/٧٤ وديوان الحماسة لأبى تمام ١/١٨٥ ، ١٨٦ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١٨٥٠ ، ١٨٥٠ .

⁽٣) السكة السطر من الشبحر *

⁽٤) العما فرس شبيب مشهورة ، ومخيس بغم الميم وتشديد الياء الكسورة مسحن على ابن أبي طالب ويثقفونى رواية الجاحظ وفي ديوان الحماسة أن يدركوني .

⁽٥) بطين أي عظيم البطن وهي سلة الامام على "

وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بلغه هذا الشعر : والذي فلق المبة ، وبرأ النسبة ، لو ظفرت به تصليفت طنه ، يعنى وضليمه في السيخ (١) .

١٢ _ فرغان بن الأعرف الري :

تختلف الروایات فی ضسیط اسم ، فیرویه ابو تمام فی حماسته فرعان بالمین ، ویرویه ابن قتیبة بالغین المعجمة ، وهو مناسب لما ورد من شعره کسا ضبطه ابن قتیبة ، وهو من بنی مرة بن عبید و کان شاعرا لصا ، و کان یفیر علی الابل ، ویروی ابن قتیبة أن فرغان أخذ جملا لرجل فجاء الرجل فأخذ بشعر فرغان وجذبه فبرك ، فقسال الناس : كبرت والله یا فرغان ، قال كلا ، ولكنه جذبت محق ، وقد اعتمه فرغان فی فخره علی قسوته ببنیه كمسا

يقــول رجال ان فرغان فاجـر ولا انه اعطانی بنی وماليـــا عمانية مثـل الصقور واربعــا مراضــيع قد وفين شعثا عمانيا

ويشاء له حظه السىء أن يرى بنيه هؤلاء الذين يفخر بأن فجوره قائم على قوتهم وقد أذاقره الهوان ، وهذا ابنه منازل أحد الثمانية الصقور كما يقسول فرغان يعق أباه ويؤذيه ويضربه كما يقول فرغان نفسه :

جزت رحم بينى وبين منساؤل جزاء كما يستنزل الدين طالبه ثم يقول في ذلك واصفا شيخوخته وضعف بصره وصفا مؤثرا:

فلما دآنی ابصر الشخص اشخصا قریبا وذا الشخص البعید اقاربه تغمد حقی ظالا ولسوی یدی اوی یده الله اللی هسسو غالبه ثم یقول ایفسسا:

أ ان رعشت كفا أبيك وأصبحت يداك يدى ليث فانك ضاربه ؟

وتوارث أباؤه هذا العقوق ، فيروى التبريرى أن ابنه منازلا هذا كان له ابن يدعى خليج فعق خليج أباه منازلا فقدمه الى ابراهيم بن عربى مستعديا عليه قائلا :

تغلمنی حقسی خلیسج وعقنی علی حین کانت کالحنی عظها می فی ابیات آخری ، فاراد ابراهیم بن عربی ضربه ، فقال خلیج اصلح الله الأمیر ، لا تعجل ، أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا منازل بن فرغان الذی

⁽۱) أنظر ترجمته وأخياره وشعره في حماسة أبي تمام ٢٥٢/١ والبيان والتبيين للجاحظ ٢٠٢/ وشرح التبريزي للحماسة ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ ٠

عق أباه ، وفيه يتول د جزت رحم بيني وبيغ منازل ، الابيات ، فقال : ابراهيم : و يا هذا ، عققت فعققت ، فما أعلم لك مثلا ألا قول خالد لأبي ذريب .

فلا تجوعن من سعة انت سرتها ﴿ فَلُولُ رَاضِي سَيَّةٌ مَن يَسَعِما (١)

١٣ .. جعير بن معاوية العكل :

غلب عليه في معظم الروايات لقب جعدر اللص ، مما يدل على شهوته باللصوصية ، وخطورته فيها ، ويصغه القالي بقوله « وكان لصا ميرا » ثم يفسر المبر بالغالب ، وينسب جعدر نفسه في شعره الى بني كعب بن غمرو وقد تردد اسم جعد كثيرا في المنافسات الشعرية الشهورة بين غالب أبي الفرزدق وسحيم التميميين على أن جعدرا رفيق سحيم ومن أشهد أعوانه على غالب ، واتفقت الروايات على أن جعدرا وقع في طائلة الحجاج وأودعه الحجاج سجنه ، ومن بين جدران سجن الحجاج جادت شاعرية جعدر بقصائد غراء ، تعتبر من أجود الشمر في موضوعها ، من حيث تصوير الهموم ، والحنين إلى الاهل والوطن ؛ وعشرين بيتاً ، وحين ندرس هــــــذه القصـــيدة نرى أن المتنــبي في قصــــيدته المشهورة عن الحمي لم يكن مبتدعًا ، وانما كان متأثرًا بقول جعدر:

تاوبنی فبت لها کنیما هموم ما تفارقنی حسوانی اذا ما قلت قسد اجلين عنى وكسان مقر منسزلهن قلبى فقسه انفهنسه والهسم آنى

هى العسواد لا عسواد قومى اطّلن عيسادتى في ذا الكسان التي ريعسانهن عسل الساني

ويقول منها في الحنين الى الاهلَ والأحبة :

اليس الليل يجمع أم عمىسوو نعم وترى الهـــلال كمـا أداه

وايانا فسلاك لنسا تسعاني ويعلوها النهسار كمسسا علاني

وأودية اليمامة فانعياني

يحاذر وقع مصقول يماني

ويقول عن سحنه:

اذا جاوزتها سيعفات حجير وقسولا جحسد امس رهيئسا

ويقول من قصيدة أخرى عن هذا السجن بالكوفة :

يارب ابغض بيت انت خالقه بيت بكوفان منه استعجلت سفر (٢)

(١) أنظر ترجمته واخباره وشمره في الشمر والشمراء لابن قتيبة من ١٨٠ وحماسة أبي تمام ٢/ ١٨٢ وشرح التبريزي لحماسة ابي تمام ١٨٢/٢ ، ١٣ .

(٢) أنظر ترجمته وأخباره وشعره في أمالي القالي ٢/٧٧١ ، ٢٧٨ ، ٥٣/٥ ، ٥٥ والحيوان للجاحظ ٥/٥٤٤ومعجم ما استعجم للبكرى ١١٤١/٤ ٠

١٤ - الجرنفس اللص:

لم تغصم الروايات فيما نعلم عن أكثر من هذا اللقب في ترجمته ، وان كان ينسب نفسه في شعره الى بني ثعل ، وهو مبن وقع في قبضة السلطان من الصماليك ، وذاق مرارة القيد والسجن ، وفي ذلك يقول :

أبلسغ بني تعسل عنى مغلفلة فقد اني لك من نيء بانفسساج اما النهار فلي قيسد وسلسلة والليل في جوفمنعوت منالساج(١)

وبعد هذه النبذ السريعة عن هؤلاء الشعراء ، والتي لم نقصد بها الترجمة الكاملة المخصلة لكل شاعر حيث أن ذلك ليس هدفا أساسيا للموضوع ، وأنما قصدنا تمييز شخصية كل شاعر عن الآخر ، وتحديد الخطوط العامة في حياة كل شاعر وشخصيته حتى نستطيع منها فهم اتجاهه الشعرى ، والحكم على هذا الاتجاء على ضوء ظروفه الشخصية والاجتماعية ، بعد ذلك نقول أن هناك عــددا من شعراء الصعاليك لم يرد استشهاد بشعر أحد منهم في هذا البحث ، ولذلك نكتفي بمجرد ذكر اسمائهم وهم :

- ١ جعفسر بن علية الحادثي (٢) ۲ ـ ابراهیم بن هــانی، (۳)
- ٣ ابو مسارد الشسيباني (٤) ٤ - حاجسز بن الجعسد (٥)
- ٥ قواد بن عيداد (١) ٦ - عروة بن مرة الهسلل (٧)

ومع ذلك لا نستطيع أن نقطع بأن من سبق ذكرهم هم كل شعراء الصبعاليك، ولكن الذي نؤكده أنه ليس هناك مرجع معين لشعراء الصعاليك ، وأن المرجع الوحيد الذي خصص للصعاليك تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم فيما نعلم هو كتاب اللصوص للسكرى ، ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا ، وانما نقــــل عنه بعض العلماء كالبغدادى (٨) فجمع هؤلاء الشعراء الذين سبق ذكرهم وجمع تراجمهم وأشعارهم وأخبارهم مجرد اجتهاد في التنقل بين متناثرات المراجسيع واشتاتها •

⁽١) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ وفي الهامش أنه ذكر في الاشتقاق ٣٣٣ لابن دريد .

⁽٣) أنظر خزانة البقدادي ٢/٢٦ الشامد ١١٥ وأغاني الأصفهاني ٤٨/١٣ ومواضع أخرى بقهارس الأغاثى وهو متشرم ٠

⁽٣) أنظر الحبوان للجاحظ ١١٠/٣ ورسائل الجاحظ ١٩٢/١ -

⁽٤) أنظر شرح التصائد السبع الجاهليات لابن الابتاري ص ١٣٥٠ ٠

⁽٥) أنظر معجم ما استعجم للبكري ١٣٨/٢ ٠

⁽١) انظر حياسة ابي تيام ١/٢٧٢٠

⁽٧) انظر الحيوان للجاحد ١٥٧/٤ وديوان الهذليين ١٥٧/٢ في رثاء أبي خراش أخيه اباد واغاني الإصفهاني ١٦/٢١ وقتل عروة شنحية الدى غاراته ه

⁽٨) أنظر خزانة الأدب ١٨/٢ ـ ٢٢ .

وأعود فاكرر القول بأن الروايات في بعض حديثها عنهم لم تكن موضحة ولا محددة كل التحمديد ، وخاصة فيما يتعلق بالفواصل الزمنية ، كشعر المخضرمين ، حيث لا نعلم أى شعرهم قالوه في الجاهلية ، وأيه قالوه في الاسلام ، الا ما ارتبط بحادث معروف الزمن ، أو ما دل عليه موضوع الشمعر نفست ومعانيه ، ونواحي أخرى من الغموض والاختلاف والتجاهل لبعض النواحي المهمة في الحديث عنهم ، ونعتقد أن هذا هو ما يدفع الباحثين في الشعراء الصعاليك الى الاتجاه الى التعميم ، وتحاشي التخصيص والحصر ، ايثارا لتجنب الحطا أو القصور ، ولكننا نؤثر القول بأن المجتهد اذا أصاب فله أجران ، واذا أخطأ لم يحرم من أجر ، وقبل أن أفرغ من هماذا الحديث أضيف أن الستة الأخيرين الذين لم أترجم لهم ، بالاضافة الى عدم الاستشهاد بشعرهم فانني لم أصل الى تراجم مع اضافات غير كافية الا جعفر بن علبة الذي ذكر البغدادي له ترجمة وشعرا في مع اضافات غير كافية الا جعفر بن علبة الذي ذكر البغدادي له ترجمة وشعرا في بأب ان المسددة بالاضافة الى المواضع المشار اليها بالهامش ،

البابالثالث

شعرالصعاليك

مصادره:

لم يكن من قبيل المصادفة أن يتجنب الباحثون موضوع الصعاليك ، فلا يجعلونه هدفا لبحوثهم ودراساتهم ، فالواقع أن جانب الصعاليك وأشمعارهم يكاد يكون أشد موضوعات الأدب العربى صمعوبة واسمعصاء على اليسر في البحث والدراسة ، من حيث أنه الموضوع الوحيد تقريبا الذي لم تصل الينا عنه دراسة أو بحث متكامل ، مع أن الصعاليك سواء في الجاهلية والاسمالام يمثلون طائفة بارزة مميزة في المجتمع العربي ، سواء أكان بروزها وتميزها موضع رضي أم سخط وكلا الحالين كان المفروض أن يدعو الى الدراسة والاهتمام ، فأن التميز من شانه لذاته أن يحظى بالاهتمام والتتبع والرغبة في الاستطلاع ، فكنا نتوقع أن نجد من الدراسة المستقلة ولو القدر الذي يعين الباحثين .

ولكن الواقع أننسا حين نرجع الى الاقدمين فى بحوثهم ، نجد أنه لم يعن بدراسة مستقلة عن الصعاليك الا أبو سعيد السكرى فى كتابه اللصوص ، ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا ، وانما نقل عنه بعض العلماء مقتطفات مبتورة ، كما نقل البغدادى عنه بعض حديثه عن عبيد الله بن الحر (١) وقد تتبع بعض الباحثين مصادر شعر الصعاليك (٢) ولكن نتيجة واحدة ينتهى اليها كل باحث فى مصادر شعرهم ، وهى أنه بعد فقد كتاب اللصوص للسكرى لم يعد هناك مصدر جامع لشعرهم ، وعلى كل باحث اذا أراد أو حاول الاستقصاء مع تعذر امكانه لشعرهم أن ينتقل بين كل ما كتبه القدامى ، سسواء من كتب منهم عن اللغة ، أو الادب ، أو التاريخ ، أو العاجم ، أو التراجم .

⁽١) خزانة الأدب ١٩/٢ ، ٢٢

 ⁽۲) انظر تاریخ الأدب المربی لکارل بروگلمان عن الشینفری و تابط شرا وعروة بن الودد
 وانظر الشیمراء الصمالیك للدکتور یوسف خلیف ۱۵۱ - ۱۳۷ ۰

وتفاديا للاطالة في تتبع مصادر شعر الصعاليك ، والتي نعلم مقدما أنها صننتهي الى النتيجة السابقة ، نلم في حديث موجز عن هذه الصادر فنقول :

بعد فقد كتاب اللصوص للسكرى لم يعد في المراجع القديمة حديث مستقل عن الصنطاليك ولا عن شعرهم ، وأنما سيقت تراجمهم وأخبارهم وأشعارهم متفرقة لا قصدا إلى موضوعها لذاته وانما في سياق موضوع الحديث أو الكتاب ، اعنى ضمن الموضوع الذي يتعرض له المؤلف فمثلا معاجم اللغة كالصحاح للجوهرى والقاموس المحيط للفيروزابادى ولسان العرب لابن منظور هدفها شرح الالفاظ وبيان معانيها في استعمالاتها المختلفة ، وفي هسندا السسياق قد يورد بعض ما يتعلق باحد الصعاليك ، فمثلا في مادة غرب يتحدث عن أغربه العرب هم فلان وفلان والسليك بن السلكة ، وفي مادة نحم والنحام فرس السليك بن السلكة ، وفي مادة ضعلك ، وعروة الصعاليك ، هو عزوة بن الورد كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما عنده ، وفي مادة ذأب ، وذؤبان العرب لصوصهم ، وذئبة فرس حاجز بن عوف وهكذا ، وقد حفلت هذه المعاجم بمجموعة لا باس بها من شعر الصعاليك نظرا لان شعرهم يحتوى على كثير من أسسناء الأماكن ، ومن الألفاط الغريبة التي تحتاج الى شرح .

وفى كتب القواعد اللغوية ، كخزانة الأدب للبغدادى ، تحتاج هذه القواعد الى شواهد عليها ، وفى سياق الشاهد تذكر القصيدة التى أخذ منها هذا الشاهد ، ومن باب الاستطراد الذى يكاد يكون ملتزما ، يساق الشسعر الذى تربط بينه وبين شعر الشاهد أى رابطة ، كتشسابه المعنى أو اتفاق الفاية أو الحادثة التى قيل فيها هذا الشعر أو نحو ذلك ، وفى خلال ذلك نجد مجموعة لا باس بها من الأحاديث عن عدد كبير من الصعاليك وشعرهم .

وفي كتب الأخبار الادبية كأمالى القالى وكامل المبرد ، لا نجد لهذه الكتب موضوعا معينا ، وانما هي روايات أدبية مقصودة لذاتها ، ورغم تبويب هذه الكتب ، الا أننا نجد أن موضوعات كل باب لا تنطبق عليه كلها ، وانمسا يبدأ الباب برواية أو روايات تناسب عنوانه ، ثم يستطرد في موضوعات شتى قد لا يربطها بعنوان الباب سبب ، فمثلا في الكامل باب ذكر الأذواء من اليمن في الاسلام ، يبدؤه بالأذواء ثم يستطرد الى أحاديث عن بعض الأمويين والعباسيين وولاة معمر ، الى أشعار مختارة ، وآيات من القرآن قد يفلط في مجازها النحويون وهكذا مما لارابطة بينه وبين عنوان الباب الا مجرد الاستطراد (١) وقد كان من فضل هذا الاستطراد أن حفلت هسنده الكتب بمجموعات كثيرة من أشسمار الصعاليك ،

وفي كتب الامشال كمجمع الامشال للميدائي ، نجد طائفة من أخبسار

⁽۱) أنظر الكامل للمبرد ٢/٣١٣. ٨٢٨ ٠

الصعاليك وأشعارهم حيث أن بعض الامثال قيلت في حوادث لبعض الصعاليك مثل « العاشية تهيج الآبية » في قصة سطو السليك على بيت رويم الشيباني وما قاله السليك فيها من شعر ، وبعض الامثال يتحدث عن الصحاليك ولو بالمنى العام مثل « كل صعلوك جواد » °

ومن أهم الكنب في الحديث عن الصعاليك وشعرهم وأن لم يكن أدقها كتاب الاغاني للاصفهاني وقد سيطر على الاصفهاني فيه هدفان ، أحدهما ما جعله هو هدفا في حديثه بمقدمته وعنونته للكتاب ، وهو أصوات الغناء ، وما يتغني به من الشعر ، والآخر ولعه بطرائف الاخبار وغريبها ، وقد سلك الى هذين الهدفين أسلوب الاستطراد الذي غلب على معظم كتب الاخبار القديمة وبذلك كله ساق كثيرا من الاخبار والتراجم والشعر عن كثير من الصعاليك لان في طرافة تراجمهم وأخبارهم ما يغرى مثله بالافاضة في الحديث عمن يتعرض لحديثه منهم ، فضلا عن أن بعضهم له أشعار يتغنى بها ، ومع أن الاصفهاني ليس موضع الثقة الكاملة في رواياته وأحاديثه (۱) الا أن له من علمه الواسسع ، وذاكرته الجبارة في تأليفه ، ما لا يجعل لباحث أدبى غنى عنه "

ومن أهم آثار السكرى بالنسبة لشعر الصعاليك ، مجموعتا ، أسسعار الهذليين ، و « ديوان الهذليين ، حيث احتويا على مجموعة كبيرة من شسعر صعاليك هذيل كأبى خراش والاعلم وصخر الغى وما تبودل بين الهذليين وعدوهم تأبط شرا من شعر ، ومن المصادر الهامة أيضا فى شسعر المسعاليك ، كتب المختارات من الشعر ، كحماسة أبى تمام وحماسة البحترى ، حيث جمعا فيهما شعرا كثيرا من بينه قصائد ومقطوعات عديدة لكثير من شعراء الصعاليك ، ومن خير هذه الكتب دقة واستيفاء للقصائد المفضليات للضبى والاصمعيات للاصمعى وفى كتب التراجم كالشعر والشعراء لابن قتيبة ومعجم الشعراء للمرزباني نجد تراجم لعدد لا بأس به من شعراء الصعاليك ، الا أن تراجمهم غير وافية ، وكذلك شعر من ترجموا لهم حيث نجد معظمه مقتطفات من القصائد غير مقصودة لذاتها شعر من ترجموا لهم حيث نجد معظمه مقتطفات من القصائد غير مقصودة لذاتها في أغلب الأحيان ، وانما لارتباطها بالترجمة أو الأحداث ،

⁽١) انظر آراه كثير من قدامي العلماء في تجريحه بترجمة المؤلف في صدر كتاب الأغاني .

 ⁽۲) انظر معجم البكرى ٤/١٣٣٩ •

فان به مجبوعة كبيرة من شعرهم ، بل انفرد بذكر شعر لم يرد في مصادر أخرى فيها أعلم كبعض ما أورده من شعر جحدر بن معاوية (١) وتوبة بن الحمير (٢) لا أن ما ساقه من شعر يعتبر في جملته أبياتا مفردة ، وقل أن يسوق بيتين أو تلائة مجتمعة ، ومع ذلك فان ما أورده من شمسعر له دلالة على جانب كبير من الاحمية ، فإن بعض ما أورده من أبيات مفردة أو مثناة ، انفرد بذكره عن المصادر الاخرى كما مثلنا آنفا ، ومعنى ذلك أن هذه الابيات بترت من قصسا ثد كانت معروفة أو مدونة حتى زمن البكرى ، ثم عبث بها الزمان فضاعت ولم تصل الينا ، وينطبق هذا على كثير جدا من الابيات التي ساقها البكرى في المعجم ، فاتناحي تأخذ هذه الابيات الكثيرة لنحاول العثور على القصائد التي انتزعت منها فأن كثيرا من الشعر القديم أو أغلبه لم يصل الينا ، وفيه أيضا جانب من الحجة في القرائ النثر هو الذي ضاع معظمه ، وأن الشعر لم يذهب الا أقله (٣) ،

ثم بقية للراجع القديمة مهما اختلفت موضوعاتها ، ولا اعتقد أن هناك شيئا من للبالغة أو تجاوز المقيقة في القول بأنها جميعا وبدون استثناء تكاد لا تخلو من حديث أو شعر لبعض الصعاليك ، قل ذلك أو كثر ، على ما في الوصول الى علمه الاحاديث من صعوبة بالغة ، لا لتناثرها فحسب ، بل لانه لا يجمعها موضوع معنى ، ولا تندرج في حديث بعينه ، وانها تأتى عرضا في سياق حديث قد يكون بعيدا عن كل ما يتعلق بالصعاليك ، وقد يضطر الباحث الى استعراض كتاب كلمل ليخرج منه ببضعة أبيات ، أو بضع فقرات عن الصعاليك ، ومن نحو هذا تتبين قيمة الجهد المشكور لهؤلاء النفر الذين عكفوا (٤) على دراسة بعض الكتب القديمة كالأغاني وبعض كتب الجاحظ وبعض معاجم الأماكن وكتب أخرى لمصر ما ورد فيها من اسماء الاعلام والاماكن والطوائف والمعاني ثم بتبويبه في فهارس مجمعة تعين الباحثين أي عون ، وتدخر لهم كثيرا من الوقت والجهد ،

وأما عن دواوين الصعاليك ، فلم يصل الينا منها الا ديوانان ، احدهما ديوان عروة بن الورد وأهم من جمعه ابن السكيت ، وله شرح عليه ، أورد في ترجمة عروة وأخباره والحوادث التي ارتبط بها بعض شعره ، وهو مطبوع بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة دواوين في مجله واحد ، والآخر ديوان الشنفرى وقد طبع طبعة غير وافية لعدم استيعابها كل ما في النسخة الخطية ، الموجودة بدار الكتب المصرية (ه) ،

⁽۱) معجم البكرى ١١٤١/٤ بيت واحد ٠

⁽٢) المصدر السابق ٣/٨٨٥ بيت واحد .

⁽٣) أنظر العملة لابن رشيق ١٠/١ ٠

^(؟) مثل جهود الأساتذة محمد عبد الجواد الاصمعى وعبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر .

⁽١٥ أَعْلَم تَسْم مراحل الديوائين في تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ١٠٥/١ ومايعدها

وقد تتبع صاحب تاريخ الأدب العربى أهم المراجع التى ورد فيها أخبار أو أشعار عن مجموعة من شعراء الصعاليك ، هم تأبط شرا والشنفرى وعروة ابن الورد (١) .

روايتـــه :

مع أن الرواة والعلماء القدامى بذلوا جهدا بالغا فى تحرى الرواية والتزام الصدق فى كل ما يتقلونه ويروونه ، وأخذوا أنفسهم وأخذوا غيرهم أيضا بالتزام الدقة فى النقل والرواية وكان حسابهم على التهاون فى ذلك شديدا عسيرا ، حتى ان الصاحب بن عباد يصف أبا الغوث بأنه ابن سوء وأنه جاء من قبله الخذلان لانه روى عن البحترى قوله .

واحق الايسام بالانس أن يسؤ ثر فيسه يوم المهسرجان الكبير مم أن صحة البيت فيما يعرفه:

واحسق الايام بالانس أن تو ثر يسوم المهسرجان الكبسير

وحتى ان الاحمر أخذ على المفضل الضبي أنه روى لا مرىء القيس •

« نمس بأعراف الجياد آكفنا ، مع أن صححته « نمش ، بالشين المعجمة لا السين وأخذ عليه أيضا قوله :

واذا الم خيالهما طرقت عينى فمساء شمجونها سجم

بالقاف مع أن صحته « طرفت » بالفاء ، وأخذ الاصمعى على المفضل أيضا روايته لبيت أوس « تصمت بالماء تولبا جدعا » بالذال ، مع أن صحته « جدعا » بدال مكسورة (٢) تقول مع أن العلماء التزموا مثل هذه الدقة ، وعابوا على الناقلين والرواة مثل هـــذا الخلاف الذي يعتبر معظمه يسيرا ولا يحدث في المعنى كبير تغيير ، الا أننا حين نذهب الى شعر الاقدمين وخاصة شعر الصعاليك نجد فيه اختلافا غر هين ولا يسير من ناحيتين :

⁽١) أنظر المعدر السابق -

⁽٢) أنظر العمدة لابن رشيق ٢/ ٢٤٩ ، ٢٥٠ •

اولا: الاختلاف في الألفاظ :

قد يكون الاختلاف في الالفاط في الاخبار والتاريخ شيئا مقبولا مادام أصل المعنى محفوظا ولكن الامر يختلف بالنسبة للادب عامة ، والشمر خاصة ، فان الالفاظ في الشعر مقصودة لذاتها بما تؤديه من جرس وايحادات قلم لا تستطيع ألفاظ أخرى وان رادفتها أن تؤديها وقد يتوارد شعراء كثيرون على معنى واحد ، فيصوغه كل منهم في أصلوبه الخاص ، وقد يتفارتون في ذلك جودة وضعفا تفاوتا كبيرا مع أن المعنى واحد ، والى هذا قصد الجاحظ حين رأى أن المعانى مطروحة في الطريق يلقاها العربي والعجمي ، وانما يتفاوت الشعراء بحسن السبك وجودة اللفظ ،

وشعر الصماليك تعرض لاختلاف فى كثير من الفاظه ومن أمثلة ذلك ميمية عمرو بن براقة ، فقد تعرض بعض أبياتها للخلاف فى الفاظها فصاحب الأمالى يروى :

وكيف ينام الليل من جل ما له حسام كلون الملح ابيض صسارم غموض اذا عض الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمين ملازم بينما يروى البيت الثاني صاحب الاغاني مكذا:

صموت اذا عض الكريهة لم يدع لها طمعا طوع اليمين مكارم ويروى القالي (١) والبكرى (٢) وابن عبد ربه (٣) منها :

اذا الليل أدجى واكفهر ظلامه وصاح من الافراط يسوم جواثم بينما يرويه صاحب الاغاني هكذا (٤):

اذ الليل ادجى واسجهرت نجومه وصاح من الافراط هام جواثم ويروى القالى منها :

افا ليوم ادعى للهوادة بعد ما اجيل على الحى المداكى الصلادم فان حريما ان رجا ان اردها ويدهب ما لى يا ابنة القيل حالم ويروى الاصفهائي:

افا لآن ادعى للهوادة بعد ما اميل على الحى المداكى الصدلادم كان حريما اذ رجا ان يضمها ويدهب ما لى يابنة القوم حالم

^{· 119/4} PMM (1)

⁽٢) معجم ما استنجم ٢/ ٢٩٣ .

⁽٣) العقد الفريد ١/ ٣٤ .

⁽٤) ويروى في موضع د واسجهرت لجومه a .

ويروى القالي والاصفهاني منها :

وكنت ادًا قسوم غزونى غزوتهم فهل انا فى دًا يالهمدان ظالم ويروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد (١) :

وكنت اذا قـوم غزونى غزوتهم فهل أنا فى ذا آل همدان ظالم ويروى القـــالى:

فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم ويروى الاصفهائى:

فلا صلح حتى تعثر الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الدقاق الجماجم ويروى القالى :

متى تطلب المال المنسع بالقنال المنسع بالقنال المخارم المخارم ويرويه الاصفهاني :

ومن يطلب المال المنع بالقنسا يعش ذا غنى أو تخترمه المخارم

وفيها اختلاف غير ذلك ، ومن أمثلة ذلك الاختلاف في بعض شعر شبيب عمرو بن كريب ، فيروى أبو تمام منه (٢) :

ولو انى لبثت لهم قليسلا جسرونى الى شسيخ بطين شسديد مجامع الكتفين باق على الحدثان مختلف الشسشون بينما يرويهما الجاحظ مكذا (٣) :

ولو انظرتهم شيئا قليلا لساقوني الى شييغ بطين شديد مجالز الكتفين مسلب على الحدثان مجتمع الشيئون

واذا أردنا مثالا واضحا لاختلاف الرواية في الالفاظ، وفي ترتيب الابيات، فلنرجع الى مرثية مالك بن الريب، فقد عنيت مراجع كثيرة بسردها منها أمالي القالى وأغاني الاصفهاني، وخزانة البغدادي وجمهرة أشعار العرب للقرشي، وفي كل منها اختلاف عن الآخر سواء في الالفاظ أو في ترتيب الابيات، ولسنائري بأسا بسردها على طولها لنتخذها نموذجا لهذا الاختلاف، لأهمية أثر هسذا الاختلاف من وجهة القيمة الأدبية سواء أكان الاختسلاف في الالفساط أم في

⁽١) الموضع السابق من العقد المريد

[·] YOY/1 . Legib 1/407 ·

⁽٣) البيان والتبيين ٣/٨٠٠٠

الترتيب ، وهذه القصيدة قالها مالك حين أحس الموت ، يرثى بها نفسه ويعبر عن شعوره بالتشرد والغربة ، وهي كما رواها القالي (١) .

بجنب الغضى ازجى القلاص النواجيا وليت الغضى ماشي الركاب لياليسا مزار ولكن الغضى ليس دانيسي وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا أرائى عن أرض الاعادى قاصيــــا بذى الطبسين فالتفت وراثيب تقنعت منها أن ألام ردائيسا جزی الله عمرا خبر ما کان جازیـــا وان قل ما لي طالبا ما ورائيــــا مستفارك هذا تاركي لا اباليسا لقد كنت عن بابي خراسان نائيا اليهسا وان منيتموني الأمانيسما بنى بأعسل الرقمتين وماليسسا يخبرن أنى هالسك من وراثيسا على شفيق نامنع لو نهانيسا ودر لجاجاتي ودر انتهاثيـــــا سوى السيف والرمع الرديني باكيا

١ ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ۲ فلیت الغضی لم يقطع الركب عرضه ٣ لقد كان فيأهل الغضى لودنا الفضى ٤ ألم ترنى بعت الضلالة بالهدى ه وأصبحت في أرض الأعادي بعدما ٦ دعاني الهوى من أهل أود وصحبتي ۷ أُجبت الهوى لما دعـــاني يزفرة ٨ أقول وقد حالت قرى الكرد بيننا ٩ أن الله يرجعني من الغــزو لا أرى ١٠ تقول ابنتي لما رأت طــول رحلتي ١١ لعمرى لشنغالت خراسان هامتي ۱۲ فان انبج من بابي خراسان لااعد ۱۳ فلله دری يوم أترك طائعـــا ١٤ ـودر الظباء السانحات عشية ١٥ ودر كبيرى اللذين كلا تميسسا . ١٦ ودر الرجال الشاهدين تفتكي ١٧ ودر الهوى من حيث يدعو صبحابتي ۱۸ تذکرت من يېكى على فلم أجمه

⁽۱) الامالي للقال ١/١٣٦٠ .

الى الماء لم يترك له الموت ساقيميا عزيز عليهن العشبية ما بيـــــا يسوون لحدى حيث حم قضائيــــا وخل بها جسمي وحانت وفاتيهها يقر بعيني أن سهيل بداليـــــا برابية اني مقيم لياليما ولا تعجلاني قسد تبين شانيــــــا لى السدر والإكفان عند فنائيــــا وردا على عينى فغسسل ردائيسا من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا فقه كنت قبل اليوم صعبا قياديسا سريما لدى الهيجا الى من دعانيـــا وعن شتمي ابن العم والجار وانيسا وطورا ترانى والعتاق ركابيسسا تخرق أطراف الرماح ثيابيسك بها الغر والبيض الحسان الروانيسسا تهيل على الريح فيها السوافيا تقطع اومسالي وتبلي عظاميسا ولن يعدم الميراث منى المواليسسا واين مكان البعد الا مكانيــــــا اذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويسك لغيرى وكان المال بالأمس ماليـــــا رحا المثل أو أمست بغلج كما هيسا بها بقراحم العيسون سواجيسا يسمن الخزامي مرة والا قاحيسا

١٩ وأشقر محبوكا يجر عنسانه ٢٠ ولكن بأكناف السمينة نسسوة ٢١ صريع على أيدى الرجال بقفرة ۲۲ ولما تسرات عند مرومنیتی .٢٣ أقول الصحابي ارفعوني فانه ٢٤ فيا صاحبي رحلي دنا الموتفائزلا ٢٥ أقيما على اليوم أو بعض ليـلة. ٢٦ وقوما اذا ما اسستل روحيفهيئا ٧٧ وخطأ باطراف الأسنة مضيجعي ۲۸ ولا تحسدانی بارك الله فیكسا ٢٩ خذاني فجراني بثوبي اليكما ٣٠ وقد كنت عطافا اذا الحيل أدبرت ٣١ وقد كنت سباراع إلقرن في الوغي ٣٢ خطورا تراني في ظالل ونعمسة ٣٣ ويوما تراني في رحا مستديرة ٣٤ وقوما على بشر السمينة أسمسا ٣٥ بأنكما خلفتماني بقفسرة ٣٦ ولا تنسيا عهدى خليلي بعدهـــا ٣٧ ولن يعدم الوالون بثأ يصيبهسم ۳۸ يقولون لا تبعد وهم يدفنـــوني ٤٠ وأصبح مالى من طريف وتالد ٤١ فيا ليت شعرى هل تغيرت الرحا ٤٢ اذا الحي حلوهــا جميعاً وأنزلوا ٤٣ رعن وقد كاد الظـــلام يجنهــــا

بركبانها تعلو المتان الفيافيا وبولان عاجوا المبتيات النواجيا كساكنت لو عالوا نعيك باكيا على الرئباني المنواديا ترايا كسحق المرئباني هابيا قسرارتها منى العظام البواليا بنى مازن والريب الاتلاقيا ستغلق أكبادا وتبكى بواكيا بعلياء يثنى دونها الطرف رانيا مها في ظلال السدر حورا جوازيا يد الدهر معروفا بان لا تدانيا به من عيون المؤسسات مراعيا بكين وفدين الطبيب المداويا بكين وفدين الطبيب المداويا وباكية أخرى تهيج البواكيا

وهى فى دواية الأمالى كما نرى ثمانية وخمسون بيتا ، وكذلك أوردها البغدادى فى خزانته (٢) من حيث العسدد وكذلك أيضا أوردها صاحب الأغانى (٣) بينما جعلها القرشى فى جمهرته (٤) اثنين وخمسين بيتا فقط ، وأما من ناحية الاختلاف فاقرب الروايات الى بعضها روايتا الأمالى والأغانى ، ومع ذلك نبينهما اختلاف فى الألفاظ فى تسنعة أبيسات ، واذا تجاوزنا عن أن الاصفهانى صدر القصيدة بالبيتين الرابع والعشرين والسابع والعشرين فذكرهما أولا ساردا القصيدة بعدهما ثم كررهما فى موضعهما من القصيدة مرة أخرى ، ويمكن حمل ذلك على أنه فكر أولا فى الاكتفاء بهما كنموذج من القصيدة ثم رأى ويمكن حمل ذلك على أنه فكر أولا فى الاكتفاء بهما كنموذج من القصيدة ثم رأى أن يوردها كاملة ، وكل ما يؤخذ عليه أنه كان ينبغى أن يفصل بينهما وبسين

⁽١) الالنجوج واليلنجوج عود الطيب يتبخر به ٠

۲) الخزانة ۲/۲۲ .

⁽٣) الأغاني ١٣/١٣ ومواضع أغرى بالقهرس •

⁽٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٤٣ ه

القصيدة ، حتى لا يوحى ذلك بأنهما مطلع القصيدة خاصة وأن القصيدة لم تلتزم التصريع في مطلعها ، مما يجعل أي بيت من هذه الوجهة يصلع مطلعها . لهـــا ، أذا تجاوزنا ذلك نقول أن الأبيات التسعة التي اختلف فيها مع القال تفاوت فيها. الاختلاف قوة وضعفاً ، فبعضها في مجرد حرف كالبيت الرابع والعشرين الذي ساقه الأصفهائي في أول القصيدة ثم كروه في موضعه منها فرواية الأمالى « فيا صاحبى » ورواية الأصسفهاني « أيا صاحبي ، وبعضها في الكلمات وهيئانها كالبيت التأسع عشر ، في الأمالي « واشتر معبوكا يجر عنانه وفي الأغساني « وأشقر محبوك يجر لجامه ، والبيت التأسع والمشرين ، في الأمالي « خذاني فجراني بثوبي ، وفي الأغاني « ببردي ، والأمال « فقــد كتت ، والأغاني « فقد كان » وفي البيت الثلاثين في الأمالي « وقد كنت ٢٠٠ سريعا لدي الهيجاء » وفي الأغاني « الى الهيجاء » وفي البيت الثالث والأربعين في الأمالي « كاد الظلام ، وفي الاغاني « كان الظلام ، وفي البيت الخمسين في الأمالي « فيا صاحباً » وفي الأغاني « فيا صاحبي » وفي البيت الذي بعنه في الأمالي « وعر قلوصي » وفي الأغاني « وعطل قلومي » وفي البيت الذي بعدهما في الأمالي « موهنا ، وفي الأغاني « أنهــا » وفي الأمالي « رانيا ، وفي الأغــاني « رائمياً » وفي البيت الأخير في الأمالي « فمنهن أمي وأبنتاي وخالتي ، وفي الأغاني « أمي وابنتاها ؛ وسياق القصيدة يرجع رواية الأمالي حيث يتحدث فيهما عن بعض بناته في البيت العاشر •

وأما في رواية البغدادى فاختلاف أكثر ، حيث نجده في خمسة عشر بيتا هي الأبيات الخامس والثامن والثانى عشر والسابع عشر والتاسع عشر وفي التاسع والعشرين والثلاثين والثانى والأربعين والثالث والأربعين ، والسادس والأربعين، والخمسين والذي بعده والأخر ، وفي بعضها وافق الأمالي وفي البعض الآخر وافق الأغانى ، وزاد البغدادي أن في اختلافاته يتغير تركيب الكلمات ، ففي البيت الرابع والخمسين في الأمالي « غريب بعيد الدار » أما في الخزانة فهي « بعيد غريب الدار »

على أننا نلاحظ أن هذه الخلافات في جملتها لا تغير المعنى ، وكل حديثنا عنها من ناحية أهمية الألفاظ نفسها وترتيبها كما نطق بها الشاعر ، فأن الأديب أو الشاعر المطبوع ينفث في كلماته وفي ترتيبها من الجسرس ، والأحاسيس الخاصة ما لا نبعده في الفاظ أخرى وأن رادفت الفاظه ، بل ولا في الفاظه نفسها اذا أخرجت من موضعها أو تغير ترتيبها ، ويكون مثل الفاظ الأديب أو الشاعر حينئذ ومرادفاتها من الألفاظ الأخرى مثل سلكين من نوع وحجم واحد يسرى في أحدهما تيار كهربي دون الآخر ، فهما في مراى العين لا يختلفان في شي ، ولكنهما عند اللمس والتذوق يختلفان اختلافا شديدا .

و و ذا كان الاختلاف في المصادر السابقة - على أهميته - في الالفاظ فقط ، يحيث لا يتغير بها المعنى تغيرا كبيرا ، فان صاحب جمهرة أشعار العرب (١) كان اختلافه أبعد من ذلك ، فمن حيث العدد جعلها اثنين وخمسين بيتا فقط وخالف في الترتيب بين بعض أبياتها ، وزاد فيها بما لم يرد في الروايات الاخسرى كقوله بعد البيت الثلاثين « وقد كنت محمودا لهي الزاد ١٠٠٠ النم ، وغير الفاظا لم يرد خلاف فيها فيما سبق كقوله في البيت قبل الأخير (٢) « فمنهن أم ، مع أن الروايات الأخرى تتنق على أنها « أمي » ٠

حدًا عن أقراجع التي ساقت القصيدة كلها ، وحين ندّهب الى المراجع التي استشهدت منها بأبيات مفردة ، أو اقتطعت منها نماذج ، نجد فيها أيضا اختلافا فيه بعض ما سبق وفيه اختلاف عن كل ما سبق فابن قتيبة يورد منها ثمانية أبيات (٣) فيها بعض ما سبق من اختلاف وفيها مخالفة في بعض الالفاظ لكل ما سبق كقوله في البيت الرابع والعشرين « فيا صاحبي رحل دنا الموت فاحفرا » مم أنه في الزوايات السابقة « فانزلا » .

والأصفهائي في موضع غير الموضع الذي ساق فيه القصيدة (٤) يذكر بيتا منها منسوبا لجعفر بن علبة الحارثي ضمن قصيدته ويقول ان هذا البيت بعينه يروى الملك بن المريب في قصيدته المشهورة المتى يرثى بها نفسه وهو البيت الواحد والخسسون •

وعطسل قلومی فی الرکاب فانها ستبرد اکبادا وتبکی بواکیا بافظ د ستبرد ، مع آنه ذکره فی القصیدة د ستفلق ،

والبكرى (٥) يختلف في البيت المشرين عن كل الروايات السابقة فيقول و وان بأطراف الشبيكة نسوة د مع أنها في الروايات السابقة ، ولكن باكناف السمينة نسوة ، ٠

واذا كان علماء مثل القالى وابن قتيبة والبكرى والأصفهانى والبغسدادى والقرش غير علماء آخرين يختلفون فى قصيدة واحدة ، مع أنهم يصفونها بأنها مشهورة ، ومع أن عصر شاعرها كان خيرا مما سبقه من العصور من حيث كثرة الرواية وضبطها وكثرة العلماء القائمين على نقدها وحمايتها من العبث بهسا والانحراف فيها ، تقول اذا كان الأمر كذلك نعلم الى أى مدى يكوك الاختلاف فيما دون هذه القصيدة وصاحبها من الشهرة ، وما قبل هذا العمر مما لم تكن

٠ (١) القرشي ص ١٤٣٠

⁽٢) في الروايات الأخرى مو البيث الأغير .

۳۱۲/۱ الشعر والشعراء ۱/۲۱۲ -

⁽٤) انظر الأغاني ١٣/٨٤ ٠

[·] ٧٨١/۴ منجم ما استمجم ٢٥١

فيه الرواية قد وصلت الى صورتها تلك ، ولم يكن التفرغ لجمع الشعر وتدوينه قد وصل الى مرتبته حينذاك ، ولذلك يجد الدارس أن الاختلاف بين الروايات في الشعر الجاهل أشد منه في الشعر الاسلامي ، وكتاب التنبيه على أوهسام القالى للبكرى يعتبر من حيث هو مثالا لبعض ما وقع من خطاء الرواية ، حيث ان الكتاب كله تصحيح لأخطاء الأمالى التي صدرت عن أبي على القال .

ثانيا: الاختلاف في نسبة الشعر:

والنوع الثانى من الخلاف فى شعر الصعاليك ، هــو اختلاف الروايات حول نسبة بعض الشعر لأحدهم أو لغيره ، والمتنبع لهذا النحو ، يجد أن هذا الخلاف قد مس معظم شعراء الصعاليك ، فمثلا كما وأينا الأصفهائى يروى أن أحد أبيات مرثية مالك بن الريب قد تنوزع حول نسبته إلى مالك أو جعفر بن علية (١) .

وعن عروة بن الورد يروى القالي (٢) و قال عروة بن الورد، :

تعسود على مالى العقبوق العسوائد خصصاصة جسم وهسو طيان ماجد وانت أمرؤ عالى انائسك وأحسد واحسو قسراح الماء والساء بارد

لا تشستمنی یا بن ورد فائسه ومن یؤثر الحق النؤوپ تکن به وانی امسرؤ عسافی انائی شرکت اقسسم جسمی فی جسسوم کثیرة

ويرد البكرى على رواية القالى بقوله د هذا من أوهام أبى على - القالى - رحمه الله وغفلته ، فكيف ينشه لابن الورد د لا تشتمنى يا بن ورد ، وانسا البيت الأول من الأبيات التي أنشد لقيس بن زمير بن جذيبة صاحب حسرب داحس ، يرد على عروة وكان بينهما تنافس وكان قيس أكولا مبطانا فكان عروة يعرض له بذلك في أشعاره ، فمن ذلك قوله :

وانی امرؤ عسافی انائی شسرکة وانت امرؤ عافی انائسك واحسد نقال قیس پجیبه:

لا تشـــتمنى يا بن ورد فائنى تعــود على مالى الحقــوق العـوالد

وقال محمد بن يزيد - رحمه الله - ان قوله « ومن يؤثر الحق النؤوب
٠٠٠ ، ليس لمروة وانما هو لهذا العبسى الذي رد عليه (٣) « وهكذا يقســو البكرى على القالى في غفلته مصححا خطأه ، مع أنه هو نفسه يشير الى عدم تأكده

⁽١) أنظر الأغاني ١٣/ ٤٨

٠ ٢٠٠/٢ الأعالى ٢/٠٠٠ ٠

⁽٣) التنبية على أوهام القالي ص ١١٢ .

من هذا التصحيح ، بدليل انه إدخل في الحديث رواية ابن يزيد ، ومع تحامل البكرى على القالى نجد أن البكرى نفسه لم يكن دقيقا في هسندا التنبيه ، فان سياق المفاخرة بين عروة وقيس يدل على أن البيت الثاني الذي نسبه البكرى الم قيس وهو « أتهزأ منى ٠٠٠ » ليس لقيس الا على تأول في معناه بحمله على غير النحول ، فالسياق يرجع أنه لعروة وليس لقيس ، وقد نسبه الاصفهاني فملا لعروة (١) وقد تعاشى ابن السكيت هذا البيت فيما جمعه من ديوان عروة ، فذكر بعض الأبيات السابقة ولم يذكر هذا البيت (٢) ، وكما التبس على القالى فنسب الأبيات كلها الى عروة ، فكذلك التبس الأمر على المبرد فنسبها كلهسا لقيس بقوله و وقال رجل من بني عبس » و قال أبو الحسن يقوله لعروة بن الورد » (٣) ثم ذكر الأبيات الأربعة وأكثر ما وقع الاختلاف في شعر الصعاليك

ان بالشيعب اللي دون سيلم لقتيالا دميه ما يطال

وهي قصيدة رئاء ، وقد نسبها أبو تمام الى تأبط شرا (٤) ولكن روايات أخرى تنسبها لابن اخت تأبط شرا يرتيه (٥) وبعض الروايات ترى أن ابن اخته هذا هو الشنغرى ، والتبريزى يرى أن القصيدة مولدة من شعر خلف الأحمر ويستنصر بالنمسر وأبي الندى ، وليس لهم من دليل الا النقد الموسسوعي للقصيدة ، قائلين أن من عباراتها ، جل حتى دق فيه الأجل ، أى عظم الخطب حتى صغر عنده كل عقيم ، ويرون أن الاعرابي « لا يكاد يتغلغل ألى منل هذا ، وأن القصيدة تحدد مؤضع قتله بسلم من ضواحي المدينة مع أنه قتل في بلاد مذيل وألقي في غار يسمى رخمان (١) ، والواقع أنه وأن كانت هذه الأدلة مجرد ترجيح الا أننا حين نتأمل القصيدة في جملتها وأوزانها وحتى في قافيتها نجدها غريبة على شعر تأبط شرا وعلى شعر الصماليك بصفة عامة ، ومن ثم نجد لنقد التبريزي وصاحبيه وجاهته ، ومما اختلف فيه أيضا أدبعة أبيات رواها بعضهم لي قصيدة أمرىء القيس المشهورة « قفا نبك » وهي :

وقرية اقسوام جعسات عصامهسا على كاهسل منسي ذلسول مرحسل وواد كجموف العبر قفر قطعته به الذئب يعسوى كالخليع المعسال

^{· 4/12 3/491 (1)}

۲) انظر دیوان عروة بن الورد بشرح ابن السكیت ص ۸۰ م ۸۷ .

⁽٣) الكامل ١/٣٦ والقسمير في يقوله يمود على الشمر أي آن المجنى يخاطب عروه بهذاه الشمر .

⁽٤) ديوال الحماسة ٣٤٢/١ ·

۱۳۷/۳ المقد الغريد ۱۳۷/۳ •

⁽٦) شرح التبريزي للحماسة ١/ ٣٤١ ، ٣٤٣ والأمالي ٢/٨٧٢ ٠

فقلت له لما عسوى ان شاننا قليل الغنى ان كنت لا تمول كسلانا اذا ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهسؤل

ويرويها بعضهم لتأبط شرا (١) وبعضهم يلجأ الى النقد الموضوعي كالنقد السابق فيقول ان هذا أشبه بكلام الصحطوك لا كلام طالب الملك (٢) ، يعنى تصعلك تأبط شرا ، وطلب امرى القيس للملك ، وهذا واضح في حديث الأبيات عن تفاصيل خاصة بحياة الصعاليك وفقرهم وعدوهم ، والجاحظ يكرر الشك في نسبة بعض الشعر لتأبط شرا أو غيره ، فمرة يقول : وقال تأبط شرا أو أبو محرز خلف (٣) ومرة يقول : وقال تأبط شرا أن كان قالها (٤) وأخرى يقول : ومن هذا الباب قول تأبط شرا أو قول قائل فيه (٥) ، وبعض الباحثين يستنتج ومن هذا الباب قول تأبط شرا أو قول قائل فيه (٥) ، وبعض الباحثين يستنتج أن الجاحظ يغلب عليه الاعتماد على ذاكرته في الاملاء والكتابة دون الرجوع الى المصادر للتثبت من مصدر الرواية (١) ومثل هذه التعبيرات من الجاحظ في تشككه تجعل للرأى المشار اليه قيمة ،

ومن أمثلة الخلاف في نسبة الشعر ما نسبه أبو تمام الى أبي الطمحان بقوله « وقال أبو الطمحان القيني الأسدى وحلقه صاحب شرطة يوسف بن عمر (٧) » والتبريزي يقول انها الأبيات لطخيم أبو الطخماء الأسدى وكان بالحيرة فأخذه العباس بن معبد المرى وكان على شرطة يوسف بن عمر فحلق رأسه فقال هذه الأبيات (٨) ، والواقع يؤيد التبريزي ، فان أبا الطمحان مخضرم أسلم وهو شيخ كبير ، فلم يدرك ذلك العصر ، على أن الحادثة حتى لو كانت في أول الاسلام فلا تناسب أبا الطمحان ، لأنه أسلم وهو شيخ أشيب ، فلم يكن في لمته من الجمال ما يصفه هذا الشعر بقوله :

لقد حلقوا منها غدافا كانه عناقيد كدرم أينعت فاستبكرت فظل العداري يوم تحسلق لمستى على عجدل يلقطنها حيث خسرت

ومال العذاري وشيب أبي الطمحان ؟

ومن أمثلة الحلاف أيضا عن شعر أبى خراش الهذلى ، حديث البغدادى عن البيت التالى :

⁽۱) شرح القصائد السبع لابن الانبارى ومعنى الشعار الأخير أن من يعش في مثل عيشى وعيشك يهلك من الهزأل •

⁽٢) خزانة الأدب للبغدادي ٩٣/١ •

۱۸۲/۱ الحيوان ۱۸۲/۱ ٠

⁽٤) الحيوان ٩٨/٣ .

 ⁽٥) الحيوان ٣/٢٥٥ •
 (٦) هو الدكتور ناصر الدين الأسد ، أنظر مصادر الشمر الجاهل له •

⁽٧) ديوان الحماسة ٢/٢١٤ .

⁽٨) شرح التبريزي للحماسة ٢/٢/١ *

انسي الحا ما حسين السيا اقسول يا اللهسم يا اللهمسيا

حيث يقول نقلا عن أبى زيد ومنذا البيت من الأبيات المتداولة فى كتب العربية ، ولا يعرف قائله ولا بقيته وزاعم العينى أنه لأبى خراش الهندلى قال وقبله :

ان تغفس اللهسم تغفس جمسا وأى عبسه لسك لا المسا

وهذا خطأ ... يعنى من أبى زيد الذى نقل عنه ما سبق ... فان هذا البيت الختى زعم أنه قبئه بيت ، مغرد لا قرين له ، وليس هو لأبى خراش وانما هو لأمية بن أبى ألصلت قاله عند موته وقد أخذه أبو خراش وضمه الى بيت آخر ، وكان يقولهما وعو يسمى بين الصفا والمروة وهما :

لاهمم هذا خلس ان تما اتممه الله وقد اتمما أن تغفر اللهم تغفر جما ، ، ، ، ، ، ، ، السخ

وقد تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

ومن الحق أن نقول: انه اذا كان الاختلاف في الألفاظ قد أصاب كثيرا من شعر المساليك، فإن الاختلاف في نسبته لم يصب منه الا القليل.

وهناك صورة أخرى من الاختلاف ، لا تخلو من غرابة ، هى أننا نجد بعض شعر الصعاليك منبئا فى شعر غيرهم ، ومنسوبا الى غيرهم ، كالبيت الذى قال الأصفهانى عنه أنفا أنه مذكور فى قصيدة جعفر بن علبة مع أنه بنصب ، فى قصيدة مالك بن الريب السابقة ، وكأبيات تأبط شرا الاربعة ، التى أدخلت فى قصيدة أمرىء القيس .

ولكن الذى يصعب تعليله أن نجد مقطوعات كاملة أو شبه كاملة من شعر الصعاليك مذكورة ضمن قصيدة أخرى غير متفقة فى الوزن والقافية ، أو فى أحدهما مع قصيدة شاعر من غير الصعاليك ، مثال ذلك أبيات عروة بن الورد ، "مى اتفقت الروايات على أنها له وهي :

لحسا اللسه مسعلوكا اذا جن ليله يعسد الغنى من نفسسه كل ليسلة ينسام تقيسلا ثم يصبح قاعسدا

مصافی المساش آلف کل مجور اصاب قراها من صدیق میسر یحث المحسسی عن جنبه المتعفس

⁽١) خزانة الأدب ١٠٣/٢ -

يعسين نسساء العي ما يسستعنه ولكسن مسعلوكا صغيعة وجهسه مطسلا عسلي أعسلاته يؤجسرونه وان بعسلوا لا يامنسون اقترابه فالسك ال يلسق المنية يلقها

فيفسحى طليعسا كالبعسم المعسر كفسوه سراج القسابس المتنسور بسماحتهم ذجسر المنيح الشهسر تتسوف أحل الغائب المتنظر حميدا وان يستغن يوما فاجدر (١)

وهذه الأبيات لم يختلف أحد في نسبتها الى عروة ، وهي من قصيدة طويلة أوردها أبن السكيت في شرحه لديوان عروة .

وهذه الأبيات نفسها بمعانيها ، وتكاد تكون بالفاظها نجهها في قصيدة ميمية لحاتم الطائي حيت نجد في آخر هذه القصيدة بنصه وترتيبه ما ياتي :

من العيش ان يلقى لبوسا ومغنها تنبسه منسلوج لفسؤاد مورمسا اذا نال جسدوى من طعسام ومجثما ويمضى على الأحمات والدهر مقدما ولا شبعة ان نالها عد مغنما يبيت قلبه من قبلة الهسم مبهمسا تيمم كبراهس ثمت صمما عسدور العوال فهو مختضب دما عتد فتى هيجسا وطرفا مسسوما وان عاش لم يقعد ضعيفا ملمما (٢)

لحسا اللسه صعلوکا منساه وهمه ينسام الضعى حتى اذا نومه استوى مقيمسا مسع الثرين ليس ببسارح وللسه صسعلوك يسساور همسه فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة يرى الخمص تعليها ولم يلق شبعة اذا ما راى يومسا مكسارم اعرضت ويغشى اذا ما كان يوم كريهة يرى رمحه ونبسله ومجنسه فدلسك ان يهلك فحسنى تنساؤه

فهذا التوافق الذي يكاد يكون كاملا في المعانى وان اختلف ترتيبها ، وفي كثير من الألفاظ أيضا ، يدعو الى النظر ، ويصعب تعليله، لأن القصيدتين ليستا متفقتين في الروى حتى نقول بأحتمال أنه حدث تداخل بينهما في رواية الأبيات ، ومع ذلك فلسنا فرى هذا التوافق الظاهر بينهما يدخل فيما أجازه النقاد للشعراء كتوادد المعانى أو توليدها أو تجديد صياغتها ، ولا فيما لم يجيزوه كالسرقة والسطو ، لأن ذلك كله يحدث عادة في البيت أو البيتين ، والمعنى أو المعنيين بين قصيدتين ، أما أن يحدث في جملة أبيات تصلح أن تكون قصيدة فهذا ما يدعو الى النظر .

على أثنا حين تعرض هاتين المجموعتين على النقد ، تجهد أمامنا زاويتين متعارضتين مما يزيد الموضوع لبسا وغرابة ، فمن الناحية الفنية يمكن أن نقول أن هذا الشعر يصور نفسية الصعاليك ومذهبهم في الحياة ، وههو يتفق مع

⁽١) الكامل للمبرد ١/٧٨ وديوان حماسة أبى تمام ١/١٥٩ ، ١٦٠ والقصيدة كاملة في ديوان عروة ص ٩٢ ٠

⁽۲) خزانة البغدادي ۲/۲۹۱ .

الاتجاء العام لشعرهم ، وما يتردد كثيرا من معانيهم ، ومن هذه الناحية يمكن أن يقال أن عروة هو السابق في هذا الشعر ، وان حاتما احد عنه معاويه كلها . ولكننا من الناحية التاريخيه نجه اله وان لم تحدد الروايات بدء حياة كل من عروة وحاتم ووقاته الا انها تشير الى أن حاتما سابق على عروة رغم قرب زمنيهما، فان حاتما لم يدرك الاسلام ، وانما أدركه ابنه على وبنته سفانه ، ولقيا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) " وعروة أدرك الاسلام وان لم يسلم ، ويدل على ذلك ما ورد في أخياره أن امرأته كانت فيمن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وأن كان هذا ترجيحا ومن هذا لا نرى أمامنا الا أن نرجع أن حاتما الطائي هو السابق بأبياته ، وأن حديثه عن الصعلكة ليس بغريب ، بل ليس بغريب أن يكون قد زاول الصعلكة في فترات من حياته ، كما رأينا فيما سبق سادة مثله وأعلى منه سيادة زاولوها ، في مجتمع كان طابعه الغزو والسلب والنهب (٢) ، لا فرق في مزاولة أساليب الصعلكة فيه بين السادة والصعاليك إلا أن الصعاليك كانوا يتخذون من الصعلكة حرفة دائسة ، وغيرهم كان يزاولها في طروف خاصة ، وحاتم الطائي مرت به بعض الظروف التي يمكن أن تدفعه الى الصعلكه حينذاك ، ومنها الفتر في بعض فترات حياته ، كما ورد في أخبساره (٤) وما يحدثنا به هو في شعره من مثل قوله :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكال سقاناه بكاسيهما اللهر (٤) فما زادنا بغيا على ذى قسرابة غنانا ولا ازرى باحسابنا الفقر (٤)

ونرجح أيضا أن عروة بن الورد بلغته أبيات حاتم ، وتأثر بها في شعره هذا ونستبعد أن يكون هذا من توارد الخواطر ، ونستبعد أيضا أن يكون من خطأ الرواية ، أو تداخل الأبيات بين القصيدتين .

على أننا مهما نجد من اختلاف أو اضطراب حول شعر الصعاليك ، فان فى شعرهم ميزة تحميه من الذوبان فى غيره ، أو الالتباس بشعر آخر كما يحدث لغيره ، هذه الميزة هى أن شعر الصعاليك - كما سيأتى فى الحديث عن منهجه وخصائصه - يتميز دائما بطابع خاص ، يميزه عن غيره من عدة زوايا ، بحيث يمكن للناقد ذى الذوق الأدبى الدارس لشعر الصعاليك ، أن يميزه عن غيره فى غير جهد أو عناء شديدين ، وقد اعتمد البغدادى فعلا على هذا النقد الموضوعى فى شعرهم عن غيره ، كما سبق فى قوله عن أبيات تأبط شرأ التى رويت فى قصيدة امرىء القيس ان هذا الكلام أشبه بكلام الصعلوك واللس ، لا بكلام

⁽١) خزالة البغدادي ٢٩١/٢ ٠

 ⁽۲) أنظر تلسير قوله تمال « أو لم يروا أنا جملنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم «
 الأبة ۳۷ العنكبوت ـ تفسير الكشاف ، وانظر ما سبق »

⁽٣) أنظر خزالة البقدادي ٢٩٢/٢ .

⁽٤) أنظر لسان العرب مادة (مسلك) .

الملوك (١) ولذلك اضطر الذين رأوا نسبة مـــذه الأبيات الى امرىء القيس ان يتلمسوا أخبار حياته ، ليجدوا فيها ما يثبت أنه تصعلك فترة من حياته ، أو أنه كان يتتبع الصعاليك وذلك في فترات حروبه وصراعه من أجلل استعادة ملك أبيه (٢) ٠

لامية العسرب:

من حق اللامية لأهميتها ولما دار حولها من حديث أن تعظى بعديث خاص لا يغمره سياق حديث آخر ٠

والواقع أنه لم تحظ قصيدة عربيـــة بمثل ما حظيت به لامية العرب من اهتمام سواء في القديم والحديث ،فقد تداولها الرواة ، ثم تناقلها كثير من العلماء والمؤلفين ، ثم توالى عليها عدد كبير من الشراح في شروح خاصة بها (٣) وأشهرها أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشرى ، ثم جاء المستشرقون فأولعـــوا بها ولعا بينا، واكبوا على دراستها وترجمتها الى كل اللغات الأوربية تقريبًا ، مظهرين اعجابهم في تقديم كل دراسة أو ترجمة عنهــــا وصاحب تاريخ الأدب العربي (٤) يسرد كثيرا من دراسات المستشرقين وترجماتهم لها ، ويصف اللامية بأنها تمثل مذهبا شعريا مستقلا عن الشبعر العسربي القديم كله حيث يقول « أما في لامية الشنفري فيواجهنا مذهب شعرى مستقل ، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب في تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلي وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها غرضا مقصودا لذاته ، يتخذ شاعر اللاميــــة هذا الوصف بمثابة منظر أساسي بهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله ، (٥) ثم يصفها عقب ذلك بأنها « قصيدة لامعة بين قصائد الشعر الجاهلي » ، والواقع أن حديث اللامية يحتاج الى بحث خاص ، ولكننا لا نستطيع الافاضة في حديثها لأنها وان كانت من صلب الموضوع كجزء من شعر الصعاليك ، بل غرة في شعرهم الا أن الحديث عنها ليس مقصودا لذاته ، ومع ذلك يمكن أن نوجر ما يتعلق بها في النقاط الآتية:

١ _ صاحب اللامية وهو الشنفرى أزدى يمنى الأصل ، ولكنه سبى وهــو صبى، وعاش أسيرا في بني شبابة بن فهم من نجد ، ثم انتقل الى بني سلامــــان

۱۱) انظر خزانة الأدب ۱/۹۳ .

 ⁽٢) أنظر الشمراء السماليك د٠ يوسف خليف نقلا عن الاسمى قسل (الأسلوب القسمى) ٠ (٢) انظر فهارس الشروح بدار الكتب المصرية وبها أكثر من خمسة عشر شرحا مطبوعا

ومغطوطا للأمية العرب كما عدد بروكلمان في تاريخ الأدب العربي كثيرا من الفروح ١٠٥/١ ترجمة النجاد -

⁽٤) كارل بروكلمان ١٠٤/١ وما بمدها ثرجمة النجار ٠

⁽ه) المدر السابق °

ابن مفرج بنجد أيضا ، في حادث مبادلة أسرى بين بني سلامان وبني فهم ، ومن خلال الروايات عن شخصية الشنفرى وظروفه ، نرى فيه شخصيه فسنة في عدة نواح ، في قوة الارادة الى درجة غير مالوفة ، ومن امثلة ذلك تصميمه على قتل مائه رجل من بني سلامان وانفاذ عزمه ، وفي قوة عقليته وعمق تفكيره ، امثلة ذلك أنه كان يسبق الخيل في عدوه ، وفي قوة عقليته وعمق تفكيره ، ومن أمثلة ذلك أنه كان يسبق الخيل في عدوه ، وفي قوة عقليته وعمق تفكيره ، ومن أمثلة ذلك أنه كما يصفونه كان يضرب به المثل في الحذق (١) والمحساء وما وصل الينا من شعره حتى غير اللامية يدل على ذلك ، وقد شاءت الظروف لهذه المواهب أن تعيش في أسوأ ظروف اجتماعية ، أبرزها أنه مجرد أسير ذليل لا يملك حتى حريته ، بل ازدادت الظروف قسوة عليه حين تعسرض لحوادث اضطهاد واذلال من بني سلامان حين تطلعت نفسه الى الارتباط باحسدي فتياتهم ، فاتجه الى الصعلكة حتى كان من أبرز الصعاليك وأشهرهم على الاطلاق فتياتهم ، فاتجه الى الصعلكة حتى كان من أبرز الصعاليك وأشهرهم على الاطلاق صابا سخطه ونقمته على كل الناس ممثلين في بني سلامان ، وموجز وصفه أنسه شخصية فذة لامعة ، قسمت عليها الظروف حتى بغضت اليها ألمياة ،

وخلال وحدته وتشرده في الصعلكة قال هذه اللامية ، وهي ثمانية وستون بيتا ، فجاءت القصيدة مطابقة كل المطابقة لشخصيته بما فيها من مقومات، وعقليته بما فيها من عمق ونضوج وظروفه بما فيها من قسوة وجفاف ، حتى كان القصيدة مرآة صقيلة نرى فيها الشسنفرى وحياته بوضوح وكما وصسف الشنفرى بأنه شخصية فذة لامعة ، كذلك وصفت اللامية بأنها قصيدة فسذة لامعة كما يقول كارل أنها فذة في مذهبها لامعة في وضعها بين القصائد ، وهسذا التطابق من أقوى الأدلة على أن اللامية من انتاجه ،

٢ - ظلت اللامية منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر مشهورة بانهــــا للسنفرى ، وقد تناولها كثير من أجلة الأدباء والنقاد بالشرح ، ولم يبــــدوا أى شك أو اشارة الى أنها نسبت لأحد من الشعراء غير الشنفرى ، ولم تؤثــر ني ذلك بدرة الشك التي وضعت في زمن خلف الأحمر ، بأن اللامية من وضع خلف وليست للشنفرى قان مثل هذه الآراء الضعيفة أو الفيزات الأدبية الطائفية شائعة في الأدب العربي حول كثير من الشعر ولكنها لم تؤثر في الاتجاه العام للنقــاد والأدباء بمعنى أن كثيرا من القصــائد غير اللامية نسبت في رأى ضعيف أو في اشارة عابرة الى غير شاعرها ، ولكن شهرة القصــيدة في أسبتها لقائلها ومعرفة عامة العلماء لمصدرها ورواتها ، لم يجعل لمثل هـــنده الآراء الضعيفة قيمة ولا تأثيرا في الاتجاه العام ، بل لم تكن هذه الآراء تحظي حتى بمجرد الشعيفة قيمة ولا تأثيرا في الاتجاه العام ، بل لم تكن هذه الآراء تحظي حتى القالى بأن اللامية من وضع خلف الأحمر ، فأن القالى نفسه وهو راوى هذا لم يعقب عليه ، ولم يحد فيما يبدو أنه يستحق المناقشة ،

⁽١) أنظر ترجبته ومراجعها بهذا البحث فسل (الشعراء المساليك : الجاهليون) -

وظل الأمر كذلك في شهرة اللامية بأنها للشنفرى ، وعدم التفات النقاد والعلماء الى ذلك الراى المسكك حتى جاء المستشرقون في العصر الحديث ، ومع ما أيدوه من اعجاب شديد باللاميه ، وأهتمام بالغ بدراستها ونفلها الى لغاتهم، الا أن بعضهم مثل كرنكو (۱) أثار الشك في نسبتها الى الشنفرى ، وجعل من هذا الشك موضوع دراسة واهتمام ، ويذكر أنه تتبع آراء قدامي اللغويين في شكهم هذا ، في حين أننا لا نعلم أن أحدا في تاريخ الأدب العسربي منالله المحلية نفي اللامية عن الشنفوى الا ابن دريد في رواية القالى من أن ابن دريد حدثه ان هذه اللامية لخلف الأحمر (۲) ، ولكن بعض المستشرقين لا يوافقسون بعضهم الآخر على في اللامية عن الشنفوى كما فعل صساحب تاريخ الأدب العربي (۳) مؤيدين بشدة أنها لخلف الأحمر فيما قرره ،

٣ - اقتفى بعض الباحثين (٤) أثر المسككين من المستشرقين ، مشيرا الى تأثره بهم ، وانتهى من حديثه عن اللامية بأنها ليست للسنفرى ، وانسا هى خلف الاحمر ، مع انه اعترف بأن النقاذ والعلماء والشراح العرب فى كل العصور نسبوها الى الشنفرى دون شك أو اشارة الى أنهم يشكون فى نسبتها الى أحد غير الشنفرى ، وأنه لم تشذ عن هذا الاجماع الا رواية ابن دريد ، وحصر أدلته على أن اللامية ليست للشنفرى فيما يأتى : -

- (ب) الأصفهانى فى أغانيه ، ولسان العرب ، على كثرة حديثهما فى شــــعر الصعاليك أغفلا ذكر اللامية فلم يرد لها ذكر فى أحدهما ، ولم يستشهدا شيء منها *
- (ج) اللامية تبلغ ثمانية وستين بيتا (٥) وهى فى طولها هذا لا تتفق مع شعر الصعاليك من حيث أنه يعتبر فى مجموعه شعر مقطوعات مع أنه اعترف بأن للشنفرى قصيدة أخرى تبلغ خمسة وثلاثين بيتا (٦) وأنها أطول ما ورد من شعر الصعاليك ، وأضاف الى ذلك قلة الاضطرابات فى الفاظها

⁽۱) دائرة المعارف الاسلامية الألمانية ٤/٣٣٥ كسا ذكر كادل في تاريخ الأدب العربي ترجمة النجار ١٠٥/١٠٠

 ⁽۲) أمانى القالى ١/١٥٥ وصاحب تاج العروس مادة (آم (ينسبها الى تأبط شرا وواضع منه أنه ليس غير مقصود به الرواية •

۳) کارل بروکلمان ۱/۱۵۵۱

⁽٤) أعنى به الدكتور يوسف خليف في الشعراء الصعاليك ص ١٧٧ - ١٧٩٠٠

⁽٥) هي في رواية القال في الأمالي ٦٧ بيتا نقط ٠

⁽٦) مي قميدة تاثية بالمنضليات من ١٥٨ ومن ٣٦ بيتا وليس العدد كما ذكر من اله ٣٠٠.

وترتيب أبياتها بين الروايات بخلاف شعر الصعاليك ، وأضاف أيضا ما لاحظه كرنكو من قلة أسماء المواضع والاشخاص فيها ، وهي بذلك تخالف الشعر كله •

(د) ختم حديثه هذا بأن اللامية لحلف الأحس ، وأن خلفا صدور فيها حيساة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا حتى يصبح أن نطلق عليه لامية الصعاليك أو دنيا الصعاليك ، هذه الأربعة مستندات هذا الرأى ، وحين نأتى الى مناقشتها نقول : أما الدليسل الأول عن أبن دريد وقرب عهده من خلف وسلسلة تلاميذه ، فيرد عليه بعدة نوح ، منها أن القالى نفسه وهسو الذي روى هذه الرواية عن أبن دريد ، معاصر لابن دريد حيث يقسسول « حدثنى أبو بكر بن دريد أن القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التي أولها .

اقيموا بني أمي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميسل

له .. يعنى لخلف الأحس .. وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة ، (١) وهذا في سياق حديثه عن خلف حيث يقول قبل هذه الرواية مباشرة : قـــال أبو على : كان أبو محرز أعلم الناس بالشعر واللغة ، وأشعر الناس على مذاهب العرب ، ثم ساق روايته عن أبن دريد .

ومن نص رواية الفالي نستنتج أكثر من ناحية ، منها أن نسبة اللاميــة للشنفرى كابت معروفة للقالى حيث يقول د القصيدة المتسوبة الى الشنفرى، ومنها أن رأى ابن دريد كان أول شك أثير حول نسسبة اللامية الى الشنفري حيث لم يتحدث القالي عن شك آخر ولا عن رأى آخر يظاهر رأى ابن دريد في شكه ، ومعنى ذلك انه حتى حياة لقالى وابن دريد كان العرب مجتمعــــا ورواة وعلماء متفقين على أن اللامية للشنفرى دون أي شك في ذلك ، ومنها أن الرواية نفسها تحمل طابع الضعف وتوحى بعدم الصحة ، لأن الرواية بدون ســـــند فلم يحدثنا القالى أنه أبن دريد روى هذه الرواية عن أحد ، مم أن القالي من أدق العلماء في التزام سلسنلة الرواة فهو يلتزم دائما عدا حديثه المشافه مع معاصريه أن يذكر سلسلة الرواية كاملة ، ففي الرواية السابقة لهذه الروايسة مباشرة مثلاً يقول وحدثني أبو بكر بن الانباري قال حدثنا أبو عبد الله ابن أحمد البصرى المقدمي قال حدثنا الرياشي قال حدثنا محمد بن عبد الوهاب الثنقفي قال: دخلنا على خلف الأحسر تعوده في مرضه الذي مات فيه ٠٠ النم، ففي هذه عن اللامية على قوله « حدثتي أبو بكر أبن دريد ، ولم يذكر المسدر الذي استقى منه ابن دريد روايته .

وقد يسال سائل : فما نقول ني هذه الرواية ادْن ؟

والجواب أننا لا نفترض كذب القالى فائه من العلماء الثقات ، ولا ابن دريد

٠ (١) الأمالي ١/٥٥١ -

كذلك ، وأنما الأمر بالنسبة للقالى أنه ينيغي أن نرجع الى سياق الرواية ، فأنه أوردها في سياق حدينه عن أبي محرز خلف الأحس ومقدرته الشمرية ، فكان من الطبيعي أن يذكر كل ما يعلمه عنه ، وكل ما ينسب اليه حقا أو غير حق ، وعلى غير المحق ان يتحمل تبعة جوره ، وكان مما يعلمه ما سمعه من ابن دريد ، فلا بأس عليه أن يذكره ، وعلى ابن دريد أن يتحمل تبعته ، وقد يقسال انه كان على القالي أن يبين رأيه في هذه الرؤاية ، فنقول : أنه وأن لم يصرح برأيسه الا أنه عرض به بأكثس من طريق ، منها انه ترك رأى ابن دريد خسلوا من تأييد أو تدعيم مما يوحى بضعفه • ومنها أنه صرح خلال الرواية نفسهــــا بأن القصيدة منسوبة الى الشنفرى ، ومنها وهو الأجم انه بينما ذكر حسده الرواية في الجزء الأول من أماليه ، عاد في الجزء الثالث فنسبها للشنفوي دون أي اعتبار لهذه الرواية أو اشارة اليها ثم ساق القصيدة كاملة (١) ومعنى هــذا أنه مقتنم بأن اللامية للشنفري دون شك منه ، وانه انما ذكر رواية ابن دريد عن نسبتها لخلف لمجرد الأمانة العلمية في ذكر كل ما يعلمه عن شخص وان لم يكن مؤمنا به ، ولست أدرى لماذا لم يذكر أحد من الباحثين أن القالي ســـاق النسبة •

وأما عن إبن دريد ، فاننا لا نغترض اختلاقه للرواية ، مع أن في أخباره على شهرته بالعلم الواسع ما ينزل به ولو قليلا عن ثقة العلماء من حيث الصلاحية لدقة الرواية ، فمن ذلك ما يروى البغدادى أنه « كان مواظبا على شرب الخمر » وكان يلقى الناس وهو سكران (٢) ، ومع ذلك لا نفترض كذبه ، وإنها ينبغى أن ننظر الى التيارات الأدبية والعنصرية المعاصرة له ، فابن دريد عاش في صدر العصر العباسي ، وعاصر الخليفة المقتدر ، وحينذاك كانت العصبية الطائفية بين العرب والفرس قد بلغت أوجها ، همذه العصبية التي برزت الى الوجود منذ الفرب والفرس قد بلغت أوجها ، همذه العصبية التي برزت الى الوجود منذ الفتوحات الاسلامية ، وأن كان بعض الماحثين يرجعها الى الجاهلية (٣) وتمثلت عند العرب تتضع فيه على يدى بشمار ثم اكتمل نضجها في عصر أبي نواس ضد العرب تتضع فيه على يدى بشمار ثم اكتمل نضجها في عصر أبي نواس وزملائه ، حين فتح العباسيون أبوابهم وقلوبهم على مصاريعها للفرس ، فتكتلت القوى الفارسية ضد العرب ملتفة حول البارزين منهم كالبرامكة ، وفي حياة ابن دريد الذي ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ومات سنة أحدى وعشرين وثلثمائة كانت هذه العنصرية في قمتها ، وكان يهم الفرس أن يحشدوا أكبر وثلثمائة كانت هذه العنصرية في قمتها ، وكان يهم الفرس أن يحشدوا أكبر عدد عن شعرائهم ينافسون بهم الشعراء العرب ، وأن ثم يستطيعوا ذلك فلا أقل عدد عن شعرائهم ينافسون بهم الشعراء العرب ، وأن ثم يستطيعوا ذلك فلا أقل

⁽١) الامالي ٣/٥٠٦ ولم يشر أحد من الباحثين الى ذلك .

⁽٢) أنظر خزانة البقدادي ٢٧٨/٢ ، ٢٨٩ -

⁽٣) أنظر الصراع الأدبى بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب ــ المكتبة الثقافية ٩٢

من أن يحاولوا نسبة أكبر قدر من الشعر الموروث وخاصة جيده الى أحد شعرائهم، وإذا لاحظنا إن خلفا الاحمر كان من الموالي (٤) اي من غير العرب ، فلا نستبعد أن أحد المتعصبين من الفرس في زمن ابن دريد نفس على العسرب أن يكون في شعرهم قصيدة لامعة فذة كاللامية فزعم لابن دريد أنها خلف الأحس لينفيها عن. العرب ، ويثبتها لشاعر فارسى الأصل هو خلف ، وأخذ ابن دريد الكلمة بحسن نية ولم يسأل صاحبها عمن روى عنه ذلك ، لشهرة خلف حينداك بالوضع ، أو لعل ابن دريد من باب أمانة النقل كما فعل القالي قال لتلاميذه في أتناء الدرس - ومنهم القالي (٢) - كل ما سبعه عن خلف ومقدرته في الوضع ، ومن ذلك هذا الخبر عن اللامية ، على أننا لا ينبغي أن نظـلم ابن دريد ، فعلى فرض أنه قــال ذلك لتلميذه القالى نقول : انه لو كان لهذا الحبر اعتبار في نفس ابن دريد لساقه في مؤلفاته التي عدد البغدادي تسمعة منها ، ولنقل تلميذه القالي عنها ذلك ، لأن القالي غاش بعد أستاذه ابن دريد نحو خمس وثلاثين سنة ، حيث توفي ابن دريد سنة ٣٢١ هـ والقالي سنة ٣٥٦ هـ . وبعكم كونه أولي الناس بمعرفة مؤلفات أستاذه ، والاطلاع عليها ، على أننا لا نجد فيما وصل الينا من كتب ابن دريد كالاكتشاف والجمهرة أثر لهذه الرواية ، ولم ينقل صاحب البحث الذي مناقشه شيئا من ذلك ، وكذلك المستشرق الذي تأثر الباحث به ٠

واذن فكل ما يسكن أن نتصوره في هـــذه الرواية أنها مجرد محــاولة المتشكيك، لا نجد ما يدل على أن ابن دريد نفسه أو القالى تأثر بها أو اقاما لها وزنا ونرجح أن مصدر هذه المحاولة كما قلنا نزعة التعصب العنصرية من جانب بعض الفرس، ليسلبوا من الأدب العربي درة من أبرز درره، وينسبوها الى بعض طائفتهم، وقد يدعونا هذا الى التريث في قبول كل ما نسبب الى خلف الأحمر، أو اتهم بوضعه، لرده الى المكان الصحيح، ومما يدل على أن بين هذا التشكيك في اللامية وعصبية الفرس صلة، أننا نجد الطغرائي الذي جاء بعد ابن دريد بأقل من قرنين، حيث توفي الطغرائي سنة ٥١٥ هجرية، أظهر وهو فارسي غيرة الفرس من لامية العرب فوضع قصيدته المشهورة، وسماها لامية العجم (٣)، ردا على لامية العرب فوضع قصيدته المسهورة، وسماها لامية ويبدو أن الطغرائي حين وجد أن التشكيك في لامية العرب لم ينجح عمد الى محاربتها بطريق المنافسة والمعارضة، وفي تسميته قصيدته بلامية العجم ما يحمل محاربتها بطريق المنافسة والمعارضة، وفي تسميته قصيدته بلامية العجم ما يحمل مذا المعنى، وفيه اعتراف ضمنى بأن لامية المرب للشنفرى، لأنها لو كانت هذا المعنى، وفيه اعتراف ضمنى بأن لامية المرب للشنفرى، لأنها لو كانت عذا عن الدليل الأول من أدلة البحث الذى تناقشه، وأما الدليل الثاني هذا عن الدليل الأول من أدلة البحث الذى تناقشه، وأما الدليل الثاني

۲۹۳/۱ مو مولی الاضمریین ۱ انظر هامش البیان والتبیین ۲۹۳/۱ .

⁽٢) خزانة البغدادي ٢٨٨/٢٠

⁽٣) أَنظر الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدى •

⁽٤) انظر فهادس الكتب بدار الكتب المصرية حتى آخر مايو سنة ١٩٢٦ ص ٢١٤

وهو أن الأصفهاني وصاحب لسان العرب على كثرة ما ذكرا من شعر الصعاليك لم يتعرضا للامية ، ومعنى ذلك أنها ليست للصعاليك ٠

وللرد على ذلك نقول: أماعن الأصفهاني ، فانه في أغانيه سيطرت عليه نزعتان ، احداهما جعلها عنوانا للكتاب ، وتحدث عنها في مقدمته ، وهي الحديث عن أصوات الغناء ، وما يتغنى به من الشعر ، حيث جعل ذلك هدفا ، وما سواه فتهم واستطراد ، والاخرى ولوعه بغريب الأحاديث ، وطريف الأخبار والاحداث، ولم تكن اللامية من هذا ولا ذاك فلم يجد ما يدعوه الى الحديث عنها ، فضلا عن أنه لم يلتزم قط حين يتحدث عن شاعر أن يورد كل شعره ، أو حتى أن يعدد قصائده ، فلم يكن عليه بأس حين تحدث عن الشيفرى أن يذكر بعض شعره دون -البعض الآخر ، فليس في ذلك دليل ولا ترجيح ، والشبهة الوحيدة التي كان يمكن أن تثار حول اغفال الأصفهاني للامية ، هي أن اللامية لم تكن موجودة حتى زمن الأصفهاني ، وأنما اخترعت بعده ، ونسبت ألى خلف الأحمر ، لغرض من الأغراض ، كالعنصرية التي أشرنا اليها ، ولكن هذه الشبهة لا محل لها ، لأن السابقين للأصفهاني تحدثوا عن اللامية ، والمعاصرين له تحدثوا عنها ، ومنهم القالى الذى أورد نصها في أماليه ، والقالى معاصر للاصفهاني ، بل تصادف أن توفيا في عام واحد ، هو سنة ٣٥٦ هـ (١) والقالي يذكر أنها منسوبة للشنفري أي من قبل ذلك على أننا يمكن أن نتجساوز ذلك الى القسول بأنه لو فرض أن الأصهفهاني نفي اللاميه صراحه عن الشنفري ، أو نسبها صراحة ال خلف أو غيره ، لم يكن ذلك بالحجه التي نطمئن اليها ، لأن الأصفهاني لم يكن موضع الثقة بين العلماء في أخباره ورواياته (٢) وولعه برواية كثير من الخرافات في أغانيه يؤيد ذلك •

وأما عن اغفال لسان العرب الاستشهاد باللامية فنقول: أولا لم يقلل صاحب البحث الذي نناقشه انه استقصى لسان العرب كله ، وعلى فرض أن اللسان خلا من الاستشهاد باللامية فليس في ذلك دليلل ولا ترجيح ، لأن صاحب اللسان لم يقل انه قصر استشهاده على شعر الصعاليك ،حتى نحاسبه على خلو شواهده من أبيات اللامية ، وحتى لو قال ذلك ، فليس في اغفاله للامية دليل أيضا ، لأننا حينئذ سنقول أيضا : هل قال اننى ذكرت كل شعر الصعاليك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لو فرضنا أن اللامية لحلف الأحمر ، فلم اغفلها ولم يستشهد بأبياتها ؟

ومن هذا نرى أن هذا الدليل من الوهن بحيث لا يفيد تدليلا ولا ترجيحا أيضا على أننا أبضا لو فرضنا أن صاحب اللسان نفى اللامية عن الشنفرى أو

⁽١) أنظر ترجمة كل منهما في صدر كتابه ٠

⁽٢) أنظر آراء كثير من العلماء في تجريحه بترجمة المؤلف في صدر كتاب الأغاني .

نسبها الى غيره لم يكن ذلك حجه ولا دليلا ، فهدفه وهدف غيره من آصحاب المعاجم شرح الالفاظ ، ونقل آراء العلماء فيها ، وهم فى هذا يس موضع نجريح ، ولكن بالنسبة للروايات يختلف الوضع ، حيث لا يلتزم كثير منهم الله ، فمنلا حينما يتعرض أحدهم لئرح لفظ ، نجد ذهنه منصبا على هذا الشرح ، فاذا خطر فى ذاكرته بيت شعر استعمل هذا اللفظ ، ساقه شارحا استعمال هذا اللفظ ، غير مهتم كثيرا بقائل هذا البيت ، لأن ذهنه منصب على شرح اللفظ ، ومنهم صاحبا اللسان والقاموس ، كما عدا تأبط شرا والشنفرى من الأغربة الاسلاميين (۱) ، مع أنه لا خلاف فى أنهما جاهليان ، وكنا نسب صاحب تاج العروس اللامية الى تأبط شرا ، مع أن ذلك لم يقل به أحد قط (۲) ، على أن هناك كتبا أخرى من أمهات المراجع استشهدت بأبيات اللامية ، ولم تبد شكا فى نسبتها للشنفيرى ،

وأما الدليل الثالث من أدلة البحث الذي نناقشه ، فللرد على النقطة الأولى منه ، وهي أن طول اللامية غير مألوف في شعر الصعاليك وأن أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، تبلغ خسسة وثلاثين بيتاً وهي تأثية الشنفري (٤) ، وما عداها من شعر الصعاليك يعتبر في مجموعه شعر مقطوعات للرد على ذلك نقول: أن الدليل نفسه يتضمن الرد عليه • ففيه اعتراف بأن الشنفرى صاحب أطول قصيدة وردت من شعر الصعاليك ، ومعنى ذلك أنه أطولهم نفسا في الشمر ، وأقدرهم على انتاج المطولات ، فكيف نستبعد أن ينتج قصيدة تبلغ ثمانية وستين بيتا مع اعترافنا بأنه أطولهم قصيدا ؟ والذي ينتج قصيدة تبلغ ستة وثلاثين بيتا ، كيف لا يستطيع أن ينتج الثمانية والستين ونضيف الى ذلك أن الثمانية والستين بيتا لا تعتبر في عرف رواة العرب ونقادهم طويلة ، ولا يصفون مثلها بأنها من المطولات، أما التي يصفونها بأنها طويلة فمثل قصيدة النابغةالجعدي التي تبلغ مائتي بيت (٥) ، وقصيدة ابن دريد التي تسمى المقصورة وتبلغ مائتين وتسعة وثلاثين بيتا (٦) ، أو ما كان قريبا من ذلك ، أو على الأقل أطول مناللامية بكثير ، كالقصائد السبع الجاهليات (٧) ، أما الثمانية والستون بيتا كلامية العرب ، فلا تعتبر في عرفهم من المطولات ، الا بالاعتبار النسبي ، أعنى بالنسبة الى القصار ، وأن لم يكن هناك ما يمنع من وصفها بالطول •

على أننا لا نسلم باطلاق حكم المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين الذين

⁽١) مادة (غرب) ٠

⁽۲) مادة (آم ـ) •

⁽٣) أنظر ٦/٢٧/٦ (أصوات القوس) •

⁽٤) هذه التائية بالمغضليات ص ١٠٨ وهي ٣٦ بيتا ٠

۴(۵) خزانة البغدادي ۲۱۹/۲ •

⁽٦) المصدر السابق ٢٨٧/٢٠

⁽٧) أنظر شرح التصائد السبع الطوال لابن الأنباري •

مم موضوع البحث المذكور فقد وردت لهم قصائد كثيرة يمكن ان تسميها بعرفنا طويلة ، فمن ذلك عينية مالك بن حريم ، وتبلغ أربعين بيتا (١) وراثيه عروة بن الورد ، وتبلغ نحو أربعين بيتا (٢) وعينية قيس بن منقذ وهي أربعة وأربعون بيتا وكلهم (٣) صعلوك جاهلي ، وقصيدة عبدة بن الطبيب تبلغ واحدا وثمانين بيتا (٤) مع أنه مخضرم قضي معظم حياته في الجاهلية يتلصص في الرباب .

فلامية العرب اذن ، لا مي بالطويلة طولا غير عادى ، ولا هي الوحيدة التي تجاوزت حجم المتطوعات بين شميس الصعاليك ، ولا هي الوحيدة الطويلة بين شمير صاحبها .

وأما غلبة شعر المقطوعات على شعر الصعاليك الجاهليين ، فذلك لضعف الرواية واضطرابها في هذا العصر ، وكثير من الشعر الذي وصل الينا يبدو أنه مبتور من قصائد ، ضاع معظمها ولم تصل الينا منها الا هذه الأبيات المبتورة ، وخصوصا ما ورد من الشعر الذي عاش أصحابه في زمن قريب من الاسلام أما الذين عاشوا في زمن أبعد من ذلك ، فاذا رجعنا الى الروايات وآراء العلماء لا نجد غرابة في هذه المقطوعات ، فهم يروون أن الشعر الجاهلي بدأ بالمقطوعات ، وأن أول من قال قصائد كاملة هو مهلهل بن ربيعة ، وأنه لم يقل شاعر قبله عشرة أبيات كاملة ، وأنه سمى مهلهلا لأنه هلهل الشعر أي رققه (٥) ويروون أن عنترة لم يكن يقول الا البيتين والثلاثة ، حتى خاصمه رجل وسابه ، فقال قصيدة ، ثم درج على انشاء القصائد (٦) .

فالنقاد اذن يرون أن الشعر الجاهلي بدأ بالقطوعات ، ومن الطبيعي أيضا أن يبدأ كل شاعر حياته الشعرية بالقطوعات ، وخاصة في الجاهلية التي لم يكن الشعر فيها يرتبط بغرض معين يدفع الشاعر الى الشعر ، الا غرض واحد ، هو التعبير عن انفعاله هو ازاء مشاعره الشخصية ، وانفعاله بأمر من الأمور ، واذا أضفنا هذا الى ما هو معروف من أن التاريخ والرواية وجمع الشعر لسم ينضجن الا مع الاسلام ، أو قبله بقليل ، لم يكن غريبا أن نجد المقطوعات شائعة في الشعر الجاهلي كله ، وخاصة شعر الصعاليك الذي كان أصحابه بحكم حياتهم أقل اختلاطا بالمجتمعات والرواة .

ولكن ذلك لا يؤثر قط في حديث اللامية من حيث ما يريدونه ، فقد قيلت

⁽١) الاصمغيات ص ٥٦ .

⁽٢) انظر ديوان عروة بن الورة بشرح ابن السكيت ص ٩٣ ، ٩٣ ٠

 ⁽۱) الطر ديون فروه بن حود بري ...
 (۲) مو قيس بن العدادية انظر الأغاني ١٤٤/١٤ – ١٦١ ..

⁽٤) المفضليات للفنبي ص ١٣٤ -

⁽٥) أنظر خزانة البغدادي ٢٣/٢/وأعجب المجب شرح البيت ٢٩٠٠

⁽٦) المصدر السابق ١/٨٨ ٠

قصائد أطول منها ، وأسبق منها زمنا ، ولم تكن اللامية القصيدة الوحيدة الطويلة بين شعر الشنفرى ، ولم يكن هو الصعلوك الوحيد الذى قال قصائد طويلة فى الجاهلية كما قلنا ،

واما عن النقطة الثانية من هذا الدليل . وهي قلة الإضطراب في الفاظها وترتيب أبياتها مما يخالف شهر الصعاليك ؛ فنقول : ان الواقع غير ذلك ، وحين نرجع الى المقارنة بين روايات شراحها وتاقليها نجد بينهم اختلافا كثيرا ، ان لم يزد عن مستوى الاختلاف في الشعر الآخر للصعاليك فلن يقل عنه ، ويكفى المهمال أن نختار عالمين من أدق العلمساء في الرواية ، هما أبو على القهالى ، والزمخشرى ، ومع دقتهما المشهورة نجه اختلافا بين روايتيهما للامية في الأمالى (١) وأعجب العجب في شرح لامية العرب (٢) سواء من حيث الالفاظ أو من حيث الأبيات ، ففي الألفاظ نجد بينهما اختلافا في أكثر من ثمانية وعشرين موضعا مع التجاوز عما يظن أنه من أخطهاء المطابع ، وهي على وجه التحديد حسب الترتيب الآتي عن رواية الأمالى هن في الأبيات الأول والثاني والسادس والثاني عشر والثامن عشر والثاني والعشرين ، والبيتين اللذين بعده والثامن والتاسع والعشرين والثاني والخامس والأربعين والذابعين والواحه والثلاثين والذي بعده والثامن والخمسين والذي بعده والرابع والخمسين والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والدائم والخمسين والذائم والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والذي بعده والدائم والخمسين والذي بعده والدخمسين والذي بعده والدخمسين والذي بعده والدي بعده والديد بعده والديد

هذا عن الاختلاف في الألفاظ ، وأما عن الأبيات ، فان القالي رواها سبعة وسنين بينا ، بينما رواها الزمخشري ثمانية وسنين .

وهذا الاختلاف يدل على أن الزمخشرى نقل عن رواية أخرى غير الأمالى ، لأن الزمخشرى جاء بعد نحو قرنين من القالى ، فالقالى ولد سنة ٢٨٨ هـ وتوفى سنة ٣٥٦ هـ بينما ولد الزمخشرى سنة ٤٦٧ هـ وتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

فالقول اذن بأن اللامية لم يصبها ما أصاب شعر الصعاليك من الاختلاف ، لا يتفق مع الواقع ، ولا يصلح دليلا •

وأما النقطة الثالثة من هذا الدليل ، والتي نسبت الى كرنكو ، وهي قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها مما خالفت به المالوف في شهم الصعاليك ، فنقول عنها : أن في هذا القول بعدا عن النقد الموضوعي ، فليست أسماء الأماكن والأشخاص منحا لا بد أن يضاف الى كل طعام ، وأن تحشا به كل قصدة ، وائما ينبغي أن نسأل : هل كانت اللامية تقتضى ذكر الأماكن والأشخاص فخلت

⁽۱) آمالي القالي ٣/٥٠٧ _ ٢٠٨ •

⁽۲) للزمخشري ٠

منها ؟ بل ، هل كانت تقبل استعراض اسماء الاماكن والاشــخاص . والواقع يجيب بلا ، فسياق اللاميه وموضوعها ينحصر في تصوير تفسيه انسان ساخط، هجر حياة المجتمعات ليحيا حياة يرسمها هو لنفسه كما يريد ، وقد رسمها في صورتين أو صورة واطار حول هذه الصورة ، فأما الصورة فهي الصعلكة ، بما تنطلبه حياتها من أسلحة ، ومن صفات معينة في مزاولها ، وأما الاطار فهـ له المعقل ، أو الصحراء التي يزاول منها صعلكته بما تحويه الصحراء حوله من مناظر وطبيعة وحيوان ، فهذه العناصر الثلاثة ، السخط ، وحياة الصعــلوك والبيئة المحيطة به ، هي كل ما تشتمل عليه اللامية ، وقد وفت اللامية بأغراضها الثلاثة كاكمل مايكون الوفاء وأدقه وأبلغه ، بل وفت بغرضها في درجة لا يتصور أن تربو عليها شاعرية أخرى أن بلغتها ، وفوق هـذا فهي لم تتطرق الى أى غرض فرعى بل التزمت الوحدة بكل ما تعرفها بها مذاهبها ، من وحدة نفسية أو عضوية أو موضوعية أو فنية (١) •

و بعد ذلك نسال : ما الحاجة الى أسماء الأشخاص والأماكن لدى شخص سخط على الناس فهجرهم متعمدا أن يعيش بين الوحوش ، كما فعل الشنفرى ؟ فهو ان كان فى حاجة فالى اسماء الوحوش التى يعيش بينها لا الى أسماء الناس الذين هجرهم الى غير رجعة ، وقد ذكر فعلا من أسمائها كل ما يمكن أن يزاد السان فى الصحراء •

واذن فهذه النقطة لا تتفق مع النقد الموضوعي للقصيدة بل توحي بنوع من المس الاتهام في شيء من تحامل النقد وأما الدليل الرابع من أدلة صاحب البحث الذي نناقشه ، والذي جعله في صورة نتيجة لأدلته السابقةعليه، وهو أن خلفا الأحمر صور في هذه اللامية حياة الصعاليك تصويرا رائعا ممتازا عن طريق تمثل حياة الصعاليك وشعرهم ، فنقول عنه : أنه من الغريب أنه كان ينبغي أن يصل به هذا المعنى الى الحكم أو الترجيح بأن اللامية للشنفري ، ولكنه وصل به الى عكس ذلك فحكم في بساطة بأن اللامية لخلف الأحمر ، وذلك أن التصوير الرائع الممتاز لحياة الصعاليك بالذات ، لا يتصور أن يصدر من شخص غير صعلوك ، بل غير أصيل في الصعلكة فليست حياة الصعاليك قصرا مزخرفا يمكن لأي شاعر أن يتجول فيه أو يتمثله فيصفه ، كما وصف البحتري ايوان يتعرضون له من أخطار الناس والوحوش ودواب الأرض ، وما تقع عليه أعينهم يتعرضون له من أخطار الناس والوحوش ودواب الأرض ، وما تقع عليه أعينهم في مجاهلهم من مناظر قد لا يتاح لغيرهم أن يراها ، وما يسلكونه أو يتعرضون له من أخطار الناس والوحوش ودواب الأرض ، وما تقع عليه أعينهم له من مواقف رهيبة في تصعلكهم وأثر ذلك كله في نفوسهم ، كل ذلك لا يتصور أن يصفه وصفا « رائعا ممتازا » شخص يعيش في أحد الأمصار بين مجتمع وادع أن يصفه وصفا « رائعا ممتازا » شخص يعيش في أحد الأمصار بين مجتمع وادع

⁽١) أنظر النفد الأدبى الحديث للدكتور عنيمي هلال ٤٠١ ــ ١١٤ وآراء واتجاهات للدكتور محمد نايل ٥٢ ــ ٧٠ -

مطمئن ، من مجرد تمثله لحياة الصعاليك واشعارهم ان ما صورته اللامية عتى أثر الطبيعة في يردها الذي يدفع الصعلوك إلى أن يحطم قوسه ليوقدها ويستعوه بها ، وحرها الذي أيديب اللواب وتتمليل منه افاعي الصحراء ، ومطرعة اللهي يوحل الرمال فيجعلها غطشا وبغشا كما تقول أبياتها ، وما صورته من حيسة حيوان الصحراء ومناظرها لا يتصور قط أن يصدر الا عن شخص عاش قي حقم البيئة عيشاً طويلا ، وانفعل نهذا الميش انفعالا شديدا ، والذي يلفت التنظي في صور اللهية أنها مثلا حينها تتحدث عن حيوانات الصحراء ووحوشها لا تصعالل مجرد وصفها كالمالوف في الشعر ، وانما تلجأ الى تصوير معيشة هذه البحيواتات وحياتها مع علاقة ذلك بالصعلوك الذي يعيش في بيئتها ، وكان اللامية لا تعتب وصف هذه الخيواثات، ولا وصف مناظر الطبيعة ، وانما تتحدث عن المسلول وحياته ، فتربط به بطريقة غير مباشرة كل ما يحيط به من برد وحس وسلر وعيون ميام ، وعوالم من الحيوانات لكل منها معيشته وأسلوبه في الحياة .. فخشرم النحل ـ رئيس جماعة النحل - ورعيته من النحل ، لهن حياة ودقاع عن نتاجهن من العسل عجيب ، والأزل من الذئاب حين يجوع فيجمع عصايته من ذثاب شيب الوجوه كانها قداح ، والقطا في سباقها الى الماء وتهافتها عليم ثم انصرافها مسرعة كانها ركب مجفل من أحاظه ، وصورة الصملوك في مكمنه وجو يراقب الطريق جمينين كعيني الأفعى ، ويضمحن في صورته كابنة الرمسل (١) المترقبة المتوثبة ، وغير ذاك من التصوير الذي نعود فنقول أننا لا نتصور شاعرية تربو عليه أن بلغته ، والشيء الذي أنفردت به اللامية فوق جودتها البالغة والقي اشار اليه كارل برو كلمان في سياق أعجابه باللامية هو أنها لا تلجأ الى المحديث عما تعرض له أو تصوره لذاته وانما تركز على النظرة الى هذا الشيء من خلال نفسية صاحبها وارتباط هذا الشيء الذي تتخذه موضوعا بصاحبها وحياته -وكل ذلك غير مستطاع الا لشخص يجتمع فيه أمران ، أحدهما التكيف مع حياة الصعلكة الى أبعد حدود التكيف ، والآخر القدرة على تصوير هذا التكيف الى أقصى حدود القدرة ، وهذان الأمران لم يكن خلف الأحمـــــر منهما في شيء ، وكات الشنفرى منهما كل شيء فتكيفه مع حياة الصعلكة ظاهر وقدرته على تصوير هذا التكيف لا يبدو في اللامية وحدها وانها نجده في شعره كله ، فحسين تدوس ما وصل الينا من شعره نعلم أن شاعريته لم تكن عظيمة في اللامية وحمما . وانها كانت عظيمة في مواضع كثيرة من شعره ، وميزة اللامية عن شعره أتها حمعت متفرقات عظمته أو متناثر إنها في لوحة كاملة ، فاللامية قريبة من شحر الشنفري ومنهج تفكيره قربا واضحا ، في حين أنها بعيدة عن شعر خلف ومتهج تفكره عل تلونه بعسدا واضعا أيضا كما يؤيد ذلك صاحب تاريخ الاحب العربي (٢) ، ومن هذا نرى أن الحديث كان ينبغي أن يصل إلى أن اللاسيسة

⁽¹⁾ Ibau. F.

⁽۲) کارل بروکلمان ۱/۰۱۰ .

للشيتقرى كما يقتضى منطق النقد ، لا خلف لما دهب صاحب البحث الذي ختافته.

ولسنا نريد من هذا الرد انكارا على باحث أن يبدى وجهة نظره أصاب أو أحطأ ، فالاجتهاد في حالى صوابه وخطئه غير ممقوت ، غاية الأمر أن الاجتهاد لا يتيقى أن يترك الطريق النيرة المستقيمة الى الدروب الملتوية المظلمة .

ولكن الذى بلفت النظسر أن يكون متعصبو الفرس فيما نرجع ، أول من يعاول سلب اللامية عن المنزع العربى في القديم ، وأن يكون متعصبو المستشرقين أول من يحاول احياء هذا التشكيك في الحديث ، والأشد غرابة أن هذا التشكيك سواء قديمه وحديثه لا يستند الى أى سند تاريخي أو فتى ، لأنه من حيثالتاريخ الم يعتمد على أية رواية الا كلمة ابن دريد ، وكلمة ابن دريد لا تعتبر من الوجهة العلمية رواية ، لأنه لم يذكر سندا لها ، ولا تعتبر رأيا لابن دريد ، لأنه لسم يسملها فيما بلغنا من مؤلفاته وكثير من موضوعاتها حول الشعر ونقده ، ومن حيث الوجهة الفنية لا نجد شبها أو تقاربا قط بين شعر خلف الأحمر واللامية ، ويتما تجد الناحيتين التاريخية والفنية تؤكدان أنها للشنفرى ، فقد اتفق العلماء في كل العصور وفي مقدمتهم القالي الذي روى كلمة ابن دريد على أن اللامية قسيتها للشنفرى ، يكفينا بالإضافة اليهم أن يجمع ثلاثة من صفوة العلماء والنقاد على الشنفرى ، يكفينا بالإضافة اليهم أن يجمع ثلاثة من صفوة العلماء والنقاد على الشنفرى ، وهم القالى (١) والزمخشرى (٢) والنويرى (٢) .

ومن الناحية الفنية يكفينا دليلا على نسبتها الى الشنفرى اعتراف المسككين التسميم بما بلغته من مقدرتها على تصوير حياة الصعاليك ، واعتراف البحث الذي تتاقشه بأنها صورت هذه الحياة تصويرا « رائعا ممتازا » •

وأظننا بعد عذا الحديث عن اللامية في حاجة الى ايرادها ، ولكننا مع ذلك تقول الله تذوق اللامية لا تكفى له القراءة العجلى ، وانما يحتاج الى تأن ودراسة ، وأيسر طا ينبغى الحرص عليه للاستمتاع باللامية وتذوقها أن نحاول فهم الفاظها ، فتكاد تكون هي الحائل الوحيد بين القارىء العادى وبين ظهوره على جوهر اللامية ، لغرابة كثير من هذه الألفاظ ، وهذا نص اللامية كما رواها أبو على التالى وأشير الى أهم ما بينه وبين الزمخشرى من خالف في الرواية مستعينا يشرح اللزمخشرى .

^{· 1.0/4 9/1/11 (4)}

العجب العجب في شرح الامية العرب •

۲۲۷/٦ تهایة الأرب ۱/۲۲۷ •

اقیمسوا بنی امی مسسدود مطیکسم فاني الي أهسل سنسواكم لاميل (١) فقد حبت الفاجات والليل معمسر وفي الارض منأي للكريم غست الاذي لعمرك ما بالارض ضيق على امسرى، ولى دونكم أهسلون سسيد عملس هــم الرهط لا مستودع السر شـــائع وكسل أبى باسسل غسير أنني وان منت الأيدى الى الزاد لسم أكن وما ذاك الا يسلطة عن تغضيل واني كفساني فقسد من ليس جازيا المسلالة اصحاب فاقد مسيع هتسوف من الملس الحسمان يزينها اذا زل عنها السهم حنت كأنها ولسنست بمهياف يعشى سوامه ولا جبسا أكهسى مبرب بعرسسه وهنا زاد الزمخشرى بيتا لم يذكره القالي وهو :

وشلت لطياني مطايا وارحل (٢) وفيها لمسن حاف القلي متعسول (٣) سری راغیا او راهیا وهو یعقسل (٤) وادقط ذهلول وعرفاء جيال (٥) لديهم ولا الجاني بما جر يحدل (١) اذا عرضت أولى الطـــرائد أبسل (٧) بأعجلهم اذ أجشم القوم اعجل عليهم وكسان الأفضسل المتغضسل بحسنى ولا في قسربه متعلسل وأبيض أصليت وصغراء عيظل(٨). رصائع قد نيطت عليها ومحمل (٩) مرزاة تكلى ترن وتعسول (١٠) مجسدعة سقيانها وهي بهسل (١١) يطالعها في شهانه كيف يفعل (١٢)

ولا خسرق هيق كسأن فسؤاده

يظل به الكاء يعلو ويسفل (١٣)

⁽١) في رواية الزمخشرى الى قوم سواكم ، والتفضيل في أميل على غير بابه أي ماثل .

⁽٢) حمت : تهيئات ، ومقمر : مضىء ، والعلية : الحاجة ، وأرحل جمع رحل ، ورواية الزمخشرى لطيات

⁽٣) المتمزل : مكان العزلة - -

⁽٤) رواية الزمخشرى ما في الأرض •

⁽٥) السيد الذئب وقد يسمى به الأسد • والعملس الذئب القوى السريع ، والارقط النمر والزهلول الأملس والجيال النسبع وعرفاء : طويلة •

٦) عند الزمخشري هم الأهل لا مستودع السر ذائع ٠

⁽V) يعتى مع توة عدم الوحوش وبسالتها قانا أبسل منها وأسرع الى المبيد ، والزمخشري يرى المواد بالطرائد القرميان المتسابقون للصيد ، وهو انسب لما بعده .

⁽٨) مشيع : كان له شيعة تناصره ، وأبيض أصليت : سيف صقيل ، وصفراه عطيل : قوس طويلة العنق •

⁽٩) الهتف الصوت واللاسئة النمومة ويبطت علقت والمحمل علاقة السيف وعدد الزمخشرى الملس المتونة (جمع متن وهو العملب) ونيطت اليها .

⁽۱۰) للزمخشري مرزأة عجلي وتعول من العويل ٠

⁽١١) المهياف السريع العطش والمجدعة المقطوعة الآذان والسقب ولد الناقة والباهل الناقة غير مصرورة ، يريد أنه لصبره على العطش يدخل صوائمه المراعي البعيدة •

⁽١٢) الجبأ الجبان والأكهى الأبخر والسء الخلق أد البليد ، والمرب الملازم لامرأته والشطر الثاني معناء لا يحرص على استشارتها -

⁽١٤) الخراق الدهش والهيق الظليم والكاء طائر يعنى لست هلوعا كالنمام ولا مضطربا كالعنائر •

ولا خالف داريه متقرل ولست بعدل شدره دون خديه ولست بمحيار الظلام اذا انتحت اذا الامعز الصوان لاقى مناسدى اذيم مطال الجدوع حتى أميت واستف ترب الأرض كى لا يسرى له ولولا اجتناب الذام لم يبق شدرب واغدو على الخمص الحوايا كما انطوت واغدو على القوت الزهيد كما غدا طاويا يعارض الريح هافيا فلما لواه القوت من حيث أمه مهلهلة شيب الوجدوه كانها او الغشرم المعسوث حثحث دبره

يروح ويغلو داهنا يتكحل (١) الف اذا ما رعته اهتاج اعزل (٢) هنى الهوجل العسيف يهماء هوجل(٢) تطاير منه قادح ومفلسل (٤) وأضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (٥) على من الطول امرؤ متطسول (٢) يعاش به الا لدى وماكسسل (٧) على الضيم الا ريثما اتحسول (٨) خيوطة مارى تغسار وتفتسل (٩) أزل تهاداه التنائف اطحل (١٠) يخوت باذناب الشعاب ويعسل (١٠) دعا فاجابته نظسائر نحسل (١٢) قداح بكفي ياسر تتقلقسل (١٢)

⁽١) الخالف الذي لا تخير فيه والداري الملازم لداره يعنى لست تافها منقطما للغزل والدهن والكحل •

۲۱) المل: القراد والمراد الرجل المسن الضغيل الجسم كالقراد والألف الماجن •
 واهتاج أسرع بحق •

 ⁽٣) المعيار المتحير وعند الزمخشرى اذا انتحت أى قصدت واعترضت والهوجل الرجل
 الطويل الأحيق والمسيف الجاهل واليهماء المتاهة من الصحراء والهوجل آخر الفلاة لا أعلام بها •

⁽٤) الا معز لكان الصلب كثير الحصى والصوان الحجارة الملس والمنسم في الأصل خف البعير يريد رجليه والقادح الشرر والمقلل الكسر •

⁽٥) المطال من الماطلة واذهل أنسى •

الطول الن •

⁽٧) عند الزمخشري لم يلف •

⁽٨) عند الزمخشري نفسا مرة وعلى اللـ أم

 ⁽٩) الخمص الجوع الشهديد والحوايا الأمعاء والخيهوطة السلوك ومارى رجل وعند الزمخشرى تخاط وتفتل •

⁽١٠) الإزل الذئب الخفيف الوركين والتنوفة المفازة والاطحل الأغبر اللون ٠

⁽١١) الطاوى الجائع والهائى الجائع أو السريع ويعوت ينقض ويمسل يمشى التحبب

⁽١٢) لواه مطله ودفعه وآمه قصده والنظائر الأشباه والنحل المهازيل *

١٣١) مهلهلة رقيقة اللحم والقدح السهم قبل أن يراش والياسر المقاهر .

⁽١٤) الحشرم رئيس النحل أو بيت الزنابير والمبعوث مسرع السير وحثحث حض والدبر جماعة النحل والمحابيص العيدان التى يجمع بها العسل ورداهن انزلهن والمسل جامع العسل وسام مرتفع وعند الزمخشرى أرداهن و وهو تصوير لقصة جماعة تحل وجدت خلاياها مهدمه "

مهرتة فوه كسان شلوقها فضيح وضعت بالبراح تأنها واغفى واغفىت واتسى واتست به شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وقاء وقاءت بالدات واكلها وتشرب أسآرى القطا الكلر بعلما فوليت عنها وهي تكبو لعقره فوليت عنها وهي تكبو لعقره كان وغاها حجورتيه وحووله توافين من شتى اليه فضمها فعبت غشاشا ثم مصرت كانها واعدل منعوضا كان فعصوصه واعدل منعوضا كان فعصوصه

شقوق العصى كالحات وبسل (١) وإياه نوح فوق عليا، ثكل (٢) أرامل عزاها وعزته ارمسل (٣) وللمبر أن لم ينفع الشكو أجمل (٤) على نكط مها يكاتم مجمسل (٤) سرت قربا احشاؤها تتصلصل (٥) وشمر منى فارط متمهسل (١) يباشره منها ذقون وحومسل (٧) أضاميم من سفل القبائل نزل (٨) كما ضم الزواد الأصاريم منهل (٩) مع الصبح ركب من أحاظة مجفل (١) بأهما تنبيه سيناش قحل (١١) كعاب دحاها لاعب فهى مشل (١١)

⁽١) مهرتة واسعة الاشداق ونوه مفتوحة الأفواه والشدق جانب الغم والكلوح التكشسير والمبوس ويسل كريهة الوجوه •

١٢) البراح الأرض العضاء والنوح جمع نائحة وثكل جمع ثكل وعلياء بقعة مرتفعة يعنى رئيس النحل وجماعته .

 ⁽٣) يعنى أن رئيس النحل وجماعته جمعهن الحزن الشديد على العسل كانهن فى مأتم
 وحين ينسئ من جدوى النواح أطرقن وتبادلن العزاء ، وأرامل جمع أرملة معروفة وعند الزمخشرى
 د مرامل عزاما وعزته مرمل » والمرمل الذى نقد زاده ومرامل جمعه .

⁽٤) قاء رحم وبادرات مسرعات ومجمل صانع الجميل وعند الزمخشرى نكظ بالظاء ولمله خطأ مطبعي في الأمالي والتكظ المجلة أو الجوع •

⁽٥) السؤر بقية الشراب والقرب السبير الى الماء على بعد ليلة وتتصلصل تصبوت وعليد الزخشرى أحناؤها تتصلصل والاحناء البوائي .

⁽٦) أسدلت أدخت أجتحتها والفارط المتقلم والمتمهل المثلد في أمره ، يعني مسابقة بينه وبن التطار الى الماء ٠

 ⁽٧) يعنى شرب قبلها قلم يترك للقطا الا سمورا في عقر الموض تكبو فيه لقلة الماء .

⁽A) وغاها أصواتها حجرتيه جوائبه والأضساميم جمع اضمامة الجماعة متفسسمين وعسد الزمخشري سفر التبائل أي مسافريهم •

⁽٩) ترقبن اجتمعن والذود ما بين الثلاثة والمشرة من الابل والاصاريم مجموعة الابل تحو الثلاثين والمنهل مورد الماه •

⁽١٠) العب شرب الماء من غير ممن وغشاشا مستمجلة وأحاطة قبيلة من اليمن والأولى اله مكان والركب قطيع وحشى •

⁽١١) الأهدأ شديد الثبات يعنى جساء وتنبيه ترقعه والسنا سن حروق قتار الظهر وقعل

⁽١٢) أعدل إتوسد ذراعا والمنحوص اليابس والنسوص المفاصل ودحاها بسطها .

⁽۱۳) تبتئس تحزن وعنسد الزمغشرى أم قسيطل بالسين وهو الفيار كتاية عن الحرب ، وفلمنى أن حزنت العرب المارقتى لها الآن ، نطالا سروتها قبل ذلك .

عقسية لأيهساحم أول (١) حثانا الى مكروهه تتغلفسل (٢) عيادا كعمى الربع أو هى اثقبل (٣) تثوب فتاتى من تحيت ومن عل (٤) على رقبة أحفى ولا أتنعبل (٥) على مثل قلبالسمعوالحزم أفعل (٢) ينال الغنى ذو البعلة المتبسلل (٧) سئولا باعقاب الاحاديث أنمبل (٩) واقطعه اللائى بها يتنبل (١٠) سعار وادزيز ووجسر وأفكل (١٠) وعلت كها أبدأت والليل أليل أليل (١٠) فريقان مسئول وآخر يسأل (١٢) فقلت أذئب عس أم عس فرعل (١٤)

طريد چنايات تياسرن خمسه تبيت اذا ما نام يقظى عيونها والف همسوم ماتزال تمسوده اذا وردت اصدرتها ثم انهسا فاما تريئي كابنة الرمسل ضاحيا واعدم احيسانا واغنى وانمسا ولا تزدهي الإجهال حلمي ولا ادى وليلة نحس يصطلى القوس ربها وليست على بغش وغطش وصحبتي فايمت نسسوانا وايتمت اللة فالوا لقد هرت بليسل كلابنسا فلسم يك الا نباة ثسم هومت

- (١) تياسرن لحمه اقتسموه ، والعقيرة اللحم ايضما ، والمنى كثرت جناياته فلا يدرى بايها يؤخله ،
 - (۲) عند الزمخشرى تنام يمنى الجنايات وحثاثا يمنى متعجلين •
- (٣) عياد مصدر عاد والربع من الحمى أن تأخذ الحمى يدما وتدع يومين ثم تجيء وكذلك
- (٤) وردت حضرت وأصدرتها رددتها وتثوب ترجع وتحيت تصفير تحت وعل من العلو .
- (٥) ابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقبة يريد مكان الترقب وعند الزمخشرى رقة أى
 - (٦) مولى العمير صاحبه والسمع ولد الذلب من الضبع والحزم مقبول مقدم
- (٧) اعدم افتقر والبعدة البعد والتبدل المجازف يعنى ينال الفنى من يتنقل مبعدا مجازفا
- (A) الخلة الفقر وعند الزمخشرى من خلة والتخيل من الخيلاء يعنى لا أظهر شعورى بالفقر
 ولا بالفني
 - (٩) تردمى تستخف والأجهال جمع جهل وعند الزمخشرى باعقاب الأقاويل ورجل نمل أى
- (١٠) النحس البرد واصطلى استدفا بالنار ووبها صاحبها والاقطع تصال السهام يعنىيستدفىء بقوسه وتصاله من البرد ٠
- (١١) الدعس الوطء والمغش المطر التقيف والغطش الظلمة وعند الزمخشرى على غطش وبنش والعار شدة الجوع والارذيز البرد والوجر الغوف والأنكل الرعدة
 - (١٢) الايم من النساء والرجال من لازوج له وأيتمت اليتيم والدة أولاد وأليل مظلم ٠
- . (١٣) عند الزمخشرى وأصبح التميصاء موضع يتجد يعنى أصبح أهل الحى الـذى غزوته قريقين مستول وسائل •
- (١٤) هرير الكلب صوته وعند الزمخشرى نقلنا أذئب والعس الطواف بالليل والغرعل وله
 الضبع •
- (٥٥) النبأة صوت وهومت نامت وربع آفزع للمجهول والأجدل الصقر وعند الزمخشرك ندم الع بالتاء شعر الصعاليك ١٧٧

فلن یك من جن لابرح طارقـــا ویـوم من الشــعری یلوپ لوابه نصبت لــه وجهی ولاكن دونه وفـات اذا هبت له الریح طــیرت بعیـد بهس اللهن والفل عهــده وخرق كظهر الترس قفر قطعتــه فائحقت آولاه باخراه موفیــا ترود الأراوی الصحم دونی كانهـا ویركن بالآصال حــول كاننی

وان يك انساماكها الانس تفعل أفاعيه في رمضائه تتململ (١) ولا ستر الا الاتحمى المرعبال (٢) لبائد عن أعطافه ما ترجال (٣) له عبس عاف من الغسل محول (٤) بعاملتين ظهره ليس يعمال (٥) على قناة أقعى مرازا وأمشال (٥) عسادى عليهن الملاء المذيال

من العصمأدفي ينتحى الكيح أعقل (٨)

منهج شعهم وموضوعاته

باستثناء الشذوذ الذى لا تخلو منه قاعدة أو حكم ، يمكن أن يقال ان شعر الصعاليك ليست له موضوعات معينة يتجه اليها اتجاها مقصودا ، ومع ذلك نجده يكاد يطرق كل الموضوعات المألوفة في الشعر العربي القديم على تفاوت في تعرضه لهذه الموضوعات •

وقد يبدو في هذا شيء من التناقض أو الغرابة ، ولكنها الحقيقة التي ينتهي اليها الدارس الناقد لشعر الصعاليك •

فشعر الصعائيك ، قصائده ومقطوعاته ، يغلب عليه نوعان ، نوع يحتوى على معان كثيرة رغم تقاربها ، وأغلب ما يكون ذلك في القصائد ، كلامية الشنفرى ولامية عبدة بن الطبيب ونوع يطرق معنى واحدا أو يدور حول معنى واحد ، ويغلب ذلك في المقطوعات ، وهي أكثر ما وصل الينا من شعر الصعاليك .

⁽١) للراد بالشعرى شدة الحو واللواب ما ينتشر في الجو مثل المنكبوت من الحر والرمض شدة وقع الشبس على الأرض •

⁽٢) نصبته أقمته والكن الستر والأتحمى ضرب من البرود والمرعبل المؤق ٠

⁽٣) ضاف سابغ واللبائد خصال الشعر بين الكتفين والأعطاف الجوانب وترجل تبشيط أي لا يستر. وجهى الا ثوب معزق وشعر غير مرجل •

 ⁽٤) العبس ما يتملق باذناب الإبل من أبوالها وأبمارها فيجف عليها يعتى أن شيعره
 لا ينال الدمن والتقلية فيتراكم عليه الوسغ والعبس •

 ⁽٥) الحرق الأرض الواسعة كظهر الترس في الاستواء والعاملتان رجلاء والفسيمير في طهره للخرق أي مكان غير مطروق .

 ⁽٦) الضمير في أولاه للخرق ومونيا مشرفا والتنة أعلى الجبل والاتماء جلسة خاصة وأمثل
 انتصب قائما ٠

 ⁽۷) ترود تذمب وتجیء والاروی اثثی الوعل والصحم السود الی صفرة والملاء ضرب من
 الثباب یرید الاداوی تالفتی وعنه الزمخشری حول کانها .

 ⁽A) يركدن يثبتن والأصال جمع أصيل والأعصم ، الوعل في ذراعه بياض والادنى ماطال.
 ثرته ويستحى يعتمد ويتصد والكبح عرض الجبل وسنده والأعقل الممتنع .

ولكن الذي يلفت النظر أننا لا في هذا ولا ذاك نجد القصد الى الغرض أو الموضوع واضحا ، بمعنى أننا حين نتأمل شعرهم في جملته نجد أنهم لا يقصدون قصدا واضحا الى الحديث في غرض معين أو التركيز في موضوع خاص ، وحتى المقطوعات التي تدور حول معنى واحد ، مع أنها في ظاهرها مقصورة على غرض وموضوع معين ، الا أننا بعد قراءة المقطوعة وتأملها نجد في نفوسنا احساسا بأن موضوع القطعة ليس غرضا مقصودا لذاته ، وحين نحاول البحث عن الغرض المقصود نجد أنه دائماً ينتهي الى شيء واحد ، هو شخصية الصعلوك نفسها وحياته ، فقد يتحدث الصعلوك مثلا عن الفقر ، وقد يتحدث عن السلاح ، وقد يتحدث عن الوحوش ، وقد يتحدث عن الناس ، ولكننا نحس أنه لا يتحدث عن شيء من ذلك لذاته ، فلا يتحدث عن الفقر من حيث وصف آثاره وملابساته لذاتها ، وانما يتحدث عنه من زاويته هو ، وعن موقفه منه وتأثره به ، ويتحدث عن البيئة مثلا ، فيصف ليلة شديدة البرد ، أو يوما شديد الحر أو وحوشا ترود من حوله أو أعداء يرصدونه متربصين به ، ولكنه لا يتحدث عن شيء من ذلك حديث الواصف فحسب ، كما يتخذ بعض الشعراء من مثل هذه الأشياء لوحات عنية مقصودة لذاتها ، فيصفون ما فيها قاصدين الوصف لذاته ، وانما يتحدث عن مثل هذه الاشياء من زاويته هو ، ومن-حيث ارتباطه بها في مزاولة الصعلكة وتأثره بها ، ومثال ذلك وصف عمرو بنبراقة لظلام الليل وسكونه في الصحراء فقد رسم لوحة فنية لاحدى ليالي الصحراء ، حين يوغل اللبل ، ببحبم الظلام حتى لا يبدو فيه الا تألق النجوم ويسيطر النوم والسكون على المدو المقيمين بالصحراء ويخيم الهدوء والسكون فلا تسمع فيه الا أصوات البوم مسعما من ثنايا الجبال ولكننا نجد أن هذا الوصف ليس مقصودا لذاته لديه . وأسا يسوقه عرضا في خلال حديثه عن غاراته وصعلكته قائلا أنه ينتهز منل هذا الوقت من الليل ليغير على أعدائه . فهو أضمن وقت لنجاح الغارة ، حيث يأخذ أعداءه على غرة ، او ينسل من ما لهم مما بريد دون أن بشعروا به فيقول :

اذا الليل أدجى واستجهرت نجومه وصاح من الافراط بوم جواثم (١) ومال بأصحاب الكرى غالباته فانى على أمر الغواية حازم (٢)

وكدلك برى السعرى يرسم لوحة فنية لاحدى ليالى الشتاء فى الصحراء ، نرى السماء فى مده اللوحة يتساقط منها المطر ، ونرى الارض قد ابتلت رمالها فاصمحت مرحلة .ونرى فيما بين السماء والأرض بردا قارسا بالغ القسوة ،ونرى بى عدد اللوحة صعلوكا حائرا بين مطر السماء ووحل الأرض وبرد ما بينهما ، وحاصرته هذه العوامل ، فاستبد به الجوع حتى بلغ اقصاه ، واستبد به الحوف

⁽١) ادحى أطلم واسجهرت لمعت والأبراط مجبوعة جبال .

 ⁽۲) أمال النالي ۱۹/۲ واسجهرت حجومه رواية الاعامي اما روايه التالي فهال ما المحمد فللإمه و والدري : النوم *
 ۱۹۹۱ ما الدرم *

حتى بلغ اقصاء ، واستبد به البرد حتى ظل جسمه كله يرتعد وحتى دفعه منا البرد الى تعطيم قوسه الذى يذود بها عن حياته الوحوش والمخاطر فيوقدها مى وتصالها ليستدنى، بهن ، ويدفع عن جسمه بعض هذا البرد الشنيع .

هذه لوحة بديعة رائعة يمكن أن تستوعب قصيدة كاملة في غرض مقصود للناته ، ولكننا نجد الشنغرى لا يسوق هذا الوصف كموضوع أو غرض معمود ، وانعا يسوقه عرضا في خلال حديثه عن المتاعب والمخاطر الجسيمة التي يتغلب عليها بقوة عزمه وارادته فيجتازها حتى يبلغ هدفه من غارات على أعدائه ، فليس هذا الوصف هو المقصود ، وانعا المقصود أنه لا يرده عن عزمه شيء فيقول من لاميته الشهيرة :

وليلة نحس يصطلى القوس دبها واقطعه اللائى بها يتنبسل (١) دعست على غطش وبنش وصحبتى سعسار وارزيز ووجر وافكل (٢) فايمت نسوانا وأيتمت اللة وعلت كما أبدأت والليل اليل

وهكذا نجه هذا الاتجاء غالبا على شعرهم كله كما سنرى خلال الموضوعات الكنيرة التي طرقها شعرهم ، ومن هذا نعلم أنه لا تعارض بين القول بأن شعرهم لا يتجه أتجاها مقصودا الى اتخاذ الموضوعات والقول بأنه طرق تقريبا كل الرصوعات المألوفة في الشعر القديم ، فالفاصل بين الاثنين هو القصد والاتجاه، بمعنى أن الموضوعات نفسها موجودة ولكنها كما قلنا ليست مقصودة لذاتها ، وانما المقصود هو شخصية الشاعر الصعلوك نفسها وحياتها ، ولعل هذا ماعناه المستشرقون خلال حديثهم عن لامية العرب ونقدهم أياها من قولهم أنهسا تمثل منعبا شعريا مستقلا عن الشعر القديم ، كما يقول صاحب تاريخ الأدب العربي « أما في لامينة الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب في تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهلي وصف الطبيعة من الجبال والفياني وغيرها غرضا مقضودا لذاته يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسي بهيج لتصوير الانسان نفسه وأعماله ، (٣) ولكن هذا الاتجاه أو المذهب ليس قاصرا على اللامية وحدها ، وانما هو طابع شعر الصعاليك كله في جملته وهذا الطابع من العوامل الأساسية في امتياز اللامية وبروزها بين الشميعر العربي كله ، فحين تقول أن لامية الشنفري طراز شعرى فذ ، فليس معنى ذلك أن

⁽١) النحس البرد واصطلى استدفا وربها صاحبها والاقطع نصال السهام ٠

⁽٢) الدعس الوطء والنطش الظلمة والبنش المطر الغقيف والسمار شدة الجوع والارزين البرد والوجر الموف والافكل الرعمة •

⁽٣) كارل بروكلمان ١٠٦/١ وما بعده ترجمة النجار ٠

الطابع الممير المعاليك وأنها بلغت في هذا الطابع حد الكمال الشعرى، وهذا الكمال هو كل ما تتفوق به عن سُعر الصعاليك ، فحين ندرس شعر الصعاليك نجد أن مغانى لاميه السنفرى بل وكثيرا من طابع أسلوبها وخصائصها شائعا فيه ، واللامية جمعت اهم هذه المزايا ، وصاغتها بما يلائمها من الأسلوب ، وصورتها فيما يبرز جمالها من الصور ، ومعنى ذلك أن شعر الصعاليك ينهج منهجا متميزا عن غيره ، ويحمل طابعا يميزه عن سواه ،

وإذا أردنا أن نلخص هذا الطابع في تقريبه إلى الذِهن نقول : أن شـــعر الصعاليك اشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية التي يدون الشخص فيها أفكاره ومشاعره وما يحسه حوله في موقف من المواقف وموقف الصعاليك هو الصعلكة بِمَا يِلابِسِهَا مِن أَسْبَابِ تَدْفَعُ اليَّهَا كَالْفَقُرُ وَالْحَاجَةُ ، وَمَخَاطُرُ يَتَّعُرُضُونَ لَهِـــــــا في مزاولة الصعلكة من أعداء ووحوش ومتاعب ، وآثار تتمخض عنها الصعلكة من جنايات يطالب أصحابها بالثار لها ، وموتورين يتربصون بالصعلوك الانتقام ، وهذه المواقف وما يتعلق بها هي التي تثير مشاعزهم الى الشعر ، من ناحيــــــة في شعرهم تشنت أو تفكك رغم أنه لا يركز الحديث حول أغراض ثابتـــة أو موضوعات محددة فقد كان المتوقع وحال شعر الصعاليك كذلك من عدم تحديده موضوعات له أن يبدو مفككا متناثرا ، ولكنه لم يكن كذلك بل كان على العكس ، بادى الوحده والترابط وعدم التنافر بين معانيه ، وذلك لأن لجوءه الى أسلوب المذكرات الشخصية جعل فيه قاعدة ثابتة تشد اليها كل المعانى ، هذه القاعدة هي شخصية الصعنوك ، فمهما كانت المعاني التي تطرقها القصيدة أو القطوعة متباعدة في ذاتها فان ارتباطها بشبخصية الشاعر في صورة المذكرات يجعلهـــــــــــا شديدة الترابط لأنها تتجمع كلها حول هذه الشخصية ، والمعاني أو الأحسدان لا بأس بتغايرها مادام هناك الرابط الذي يجمعها ، ومثال ذلك المذكراتالشخصية التي مثلنا بها ، فقد يكون هناك شخص في رحلة ، أو معركة ، أو موقف مثير ، فيسجل انفعالاته ومشاعره ، ويسجل مشاهده ، وقد تكون هذه الشاعر مختلفة، وقد تكون المشاهد ، متغايرة ، ولكنها ما دامت مرتبطة بصاحبها فهي جميعــــا أجزاء في وحدة مترابطة ، كما لو تخيلنا مثلا مسافرا ضل الطريق في احدى المجاهل قبات ليلة مخيفة عصيبة ، فحدثنا عن مشاعره في هذه الليلة ، فقد يحدثنا عن خوفه بما يشاء أن يصور في هذا الغوف ، وقد يحدثنا عن جوعـــــه بِمَا يَشَاءُ مِنْ تَصَـوِيرٍ ، وقد يحدثنا عِنْ مَفَاجَأْتِ مَرْتَ بِهِ ، وقد تجمع هــــــــــــــــــــــــــ المفاجآت بين ما يشبه المتناقضات ، فيرى هذا التائه شبحا يتخيل فيه منقــــذا فيقرح أشد الفرح ، وأذا الشبح وحش مقترس فيقزع أشد الفزع ، أو يبلغ منه العطش فيرى ماء فيفرح فاذا هو سراب، وفي خلال ذلك قد يحدثنا هذا التائه عما

يشاء من مناظر مهما كانت مختلفة ، بشرط واحد مهم ، هو أن تكون هذه المناظر مرتبطة بالموقف الذي هو فيه، فله أن يحدثنا عن مطر أصابه في هذه الليلة ويصور آثاره كما يشاء وله أن يحدثنا عن وحوش رآها من مكمنه فأخافته وعن أى شيء يحسه أو يراه مهما كانت الاحاسيس * أو المناظر مختلفة بشرط واحد كما قلنا هو أن ترتبط هاه الأمور بالموقف فاذا لم ترتبط كانت شتاتا مبعثرا ، لان الموقف هو الخيط الذي يربط هذه المعانى على اختلافها فتبدو شيئا واحدا ، فاذا انفصلت عن هذا الخيط كانت بهدا مبعثرا .

ومثال ذلك أيضا القصه نجدها نتنقل من الأحداث الاصلية والفرعية والمواقف المختلفة ولكن ارتباطها بشخصية بطل القصة وتتابعها في خط يسير مع هذه الشخصية يجعل من أحداثها ومواقفها مهما اختلفت شيئا واحدا متتابعا لأنها مرتبطة بقاعدة ثابته هي شخصية البطل، ولو تصورنا هذه الاحداث والمواقف التي تحتوى عليها الفصة في غير سياق القصة ، بأن أخرجنا منها شخصية البطل وارتباط الاحداث به ، نم سردنا المواقف والأحداث المتعلقة بالشخصييات الأخرى لكانت صورة أحداث أي قصة شيئا مختلفا كل الاختلاف عنصورتها في القصة ومن أمثلة هذا المنهج في الشعر المعاصر قصيدة « ليلة التنفيذ ، (۱) لتي نالت تقديرا كبيرا من النقاد ، والتي تصور شخصا محكوما عليه بالاعدام يصور مشاعره في ليلة تنفيذ الاعدام ، وهي مشاعر عديدة مختلفة ، عنوالديه، يصور مشاعره في ليلة تنفيذ الاعدام ، وهي مشاعر عديدة مختلفة ، عنوالديه، السجان وخطواته ، ونحو الغد وما وراءه ، ومشاعر أخرى ، وهذه المعاني على اختلافها بدت في القصيدة مترابطة أشد الترابط ، لأنها مرتبطة بالقاعيدة الثابتة ، التي تتمثل في ليلة التنفيذ ، بالنسبة للمحكوم عليه .

وأوضح مثال لمنهج الصعاليك فى شعرهم لامية الشنفرى التى تصور فى جملتها شخصا ضاق بمقامه بين الناس ، حين ضاق بأخلاقهم وموقفه منه ، وبلغ منه الضيق أن أبغض النوع البشرى كله ، فهجره الى حياة الصحراء بما فيها من وحدة ووحوش ، مسجلا ذلك كله فى قصيدة شعرية هى اللامية ، كما يسجل انسان مشاعره وبعض أحداث حياته فى مذكرات ومن هذا نصل الى نقطة أخرى مكملة للنقطة السابقة ، وهى أنه ما دام شعر الصعاليك يصور أحداث حياتهم ومشاعرهم تحوها فهل يحمل طابع حياتهم ؟ وهل استطاع أن يعكس خصائص حياتهم ؟ بمعنى أن الصعاليك كانوا كما هو معروف يحيون عياة متميزة عن حياة غيرهم باعتمادها على العدوان والسلب والنهب ، ومعاناة مشقات كثيرة فهل استطاع شعرهم أن يحمل هذا الطابع المتميز ، بحيث يمكن مشقات كثيرة فهل استطاع شعرهم أن يحمل هذا الطابع المتميز ، بحيث يمكن تمييزه عن غيره من الشعر ، كما تميزت حياة أصحابه عن حياة غيرهم ؟ وحتى بصدق عليه أنه ينهج منهج المذكرات الشميخسية وللاجابة عن ذلك نقول :

⁽١) للشاعر هاشم الرفاعي ٠.

نريد قبل ذلك أن تحدد الناحية التى تميزت بها حياة الصعاليك ، لنرى بعد ذلك على انعكست هذه الناحية بموضوعاتها فى شعرهم أم لا ؟ والناحية التى تميزت بها حياة الصعاليك متشعبة التفاصيل ، ولكن يجمعها جميعا أنها حياة صراع .

صراع مع كل شيء ، مع الأسباب التي دفعتهم الى الصعلكة ، كالفقر والشعور بالمهانه والضياع ، وصراع مع الصحطكة نفسها في مزاولتها ، وما يتعرضون له خلال ذلك من معاطر ومشتقات ، وصراع مع آثار الصعلكة ، من الأعداء المجنى عليهم ، ونواحى أخرى تتمخص عنها الصعلكة ، فحياتهم يمكن تلخيصها في أنها دحياة الصراع ، وقد كان صراعا شاقا مضنيا قاسيا ، لا تقوى على دوام احتماله الا نفوس أوتيت مقومات خاصة من القوة والجلد وثبات العزيمة، ولو لم يؤت الصعاليك من ذلك كله حظال كبيرا لما استطاعوا ان يكونوا صعاليك ،

وقد انعكس هذا الصراع فى شعرهم ، كما سنرى فى الموضوعات الآتية ، فقل أن نجد مقطوعة منه ، بل قل أن نجد بيتين متجاورين يخلوان من التعبير عن هذا الصراع الذى شمل حياتهم كلها ، بل تعدى أحداث الحياة وأسلوب المعيشة الى دخيلة نفوسهم ، فتراهم يصارعون فى نفوسهم معانى قلمليعرض لها غيرهم ، كالهموم والخوف والتشاؤم من الحياة والاستخفاف بها ، حتى يمكن أيضا أن نسميه « شعر الصراع » وقبل أن ندخل فى تفصيل موضوعات شعرهم نحب أن نقول : انه يمكن اجمال موضوعات الصراع التى طرقها شعرهم فى ثلاثة موضوعات رئيسة كما أشرنا آنفا ، أولها الأسباب التى من شأنها أن تدفعهم الى الصعلكة كالفقر وآثاره ، والشعور بالهاوان فى المجتمع والضياع فيه ، وثانيها حياة الصعلكة نفسها وبيئتها وأساليبهم فى مزاولتها ، وما يتعرضون له خلال ذلك ، وما يعدونه من أسلحة لها وما الى ذلك ، وثالثها الآثار التى تجرها عليهم الصعلكة ، كالأعداء ، والسلطان فى الاسلام بما يحتوى عليه هذان المجالان من نواح *

وهناك أمران نحب أن نزيدهما وضوحا ، أحدهما أن الأحكام وخاصة في الأدب لا ينتظر فيها أن تكون قاطعة جافة ، كالأحكام الرياضية مثلا ، بل فيها مجال للرأى واختلاف الوجهات ، وقد تختلف وجهتان في الأدب ، ولا نستطيع أن نحكم على احداهما بالخطأ ، لأن كل منهما تنظر من زاوية ، والشأن في نواحي الأدب ، وفي صوره بالذات أن يكون لها أكثر من زاوية كزاوية في نواحي الأدب ، وزاوية المتنى ، وزاوية التصوير ، بل كل من هذه قد تكون له أكثر من زاوية أيضا فلا ينتظر من أحكام الأدب أن تكون قاطعة جافة ولا ينتظر من أوية أيضا وهو ما يعنينا أن تكون شاملة مستقصية ، بمعنى أننا حين نحكم على شعر الصعاليك حكما أو تصفه بوصف ، فليس معنى ذلك أن تجد هذا الوصف في كل شعر لهم ، وإنها يكفى أن يكون طابعا بارزا في معظم شعرهم ،

والأمر الثاني اننا لا نتوقع أن تكون حياة الصعاليك ولا حياة اي انسان في عزلة كاملة عن الناس والمجتمع ، فهم وان كانسوا قد فرغوا حياتهم أو معظمها للصعلكه ، الا أنه كانت تتخلل حياتهـــم فترات كثيرة يشـــ اركون.. مجتمعاتهم فيها حياتهم وأحداثهم ومشاعرهم ، وفترات أخرى يكفون فيهسم عن الصملكة أما للشيخوخة كأخريات عبدة بن الطبيب ، وأما للاستغنساء بمصاحبة الأمراء كمالك بن الريب وبكر بن النطساح ، واما للتوبة كالأحيس السعدى وعبيد بن أيوب في أخريات أيامهما ٠

ففى هذه الفترات كانت حياة المجتمع تدعوهم الى التجاوب معها ، فينتجون شعرا يمثل حياتهم الاجتماعية ، بما فيها من غزل ومدح ورثاء وحكمة ونحو ذلك ، ولكننا حتى في شمرهم الاجتماعي ، لا نعام ما ينم عن أشخساصهم وطريقة تفكيرهم وأخلافهم ، ويمكن أن نسمى هذا النوع ، الشعر الاجتماعي، •

واذن فشعر الصعاليك يشتمل على موضوعين أساسيين ، أحدهما « شعر الصراع » ويشمل الموضوعات المشار اليها بفروعها ، والآخر « الشـــــعر الاجتماعي ، ويشمل حياتهم وصلاتهم الاجتماعية .

ولنتحدث أولا عن الصراع بأنواعه المختلفة في شعرهم ٠

صراع الضباع

في هذا الحديث نرى شعوهم يصور صراعهم مع الاحسساس بالضياع والهوان في المجتمع ، ومن خلال شعرهم نراهم متفقين على اختلاف اماكنهـــــم النظرة هي أنا الفرد ينبغي أن يكون ذا شأن في مجتمعه أيا كان هذا الشان فاذا لم يتح له وضعه الاجتماعي أن يكون في المكان المرموق من الســــيادة أو الغروسية أو حصانة الجانب ، فليسلك أي طريق تبعله في مكان مرموق، ولو كانت هذه الطريق مضادة عدوانية كما يقول القائل :

اذا انت لم تنفع ففر ، فانمسا يرجى الغتى كيما يفر وينفعا

وينظر الصعاليك الى أوضاع مجتمعهم فاذا أمامهم عقبتان من أســـــد العقبات صلابة ووقوفا في طريقهم ، احداهما الفقر الذي يعتبر صفة مشتركة بينهم ، والذي لم تستطع حتى جهودهم في الصعلكة على توتها وعنفه___ا أن تخلصهم منه ، ولذلك أصر معظم علماء اللغة على تفسير الصعلكة بانهسا الفقر ، مع اعترافهم بالمدلول العدواني لها ، وينظر الصعاليك فاذا الفقير بالاضافة الى كونه تهديدا لحياتهم نفسها هو أول عوامل هدم الكيان الاجتماعي للمرء ، فالفقير شخص مهين في المجتمع طالما كان فقيرا ، وانى له المخروج من هذا الفقر ، في مجتمع يزداد فيه الفقراء كل يوم فقرا ، ويزداد فيه الأغنياء كل يوم غنى ويتبع ذلك أنا يزداد الاغنياء تسلطا ومجدا وعلوا ، بينما يزداد الفقراء هوانا ومذله ودنوا ، وليس من حق الفقدراء أن ينتقصوا من سلطان الاغنياء ، بينما من حق الاغنياء أن يزيدوا الفقراء ضعة وهوانا .

والعقبة النائية احتكار المجد والسيادة في المجتبع القبلي ، فالسيادة فيه دائما محتكرة في بيوت معينة تتوارث السيادة ومهما تنقلت السيادة بين الإفراد فلا ينبغي أن تتجاوز البيت الذي توارثها ، وقد كانت شيمة هسنده السيادة خاصة في الجاهلية عتوا وتجبرا واذلالا للأفراد وفي مقدمتهمالصعاليك لأنهم فضلا عن وقوعهم في نطاق السيادة فهم فقراء وينظر الصعاليك فاذا في اشخاصهم من القوة والعزة ، ومن الحمية والانفة ما يصطدم بالعقبتين معا اصطداما عنيفا ، فلا تسيخ نفوسهم حال الفقراء وتعرضهم للموت جوعا ، والذل هوانا ، ولا تهضم عزتهم أن يعيشوا بين القطيع تدفعهم عصا السادة وتحركهم كبرياء المتسلطين و ولكنهم في مجتمع كهذا لا يجدون أمامهم سوى طريقين اثنين ، طريق الاستسلام للهوان حتى الموت ، بكل ما يفرضه الاستسلام أو طريق التمرد ، وليس آمامه الا الصعلكة ، بما تكبدهم هسنده الطريق من مشقة وعناء ٠

وسنرى كيف صور شعرهم موقفهم من العقبتين ، عقبة « الفقر وآثاره » وعقبة « الهوان في المجتمع »

الفقسسر وآلاره

١ - اللقسس :

لا شك أن أول ما نحسه فى حياة الصعاليك هو الفقر الشديد الذى الازمهم منذ نشأتهم والدى كان من أبرز الأسباب التى دفعتهم الى الصعلكة ، ولذلك نجد الروايات تقرن غاراتهم وغزواتهم بالفقر ، بل بالمجاعة فى آكثر الأحيان على انها سبب مباشر ، كما تردد كثيرا فى أخبار عروة بن الورد من مثل «كان عروة اذا أصابت قومه سنة شديدة ٠٠ وكان عروة اذا أجلب الناس ٠٠٠

خرج للغزو » (١) وبلغ من فقره انه اضطر الى رهن امراته على الشراب فبنى النضير ، لأنه لم يكن يملك غيرها ، على الرغم من انه كان عائدا من احدى غزواته (٢) ومن مثل روايتهم عن السليك انه « صابته خصاصة شديدة فخرج على رجليه » (٣) وحين مر الوالى سعيد بن عثمان بمالك بن الريب وهو يقطع الطريق قال له - ويحك يا مالك ، ما الذى يدعوك الى ما يبلغنى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ قال : أصلح الله الأمير ، العبوز عن مكافأة الاخوان ، قال : فان أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعنى ؟ قال : نعم ، أكف كاحسن ما كف أحد » (٤) ، وهكذا في أخبار كثيرة تفيض بها الروايات عن فقرهم الشديد ،

وقد صوروا في شعرهم حالهم مع الفقر ، وشعورهم نحوه ، وصراعهم لمقارمته ، فهذا تأبط شرا يصف نفسه بأنه لا يملك من الزاد الا تعلة تحول بينه وبين الموت ، حتى برزت أضلاعه من النحول ، والتصقت أمعاؤه من الجوع فيقسول :

قليل ادخسار الزاد الا تعلة فقد نشز الشرسوف والتصق المعاره)

ويقول في معادثة بينه وبين الذئب ، اثنى مثلك لا أملك شيئا ، وانها اعتمد في معيشتي كما تعتمد أنت على الغريسة كلما أحسست الجوع :

وقربة اقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل وواد كجوف العبير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل فقلت له لما عوى ان شاننا قليل الغنى ان كنت لما تمول (١)

بل نراه فى قوله و ان كنت لما تمول ، يشك فى أن الذئب بلغ من الفقر ما بلغه هو ، ويصف تأبط شرا تمزق نعله ، فيقول ان الجبال التى يتسلق صحورها لبصل الى مكمنه الذى يزاول منه صعلكته ، هذه الصخور فى حاجة الى نعل متبنة تقى قدميه وأصابعهما من تمزيق الصحور ، ولكنه لا يملك الا نعلا بالغة الرثاثة والتمزق فيقول :

⁽١) أنظر ديوان عروة ص ٨٦ والأغاثى ٣/٨١٠٠

⁽٢) أنظر أغانى الاصفهائي ٣٨/٣ .

⁽٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٢٤ .

⁽٤) أمالي القالي ١٣٧٩ •

⁽٥) حماسة أبى تمام ١/١٩٠ والتملة ما يتملل به ونشر برز والشر سوف مقاطع الإضلاع والما الأساء .

⁽٦) خزالة البغدادي ١/٩٣ ونسبت مذه الأبيات في دواية لامريء القيس •

لا شيء في ويدهـا الا نعامتها منها هزيم ومنها قائم باق (١) بشرثة خلق يوقى البنان بها شدت فيها سريحا بعد اطراق)٢(

وأبو خراش الهذلى يشبه تمزق نعله بهيكل عظمى لطائر بعد أن يؤكل لحمه ، ففى نعله من الحروق والتمزق مثل ما بين الأضلاع والعظام والأجنحة ويقول انه حين يضطر الى السير بنعله منذه فى الندى والمطر والوحل فقد يفضل نبذها والسير على قدميه .

ونعل كأشسلاء السمائى نبذتها خلاف ندى من آخر الليل أورهم(٢) وعن النعل أيضا نرى الشنفرى يقول مرة انه أحيانا يضطر الى المفاء لا بجد نعلا:

فاما ترينى كابئة الرهل ضاحيا على رقة أحفى ولا أتنعل (٤) ومرة يصف تمزق نعله ، فيقول اننى أسعى لا أملك شيئا الا نعلين تمزق صدد اها له أستطع حتم خصفهما ، وملحقة والله ، وملاء غاقة قصمت اذا

صدراها لم أستطع حتى خصفهما ، وملحقة بالية ، وملاءة خلقة قصيرة ، اذا شددتها على جسمى من جانب تعرى الجانب الآخر فيقول :

قلیل جهازی غــــی نعلین اسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف وملحفة درس وجرد مـــلاءة اذا أنجمت من جانب لا تكفف

ويقول عروة بن الورد عن فقره الذي يدفعه الى مجابهة المخاطر :

ومن يك مثل ذا عيال ومقترا يغرر ويطرح نفسه كل مطرح (٥)

ويقول لامرأته انه مصمم على الغزو ليكفيها مذلة السؤال ، فان قتل فموته أرحم لها من عيش الذل ، وان غنم أغناها وأولادها عن القبوع خلف البيوت انتظارا لحسنات المحسنين فيقول :

ذرينى اطوف فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضر (٦) فان فاز سهم للمنية لم آكن جزوعا، وهل عن ذاك من متاخر وان فاز سهمى كفكم عن مقساعد لكم خلف ادبار البيوت ومنظر

⁽١) المفشليات ص ٣٠ والريد أعلى الجبل والنعامة خشيات يجملها الصملوك كبينا كالمظلة للربيئة في أعلى الجبل وهزيم متكسر يعنى بعض الخشبات قائم وبعضها متكسر ٠

 ⁽٢) الشرئة الخلق يعنى النعل المؤقة والبنان أطراف الأصابع والسريح السيور تشد بها
 النعل والإطراق أن يربط تحت النعل تعلا أخرى لتعرق العليا •

⁽٣) ديوان الهذليين ٢/١٣١ والسماني طائر وخلاف عقب والرهم المطر الخفيف ٠

 ⁽³⁾ من اللامية ، وابنة الرمل الحية وضاحيا بارزا ورقة يعنى رقة الحال من الفقر ، أنظر أعجب العجب في شرح لامية العرب .

⁽٥) أمالي القالي ٢٣١/٢ ويفرر يؤخذ على غرة ٠

⁽٦) الاصمعيات ٣٦ ، ٣٧ وأخليك يعنى تكونين حرة بموتى ويعنى بسؤ المحضر موقف

ويتحدث مالك بن الريب عن فقره وحرمانه من متع الحياة فيقول :

انى اتحت لشابك انيابه مستانس بدجى الظلام منازل لم يدر ما غرف القصدود وفيؤها طيبا ونخل سوادها المتمايل

ويقول الأعلم الهذلى في وصف ما يعانيه بيته وأولاده من فقر يضطرهم الى التطلع الى ما في أيدى الأقارب :

وذكرت أهسل بالعسرا ، وحاجسة الشعث التوالب المرمين من التسسسلا د اللامحين الى الاقارب (١)

وصخر الغي يتحدث عن نتره وضيق ذات يده فيقول :

انی بدهماء قل ما أجدد عاودنی من حبابها زؤد (۲) و يقول عن ثويه :

ارى الآيام لا تبقى كريما ولا العصم الأوابد والنعاما اليح لها اقيدر ذو حشيف اذا سامت على الملقات ساما (٣) ويقول عمرو بن براقة ان سيفه معظم ماله :

وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون اللح ابيض صارم (٤) أما عروة بن الورد نيقول ان سلاحه كل ما يملك :

ومالى مال غسير درع ومغفسر وأبيض من ماء الحديد صقيل (٥) ويصف عبيد بن أيوب صبره على تعزق ثيابه وشعثه وشعوبه وجدبه بقسوله :

رأت خلق الأدراس اشعث شاحبا على الجدب بساما كريم (الشهائل تعسود من آبائه فتكاتهم واطعامهم في كل غبراء شامل (١) مذا عن حالهم مم الفتر .

سيدا س سابهم مع الله

السائل في ذله -

⁽١) ديوان الهذلين ٢/٨١٠ .

 ⁽۲) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٨ م الغانبي ٠

 ⁽٦) ديوان الهذلين ٦٣/٢ والنسبير في لها يمود على الأوابد (الوحوش) والنمام والاقيدر
 أعسير المنق يمنى نفسه • والمحشيف الثوب المخلق المبرق والملقات جمع ملقة الكان الإملس
 من الجبل •

⁽३) विक्री विक्रिय १/११। •

⁽٥) المبدة لابن رشيق ٢/٩٥ .

⁽٦) العيوان للجاط ١٦٥/٦ .

وأما عن أحساسهم بالفقر ، وبمكانة الفقير في المجتمع ، وكيف ينزل الفقر تصاحبه الى درجة من الهوان على الناس ، بل وعلى الأقارب والزوجات ، فقد أكتروا من تصويره في شعرهم ، فهذا أبو النشاش يفضل الوت على الفقر حيث يقول:

فلم أد مثل اللقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليسسل اخفق طالبه فعش معسسهما او مت كريما فائني ادى الموت لا ينجو من الموت هاربه(١)

ومالك بن حريم يرى أن المال يرفع الحسة ويجعل الذميم حميدا وأن الفقر مذلة أصاحبه بين الناس فيقول :

ويقعد وسط القوم لا يتكلم (٢)

انبئت والأيام ذات تجارب وتبدى لك الأيام مالست تعلم بأن ثراء المال ينفع دبسه ويثنى عليه الحسمد وهو مدمم وان قليل المال للمرء مفسسد يحز كما حز القطيع المحرم يرى درجات المجد لا يستطيعها

ويقول السليك عن احساسه بين الناس بعجزه عن نفع قريباته :

اشناب الرأس أنى كل يوم ادى لى خالة وسط الرحسال يشق على أن يلقين ضييما ويعجز عن تخلصهن مسال (٣)

ويقول عروة بين الورد مقارنا بين منزلة الغنى ومنزلة الفقر بن الناس:

دعينى للغنى أسعى فانى رأيت الناس شرهم الفقسي واهونهم واحقى والمناعم لديهم وان امسى له كرم وخسسير ويقصى في النسدى وتزدريه حليلته وينهره المسسنير وينهره الصيفر وتلقى ذا الغنى وله جـــــلال يكاد فؤاد جاجبه يطــــي قليسل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى دب غفسور (٤)

خوى وجفا الأقارب فالفسؤاد قريح وصبا كانك في النسدي نطيع

والفقر فيه ملالة وفضوح (٥)

ويقمى

ويقول أيضاً :

قالت تعاضر الم رأت مالى مالى رايتك في النسسى منكسا فيه مهابة وتجسلة JU

ويقول الآحيمر السعدى :

⁽۱) حماسة أبي تمام ١/٦١١ ٠

⁽٣) الكامل للمبرد ٢/-١٤١ ، ١٤١ .

⁽٤) البيان والتبيين للجاحظ ٢٣٤/١ •

⁽٥) ديوان عروة ٨٩ ورويت الأبيات للنس بن توليه ٠

تعيرني الاعدام والبدو معرض وسيفي باموال التجاد زعيم (١)

وآبو خراش الهذل يشتد به الفقر فيجد من زوجه تنكرا وازورارا ويجد منها نعيرا واحتقارا ، فينشى وقصيدة يخاطبها بها ، محاولا ردها الى الررية والحكمة ، مبينا لها فضله على فقره ، ومنها :

رات رجلا قد لوحته مغامص وطافت برنان المعدين ذي شحم (٢) تقول فلولا أنت أنكعت سيسيدا أزف اليه أو حملت على قرم (٣) أفاطم انى أسسبق الحتف مقبلا وأترك قرنى فيالزاحف يستلمي (٤) ويقول عروة بن الورد لزوجه أيضا :

دعينى أطوف في البلاد لعلنى افيد غنى فيه لذى الحق محمل (٥)

٢ - آثار الفقر:

ولابد للفقر من آثار تترتب عليه ، وقد عانى الصعاليك منها أشد العناء ، وصارعوها أشد الصراع ، وأبرز هذه الآثار. الجوع ثم نحول الاجسام والدــــزال •

وفي شعر الصعاليك صور مؤلمة لما كانوا يعانونه من الجوع القاسي الذي يتعرضون له كثيرا ، والذي بلغ من تعودهم عليه واستعدادهم لاستقباله دائما أن راضوا أنفسهم على ظرق معينة يقاومونه بها

وكذلك الهزال ونحول الأجسام نجده شائعا فيهم ، يشكونه في الم ويصورونه في صور مختلفة مؤثرة ٠ وحين نستعرض حديث شعرهم عن كل منهبا نقول:

(أ) الجسوع:

يصور تأبط شرا أثر قلة زاده وما ترتب عليه من ضعف جسمه وبروز عظامه ، والتصاق أمعائه من الجوع فيقول :

[•] १४/१ अधा अधी (१)

⁽٢) ديوان الهذلين ٢/١٢٨ ٠ والمخامص جمع مخمصة من الجوع ، والمدان المجنبان يعنى أنها رانه ناحلا من الجوع فتطلعت الى شاب مكتنز اللحم حتى لو ضرب جنباه لكان لهما رنين من اكتناز اللحم والشمعم ٠

⁽٢) القرم الجمل القوى لم يستعمل ، يعنى لولاك لتزوجت سيدا موسرا ،

⁽١) أسيِّي الحتف يعنى ينجو من الميت بسرعة عدوه والمزاحف مواضع القتال .

⁽۱۰) حماسة ابي تمام ۲/۳ .

قليل ادخار الزاد ألا تعسلة فقد نشز الشرسوفوالتصقالعا(١)

ويصف السنفرى حياته في رفقة من الصعاليك ، وقد وكلوا أمر زادهم الى تأبط شرا ، وقد وجد تأبط شرا ان الزاد قليل ، فأخسف يقتر عليهم ولا يمنحهم الا القليل الذي لا يرد عنهم الجوع ، ولكنه بذلك يدنع عنهم جوعا أشد ، فيقول :

وام عيسال قد شهدت تقوتهم اذا اطعمتهم أو تعت واقلت (۲) تخاف علينا العيل ان هي أكثرت ونعن جياع أي آل إتالت (۲) وما ان بهسا ضن بما في وعائها لكنها من خيفة الجوع أبقت (٤)

والسليك بن السلكة حصل فى احدى غزواته على غنيمة صغيرة ، هى عدد من الابل ، فقرت بها عبنه ، ورأى فيها على صغرها غاية كان يهفو اليها فلم يبلغها الا بعد أن عرض نفسه لمخاطر كثيرة رأى فى بعضها الموت قريبا منه وحين ننظر فعلا الى غارته هذه نرى فيها مدى الجهد والمخاطرة ، فالسليك موطنه ديار بنى تميم فى اليمامة والرباب فى الشمال من الحجاز ، وغارته هذه كانت فى جوف مراد باليمن ، فبعد هذا السفر الطوبل وما يكتنفه من مخاطر الصحراء والجبال والمهالك ، يجد السعادة وقرة العين فى عدد من الابل ، ولكننا حين نرى ما يحدثنا به من صور الجوع التى كان يعانيها نعذره ان هو سعم بما دون ذلك ، فمن هذه الصور ما يحكيه فى هذا الشعر ، من انه كان يعانى الجوع الشمر ، من انه كان يعانى عما يجدبون فيه من أوقات ، وأن هذا الجوع لتكرره وتواليه كان يبلغ به حالة عما يجدبون فيه من أوقات ، وأن هذا الجوع لتكرره وتواليه كان يبلغ به حالة من الضعف تجعله يشعر بالدوار واظلام البصر حين يقف كما يقول :

وما نلتها حتى تم ملكت حقب...ة وكلت الأسباب المنية اع...رف وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى اذا قمت تغشاني ظلال فاسلف (٥)

وابو خراش الهذلى يتحدث عن ابنه خراش الذى كان قد خرج فى غزوة من غزوات الصعاليك هو وعمه عروة ، فيقتل عروة وينجو خراش حين أشغق عليه أحد الأعداء فالقى عليه رداء ليخفيه ، وشغل القوم عنه بقتل عروة ، فأخذ خراش يعدو عدوا يشبه الطائر كما يصغه أبوه حتى نجا ، فيقول أبو خراش مدافعا عن فرار خراش ، مبينا أن سبب غارته لم يكن عداوة بينه وبين أحد

⁽١) حماسة ابي تمام ١/١٩٠ والشر سوف مقاطع العظام .

⁽٢) أراد بأم عيال تأبط شرا لأنهم جملوه كالأم تعولهم وأوتحت أعطت قليلا وأقلت مثل

من مناسبة على مناسبة على مناسبة مناس

 ⁽³⁾ الضن البخل يمنى أن ابتاءها الطمام وتقترها كان لخشية الجوع بنفاد الزاد منهم •

⁽٥) مجمع الأمثال للميداني ٢/١١ وأسدق دخل في السدقة وهي الظلام .

وانما الرغبة في دفع غوائل من الجوع أضرت به ، فلما لم تتع له الفنيمة آثر النجساء:

ولم يك مسلوج الفسؤاد مهيجا أضاع الشباب في الربيلة والخفض(١) ولكنه قد نازعته مخامص على أنه ذو مرة صادق النهض (٢) كانهم يشبثون بطهسائر خفيف المشاش عظمه غير ذي نحض(٢)

ولما كان هذا الجوع المضنى ليس شيئا عارضا في حياتهم ، وانها هو حالة ان لم تكن دائمة فهى متوقعة لديهم دائما ، فقد راضوا أنفسهم عليه ، وهدتهم المتجارب الى طرق يعالجينه بها ، وإيا كانت هذه الطرق فمصدرها بالطبع قوة الادادة ، والصبر الشديد ، فمن ذلك ما يحدثنا به الشنفرى في معالجته الجوع من أنه يصبر عليه ، ويجاهد في تجاهله وتناسيه حتى ينجح في التغلب على الشعور بوطاته ، مبينا أنه يفضل هذا كله ، بل يفضل أن يستف تراب الأرض اذا لم يقو على احتمال الجوع على أن يمن عليه انسان باطعامه ، وأنه لولا عزة نفسه والارتفاع بها عما يديه على عليه طعام ولا شراب فيقول من آلميته :

أديم مطال الجــوع حتى أميتــه وأضرب عنه الذكر صفحا فاذهــل وأستف ترب الأرض كي لا يرى له على من الطول امرؤ متطول ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب يعاش به الا لدى وماكل (٤)

وهذه الطريقة التي هدت الضرورة اليها الشنفرى ، اهتدى اليها أبو خراش أيضا ، فيقول أنه في صراعه مع الجوع يتذرع بالصبر الشديد ، حتى يمل الجوع هذا الصبر فيذهب ، وكما قال الشنفرى أنه يفضل استفاف التراب على الذل كذلك قال بو خراش أنه يفضل شرب الماء مع شدة الجوع على الذل فيقول :

وائى لالوى الجسوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس لميابى ولا جرمى(٥) واغتبق المساء القراح فانتهى اذا الزاد امسى للمزلج ذا طعم (٦)

⁽١) ديوان الهدليين ١٥٨/٢ ، ١٥٩ وأولها : حمدت الهى بعد عروة اذتبا ٠٠ غراش ويعش الشر أمون من بعض ومثلوج ضعيف بارد ومهيج رخو مثقل والربيلة كثرة اللحم والخفض المعة والتنم

⁽٣) مخامص يعنى الجوع وصادق النهص توى العزيمة ورواية أمالي القالي ١/٢٦٧ لوحته

⁽٢) المشاش المظم والنحض ، يعنى الذين يعدون خلف خراش وجدوه كطائر خليف المظم واللحم في سرعة عدوه ه

⁽²⁾ وفى اللامية أبيات أخرى عن الجوع منها : وأطوى على الخمص الحوايا ١٠ الغ وأغدو

أثوى الجوع ألحيل حبسه والجرم الجسد •

⁽١) أغتبق يمنى أشرب والمؤلج الضميف والتهي أكف أو أكتلى ٠.

أرد شبجاع البطن قسد تعلمنسه وأوثر غيرى من عيالك بالطعم (١) مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويروون في سبب هذه الابيات أن أبا خراش أقفر من الزاد أياما ، ثم مر بامرأة من هذيل موسرة . فأمرت له بشاة فشويت ، فلما وجد أبو خراش ريح الطعام قرقر بطنه فضرب بيده على بطنه وقال : أنك لتقرقر لرائحة الطعام . والله لا طعمت منه شيئا . ثم قال : يا ربة البيت ، هل عندك من صبر أو شيء مر ؟ فأتته يه ، فأكله ، ثم أهوى الى بعديده فركبه وانصرف فظنت المرأة أنه أنكر من ضيافتها شيئا ، فأخذت تناديه : هل رأيت بأسا أو انكرت شيئا ؟ قال : لا ، ثم أنشأ يقول هذه الأبيات (٣) .

(ب) نحول الجسم:

ومن آنار الفقر التى شكاها الصعاليك بصورة ظاهرة نحول الأجسام وما بعتريها من هزال ونحافة شديدة ، فالشنفرى يصف جسمه حين ينام بأنه لا يبلغ الأرض ، لأن عظامه وفقار ظهره البارزة تعول بينه وبين الأرض وانه حين يتوسد ذراعه انما يتوسد عظاما جافة كأنها قطع حديد لا أثر فيها للحم فيقول :

والف وجه الأرض عند افتراشها بأهدا تنبيه سئاسن قعل (٤) وأعدل منحوضا كأن فصوصه كعاب دحاها لاعب فهي مثل (٥)

وعروة بن الورد يتحدث عن نحول جسمه ، ويقول ان هذا النحول سببه الجوع ، وانه كان يمكن لجسمه أن يكون ضخما لو آثر نفسه برزقه ، ولكنه يؤثر أن يقسم هذه الضخامة في أجسام كثيرة من الذين يجود عليهم ويشركهم معه في رزقه من الناس فيقول :

ومن يؤثر الحق النسووب تكن به خصاصة جسم وهو طيان ماجسه السم جسمى في جسوم كثيرة واحسو قراح الله والله بارد (٦)

⁽١) شبجاع البطن يريد شدة الجوع والطعم الطمام والتي يخاطبها زوجه .

 ⁽٣) الرغم الهوان والذل • والأبيات من قصيدة بديوان الهذلين ٢/١٢٧ • ١٢٨ •

 ⁽٣) أنظى الأغانى ٢٠/٢١ وبما أن هذه الأبيات ضمن تصيدة يحاود بها زوجه فيحمل على
 إنه قال القميدة قبل هذه القصة ثم تمثل بهذه الأبيات منها فى المناسبة المذكورة مع الهذلية .

⁽٤) من اللاملة : والأهدا شديد الثبات يعنى جسمه والسناسن راوس فقار الظهر والقحل المافة .

⁽٥) أعدل أتوسد والمنحوض ذراعه اليابس والغصوص المقاصل ودحاها بسطها ٠

⁽۱) كامل المبرد ١/٣٦ وحماسة أبى تمام ٢٠١/٢ والامالي للقالي ٢٠٠/٢ والتنبيه للبكرى ١١٣ مع اختلاف في معاورة بين عروة ورجل من قومه ٠

وأبو حراش يصعب نحول زميل له في الصعلكة بأن كل ما يرى منه جاف يابس، فجسمه عظم لا لم فيه ، كفه يابسة تبرز في ظهرها أعصابها ، وساقاه يابستان لا يرى فيهما الا العظم فيقول عنه :

سبع من القوم عريان أشاجعه خف النواش منه والظنابيب (١)

كما وصف أبو خراش ابنه خراشا ـ وهو صعلوك ـ بضآلة جسمه ونعوله ، فعظامه رقيقة ضئيلة لا لحم عليها في قوله ، خفيف المساش عظمه غير ذي نعض ، (٢) وكما وصف نفسه بالنحول وضآلة الجسم ولا يؤثر في السياق أنه جعل سبب هذا النحول حزنه على صديق له ، فقد تحدث في موضع أخرى كثيرة عن السبب الحقيقي لهذا النحول وهو الجوع الشديد المضنى الذي كان يتعرض له دائما كما سبق فيقول :

وما بعد أن قد هدئى الدهر هـدة تضال لها جسمى ورق لها عظمى (٣) وما قد أصاب العظم منى مخامر من الداء داء مستكن على كلم

وتتأبط شرا يصف جسمه بأنه ليس فيه الا هيكل من العظم الضخم في صدده ، ولكنه عظم لا يحمل لحما ولذلك كانت بعية جسمه في نحول وضالة فيقول حين حاصره أعداده من بنى لحيان الهذليين فاحتال للنجاة منهم بصبه عسلا على الصخود وانزلاقه عليها بعيدا عنهم :

واخرى أصادى النفس عنها وانها لمورد حزم ان فعلت ومصلد (٤) فرشت لها صلعى فزل عن الصفا به جؤجؤ عبل ومتن مخصر (٥) ويصف جسمه أيضا ببروز أضلاعه من الجوع فيقول :

أ قليل الدخار الزاد الا تعسالة فقد نشر الشر سوف والتصق العا(٦) ويتحدث تأبط شرا أيضا عن هزال جسمه في حديث له ال أحد الذئاب فيقول:

⁽۱) عربان أشاجعه يعنى معرى عن اللحم والنواشر عصب ظهر الكف والظنابيب حروف الساق يعنى يابسه •

⁽٢) ديوان الهذلين ١٥٩/٢ وفي بيت قبله « لوحته مخاص ، أمالي القالي ٢٦٧/١ تاكيد للنحول بسبب الجوع ٠

⁽٣) ديوان الهذلين ٢/١٥١ في رثاثه خالد بن زمير الهذلي وتضال مخلف تضامل ٠

⁽٤) وأخرى يعنى الحيلة التى تجابها وأصادى النفس عنها يعنى أتدبرها والشطر الثانى معناه وجدت هذه الحيلة هى كل الحزم •

⁽٥) فرشت بسطت والسفا نوع من الحجارة وجؤجؤ عبل صدر ضخم ومتن ظهر ومخصر دقبق ضئبل أنظر الحباسة ١٨/١ ٠

⁽١) حماسة أبى تمام ١/١٩٠ والنشوز الظهور والبروز والشر سوف الإضلاع حول البطن •

كلانا اذ ما نال شيئا أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل (١)

ومالك بن الريب يتحدث عن نحول جسمه ، مشيرا الى صراعه مع أعدائه وأثر ذلك في نحوله ، ولكن في حديثه عن فقره في مواضع أخرى ما هو أوضع سببا فيقول :

وقد تقــول وما تخفى جارتهــا آنى أدى مالك بن الريب قد نحــلا من يشهد الحـرب يصلاها ويسعرها تراه مما كسته شاحبا وجــلا (٢)

وعبيد بن أيوب العنبرى يتحدث أيضا في تشرده في القفار عن ضآلة شخصه وضمور جسمه فيقول:

كانى وآجال الظباء بقفيرة. لنا نسب نرعاه أصبح دانيا وأين ضئيل الشخص يظهر مرة ويخفى مرارا ضامر الجسم عاديا (٣)

ويسلك فى تصوير نحوله أسلوب المبالغة فيقول أن تشرده فى الصحارى وطول تنقله فى الفيافى جعل من جسمه شيئا لو حملته حمسامة لطارت به كما قال :

حملت عليها ما لو ان حمساءة تحمسله طارت به في الخفاخف رعيلا وأنساما وأعظم وامسق أضر به طول السرى في المخاوف (٤)

على انه ينبغى أن تلاحظ فى مقارئتنا بين صعاليك الجاهلية وصعاليك الاسلام فى حديثهم عن الفقر وآثاره انه وان كان الجاهليون والاسلاميون قد اشتركوا فى معاناة الفقر والشكوى منه على السواء ، الا اننا نجد صعاليك الاسلام لم يتحدثوا قط عن هذا الجوع الشديد المضتي الذى عاناه الجاهليون متالمين منه أشد الالم ، وكذلك نجد صعاليك الاسلام وان كانوا تحدثوا عن نحول أجسامهم الا انهم لم يربطوا بين هذا التحول وبين الجوع والحرمان كما ربط الجاهليون •

ومعنى دلك ان صماليك الجاهلية وصعانيك الاسلام وان كانوا قد اشتركوا فى الفقر الا أن درجة هذا الفقر كانت مختلفة ، فبينما نجد فقر الصعلوك الجاهلى يبلغ منه حد الجوع المهلك بحيث لا يرى أمامه الا أن يستف التراب كما يقول الشنفرى أو يفتبق الماء القراح كما يقول أبو خراش ، وَلَذَلْكَ يَقْتَرَنَ بَصِعَالَيْكَ

⁽۱) خزانة البقدادى ٩٣/١ ويمنى بالشطر الأول سرعة المدو وبالثاني أن من يتعرض لمثل مميشتى ومعيشتك يهزل جسمه *

⁽۲) أنظر مهذب الأغاثي ٥/١٠ - ١٩ -

⁽٣) الحيوان للجاحظ ١٦٥/٦٠

⁽٤) الشعر لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجي والضمير في عليها للناقة •

الجاملية كتيرا مثل قولهم « أصابته خصاصة ثمديدة فغزا » (١) بينما نجد مساليك الجلملية كذلك ، نجد فقر صعاليك الاسلام لا يبلغ بهم هذه الدرجة ولذلك لم يتحدثوا فيما بلغنا من شعرهم عن الجوع ، وتحدثوا عن نحول الاجسام ولذلك لم يقرنوه بالجوع والمخامص ، وكذلك نجد ان ما يدفع صعاليك الاسلام لل الصعلكة ليس هذا الجوع كما كان لدى الجاهليين ، وانما مجرد الشعور بان فقرهم يجعلهم دون الناس منزلة ويحرمهم من رغد العيش ونعمائه التي يوون غيرهم فيها ، فمالك بن الرب مثلا لا بشكو الجوع ، وانما يشكو حرمانه من غيرهم فيها ، فمالك بن الرب مثلا لا بشكو الجوع ، وانما يشكو حرمانه من غرت القصور وفيتها ونعيمها كما يقول عن نفسه :

لم يند ما غرف القصور وفيؤها طيبا ونغل سموادها المتمايل (٢)

وحيتما ساله الوالى عن سبب قطعه الطريق ، لم يقل الجوع والحرمان وانما قال « العجز عن مكافاة الاخوان » يعنى مجرد شعوره بأن الفقر جعله في منزلة يراها غيرمناسبة له •

وهذا الفارق بين الاسلاميين والجاهليين يتضح من المقارنة بين الحسالة الاقتصادية في الجاهلية والاسلام ، ومن النظرة الى أثر الفتوحات الاسلامية وما أفاضته من رخاء في المجتمع العربي •

ولكن هذا الفارق كان ذا أثر كبير فى حياة كل من الجاهليين والاسلاميين بالنسبة للآخر ، وسترى فيما يأتى ان انفراد الجاهليين بهذا الجوع السهديد كان له تأثير كبير فى حياتهم وبالتالى فى شعرهم ، بل ترتبت عليه موضوعات كاد الجاهليون ينفردون بها عن الاسلاميين ، كشعر المراقب وشعر العهدو ومعظم شعر الطبيعة ، فان شدة الجوع جعلت الجاهليين يرتادون أماكن لا يضطر اليها الاسلاميون ،

صراع الهوان في المجتمع

ولئن كان شعر الصعاليك قد صور صراعهم الشاق مع العقبة الأولى وهى الفقر وآثاره كما رأينا ، فانه أيضا صور صراعهم مع العقبة الثانية مما كان يحول بينهم وبين أخذ مكانهم الصحيح في المجتمع ، أو على الأقل المكان الذي

١١) أنظر الشمر والشمراء لابن قتيبة ٢٧٤/١ والخصاصة الجوع ٠

١١) أنظر مهذب الإغاني ٥/١٠ .

تطبئن اليه نفوسهم ، ولا يؤذي كرامتهم ويثبت كيانهم ، فاثبات الكيان هو. غايتهم ولذلك يمكن تسمية مذا الفصل و اثبات الكيان ، وهذه العقبة الثانية هي « احتكار اسسيادة ، بمعنى ان تكون سيادة القبائل في بيوت معروفه تتوارث السيادة ولو مداولة بين أفرادها ، أوليس هذا ما ضاق به الصعاليك لذاته فانه لم يبد من شعرهم الانتجاء الى السيادة أو الحرص عليها ، ولكن الذي ضاقوا به مو ان هذا الاحتكار قد تولدت عنه طبقية منكرة في القيائل ، وتكاد هــنم الطبقية وخاصة في الجاهلية تعصر الأفراد في ثلاث طبقات ، طبقة السادة وهم آفراد البيوت التي تتوارث السيادة ، وأفراد هذه الطبقة جميعا سواء أكانوا سادة أم غير سادة من حقهم أن يشمخوا . بأنوفهم كمــــا يريدون ، وأن يتجبروا كما يشاءون وأن يسلبوا أموال الناس وخفوقهم وكرامتهم وأعراضهم طالما كان في سيوفهم قدرة على حساية بغيهم في هسذا كله ، ولم يكن بغيهم هسذا مقصورا على القبائل المعادية ، أو المجاورة ، وانما كان يشمل أيضا البيوت والأحياء الأخرى من قبيلتهم نفسها ، وخاصة البيوت التي لا تظهر خضوعا وانتيادا ظاهرا لسيادتهم كبعض ما رأينا في الحديث عن الجاهلية ، فهدنه الطبقة في قمة الوضع الاجتماعي • وهناك طبقة ثانية في أسفل الوضع الاجتماعي وهي طبقة لعبيد وسائر الأفراد الفقراء في القبيلة من غسير بيت السيادة فهولاء الفقراء كانوا هم والعبيد شيئا واحدا لأنهم وأن اختلفوا من حيث الج بة والرق ، الا أن هذا الاختلاف من حيث التطبيق العملي في المعيشة لا قيمة فكلاهما كان أمام طريق واحدة هي أن يقدم كل جهده في خدمة السادة لقاء لقمة تحفظ عليه الحياة ، ولن تكون له حياة بدون هذه اللقمة ، ولن يحصل على منه اللقمة الا بالخدمة لدى السادة والأغنياء ، لأن البيئة لا مجال فيها لوسائل أخرى من العيش ، وأهم وسيلة كان يستخدم فيها العبيد والفقراء فكلاهما راع ، وكلاهما لا يملك من الحياة غير ذلك •

ماتان الطبقتان كانتا طرفى المجتمع ، أولاهما فى القمة ، وكل أفرادها يلقون المهائة يلقون التجلة الاحترام ، وأخراهما فو الحضيض ، وكل أفرادها يلقون المهائة والهوان ، ربينهما طبقة ثالثة ، تتكون من الأفراد البارزين بين أفراد القبيلة من غير بيت السيادة ، وبروز الافراد كان أمامه مجالان ، الغنى والفروسية ، الأغنياء والفرسان كانوا يكونون طبقة وسطا بين الطبقتين الأخريين وكانت منزلة أفراد هذه الطبقة تحددها المزايا التي يستطيع كل فرد الوصول اليها فالغنى بمقدار غناه ، والفارس بمقدار شجاعته واسمهامه فى الزود عن القبيلة أو الرفع من شأنها ، وكان هناك مجال ثالث يستطيع الأفراد أن يجعلوا لهم مكانة أدبية منه اذا هيىء لهم وهو الشمر ، فالشاعر فى المجتمع العربي سدواء فى الجاهلية والاسلام كان يحظى بقدر كبير من التقدير والاهتمام ، حتى انه من تقاليدهم انه كان أذا ظهر شاعر فى قبيلة أذملت وفود القبائل تهنئها به من تقاليدهم انه كان أذا ظهر شاعر فى قبيلة أذملت وفود القبائل تهنئها به

ولان الشعر وخاصة في الجاهلية حيث لم يشدم التكسب بالشعر فيها (١) لم يكن وسيله مجدية للمعيشة ، فلم يكن الشاعر يستطيع الاعتماد على شعره في سيشته ، حتى أن النابغة الذبياني على شهرته الشعرية اضطر الى مزاولة حياة الصعاليك (٢) ، أما الوسيلتان الأخريان فيمكن الاعتماد عليهما في المعيشة من جلب الحل من يعوله ، والغارس أن لم يكن له مال ففي سيفه ما يمكنه من جلب الحل ، ولو بالغزو والغارة ، كما كان شائعا في الجاهلية ووضعم من خلك فقراء ، بل غاية في الفتر وبذلك اجتمعت فيهما الصفتان اللتسان وضعتاهم في الطبقة السفل من المجتمع ، وكان بعضهم شعراء ، ولكن شعرهم وضعتاهم في الطبقة السفل من المجتمع ، وكان بعضهم شعراء ، ولكن شعرهم في الطبقة السفل من المجتمع ، وكان بعضهم من الشعراء أن يتخذوه في الاسلام وسيلة للعيش أبت نفوسهم دون غيرهم من الشعراء أن يتخذوه وسيلة للعيش والتكسب ، فلم يتكسبوا به تط الا من شند منهم مثل بكر وسيلة للعيش والتكسب ، فلم يتكسبوا به تط الا من شند منهم مثل بكر المساكة (٢) وكون الصعاليك يابون عامدين مترفعين أن يتكسبوا بالشعر المستية مشرفة لهم ، كما سيأتي في موضعه .

واذن فقد كان الصعاليك ومعهم شعراؤهم فى الطبقة الدنيا من المجتمع ولكن نغوس بعضهم أبت بما تحمل من عزة وقوة واباء أن تستكين لوضعها فى هذه الطبقة ولم يكن كما قلنا أمام المتحفزين من هذه الطبقة ليرتفعوا الى الطبقة الوسطى الاطريقان طريق الثراء ، وطريق الفروسية ، فأما الثراء فهو موصد أمامهم باحكام ، لأنهم لا يملكون منه شيئا ، وأما الطريق الآخر وهسو الفروسية والشجاعة فهو مفتوح أمامهم ، لأنهم يملكون وسائله وأسلحته بل يملكون منها قدرا من القوة والجرأة والمضاء والبسالة قلما يتساح لغسيرهم ولكنهم بالطبع لم يكونوا فى درجة واحدة أو حالة واحدة ، فالذين كانسوا فى نسب خالص وفروسية بارزة ، أصبحوا من الفرسان الذين تعتز بهم قبائلهم كمروة بن الورد العبسى ، ومالك بن حريم الهمدانى ، وقيس بن منقذ السلولى قبل أن يخلع ، ومنهم من حال وضع أمه دون ذلك كالسليك بن عمسير السعدى الذي كانت أمه السلكة أمة رقيقة أو وضعه هو كالشنفرى الذي كان أسسيرا فى بنى سلامان ،

وليست هذه التفاصيل مما يعنينا في هذا الموضع ، ولكن الذي يعنينا ان الصعالبك وجدوا أنفسهم في الموضع المهين من المجتمع ، ولم تقبل نفوسهم بحكم

١١) أنظر السعة لابن رشيق ١٠/١٠ ٠

٢١) المصدر السابق ٢/٢١١ .

انظر مهذب الأغانى ٨٤/٨ وشرح حماسة إبى تمام ٢/٣٣ وكان فى العصر العباسى مدصرا نفرشيد .

طبيعتها وتكوينها هذا الموضع ، ولم يكن أمامهم لتفادى هذا الهوان الا الاعتماد على اشخاصهم مي قوتها وعنفها ، أيا كان مظهر القوة ، وأيا كان أسسلوب هذا العنف •

وقد عبر شعوهم عن هذه المعاني كلها تعبيرا واضعا عميقا ، ينم عن عمق احساسهم بهذه المعانى ، وتأثرهم بها ، واستماتتهم في الحروج من تطاق الذل والهوان الذي يريد المجتمع أن يفرضه عليهم .

فالشنفرى يعبر عن نفوره من اذلال نفسه باستجداء حسنات النساس مفضلا استفاف التراب على ذلك فيقول من اللامية :

واستف ترب الأرض كي لا يرى له ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب يعياش به الالسدى ومأكسل ولكن نفســا حـرة لا تقيم بي

على من الطـــول امـرؤ متطـــول على الفيم الا ريثما اتحول (١)

وابو خراش يقول مثل ذلك :

مخافة أن احياً برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم

وانی لأثوی الجوع حتی یملنی فیدهب لم یدنس ثیابی ولا جرمی(۲)

والسليك يقارن بين الحال التي يريدها لهم المجتمع ، والحال التي ارادوها لانفسهم فيقول:

فسلا تصلى بصعلوك نؤوم اذا أمسى يعد من العيسال ولكن كل صعاوب ضروب بنصل السيف هامات الرجال (٣)

ومثل هذه المقارنة يقارنها ابو النشيناش النهشلي ، ولكنه لا يرى ضرب هامات الرجال كما رأى السليك وانما يرى أن يسرح سواما من أبل الناس ويروح بها ، راكبا الى ذلك كل صعب ، متنقلا بين ارجاء واسعة من البيداء

> اذا المرء لم يسرح سواما ولم يرح فللموت خر للفتي من قعـــوده ونائية الارجاء طامسة الصيوي ليكسب مجدا أو ليدرك مغنما

سواما ولم تعطف عليه أقاربه (٤) عديما ومن مولى تدب عقساربه خدت بآبى النشئاش فيها ركائبه جزيلا وهلذا الدهر جم عجائبه

⁽١) أنظر أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري والطول المن والذأم الذم ٠

⁽٢) ديوان الهذليين ٢/١٢٧ ، ١٢٨ وأثوى الجوع أطيل حبسه حتى بذهب والجرم الجسم يقول يذهب الجوع ويبقى عرضى وجسمى نظيفان ٠

⁽٣) كامل المبرد ١/٣١٠ ويعنى بالميال الذين يعولهم غيرهم ٠

⁽٤) حماسة أبي تمام ١/١١٥ ويجوز ادادة سوائم الشخص نفسه مقارنة بين الغني والفقر ٠

ويقارن بين الحالتين أيضا عروة بن الورد، راسسا صورتين متقابلتين ، احداهما تسخر سخرية موجعة من الصعلوك المستكين للهوان، الذي يرضي لنفسه أن يكون كل أمله أكلة يجود عليه بها أحد الموسرين، وأن يكون كل ما في حياته حلقة مفرغة ، من النوم والكسل وخدمة المحسنين اليه، والصسورة الأخرى عن الصعلوك المستشيط حماسا وحيوية وحركة ، حتى كأن الحيوية جذوة نار تكسو وجهه ، هو في صراع دائم مع العيش والحياة والأعداء، ويبلغ من خطره أن أعداءه مهما يحاولوا البعد عنه أتقاء لشره ، فانهم يتوقعون دائما مفاجاته اياهم كسا يتوقع الأهل حضور غائب منتظر الاياب فيقول:

لحا الله صحفوكا اذا جن ليله يعد الغنى من نفسه كل ليلة ينام عشاء ثم يصبح ناعستنه يعين نساء الحى ما يستعنه ولكن صعلوكا صغيحة وجهه مطللا على أعسدائه يزجرونه اذا بعلوا لا يأمنسون اقترابه فذلك ان يلق المنيسة يلقها

مصافی الشاش آلفا كل مجزر أصاب قراها من صديق ميسر يحث الحصاعن جنبه المتعفر ويمسی طليحا كالبعير المحسر كفاوء شهاب القابس المتناور بساحتهم زجر المنيح المساهر تشاوف أهل الغائب المتنظر حميدا وان يستغن يوما فأجدر (١)

وفي شيء من هذه المقارنة أيضا يقول الاحيمر السعدي :

وقالت أرى ربع القوام وشاقها طويل القنساة بالفسيحا، نؤوم فان أك قصدا في الرجال فائني اذا حسل أمر ساحتى لجسيم (٢)

وشعر الصعاليك ينبىء عن نفورهم الشديد من الهوان . وصراعهم العنيف في سبيل اثبات كيانهم في المجتمع فهم ينعون نعيا شديدا على الخاملين منهم ، حاضين اياهم أشد الحض على أن يتحركوا ويخاطروا بأنفسهم في أي شيء . ومهما كانت نتيجة المخاطرة فهي خير من خمولهم وهوائهم بين الناس كما يقول عروة ابى الورد:

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ان القعسود مع العيال قبيح (٣) وكما يقول أيضا:

اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه شكا الفقر أو لام الصديق فأكثرا

⁽١) حماسة أبى تمام ١٩٥٩/١ والمشاش العظم اللين يمكن أكله ومصافى من المصافاة والمجزر مكان الذبع .

 ⁽٢) أمال القال ١/٨٤ وربع القوام متوسط الطول والبيت الثانى معناه ان لم اكن ضخم الجسم فانى ضخم العزيمة والقوة •

⁽٣) ديران عروة ٨٩ ٠

وصار على الأدنين كلا وأوشكت صلات ذوى القربي له أن تنكرا (١)

وأما مالك بن الريب نقد عبر عن نفوره من ذلك الهوان حين طلب اليه سعيد ابن عثمان الوالى أن يرعى ابله لقاء العطاء المشهري الذي يمنحه اياه بقوله :

وانى لاستحيى الفوارس ان أرى بأرض العسدا بو المخاض الروائم واني لاستحيى اذا الحرب شمرت أن أرتضي دون الحرب ثوب السالم(٢)

والشنفرى يؤكد في اصرار نفوره من كل ما يجعله ضعيفا أو خاملا أو كسبولا أو مهينا أو مغلوبا على أمره أو أى شئء مما يريد المجتمع للصعاليك أن يكولوا فيه فيقول:

مجدعة سقبانها وهي بهل (۱) ولست بمهياف يعشى سيوامه

يطالعها في شانه كيف يفعل (٤) ولا جبا آکهی مرب بعرسسه

يظل به الكاء يعلو ويسفل (٥) ولا خرق هيق كأن فـــؤاده

يروح ويغدو داهنا يتكحل (١) ولا خالف دراية لمتغازل

ألف اذا مارعته اهتاج أعزل (٧) ولست بعــل شره دون خيره

هدى الهوجل العسيفيهماء هوجل(٨) ولست بمحيار الظلام اذا نحت

بل انهم ليفضلون الموت على تلك الحياة الحاملة المهيئة كبعض ما مر في هذا الشمر ، وكما يقول عروة بن الورد :

وما طالب الحاجات من كل وجهة من الناس الا من أجهد وشمرا فسر في بلاد الله والتمس الفني

تعش ذا يسار أو تموت فتطرا (٩)

⁽۱) ديرانه ۹۹ ٠

⁽٢) أنظر مهذب الأغاني ٥/١٠ *

⁽٣) المهاف السريع العطش ومجدعه مقطوعة الآذان والسقب ولد الناقة والباهل الناقة

بحرص على استشارة ذوجه ٠

⁽a) الحرق الدهش والهيق الظليم والمكاء طائر يعنى لست هلوعا كالنعام ولا مضطربا كالطائر (٦) الخالف الذي لا خير فيه ، والداري الملازم لداره يعني لست تافها منقطما فلغزل والدهن والكعل

⁽٧) العل القراد والمراد الرجل المسن الضئيل كالقراد والألف العاجز واهتاج أسرع بحمق •

⁽٨) المحيار المتحير والهوجل الرجل الطويل الأحمق والمسيق الجاهل واليهماء المتاهة من الصحراء والهوجل آخر الفلاة

⁽٩) ديوان عروة ٩٩ ٠

ويتول عروة:

قلت لركب في الكنيف تروحوا عشية بتنا عنيد ماوان رذح تنالوا الغنى أو تبلغوا بنغوسكم الى مستراح من عناء مبرح (١) ويقول إيضا:

فقلت له الا احى وانت حسر ستشبع في حياتك او تموت (٢)

ومما لا شك فيه أن هذه المعانى الكثيرة التى كرروها فى شعرهم ، وأكدوا شعورهم بها من هوان الفقير فى مجتمعهم ، ومن ايثارهم الموت على ما يلقاه الفقير من هوان ومذلة ومعان أخرى تدل على أن اتجاههم الى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش أو الوصول الى الفنى ، وانما كان مع ذلك يحمل الرغبة فى اثبات كيان لهم فى المجتمع ويحمل النفور الشديد الظاهر من أن يكونوا مجرد أفراد فى القطيع الذى يسوقه السادة الأغنياء ، ويحمل الاصرار الشديد على أن يظهروا لأنفسهم كيانا يشعر به الناس على الأقل ويحسبوا حسابه ، ان لم يرهبوه ويفرقوا منه ،

ومما لا شك فيه أيضا أنهم قد استطاعوا أن يخرجوا أنفسسهم من زحمة القطيع وأن يجمل كل منهم لنفسه كيانا منفردا متميزا من القطيع ، ولكن هذا الكيان لم يكن ثابت الحجم والأهمية وانعا كان مذبذبا قابلا للضخامة والنقلص ، بمعنى أن كلا منهم قد استطاع بعزة نفسه ، ورفضه أن يمتهن مرؤته وكرامته بصور الهوان والذل ، من استجداء الناس وخدمتهم ، بعد التسكع والحسول والضياع ، قد استطاع كل منهم بذلك أن يخرج نفسه من الطبقة السفلي في مجتمعه وأن يلقت الانظار اليه ، على أنه رجل أبي ينفر مما يعيش عليه مثله ، ثم أن كيانه بعد ذلك وأهميته أو خطورته في مجتمعه ، تتحدد بمقدار ما لديه من مقومات ، وما يستطيعه من قدرة على الصراع ، صراع كل الظروف المحيطة به والمقيدة لنمو كيانه ، وبمقدار ما يتهيأ له من ظروف وقد كان الصعاليك بالطبع متفاوتين في مقوماتهم وفي قدرتهم على الصراع ، ولذلك اختلف شأن بعضهم عن بعض ، كمـــا أن الظروف لم تكن تسير على وتيرة واحدة لهم ، فقد تنكص الظروف عن بعضهم حينا ، ثم تتهيأ ، كما عاش الشنفرى دهرا من عمره أسيرا ، ثم تهبأ له الحروج على وضعه ذاك ، وقد تتهيأ الظروف ثم تنكص ، كما كان قيس ابن الحدادية، فارسا يكبره قومه ويستمين بهم على أعداله وفي غزواته ، ثم خلعه قومه حين كثرت جناياته وثقلت عليهم آثارها ، فأصبح خليما منبوذا لا سند له

 ⁽۱) أمال القائي ۲/ ۲۳۱ وماوان مكان .

⁽۲) ديوال عروة ٨٦

ولا معين ، حتى أنه ليقول للذين أرادوا أسره : ويم ينفعكم أسرى ؟ انكم لو طلبتم بي من قومي عنزا جرباء ما أعطيتموها ، وظل يقاتلهم حتى قتل (١) •

ويمكن حين تنتهى جولتنا مع صراعهم أن نسأل: هل حققوا كل ما يريدون من صراعهم مع المجتمع ومع الظروف ؟ أما الآن فنحن نتتبع مراحـــل حياتهم ومشاعرهم، أعنى مراحل صراعهم وقد بلغنا منها مرحلتين، أولاهما معاناة الفقر وآثاره، وثانيتهما أحساسهم بهوان طبقتهم ورغبتهم فى الحروج من هذا الهوان، ولكن هذا الحروج لم يكن سهلا ولا ميسورا، وانما كان يقتضى منهم صراعا شاقا عنيفًا، فلننظر هذا الصراع،

صراع المهنسسة

حياة رهيبة حقا هذه التي عاشها الصعاليك ، وشقوا طريقهم فيها · والواقع أن حياة الصعاليك الحقيقية لا تبدو قط من أخبارهم وتراجمهم ، وانها تبدو من خلال شعرهم نفسه ، فمهما قرأ القارى، من أخبارهم ، ومهما جمع الباحث من معلومات عنهم ، فانه لن يشعر بصراعهم ، وحياتهم الحقة كما عاشوها وتأثروا بها وصارعوها ، وانها يشعر بها حقا حين يدرس شعرهم ، ويرى ما فيه من انعكاس لرهبة حياتهم ، وقسوتها ، ويرى فيه عناءهم وصراعهم ومشاعرهم ازاء هذه الحياة التي خاضوا اشواكها وجابهوا أخطارها ، وصارعوا مرارتها وقسوتها .

ولامية الشنفرى نموذج كامل لحياة الصعاليك ، بكل ما فيها من قسوه ، وكل ما فيها من صبر وقوة ارادة ، وكل ما فيها من آلام الصعاليك وهمومهم ومشاعرهم نحو حياتهم .

ونحن مثلا حين نقرأ أخبار الشنفرى وما ساقته الروايات عنه ، نحسب أننا علمنا عنه وعن حياته شيئا كثيرا ، ولكننا حين ندرس لاميته نجد أن الأخبار والروايات لم تظهرنا من أمره الا على أيسره وأهونه ، وأن شميعره همو الذى يظهرنا من أمره ونفسيته وصفاته حياته وبيئته على الشى الكثير ، فالروايات مثلا تكاد تكتفى فى الحديث عن حياته وحياة غيره من أمثاله بأنه « صعلوك ، تاركة ما تشير اليه هذه الكلمة للنفس تصوره كيف تشماء حسب تصورها للصعلكة ، ومعلومها عنها ولكن كلمة (صعلوك) هذه نجدها فى شعرهم حياة

⁽١) أنظر أغانى الأصفهائي ١٤٤/١٤ - ١٦١ -

حافله بشتى وصنوف من الرهبة والمخاطر والقسوة والمشاعر وغير ذلك مما لايمكن لغير شعرهم أن يصغه أو يصوره •

فشعر الشنفرى يصف لنا حياته حيث يزاول صملكته ، فيصور ليلة من ليالى هذه الحياة ، ونهارا من أيامها ، واصغا موقفه وصراعه ومشاعره ازاءهما ، فيصف الليلة بأنها ليلة حافلة بالبرد والمطر والوحل ، وأن بردها لا كالبرد ، حتى أن جسمه امتلا رعدة وارتعاشا وحتى اضطر الى أن يوقد سلطحه الذى تعتمد عليه حياته في مثل هذه الصحراء ليستدفىء به ، وأن هذه الليلة بمطرها وبردها ووحلها ورهبة صحرائها ووحوشها قد ملاته خوفا وجوعا وارتعاشا ، ولكن ذلك كله لم يرده عن عزمه ، فمضى في هذه الإهوال الى غارته على أعداته فيقول :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها واقطعه اللاتى بهسا يتنبل (١) دعست على غطش وبغش وصحبتى سعاد وارزيز ووجر وافكسل (٢)

ويصف النهار بأنه يبلغ من شدة حره أن الجو يمتلى، بما يشهبه خيوط العنكبوت، وأن شدة وقع الشمس الملتهبة على الرمال تحولها الى جحيم لا تطيقه حتى الأفاعى في جحورها، وأنه ازاء هذا كله لا يملك ما يتقى به بردا ولا حرا الابرد ممزق لا يكاد يستر جسده فيقول:

ويوم من الشعرى يلوب لوابه افاعيه في رمضائه تتململ (٢) نصبت له وجهى ولاكن دونه ولا ستر الا الاتحمى الرعبل (٤)

ويصف معيشته في تلك الحياة البالغة القسوة ، بأنه تعود الجوع المضنى فهو يديم مطاله حتى يميته (٥) ، وأنه يطوى على الخمص حشاياه وامعاءه كما تلق الحيوط ليطوى بعضها على يعض (٦) وحتى الماء غير ميسور له ، فهو يسعى آمادا طويلة ليعثر على بقعة ماء خلفها المطر أو السيل يزاحم في شربها طيور الصحواء وقطاها (٧) وأن شأنه في البحث عن القوت شأن ذئاب الصحراء ، تظل رائحة

⁽١) النحس البرد واصطل استدفا بالنار والأقطع نصال السهام ويتنبل أي يسستعبلها للنبل : من اللامية •

 ⁽٢) الدعس الوطء والغطش الظلمة والبغش المطر الغفيف والارزيز البرد والوجر الغوف
 والإفكل : الرعشة •

 ⁽٣) المراد بالشيرى شدة الحر واللواب ما ينتشر في الجو مثل العنكبوت والرمض شدة
 وقع الشيس على الأرض • البيت •٦٠ •

⁽³⁾ نصبته المنه والكن بكسر الكاف الستر والأتحمى نوع من البرود والمرعبل الموق . البيت ٦١ •

⁽٥) البيت العشرون من اللامية وما بمدء

⁽٦) البيت الرابع والمشرون ما يعدد •

⁽V) البيت الخامس والثلاثون وما يعدم V

عادية مطوفة في الصحراء حتى يتيح لها الحظ ما تقتات به (١) ، وأنه الف النوم على الأرض ليس بينه وبينها بحرها وبردها حائل ، لا يشكو منها ، وانها يشكو من جفاف جسمه وبروز عظامه التي تحول بينه وبين الاستقرار أو الراحة في النوم ، فاذا نام على ظهره وخزته فقار ظهره البارزة حين تلمس الأرض ، وإذا اعتدل على جنبه لم يجد وسادة يتوسدها الا ذراعه ولكنها وسادة جافة خشنة ، لأن ذراعه ليس فيه الا عظام جافة ، ومفاصل يابسة صلبة كأنها كموب القناة (٢) وأنه على هذا كله يمشى حافيا ولا يلبس الا بردا ممزقا ، وأن شعره الذي لا يحلق مسترسل حول صدغيه وعنقه ، وأن هذا الشعر تلبد في بعضه من عدم النظافة لأنه قد يمضى عليه الحول لا يغسل ولا يغلى ولا يحلق (٣)، وفوق هذا كله الهموم المتدافعة فحوه ، والتي تأتيه لا يدرى من أين ؟ ولكنها تهب عليه من فوقه وتنبعث الميدافعة فحوه ، والتي مهما يحاول صرفها تأب أن تفارقه الا ريشا تعود ، وكأنها عمده ، والتي تظل تعود صساحبها ثم تفارقه ثم تعوده في أوقات منتظمة محددة (٤) ،

ولكنه ليس الشنفرى وحده ، وليست اللامية وحدما هي التي صورت حياة الصعاليك وصراعهم مع هذه الحياة ، بل نجد شعر الصعاليك كله يصور حياتهم وصراعهم على النحو الذي صورته اللامية ، وان اختلف التصوير أو درجة الصراع ، حسب الظروف التي تحيط بالشاعر من حيث درجة القسوة ، ومن حيث قدرته على تصويرها .

فعمرو بن براقة يصف لنا الوقت الذي يختاره لمزاولة حياته في الصعلكة ، وفي هذا الوصف نرى ليلة من ليالى الصحراء ، لا يهمه فيها أن كانت باردة أو غير باردة ، ممطرة أو غير ممطرة ، وانما يهمه شيء واحد يترقبه دائما ، وهمو مسيطرة النوم والظلام والسكون على كل شيء ، حتى اذا اطمأن الى أن الليل بلغ من اظلامه مداه حتى لا يرى فيه الا تألق النجوم ، وبلغ من سمكونه مداه حتى لا يسمع فيه الا صياح البوم الجواثم في جبال الأفراط ، وحتى أذا اطمأن الى أن التوم قد مال بكل الناس ، هنالك يقدم على ما يريد كما يقول:

اذا الليل ادجى واسجهرت نجومه وصاح من الأفراط بوم جواثم ومال باصـــحاب الكرى غائباته فانى على أمر الغــواية حازم (٥)

وفى حياة الصعاليك التي عاشوها في الصعلكة جوانب كثيرة من الصراع ، همنها ما كانوا يتعرضون له دائما من مخاطر الاعداء والوحوش والمفاجآت ، ومن

⁽١) البيت الخامس والمشرون وما بعده •

⁽٢) البيت الراحد والأربعون وما بعده ٠

⁽٣) الأبيات ٨٤ ، ٦٢ ٦٢ ، ٦٣ •

 ⁽٤) البيت السادس والأربون وما بعده وسيق ذكر نص اللامية كاملة •

⁽٥) أمالى القالى ٢/١١٩ واسجهرت نجومه رواية الأغانى أما رواية القالى نهى واكفهر طلامه ٠

مده القاجات ما تعرض له مالك بن الريب ذات ليلة ، حيث احسنن مالك سيفه وتلم ، وإذا هو يصمح من نومه على ثقل يجثم فوقه ، فانتفض بكل ما أوتى من قوة وحرص على الحياة ، فاذا شبح لم يمكنه الظلمان تبينه ، أو لم يجد من الوقت ما يسمع له بتأمله ، فأهوى عليه بسيقه فصرعه ، أوقده نصفين كما تقول الرواية ، ثم تبينه فاذا هو رجل أسود ، وقد صور مالك هذه القصة في قوله :

ما نمت الا قليسلا نمته شئزا حتى وجنت على جثماني الثقلا داهية من دواهي الليسل بيتني مجاهدا يبتغي نفسي وماختسلا الا توخيته والجرس فانخذلا (١) اهويت تفعا له والليل ساتن

والجاحظ يبين لنا شخصية هذا الداهية من دواهي الليل كما قال مالك ، فيقول في مفاحر الحبش والزنج على العرب « قالوا ــ يعنى الحبش والزنج ــ ومنا أقلم الذي قطع على القوافل يخراسان وحده عشرين سنة ، قالوا : وانما قتله نعلم أن ما تعرض له مالك بن الريب ليس شيئًا عاديًا ، وإنما هو خطر حقيقي ممثل في رجل متوحش يقطع الطريق وحده على القوافل وليس على الأفراد فحسب ، عشرين سنة كاملة •

ومما تعرض له مالك بن الريب ذئب عدا عليه في بعض الليالي ، ولكنه استطاع أن يقتله ثم يقول :

أذئب الغضا قد صرت للناس ضحكة تفادى بك الركبان شرقا الى غرب الم ترنى ياذئب اذ جئت طارقا تخاتلني أني امرؤ وافر اللب (٣)

ويصف مالك بن الريب حاله وهو يزاول مهنته في ظلام الليل ، وما يتوارد على نفسه من نوازع الحوف والحذر والتيقظ لما يعرض من مخاطر ، وكانه ذئب يتلمس طريقة في غلس الظلام فيقول .

يعظ الفؤاد اذا القلوب تآنست جزعا ورثبة كل أروع باسسل حيث الدجي متطلعسا لغفوله كالذئب في غلس الظلام الخاتل (٤)

وأبو خراش الهدلي يصف ليلة من ليالي صعلكته ، بما فيها من برد وغيوم وأمطار وأوحال ومع هذا الوحل الذي يصعب فيه مجرد السير ، ومع هذا الظلام الذي لا يتيح للساري أن يتبين ما تطأه قدماه ، تضطره الظروف الى أن يعــــدو أحيانا بكل ما أوتى من قدرة على العدو حتى أن الإشجار الصغيرة التي تنبت في الصحراء لنتحطم تحت قدميه من شدة عدوه ، ولا يبالى خلال ذلك ما قد يعترضه

⁽١) مهلب الأغاني ١/٩٢ والجرس المسوت ٠

⁽٢) رسائل الجاحة ١٩٣/١ والخاثر غير النشيط •

⁽٤) للمند السابق ٥/١٥٠ •

⁽٦) أنظر مهلب الإغاني ٥/١٠ .

من مخاطر الوحوش أو ما قد يطأه من حيات أو هوام ، بل انه ليجد أن نعله المرقة قد أثقلته فيضطر الى نبذها والقائها فيقول :

وليلة دجن من جمادى سريتها وشوط فضاح قد شهدت مشايحا اذا ابتلت الأقدام والتف تحتها ونعل كاشهاد السماني نبذتها

اذا ما استهلت وهي ساجية تهمي (١)

لادرك ذحلا أو أشيف على غنم (٢)

غشاء كأجواز القرنة الدهم (٣)

خلاف ندى من آخر الليل أورهم (٤)

وعبيد بن أيوب يلغى النهار من حياته ، فلا يظهر فيه لشى ، ولا يزاول فيه شيئا ، أما الليل ففيه كل حياته ، وفيه كل نشاطه حتى أصبح كأنه جنى لا يرى بالنهار ، ولا يألف مجامع الناس ، ومع ذلك فهو غير الجن فيما يصدر عنه كما يقيل :

فليس بجنى فيعسرف نجلسه ولا هو انسى تحتسويه المجالس يظل ولا يبسدو لشي نهسسأره ولكنه ينباع والليل دامس (٥)

وقد سجل الصعائيك بسسعرهم كثيرا من غاراتهم وأسائيب صعاكتهم واحداث حياتهم في الصعاكة ولذلك اعتمد كثير من المؤلفين القدامي في الحديث عنهم واستنباط أخبارهم على شعرهم نفسه كما يتضع ذلك في كتاب الاغاني حيث نجد معظم حديثه عن الصعائيك وسرد أخبارهم لا يعتمد على روايات أو أخبار ، وانما يعتمد على الشعر نفسه بما ورد فيه من أحداث وأخبار ، وقد لاحظ ذلك صاحب تاريخ الأدب العربي (٦) ، وقد ورد كثير من ذلك في شعرهم ، فمن ذلك هذه القصة التي سجلها السليك ، حيث تسلل الى بيت يزيد الشيباني ، وكمن خلفه انتظارا لسنوح الفرصة ، وإذا ابن الرجل يروح بالابل ، فانكر أبوه استعجاله في الرواح بها قائلا : هلا عشيتها ساعة من الليل ، ثم زجر الرجل الابل وعاد بها الى مرعاها ، وجلس قريبا منها متدثرا بردائه من البرد ، وكان السليك حينئذ يتبعه ، فأهوى السليك على الرجل بسيفه فقتله ، وساق الابل حتى نجا بها ، ثم سجل هذه القصة بشعره حيث يقول :

١١) دجن يمنى الغيم المظلم وجمادى يعنى البرد وتهمى تعييل بالماء ٠

⁽٢) شوط فضاح مدى واسع يقتضع قيه المسبوق والمشايع الجاد واللحل الثار وأشيف

⁽٣) أجواز أوساط والدهم الابل والمقرنة التي تقول ببعضها يعنى أنه حين يعدو يعظم تحت قدميه أشجارا كاوساط الابل .

⁽٤) أشلاء السمائي يعنى عظام طائر ثبدتها طرحتها والرهم المطر التغفيف · ديوان الهدليين - ١٣٠/٠ ١٣٠ ٠

⁽٥) الحيوان للجاحظ ٦/ ٢٣٥٠٠

⁽١) كازل بروكلمان ١/١٠٤ وما بعدما ٠

وعاشية رج بطانُ ذعرتهـــا بصوت قتيل وسطها يتسيف (١)

ويصف هذا القتيل صاحب الابل بأن لون الدم المنساب في خطوط على جسمه كان كأنه برد ملون مخطط ، وأن الصريخ من قومه حين ياتيه يجده كذلك فيقسول :

كسان عليسه لون برد معبس اذا ما اتساه مسارخ متلهف

ويتحدث عن أصحاب الابل بأن فناءهم سيبيت خاليا منها لانه نجا بها ، فهى ليلة شؤم عليهم لانهم فقدوا الابل وفقدوا صاحبها ، وكأنهم لم يزجروا الطبر ليعرفوا ما تخبئهم لهم هذه الليلة فيقسول :

فبات لها أهل خلاء فناؤهـم وهرت بهم طهر فلم يتعيفوا ومن أجزاء القصة أنه كان للسليك رفقة ينتظرونه عن كثب يقول عنهم:

وباتوا يظنون الظنون وصحبتى اذا عاعلوا نشزا أهلوا وأوجفوا (٢)

والشنفرى كما يبدو من أخباره وشعره سيطرت عليه نزعة الانتقام من بنى سلامان آكثر من الرغبة فى الغنائم لانه أحس الذل فى معيشته بينهم أسيرا ، وقد زادوه ذلا بايدائه فى كرامته ونفسيته حين انكروا عليه التزوج منهم ، وفعلوا به ما كان سببا فى اندفاعه الى التصعلك بأقوى ما يملك من ارادة وصلابة ، وفى اللامية يحدثنا عن أثر غارة من غاراته على أعدائه الذين يغلب أنهم بنو سلامان ، وواضح من شعره عن هذه الفارة أنه لم يستهدف الفنيمة ، وأنما استهدف القتل من أعدائه فيقول بعد حديثه عن ليلته السسابقة ذات البرد والمطر والحسوف والجوع والرعدة ،

فايمت نسوانا وايتمت السلة وعدت كما أبدأت والليل اليل

فهو قد قتل أناسا تأيمت بموتهم نساؤهم ويتمت أولادهم ، ثم يصف حديث أعدائه حين أصبح عليهم الصباح واجتمعوا يتباحثون فيما حل بهم ، واعتراهم الدهش ، فأخذوا يتساءلون ويتجاوبون ويختلفون فيمن أو فيما فعل هذا الذى حل بهم ، فمنهم من يقول : لقد هرت كلابنا بالليل ، ومعنى ذلك أن طارقا غريبا طرق الحى ، ولكن ما الطارق ؟ انه لم يحدث صوتا ، فلعله ذئب عدا ، فافترس من افترس ، بل لعله ضبع صغيرة فعلت ما فعلت ، ومنهم من يقول انه لم يكن الا صوت حركة يسيرة أحسستها بالليل ثم هدأت ، فحسبتها قطاة ربعت أو صقرا أزعج ثم لم أجد بعد ذلك صوتا ولا حركة ، ومنهم من يقول : ولم لا يكون

⁽۱) أنظر القصة كاملة فى مجمع الأمثسال للميدانى ٩/٢ ــ ١١ وبطسان ممثلة البسطون ويتسيف يمنى مضروبا بالسيف • وعاشية رج بطان وصف للابل يعنى ابلا مشاة ممثلة سقتها تاركا قتيلا مضروبا بالسيف كان وسط الابل •

 ⁽۲) با و التشور المراه المحاب الابل وما بعده وصف لزملاته والنشر المرتفع وأوجفوا خافوا يمنى خوفهم عليه ويجود ادادة الوجيف من السير يعنى أسرعوا بالابل .

هذا الطارق شيطانا من الجن ؟ ان هذا الذي حدث لا يمكن أن يفعله انسى ، وقد كان مصدر خلافهم ودهشتهم أنه لم تحدث غارة عليهم كمسا تعودوا أن يروا الغارات ، فهل يعقل أن يفعل انسان بعفرده كل ما حدث دون أن يحس أحد أو يشعر ؟ هذا مصدر الحيرة في نفوسهم ، والشنفرى يصسور حيرتهم هذه في قوله :

> فاصبح عنى بالغميصــا، جالسا فقالوا لقد هرت بليـل كلابنـا فلم يك الا نبــاة ثم هـومت فان يك من جن لابرح طارفـا

فريقان مسئول وآخر يســـال فقلنا أذئب عس أم عس فرعل فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل وان يك انسا ماكها الانس تفعل (١)

ومالك بن الريب حدثنا عن مورد رزقه ، فيقسول انه وان كان لا يرفض الرزق الطبيعى الذى يتاح له كما يتاح للناس ، الا أن اعتماده الحقيقى في رزقه على نصل سيفه وفرسه ، فهذان هما اللذان ينفعانه في كراته على التجار وقطعه الطريق عليهم كما يقول :

سيغنيني الليك ونصال سيغي وكرات الكميت على التجار (٢)

والاحيس السعدى يحدثنا أيضا عن أسلوب صعلكته ، ونهجه في المعيشة ، وأن أموال التجار هي هدفه ، وأن سيفه هو الوسيلة اليها فيقول :

تعيرني الاعسدام والبدو معرض وسيغى باموال التجاد ذعيم (٣)

ثم يفصل الاحيمر ما كان يتيحه له السطو على زوامل التجار من أنواع البز والطرف والثياب ، وان كان شعره الآتى قد قاله بعد توبته ، هذه التوبة التى لم تقتل فى نفسه الحنين الى ماضيه فيقول :

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مروا من الحيزن (٤) قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن (٥) فرب ثوب كسريم كنت آخسياه من القطار بلا نقد ولا ثمن (٦)

وصخر الغى الهذلي يحكى لنا صورة من صور صراع الصعاليك في حياتهم الشاقة الرهيبة ، بل يحكى عن صراع جانب يبدو للناس هينا يسيرا وهو الحصول

⁽١) من اللامية والقبيصاء مكان وهرت صوتت والفرعل ولد الفسيع والنبأة الصوت الفسيف والأجدل الصقر •

⁽٢) مهذري الأغاني ٥/١٠٠٠

رس ألمالي القالي ١/٨٤٠

⁽٤) أمالي القالي ١/٩٤ والزوامل الابل المحملة •

⁽٥) البز الثياب والطرفة يمنى الشيء الثمين ويحتسبوا يتركوها حسبة لله ٠

⁽٦) التطار الابل المتطورة بعضها وراء بعض ٠

على الماء ، ومعه صاحب يرافقه في حياة الصعلكة ، فيقول أنه حين نفد الماء منه حمل قربته وأخذ يبحث عن ماء ، حتى علم مكانا للماء ، فسعى اليه ، ولكنه سعى المائف المتوجس الحذر ، لأن الامواه مطلب لسكان الصحراء دائما وملتقى لهم المتلتها ، وشدة حاجة الناس اليها ، وهو بسبب أحداثه وجناياته في الصعلكة كثيرا لأعداء ، فانه لن يأمن أن يجد على الماء رصدا من أعدائه يوقعون به ، فأخذ يسعى وكانه ثمر مقرور من شدة البرد كما يقول :

ومسله وردت عسلي زورة كمشي السبنتي يراح الشفيفا (١)

وظل صعر في مشيته هذه المحاذرة البطيئة حتى بلغ الماء واطمأن الى خلوه من الأعداء فاراد أن يملا قربته في أقصى عجلة وتسرع ، خشية أن يفاجئه المعدو من حيث لا يحتسب أو أن يكون مخدوعا في اطمئنانه الى خلو المكان من الأعداء ، فعلى قربته في الماء ولكنه وجد أن القربة قد تراكم عليها كثير من التراب والوسنخ والروث ، فأخذ يخضها في الماء خضا شديدا ليذهب عنها بعض ما تراكم عليها ، وكانه والقربة في يده يخضها هذا الخض الشديد مقامر قد أثارت هزيمته في المسركل غيظه وغضبه ، فهو يخض القدح في يده خضا شديدا لعله يفوز في رميته القادمة كما يقول :

فخضخضت صفنى في جمه خياض المدابر قدحا عطوفا (٢)

ويتابع صخر قصة أمر يبدو يسيرا لغير الصعاليك وهو مجرد الحصول على الماء فيقول انه بعد أن ملا قربته بالماء أراد أن يسرع بالعودة ، وكأنه انقض على غنيمة يريد النجاء بها باقصى ما يتاح له من سرعة ، ولكن خوفه ليس على الماء ، وانها على نفسه من أعدائه الذين يتربصون به في كل مكان ، ولذلك أخذ يفكر في الطريق التي يسلكها في عودته ، أن الحذر علمه أن يتجنب العودة في طريقه التي جاء منها خشية أن يجد أعداءه قد أكمنوا له فيها فأخذ في عودته الطرق الملتوية ، والملتفة خلف الجبال حتى يمكنه أن يتخذ من هسنده الجبال وتعاريجها وكهوفها حصنا إذا أحس الحطر يحدق به فيقول :

فلمسا جزمت به قسربتی تیممت اطرقة او خلیفا (۳)

⁽۱) ديوان الهذلين ٢/٧٤ والزورة الازوراد والنوف والسبنتى النس والشسفيف البرد ويراح يعنى يحس •

⁽٢) الخضخضة يعنى التحويك الشديد للشيء الذي يحدث صوتا خليضا كالجاف مثلا وانعف تربة أكبر من العدادية والجم الكثير يعنى الماء والمدابر يعنى المغلوب في لعب الميسر وخياض في معنى المصدر من خضخض وقدحا مقعول له والعطوف القدح الدى يكرد رميه مرة بعد مرة .

⁽۱۳ جزمت ملأت وبه يعنى الماء وتيمنت قصدت وأطرفة جمع طريق والخليف طريق وراء حل أو واد ٠

ويسحدث عن رفيقه فيصفه بأنه رجل متمرس بالغسزو معسود عليه لانه حرفته ولذلك فهو غير ضعيف ولا مذرى به في أعين الناس •

معى صاحب داجن بالفــزاة ولم يك في القوم وغـلا ضعيف (١)

وصخر من العدائين المشهورين بأنهم لا تسبقهم الخيسل ، ولذلك فلابد لصاحبه أن يكون كذلك ، وهو يصف هذا الرفيق بأنه في عدوه كانه حمار وحش عنيف ، قد عركه الصراع والجرى وتركت الجروح آثارها في جسسمه وكل جرح منها كأنه عضة فم •

ويعسدو كعنو كدر تسرى بفائله ونسساه نسبونا (٢)

والسنفرى يصف لنا طريقة ترصده لضحاياه وهو يقطع الطريق ، فيقول ان المكان المفضل لديه هو أن يختار كمينا في ذروة الجبل وأعلاه ، وان الرقت الأثير عنده هو حين يشتد الظلام فيصعد الى كمينه في ذروة الجبل ، هذه الذروة التي لا يستطيع بلوغها الا ذو القوة والصلابة وهناك يتكيء على ذراعين يشبهان السبف لصلابتهما وخلوهما الا من العظم ، ويظل عاقدا ذراعيه متكنا ومحدبا عليها ولكن بصره الحديد يجول في كل ناحية وكأنه أفعى متيقظ متحفز يدور براسه وبصره في كل وجه يرقب ضحاياه فيقول :

ومرقبة عيطاء يقصر دونها اخو الفروة الرجل الخفيفالشفف (٣) نميت الى اعلى ذراها وقددنا من الليل ملتف الحديقة أسدف (٤) فبت على حد الذراعين محديا كما يتطوى الأرقش المتقصف (٥)

ولكنه على هذا العناء وهذا الجهد كله ، وعلى ما يسلك من وسائل مختلفة في صعلكته لا يضمن الفوز بما يريد ، فقد يغنم وقد يخيب ، كما يقول :

وباضعة حمر القسى بعثتها ومن يغز يغنم مرة ويشمت (٦)

⁽١) داجن متعود ويريد بالغزاة الغزو والوغل التدل •

⁽٢) الكدر بضم الكاف والدال وتشديد الراء الفليظ ، وصف لحمار الوحش والمائل عرق غليط يصل في باطن الفخذ الى الساق والنسوف آثار من عفى والأظهر أنه يريد أن احتكاك باطن فخذيه من شدة العدو قد ترك فيهما هذه الآثار ،

 ⁽٣) مهذب الأغانى ١/٩٥ والمرقبة مكان الترقب وعيطاء مرتفعة والمشانف الذى شفته عوامل
 الضعف فاومنته •

⁽٤) نبيت صعدت والشطر الثاني معناه أصبح الظلام شديدا ٠

⁽٥) محدب ماثل الأرقش الافعى الملون الجلد والمتقصف المتلوى •

⁽٢) الباضعة القاطعة يعنى جماعة غزاة وحمر القسى يعنى أن القسى قد أحمرت من طول استعمالها وتعرضها للشمس والمطر ، ويشمت تصيبه الشماته لعدم قوزه بغنيمة والبيت من قصيدة طويلة بالمفضليات ص ١١٠ ٠

ولكنه على أى حال مستريح النفس ، فيكفيه أنه يبعث الروع والرعب في قلوب أعدائه ، وهو ما يريد أن يحققه ، ولو ضحى في سبيله بحياته فيقول :

المشي عسلي الأرض التي لن تضرني لانكي قوما أو أصادف حمتي (١)

وتابط شرا يصف رهبة امتحاب الابل منه ، وتوقعهم لغارته في كل حين ، وهم يعلمون انه قادر على الغزو ، سنواء كان وحده ، أو كان له شيعة فيقسول :

ولكن ارباب المخساض يشفهم اذا افتقروه واحدا أو مشيعا (٢)

وكمنا قال الشنفرى انه يغزو فاحيانا يغنم وأحيانا يشمت ، ولكنه في الحالين يخرج بنتيجة تريح نفسه ، كذلك يقول مالك بن الريب :

وانيابى سيخلفهن سيفى وشادات الكمى على التجار هان أسطع ارح منه اناسى لفربة فاتك غير اعتساد وان يتلت فانى سوف ابغى بنيه بالمدينسة أو صراد (٣)

ولئن كان كثير من الصعاليك يؤثرون الليل ، يتخذون منه ستارا لهم فى مزاولة أعمالهم الرهيبة فان عبدة بن الطبيب لا يستغنى عن الظلام ، ولكنه يؤثر أن يكون قريبا من طلوع الشمس ولئن كان كثير منهم يؤثر المراقب يكمن فيها ، ويؤثر قدميه يعتمد على محائه بهما مهما تكن المخاطر ، فان عبدة بن الطبيب يؤثر الغزو على فرس ساهم الوجه كأنه ذئب ، ومهما تختلف الأساليب ، فان

الصحراء ميدان الجميع ، يقول (٤) :

افزعت منه وحوشك وهي ساكنة كانها نعم في الصبح مشكول بساهم الوجه كالسرحان منصلت طرف تكامل فيه الحسن والطول وقد غدوت وقسرن الشمس منفتق ودونه من سكواد الليكل تجليل

وقد غدوت وقسرن الشمس منفتق ودونه من سسواد الليسل تجليل وأما عبيد الله بن الحر ، فهو رجل موتور من نسب أمه التي كأنت قينة اصابها السبي ، فهو يربد أن ينتقم لها بسيفه ، وينتقم لما أصاب نسبه من رذاذ حول أمه فيجعل من أهدافه الأساسية في الصعلكة سبي الحرائد حتى

يشفى غليل صدره لسبى أمه فيقول :

⁽١) المغسليات ١١٠ وثكاء أصاب منه والحمة المنية •

۲) حماسة أبى تمام ١٩٠/١ •

⁽٣) مهذب الأغاثى ٥/١٠/وصرار موضع قرب المدينة ٠

⁽³⁾ المفتدليات ١٤٢ ومنه يمنى الكلا والنعم الابل ومشاول مطرود والسرحان الذئب والطرف الكريم والمنصدات الضامر الماضى والتجليل في البيت الأخير التفطية الخليفة .

ان تك امى من نساء اصسابها سباء القنا والرهفات المسفائع فتبا لفضل اخر ان لم انل به كراثم ابنساء النساء الصرائح (١)

ويزيد العقيلي يدرك مدى الأمن الذي أحس به أصحاب الابل حين أقلم عن الصعلكة ويمن عليهم بتوبته فيقول :

الا قل لأرباب المخائض أهمـــلوا فقـــد تاب مها تعلمون يزيد (٢)

ولثن كان شعر الصعاليك قد تحدث عن جوانب كثيرة مختلفة من حيساة الصعلكة ، وصراع الصعاليك في هذه الحياة ، فان منهم من جعل لنفسه شعارا عاما يوجه حياته كلها ، وتخضع له كل وسائله في المعيشة ، كما يقول الأحيس السعدي :

وانى الستحيى لنفسى أن أرى أمر بحبل ليس فيه بعير وأن أسأل العبد اللئيم بعسميره وبعران دبى في البسلاد كثير (٣)

وكما يقول بكر بن النطاح في هذا البيت الذي كان العرب يرون فيه مثالا لعزة النفس وابائها وعفتها:

ومن يفتقر منا يعش بحسمامه ومن يفتقر من سائر الناس يسال(٤)

أساحة الصفلكة

وحياة الصعاليك التى قلنا انه لا يمكن لحديث أو روايات أو أخبار مهما تبلغ أن تصورها على حقيقتها بها فيها من رهبة وقسوة ومخاطر لا يدركها حق ادراكها الا الذين عاشوا فيها وتأثروا بها وانفعلوا بما فيها وهم الصعاليك أنفسهم وكذلك لا يمكن لأى أخبار أو روايات أن تصور مشاعر أصحاب هذه الحياة كما يصورها الصعاليك أنفسهم ، لأنهم أصحاب هذه الحياة الذين عاشوا فيها ، وتأثروا بكل ما تنطوى عليه .

⁽۱) آمالي القالي ٣/٠٢٠ ٠

⁽٢) كامل المبرد ١/١١ .

⁽٣) الشعر والشعراء لابن تتيبة ١٨٣ م الخالجي ٠

⁽٤) مهذب الأغاني ٨ ٨٤٨ ٠

وحياة من الرحية والقسوة والخطورة بهذا المكان ليست سهلة ولا ميسورة وليست مستطاعة لكل راغب فيها ، بل ولا لكل مضطر اليها ، ولئن كان بعض الناس يفخرون بمخاطرة أقدموا عليها ، أو موقف عصبيب اجتازوه ، فان حياة الصماليك بكل يوم من أيامها وبكل خطوة من خطواتها سلسلة متصلة متلاحقة من المنطور والمواقف العصيبة فليست في حياتهم سماعة تخلو من خطورة أو خوف أو توقع للكروه ، وسنرى ان كل حياتهم كانت قلقا ورهبة وخوفا ، حتى تومهم كان قلمًا مغزعا ، وليس اشد على نفس انسان من شعوره بان كل ما حوله ومن حوله عدو متربص به ، حريص كل الحرص على أن ينال منه ان فم يعله ، ويكفى مثالا لذلك هذا الشعور الذي يحمله الشنفري من أنه طريد جنابات كثيرة جناها ، وأصحاب هـذه الجنايات حريصون على الثار منه . يتنازعون لحمه ، ويتنافسون أيهم يكون أسبق الى صرعه وأن أعداءه الكثيرين الثيدة غيظهم وحرصهم على الانتقام منه لا تنام عيونهم فكيف ينام هو حيث تبيت علم العيون كلها يقظى حثيثة الى مكروهه ؟

طريد جنايات تيامرن لحمه عقيرته لأيهسا حم (1) تبيت اظ ما نام يقتلي عيــونها حثاثا الى مكروهه تتغلفـل (٢) ومع ذلك فهذا جانب واحد من جوانب الخطورة والرهبة في حياة الصعاليك وهو جانب مطاردة الموتورين للصعاليك .

واذن فهذه الحياة الخطيرة الرهيبة تحتاج بالضرورة الى أسلحة كثيرة يتذرع بها لمجابهة ما فيها ، ولكن هذه الأسلحة لا يكفى فيها أن تكون مجرد أسلحة قتال ، فكثير من مخاطر هذه الحياة ليس قتالا ولا يحتاج الى أسلحة قتـــال وانما يحتاج الى صفات أساسية لازمة لكل من يخوض غمار تلك الحياة ، ولذلك يمكن ال نظر الى الأسلحة التي يحتاج اليها الصعلوك على انها نوعان ، أسلحة « منظورة » وأسلحة ، غير منظورة » ونعنى بالأسلحة المنظورة أو المحسوسة اللوازم المباشرة التي تحتاج اليها حياة العدوان التي يحياها الصعاليك ، فهم في عدوائهم الدائب على الناس ، وفي تعقب المعتسدي عليهم للصعاليك ومطارتهم أياهم ، لابد للصماليك في هجومهم وفي دفاعهم من أسلحة ووسائل المهجوم وللدفاع ، وأهم أسلحة الهبعوم أسلحة القتسال المعروفة كالسيف والغوس ، والمطايا من الابل والخيل ، وأهم أسلحة الدفاع سلاح كاد الصعاليك يُنفردون به ومو السرعة المدهشة في العدو ، وأيضا الأماكن التي تتيح لمرتادها الاغتفاء عن الأعين والهروب ، ولذلك نجدهم يحرصون دائما كما سنرى على مثل علم الإماكن في مزاولتهم للصملكة .

ونعنى بالأسلحة غير المنظورة أو غير المحسوسة الأسلحة غير المباشرة التي

⁽١) من اللامية : وتياسرن تقاسمن والمقيرة اللحم أيضا .

١٧١ تبت يعنى الجنايات يقسد أصحابا وحثاثا يعنى متعجلين .

تلزم لكل صعاوك حتى يستطيع أن يحتل هذه الحيساة بما فيها من مخاطر وقسوة .

وأهم هذه الأسلحة الصفات التي ينبغي أن تنهيا للصعلوك ، والتي يجب أن بكون متصفا بها حتى يستطيع أن يواجه المخاطر التي لابد أن يتعرض لها كل صعلوك ، والقسوة التي لا تخلو منها حياتهم ، وذلك كالجرأة وقوة الارادة والصبر واليقظة •

وهذه الأسلحة غير المنظورة أهم ما يلزم للصعلوك ، بل هي أهم من الأسلحة المنظورة ، وهي المعياد الحقيقي للتفاوت بين الصعاليك ، ولمدى خطورة الواحد منهم في الصعلكة ونجاحه فيها ، وبدون هذه الأسلحة لا يصلح شخص لحياة الصعاليك الحقيقية مهما أتيح له من أسلحة منظورة ، أما الذين يتمتعون بقدر وافر من هذه الصعات فانهم كانوا دائما ينجحون في تحقيق أغراضهم من الصعلكة ، ولذلك نجد في أخبار كثير منهم كما سبق انه كان يغزو وحده ، أو كان يغزو على رجليه ، ونجد الشنفرى مثلا هذا الذي روع نجدا كلها وخاصة تبيلة بني سلامان كان كما يؤكد شعره وأخباره يعتمد على نفسه ، وحتى في الأخبار القليلة التي تحدثنا عن صحبه ، لا نجد له الا رفيقين في أكثر الأحيان هما تأبط شرا وعمرو بن براقة ، ومما يدل على عدم ملازمة هذين الرفيقين له ان الأخبار تصف تأبط شرا بأنه كان يغزو وحده ، ومعنى ذلك ان همذه الصفات ألزم ما يحتاج اليه الصعلوك في حياته ، وانه يستطيع أن يستغنى بها عن كثير من الأدوات المنظورة أو المحسوسة .

وفيما يلى نتحدث عن هذين النوعين من الأسلحة التي تدرع بها الصعاليك عرض حباتهم هذه الرهيبة القاسية الحطيرة •

الاسلحة المنظروة

آ _ اسلحة القتال

اذا كان حمل السلاح شيمة العربى ، يرى سلاحه جزءا منه ، لا يفارقه فى سلم أو غيره ، فهو ملازم له فى كل أوقاته ، فمن باب اولى الصعلوك الذى يعيش حياة عادية ومعدوا عليها كما بقول الصعاليك ، فلا يتصــود أحد من الصعاليك بدون سلاح ، ونرى شعرهم يعتز بالأسلحة اعتزازا شــديدا ، ويتفنن فى تصوير هذا الاعتزاز والتعبير عنه ، وقد تحدثوا عن أنواع كثيرة من الأسلحة نسوق أهمها فيما يأتى :

١ _ السيف :

السيف هـ و السلاح الاول الذي كان يحرص كل عربي على حمله واستعماله ، والأسلحة الأخرى تعتبر اضافية بالنسبة اليه ، أو مدخـ وقل لنظروف ، حيث ان الأسلحة الأخرى غير السيف كان مجالها القتال ، أما السيف فملاتم للفرد دائما ، سواء في الحرب والسلم وقد تحدث شعر الصعاليك عن السيف باضافة وتفنن ، ولا يكاد شـاعر منهم لم يكرر حديثه عن السيف في عمور وأسماء وتشبيهات مختلفة ،

واكثر الحديث في شعرهم عن السيف ، كان عن لونه ، وهـو البيساض ، فيقول الشنفرى :

الله فزعوا طارت بابيض صارم ورامت بما في جفرها عم سلت (١) ويقول أيضا عن بياض سيفه الذي بجد اطراف السواعد :

وابيش من ماء الحديد مهند مجد لأطراف السواعد معطف (٢) ويتحدث عروة بن الورد عن بياض سيفه المشهر الوقع فيقول :

نطاعن عنها أول اليوم بالقنا وبيض خفاف وقعن مشهر (٣)

ويتحدث عروة أيضا عن بياض سيفه الذي لا يملك غيره وغيير درعه ومخاره فيقول:

ومائل مائل غير درع ومغفر وأبيض من ماء الحسديد صقيل (٤) ويتحدث مالك بن الريب عن القرى الذي قدمه ، وقد كان هسسذا القرى سيفا أبيض كالعقيقة :

فقراك أبيض كالعقيقة صادم ذا دونق يغشى الضريبة فاصل (٥) ولثن كان بياض سيف مالك فاصلا في أعضاء خصمه كما قال ، فانه منجاة لصاحبه كما يقول :

فصرت لقى لما علاك ابن حسرة بابيض قطاع ينجي من الكرب (٦)

 ⁽١) المضليات ١١١ والجغر كنانة السهام والسارم القاطع يعنى السيف •
 (٢) مهلب الأغاني ١٩٥/ •

^{· 8 ·} الاصمعيات • 3 ·

⁽٤) المعدة لابن رشيق ٢/٥٧ .

⁽٥) مهلب الأغاني ٥/١٠ .

⁽١) مهلب الألفائي و/١٦ .

وسيف مالك هذا يصفه راجز بأنه مسموم فيقول :

الله نجاك من القصيم ٠٠٠

ثم: ومالك وسيفه السموم (١)

ولكن صخرا الغى يرى هذا البياض غير خالص فى سيفه ، بل مشسوبا ببعض الميل الى السواد فى بعض متنه ، وليس ذلك عيبا فيه ، بل زيادة فى الجودة ، فهو سيف مستخلص ، انتقاه من سيوف أريحاء الكثيرة حتى انه لا يجه شبيها له ، وحتى ان ضربته لا يصلب أمامها شىء فيقول :

وصمارم اخلصت خشيبته أبيض مهو في متنه ربد (٢) فليت عنه سميوف أربع حتى باء بكفي ولم آكد أجد (٣) فهو حسام تتر ضربته سا ق الذكي فعظمها قصد (٤)

ويستغنى الشنفرى بسيفه الأبيض وقوسه عن عهون النساس جميعا وصداقاتهم وصلاتهم فيقول:

وانی کفانی فقد من لیس جازیا بحسنی ولا فی قربه متعلل الله اصحاب فؤاد مشیع وابیض اصلیت وصفراء عیطل (٥)

وعمرو بن براقة لا يرضى لسيقه الأبيض مكانا حين يضرب الا الجمـــاجم فيقـــول :

فلا صلح حتى تقلاع الخيسل بالقنا وتفرب بالبيض الخفاف الجماجم (٦)

وأما قيس بن الحدادية فيجعل سيوفهم البيض هى كل ما يقدمونه من مهر ليستحلوا بها نساء أعدائهم ، وذلك حين يصبحن أسيرات بهذه السيوف فيقسول :

لقد علمت افناء بكر بن عامسر باننا نلود الكاشسح المتزحزحا وانا بلا مهر سوى البيض والقنا نصيب بأفناء القبائل منكحا (٧)

⁽١) معجم البكرى ٣/١٠٢٧ •

 ⁽٢) صارم قاطع والخلصت خشيبته الخلص طبعه ومهو رقيق والربه جمع ربدة وهي البقح
 المثالفة في اللون •

 ⁽٣) أربح من أربحاء الشام بلدة وباء منار ولم أكد أجد يعنى لم أجد له مثيلا •

⁽٤) تتر تقطع والمذكى المسن العملب والقصد جمع قصدة وهي الكسرة · ديوان الهدلين ٢٠/٧٠ ·

⁽ه) مشيع يعنى كان له شيعة تناصره وأصليت قاطع وصف للسيف وعيطل قوس طويلة المنق • اللامية •

ירו לאנ ושנ ז/ייוו .

⁽٧) الأغانى للأصفهاني ١٤٤/١٤ •

وأما مالك بن حريم فيصف قومه وسيوفهم البيض تلمع حين يضربون بها فيقول:

تعصو بها الغرسان عصوا (١) تلم___ع بينهم والبيض

ومن الصعاليك من حاول تشبيه بياض السيف بشيء ، ولكنهم لم يخرجوا عن تشبيهه بالملح (٢) ، ولعل الملح أشد ما يعرفونه بياضا ، فلا نعلم شيئا في إ حياتهم أكثر بياضًا من ألملح ، وحتى اللبن المعروف بالبياض لا يبلغ الملح في صفاء بياضه ، وخاصة لبن الابل الشائع بينهم ، فبياضه غير خالص لما يشوبه ما بعرفونه بياضا وهو الملح ، فعمرو بن براقة يجمل في سيفه الذي يشبه لون الملح غنى له عن المال ، ولاعتزازه بالسيف يذكره في خمسة أبيات من قصيدة غير طويلة ، تكاد الخمسة تكون مخصصة للسيف فيقول عن نفسه ،

حسام كلون الملح ابيض صارم ثم: فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم (٣)

وكيف ينام الليل من جل ماله غموض اذا عض الكريهــة لم يدع له طمعا طوع اليمين مالازمـ ثم : كذبتم وبيت ألله لا تأخلونها مراغمة ما دام للسيف قائم ثم: متى تجمع القلب الذكي وصارما وانفأ حميا تجتنبك المظـــالم

ويقول مالك بن حريم عن لون سيفه الذي يشبه الملح ، والذي قتـل به سيد أعداله:

بنى قمير قتلت ســـيدكم فاليوم لا فدية ولا جزع جللته صادم الحسديدة كالملح وفيسه سفاسسق لمع (٤)

ويقول عروة بن الورد:

يكفي من الماثور كالملح لونه حديث باخلاص الذكورة قاطع (٥)

والشنفرى يطلق لخيساله العنسان ، فلا يكتفى بذكر الملح في تشبيه لون سيفه ، وانما يلجا الى اسلوبه الغالب على شعره كله ، وهو التصوير البارع العميق من مرئيات بيئته فيقول : بعد ذكر اللون والصفات المألوفة انه يشبه « اقطاع الغدير » أو أحد « أذناب الحسيل » :

⁽١) الحيوان للجاحظ ٣/٤٧٤ وتعصب تغرب والعمبو الغرب •

⁽۲) شبهه مالك بن الريب بالمقيقة في البياض كما سبق آنفا ولكنه تشسبيه لا يعتبر

⁽٣) أمالي القالي ١١٩/٢ وتقدع تكف والجماجم الرموس .

⁽٤) المصدر السابق ٢/١٢٠ وسفاسق طرائقه المسماة الفرئد ٠

⁽٥) ديران عروة ٩٩ ٠

حسام كلون الملح صاف حديده جراز كاقطاع الغدير المنعت (١) تراها كاذناب الحسيل صوادرا وقد نهلت من اللماء وعلت (٢)

وقد حظى متن السيف بأوصاف كثيرة فى شعر الصعاليك ، تنعته احيانا بالحدة والشحد ، وأحيانا بالرقة التى تدل على المضاء والنفاذ ، وأحيانا بالصلابة والمنانة ، وأحيانا بالطول مع مصاحبة ذلك الأوصاف أخرى ، وتشبيهات له ، أو نسبة الى صانع أو بلد ، أو غير ذلك من الأوصاف •

على اننا نلاحظ أن مقبض السيف وحمائله لم تحظ باهتمام شعرهم ، ولم يجعلوها موضوعا بارزا للحديث عنها ، وهذا أمر متوقع من مثل الصعاليك فالمقبض والحمائل تعتبر زينة وكمالا ، أعنى أن العناية بهما أنما تتوقع من فرسان المجتمعات والمدن ، الذين يختالون باسلحتهم ويستعرضونها أمام الناس ، فيهمهم جمال مقبض السيف أو حمائله أو غمده ، ليكون في همذا الممال زيادة في الهيبة والتحبيد ، أو جذبا الأنظار المفتونات ، أو حتى ارضاء للخيلاء ومباهاة بالثراء ، أما الصعاليك فلم يكن لهم في شيء من ذلك أرب ، وما لهم والحلية والزينة ؟ انهم فضلا عن كونهم لا يستطيعونها لفقرهم ، ليسوا في حاجة اليهم وحياتهم في عزلة عن المجتمعات ، وسيوفهم قلما تستعمل في ضوء النهار ، وانما مكانها الصحراء ، وزمانها جرف الظلام فحينما يتحدثون عن مذه الحل يتحدثون عنها عرضا ، وفي سيوف غير سيوفهم ، كما يتحدث الأعلم الهذلي عن الضباع السود التي تشبه جلودها ثياب الرهبان ، وعن نزع هذه الضباع لجلد فريستها كما ينزع القين الحلية المذهبة عن جغن السيف مذه الضباع لجلد فريستها كما ينزع القين الحلية المذهبة عن جغن السيف ليضع غيرها مكانها فيقول:

سمسود سسعاليل كساً ن جلودهن ليباب داهب (٣) آذانهن اذا احتفسر ن فريسة مثل اللاانب (٤) ينزعن جلد المسرء تز ع القين اخسلاق المذاهب (٥) بل على العكس نجدهم يصرحون بخلو سيوفهم من الحلية ، وأن مواضع الحلية منه خلقة بالية فيقول تأبط شرا:

⁽١) المفضليات ١١١ والجراز السيف القاطع والاقطاع يعنى الأمواج الرقيقة التي يضر بها الهواء فتلمع بياضا والمنعت الكثير النعوت ٠

 ⁽۲) الحسيل جمع حسيلة وهي أولاد البقر ــ يشبه السيوف بأذناب أولاد البقر حين ترى أمهاتها ونهلت وعلت يمنى أن السيوف رويت من الدماء في مقابلة رى صغار البقر من لبن أمهاتها ٠

 ⁽٣) مسطليل وصف للقبياع بالقبخامة يعنى ضباعا ضبخية سودا كانها تلبس ثياب رهبان
 ليوادها ٠

⁽٤) احتضرن أوقمن والمذائب جمع مذنبة وهي المفرفة التي يقرف بها ٠

 ⁽٥) التين الحداد والأخلاق جمع خلق للشيء القديم البائي والمداهب جمع مدهب أو مدمية يمنى أن الغين ينزع عن جفن السيف الشيء المذهب الملصق به حين يبلي ليضم جديدا مكانه •

فطار بقحف ابنسة الجن ذو سفاسق قد اخلق المحملا (١) ويقول عبيد بن أيوب أن طول احتضائه السيف جعل جفنه وحماثله كأنهن جزء منه:

وطال احتضائي السيف حتى كأنما يلاط بكشحى جفنه وحمائله (٢)

فملازمة السيف لذاته هى التى تعنيهم ، ولا يعنيهم بعد ذلك شىء قط الا جودة السيف ولذلك حرصوا كثيرا على الحديث عن جودة السيف كما قال صخر الغى أنه افتلى سيمه من سيوف أريحاء حتى لم يكن لسيفه مثيل ، وعن مضائه فى النفاذ وتقطيع الأوصال وعن شحد حده ، بالاضافة الى سرد أسماء كثيرة للسيف مأخوذة أصلا من صفات له ثم غلبت عليه كالمهند والشطب ،

فمن ذلك وصف سعد بن ناشب لسيفه حيث يقول عن نفسه :

اذا هم القى بين عينيه عسره وصمم تصميم السريجي ذي الأثر (٣)

وأبو خراش يرى غاية ما يطلب في السيف أن يكون حادا مصـــقولا فيقول :

- ولولا نحن أرهقه صهيب حسام الحدد مدروبا خشيبا (٢) وأحيانا يسمى أبو خراش سيفه المهند كما بقول في وعيده لشخص يدعى واقدا:
- اوا قد لا آلوك الا مهندا وجلد أبي عجل وثيق القبائل (٥) ومرة أخرى يضيف اليه صفة المهند القضاب نيقول :
- فنشيت ريح المسوت من تلقائهم وكرهت كل مهند قفساب (٦) واحيانا يتحدث عن اباء السيف وصلابته مشبها شخصا بنصله فيقول:

اشم كنصل السيف يرتاح للندى بعيدا من الآفات والخلق الوخم (٧)

⁽١) الشعر والشعراء لابن تبيية ١/٢٧٢ والقحف العظم فوق الدماغ والسفاسق طرائق السيف المسماة الفرند وابئة الجن الفول •

⁽٢) الكامل للمبرد ١/٢٠٠ ويلاط يلازم ويلتمسق ٠

⁽٣) حماسة أبي تمام ٢٧٢/١ والسريجي نسبة الي منانع أو بلد والأثر صلابة المتن وحدته.

⁽²⁾ ديوان الهذلين ١٣٥/٢ وارحقه أغشاه بمعنى ضربه والحسام الحاد والمدروب الحديد والمخشيب حديث العهد بالصقل •

^(•) ديوان الهذليين ٢/١٣٩ ولا الوائد يعنى ليس لك الا السمية، وأبى عجل يربد جلد الثور صنعت منه ترس •

⁽٦) المصدر السابق ٢/١٦٨ ونشيت شممت والمهند المسحوذ والقضاب القطاع ٠

⁽٧) المصدر السابق ٣/١٥٣ في رئاء قريبة خالد بن زمير والأوساف في الببت لخالد -

واما صخر فيسمى سيفه الجراز متحدثا عن حدة متنه ومضائه ، فيقول حين طولب بدية أحد قتلاه مخاطبا خصمه أبا المثلم :

ليت مبلغا ياتي بقـــول لقاء ابي المثلم لا يريث (١) فيخبره بان العقل عندي جـراز لا أفل ولا أنيث (٢) به أقم الشجاع له حصاص من القطمين أذ فر الليـوث (٣)

وأبو المثلم هذا الذى توعسده صخر الغى قائلا ان الدية التى تطلبها لن تجدها عندى الا سيفا له صفاته السابقة ، تجد أبا المثلم هذا يؤمن عسل ما ذكره صخر عن سيفه ، بل يزيد فى وصف سيف صخر عما وصفه صخر نفسه فيقول :

وتأبط شرا يؤكد أنه لا تهمه للسيف حلية أو رونق ، وانسا يهمه أن يكون سيفه حديدا ماضيا ، ولذلك فانه اذا وجد سيفه قد فل أو كل شحده بحد الحجارة دون أن يحتاج الى صيقل يصقله فيقول :

اذا كل امهيته بالصف فعد ولم اره صيقلا (٨)

أما عبد الله بن سبرة الحرشى فبهمه أن يجلى الصياقل عن سيفه ما يعلق بنصله فيقول :

⁽١) المصدر السابق ٢٢٣/٢ ولقاء أي تلقاء وقبالة ويريث يبطىء •

⁽٢) العقل الدبة والجراز القاطع والإفل المفلول ولا أثبت يعنى حديد، ذكر ٠

 ⁽٣) أقم الشبجاع أرده وله حماص أى جد ونشاط فى مره وقطعه والقطمين المتهيجين من
 الفحولة •

⁽³⁾ البر السلاح والخلل جمع خله بطانة جنن السيف واداد بها السلاح تفسه : ديوان الهدليين ٢٣٠/٢ ٠

 ⁽٥) النكس الضعيف والجبل بفتع الجيم وكسر الباء الكر الغليظ غير السهل والعضب
 القاطم ٠

⁽٦) وسبحة قوس سهلة الاستعمال وكاتبة ليس بها صدع والسبيكة الصفراء يعنى قوسا غير منكسة ولا عاطلة من الوتر ٠

⁽٧) القنية المال المقتنى يريد أن الحازم يستبقى أهله وعشيرته ويحرص عليهم فلا يسل على قتلهم كما تفعل ألث ٠

⁽٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ وكل أى قل حده وأمهيته شعدته وحددته والصفا توع من الحجارة •

كل ينوء بهاضي الحد ذي شطب جلى الصياقل عن ذريه الطبقا (١)

و وجعدر بن معاوية حين أودع السجن أشفق أن يموت ، لا رهبة من الموت وجعدر بن معاوية حين أودع السجن أشفق أن يموت ، لا رهبة من الموت ولا حبا في الحياة ، وانما لأن لسيفه وسلاحه حقا وغاية لم يحققها بعد فيقول :

ولم الله قد تفيت حقوق قومي ولا حق المهند والسنان (٢)

ومالك بن الريب حين حلقت المنية فوق رأسه ، وأحس طعم الموت في حلقه في رحلته التي مات فيها مشردا غريبا ، حينداك وجه نفسه وحيدا يصارع الموت والغربة ، ولكنه في هذه العحظات العصيبة لم ينس سيفه ورمحه ولئن كان سيغه قد صاحبه حياته صحبة الرفيق والساعد والسند القهوى المتين ، فانه في لحظات موته أيضا كان النادب والراثي والباكي ولا باكي غيره وغير رمحه وفرسه فيقول :

الذكرت من يبكى على فلم أجهد سوى السيف والرمح الرديني بأكيا واشقر محبوك يجر بالمهمة الى الماء لم يترك له الموت ساقيا (٣)

٢ _ السهم :

ومن ألزم الأسلحة للصعاليك القوس والسهم ، لأنهم بحكم حيساتهم يعتمدون اعتمادا أساسيا على أشخاصهم بمفردها ، وبحكم اعتماد الصعلوك على أسلوب الترصد ، والهجوم والدفاع الفردى ، يحتاج الى سلاح بعيد المدى فى الاصابة ، يحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر مع أعدائه أو ضسحاياه ، والسهم خير ما يحقق له ذلك ، ولذلك نجد شعرهم يتحدث كثيرا عن السهم ويصور أهميته فى حياتهم وتحقيق أغراضهم ، فمن ذلك ما يصفه صخر البغى عن سهامه ، من أنها مع ترسه حصن منيع يحول بينه وبين أعدائه ، ويرد عنه مترعديه حيث يقول :

انى سينهى عنى وعيدهم بيض رهاب ومجنا أجد (٤) والشنفرى يتحدث عن أهبية السهام للصعلوك حتى أنه يحمد منها ما يستطيع حمله دائما ، لأنها الحاجز المنيع بينه وبين أعدائه ، والقبضدة المطولى في بلوغه اياهم ، فيصف رفيقه تأبط شرا الذي يسميه « أم عيال » لأنه كان يدبر أمر قوتهم حين يغزون ، يصفه بأنه يحمل دائما جعبة فيها ثلاثون سيما مهيأة للاطلاق فور احساسهم بأول خطر فيقول:

⁽١) أمالي القالي ٢/١١ والشبطب طرائق السيف في متنه وذريه لمانه والطبق الوسخ •

 ⁽۲) أمال القالى ۱/۸۷۱ •
 (۳) مهذب الأغانى ۱/۷۰ مرثبته المشهورة •

⁽٤) ديوان الهذلين ٢/٥٥ والبيض الرهاب السهام المرهلة المرقلة والمجنأ الترس وأجد شديد صلب *

لها وفضة فيها ثلاثون سيحقا اذا آنست اولى العدى اقشعرت(١) ثم ــ اذا فزعوا طارت بأبيض صادم ورامت بما في جفرها ثم سلت (٢)

ويصف أبو خراش سهمه الحاد العريض النصل ، وذلك خلال صورة دقيقة جميلة يرسمها لقطيع من حس الوحش تعرضن لصائد ، فبعد أن وصف القطيع بما فيه من أتن حوامل وذكور يحاولن النزو على الاتن رغم حملهن ، ثم ما يحدثه القطيع من تصايع وجلبة وتعارك يثور له حولهن وفوقهن غبار كانه الثوب المنسوج ، ثم اشتداد وهيج الشمس عليهن ، وسعيهن الى الماء وبعد أن شرب القطيع وعاد هنالك كان أبو خراش وسهامه راصدا للقطيع فيقول مكملا هذه الصورة ،

منيبا وقد امسى تقدم وردها اقيدر محموز القطاع نديل (٣)

يريد أن القطيع حين عاد وقد أمسى عليه المساء ، كان أبو خراش قد سبقه وترصد له فى طريقه وتابع القطيع سيره ، محاذرا بغريزته ، مرهفا سبعه خشية أن يكون فى طريقه صائد يكمن له كما كان أبو خراش كامنا حينئذ له وشىء واحد لم يستطع القطيع أن يخفيه ، هو وقع أرجله القوية فى طريق خشنة غليظة غير ممهدة ، وتزداد حدة وقع أرجله حينما يكون منحدرا من هضبة مرتفعة ، ويعبر أبو خراش عن ذلك قيقول :

فلما دنت بعد استماع رهفنه بنقب الحجاب وقعهن رجيــل (٤)

ويتابع أبو خراش صورته هذه الواقعية الجميلة ، فيقول أن الحمسر الوحشية ظلت في انحدارها القوى الوقع من المرتفع حتى نزلت بطن الوادى ، وفي مثل هذه الوديان المنخفضة من الصحراء تتجمع عادة مياه الأمطار والسيول ثم تجف أو يجف معظمها ، فتنبت منها طحالب وأنواع من نبات الصحراء قد يكون بعضها كثيفا أو مرتفعا ، ولذلك حينما نزلت حمر الوحش من مرتفعها لنجتاز هذه النباتات النابتة في مياه آجنة أخذت الحمر تفتح ما بين رجليها

 ⁽١) المغضليات ١١١ والوفضة جعبة السهام والسيحف السهم العريض النصل وآنست أحست والندى بفتح العن وكسر الدال جماعة العدائين واقشسرت تهيأت للقتال وضمير التأنيث
 يعود على أم عيال وهو تأبط شرا •

⁽٢) الصادم القاطع للسيف والجفر كنائة السهام يريد أنه يرمى سهامه فاذا تفدت سل السيف .

 ⁽٣) ديوان الهدلين ٢٠/٢ منيا راجما والورد مكان الورود من الماه واقيدر قسير العنق يعنى المساء ومحمول شديد صلب والقطاع السهام والديل من الندالة يريد انه رث الثياب غير نظيف المطهر ٠

المظهر •

 ⁽³⁾ دلت يعنى حبر الوحش وبعد استماع رهفته أى بعد تسمع أرمغن فيه آذالهن والنقب الطريق الفليظ والحجاب الأرض المرتفعة كالهضبة الصغيرة ، والرجيل القرى يعنى وقع أرجلهن رقوى عنيف .
 قوى عنيف .

الأماميتين فيما يشبه الوثب المضطرب لتجتاز هذا الماء الآجن بما فيه من طحالب ونباتات

يفجين بالأيدى عسلى ظهر آجن له عرمص مستأسد ونجيل (١)

وبعد آن اجتاز القطيع هذا الماء الآجن بها فيه من نباتات مضى فى طريقه صوب الجبل ، وهنا كان أبو خراش فى تتبعه القطيع ببصره قد وجد الفرصة الاقتناص أحد هذه الحمر بسهمه وقد اختار أقربها اليه ، وفجأة أحس الحمار بابى خراش وسهمه ، فاعتراه فزع شذيد ، وحاول النجاء ، ولكنه وجد نفسه وليس أمامه الا شق فى الجبل أحسن أبو خراش اختياره الاصطياد صيده ، والدفع الحمار فى الشق ، فأصبح كالصيد فى الفخ ، وحينئذ كان سسهم أبى خراش الضخم الحاد العريض النصل كما يصفه يغور فى فؤاد الحمار ،

فلما رأى ألا نجاء وضمه ألى الموت لصب حافظ وقفيل (٢) وكان عسو الأدنى فخسل فؤاده من النبل مفتوق الغرار بجيل (٣)

ومن هذه القصة نرى جانبا من جوانب حاجة الصعاليك الى السهم ، وهو جانب الصيد ، الذى تعتمد حياتهم عليه ، ان طعامهم بحكم حياتهم فى الصحراء وانقظاعهم عن المجتمعات امادا قد تطول الى الأشهر الطويلة أو ما هو اطول من ذلك ، فى رحلات الغزو المعيدة المدى ، وفى الفترات الطويلة التى يضطرون فيها الى التخفى من المطاردة ، فى كل ذلك لا وسيلة لهم الى العيش الا الطرد والصيد لا يصلح له فى أسلحتهم الا السهم ، وعمرو ذو الكلب يجعل مى سلاحه وسهامه خبر ود على وعيد المتوعدين ، فسيفه الملازم له كالوشاح ، وترمنه الذي يتقى به سهام العدو فتفل سهام العدو على صلابة ترسه وسهمه المعد للانطلاق ، وكنائته التى تحوى سهاما محددة كالشوك ، كل ذلك يجعل وعيد أعدائه هراء ، فيقول :

تمنانى وابيض مشرفيسا أشاح الصدر اخلص بالصقال (٤) واسمر مجنا من جلد ثور اصلا مفلا ظبة النبال (٥)

⁽۱) يقجين بالأيدى يفتحن ما بن أبديهن والآجن الماء الراكه وله عرمهن يعنى به نباتات والمرمه الطحلب من النبات ومستأسد يمنى هو نبات صلب ونجيل نبات رخو يريد أن الحسر فتحت يديها لتجناز ماء آجنا به نباتات بعضها صلب وبعضها رخو .

⁽٣) دأى يريد الحمار وأصب بكس اللام وسكون الصاد الشق في الجبل وحافظ لا منفذ المدينا ولا شمالا وتفيل جاف بابس •

⁽٣) الأدنى الأقرب يعنى أن الحمار الذي تخيره كال الربها اليه ، وخل ثقب نزاده بسهمه ومغتوق عريض يعنى السهم والغراد الحد وبجيل ضخم .

⁽٤) ديوان الهدلين ١١٦/٣ وأشلع الصدر ملازم كالوشاح للصدر ٠

 ⁽٥) مجناً محدب يعنى الترس وأصم ليس فيه خال ولا منافذ ومقللا اسم فاعل أى بكسر النبال والظبة الحد •

وايفاقى بسبهمى ثم أدمى والا فالاباءة فاشتمال (١) وفى قعر الكثنائة مرهفات كأن ظباتها شوك السبسبال (٢)

والشنفرى يبين وجها من وجوه حاجة الصعاليك الى السهم أيضا ، أو موقفا من مواقف النفع له ، فيقول ان ورود الماء على ما فيه من أخطار ، حيث يكون الماء دائما في الصحراء مطلبا للناس ومنهم الأعداء ، ومطلبا للوحوش وكلها عدو ، لا يخفيه ما دام يحمل سيفه اليماني ، وسهامه المنتقاة من خير السهام والتي تعرف طريقها دائما حين يرميها الى القلوب ، لأنه تابع برى هذه السهام حتى ان لها حين تنطلق لصوتا وذفيفا عجيبا فيقول عن سهامه هذه وعن أمنزات انطلاقها :

وانك لا تدرين ان رب مشـــرب مخوف كداء البطن او هو اخوف (٣) وردت بماثور يمان وضالة تخيرتها مما اديش وارصف (٤) ادكبها في كل احمر غائــر وانسج للولدان ما هو مقـرف (٥) وتابعت فيه البرى حتى تركته يزف اذا انفذتـه ويدفذف (٣)

ويمكن القول بأن السهم وأداة رمية وهى القوس أهم ما يلزم للصعلوك الاعتماده على شخصة كفرد ، والاعتماد حياته على الترصد والخفية كما قلنا ، فهو في حاجة الى سلاح بعيد المدى بحيث لا يضطره الى الاصطدام المباشر معاعداته. بالاضافة الى حاجته الاساسية فن الصيد ونحو ذلك مما أشارت اليه صور استعمالهم للسهم ، ولذلك تجد السهم مرتبطا في حديثهم دائما بهذه الأغراض بل هو مرتبط في خيالهم بالدفاع عن النفس ضد أشد المخاطر التي يتخيلونها أو بمعنى أصح بتخيلها بعضهم كخيالات عبيد بن أيوب عن الجن والغيلان ، هذه الخيالات التي حاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فنجده يوبط السهم بهذه الحيالات في صراعه معها فيقول :

ولقد لقيت منى السباع بلية وقد لاقت الغيلان منى الدواهيا

⁽١) الايقاق أعداد السهم للرمى والانالاباءة يعنى اذا انقدت السسهام لحات الى السيف وروى قاستلال وهو أوضع .

⁽٢) الكنانة جمية السهام ومرهنات حادة والظبة الحد والسيال شحر له شواد .

⁽٣) مهذب الأغاني ١٩٥/١ والشرب مكان الشرب -

⁽²⁾ المأثور ذو الصلابة والحدة والضالة السهام والرصف في القاموس رصف السهم شد على رعظه عقبة .

⁽٥) يعنى بالشطر الأول احبرار القسى من الشمس والاستعمال والقرف شحر ٠

⁽١) يَدُلُ وَيَدْفَدُفُ يَعْنَى صَوْلَ السَّهِمَ عَنْهُ الطَّلَاقَةُ وَفَي القَامُوسَ سَهُمَ مِدُّفَفَ سَريع خَفْفُ •

⁽٧) الحبوان للجاحظ ٦/١٦٥ ٠

ولئن كان ذكرهم للسيف أكثر ، فأن ذلك من قبيل التقليد العربي في ملازمة السيف لكل فرد ، واعتباره السلاح الاساسي في حياة كل منهم ، وأن كان بعضهم كالصعاليك أحوج في معظم أحيانه لل غيره ، ا

٣ ـ القيبوس:

والقوس مرتبطة بالسهم لأنها الآداة التي يرمى بها ، واهتمامهم بالسهم ينعكس على القوس أيضا ، ونجد الحديث عن السهم مرتبطا غالبا بالحديث عن المقوس •

وفى حديثهم عن القوس نجد معنيين سيطرا على حديثهم عنها ، أحدهما اللون ، وفى هذا المعنى نجدهم غالبا يصفونها بصفرة اللون ، وهو اللون الأصيل فيها ، وفى أحيان قليلة يصفونها بالاحمرار ، لا على انه لون أصلى وانما على أن طول استعمالها وتعرضها للشمس والمطر قد أثر فى صفاء صفرتها ،وحولهذا الصفاء الى شىء من الحمرة ، والمعنى الآخر الصوت الذى تحدثه القوس حين ينطلق عنها السهم ، أو صوتها مع صوت السهم فى انطلاقه واندفاعه الشديد فى الفضاء ، وغالبا ما يحتمع حديثهم عن المعنيين و ونلاحظ ان الشنفرى من أكثر شعراء الصعاليك حديثا عن القوس ، وانه مفتون أيما فتنة بالصوت الذى ينبعث منها ومن ألسهام حين الرمى ، فنجده مرة بعد أن يذكر انها « صفراء عبطل » (١) يقول عن صوتها وصفاتها :

هتوف من الملس الحسان يزينها رصائع قد نيطت اليها ومحمل (٢) الله عنها السهم حنت كأنها مرزاة لكل ترن وتعول (٣)

ومرة أخرى يذكر لونها، ويشبه صوتها بصوت الحزين ، ولكنه لايكتفى بذلك ، وانما يشبهه أيضا بصوت النحل حين يخطى غاره وخلاياه فتنتابه نوبة من الدوى القوى العميق فيقول في سياق انه لا يملك غير سلاحه :

وصفراء من نبع أبى طهير ترن كارنان الشجى وتهتف (٤) اذا طال عنها النزع تاتى بعجسها وترمى بمدريها بهن وتهتف (٥)

⁽١) عيطل طويلة العنق : اللامية في البيت الحادي عشر ٠

 ⁽٦) اللامية : والهتف الصوت والملاسة النمومة وفي رواية الملس المتون والمحمل ما تملق
 به ولبطت شدت •

 ⁽٣) زل انفصل وحنت من حنين الابل الى أولادها بالصوت المخصوص ومرزأة كثيرة الرزايا
 تصيبها والتكلى المفجوعة بفقد ولدها وترن من رئين الصوت ودويه وتعول من العويل -

⁽٤) مهذب الأغانى ٩٥/١ والنبع شجر للقسى وللسهام ينبت فى قلعة الجبل كما فى القاموس مادة (نبع) ٠

⁽٥) العجس مقبض القوس ومذرا القوس الموضعان اللذان يقع عليهما الوتر واحدهما مذرى

كان حفيف النبل من فوق عجسها عوازب نحل أخطأ الغار مطنف (١)

ويصف الشنفرى مبلغ اعتزازه بقوسه ، فبجعلها قرينة طياته ، بحيث لا يفرط فيها الا عندا تهدد حياته ، كما ذكر فيما مر من ليلة النحس الشديد الذي هدد حياته بالبرد فاضطر الى ايقاد قوسه ليستدفى، بها ، وقد تحديث عن احمراد لونها أحيانا كما سبق آنفا ٠

ويصف عبيد بن أيوب العنبرى قوسه بصفرتها ووترها ونصال سهامها فيقسول

الم ترس صاحبت صفراء نبعة لها ربدى لم تفلل معابله (٢)

وأما صخر الغى فيرى لقوسه رنينا خاصا مغردا فى بحة ودوى ، كانه صوت العدائين حين يطلبون شيئا فيتجاوب صدى تناديهم فيقول :

وسمحة من قسى زارة صفرا ، هنوف عدادها غسرد كان ارنانها اذا ردمست هزم بغاة في اثر ما فقدوا (٣)

وأبو المثلم الهذلى خصم صخر الغى ، والذى كانت بينهما ملاحاة ومنافرات يؤيد صخرا فى الاعجاب بقوسه ، فيقول له انك ان تكن ذا سلام تجمعه ، وذا سيف توى ، وقو ، محكمة ، فان فينا فتبانا لا يقلون عنك فيقسول أبو المثلم فى خطابه هذا لصخر عن قوس صخر :

وسمحة من قسى النبع كاتمة مثل السبيكة لا ناب ولا عطل (٤)

وعمرو ذو الكلب يصف متانة قوسه وصلابة تركيبها ، وجودة الخشب الذي صنعت منه فيقول:

وصفراء البراية فرع نبيع مستمة على ودك حسدال (٥)

ومما برتبط بالسهم. والقوس الكنانة ، وقد تحدثوا عنها ، كما مر خلال المشعن السابق « وفي قمر الكنانة مرهفات » (٦) ومثل « لها وفضة فبها ثلاثون

⁽١) الحقيف الصوت وعوازب مبعدة ضالة والطف الحيد من الجبل يريد كسود الحل حين يفسل عن غاره في منحنيات الجبل .

⁽٢) كامل المبيد ١/ ٢٠٠ والربدى الوتر والمابل النصال العريضة الطويلة •

⁽٣) ديوان الهذليبن ٣٠/٣ وزارة مكان مشهور بصناعتها والهتف الصوت والتغريد صوت مخصوص ، والردم هيئة مخصوصة في استعمال القوس والهزم الصوت وبفاة طالبون •

 ⁽³⁾ ديوان الهذلين ٢/٢٠٠ وسمحة سهلة الاستعمال وكاتمة ليس فيها صدع والسبيكة الصفراء ولا ناب يعنى غير منكسة وليست عطلا من الوثر ٠

 ⁽٥) ديوان الهدليين ٣/١١٨ على ورك يعنى أصل الشجرة التي صنعت منها وحدال يعنى
 فيها طمائينة من أحد رأسيها

⁽٦) ديوان الهذليني ١١٦/٣ عمرو بن عجلان ذو الكلب ٠

سيحقا ، (١) ، ويمكن أن نقول أن السيف والسهم وأدواتهما ، هما الأسلحة الأساسية لحياة الصعلكة نفسها ، وأن ما سواهما من الأسلحة التي ذكرها الصحاليك ليست أسلحه صعلكة ، وأنها هي أسلحة حووب كالرمح والدرع ولكن حياة الصحاليك لم تكن صعلكة خالصة ، لأنهم مهما يكن من أمرهم فهم جزء من قبائلهم ، ولا يستطيعون التخلي من مشاركة أقوامهم ما يعوض لهم من حروب وصراع بينهم وبين غيرهم من الأعداء فهم في هذا جزء من المجتمع ، ورجال حروب في بعض المواقف ، ولا يستطيعون الاستغناء عن كل ما تضط اليه الحرب من أسلحة وأدوات ، ولذلك نجدهم يتحدثون عن أسلحة المروب ولكنه واضح من شعرهم أنه حديث جانبي وليس صلبا في أشعارهم وصراعهم الحقيقي ، لأن الصعلكة وحياتها وصراعها هي التي تملأ تفكرهم ، وتوحى الى مشاعرهم بما تتضمنه حياتها ، ولذلك لم يكن الحديث عن أسلحة المروب يحمل طابع الاهتمام أو الكثرة التي حظيت بها أسلحة الصعلكة في شعرهم ،

٤ - الرمستح :

الرمح من الأسلحة التي يغلب استعمالها في الحروب ، ولذلك لم يكن حديثهم عنه مستفيضا ولا مطبوعا بالاهتمام ، ولكن الرمح ليس مقصورا على الحروب ، بل يستعمل في الصيد والصيد من الحاجات الضرورية لطعام الصعاليك ومعاشهم ، ولذلك نجد صخرا الغي يصف الرمح في سياق صيد حماري وحش فيقسول :

فشامت فى صدورهما رماحا من الخطى اشربت السماما (٢) ويرثى أبو خراش اخوته مشبها اياهم بالرماح الزرق الحداد الشداد فيقول:

حسان الوجوه طيب حجزاتهم كريم نثاهم غير لف معازل (٣)

رماح من الخطى زرق نصالها حداد أعاليها شداد الاسافل (٤)

وعروة بن الورد يصف رمحه بأنه دائم الغلبة والنصر ، وانه اسممر القناة فيقول :

ومالى مال غير درع ومغفر وأبيض من ماء الحديد صقيل وأجرد عريان السراة طويل (٥)

⁽١) المفضليات للضبى من ١١١ شعر الشنقرى ٠

⁽٢) ديوان الهذليين ٢/٦٦ والخطى تسبة الى مكان صنعه والسمام الثقوب .

 ⁽٣) ديوان الهذلين ٢٣/٢ والعجزة في الأصل معقد الإزار يريد وصفهم بالعفة ونثاهم
 ما يشيح عنهم يريد طيب حديث الناس عنهم والألف الثقيل والأعزل المجرد من السلاح ٠

⁽٤) الخطى نسبة الى المكان الذى صنعت فيه الرماح وزرق تستعمل مرادا بها البيض ويريد بالنصال الأسنة •

⁽٥) السدة لابن رشيق ٢/٥٧ والمثقف الغالب المنتصر ٠

ويصفه مرة أخرى بأنه لدن محدد فيقول : ﴿

بكل رقاق الشفرتين مهنسد ولدن من الخطى قد طر أسمرا (١)

وأما مالك بن الريب فيجد رمحه ثالث اثنين ، لا باكى عليه غيرهن حين اشرف على الموت في غربته فيقول :

تذكرت من يبكى على قلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا واشقر معبوك يجر جامسه الى الله لم يترك له الموت ساقيا (٢) ويتحدث عبرو بن براقة عن قنوات رماحهم فيقول:

فلا صلح حتى تقدع الخيل بالقنا وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم

- ويقتدول --

متى تطلب المال المنع بالقنا تعش مثريا أو تخترمك المخارم (٣) ويقول قيس بن المدادية عن اثر قنواتهم فى استباحة نساء أعدائهم ، واستيلائهم عليهن سبيات :

وأنا بلا مهر سنوى البيض والقنا نصيب بافناء القبائل منكحا (٤) ويقول عبيد الله بن الحر أيضا عن أثر القنا في سبى النساء اللاتي كانت منهن أمه:

ان تك امى من نساء أصابها سباء القنا والرهات الصائح (٥) ويقول أبو خراش نو وصف الحيل التي يحثها على العدو الشديد فرسان يعملون القنا :

شواحی یمریهن بالقوم والقنسا فروع السیاط والاعنة والرکل (٦) ویقول جحدر بن معاویة عن خوفه من آن یموت و با یقض حقوق سنان رمحه:

ولم الله قد قضيت حقسوق قومي . ولا حق المهشد والسسنان (٧)

⁽١) ديوان عروة بن الورد ص ٩٧ والطرير من السنان المعدد ٠

⁽٢) مهذب الأغاني ٥/٨١ من مرثيته ٠

⁽٣) أمالي القالي ٢/١١٩ •

١٤٤/١٤ الأصفهائي ١٤٤/١٤ •

⁽٥) أمالي التالي ٣/٠٢٠

⁽٦) ديران الهذليين ٢/١٩٥٠ ٠

⁽۷) أمال القالي ١/٨٧٨ ٠

ويويد مالك بن الريب أن يحفر قبره بأطراف أسنة الرماح فيقول : وخطا باطراف الأسدنة مضجعى وردا على عينى فضل ردائيا (١)

ه ـ الدرع والترس:

ومن أسلحة الحروب أو من وسسائل الوقاية في الحروب الدرع ، ولكون الصعاليك ، يهتمون بحياتهم الخاصة في الصعلكة دون الحروب ، لم يهتموا بالدرع ، بل لم تكن بهم حاجة اليها ، بل ان في حملها مثقلة لهم تفسد عليهم حباتهم في الصعلكة التي تحتاج دائما الى خفة الحركة وسرعة العدو ، ولم يتحدث عن الدروع الا الذين عاشوا فترات مع أقوامهم على أنهم من فرسائهم كقيس ابن الحدادية ، الذي كان يعتبر قبل خلعه من فرسان قومه المعدودين كما يبدو ذلك واضحا في شعره ، فيقول عن انتقاله من حياة الدعة والهدوء الى صراع الحروب :

واصبحت بعد الأنس لابس جبـة أساقي الكماة الدارعين العواليا (٢)

وبكر بن النطاح وان كانت قد غلبت على حياته فترات من الركون الى ابواب الامراء والسادة والعيش فى رحاب نعمتهم منصرفا عن معاناة حيساة الصملكة وقسوتها ، وقد شذ فى ذلك عن الصعاليك ولم يشاركه هذا الشذوذ الا فضالة بن شريك ،ومالك بن الريب فى فترات قليلة من حياتهما ، وكان بكر بن النمطاح اكثر الصعاليك امعانا فى هذا الشذوذ كما يبدو من أخبداره وشعره ، نقول مع هذا كان فيما بينه وبين نفسه مهيا للصعلكة والعودة الى نشاطها فى أى وقت ، وكانه فى حالة استعداد و « طوارى « كما حدث فعلا عين استثاره أبودلف الأمير بقوله انك تكثر من وصف نفسك بالشجاعة دون أن أدى من شجاعتك شيئا ، فقال له : أيها الأمير وأى غناء يكون عند الماسر الأعزل ،ثم اخذ سيفا وفرسا ودرعا ورمحا فخرج حتى أغاد على مال لأبى دلف نفسه فأخذه (٣) ، ولذلك يتحدث فى شعره عن أنه وأن كان اليوم فى ترف فانه بستطيع فى أى وقت أن يكون مقاتلا وصعلوكا :

اذا شئت غنتنى ببغداد قيئة وان شئت غنائى الحمام المطوق الباس الحسام او ازار معصف ودرع حديد او قميص مخلق (٤)

⁽١) مهذب الأغائى ٥/٨٠ .

 ⁽۲) أغانى الأصفهائى ١٥٤/١٤ ولا بس جبة يمنى درعا سابغة كالجبة وأغلب النأن أن أصلها لابس جنة بالنون ثم حرفت فى الروايات والدارعون لابسو الدروع والعوالى الرماح •
 (۲) أنظر مهذب الأغانى ٨٤/٨ ـ • ٩ •

⁽٤) الحيوان للجاحظ ١٩٦/٣ يريد بالحمام المطوق حياة الصحراء والصملكة يعنى ال

وهناك أيضا الترس الذي كانوا يصنعونه من جلد قوى ، كانوا يؤثرون له جلد الثور ، وهو نوع من وسائل الدفاع كالدرع ، وعن هذا الترس يقول صغر الغي :

انی سسینهی عنی وعیسدهم بیض دهاب ومجنا أجد (۱)

والترس أخف حملا من الدرع ، ولذلك فهو أنسب للصعاليك حتى لا يثقل حركتهم ولا يعوقهم عن العدو فان لم يكن بد من اتخاذ أحدهم شيئا يتقى به وقع النبال ، فالترس أنسب لهم من غيره ومن أجل هذا نجد حديثهم عنه أكثر واحظى بالاهتمام من الدرع ، وهذا عمرو بن العجلان المعروف بذى الكلب ، ينحدث عن ترسه ، وعن أهميته في صد النبال عنه ، مصرحا بالمادة التي صنع منها فيقول :

تمنائی وابیض مشرفیسا اشاح الصدر اخلص بالصــقال واسمر مجنسا من جلد ثور اصم مفللا ظبة النبال (۲)

وأما أبو خراش فيسترسل في وصف الشور الذي صنع من جلده الترس بأنه ثور قوى ضخم ، قد شبع غذاء من وديان جيدة الماء والنبات ، وانه ليبلغ من قوته انه لا يعبأ بالثيرا نحين تعرض له لتصده عن طريقه ، فان فعلت عادت الثيران مصدعة معطمة عنه بعد أن يكون قد أدمى جنوبها بقرنيه ، وانه ليبلغ من الضخامة انك حين تراه قائما على مرتفع بارز ، تحسبه لضخامته بيتا من جلد ، وتحسب قوائمه أوتادا أرسى بها هذا البيت ، يقول أبو خراش عن هذا المنظر مخاطبا عدوه واقدا :

وجلد ابى عجل وثيق القبائل (٣) فروع الآباء في عميم السوائل (٤) تصنعن عنه داييات الشواكل (٥) طراف رست اوتاده عنيد نازل (٢) اواقد لا آلوك الا مهندا غسداه من السرين أو بطن حلية يشب اذا الثيران صسعت طريقه يظل على البرز اليفاع كانه

 ⁽۱) ديوان الهدلين ۱۹/۲ والبيض يريد السهام ومجنا الترس واللفظ ماخوذ عن معنى
 محدب لأن الترس كذلك وأجد صلب ٠

⁽۲) ديوان الهدلين ١١٦/٣ البيت الأول سبق ذكره في السيف وأسمر ترس ومجنا أحدب وأسم ليس فيه خلل ومقلل يكسر حد النبال ٠

⁽٣) ديوان الهذالين ٢/١٣٩ « آلوك يعنى ليس لك عندى وأبر عجل يعنى الثور وجلاه

⁽٤) السرين بلد وبطن حليه واد والأباء التصمي والمميم النبت المزدهر كان له عماله والسوائل أماكن صيل الماء •

⁽٥) المشب المسن في قوة وصدت طريقه يعنى صدته عن الطريق ومحمد عن تفرقن والشواكل ما يل الورك من الجنب ٠

 ⁽٦) البرز ما برز من الأرض واليفاع ما ارتفع من الأرض والطراف بيت من جلد ورست فعل ماض بمعنى ثبتت •
 فعل ماض بمعنى ثبتت •

ومن أهم الأسلحة الذاتية التي اعتمد عليها الصعاليك في حياة الصملكة ، العدو العجيب ، الذي يصفونه دائما بأنه لا تلحقه أو لا تسبقه الخيل ، وقد اتصف بهذه الصفة كثير جدا من الصعاليك كما مر في تراجمهم وخاصة الجاهليين ، كالشنفري وتأبط شرا وعبرو بن براقة ، وأشهر القبائل بكثرة عدائيها هذيل ، حيث نشعر من أخبارهم أن العدو كاد يكون شهيئا مالوفا في حياتهم ، ويعلل السكرى هذه الظاهرة بأن هذيلا قوم رجالة ليسوا باصحاب دواب (١) ، وهذا التعليل وان لم يكن كاملا ، بحيث يشمل تعليل هذه الظاهرة من نواحيها المختلفة ، الا انه يلقى ضوءًا على جانب مهم من التعليل وهو أثر البيئة ، وأسلوب المعيشة الذي يشكل حياة المجتمعات ، ويضطرهـــا الى صوغ حياتها لتتلام معه وتحقق كيانها وتواجه ظروفها على ضوئه ٠

ومهما تتعدد أسباب هذه الظاهرة يمكن فيما نعتقد ارجاعها الى ثلاثة أسباب ، أحدها التكوين الشخصى ، الذى يتيح لصاحبه أن يبرز في ميدان تلك الظاهرة ، والذي أشار أبو خراش الهذلي الى شيء منه في وصف ابنه خراش ، وتعليل سرعته الفائقة ، وعدم استطاعة مطارديه أن يلحقوا به ، حيث يقول عن ابنه هذا حين نجا بعدوه من مطارديه :

كانهم يشبشون بطائر خفيفالشاش عظمه غير ذي نحض(٢)

والثاني الوراثة ، ولعل في هذا تفسيرا لشيوع هذه الظاهرة في هذيل مع أن كثيرا من القبائل تشاركها في ظروف البيئة والمعيشة ، ومن ذلك أن أبا خراش كما سبق في ترجمته كان أحد عشرة اخوة كلهم عداء لا تسبقه الحبل ، والثالث البيئة واسلوب المعيشة ، حيث يضطر كل مجتمع الى صدوغ حياته على ضوء ما تتيحه له بيئته ومعيشته وما تسمحان به كما يقرر ابن خلدون ذلك باستفاضة وتأكيد (٣) .

ويبدو بوضوح في أخبار الصعاليك وأشعارهم ان العدو كان من اهم الأسلحة التي يعتمدون عليها ، والتي كانت تدفع معظمهم الى الاعتماد عسلى نفسه في الغزو أو الترصد ، بمفرده أو مع رفيق على الأكثر في معظم الأحيان ثقة ني الاعتماد على هذه السرعة غير العادية في العدو ، فيطمئن الى أن يغزو

⁽١) أنظر ديوان الهذليين ٢/٧٧ ٠

⁽٢) ديوان الهدليين ١٥٩/٢ والمشاش العظم اللين وحو من عظام الذبائع ما يمكن مضغة من راوس المظام ومعناه مرونة المفاصل في العدو ، والنحض اللحم يعنى أنه خليف اللحم • (٣) أنظر مقدمة ابن خلدون وخاصة الفصيل الأول من الباب الأول بمقدمته من مس ٤٦

الى ٨٧ ٠

أو يترصد ، ولا يزعجه فيهما أن يكون وحده أو مع رفقة معدودة ، فأن ثقت في ساقيه نجعل معه حصنا متنقلا يلوذ به فيحميه في أحسرج اللحظات فالمدو عند الصعاليك ملاذ أخير يلجأون اليه حينما تفل في يديهم أسسلحة الهجوم أو المقاومة كما عبر عن ذلك أبو خراش حيث يقول :

فان تزعمی انی چبنت فاننی افر وارمی مسرة کل ذلك افتال حتی لا اری لی مقاتلا وانجو اذا ما خفت بعض الهالك (١)

وقد تفنن العداءون من الصعاليك في تصوير عدوهم وتشبيهه والاعتزاز به ، فنرى تأبط شرا الذي كان أحد ثلاثة لم تلحقهم الخيل قط وثانيهم الشنفرى وثالثهم عمرو بن براقة ، نجد تأبط شرا يعتمد على ساقيه هو ورفيقساه حينما حصرتهم بجيلة ، وكادت تفتك بهم لولا سيقانهم وحسن تخلصهم ، وبعد نجاة تأبط شرا صور قصة نجائه هذه واصفا شدة عدوه ومطاردة أعدائه الماه فيقول :

بجوت منها نجائى من بجيالة اذ القيت ليلة خبت الرهط أوراقى (٢) ليلة صاحوا وأغروا بى سراعهم بالعيكنين لدى معدى ابن براق (٣) كانها حثحثوا حصاصا قوادمه أو أم خشف بدى شث وطباق (٤)

وبعد أن شبه سرعة عدوه بالنعام والظبية ، لم يرق له هذا التشبيه لأنه لا يعبر عن الحقيقة فهو أسرع من النعام ومن الظباء حقيقة فيما يعرفه من نفسه ، واذن فهذا التشبيه لم يؤد الغرض منه ، فيم يشبه عدوه اذن ؟ أغلب الظن انه لم يجد شيئا يشبه به عدوه فلجأ الى أسلوب الحقيقة ، ولئن كان الأدباء والبلغاء لا يكادون يختلفون في أن أسلوب المجاز بأنواعه أبلغ من الحقيقة ، فاني لا أعتقد أن مجازا مهما يكن أبلغ من أسلوب الحقيقة الذي لجأ الله تابط شرا في هذا السياق حيث يقول بعد الأبيات السابقة :

لا شيء أسرع منى ، ليس ذا عدر وذا جناح بجنب الريد خفاق (٥)

⁽١) ديوان الهذليث ١٦٩/٢ ٠

 ⁽۲) المفتليات ص ۲۸ وبجيلة القبيلة التي أسرته هو وصديقيه والقيت أوراقي استفرغت مجهودي في العدو

 ⁽٣) الميكتان موضع ومعدى للمكان أو مصدر ميمى وابن براقة عمرو وهو والشستفرى صديقاه اللذان أسرا معه •

⁽٤) حصحتوا حركوا وحس احس ما تناثر ريشه والقوادم ما ولى الرأس من الريش يريه الظليم ومو ذكر النعام والخشف ولد الظبية والشت والطباق تباتان طيبا المرعى يشبه نفسه بالنعام والظبية في العدو •

⁽ه) المدر جمع عدرة ما تدل من ناصية الفرس على وجهها يريد الفرس وذا الجناح الطائر والريد أعلى الجبل ، وبعضهم يرى أن ليس أداة استثناء بمعنى الا الفرس والطائر والسياق يرجح أن ليس ممناها لا أستثنى من الحكم السابق وهو لا شيء أسرع منى لا أستثنى فرسا ولا طائرا لأن الفرس ليسد أسرع من النعام الذي أضرب عن تشبيه عدوه به قبل ذلك .

فقوله د لاشيء أسرع منى ، في سياق اضرابه عن التشبيهين السابقين يجعل له مع كونه أسلوب حقيقة عادى جمالا ووقعا بالغي التعبير والايحاء .

وفي قصيدة أخرى يؤكد تأبط شرا انه يفوت الحيل الجياد بجريه فيقول :

ويعقد تابط شرا مقارنة بينه وبين الذئب في معيشتهما وأسمسلوب حياتهما وشدة عدوهما ، بل وفي هيكل جسميهما فيقول :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذنب يعوى كالخليع العيل فقلت له كل عوى ان شسساننا قليل الغنى ان كنت كا تمول كلانا اذا ما نال شسيئا افاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل(٤)

ويصف تأبط شرا أيضا تنقله بين الصحراوات والقفار المتباعدة بما فيها من مهالك ، في سرعة عجيبة لا تتاح الا للرياح ، فيقول عن نفسه :

يظل بموماة ويمسى بقفيرة جحيشا ويعرورى ظهود المهالك ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمنغرق من شهده المتدادك (٥)

وآكثر من أظهر اعتزاره بعدوه وتغنن في تصويره أبو خراش الهذلى ، فهو مرة يلفت نظر زوجه التي أظهرت ازورارا عنه الى هذه الموهبة الرائعة في العدو فيقول :

افاطم اني أسبق الختف مقبـــــلا واترك قرنى في الزاحف يستدعي(٦)

ويشرح أبو خراش همذه الموهبة ، واصفا صدورة من صورها العجيبة فيقسم أنه ما رأى نعامة ولا حمار وحش ولا تيسا من الظباء أجود منه عدوا حين يحدق به الحطر ، ويختار واحدا من الثلاثة ، وهو تيس الظباء أشمه يقول :

⁽١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ وثابت اسمه والألف والزمل الضعيف الجبال .

⁽٢) الجراء الجرى والهيضل الجيش الكثير يعنى أن الجرى لا يتمبه ، ولا تدهشه كثرة الأعداء .

 ⁽٢) التقريب سرعة تقل القنسين في العدو والقسطل النبار والهوادي الإعداق •

⁽٤) خُزَانَةَ البندادي ٩٣/١ والشــطر الأول من البيت الأخير لسرعة المدو والثاني يعنى الهزال الخبيق الميشة •

⁽٥) الحيران للجاط ٦/٥٥/ ونسب هذا الشعر للسليك ٠

⁽١) ديوان الهدلين ١٣٠/٢ والمزاحف أماكن الرّحف والقتال ويريد بالشهطر الأول اله يسبق الذين يريدون قتله فينجو بعدوه والعنف الهلال ويستدمى يريد تسيل دماؤه ٠

فوالله ما ربداء أو علي عسانة أقب وبا أن تيس ربل مصمم (١)

ويتابع حديثه عن هذا التيس من الظباء فيقول انه مهما تصورنا من المفرعات التي تنفر الظبى وتزعجه ، ومن المعروف ان الظبى يكون فى أسرع حالات عدوه حين يخاف الخطر ومهما تصورنا من سيطرة الخوف والفزع على هذا التيس فى عدوه فلن يكون أسرع منى ، ومن الحالات التى يحيط الخطر فيها بالظبى حين يصطدم بفغ فينجو منه كقوله :

وبثت حبسال في مراد يروده فاخطاه منها كفاف مخرم (٢)

وحالة أخرى من حالات اهاجة الظبى ودفعه الى العدو الشديد ، وهى تهافت الذباب اللاسع عليه ، حين ينوشه هذا الذباب بلسعه فينطلق مذعورا لا دلوى على شيء كأنه السهم فيقول أبو خراش عن ذلك :

يطبح اذا الشعراء صاتت بجنبه كما طاح قدح الستفيض الموشم (٣)

وعن حالات ازعاج الظبى وعدوه الشديد ، احساسه بالصائد وكلابه وسهامه ، فينطلق عاديا وقد سد أذنيه كأنه أصلم لا يسمع شيئا ولا يصغى لشيء :

كان الملاء المحض خلف ذراعه صراحيه والآخنى المتحسم (٤) تراه وقد فات الرمساة كأنه أمام الكلاب مصغى الخد أصلم (٥)

يقول أبو خراش أن الظبى حتى فى هذه الحالات التى يكون فيها فى أقصى حالات نفوره وسرعة عدوه ليس بأسرع منى •

باجـود منى يوم كفت عاديا واخطائى خلف الثنية اسـهم (٦)

⁽۱) ديوان الهذليين ١٤٥/٢ والربداء التمامة الغبراء اللون وعلج حماد غليسط والمائة الغطيم من الوحش والأقب ضامر البطن والتيس يعنى ذكر الظباء والربل ثبات ودوى رمل ومهمم من التصميم والاندفاع ٠

⁽⁷⁾ مراد يروده مسادح يسرح قيها والحبال حبال اللغ الذي ينصب للظبي وينطى بالرمال والكفاف يمنى حبال الفغ ومخرم منظم يمنى أن المسائد بث الحبال والفغ ولكنها أخطأت القبض على يد الظبي •

 ⁽٣) يطيع يعنى يسرع فى عدوه والشعراء ذباب يلسع وصائت صوتت فى جلبة والقدح
 السهم المستغبض الذى يقيض بالسهام يغرب بها والموشم ذو العلامات كالوشم •

⁽٤) يصف لون الظبر بأن خلف ذراعه بياض خالص وجسسه ملون كالبرد ذى الألوان والمحص الخالص البياض والصراحى كذلك والآختى نوع من الثياب والمتحمم من الاتحمى نوع من البرود البمائية المخططة -

⁽٥) مصفى حال مبنى للمجهول والأصلم مستأصل الاذن يعنى فى شدة الدفاعة كانه أصلم لا يصفى لما حوله •

 ⁽٦) الكفت الالقباش والسرعة وقيه معنى العود يعنى أسرعت عائدا ناجيا من مطاودى والثنية جزء من الجبل •

ومما ينبغى ملاحظته انهم يعتمدون على الصور الواقعية في البيئة ، من المشاهد التي يرونها ويعانونها ويصارعونها ، أو يشاركونها صراع الحيساة وحتى حينما يلجأون الى المبالغة ، فان مبالغتهم مستمدة من البيئة وحياتها كما وأينا في تشبيه تأبط شرا عدوه بوفد الربح ، فانه وان كان في هذا التشبيه شيء من البالغة ، الا انها مبالغة مستقاة من البيئة ومشاهدها ، فان الرياح وآثارها من المشاهد البارزة ذات التأثير في حياتهم ، بل حتى الحيال حين يلجأون اليه كما سيأتي في خيالات الوهم ، نجد هذا الحيال نابعسا من مخارف البيئة الرهيبة ومجاهلها •

ومن هذه البيئة يوالى أبو خراش وصف العدو وتصويره ، فيصف عدو اينه خراش مشبها اياء بطائر خفيف اللحم مرن العظام كما أسلفنا (٢) ويحكى أبو خراش قصة نجاته من بنى نفاثة حين طاردوه بأجود ما لديهم من خيل ، وكيف أنه حين اشتم رائحة الموت ، وعلم انه لا نفع لسيفه في هدا الموقف ، رفع ساقاً يثق فيها كل الثقة ، وانطلق متخففاً من كل شيء حتى ثيابه ، فكأنه حمار وحش ضامر البطن يقرب أرجام الأرض بقوائمه تقريبا ومن هذا كله يعلم لاثموه انه لم يترك صحبه عن طيب نفس ، وتعلم لائمته انها لو رأت هذا المشهد وما فيه من روع وفزع لبالت على نفسها خوفا ورعبا فيقسول:

> لل رايت بنى نفائة اقبـــلوا فنشيت ديح الموت من تلقائهم ورفعت ساقا لا يغاف عثارها اقبلت لا يشتد شيدي واحسيد أنه يعلم ما تركت منبها لا مت ولو شــهدت لكان تكيرها

یشلون کل مقلص خناب (۳)

وكرهت كل مهند قضاب (٤)

وطرحت عنى بالعداء ثيابي (٥) علج اقب مسير الاقراب (٦)

عن طيب نفس فاسالوا اصحابي (٧)

ماء يبل مشافر القبقيساب (٨)

⁽١) أوائل أطلب النجاة بالشد وحثنى يعنى رجلا يعدو خلفه ومشبوح الدراعين عريضهما والخلجم الطويل والمتن يمني ظهره

⁽٢) ديران الهذلين ١٥٩/٣ ٠

⁽٣) ديوان للهدلين ١٦٨/٢ ويشلون يدعون والمقلص الغرس الطويل القوائم الضامر البطن. والخناب الطويل •

⁽٤) تشبيت شممت والمهند السيف والتضاب القاطع يمنى لم يعد السيف مجديا •

⁽o) السراء الصحراء يمتى الطلقت عاديا وأثناه ذلك طرحت ثيابي حتى لا تثقلني ·

⁽١) العلج حمار الوسش والأقب القباعر ومسير الأقراب يعنى في خاصرته خطوط •

⁽٧) منبه يبدو أله وفيق اضطر الى تركه لدى الإعداء .

⁽٨) مشافر القبقات يمني صوت البول في الفرج •

وحين أحس أبو خراش الموت على أثر لدغ الحية له ، استطاع ان يغالب حب الحياة ، واستطاع أن يعزى الناس عن موته بأن المنايا متربصات بكل السان ، تطلع له من حيث لا يحتسب ، ولكن شيئا واحدا لم يستطع العزاء أن يخفف من شعور الأسى في نفسه لفقده ، هذا الشيء هو ساقه التي سيفقدها رفاقه من الصعاليك فيقول :

لعمرك والمنايا غالبسسات على الانسان تطلع كل نبعد (١) لقد اهلكت حية بطن انف على الأصحاب ساقا بعسد فقد (٢)

ونجد معانى الصعابيك وتشبيهاتهم تتفق مع معلومات العرب وخبرات مجتمعهم عن البيئة ، فحمار الوحش الذى تردد تشبيه الصعاليك سرعة العدو به ، نجد العرب يضربون به المثل فى السرعة ، فيقولون « أسرع من العير (٣) وكذلك يضرب العرب المثل بالجراد فى السرعة (٤) ونجد الصعاليك يشبهون العدو بالجراد فيقول أبو خراش :

وعادية تلقى الثياب وزعتها كرجل الجراد ينتحى شرف الحزم (٥)

کانی اذ عنوا ضمنت بـــزی من العقبان خائتة طلوبـا (٦) جریمة ناهض فی رأس نیق تری لعظام با جمعت صلیبا (٥) رات قنصا علی فوت فضمت الی حیزومها ریشا رطیبا (۸)

وأما الشنفرى فيرى في عدوه غناء له عن كل شيء ، حتى عن الرفقة والحلان ، فأن في عدوه غناء وشفاء لنفسه من كل شيء فيقول :

⁽١) ديوان الهدلين ٢/ ١٧١ وتطلع كل نجد يعنى لا يعجزها مسعود مرتفع مهما علا ٠

⁽٢) بطن أنف هو المكان الذي لدغته فيه الحية وبعد فقد أصله بعد فقدى يعنى بعد موته سيفتقدون ساقه المداءة •

⁽٣) مجمع الأمثال ١/ ٢٥٠٠ .

⁽٤) أنظر مجمع الأمثال للميدائي ١/١٥٤

⁽a) ديوان الهدليبن ١٣٢/٢ وتلقى الثياب يمنى تتخلف من لبسها لسرعة المدو وينتحى يقصد والشرف والمزم الكان الغليظ .

⁽۱) المساور السابق ۱۳۳/۲ والبز السلاح وخائتة منقضة وطلوبا طالبة صيد يعنى كنت في سلاحي كالمقاب ٠

 ⁽٧) جريمة ناهش كاسبة فراخ وصف للمقاب والنيق وأس الجبل والمسليب يريد
 بقايا اللحم على المعظم يمنى عقابا كثيرة المسيد للمرائسها •

⁽٨) القنص الصيد وعلى فوت يعنى صابقا لها يكاد يفوتها والحيزوم الصدر يعنى تهيأت للطيران والانتضاض •

الا لا تعــدني ان تشكيت خلتي شفاني باعل ذي البريقين عدوتي (١) ويصف الشنفرى هذا العدو الذي يشفى نفسه من كل شيء بأنه حين يعدو لا يعوق قلبيه شيء ، بل أن الحجارة التي تعترض رجليه تتطاير فيقدح منها الشرر ويفل حدها كما يقول:

تطايـر منه قادح ومفلل (۱۲) اذا الأمعر الصيوان لاقي مناسمي

ويصف السنفرى صورة من صور هذا العدو ، ووجها من وجوه اعتماد حياته عليه . فيصف مسابقة بينه وبين القطا ، في الوصــول الى بقعة ما، مما تخلفه الأمطار والسيول في الصحراء ، كأنها الحوض ، فيتول ان سرب القطا الذي جاء من سفر بعيد ليشرب من هذا الحوض الطبيعي وصل بعد أن شربت فلم أترك له الا سؤرا قليلا ، ظل يتزاحم عليه ، ويكبو ال قعره بحواصله وذقونه لضآلة ما نيه من ماء فيقول :

هممت وهمت وابتسدرنا وأسدلت فوليت عنها وهي تكبو لعقره يباشره منها ذقون وحوصل (٥)

وتشرب أسارى القطا الكدر بعسدما سرت قربا احناؤها تتصلصل (٣) وشمر منى فارط متمهـــل (٤)

وقد تبدو مثل هذه الصورة غريبة على غير الصعاليك ، بل قـــــــ نراها مسرفة في المبالغة والبعد عن الواقع ، ولكننا لو أحسنا تصور حياة صعلوك يتجول في أماكن ومجاهل متساعدة في الصحراء، وتصورنا مدى حاجة رجل هذه حاله الى الماء ، لأمكننا أن تتصور انه وان كان في وصفه سرعة العــــدو بعض المبالغة _ مع جواز ألا تكون هناك مبالغة _ الا أن في ربط حاجته الى الماء بالقطا غاية الواقعية التي لا يبلغها الا من يعانيها معاناة حقيقية في حياته كالصعاليك ، فالصعلوك المتنقل بين الصحراوات لا يعرف مكانا للماء ، ولا يجد وسيلة لهذه المعرفة الا الاستدلال بالمخلوقات الطبيعية في الصحراء ، فهـو يعرف من تجربته ان سرب القطا يبحث عن الماء ، فيجب أن يتبعه بأقصى ما يمكنه من سرعة حتى لا يغيب عن بصره ، ولو تأملنا الصورة لعلمنا ان المسابقة بينه وبين القطا انما بدأت حيثما أرخى القطا أجنحته أثناء الطيران (٦)

⁽١) المفضليات للفنبي ١١٢ والخلة الصداقة وذو البريقين موضع والمدوة المرة من المدو (٢) اللامية _ والأمعز الكان الصلب والصوان حجارة والمنسم أصلا خف العبير يعنى

قدمية والقادح الشرر والمقلل الكسر حده .

⁽٣) من اللامبة _ والسؤر بقية الشراب والقرب السير الىالماء على بعد ليلة والاحداء جمع حنو الجانب ٠

⁽٤) أسدلت أرخت جناحيها والغارط المتقدم والمتمهل المتأنى يعنى سبقها ولم يجهد نفسه

⁽٥) تكبو تبيل والعقر يعنى شربت قبلها قلم أترك لها الا سؤرا تكبو اليه لقلته ٠

⁽٦) عند توله د وأسدلت » يعنى وأرخت أجنحتها ٠

وهذه علامة تحديد هدفه وعثوره على الماء فالصورة في تفصيلها كما توحيه الفاظها ان الشنفرى بينما كان يبحث عن الماء نظر فوجد سرب قطا يبدو أنه قادم من بعيد باحثا عن الماء ، ونظر فوجده أرخى أجنحته مما يدل على انه رأى ماء في مكان قريب ، ويتبع ارخاء الأجنحة انه قلل من سرعته ، لأنه حدد هدوه وسيستعد للنزول ، هنالك ينطلق الشنفرى الذي لم تلحقه خيل قط مباريا القطا ومن هذا نعلم انه لا مبالغة ولا خيال في الصورة فيما يتعلق بالعدو ، ولكنه التصوير الذي لا يحسنه الا الصعاليك عن حياتهم ، والشنفرى يحدثنا عن ان المسافات بين الأماكن تكاد تمحى ، وان الأماكن مهما تباعدت يكاد يختلط بعضها ببعض حينما يحرك ساقيه فيقول :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ظهره ليس يعمل (١) فالحقت اولاه باخسراه موفيسا على قنة أقعى مرادا وأشسل (٢)

وحبيب الأعلم الهذلى وقع فى مأزق اضطره الى الفراد بأقصى ما لديه من سرعة ، حيث تعرض لمطاردة عنيفة تزعمها عداء يدعى جذيمة العبدى ، ويصف الأعلم للائمته عدوه ، مشبها اياه بالنعامة ، معتذرا بأن الأعداء جعلوه يتصور ان حروف الجبل وهو يعدو سيوف مسلولة عليه ومن هذا الشعر قوله :

كرهت جديمة العبدى لــا رأيت الرء يجهد غير آل (٣) فلا وابيك لا ينجو نجائى غـداة لقيتهم بعض الرجال (٤) كان ملاءتى عـلى هــرف يعن مع العيشـة للرئال (٥) عـلى حت البراية زمخرى السواعد ظل في شرى طوال (٦) كان جناحـه خفقـان ريـــ يمانيــة بربط غـير بال (٧) بدلت لهم بدى شوطان شـدى ولم ابــدل غداتل قتال (٨)

⁽١) من اللامية البيت الرابع والستون والخرق الأرض الواسعة كظهر الترس فى الاستوا ، والعاملتان رجلاه وظهره ليس يعبل يعنى أنه مكان خشن غير مطروق ، ولايتسنى لغيره السيد فيه (٢) الضمير في أولاه للخرق يعنى قطعته مسرعا مشرفا والقنة أعلى الجبل مكان الترصد كالمرقبة والأقماء جلسة خاصة والمثل يعنى ينتصب قائما ،

⁽٣) ديوان الهذليين ٨٣/٢ وجذيبة هو الذي طارد الأعلم والشيطر الثاني يعنى أن عدوه لم يعشر جهدا في مطاردته ٠

⁽٤) يخاطب المرأة اللاثبة يعنى أيس في أعدائه من يعدو عدوه *

⁽٥) ملاءتى تشنية ملاءة يعنى جائبى ردائه والمهلف ذكر النمام يريد أن ثوبه أصبح حوله كجناحى الظليم ويعن يعترض والرئال فراخ النمام •

⁽٦) حت البراية شئيل الجسم يمنى هو سريع على شالته وزمخرى أجوف عظام السواعد اشارة الى زعم العرب أن عظام العمام جوفاء لا مع فيها والشرى نوع من الشبجر يريد أن النمام الزعه منظر طول الشبجر فعدا ٠

⁽V) الريط مما يلبس وغير بالي يعني هو جديد •

⁽A) شدى عدوى يمنى بد لت عدوى ولم أبذل غداتند تتالى ·

واحسب عرفط الزوراء يودى على بوشك رجع واستالل (١) وصنحر الني يشبه سرعة العدو بحباد وحش ذى قوة وصراع نيقول:

ویعدو کعسدو کدر تری بفائله ونسساه نسسوفا (۲)

والأعلم الهذلى له قصيدة كاملة في قصدة مطاردة أعدائه السابقة ، مشبها العدو بسرعة حمر الوحش وعدو النعام ، وتعتبر القصيدة من أدق الشعر وأعمقه في وصف الطبيعة وحيوانها ، وما يكتنف هذه الحيوانات وحياتها ومعيشتها من جوانب لا يحسها إلا الصعاليك ، لأنهم يعيشون معها ، ويشاركونها ظروف الميئة وجفافها وقسوتها ، في أوثق ما تكون المشاركة ، وأقرب ما يكون الموار وأولها :

كما رايت القـــوم بالعلــ ياء دون قدى المناصب (٣)

وحاجز الازدى يتعرص أيضا لمأزق لا ينجيه منه الا العدو . حين أحدق به بنو عامر فعدا عدوه الذى لا يبارى ، وقد شبه عدوه بعدو ظبى طارده صقر يريد أن ينقض عليه ، وبهذا العدو استطاع أن ينجو من قوم حرصدوا على الايقاع به نيقول .

عشية كادت عامــر يقتلوننى لدى طرف السلماء راغية البكر فما الظبى اخطت خلفه الصقر رجلها وقد كاد يلقى الموت في حلقة الصقر بين مقنع وآخر كالسكران مرتكز يفرى (٤)

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى أنجاه عدوه فيها ، ولم تكن أيضا المرة الرحبدة التى وصفها وتحدث عنها بشعره ، ففى مرة أخرى كادت خنعم تفتك به لولا أن أنقذته ساقاه ، وقد تبعه بعض فرسان خنعم فلم يلحقوه ، تم قال حاجز عن هذه الحادثة مشبها عدوه هذه المرة بثلاثة حيوانات مشهورة بالعدو :

وكانما تبع الفوارس ارتبا او ظبى دابية خفافا اشعبا وكانما طردوا بدى نمراته صدعا من الأروى احن مكلبا أعجزت منهم والأكف تنالنى ومضت حياضهم وآبوا خيبا (٥)

ومن هذا كله نعلم مدى أهمية العدو في حياة الصماليك ، ومدى حاجتهم الحيه كسلاح أساسي يعتمدون عليه ، بل كأهم سلاح يطمئنون الى الاعتماد عليه

⁽١) عرفط الزوراء مكان ويودى على يعين غلى يعنى ظن المكان سيوقا مسلولة عليه ٠

⁽٢) ديوان الهذلبين ٢/٧٧ والكدر الغليظ والقائل عرق في باطن الفخذ الى الساق والنسوف أثار من عض ٠

۸۲ _ ۷۷/۲ ما الهذائين ۲/۷۷ _ ۸۲ .

⁽٤) مهذب الأغانى ١/٩٣ ،

فى كل الظروف ، وخاصة فى الظروف التى لا تجدى فيها اسلحة القتسال ولا سواعد المقاتلين .

ومن هذا نعلم أيضا أن حاجتهم الى العدو لم تكن لمجرد النجاة من الأعداء بل لنواحي أخرى في معاشهم وشرابهم أيضاً *

ولكن الذى يلفت النظر ان ظاهرة العدو كانت فى الصعاليك الجاهلين دون الاسلاميين ومع افاضة الروايات والأخبار فى أحاديث العدائين فى الجاهلية من الصعاليك ، نجد الروايات تسكت عن حديث العدو بالنسبة لصسعاليك الاسلام ، ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة لو كانت موجودة كظاهرة لدى الاسلامين لتحدثت عنها الروايات ،

ويمكن تعليل ذلك بأن حياة صعاليك الجاهلية تختلف وخاصة من حيث الرخاء والفقر السديد عن الاسلامين ، فالحاجة الشديدة في الجاهلية جعلت الصحاليك يقضون حياتهم كلها أو معظمها في المستحراوات مستغلن كل امكانياتهم الجسمية ومنها العدو في سبيل دفع الجوع والمخامص ، والانسان ابن عوائده كما يقول ابن خلدون ، أما صعلوك الاسلام فانه وان كان فقيرا الا انه لم يبلغ حد الجوع الذي تحدث عنه الجاهليون كما قلنا حينداك ، ومن ثم فلم يضطر الى مثل الجهد المضنى الذي كان يبذله الجاهليون للحصول على مجرد لقمة العيش ، ومن ثم أيضا لم يضطر الى استغلال امكانياته الجسمية التي مجرد لقمة العيش ، ومن ثم أيضا لم يضطر الى استغلال امكانياته الجسمية التي الراضح كما رأينا ان صعاليك الجاهلية لم يتخذوا العسمو ترفا ولا فخرا وانما اقترن دائما بالاضطرار وأحرج اللحظات في حياتهم وانها المناه المناهدة الم يضور المناهدة الم يضور المناهدة المناهدة

٧ ـ الأماكن

والصعلكة في طابعها العــدائي نوع من الحرب ، وصــورة من صورها ولذلك نجد الصعاليك يهتمون بالحتياد الموقع الذي يزاولون منــه عدوانهم بحيث يتيج لهم نجاح الهجوم والدفاع معا كما يختاد القائد موقعه في الحرب .

وأهم المواقع التي يتحدث عنها شعرهم ، والتي يبدو من وصفها حرصهم العامد على الدقة في اختيارها « المراقب » التي تشبه الكمين ، فالمرقبة مكان حصين يجتهد الصعلوك في حسن اختياره ، بحيث يحقق له غرضين ، أحدهما مراقبة الطريق والمكان المحيط به فيكتشف السائرين في الطريق أو الطرق المحيطة به ، والآخر حصانة المكان ، بحيث يتيح له التخفي عن الأعين ، ويتيح له الدفاع عن نفسه ان أحس الحطر ففي مثل هذا المكان يرقب صيده من

الناس والحيوان وينقص عليه حينما يرى الفرصة سانحة ، وفي مثلة أيضما يحمقي . ثم يحتار الوقت الملائم لغزواته الحاطفة ، وغاراته المفاجئة ، ثم يعود الى حصنه ، أو يتخذ حصنا مشابها .

ونظرا لأن الهدف من اختيار المرقبة واحد ، لذلك نرى وصفهم لها متقاربا ويحمل الصفات الأساسية التي يطلبونها في اختيارها ، فعمرو بن عجهدان يصف مرقبتة بانها مرتفعة شماء حتى ان الطرف يحاد في ارتفاعها ، ونفهم من اختيار هذا المرتفع الشاهق آنه يرى كل الأماكن المحيطة ، وانه يضمن عدم استطاعة الأعداء أن يصلوا اليه ، ومن يجازف منهم بالصعود فان سمهام الصعلوك تصرعه قبل أن يبلغه بأمد طويل ، ويصفها عمرو أيضا بأنها في موضع بارز مشرف من الجبل ، فهي رغم انها تتيح لمن فيها الاختفاء الا أن موقعها يمكن المختفى من المراقبة الكاملة لبروزها ، ويقول انه يقيم فيها وقتا طويلا آمنا متمكنا من استقراره كانه قبال النعل بين الاصبعين ، ثم ينطلق في أوقاته المختارة الى الأماكن التي يريدها فيقول:

ومرقبة يحاد الطرف فيها الى سماء مشرفة القدال (١) القبت بريدها يوما طويلا ولم أشرف بها مثل الخيال (٢) ومقعد كربة قد كنت فيها مكان الاصبعين من القبال (٣) فلست لحاصان ان لم ترونى ببطن صريحة ذات النجال (٤) وامى قينة ان لم ترونى بعورش تحت عرعرها الطوال (٥)

والشنفرى يصف مرقبته هذا الوصف أيضا ، فيقول انها عالية في الندوة ، لا يستطيع أن يبلغها الا القوى الصلب وانه قضى فيها الليل عاقدا ذراعيه أماله منحنيا عليهما متلفتا حوله كانه الأفعى فيقول:

ومرقبة عيطاء يقصر دونها أخو الضروة الرجل الخفيف الشفف نميت الى اعلا دراها وقسددنا من الليل ملتف الحديقة اسدف فبت على حد اللراعين محسدبا كما ينطوى الارقش المتقصف (٦)

وأبو خراش الهذلى يصف مرقبته أيضا بأنها مرتفعة تتيح له الاشراف وانها في حرف تاتيء من الجبل كأنه حد الفاس ، وفي هذا الموضع صنع مظلة من خشب ولكنها أصبحت شبه منهدمة ، حيث سقط أحد جانبيها وبقي الآخر

⁽١) ديوان الهذلين ١١٩/٣ وشماه عالية والقذال الرأس .

⁽٢) الريد الحرف البارز من الجبل والشطر الثائي يعنى أقبت منكبا غير ظاهر ٠

⁽٣) معناه توسطتها كما يتوسط قبال النعل الأصعبين .

⁽٤) الحاسن المرأة العليقة وصريحة موضع والنجال النز .

⁽٥) قينة أمة وعورش موضع ٠

⁽٦) مهذب الأغانى ١٩٥/ والشفف الضعيف وأسدف من السدفة وهي الظلام محديا منحنيه

قالهما ، وَلَكُنَ أَبَاخُرَاتُشَ يُشْمِرُ خُــَلَالُ وَصَفَةُ أَشْبَارَةً مَهْمَةٌ الى هَدْفُهُ مِنْ أَخْتَيْـــار مرقبته فتي هذا المكان ٠ وهو أن تكون مشرفة على ظريق عسمام يتصل مرور الناس فيه ، وهذا الطريق العام لا يخلو من صيد لأبي خراش في تجاره أو ظعينة أو قافلة ، فيقول .

> لست لمرة ان لم أوف مرقبــــة في ذان ريد كذلق الفساس مشرفة

يبدو لي ألحرف منها والمقاضيب (١)

طريقها سرب بالنساس دعيوب (٢)

لم يبق من عرشسسها الا دعامتها جدلان منهدم منها ومنصوب (٣)

والأعلم الهذلي يصف تنقله بين قمم الجبال حين يغشاه الليل فيقول :

دلجي اذا ما الليل جن على القرئة الحباحب (٤)

وكما وصف أبو خراش مرقبته ، كذلك نجد مثل هذا الوصف في مرقبة تأبط شرا ، فهمو يصفها بأنهما بارزة ناتئة ، ويشبه حدما بسنان الرمسم ويصفها بالارتفاع الشاهق ، وانها شديدة الحسرارة في الصيف ، لأن ظلتها لم تعد صالحة للتظلل ، فبعضها تهدم ، وبعضها باق ولكنه غير مغن ، واقه وصحبه يتخذون منها مرقبا وحصنا ، وان كان هو أسرعهم في الصعود اليها فبقسول:

ضحبانة في شهور الصيف محراق (٥)

منها هزيم ومنها قائم باق (٧)

وقلة كسئان الرمح بارزة بادرت قنتها صحبى وما كسلوا حتى نميت اليها بعد اشراق (٦) لا شيء في ريدهــا الا نعامتها

ويروى القالى قائلا : قال تأبط شرا يصف قلة جبل :

نهضت اليها من جثوم كانها عجوز عليها هدمل ذات خيعـل (٨)

⁽١) ديوان الهدليين ١٥٩/٢ ومرة أبوه لم أوف لم أشرق والمقاضيب مواضع علف الدواب. ورويت الأبيات لمروة أخيه ٠

⁽٢) الريد الحرف الناتيء من الجبل وذلق حد وسرب شائع كثير السمير فيه ودعبوب مومَّاؤ مطروق •

⁽٣) العرش المظلة وجلال عودان أحدهما منهدم والآخر لم يتهدم بل قائم منصوب • وأنظر الحيوال ٤/١٥٤ ٠

⁽٤) ديسوان الهذليين ٢/٢٨ والمقرنة التي دنا يعضها من بعض من الجبال والحباحب.

⁽٥) المضليات ٢٩ والقلة أعل الجبل وضعيانة بارزة للشمس ومحراق تحرق من فيها لشدة.

⁽١) القنة والقلة واحدة ، ونميت صعدت يعنى سبقت صحبي .

⁽٧) الريد أعلى الجبل والنعامة المظلة من خشب وهزيم متكسر يعنى بعضها تهدم وبعضها باق.

⁽٨) الأمالي ١/ ٣٨ والهدمل الثرب الخلق ٠

وسما سيق لرى إنهم يكادون يتفتون على اوصاف معينة للمراقب التي يختارونها، ويوحى حديثهم عنها يمدى الجهد الذي يعانونه في الصعود والنزول الى هذه المرتفعات الشاهقة ، وما في حياتها من صعوبه وقسوة لا يتاح التغلب عليها الا لمن وهب تدرة ونشاطا غير عاديين ، ومن الحق ان نفول ان الدين تحدثوا عن الراقب هم العدانون ، وهذا يفسر القدرة على الصسعود والنزول الدائمين مي هذا العلو الشهديد ، وقد لا يتصور غير الصعاليك ايضها مدى ما في هذا الجهد العنيف ، فالشخص الذي يتاح له أن يصعد جبلا مرة في حياته بعد حدثًا في حياته لا ينسى ، فكيف بشخص حياته صحعود ونزول في شواهق القمم من الجبال ، وهذا بالتالي يفسر ما ينبغي أن نثبته من ان الذين تحدثوا عن المراقب هم صعاليك الجاهلية ، أما صعاليك الاسسلام فانهم وان تحدثوا كثيرا عن التنقل والصحراوات والايغال في الاماكن الا انهم لم يتحدثوا عن المراقب ، ويمكن تعليل ذلك بان المراقب في صحورتها تلك لا يقدوي على ارتيادها الا الذين اوتوا نشاطا جسميا غير عادى كالعدانين ، وصعاليك الاسلام كما لاحظنا في الفصل السابق لم يكن العدو صفة من صفاتهم ، ويمكن ريط هذا كله بما لاحظناء أيضًا عند الحديث عن آثار الفقر والجوع ، من أن صعاليك الاسلام وأن كانوا فقراء ، إلا أن فقرهم لم يبلغ يهم حد الجوع الذي عاناه الجاهليون ، والذي ترتبت عليه أشياء كثيرة في حياتهم ، منها ملازمة الصحراء والمخاطر ، وهذه الملازمة أثمرت في حياتهم الاعتماد على العدو ، وهذا المدو ونشاطه يسر لهم ارتياد قمم الجبال واتخاذ المراقب .

ومهمة المراقب فى حياتهم كما قلنا الترصيد والتخفى ، وكذلك حين ينزلون منها يحرصون على هذا المعنى ، فيتخيرون مسالكهم فى دقة وعناية بالفة ، ولذلك لجدهم يؤثرون الطرق الملتوية والتى تدنو من أماكن تتيح لهما النجاة اذا أحدق بهم خطر ، كما وصف صخر الني طريق عودته من الما، بعد مل قربته بأنه آثر طرقا ملتوية خلف الجبل حيث يقول « تيممت أطرقة أو خليفا » (١) • وأما تأبط شرا فانه يرسم صورة للطريق الذى يسلكه وهو أن يكون متعرجا أو ملتويا كانه خياطة الثوب ، ويصفه أيضا بأنه لا يخلو من منحنيات وصخور ، وأنه لطول تجربته أصبح يهتدى ألى مثل هذه الطرق التى منحقق له ما يريد ، وهو الأمن في وصوله إلى الماء فيقول :

وشعب كشل الشوب شكس قطعته مجامع صوحيه نطاف مخاصر (٢) به من سيول الصيف بيض اقرها جباد لصم الصخر فيه قراقر (٣)

⁽١) سبق في قصيل العدو •

 ⁽۲) الاصميات ۱۳۵ والشعب الطريق في الجبل والشل الخياطة وشكس صعب وصوحاه
 جانباه ونطاف مخاصر بقع ماه بارد ٠

 ⁽٣) بيض يعنى لون الغدران وجبان يريد سيلا مهلكا وقراقر يعنى صوت تحدر السيل
 على المسخور المساء •

تبطئته بالقوم لم يهدني له دليل ولم يثبت لى النعت خابر (١) به سمالات من مياه قديمة مواردها ما أن لهن دهسسادر (٢)

ويصف الشنفرى طرقه التى يسلكها بانها فى وديان نائية ملتوية ، وانها كثيرة الأشجار مما يتيح له أن يتخذ منها كمينا يختفى فيه أو يترقب منسه فيقسول:

وواد بعيد العمق ضـــنك جماعه بواطنه للجن والأسد مالف تعسفت منه بعد ما سقط النــدى غما ليل يخشى غيلها المتعسف (٣)

ومن المعالم البارزة بصفة عامـة في شعر الصعاليك كثرة الحديث عن الأداكن ووصفها والتنقل بينها ، ولذلك كأن شعرهم من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها معاجم الأماكن (٤) ، ومن هذه الزاوية يعتبر شعر الصعاليك من أكثر الشعر حديثا عن الطبيعة في مختلف مشـاهدها ، ومن حديث الصـعاليك عن الأماكن نشعر انه تكاد تنعدم الفواصل بين الأماكن عندهم وانهم يشعرون كأن الأرض كلها ملك لهم ، وانه لا يعجزهم عن التنتـل بين أمادها مهما تباعدت شيء ، فالشنغرى بصف لنا جولة من جولاته في الصعلكة فيعدد خمسة أماكن في بيتين اثنين ، بعضها جبال وبعضها صـحراوات فيقدول :

امشى باطراف الحماط وتارة تنفض رجلي اسبطا فعصوصرا ويوما بذات الرس أو بطن منجسل هنالك يلقى القساصي المتغورا (٥)

على اننا ينبغى أن نلاحظ أن هذه الأماكن على كثرتها لا يسوقها على انها مقام أو مستقر له ، والها معبر يجتازه الى غيره من الأماكن حيث عبر بقوله « امشى بتشديد الشين ، وقوله « تنفض رجلي » (١) ومثل ذلك يقوله عبدة بن الطبيب عن أماكن كثيرة يعرفها ، وله فيها ذكريات :

قفا نبك من ذكرى حبيب واطلال بلى الرضم فالرمانتين فاوعـــال الى حيث سال القنع من كل روضه من العتك حواء المدانب محلال (٧)

⁽١) تبطنته دخلت بطنه والنمت الومن وخابر مختبر •

⁽٢) سملات بقایا ٠

 ⁽٣) مهلب الأغانى ١/٩٥ والقماول الوادئ الضيق كثير الشبير وعسف عن العاريق مال
 وعدل •

 ⁽٤) انظر للمثال معجم ما استعجم للبكرى في التعريف بالأماكن والمواضع .

⁽٥) معجم البكري ٩٤٦/٣ والحماط وأسبط وعصوصرا وذات الرس وبطن منجل مواضع

 ⁽٦) بتشدید الفین فی آمنی و تشدید الفاء فی تنفش ، و تنفیض الرجل معناه آنه سائر
 ماشیا -

٧١) معجم البكرى ٢/٥٥٦ والرضم والرمائتان وأوعال والقنع والعتك أما أن

وكذلك يقول توبة بز الحمير :

عفت نوبة من اهلها فستورها فدت المفيح المنتفى فحصيرها (١)

على ان الصعاليك يرون فى الأماكن نفسها من حيث بسطتها وتباعدها مهربا ومنجاة لهم من كل ما يخافونه ، ومن كل ما يضيقون به كما يعول مالك ابن الريب :

فاتى سـوف يكفينيك عسرس ونص الفير بالبسلد القفار (٢)

ويقول مالك أيضا حينما ضاق بتعقب الحجاج الثقفي له أن الأرض وأسعة أمامه ، وأنه لمشوق الى الصحواء ، بل أن ناقته لعطشى إلى ريح الفسسلوات فما مقامه في أرض لا يجد فيها حريته ، وأنه لقادر على أن يجعل من كل البلاد يلف له ؟ فيقول :

ان تنصفونا یال مروان نقترب الیکسم والا فاذنوا ببعساد فان ننا عنکم مراحا ومرحلا بعیس الی ریح الفلاة صوادی ففی الأرض عسن دار الملالة مذهب وکسل بسلاد أوطنت کبلادی (۲۲)

ومثل هذا المنى نجده فى لامية الشنفرى (٤) ، وتابط شرا أيضا يهددهم بتركهم الى آفاق رحبة فسيحة ، ثم لا يستطيعون العثور عليه بعد ذلك أبدا فيقسول :

انی زعیم لئن لم تترکوا علل ان یسسال الحی عنی اهسل آفاق ان یسال القوم عنی اهل معرفة فلا یخبرهم عسن ثابت لاقی (٥)

ومهما تكن الأماكن التى يتحسد ثون عنهسا فانها أماكن مقفرة مخوفة لا سنتطيع أن يجوبها غيرهم ، ففى مثلها يجدون أمنهم كما يقول عسروة ابن الورد :

وغــبراء مخش رداهـا مخــوقة اخوها باسباب المنايا مغرر قطعت بها شــك الخلاج ولم اقل تحبـابة هيـابة كيف تامـر (٦)

⁽١) المصدر السابق ٤٥٣/٢ ونوبة وستور والصفيح وحسير أماكن ٠

⁽٢) مهذب الاغاني ٥/١٠ والعيس الايل .

⁽٣) الكامل للميرد ٣٠٢/١ وصوادى عطاش ٠

⁽٤) الأبيات الثالث والرابع والخامس ·

 ⁽٥) المفضليات ٣٠ وثابت اسمه ولاقى من اللقاء يمنى مهما سألوا فلن يجدوا من يقول
 لهم لليته ٠

⁽٦) ديوان عروة بن الورد ٩٦ والتاء في خبابة وهيابة للمبالغة واصلهما خباب وهياب أو ضعيف ٠

ويقول عبيد بن أيوب عن نفسه :

أخو فلوات صاحب الجن وانتحي عنالانس حتى قد تقضت وسائله(١)

وظروف الصعاليك وحيساتهم وآمالهم تهيئ لهم التنقل الدائم ، فهم
لا يملكون شيئا ثابتا يحرصون عليه فيبقون في ملازمته ، بل لا يملكون في
اعلب الأحيان شيئا ، واضطرارهم الى أن يحصلوا على معاشهم ، وعدم وجود
مورد رزق لهم في أماكنهم ، كل ذلك يجعل الرحلة والتنقل شيئا ميسورا لهم
وهذا مالك بن الريب يدع موطنه في المجاز ويرحل مع أحد الولاة الى خراسان
لجرد أن يحصل هناك على معاش ، وقد ترك في سبيل ذلك موطنه وأهسله
ولم يرده حتى بكاء أبنته وهي تودعه (٢) ، بل يشعرنا كثير من شسعرهم أن
التنقل هو الهدف الذي يملأ نفوسهم ، وأن الاقامة شيء عابر في حياتهم كما يقول

كان قد فلا يغروك منى تمكثى سلكت طريقا بين يربغ فالسرد (٣)

والسليك بن الساكة يخشى في مرارة والم أن يدركه الموت دون أن يروى ظمأه الى غارات كريرة يبعد بها في أماكن نائية حتى ببلغ أعماق اليمن من مأرب وبلاد الأزد فيقول :

امعتنقی ریب المنون ولم ارع عصافیر واد بسین جاش ومارب واقعسر کلابا یقود کلابه ومرجة لما التمسسها بمقنب (٤)

ومثل هذه الأمنية يحمل الشنفرى حيث يغول:

الا تزرني حتفتي أو تلاقني امشي بدهر أو غيداف فنورا (٥)

وأما عروة بن الورد فقد كانت خيله في الصعلكة تجوب أرجاء نجد والحجاز كلبهما كما يقول :

ويوما على غارات نجد واهسله ويوما بارض ذات شث وعرعر يناقلن بالشمط الكرام اولى النهى نقاب العجال في السريح السير (٦)

وكذلك يقول أبو النشئاش ، انه يرى في مجاهل الصحواء خير ميدان لل تانبه فيقول :

⁽١) كامل المبرد ١/ ٢٠٠٠ .

⁽٢) أنظر مهلب الأغاني ٥/١٠ •

⁽۱) مسجم البكرى ١٣٩٢/٤ •

⁽²⁾ انظر معجم البكرى ٤/١١٧٠ وجاش ومارب بلدان باليمن وكذلك • سرجة والمقنب جماعة المغيل •

⁽٥) مسجم البكري ٢/٥٩ه ودمر وغداف وتور مواضع من ديار يني سلامان أعداله .

⁽٦) الاصمعيات ٤٠ وشت وعرعر شجر والشبط الخيل والكرام الفرسان ٠

ونائية الأرجاء طامسة الصوى خدت بابي النشناش فيها ركائبة(١)

ومن ذلك كله نعلم مدى اعتماد الصعاليك على طبيعة البيئة من حيث المكان كمدى تسلحهم بها في صراعهم مع الحياة ، سواء في الهجوم والدفاع ، وكذلك صراعهم مع طبيعة عدم البيئه في مجاهلها ، وبسالكها وقسوتها وبشقة السير فيها ، وما تفرضه على مرتادها من ذلك كله •

الكلاا - ٨

ومهما اعتمد الصعاليك على أجسامهم وخصائصها ، ومهما اعتمد بعضهم على ساقيه وسهة عدوهما ، فان المطية من لوازم البدوى بصهة عامة ، لأن معاشه غير مستقر ، ومورد رزقه غير ثابت كما يألف أهل المدن ، أو أصحاب المهن والزراعة ، وانها هو شخص متنقل دائم السعى وراء رزقه في أى مكان يتاح له ، وأكثر ما يكون رزقه ارتباطا بالكلأ الذي تعيش عليه ماشيته ، فضلا عن أن الاقتصاد العربي وخاصة في البادية كان أهم مجال له الماشية ، ومنها الابل والخيل وهما أهم المطايا .

ولذلك لم يكن الشخص الذى يملك ناقة أو فرسسا غنيا ، أو خارجا عن نطاق الفقسراء والمحتاجين لأن الناقة الواحسدة أو الفرس ليسبت ثروة بالمعنى المفهوم ، وانما هى أداة تنقل وسعى للرزق وكأنها جزء من حياته فى المجتمع العربي القديم .

والتى يدرسون اهدافها بعناية ودقة قبل أن ينفذوها ، فهم لا يغيرون جزافا والتى يدرسون اهدافها بعناية ودقة قبل أن ينفذوها ، فهم لا يغيرون جزافا وانها يدرسون فى أغلب الأحيان الموضع الذى يغيرون عليه من عسدة نواح كقوة الدفاع لدى المفار عليهم ، والوقت الملائم للغارة ، وقبل ذلك الغنيمة التى يمكن الحصول عليها من هده الغارة ، ومتى توافرت لديهم فى هده الدراسة المعلومات التى ترجح نجاح الغارة وفوزها بالغنيمة انقضوا بغارتهم ، وكانوا يسلكون وسائل عدة فى جمع معلوماتهم عن مكان الغارة وموضع الغنيمة وطرق النجاة ، ومن هذه الوسائل ارتياد المدن والمجامع العامة التى ينتقى فيها جموع من القبائل المختلفة كموسسم الحج فى مكة ، والأسواق التى كانت تقسام فى مواسم معينة كسوق عكاظ وسوق مجنة وسسوق ذى المجاز كان الصعاليك يرتادون أحيانا هذه الأماكن ويختلطون بالوافدين من القبائل يستطلعون أخبار وترادون أحيانا هذه الأماكن ويختلطون بالوافدين من القبائل يستطلعون أخبار قبائلهم ، وخلال ذلك ، وعلى ضسوء ما يصلون اليه من معلومات يضعون خطط

⁽١) حماسة أبي تمام ١/١١٥ والصوى الأعلام يعنى مطبوسة الممالم واسسمة الأرجاء •

لغاراتهم ، كما كان عروة بن الورد يرتاد يشرب (١) ، وكما كان الهدليون يرتادون مكة (٢) وكما كان السليك برتاد الأسواق (٣) ، وقد كانت همذه الغارات أحيانا تبعد الى أماكن نائية ، كما سبق آنفا من شعر عروة بن الورد عن عاراته في نجد والحجاز ، وكفارات السليك على جوف مراد باليمن (٤) مع ان ديار بني تميم قبيلته قرب يشرب •

وهذا الابعاد في الغارات والغزو ليس من المعقول أن يعتمد فيه الصعلوك على قدميه ، فقسد يمكن أن يستغنى قطاع الطرق منهم أو بعضهم عن المطايا أو على الأقل في بعض الأحيان أما المغيرون والغزاة منهم فكان اعتمادهم الأساسى والضرورى على المطايا في أغلب الأحيان ، ولا يستثنى من ذلك الا بعض المداثين الذبن كانوا يثقون في عدوهم أكثر من ثقتهم في المطايا بما فيها الحيل ، فانهم لم يهتموا كثيرا بالمطية كالشنفرى وتأبط شرا والى خراش ، كما يبدو ذلك من شعرهم

عسل ان بعض الصعاليك كما قلنا كانوا في بعض حياتهم يعتبرون من شمحمان أقوامهم وفرسانهم في الحروب التي تدور بينهم وبين القبائل والأحياء الأخرى ، كجحدر بن ضبيعة وعروة بن الورد ومالك بن حريم وقيس بن المدادية قبل حلعه ، فهؤلاء كانت عدتهم حينذاك الحيل .

وقد كان بعضهم من أصحاب الخيل التي نالت شهرة في العرب ، كالسليك فان له فرسا تسمى النحام ، من الخيل المشهورة المعدودة (٥) ، وكذلك حاجز ابن عوف الأزدى ، كانت له فرس تسمى ذئبة (٦) ٠

ويبدو من شعرهم ان الحيل والابل كانت من الوسائل الأساسية التى تقوم عليها صعلكتهم وانها أيضا من الأسلحة التى لا تستغنى عنها الصعلكة فى جملتها ، سواء فى الغارات والغزوات والوصول الى أماكنها ، وفى التنقل من يكان الى مكان وفى الصراع مع الأعداء ، وفى النجاء بها فى بعض الأحيان .

ولئن كان الشعر العربى القديم ، جاهليه واسلامه ، حفل بالحديث عن الحيل والابل ووصفهما أكثر مما حفل به شعر الصعاليك ، فذلك لأن المطايا كما قلنا قدر مشترك في أهميتها بين كل عربى والآخر ، ولكن نظرة الصعاليك وغيرهم اليهما تختلفان اختلافا واضحا ، فغير الصعاليك ينظرون الى الخيل والابل

⁽١) أنظر الإغاني للأصفهاني ٣٧/٣ وكان يبعث العيون على بعض الأغنياء ، كقصته مع بخيل كنانة انظر شرح ابن السكيت لديواله *

⁽٢) أنظر معجم البكرى ٢/٥٣٠٠

⁽٣) أنظر أغاني الأصفهاني ١٣٥/١٨ -

⁽٤) أنظر مجمع الأمثال للميداني ١٩/٢٠

⁽٥) انظر أمالي القالي ١٨٦/٣ والقاموس المحيط مادة (الحم) ٠

⁽١) القاموس المحيط مادة (ذأب)

من خلال زاويتين ، ملكيتهم لها ، واعجابهم بها فى أداء ما يناط بها ، ولذلك تجد وصف الخيل والابل لذاتها شائعا فى شعرهم ، أما الصعاليك فينظرون اليها من خلال ارتباطها بعياتهم ، ومدى حاجتهم اليها فى الصعلكة ، ولذلك تجد حديثهم عنها يغلب عليه الارتباط بهذه الحياة ، كالنجاة عسسلى فرس ، أو الانتقال على الناقة من واد الى آخر ، أو الانقضاض بالفرس على قوافل التجار كناقة مالك بن الريب المتنقلة بن القفار (١) وشدات كميته على التجار (٢) .

فالشاعر من غير الصعاليك يرى فرسه أو ناقته فيتحدث عنها ويصفها لذاتها ، أما الصعلوك فيتحدث عنها غالبا خلال حديثه عن حياته ، وأن وصفها فانما للرضى عن أدائها لدور مهم في حياته ،

٩ - الخيسل

لم يكن الصعاليك يعنون بالخيل على أنها ثروة ، ولا على أنها زينة ، وانها عناهم منها مدى ارتباطها بحياتهم في الصعلكة، ولذلك نجد حديثهم عنها يحمل هذا الطابع ، وينحو هذا المنحى ، فالسليك السعدى متسلا يتحدث عن فرسه النحام ، وهو من الأفراس المعدودة المشهورة في العرب كما قلنسا ، ومعنى ذلك أنه يتمتع يجودة وصفات تميزه عن الكتسير من غيره وكان يمكن للسليك وهو المساعر القدير أن يستفل خياله في الحديث عن شهرته ووصفه، ولكنا نراه حين يتحدث عنه لا يعنيه من ذلك الا ما حققه من نفع في صعلكته في حين كان يمكن أن يصوغ كغيره قصيدة كاملة أو قصائد في التغنى به ،ولكنه اقتصر على وصف قوائمه القوية لأنها أهم ما يعنيه منه ، وعلى غرته المقترنة باليمن في نجاح ما يناط به ، ثم ذكر له ثلاثة أغراض تشمل حياة الصعاليسك هي الصيد ، والمطاردة ، سواء كان الذين يطاردهم أعسداء أو غنما ، والنجسا به من مطارديه فيقول :

على قرماء عاليسة شسواه كان بيساض غسرته خمساد (٣) على قرماء عاليسة شسواه كان بيساض غسرته خمساد (٤) وما يدريك ما فقسرى اليسه اذا ما القسوم ولسوا او اغادوا (٥)

⁽١) أنظر شعره في ذلك - مهذب الأغاني ٥٠/٥٠

⁽٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٢ .

⁽٣) الكامل للمبرد ٧/٧٥ والأصل جمع أصبيل المشى يشبه لون القوائم بالأصبيل والمحاد المعدف يعنى قوائم صلبة ملسا ٠

⁽٤) القرماد للموضع وضواه قوالمه •

⁽٥) ولوا أو أغاورا معناه اذا هربوا أو طلبوا ٠

ويحضر فوق جهد الحضر نهب يهسيدك قافسلا والمخ رار (١) وواضع من شعره أن فرسه هذا كان ذكرا ٠

ومالك بن حريم يقول انه آثر فرسه وافتلاها لغرضين ، أحدهما الغنسم بها ، والآخر مجابهة المخاطر ، وتبلغ هذه الفرس من جودتها أنها حين تعتر احدى قوائمها لا تكبو ، وانما تعاونها الثلاث الأخرى من قوائمها فيستقيم سيرها . يقول :

اذا وقعت احدى يديها بثبرة تجاوب اثناء الثلاث يدعدعا (٢) ثم ـ مقربة أدنيتها وافتليتها لتشبهد غنما أو لتدفع مدفعا (٣)

ويصف الجهد الذي تعانيه فرسه في الغزو والغارات والصراع فيقول :

ترى المهرة الروعاء تنفض رأسها كلالا واينا والكميت المقدعا (٤)

وأما مالك بن الريب فيتحدث عن كميته ، فلا يرى حاجة لوصفه، وما حاجته الى الوصف ؟ أن حاجته أن يكون الكميت أداته لتحقيق ماربه فيقول :

سيغنينى المليك ونصل سيفى وكرات الكميت عسل التجسار (٥)

او يقول:

وانيابي سيخلفهن سيفي وشيدات الكمي على التجار (٦)

ولم يخطر لمالك أن يصف جواده الاحينما أشرف هو على الموت، ولم يعهد في حاجة الى جواد ، ولم يكن وصفه ألاعجاب ، وانها كان وصف الاشهاق فيقول من مرثبته التي قالها عند موته :

تذكرت من يبكى على فلم أجه سوى السيف والرمح الرديني باكيا واشقر محبوك يجر فيامه الى الماء لم يترك له الموت ساقيا

وأبوخراش لم بتحدث عن خيل يستعملها ، ولم يبد في شعره أنه يعتمد على الخيل ، لأنه كان من أشهر الغدائين ، حتى أنه تراهن مع الوليد بن المغيرة

 ⁽١) المحضر ارتفاع الفرس في عدره ويصيدك يصيد لك والمنح رار يعنى تشبيهه بالنعام
 في خلو عظامه من المنح في زعمهم •

⁽٢) الاصمعيات ٦١ والثبرة الهوة والثلاث قوائمها الأخرى ودع دع صوت زجر اللرس أى كان الثلاث تنهشها بهذا الصوت •

⁽٣) افتليتها اتخذتها أو تتجتها والمقربة الأثيرة لديه والمدفع مصدر ميمي من الدفع .

⁽³⁾ الامسميات ٦٠ والروعاء كانها فزعة من دوام نشاطها وحركتها والكلال والأين الجهد والتعب والمقدع النشيط ٠

⁽٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣١٢ ٠

⁽۱) آنظر مهذب الأغاني ٥/١٠ ٠

على فرسين كان الوليد يعدهما للسباق ، فراهن أبا خراش على أنه ان سبقهما فهما له ، فسبقهما أبو خراش وفاز بهما كما مر ، فلم تكن بمثل عسدوه حاجة الى الخيسل لأنه أسرع منها ، ولكنه مع ذلك يصف خيسلا مغيرة وصفا قلما يتاح لشاعر ، وذلك في قصة رجل من قومه قتل جارا له من بني تعيم فائكر أبو خراش ذلك انكارا شديدا ، ونعي على قريبه نكسه في الجوار ، وهجاه يشعره ، ومما قال في هذا الشعر أن الغسلام التعيمي حين أحس الغدر والموت دعا قومه ، ولكن بينه وبين قومه وديانا وأنهارا ، ولو سمعوا دعاءه لأقبلوا اليه على خيلهم في أقصى عجلة وسرعة متصورة ، يلهبون خيلهم ضربا بالسياط والاعنة والركل بالأقدام ، وفي هذا السياق يصف أبو خراش الخيسل وصفا عجيبا في انطلاقها كالسهام تحت هذا الحث العنيف من فرسانها ، وقد وصف هذه الخيل بوصفين يصوران أقصى ما يتاح لشاعر أن يصوره من خيسل منى مثل تلك الحالة ، وهما أن الناظر الى الخيل حينئذ يراها فاغرة أفواهها ، ويرى أحداق أعينها في وضع غير عادى كأنه الحول ، والصورة في جملتها ، من الحيل في هيئتها هذه ، الى الفرسان في استعجالهم وتحفزهم ، وحثهم للخيل الحيلة ، تعتبر من أجمل اللوحات الشعرية ، يقول :

دعا قومه لما استحل حرامسه ومن دونهم عرض الأعقة فالرمل (١) ولو سمعوا منهم دعاء يروعهم اذا لأتته الخيل أعينها قبسل (٢) شسواحي يمر يهن بالقوم والقنا فروع السياط والأعنة والركل (٣)

ولكن الذى يعنينا في الواقع من هذه الصورة التي تعتبر اتجاها بارعا في وصف أثر السرعة والحث الشديد في الخيال هو أن نتساءل : ولماذ كان أبو خراش هو الذي يمثل هذا الاتجاه دون غيره ؟ وأغلب الظن أن هناك ارتباطا بين العدو وهذه الاجادة في وصف سرعة الخيل بالأسسلوب الواقمي الذي لا يحمل شيئا من تكلف أو مبالغة أو خيال ، فأبو حراش عدا، فذ وهو بهذا كثير السباق مع الخيل والتعرض لمطاردتها ، ومن ثم فانه كثير المشاهدة لأثر السرعة والاجهاد على الخيل ، ولذلك كان تعبيره واقعيا صادقا لا أثسر فيه للمبالغة أو الخيال ،

والأعلم الهذلي يصف فرسه ، فلا تعنيه منه الا سرعته التي تشبه ظليم النعام(٤)

⁽۱) ديوان الهدليين ١٦٥/٢ واستحل حرامه يعنى استحل جواده والأعقة جمع عقيق وهو الوادى الواسسم والرمل موضمه ليه منازل بنى مازن من تميم يقول عنه مالك بن الريب وبالرمل منا نسوة ١٠٠ الخ ۽ في مرثيته ٠

 ⁽۲) الرواية (منهم) ولعل صحتها (منه) وقبل بضم القاف وسكون الباء اقبال احدى
 الحدقتين على الأخرى كالمحول •

 ⁽٣) شواحى فاتحات أنواهها ويمريهن يستخرج نشاطهن تحريك السياط والركل ، يعنى
 الخيل .

⁽٤) أنظر شعره في الحيوال للجاحظ ٢٣٦/٤ .

والذين كانوا يزاولون الحروب مع أقوامهم من الصماليك كانوا أكتسر حديثا عن الحيل ، وقد سلك بعضهم مسلك غيرهم من غير الصماليك في المبالغة في وصف الحيل ، والعناية بحسنها وأوصافها الجسمية ، ولذلك عد بعضهم من أحسن الوصافين للخيل ، وقد قال عبد الملك بن مروان مرة : أشرف المناديل مناديل عبدة بن الطبيب حيث يقول :

ثمت قمنا الى جرد مسومة أعرافهسن لأيدينسا مناديسل (١)

وهذا البيت من قصيدة طويلة لعبدة طرق فيها عدة عناصر منها الخيل ،
ويبدو حسن البيت السابق في موقعه من القصيدة ، فهو في سياق أن عبدة
وفرسانا معه جهدوا حتى صادوا ثورا ضخما ، وتحايلوا حتى طبخوه ثم أكلوا ثم
قاموا الى خيلهم فامتطوها ، واتخذوا من أعرافها مناديل يسمحون بها عن ايديهم
أثر اللحم ، ولكن شعر الصعاليك لا يخلو من طابعهم ، فنجد عبدة في هذا الوصف
يهتم بأن يصف جهد فرسه وعنايته في التنقل وكثرة السير فيقول :

بساهم الوجه كالسرحان منصلت طرف تكامل فيه العسن والطول (٢) خاطى الطريقة عريان قوائم المرد تذبيل (٣)

وقيس بن الحدادية يصف خيلهم التي يصارعون بها اعدامم فيقول:

نعن جلبنا الغيال قبا بطونها تراها الى الداعى المثوب جنعا (٤) ويقول عن خيلهم الكمت :

رميناهم بالحو والكمت والقنسا وبيض خفاف يختلين السواعدا (٥) ومالك بن حريم يقول:

لرفوتنی فی الخیسل دفسوا تعصسو بها الفرسسان عصوا یقطسو امام الخیسسل قطبسوا جموف الظسلام هبی وهبسوا (٦) یا عمسرو لسو ابصرتنی والبیض تلمسع بینهسم للقیست منسی عسربدا ثم س وسمعت زجر الخیسل فی

⁽١) البيت من قصيدة طويلة • انظر المفضليات ١٣٤ ـ ١٤٥ . .

 ⁽۲) ساهم الوجه قليل اللحم فيه والسرحان الذئب والمنصبات المنجرد الماضى والعارف
 الكريم الطرفين ٠

⁽٣) الخاطى كثير لحم الجسم والطريقة طريقة طهره وشقه أضمره وأهزله وركوب البرد يعنى أنه دائم ركوبه في البردين الغداة والمشى والتذبيل من الذبول وهو الضمور •

١٤٤/١٤ الأصفهائي ١٤٤/١٤ .

⁽٥) المدر السابق ٠

⁽١) الحيوان للجاحظ ٦/٤٧٤ والرقو التسكين والعمو الغرب بالسيف وقطا يقطو تقارب مقيه وهبوا صوت زجر الفرس •

وكذلك نجد وصف عمرو بن براقة (١) ووصف تأبط شرا لأدهمه (٢) وأما عروة بن الورد فانه يجعل أجرده جزءا من سلاحه الذى لا يسلك غيره فيقول: ومالى مال غير درع ومغفس وأبيض من ماء الحسديد صقيل واسمر خطى القناة مثقف واجسرد عريان السراة طسويل (٣)

ولا شك أن الخيل أكثر الموضوعات التى لقيت اهتماما كبيرا فى الشميم العربى ، فلا يكاد شاعر من القدامى لم يتعرض لوصف الخيل والحديث عنها ، كثر حديثه أو قل ، وأن كان فى أغلب أحيانه كثيرا ، لأن الخيل كانت تحقق فى حياتهم أكثر من غرض ، فضما عن أنها تنفرد بمواقف لا يصلح فيها غيرها كالحروب التى كانت جزءا أساسيا فى حياتهم ، وقد دعم الاسلام اعتزاز العرب بالخيل كما فى الحديث الشريف « الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة » وكما يقول عمر بن الخطاب « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل ، وفى رواية « ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » والصماليك وأن كانوا فى أعترازهم بالخيل جزءا من العرب ، الا أننا نجد فى حديثهم طابعهم الخاص بحياتهم وشعزهم ، حيث يركزون اهتمام حديثهم عن الخيل بمدى ارتباطها بصراعهم مع ظروفهم وأعدائهم .

١٠ - الابل

والابل هى الأداة الطبيعية للسير فى الصححرا، بما هياها الله لذلك، ولكن الصعاليك ليسوا مجرد سائرين ، انهم متنقلون دائما بين اماكن متباعدة وصحراوات مترامية ، ولذلك نحد حديثهم عن التنقل مقرونا بالابل .

فتوبة بن الحمير مثلا يصف أجواز القفار المخوفة التى تجتازها به ناقته القوية الصلبة هذه القفار الهلكة التى يصبح الضعيف فيها ذليلا مشرفا على الهلاك كأنه بقايا حيوانات ضعيفة انحسر عنها الغدير فيقول:

وأدماء من سر المهارى كأنها مهاة صوار غير ما مس كورها (٤) قطعت بها أجواز كل تنوفة مخوف رداها كلما استن مورها (٥)

⁽١) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ وأمالي التالي ١٨٦/٣٠٠

⁽٢) المعدة لابن رشيق ٢/٣٥ .

⁽٣) أنظر العقد الفريد باب الخيل .

 ⁽٤) أغانى الأصفهائى ٣/-٢٨ والادماء من الابل مافى لونهسابياض مع سواد المقلتين ،
 والسر المحض والمهاة البقرة الوحسية والصوار قطيع البقر •

^(°) الاجواز جمع جرز وسط الشيء واستن هاج والمور الغباد ·

ترى ضعفاء القوم فيها كانهم دعا ميص ماء نس عنها غديرها (١)

وعبيد بن أيوب المسهور بملازمته للقفار ، وبعده عن الأماكن الماهولة بعد أن كثرت جناياته وأباح السلطان دمه ، يحمد من ناقته صبرها على حيساته القاسية ، ومشاركته كل ما يعانيه ومن ذلك كثرة ما يتعرضان له من عطش فيقسول :

ظللت وناقتى نفسوى فسلاة كفسرخ الفسب لا يبغى ورودا(٢)

ومالك بن حريم يصف ابعادهم في التنقل والأسفار ، حتى أنهم يتركون أولاد أبلهم حيث تولد ويرحلون عنها ، حتى لا تعوق سيرهم فيقول :

فهن ياتنا أو يعترض بسبيلنا بجد أثرا دعسا وسخلا موضعا (٣)

وقد رأينا أن مالك بن الريب هدد بنى مروان ، أورد على مضايقة عمالهم له ، بأن ناقته عطشى الى ريح الفلاة ، يعنى أن الرحلة والتنقل ميسوران له بقوله :

فان لنا عنكم مراحا ومرحسلا بعيس الى ريح الفلاة صيوادي

وحين بلغه أن الحارث بن حاطب الوالي يتوعده ، رد عليه يقوله :

فانى سيوف يكفينيك عزمى ونص العيس بالبليد القفار وعنس ذات معجمية اميون علنداة موثقية الفقار تزيف اذا تواهقت المطياييا كميا زاف المشرف للخطار(٤)

ويقول في القصيدة نفسها أنه يستطيع بناقته هذه القوية الصبور أن يطا ارضا لم يبلغها قبله أحد :

ولا جزع من الحدثان يسوما ولكنى أدود لكسم وباد (٥) بهسز ماد تراد العيس فيهسا اذا اشفقن من قلق المسسفاد وهن يحشسن بالأعناق حوشا كان عظامهن قسداح بساد

⁽١) الدعاميص توع من حيسوانات الماء أسسود مستقير كالدود يعيش في القدوان ونش الحسر وجل "

 ⁽٢) الحيوان للجاحظ ٦/ ١٢٨ والشطر الثاني اشارة الى زعم العرب أن الغسب يصبر على
 المطفى مدة طويلة •

 ⁽٣) الاصمعيات ٥٩ والدعس يعنى أثر المثى وسخلا يريد ولد الناقة •

 ⁽²⁾ مهذب الأغانى ٥/١٠ والعنس الناقة ومعجمة ضخمة وأمون مأمونة السير والملنداة النرية وتزيف تسرع والمواهقة المواطية ٠

⁽ه) الحدثان الليل والنهار يعنى ما يخبنانه من بلاء ووبار أرش تزعم العرب أنه لم يطاما

وهذه الناقة التي صاحبت حياته الشاقة العنيغة القاسية ، وشاركته كل ما عاناه ، نظر اليها مالك حين أشرف على الموت ، فتألم لفراقها ، وأحس أنها ستحزن وتحن اليه حنينا يغلق الأكباد فيقول :

وعطل قلومي في الركاب فانها ستقلق اكبادا وتبكي بواكيسا

وجحدر بن معاوية حين وضعه الحجاج في السجن ، حن الى ناقته طيعة الزمام، التي كان يرحل بها الى أماكن حبيبة الى نفسه فيقول :

نظـرت وناقتـاى عـل تعـاد مطاوعة الأزمـة ترحـالان الى ناريهما وهمـا بعيـد تشـوقان المحـب وتوقـدان (١)

وعبدة بن الطبيب يهيم بناقته هياما جعله يخصها بنحو عشرين بيتا من قصيدته اللهية الطويلة (٢) وهي من أجعل ما وصفت به الابل ، وفيها يقول أن طرف خفها يتركي في الأرض أثرا كأنه الأزميل يقطع الجلد ، وأنها معسرعتها تحجد لها تقدما وترجيعا كأنه الدلال ، وأن طرف منسمها من طول المتابعة ومصادمة الحصى فلل ، وأن الحصى يتطاير حول خفيها كأنهما غربالان ينفيان الوغل الردى، فعقول :

عيهمة ينتحى فى الأرض منسمها كما انتحى فى اديم الصرف ازميل(٣) تخلى به قدما طورا وترجعه فعدم من ولاف القبض مفلول (٤) ترى الحصى مشفترا عن مناسمها كما تجلجل بالوغل الغرابيل (٥)

ولم ينس مالك بن حريم الكرم العربى فى نحر الابل ، فهو يقول انهم يعطلون البعير اذا عجز عن السير ويطعمونه الناس ان سمن .

اذًا ما بعير قام علق رحله وان هو انقى العموه مقطعها (٦)

⁽١) أمالي النالي ٣/١٣٥ المرثبة .

⁽٢) المفضيليات للقبيي ١٣٤ وعدتها واحد وثماتون بيعا ه

⁽٣) عيهمة شديدة ينتحى يعتمد والمنسم طرف الخف والعرف الجلد والازميل يعنى كقطع الجلد بالشغرة .

 ⁽٤) تخذى تسرع وبه يمنى المنسم والولاف المتابعة في المشى والقبض النزو ومغلول تنام
 حده ٠

⁽٥) مشغتر متفرق وتجلجل تحرك الوغل الردىء يعنى مناسمها تميزا لحصى الكبير من الصغير في تفريقه كما تفعل الغرابيل بالحب ،

⁽٦) الاصمعيات ٥٩ وقام عجز عن السير وأنقى سمن ورواية الاصمعي أبقى ٠

الأسلحة غير المنظورة

وليس ما تقدم من الأسلحة والوسائل كافيا لأن يجعل شخصا ما صعلوكا من الصعاليك ، ولا أن يجعل الصعلوك ناجعا في ميدان الصعلكة ، فالأسلحة والوسائل السابقة ميسورة لكل الناس ، فمن اليسير على أى شخص أن يملك سيفا وقوسا ومطية ثم يتوجه الى أى مكان من الصحراء أو الجبل ، ولكن هل هذا يكفى لأن يكون صعلوكا بالمعنى المفهوم ؟

ومما لا شك فيه أن ذلك لا يكفى مطلقا لأن يكون الوسيلة الوحيدة الى الصحلكة ، لأن هذه الوسائل كما قلنا يكاد يشترك فيها أفراد العرب جعيعا ، فالسيف والمطية من لوازم كل عربى ، والببئة ملك مشاع للجعيع ، اعنى البيئة التى كان يتخيرها الصحاليك ليتخذوا منها مواقع لمزاولة عدوانهم أو الاحتماء من آثار هذا العدوان كالمراقب والمجاهل والمغارات ، ومع شيوع هذه الوسائل بين أفراد العرب ، فلم يكونوا جميعا صحاليك وانها كان الصحاليك قلة بارزة في حياتهم ، ونعود فنتساءل : لما اذن تهيأ لهذه القلة أن تتحكم في هذا الميدان ، مع أنه كان ميدانا مرموقا وخاصة في الجاهلية ، وكان كثير منهم يتمنى لو نجع فيه كما ينجح الصحاليك ، أو على الأقل لا يرى غضاضة في أن يكون من هؤلاء فيه كما ينجح الصحاليك ، أو على الأقل لا يرى غضاضة في أن يكون من هؤلاء الصحاليك ، الذين تتردد أسماؤهم في أرجاء الجزيرة مقرونة بالرهبة دائما ، وبشيء من الاعجاب في كثير من الأحيان ، ولكن هؤلاء الكثيرين لم يتجحوا في الصحلكة ، وانما نجح فيها قلة بارزة .

ولا نعتقد أن الأجابة عن ذلك عميقة أو ملتوية ، فالواقع أن الأسلحة الأولية والأساسية للصعلكة ليست السيف والمطية والمكان ، وإنها الأسلحة الأولية والأساسية هي المقومات الذاتية والصفات الشخصية التي ينبغي أن تتوافر أولا في الشخص ، ثم تدعمها تلك الأسلحة والوسائل وفي الذي سبق من الوسائل وسيلة واحدة تعتبر من الأسلحة الأولية وهي سرعة العدو ، لأنها أيضا من المقومات الذاتية في الشخص ، ولتوضيح ذلك قليلا نقول أن ما في حياته الصعاليك من متاعب وقسوة ، لا يمكن النظر اليه من زاوية واحدة ، وبالتالي لا يصلح له سلاح واحد ، ومثال ذلك أن في حياتهم كثيرا من الزوايا والمواقف لا يصلح فيها السيف ولا غيره ، ولا ينقد منها مخبا أو غيره كالعطش الذي يتعرضون له كثيرا بحكم حياتهم في الصحراوات ، وتنقلهم بين المجاهل والقفار ، وكذلك المعلوك ، ونواحي أخرى كثيرة ، هذه الرفوع في مأزق كمحاصرة الأعداء للصعلوك ، ونواحي أخرى كثيرة ، هذه النواحي لا تصلح لها الا مقومات ذاتية في الشخص ،

ومن هذه المقومات العدو ، وكان يمكن أن يكون حديثه هنا ، ولكننا آثرنا الحديث عنه مع الوسائل السابقة ، التزاما للتفريق بين الوسائل المنظورة وغير المنظورة •

فالأسلحة أو الوسائل غير المنظورة نعنى بها المقومات الشخصية ، والصغات الحاصة التي ينبغى أن يتصف بها شخص ما أذا أراد أن يكون صعلوكا ، والتي من أجل فقدانها لم يتهيأ النجاح ... من زاويتهم هم ... في الصعلكة ألا لأفراد في كل قبيلة أو حي .

ومن أهم هذه المقومات الذاتية قوة الارادة التي تمكنه من مواجهة المواقف الكثيرة الصعبة التي يتعرض لها ، والتي تجمـل منه شخصا غير متردد في المواقف التي يفسدها التردد وضعف العزيمة ، وكذلك الصبر وقوة الاحتمال، مما يتيم للصعلوك احتمال قسوة الحياة التي يعيشها ، والحرمان الدي يعانيه، والجوع والعطش اللذان ما أكثر ما يعرضان في حياة الصعلوك كما رأينا في شعرهم ، وكذلك الاستهانة بالموت ، فالموت مترصد لكل صعلوك في كل وجه من وجوهه ، أن لم يكن من الأعداء فمن الوحوش وهوام الأرض ، ومن الضلال في المجاهل وففدان ضروريات الحياة كالماء والطعام، فالجزوع من الموت لايصلم قط بين الصعاليك ، وكذلك الجرأة ، فالصعلكة تقوم على العدوان ، والمفروض في الصعلوك أنه الباديء دائما بالسطو والعدوان ، فلا بد له اذن من أن يكون جريئًا مقدامًا ، وكذلك الحذر واليقظة ، فالصعلوك محاط دائمًا بالأعداء من الناس وغير الناس ، وكما أنه متربص بالناس فالناس متربصون به ، فاذا لم يكن حذراً يقظاً فأنه سيكون ضحية لأول رصد يلقاه ، وكذلك الحيلة وحسن التخلص فالصعلوك الدائم التنقل والتجول في أماكن محفوفة بالمخاطر والكمائن لابد أن يتوقع المآزق وبالتالي لابد أن يكون مهيأ للتصرف السريع ، وحسن التخلص من المآزق •

وقد كان يمكن أن تعد هذه الوسائل أو الأسلحة صفات للصعاليك دون أن تسلك في عداد الأسلحة ، ولكن الواقع أنها وأن كانت بالنسبة لغيرالصعاليك مجرد صفات ، الا أنها بالنسبة لهم ليست مجرد صفات ، وأنما هي وسائل كالأسلحة الحقيقية اعتمدوا عليها اعتمادا أساسيا ـ كما سنرى في صعلكتهم، وفي صراعهم مع الظروف والأعداء ، فاستغلوا كل صفة منها باقصى ما يمكن الاسنغلال حتى جعلوها أسلحة واضحة في حياتهم .

ومن الواضح أننا لا تعنى أن تكون صنه الوسائل كاملة جميعا فى كل صعلوك ، ولا أن الصعاليك جميعا فى درجة واحدة من هذه الوسائل والصفات ولكن الذى لا شك فيه أن الصعاليك جميعا كما يبدو من شعرهم وأخبارهم ، وكما يفرض تصورنا لحياتهم وظروفهم لابد لكل منهم أن يتصف بقدر واف من هذه الوسائل كلها ، وإذا فقد جانبا منها فلابد أن يكون فيه من الجانب الآخر قوة مضاعفة تعوض هذا الفقدان ، وألا فبمقدار بعده عن هذا المستوى بمقدار ما يكون فاشلا بين الصعاليك ،

حين نستعرض شعر الصعاليك نرى فيه بوضوح أنه ينبع من أشخاص يعتزون بمقومات كثيرة ، تدور كلها حول قوة الشخصية واعتزازها بكيانها ، وعدم خضوعها أو خضوع سلوكها ألا لما تمليه ارادة الشخص نفسه ، ومايرتئيه لها هو من اتجاه ، ولست أريد أن أزكى الصعاليك قبل أن أستعرض ما يمكن أن يكون فيه تزكية لهم ، ولكنا بصغة عامة نستطيع أن نقول أن السوء ليس كله في الصعاليك ، وانما في الظروف التي أحاطت بهم ، ثم انعكس بعض هذا السوء عليهم ، ومهما نعتقد في الصعاليك من سوء ، فلا شك أن فيهم من الصفات ما يحملنا على تقديرها ، وعلى الاعتقاد بأن هذه الصغات لو وجدت ظروفا خيرا من الطروف التي أحاطت بالصعاليك لكان يرجى أن يكون شرهم خيرا لهم وللتبعهم من هذه الصفات التي تحلوا بها، والتي لا شك أنها لذاتها فضائل ، ولكنهم لم يجدوا مجالا يستفيد من هـــــذه الصفات ، فحولوها إلى أسلحة تدمير وعدوان من باب قولهم *

اذا انت لم تنفع فضر فانما يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

ومن أبرز ما يطالعنا من هذه الصفات الواضحة في شعرهم ، والتي ينبع منها كثير من الصفات الأخرى قوة الارادة والحزم ، بحيث يمثل لنا شسعرهم الصعلوك ماضيا دائما في غير تردد ولا وجل ، يجعل من عزمه وارادته ورأيه الهادى الوحيد له والدافع الوحيد لسلوكه كما يحدثنا سعد بن ناشب بأنه اذا هم بشيء ، فليس هناك شيء قط يستطيع أن يثنيه عن همه ، ولا أن يخيفه من عضيه ، لأنه يضع عزمه كله ، وعزمه وحده ، بين عينيه ثم يمضى بعزمه هو ، وعلى ضوء رأيه هو ، وبصحبة سيفه هو ، ولا شيء غير ذلك فيقول :

اذا هم لم تردع عـزيمــة همه ولم يات ما ياتى من الأمر هائبا اذا هم القى بين عينيه عزمـه ونكب عن ذكر العـواقب جانبا ولم يستشر فى رايه غير نفسه ولم يرض الاقائم السيف صاحبا(١)

ويقول أيضًا عن نفسه مرددا هذا الشعور الذي يملأ عليه نفسه :

ادًا هم القى بين عينيه عزمه وصمم تصميم السريجي ذي الأثر (٢)

وهذا صعلوك آخر يردد هذا المعنى أيضا ، قائلا أنه لا يقيم لرأى الناس وعدلهم ميزانا لأنه لا يتأثر برأى الناس الا العاجزون ، اما الحازم فائه ماض وراء حزمه ، مشيع عن تنبيط المثبطين فيقول :

⁽١) حماسة أبي تمام ١٩/١ .

⁽٢) حماسة أبي تمام ٢/٢٧١ والسريجي السيف والأثر المسلابة والمفياء ٠

غلام اذا ما هم بالفتك لم يبسل ألا مت قليلا أم كثيرا عواذله وما الخرم الا أن تهم فتفعلا (١)

ویبین عروة بن الورد سبب اعراضه عن رأی الناس ومشورتهم ، بأنه پراهم لا یعجبهم حال ، فان زاول الصعلکة لاموه ، وان کف عنها افتقر فعیروه بفقره کما یقول :

وقد عيروني المال حين جمعت وقد عيروني الفقر اذ انا مقتر (٢)

ولذلك صمم على أن يعتمه على حزمه ، وأن يجعل أمره دائما مزمعا ، لا يستشير فيه أحدا ، ولا يصده عنه شيء ، فيقول :

ساغنيك عن رجع الملام بمزمع من الأمر لا يعشو عليه الطاوع (٣)

ويشير عروة الى اعتماده على رأيه وحده ، والى أنه لا ينقاد قط الا لما تمليه عليه ارادته يشير الى ذلك فى قصة اليهود من بنى النضير ، حين نزل بهم عروة ومعه سلمى زوجه التى كان أسرها من مزينة ثم تزوجها ، فراقت المرأة فى جمالها لليهود ، فاحتالوا على عروة وغرروا به ، وظلوا ينادمونه ويسقونه الحسر ، حتى سكر ، وظل يطلب شرابا ، فطلبوا منه أن يرهن زوجه ثمنا لما يشرب ، وظل يشرب مستزيدا فى رهنها حتى غلق الرهن ، وأصبحت المرأة ملكا لهم ، وحين صحا عروة من سكره أنكر ما صنع ، وعجب كيف يفعل شيئا لم تمله عليه ارادته وضميره ، وكأنه ألف من نفسه أنه حتى السكر لا يحول بين سلوكه وارادته وضميره فيقول :

ستونی الخمر ثم تکنفونی عسفاة آلله من کاب وزور فیا للناس کیف غلبت آمری علی شیء ویکرهسه ضمیری (٤)

وأما تأبط شرا فانه يقول : أنه أذا هم بشىء ولو لم يتحدث به فلا بد من نفاذه ، فكيف به أذا هم وقال ؟

وكنيت اذا هممت اعتيزمت واحير اذا قليت ان افعيلا (٥)

والأعلم الهذلي يدمى وجه زوجه اذا حاولت أن تثنيه عن عزمه مهما تعللت بالأسباب فيقول :

يدمى وجه حنته اذا ما تقول تلفتن الى العيال (١)

⁽١) الكامل للمبرد ١/١٢١ .

⁽۲) ديوان عروة بن الورد ۹۳ .

⁽۱) ديوان عروة بن الورد ١٠٠ ٠

⁽٤) أنظر الأغاني للأسلهاني ٣/٠٨٠ ٠

⁽٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ .

 ⁽٦) ديوان الهذليين ٢/٨٣ وحنته زوجه يعنى يغربها حتى يدمى وجهها اذا أرادت منمه
 من مخاطر الصملكة بحجة حاجة العيال اله ٠

ومالك بن الريب يحدثنا بانه حين يهم بالأمر لا يكتفى بمجرد انفاذه ، وانما يصمم على أن يكون انفاذه عاجلا غير متأن ، وأنه لم يكن قط مشتت العسرم متردد الهمة ، مهما تفاقمت أمامه الخطوب ، ومهما اشرأبت له المخاطر فيقول :

وما انا بالنائى الحفيظة فى الوغى ولا الملتقى فى السلم جر الجرائم ولا المتسانى فى العسواقب للدى أهسم به من فاتكسات العسزائم ولكنى مسستوحد العزم مقسام على غمسرات الحسادث المتفاقم قليل اختلاف الراى في الحرب باسل جميع الفؤاد عند حل العظائم (١)

وحين نبحث فى شعر مالك بن الريب لنرى ما يجعله يتشبث بهذا العزم، ولا يحيد عن هذا الصراع ، نجده مرتبطا بشيئين ، أحدهما خشية أن يجد نفسه مضيعا تافها فى مجتمعه ، والآخر رغبته فى أن يثبت وجوده وكيانه فى المجتمع ، وهو ما يعبر عنه هو وبعض الصعاليك بالمعالى والمجد فيقول عن الأمر الأول الذى يخشاه :

وما أنا كالعبر المقيم الأهمله على القيد في بحبوحة الضيم يرتع (٢) ويقول عن الأمر الثاني الذي يتطلع اليه ، ويحرص على أن يكونه :

ليس شيء يشاؤه ذو المسالى بعزيز عليه فادعى المجيبا (٣)

على أنه لا ينبغى أن نغفل أن صغة الارادة والحزم لا يستدل عليها بالنسبة الصحاليك بمثل هذه المعانى التى يصرحون بها فى شعرهم عنها ، ولكن الواقع أن هذه الصغة تبدو واضحة وراء شعرهم كله ، ففى كل موضع يتحدثون عنه. تحس بأن المتحدث ليس شخصا عاديا ، وأن هذه المعانى ليست من مجرد شاعر يصوغ المعانى وينتقى الألفاظ ، وأنها وراء ذلك كله شخصية ذات كيان ، وذات ارادة محسوسة ، ومثال ذلك حديثهم عن الجوع ، وعن حياة المراقب ، فانتا الحس من خلال صراعهم فيهما أننا أمام عزائم صلبة ، وارادات متميزة ،

وكذلك أخبارهم ، فيما يتعلق بتحملهم للمشاق ، ومواجهتهم للمخاطر وشعرهم فى ذلك وان كانت ستأتى له أحاديث تخصه ، الا أن فيه ولا ريب جانبا من قوة الارادة كبيرا ، ومثال ذلك قصة أبى خراش الذى أصابه الجوع أياما ، ثم رزق على هذه المخمصة الشديدة ذبيحة شهية ، وحين شم شواء اللحم قرق بطنه ، واذا هو يطلب من المرأة التى ذبحت له الذبيحة شيئا مرا ، فيأكله أو يشربه ، نكاية فى بطنه الذى أراد الحروج على ارادته ، ثم يصمم على أن لا يذوق الطعام ، ويمضى فى طريقه بجوعه هذا الشديد (٤) .

⁽١) مهلب الأغاني ٥/١٥٠

⁽٢) المدر السابق ٥/١٢٠٠

⁽١) المسدر السابق ٥/١٠٠٠

⁽³⁾ रायं । एडार प्रिकार्यकार १४/१८ न १९४७ •

وهناك صغتان تعتبران آثراً من قوة الارادة ، هما الصبر والجرأة ، وقد تبدر الجرأة لكونها صفة ايجابية أقرب الى قوة الارادة من الصبر ، ولكن الواقع العكس ، فالصبر الرتبط بالارادة ، اعنى الصبر الذي يتحكم فيه صاحبه وليس الذي يكون نوعا من الضعف وخور العزيمة - ذلك الصبر هو الدليل الحقيقى على قوة الارادة والتحكم في النفس ، ولذلك نجد أقوى الناس هم أقدرهم على ضبط أنفسهم في المواقف العصيبة التي توصف بأنها ثبات ، أو بأنها حلم ، أو غير ذلك من المواقف المختلفة ، أما الجرأة فيمكن أن ينظر اليها من زاويتين ، احداهما جرأة مرتبطة بالارادة ، وقد تسمى شجاعة ، وهى المرتبطة أيضا بالارادة ، بمعنى أن يكون صاحبها متحكما في ارادته ، ضابطا لتوجيه هذه الجرأة ، فتنعكس قوة ارادته على جرأته وتوجهها بقيادة هذه القوة ، والناحية الأخرى من الجرأة ، جرأة لا تمليها الارادة ، وانما تمليها الفعالات عابرة ، غير ثابتة ولا مستقرة ، كالغضب والمفاجأة ، وهذا النوع الذي لا تمليه الارادة الثابتة لا يعتبر من ةوة الارادة ، وأنها هو في أغلب حالاته نوع من ضعف الارادة ، وفقدان السيطرة على النفس ومشاعرها ، وقد نجد تفسيرا للتفريق بين هذه الأنواع في الحديث الشريف «ليس الشديد بالصرعة ، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، وفي قوله صلى الله عليه وسلم حين رجعوا من بعض الغزوات « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، يعنى جهاد النفس .

والواقع أن نصيب الصعاليك في جملتهم من الصفتين كان موفورا ،وأن كلا من الصفتين الصبر والجرأة ، كان مرتبطا بقوة الارادة فيهم الى درجة كبيرة ،

فأما الصبر ، فأننا حين نستعرض حياة الصعاليك من أخبارهم ، ومن تسوير شعرهم نجد أن حياتهم كلها كانت تقوم على الصبر الشديد الذي لا يقوى عليه غيرهم ، ولا تطيقه نفوس غير نفوس الصعاليك ،

فحین ننظر الی الشنفوی مثلا وهو یقاوم الجوع الشدید المضنی ، فیظل بحتمل ، ویقاوم ، ویتجاهل ، حتی یکاد ینعدم لدیه الشعور بالجوع ، حیث بقدا، :

اديم مطال الجـوع حتى أميته واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل(١)

ولذلك يرى نفسه ليس صبورا فحسب ، وانما هو مولى للصبر متحكم ديه ، ولتعوده الصبر أصبح ثابت المشاعر ، لا يشتكى الجوع كما قال ، ولايجزع من الفقر ، ولا يفرح بالغنى ، ولا تثيره حماقات الجاهلين قيقول :

⁽١) من اللامية : سبق ذكر نصها مشروحا .

واني لمولى الصبر اجتباب بزه على مشمل قلب السمع والحزم افعل واعدم احيسانا واغنى وانمسا ينسال الغنى ذو البعدة المتبسدل ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أدى سئولا باعقاب الاحاديث انمل (١)

جـزع من خـلة متكشف ولا مرح تعت الغنى اتخيــل

ولئن كان الشنفرى صبورا على الجوع ، فان عبيد بن أيوب صبور على . العطش ، فهو يحدثنا عن أنه هو وناقت يصبران على العطش أمدأ طويلا كصبر الضب على العطش فيما تزعم العرب فيقول:

ظللت وناقتى نفسوى فلاة كفرخ الفب لا يبغى ورودا (٢)

وصورة آخرى من صور الصبر ، يحدثنا عنها عبرو ذو الكلب ، وهي صبره اليوم الطويل على الاقامة في مرقبة موحشة ، مختباً كأنه الحيال لا يراه انسان فيقول:

أقمت بريدها يوما طويسلا ولم أشرف بها مثل الخيال (٣)

وكذلك صبر الشنفري على أن يبيت الليل كله في مرقبة محدبا منحنيا على حد زراعيه حيث يقول: « فبت على حد الذراعين محدبا ، (٤)

وعروة بن الورد يحدثنا أيضا عن صورة من صور صبره فيقول :

صبور على رزء الموالى وحافظا لعرضى حتى يؤكل النبت اخضرا (٥) ويقول ان صبره أقوى من كل حدث ، فلا شيء قط يدفعه الى شكوى او جزع :

ولا أنا مها أحدث الدهر جازع (٦) فلا انا مما جرت الحرب مشتك

وكل ما في حياة الصعلكة لايقوى عليه الا الرجل الصبور ، فحياة الصعلكة من حيث هي نموذج للصبر الشديد على حياة قاسية مجهدة محفوفة بالمخاطر من كل جوانبها ، وفي كل خطواتها ، وقد صبر الصعاليك على حياتهم ، ولكنهم يواجهون آلاما خارج حياة الصعلكة ، فيصبرون أيضا ، كما يحدثنا أبوخراش عن صبره على موت أخوته فيقول :

صبرت ولم اقطع عليهم أباجل (٧) فقدت بئى لبنى فلما فقدتهم

⁽١) من اللامية •

⁽٢) أنظر الحيوان للجاحظ ٦/١٢٨ -

۱۱۹/۳ ديران الهدلين ۱۱۹/۳ -

⁽٤) مهذب الأغانى ١/٩٥٠

⁽ه) ديون عروة ٩١٠٠

⁽٦) ديوان عروة ٩٩ ٠

۱۲۳/۲ ديوان الهدلين ۲/۱۲۳ ٠

وهو يحدثنا عن أن مظهره لا يدل دائما على دخيلته ، لأنه يصبر على أمور لا يبديها فيقول :

وقسد امنسوني واطمانت بعوسسهم ويم يعلموا كل الذي هو داخلي (١)

٣ _ الجراة

وكون الصعاليك شجعانا أمر لا ينازع فيه • فان طبيعة حياتهم التى تعتمد على العدوان والصراع الدائم مع الناس لا يصلح لها الا رجل شبعاع ، ولكنا نريد أن نبرز الجانب الذى يميز شجاعتهم عن غيرهم من شجعان العرب، وهذا الجانب يتمثل في الجرأة ، بمعنى أن صفة الشجاعة فيهم لا تحتاج الى تدليل وتوضيع ، وانها الذى يحتاج الى توضيح مظهر شجاعتهم ، أو طريقتهم في استخدام هذه الشجاعة واظهارها ، وطريقتهم أو طابع شجاعتهم هو الجرأة، وتتمثل جرأتهم في المخاطرة والمحازفة التي تشبه من يسمون في التعبير الحديث الفدائين ، ولعله أقرب الأوصاف الى طابع شجاعة الصعاليك ، فالصعلوك أشبه ما يكون بالفدائي ، غير هياب للموت ، لأنه غير حريص على الحياة (وسنرى أفاضة شعر الصعاليك في الاستهانة بالموت) وهو دائما البادى، بالعسدوان أو الصراع ، ولا يلقى كبير بال لما تتمخض عنه الأحداث والأيام من نتائج ، ومهما يبلغ من سوء النتائج في توقعها فان ذلك لا يفزعه ولا يثنيه ، حيث أنه وضع في مقدمة احتمالاته دائما الموت ، وهو شر ما يتوقع ، فكل ما هو دون المرت هن يسمر بالنسبة اليه .

ولذلك كانت مواقف الصعاليك وحياتهم تتسم دائماً بالجرأة ، وعدم المبالاة بالنتائج ، ولو كان من بينها الموت ، حتى انه ليس من المبالغة أن يقال أنهم يسعون الى الموت أكثر مما يسعى هو اليهم .

> فان تهدموا بالغدر داری فانهـــا اخی غمرات لا یرید علی الــــــــــا فبأ لرزام رشعوا بی مقدمــــــا اذا هم آلقی بین عیثیه عـــــرْمه

تراث كريم لايبالي العسواقبة يهم به من المفلع الأمر صباحب الى الموت خواضا اليه الكتائبا وتكب عن ذكر العسواقب جانبا (٢).

⁽١) ديران الهذلين ١٩٤/٢ -

۱۲ ، ۱۰/۱ ، ۱۲ ، ۲۱

وتأبط شرا يقول أنه وقف حياته على طلب الثار ومقارعة صناديدالفرسان الذين تؤازرهم أقوامهم في حين أنه هو لا يعتمد على أحد ، ويضيف معنى نبيلا قلما نجده في شعر الشبحان ومفاخرهم ، وهو يقول أنه في قتاله واستبساله لا يهدف الى أن يوصف بالشجاعة

قليل غرار النوم أكبر همه دم الثار أو يلقى كميا مسفعا (١) يمامسعه كل يشجع قومهه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وجحدر بن ضبيعة يأبى أن يجز شعر لمته كما فعل قومه من بكر حين تعاقدوا على حلق رؤوسهم فى احدى مواقعهم مع تغلب لتكون علامة يعرف بها بعضهم بعضا ، ولكن جحدرا صعلوكهم الشاعر الفارس يقول لهم : دعوا لمتى لأول فارس يطلع غدا من الثنية ، يعنى أنه سيكون أسبق قومه الى القتال فى الموقعة ، وأنه سيجالد أول فارس يطل عليهم من أعدائهم ، فلم لا ينركون ناصيته لهذا الفارس يجزها ان لم يستطع هو أن يقتله ؟ ثم يقول لهم شاعرا، ردوا على الحيل فى الحرب فأنا فارسها ، فأن لم أفعل فلمتى حل لكم ، وقد علمتم بأسى وشجاعتى ، بل ان أمى لتعلم شجاعتى منذ كنت وليدا فى لفافاتى فيقول :

ردوا على الخيسل ان ألم ان لم انا جزها فجزوا لمتى قد علمت والسنة ما ضموت ما لففت في خرق وشمت (٣)

والذى يعنينا أكثر من غيره فى هذه القصة ، هو أنه لا يلفت نظرنا مجرد شبحاعة جحدر ، فقد يكون قومه أو فرسانهم جميعا أو بعضا شجعانا ، ولكن الذى يلفت النظر تحفز جحدر لأن يكون أول مقاتل وساع الى القتال ، وهو من معنى الجرأة الذى نعنيه ، وعروة بن الورد سريع الاستجابة لداعى الوغى فعقول :

اذا قيل يا ابن الورد اقدم ال الوغى أجبت فلاقاني كمسى مقسارع (٤)

ويبين عروة سبب اقدامه وجرأته ، فيقول أنه عدم الحرص على الحياة ، وعدم الجزع من الموت :

فان فاز سهم للمنية لم أكن جزوعا وهـــل عن ذاك من متاخر(٥)

⁽۱) حماسة أبى تمام ١/١٨١ والكمى الشجاع والمسقع المتنبر لون الوجه من الحدية والنفسب (٢) يمامعه يجالده ويقاتله ويشجع قومه يعنى يشجعه قومه والشعار الثاني يعنى أن

تأبط شرا لا يفعل ذلك ليوصف بالشجاعة ٠

 ⁽٣) حماسة أبى تمام ١/٩٥/ والمت نزلت والبيت الثانى يعنى أن أمه تعلم شعباعته منذ كان في لفافاته رضيما ، ويسمى هذا اليوم يوم التحاليق لحلق بكر رءوسها فيه وقد انتصروا على تقلب .

⁽٤) ديرانه ص ١٠٠٠

⁽٥) الاصمعيات ص ٣٧ ٠

وصخر الغي يتحدث أيضا عن سرعة استجابته للقتال فيقول :

وكنت اذا سمعت دعاء داع أجبت فسلا السف ولا مكيث (١)

ويصف لنا نفسه حين يجيب داعى القتال بأنه « ذو مبادعة » يعنى بذلك أنه صاحب البدء والمفاجأة بالقتال ، وانه ماض على الهول ، وأنه مقدام الوغى، وأنه بطل فيقول :

أبا الشلم ان ذو مبادهة ماض على الهول مقدام الوغى بطل (٢)

ولم يكن وصف صخر لنفسه خيال شاعر ، فان الغريب أن خصمه أبا المثلم الهذلى ، الذى يخاطبه صخر بهذا الشعر ، لم يتكر على صخر ما وصف به نفسه من هذه الصفات وغيرها وقد اعترف بذلك فى منافراته الشعرية الكثيرة بينه وبين صخر (٣) وأبو خراش يقسول أنه يتقدم المغيرين ليهديهم فى دجى الليل ، وليكون أسبقهم الى القتال :

وائى لأهدى القوم في ليلة الدجي وارمى اذا قيل هل من فتي يرمي (٤)

وأما سعد بن ناشب فانه يلتزم تجاه أعدائه طابعا من الشراسة والفظاظة الدائمة ، حتى يحفظ على نفسه كيانها وهيبتها ، أنه في الشدائد التي تثقل على الفرسان وأبناء الحروب يكون هو من أبر أبناء الحرب بها فيقول :

فانا اذا ما الحرب القت قناعها بها حسين يجفوها بنوها لأبرار (٥)

ويقول عن تلك الشراسة وسبب تمسكه بطابعها ، وميدان توجيهها :

تفندنی فیما تری من شراستی وشله نفسی وما تسلوی فقلت لها آن الکریم وان حسلا گیلفی علی حال امر من الصبر وفی اللین ضعف والشراسة هیبة ومن لم یهب یحمل علی مرکب وعر وما بی علی من لان لی من فظاظة ولکننی فیظ آبی علی القسر وما بی علی مناذی الیسل حتی ادده واخطمه حتی یعسود الی القدر (۲)

ومالك بن الريب يحكى صورة من قتاله عدوه فيقول :

 ⁽١) ديوان الهدليين ٢/ ٢٢٤ والألف ، الضميف والمكبث من المكث وهو التقاعد .

۲۱) ديوان الهذلين ۲۲۹/۲ وللبادمة الماجأة -

⁽٣) انظر ديوان الهذليين ٢/٣٧٧ _ ٢٤١

 ⁽٤) المددر السابق ٢/١٣١ .

⁽a) المدر السابق ١/٢٧٣ ·

⁽¹⁾ المسعد المسابق ١/ ٢٧٠ ، ٢٧١ والمسقا العوج والخطم من امساك خطام الدابة، والتدر الاعتدال .

خسدها واني لفراب اذا اختلفت ايني الرجال بضرب يختل البصلا(١)

وحين تسلل ذئب ليفترسه صرعه مالك بسيفه ثم قال يخاطبه :

فانت وان كنت الجسرى، جنسانه منيت بضرغام من الأسلد الغلب فلست ترى الا كميسا مجللا يداه جميعا تثبتان من الترب (٢)

وأما عبيد بن أيوب فيشبه نفسه بالصقر المتحفز دايما للانقضاض فيقول: لكا لصقر جل بعدما صاد فتية تديرا ومشهويا عبيطا خرادله (٣)

٤ _ الاستهانة بالموت

لو أكان بالصعاليك حرص على الحياة كما يحرص سائر الناس ، ولو كان بهم نفور من الموت كما ينفر سسائر الناس لما تسنى لهم أن يكونوا صعاليك ، ولكن الصعاليك لا يحرصون على الحياة ولا يرهبون الموت كما يرهبه سائر الناس ، ولذلك تسنى لهم أن يعيشوا حياة تقوم على المخاطرة والمبادهة كما يقول صسخر الغي (٤) ، وعلى ترقب الموت ، ليس من الأعسداء والناس فحسب ، وانها من كل وجه من وجوه حياتهم بوحوشها وحياتها ومجاهلها وغير ذلك

ولئن كان بعض الناس من غير الصعاليك يتحدثون عن الاستهانة بالموت، فاننا في سبيل محاولتنا دائما أن نبرز خصائصهم التي تميزهم عن غيرهم ، تقول أن الذين يتحدثون عن الاستهانة بالموت من غير الصعاليك يربطون ذلك بمواقف معينة يرون فيها أن الموت خير من الحياة ، وأن الذي دعاهم الى الاستهانة بالموت في هذا الموقف انما هو مقارنة بين الموت وموقف أو نتيجة أسوأ منه ، كالمقارنة بين الفرار في الحرب والموت ، حين يرى المقاتل أن الموت خير من عاد الفرار أحيانا ، وكالمقارنة بين الموت وعار التخلى عن الذود عن العرض ، حين يرى الذائد حينئذ أن الموت خير له من ذلك العار ، وهكذا ، في مواقف معينة يرى الذائد حينئذ أن الموت خير له من ذلك العار ، وهكذا ، في مواقف معينة

 ⁽۱) مهذب الأغانى ١٣/٥ وخدما يعنى الفربة واختلاف الأيدى أن يشرب كل منهما ضربة معا والبصل بيضة الحديد يضمها المقاتل على رأسه °

١٦/٥ مهذب الأغاني ٥/١٦/

 ⁽٣) كامل المبرد ١/ ٢٠٠ وجل نظر مستشرفا للانقضاض وقديرا مطبوخا في قدر والمبيط اللحم الطرى والخرادل يمنى القطع يريد أنه بعد هجره حياة الناس أصبح كالمعقر يعيش على المفرائس والمبيت الذي قبله : فاني وتركى الانس من بعد حبهم وصبرى عمن كنت ما أن أزايله .

⁽٤) ديران الهدلين ٢/٢٩٠٠ ٠

محددة ، ولكن نظرة الصعاليك في جملتهم الى الموت غير ذلك ، انهم يستهينون بالموت لذاته ولو بغير مقارنة بينه وبين موقف آخر ، وكأن شعور الاستهانة بالموت صفة أصيلة دائمة فيهم لا يثيرها موقف معين ، ولا يتوقف ظهورها على طرف من الظروف كما يلاحظ ان ذلك بالنسبة لغيرهم من المستهينين بالموت هـ ذا فض لا عن أن المستهينين بالموت من غـ يرهم أفراد قـ له في مجتمعاتهم ، مما يضفى على مواقفهم طابع الشذوذ والتميز الذي يدعوهم الى الفخر بها ، ويدعو الناس الى الاعجاب بهذه المواقف لأنها غير مألوفة ، أما بالنسبة للصعاليك ، قهذا الشعور يبدو من شعرهم وأخبارهم ليس في أفراد أو قلة منهم ، وانما هو شعور عام يغلب عليهم جميعا في جملتهم ، حتى أننا نجه الأمر في مقارنتهم بغيرهم معكوسيا ، فبينما يعتبر المستهين بالموت من غير الصعاليك متفردا متميزا بهذا الشعور عن الكثيرين من مجتمعه ، يعتبر الهياب للموت من الصعاليك منفردا متميزا بهذا الشعور بين الصعاليك ، وليس هذا بالغريب ، فالمالوف في الناس من غير الصعاليك الحرص على الحياة والرهبة من الموت ، والذي يشند عن هـــذا الشـعور ، يعتبر منفردا متميزا بينهم ، وأما الصعاليك فشعورهم العام عدم الحرص الشديد على الحياة ، فالذي يحرص عليها هيابا للموت يعتبر ، شاذا منفردا بينهم ، ولذلك يجد الدارس لحياة الصعاليك وأشعارهم نشنزا بأرزا أمامه حينما يجد حديثا أو شعرا عن فرار أحدهم في موقف وأن كان عصيبا ، كبعض أخبار حاجز الأزدى(١) وأبي خراش الهذلي(٢) ، على أننا نلاحظ أن هؤلاء كانوا من أشهر عدائي العرب الذين لا تلحقهم الخيل، فكانوا اذا أحاط بهم الأعداء في موقف يوقنون فيه بالموت يجدون معهم سلاحا خطيرا ، هو العدو ، فكان من الحكمة أن يتخذوا من موهبة العدو سبيلا للنجاة، ثم يعودون للانتقام من أعدائهم ، فذلك أقرب الى الحكمة من استسلامهم للموت، ولكن بعض الرواة بالمقياس الذي أشرنا اليه ، وهو شذوذ الهيبة من الموت بين الصعاليك كانوا يرون في فرارهم هذا شيئًا من الغرابة لا لذاته ، وانمالمقارنته بالمالوف والمتوقع من الصعاليك ، ومن المرجح أن هؤلاء الذين فروا بالعدو . او لم تكن لديهم وسيلة العدو لآثروا الموت على الاستسلام لأعدائهم ، كما فعل قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية حين حاصره جمع من مزينة كانوا مغيرين للغنيمة ممن يجدون منه غرة ، على أسلوب الصعاليك ، فطلبوا من قيس أن يستأسر ليتخذوه غنيمة ، فأبى قائلا : نفسى أكرم على من الأسر ، ولم يكن قيس من العدائين حتى يحاول النجاة بعدوه ، ولذلك آثر أن يقاتلهم حتى قتل وهو يرتجز مستهينا بالموت :

أنا اذا المسوت ينسال غالسه مختلط أسسفله بعساليه

⁽١) أنظر مهذب الأغاني ١/٩٣٠.

^{· 184} _ 187/٢ انظر ديوان الهدئيين ٢/١٤٢ - 188

ً قد يعلم الفتيان أنى صاليه اذا الحصديد رفعت عواليه (١)

وكما قدر تأبط شرا فى نفسه حيث وقع فى مأزق من هذه المآزق ، حين حاصره بنو لحيان الهدليون ، وطلبوا منه أن يستأسر ، فأبى الأسر ، وقدر فى نفسه مقارنة بين الأسر وما يتبعه من رق أو فداء أو منة ، وأيا كان فهو أسر ، وبين الموت ، فلم يتردد فى ايثار الموت اذا لم ينجه احتمال ثالث وهو عدوه المشهور بسبق الحيل فيقول :

هما خطتا ، اما اسار ومئة واما دم ، والقبل بالحسر أجدر (٢) وأخرى أصادى النفس عنها وانها لمورد حسرم أن فعلت ويصلد(٣)

ولكن حظ تأبط شرا كان حسنا ، اذ نجح احتماله الثالث ، وهو اعمال الحيلة ، ثم النجاة عاديا على ساقيه (٤) والذي يعنينا هسو أن تأبط شرا في تقديره للموقف ، جعل الموت نصب عينيه ، مؤثرا اياه على الأسر حتى مع احتمال أن يمن عليه آسروه ، وهو في هذا لا يمشل خلقه وحده ، وانها يمشل خلق الصعاليك ، جبيعا ، وهذا البعض الذي تحدثوا عنه بالفرار من أفرادالصعاليك، انها كان موقفهم كموقف تأبط شرا هذا ، لأن الذين تحدثوا عنهم بالفرار كانوا من أشهر العدائين كما قلنا ، وقد فضل صخر الغي موته على الأسر (٥) ، وحديث الاستهانة بالموت من أبرز المعاني التي طرقها شعر الصعاليك ، حتى أنه لا يكاد شاعر منهم يخلو شعره من هذا المعنى ، بل أننا نراه مكررا في صور مختلفة لدى معظم شعرائهم ، فتأبط شرا يستهين بالموت ، لأنه يعلم أن حياة مثله من الصعاليك الذين يغرون دائما بالأعداء معرضة لمواجهة الموت في كل حين ، ولذلك فهو مهيىء نفسه لاستقباله ، ويزيد تأبط شرا على ذلك أنه يعلم أن الناس يعرفون فيه هذه الصفة ، فينصحون من يعنيهم شأنها ألا تتزوجه لأن هامته مهياة لأول سهم يلقاها فيقول :

وقالــوا لا تنكحيــه فـانه لأول نصــل أن يلاقي مجمعا (٦) ثم ومن يغـر بالأعداء لا بد أنـه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

⁽١) أنظر أغاني الأصفهاني ١٤٤/١٤ وما بعدها م

 ⁽۲) حماسة أبى تمام ۱۷/۱ ، ۱۸ وخطتا يعنى هما احتمالان اما الأسر واما القتل ، يقول
 انه يفضل أن يقتل على أن يأسروه حتى ولو هنوا عليه بعد ذلك باطلاقه بدون فداء ٠

 ⁽٣) وأخرى يعنى هناك طريقة أو حيلة أخرى يعنى محاولة النجاة وأصادى أشاورو الشطر
 الثاني يعنى أن محاولة النجاة فيها كل الحزم * .

⁽٤) أنظر القصة في شرح حماسة أبي تمام عن التيويزي ١٦/١ ، ١٧ -

⁽٥) انظر قصة مقتله بشرح ديوان الهذليين للسكرى •

⁽٦) حباسة أبى تمام ١٨١/١ ومجمع جماعة يعنى اذا لاقى جمعا سيقتل بأول نصل منهم والأبيات متفرقة فى القصيدة ولكنها مرتبطة للعائى وسنان الموت فى البيت الآتى يعنى الموت نفسه مشدها اياه بالسلاح •

ثم _ وان وان عمرت اعلم انتى سائقى سنان الوت يبرق اصلعا

ویحکی تابط شرا صورة من صور علم مبالاته بالموت حین یمشی حافیا فی آماکن یعلم آن فیها ملاکه شاعرا بما فی سراه من مخاطرة فیقول :

يسرى على الاين والحيات محتفياً نفسى فداؤك من سار على ساق (١)

ولذلك كله فهو ينصبح نفسه ، وينصبح غيره ، بأن يستغل ما يملك في زكاء نفسه وكسب حمد لها ، لأن الموت متوقع في كل حين فيقول :

سدد خلالك من مال تجمعسه حتى تلاقى الذى كل امرىء لاقى (٢)

والشنفرى يبلغ أقصى الاستهانة والاستخفاف بالموت حسين يوصيهم الا يدفنوه ، بل يتركوه للضباع توسعة عليها ، لأن الضباع خير من أعدائه الذين يحرصون على أن يحملوا رأسه يشغون بها صدورهم وصدور أهليهم ، ثم يتركوا حسده في المكان الذي لافوه فيه يقول :

لا تقبرونی ان قبری محسرم علیکم ولکن أبشری أم عامسر (۳) اذا احتملوا رأسی وفی الرأس اکثری وغودر عند الملتقی ثم سسائری

ويؤكد الشنفرى أن المسوت ليس رهيبا ولا مخوفا لديه ، لأنه مستعد لاستقباله دائما ، ومما يزيد فى اطمئنانه الى الموت أنه لن يكون هناك عمات ولا خالات بواكى عليه ، لأنه يعيش فى فلواته بعيدا عن الناس ، فضلا عن أن قومه من أزد اليمن قد انقطعت بينه وبينهم الصلة ، منذ اختطف صغيرا من بينهم ، وهو الآن فى صحراوات نجد وجبالها ، فيقول عن المعنى الأول :

اذا ما أتتنى ميتنى لم أبالها ولم تذر عماتى الدموع وخالتى ولو لم أرم في أهل بيتي قاعدا اذن جاءني بين العمودين حمتى (٤)

وأما عروة بن الورد ، فما أكثر ما تحدث عن استهانته بالموت ، واستعداده للقائه في كل حين ، فنراه مرة يزجر امرأته التي تنهاه عن المخاطر خوفا من

⁽١) المنضليات ٢٧ والسرى السيرنى الليل والأين التعب أو نوع من الحيات ومحتفيا حافيا ٠

 ⁽۲) المغضليات ۳۰ وسدد من سداد الرأى وخلالك يعنى خصالك يريد أكتسب حمدا بمالك
 ولا تدخر فائك ملاق الموت ٠

 ⁽۳) حماسة أبى تمام ۱۸۸/۱ وأم عامر كنية الضبع يريد لن تقبرونى ولن يكون لى قبر ،
 لأنى واثق أن أعدائى الكثيرين سيظفر بمضهم بى فيحملون رأسى ويتركون جسدى للضباع وهذا المنى لا يتعارض مع التقديم للبيتين .

⁽٤) الغضاليات ١١٢ ولم أرم لم أبرح والعبودين يريد عبودى الغيمة والحمة الموت بعنى حتى لو طللت مقيما في أهل ببتى لجافتي الموت في خيمتي .

الموت ، يقول لها أنه يريد أن يستقبل الموت وهو يصارع الحياة وصولا الى مدف ، لا أن يستقبله قعيد البيت فيقول :

ادى أم حسان الغداة تلومنى تغوفنى الأعساء والنفس أخوف لعسل الذى خوفتنا من أمامنا يصسادفه في أهله المتغوف (١) ويقول لها أيضا:

ذرينى ونفسى أم حسسان اننى بها قبل ألا أملك البيع مشسترى فان فاز سسهم للمنية لسم أكسن جزوعا، وهل عن ذاك من متاخر (٢) ويقول أيضا :

اليس ورائى أن أدب على العصب فيشمت أعدائى ويسامنى أهبل (٣) رهيئة قعر البيت كل عشسية يطيف بى الولدان أهدج كالرأل أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم فكل منايا النفس خير من الهزل

ويقول أيضا أن المنايا متربصة في كل ثنية يواجهها المرء ، ولا مفر له منها ، فليس من الحكمة أن يتهرب من أمر لابد واقع فيقول :

وان المنايا تغسر كل ثنيسة فهسل عن ذاك من متأخسر (٤) ويؤكد هذا المعنى أيضا في قوله :

محالف قاع كان عنسه بمعرزل ولكن حسين المرء لابد واقسع (٥) ولذلك فهو ينصح المرء بألا يترك خوف الموت يديقه ذلا أو فقرا فيقول ؛ فقلت له ألا احى وأنت حسر ستشيع فى حيساتك أو تموت (٦) وينصح الصعلوك بأن يبذل أقصى جهده فى صراع الظروف والفقر ، فائ

حقق أهدانه طابت نفسه ، وان مات في سبيل تحقيقها مات محمودا فيقول : ولله صعلوك صفيحة وجهه كفسوء القايس المتنسود (٧)

⁽۱) حماسة أبى تمام ۲۲۸/۲ •

⁽٢) الاصمعيات ٣٦ •

 ⁽٣) مهذب الأغانى ٢٣/٢ وما بعدها والحيوان للجاحظ ٤/٣٥٦ والرأل في البيت التالى
 ولد النعام *

⁽٤) ديوان عروة ٩٦ ٠

⁽٥) ديواته ٩٩ والحين الموت ٠

⁽٦) ديوانه ٨٦٠

 ⁽٧) حماسة أبى تمام ١٩١٠/١٦٠/١ وصفيحة وجهه عرضه والقابس طالب الناد من القبس
 ركذلك المتنور يريد ظهور الجد والحركة في وجهه في مقابلة لميه على الكسل والخمول قبل ذلك •

مطلا على اعداله يزجرونه ساحتهم زجر المنيح الشهر

وابو خراش يؤثر الموت على حياة ذليلة مهما كانت صورة الذل ، فيقول في سياق سبب احتماله الجوع الشديد :
مخالة أن أحيا برغم وذلة وللموت خبير من حياة على رغم (١)

وأما قيس بن متعد فهو متأهب للموت ولو في غير اختيار بينه وبين موقف آخر فيقول :

فان تاتنی الدنیا بیهمی فجاءه تجدنی وقد قضیت منها ماربی (۲)

ويزيد المقيل يجعل من استهانته بالموت ما يشبه الحكمة فيقول : الله ما الكتابا اخطاتك ومسادفت حميمك فاعلم انهسا سستعود (٣)

وسعد بن ناشب يرفض أن يقيموا على هوان مخافة الموت فيقول :

ولسينا بمعتلين دار هضيمة مغافة موت ان بنا نبت الدار (٤)

وأما أبو النشناش النهشلى فائه وإن كان يقارن بين الموت وحياة الحاجة والعدم ، الا أننا نحس أنه يركز على استخفافه بالموت لذاته ، ويتناول تهوينه من جوانب مختلفة فيقول :

فللموت خير للفتى من قعسوده عديما ومن مولى تسد عقساربه فمش معدما أو مت كريما فاننى أدى الموت لا ينجو من الموت هاربه ولو كان حى ناجيسا من منية لكان أثيرا حسين جسدت ركائبه (٥)

وأبو الطمحان القينى يتمثل موته وما يعقب هذا الموت من تركه وحيدا في لحد ضيق ، وكانه مترقب لهذا الموت فيقول :

الا عللانى قبل نوح النوائع وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح وقبل غد اذا راح اصحابى ولست برائح الا راح اصحابى تفيض دعوعهم وغودرت في لحد على صفائح

⁽١) ديران الهذاين ٢/٧٧٠ ٠

⁽۱) مهتب الألماني (۱/۹۴ ،

⁽۱۲) كامل للبرد ١/١٦.

⁽٤) حاسة ابن تمام ١/٢٧٣ ،

^(*) حساسة أبى تمام ١/٥/١ والاصمعيات ١٢٥ وأثير يبدو أنه شمخص كان يقرب به المثل يعنى أو كان الأحد أن يتبعو من الموت لنجا عدا الشيخى .

يقولون هيل اصلحتم الخيكيم وما اللحد في الأرض الفضاء بصالح(١)

ومالك بن الريب يرى أن مروءته تمنعه من الفرار من الموت ، ولولا كرم نفسه وعزتها لكان له عن الموت متصرف فيقول :

ارى الموت لا انحاش عنه تكرما ولوشئت لم أركب على الركب الصعب (٢)

وأما توبة بن الحبير فيتحدث عن ليلى الأخيلية حبيبته ، قائلا أنه يخاطر ما يخاطر في صعلكته لاحلى غايتين ، فاما أن يسعدها بغنى وميسره ، وأما أن يلقى حتفه ، فيفسح لها الطريق ويفك هو من أسر حبها فيقول :

اظن بها خيرا واعلم انها ستنعم يوما أو يفك آسيرها (٣)

وشعرهم فى هذا المعنى يطابق أخبارهم ، حيث نجد أن معظم من بلغتنا تفاصيل من أخبارهم ماتوا قتل بسيوف الأعداء وسلاحهم ، ومن هؤلاء الشنغرى وتابط شرا والسليك بن السلكة ، وقيس بن الحدادية وعمرو ذو الكلب وصحر الغى وتوبة بن الحديد ، ولم تحدثنا الأخبار أن أحدا منهم قبل طائعا أن يكون أسير ، بل حققوا ما شاع فى شعرهم من استهانتهم بالموت (٤) .

ه _ الحدر واليقظة

ومن الواضع أنه لا تعارض بين الاستهانة بالموت والحذر ، فالمحارب فى ميدان القتال مهما بلغ من البسالة والاقدام والحرص على مواجهة الموت لا يغنيه ذلك عن أن يتخذ لنفسه كل حيطة وحذر ، ولا يخل هذا بوصفه بالبسالة والاقدام بل أن الحيطة والحذر جزء من كل ما يوصف به من بسالة واقدام وشجاعة •

ولم تكن حياة الصعاليك مجرد ميدان قتال ، ولسم تكن المخاطر التى تتربص بهم مجرد أعداء محاربين أو متربصين ، أن حياة الصعاليك معركة مستمرة متصلة بين الحياة والموت ، لا فرق فيها بين ليل ونهار ، ولا بين صبح ومساء ، ولا بين حركة واستقرار كل ذلك أجزاء ومراحل وصور من المعركة المتصلة بينهم وبين الموت الذي يرقبونه في كل شيء ، في الضحايا الذين يتربصون أو يسطون

 ⁽١) حماسة أبي تمام ١/٢٧٣ وقد أظهر الخليفة المأمون اعجابا بهذه الأبيات لما فيها من موعظة والصفائح الحجارة ٠

⁽٢) مهذب الأغنى ٥/٦١ ٠

 ⁽٣) الشمر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجى وأطن بها خيرا يريد أعتقد فيها الوفاء
 وستنم يعنى بغناه أسيرها يعنى موته ٠

⁽٤) انظر مراجع اخبارهم في تراجمهم باب (الشعراء الصعاليك) ٠

أو يغيرون هم عليهم ، وفى الأعداء الكثيرين الذين خلقتهم غاراتهم وجناياتهم والذين يتربصون هم بدورهم بالصعاليك ، وفى الوحوش الضارية الكثيرة المنبئة من حولهم والتي لا يامنون غرتها فى كل حين ، وفى هوام الأرض وحياتها التي تنساب فى كل وجه دون حسى أو دبيب ، وفى ظروف أخرى كشيرة تكتنف حياتهم فى كل وجه من وجوهها •

ولذلك كان لزاما على الصعاليك أن يجعلوا من صلب اسلحتهم فى حياتهم عنده اليقظة والحدر الشديدين ، وكان من الصفات الأساسية فى كل صعلوك أن يكون حدرا متيقظا شديد الحيطة والاحساس بالمخاطر ، وقد جعلت هذه اليقظة فيهم ما يشبه الغريزة فى الاحساس بالخطر والتهيؤ له ، وعدم المفاجأة فى وقوعه .

وقد ساعدتهم هذه اليقظة في الخلاص من مآزق كان مصيرهم فيها شرا لولا هذه اليقظة ، ومن ذلك قصة السليك مع الرجل الذي عدا على السليك وهو نائم ليأسره أو يقتله أن أبى الأمر ، ولكن يقظة السليك من حيث توقعه للمخاطر دائما ، وعدم ارتباكه بالمفاجأة هيأ له النصر على خصمه هذا (١) وقصة مالك ابن الريب مع أفلح الصعلوك الذي ظل عشرين سنة يقطع طريق خراسان وحدم على القوافل ، حين جثم أفلح بضخامته على مالك وهو نائم (٢) ، ولكن مالكا مع ذلك لم تدهشه المفاجأة ، بل هب وكأنه لم يكن نائما فأهوى على أفلح بسيفه فصرعه (٣) ، وفي ليلة أخرى سطا ذئب على مالك أيضا ، ولكن مالكا كان أشد منه حذرا ويقظة ، فاستطاع أن يصرعه بسيفه (٤) ولذلك نرى حديث الصعاليك عن اليقظة والحذر بارزا في شعرهم ، ويبدو منه ضيقهم بالنوم ، لأنه يفسد عليهم التزامهم الحذر واليقظة ، ولكن مع ذلك لم يتركوا للنوم أن يفسه عليهم حياتهم فنرى في شعرهم أن نومهم يكاد يكون صوريا ، وأنه أقرب الى اليقظة منه الى النوم الحقيقي ، وأخبارهم الكثيرة تؤيد ذلك كما مثلنا ، وهذه الأمثلة لا تدل على أحداث فردية فقط ، وانما تدل على صفة عامة في الصعاليك ، هي اليقظة الشديدة التي جعلت حتى نومهم متيقظا ، ولو تصورنا نائما عاديا فوجيء بخطر كبعض ما مثلنا لما تسنى له أن يكون في شيء من هذه اليقظة العجيبة التي تعطى بها الصعاليك ، والتي لم يفسدها عليهم حتى نومهم .

وتأبط شرا يصور لنا يقظته هذه ، تصويرا عجيبا حقا ، فيقول أن بين عينه وقلبه صلة في الاحساس بالخطر ، فبينما قلبه يراوده الاحساس بالخطر ، اذا عيناه تنظران فتجدان سلاحا مصوبا نحوه ، ويعلل ذلك بأن الحدر أصبح

۱۱/۲ انظر مجمع الأمثال ۲/۱۱ •

⁽٢) أنظر دسائل الجاحظ ١٩٣/١ •

۱۳/٥ وانظر مهذب الأغانى ٥/١٣٠

⁽٤) أَنظر مهدب الأغاثي ٥/٥٠ •

سجية فيه حتى الله اذا نام طل قلبه حارسا يقظا محاذرا ، يتبهه الى أى خطر يحيط به يقول:

اذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل له كالىء من قلب شيعان فاتك (١) ويجعل عينيه ربيئة قلبه الى سلة من حسد اخضر باتك

ويصف نومه القريب من اليقظة أيضا قائلا انه ينام، ولكن قلما تصبيبه من نومه غرة أو استغراق ، بل هو يقظ النوم لأنه بين خطرين ، فهو داثما طالب ومطلوب معا ، وأخشى ما يخشباه الغرة من أعداثه ، كما أن أحرص ما يحرص عليه أن يجد منهم غرة ، ويحدث بذلك المرأة التي أبت الزواج منه لأنه معرض دائما للموت من أول نصل يلاقيه فيقول:

فلم تر من رأي فتيالا وحاذرت تأيمها من لابس الليل أروعا (٢) قليل غيراد النبوم اكبر هميه دم الثاد أو يلقى كميها مسفعا (٣)

على غـــرة أو نهزة من مكانس أطَّالُ نُزالُ القَّومُ حتى تسعسعا (٤)

ويصرح تأبط شرا بأنه يغالب النوم دائما ، لأن النوم عدوه الحقيقي ، وأنه يسلك كل وسيلة ليذود النوم عن عينه ، ومن ذلك أنه يوقد أحيانا النار في بعض سراه ، لا لشيء الا ليصرف النوم عن عينه ، ويريح راحلته قليلا من جهد السرى الطويل ، ثم يواصل سراه بالليل بعد اطمئنانه الى ذهاب النوم عنه ٠

بدار ما أردت بهسا مقامسا (۵) ونار قد حضــات بعيـد وهــن سيسوى تحليل راحلة وغسير اكالئمه مخسافة أن يناما (٦)

ويصف لنا الشنفري صورة يقظته الدائمة ، فيقول انه يبيت الليل في مرقبته يقظا ، وقد وضع ذراعيه أمامه وانكفأ محدبا عليهما ، ولكنه لايفعل ذلك بغية الراحة ، وانما لبتاح له أن يفحص ببصره الحديد الأماكن والسبل أمامه وليدور برأسه كالأفعي الملتوى مراقبا ما حوله فيقول بعد وصفه المرقبة والظلام من حوله:

⁽١) أنظر الحيسوان للجاحظ ٦/٢٥٥ (مامش) والكالى. الحارس وشمسيحان حدر عيور والربيئة الراصد الذي يستطلع للقوم طريقهم والسلة المرة من صل سيقه .

⁽٢) حماسة أبى تمام ١/١٨٩ والفتيل مثل للتفامة يعنى كان رأيها تافها والتأيم فقد الزوم ولابس الليل كتاية عن الحدر •

⁽٣) المسقم المتغير لون الرجه •

 ⁽٤) الغرة الغفلة والمكانس الملازم للكناس مأوى الظبى وتسمسع قارب النهاية •

⁽٥) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٥٠ في المثل (أسرع من العبر) وحضا النار أوقدها وأشملها والوهن الكلال والتعب

⁽١) تجليل راحلة يعنى ارحلتها والمير انسان المين وأكالئة أراقبه وأحرسه يعنى انسان

فبت على حدد الدراعين محدبا كما يتطوى الأرقش المتقصف (١)

ويبين الشنفرى سبب هذه اليقظة الشديدة ، فهو بالأضافة الى أنه طالب مىيد ، هو أيضا طريد جنايات كثيرة جناها ، جعلت له أعداء كثيرين يتربصون غرته ، ان تام هو فعيونهم هم يقظى متعجلة الظفر به ، فيقول :

طرید جنایات تیاسرن خمسه عقیرته لایها حم اول (۲) تنام اذا ما نام یقظی عیونها حثالًا الی مکروهسه تتعجل (۳)

ويقول مالك بن حريم ان طلبه للثار نغص عليه النوم:

لم أكل فيها لل بليت بها نووم ليل يغرنى الطمع (٦) وليست حادثة معينة تدعو مالكا الى اليقظة ، ولكنه يقول انه جعل الحدر صفة فيه ، حتى لا يفاجأ بغارة ، فهو متيقظ لأدنى حركة من سوائم حيه ، هنالك يحس بأنها غارة الأعداء ، فلا يؤخذ حينذاك على غرة فيقول :

فواحسسة الا أبيت بغسسرة اذا ما سوام الحي حولي تضوعا (٥)

ويصفون مالك بن الريب أنه من حذره ويقظته كان ينام دائما محتضنا سيفه ، وهو يقول ذلك للذئب الذي عدا عليه في القصة السابقة .

فانت وان كنت الجسرى، جنانه منيت بضرغام من الاسد الغلب بمن لا ينام الليل الا وسيفه رهينة أقوام سراع الى الشغب (٦)

وأبو خراش يصور يقطته في مرقبته مع صاحبه ، فيقول عن صاحبه انه لا يؤتى قط عن غرة ، وانه يبعثه ربيئة ومستطلعا في أوقات من الليل ينام فيها طلاب النوم والدفء ، أما هما فليسا من طلاب النوم ولا الدف فيقول :

لست لرة ان لم أوف مرقبة يبلو لى الحرف منها والمقاضيب بعداحب لا تثال الدهر غرته اذا افتلى الهدف القن المعاذيب بعثته بسدواد الليل يرقبنى اذا آثر النوم والدف المناجيب (٧)

⁽١) مهلب الأعاني ١/٩٥ ومحديا منحنيا والأرقش الحية الرقطاء ٠

⁽٢) من اللامية _ وتياسرن تقاسمن وعقيرته لحمه أيضا وحم يمنى اذا مات يريد أن أصبحاب الجنايات يتسابقون في تقسيم لحمه والسبق في الظفر به ٠

 ⁽٣) تنام يعنى الجنايات يريد أصحابها ، اذا نام هو ناموا هم ولكن عيونهم يقظة اليه
 (٤) أمال القالى ١٢٠/٢ من تصيدة تى تصة ثاره الشيه .

 ⁽٥) الاصمعيات ٥٨ وواحدة يعنى احدى صفاته والغرة الففلة والسوام السوائم وتضوع فزع
 (١) مهذب الأغانى ١٦/٥ يخاطب الذئب والفرغام الأسد والشغب اثارة الشر

⁽٧) ديون الهدلين ١٦٠/٢ والدهر طرف واقتل احتجز والهدف الثقيل الوخم من الرجال والنن العبد الخالص الرق والمعازيب الاماء فاعل افتلي يعنى اذا احتجز الاماء ضعيفا فلا يزاول عملا صادا • والمناجيب المسملة •

ومن صور الحذر التي يراعيها الصعاليك حسن اختيار الطريق الذي يسلكونه ، كما يصف صخر الغي ذهابه الى الماء ليملا قربته معاذرا ، فلما أراد العودة آثر أن يرجع من طريق غير الذي ذهب فيه ، خشية أن يكون أعداؤه راوه وهو ذاهب فتربصوا عودته ، وراعي في طريق عودته أن يكون الطريق خلف جبل أو مكان طبيعته تسمع له بالنجاة اذا هوجم فيقول :

فلمسسا جرومت به قربتی تیممت اطرقة او خلیفسا (۱)

وأما عمرو بن براقة فينفى عن نفسه نوم الليل ، ولكنه يعرف أنها ليست صفنه وحده ، وانما هى صفة الصعاليك جميعا ، ويعرف كذلك أن الناس جميعا يعلمون أن هذه صفة الصعاليك ، لأنه إنما ينام الليل خلى البال والمسالم ، أما الصعاليك فلاهم خليو البال ، ولاهم مسالمون ، فلا عجب أن يكون نومهم قليلا غرارا ، فيقول :

وليلك عن ليل الصحاليك نائم حسام كلون الملح ابيض صارم قليل اذا نام الخل السالم (٢)

تقـول سليمي لا تعرض لتلفـة وكيف ينام الليل من جل ماله الم تعلمي ان الصـعاليك نومهم

٦ - الحيلة

ولكن الحياة المعتمدة دائما على المخاطرة لا تخلو من مآزق يتعسرض لها ماحبها مهما بالغ فى حيطته وحذره ، وقد بذل الصسماليك جهدهم فى الحذر واليقظة حتى حرموا على أنفسهم لذة الاستغراق فى النوم ، والتمتع به مهما يبلغ بهم الكلال ، كما رأينا من تأبط شرا الذى كان فى تجوله وسراه بالليل ، يشعر بالكلال الشديد ، والارهاق المضنى هو وراحلته ، ويحس الرغبة الملحة فى النوم ولو لحظات يريح فيها جسده المنهك ، ولكنه يأبى الراحة الا لراحلته ، أما هو فلا يزيد على أن يوقد النار با يبذله من جهد فى سبيل اشعالها ليصرف عنسه النوم ، ثم يواصل السرى والصحو واليقظة ، خشية أن تكون فى نومه غرة يؤتى منها .

ولكن هذه اليقظة الشديدة لم تحل بينهم وبين المآزق يقعون فيها ، واخطر هذه المآزق على الصعاليك حصار الأعداء ، حينما يكون هؤلاء الأعداء كثرة لا قبل الصعلوك بها ، ثم يأخذون عليه الطريق فلا يجد مفرا ولا مهربا ، وقد قلنا ان

 ⁽١) ديوان الهذليين ٢٦/٢ وجزمت ملأت وبه يعنى الماء وتيميت قصدت واطرقة جمع طريق وخليف خلف جبل أوواد والجمع في أطرقة يشير الى التواء الطريق وتعدد مسالكه ٠
 (٢) أمالى القالى ٢١٩/٢ وتعرض أصله تتعرض وتلفة المرة من التلف وجل معظم ٠

الصعاليك ليس من خلقهم الفرار من الموت ، بل على العكس ، خلقهم الاستهانة بالموت والاستعداد لمواجهته في كل حين ، وقلنا أن الصعاليك كانوا أزاء موقف كهذا الموقف نوعين ، العدائين وغير العدائين ، أما غير العدائين فلم يكن أمامهم الاطريقان ، الاستسلام للأعداء ، أو الموت فكانوا لا يترددون في أختيار الموت ، كما فعل قيس بن منقذ مع أنهم عرضوا عليه الأسر ، فأبي وأصر على أن يقاتل مع يأسم من النتيجة ، لأنه كان وحيدا وسط جمع كبير ، وظل يقاتل حتى قتل (١) ، ولذلك لا نعلم أن أحدا من الصعاليك أسر أو قبل الأسر ، مع كثرة ما تعرضوا له من مواقف يسوغ لكل امرى، فيها أن يقبله ، وأما العداءون من الصعاليك فكان أمامهم احتمال ثالث غير الأسر والموت في مثل هذا الموقف ، وهو النجاة عدوا على اقدامهم ، فحينما يجدون انفسهم في المرقف الذي يحاصرهم فيه أعداؤهم ، يجدون مع ضيق الموقف وشدته احتمالا في النجاة بعدوهم الذي لا تلحقه الحيل ، ولكن هنالك عقبة يجب أن يجتازوها حتى يستطيعوا استعمال أقدامهم ، هذه العقبة هن الخروج من الحصار ، فاذا استطاعوا النفاذ أو التسلل من الحصار كان الأمل في نجائهم قويا مهما طاردهم الأعداء ، وهذا النفاذ أو التسلل لا يغنى فيه بالطبع القتال أو استخدام القوة ، لأنه موقف فوق طاقة الصعلوك ، وانما يغنى فيه شيء واحد ، هو اللجوء الى الحيلة وحسن التخلص :

وأخبار الصعاليك وأشعارهم تحدثنا عن كثير من هذه المواقف التي استعمل عداء والصعاليك حيلتهم وسيقانهم فيها حتى نجوا ، ومن ذلك قصة تأبط شرا مع بنى لحيان من هذيل حيث استطاعوا أن يرصدوه حتى صعد مر تفعا من جبل ليجنى عسلا يقتات به ، ولم يكن له طريق غير الذى صعد منه ، فحاصره بنو لحيان ، وطلبوا منه أن يسلم نفسه أسيرا فأبى ، وأصبح يواجه الموقفين ، الموت ، والأسر الذى أباه بشدة ، ولكنه أعمل ذكاءه لا يجاد مخرج ثالث ، فالعقبة الكاداء الآن أمامه الحسار ، ولو استطاع النفاذ منه لكان له فى ساقيه شأن ، وإذا ذكاؤه يهديه المخرج ، وإذا هو يلجأ الى الجانب الآخر من المرتفع الذى يقف عليه ، فيصب المسل الذى جمعه على صخور ذلك الجانب الآخر بعيدا عن بنى لحيان ، وقد كان العسل الذى جمعه على صخور ذلك الجانب الآخر بعيدا عن بنى لحيان ، وقد كان صبه العسل ليستطيع الانزلاق عليه فوق الصخور بسلاسة ويسر ، دون أن تجرحه أو تسلخه الصخور التى تشبه ازلاقها حد الفاس كما يقول أبو خراش ، وبهذه الحيلة استطاع تأبط شرا النجاة من موقفه الخطير ، ثم يقول عن موقفه وبهذا :

اذا المرء لم يحتل وقد جد جده أضاع وقاسي امره وهو مدبر (٢)

⁽١) مهذب الأغانى ٢٢٥/١ ، وكذلك صبغرالني في قصة مقتله · انظر شرح السكرى لديوان الهذليني •

 ⁽۲) حماسة أبي تمام ۱۷/۱ ، ۱۸ ولم يحتل من الحيلة ، والشطر الثاني يعنى الغشل وادبار الهزيمة .

ولكن اخو الحزم الذي ليس نازلا به المختلف قريع الدهر ما عاش حسول اذا والما السياد ومنسه وطاء والما خطتا اما اسسياد ومنسه والما واخرى احسادى النفس عنها وانها لموده فرشت لها صدرى فزل عن الصفا به المخالط سمهل الأرض لم يكدح الصفا به المغالف ولم الك آيبسيا وكم

به الخطب الا وهو للقصد مبصر (۱) اذا سد منه منخر جاش منخر (۲) وطابی ویومی ضیق الجعر معود (۳) واما دم والقتل بالحر آجدد (۵) لورد حزم ان فعلت ومصدر (۵) به جؤ جؤ عبسل ومتن مخصر (۱) به کدحة والموت خزیان ینظسر (۷) وکم مثلها فارقتها وهی تصفر (۸)

ولم تكن المرة الوحيدة التي نجا فيها من هذيل وتركهم آسفين على نجاته كما يقول » وكم مثلها فارقتها وهي تصفر » ولم تكن هذيل وحدها التي نجا منها تأبط شرا وتركها آسفة مدهوشة ، بل نجا بحيلته وعدوه كثيرا من أعداء كثيرين ومن ذلك هذه القصة التي ترويها أخباره ، في نجاته من بجيله وهي بروايتها « خرج الشنفري وتأبط شرا وعمرو بن براق (٩) فأغاروا على بجيله ، فوجـ دوا لهم رصدا على الماء ، فلما مالوا له في جوف الليل قال لهما تأبط شرا : ان بالماء رصدا ، واني لأسمع وجيب قلوب القوم ، فقالا ما تسمع شيئا وما هو الا قلبك يجب ، فوضع أيديهما على قلبه وقال : والله ما يجب وما كان وجابا ، قالوا : فلابد لنا من ورود الماء ، فخرج الشنفري ، فلما رآه الرصيد عرفيوه فتركوه حتى شرب من الماء ورجع إلى أصحابه ، فقال : والله ما بالماء أحد ، ولقد شربت من الحوض ، فقال تأبط شرا للشنفرى : بلي ، ولكن القوم لايريدونك ، وانما يريدونني ثم ذهب ابن براق فشرب ورجع ولم يعرضوا له ، فقال تأبط شرا للشنفري : إذا أنا كرعت في الحوض فإن القوم سيشدون على فيأسرونني ، فاذهب كانك تهرب، ثم كن في أصل ذلك القرن فاذا سبعتني أقول: خذوا خذوا فتعال فأطلقني ، وقال لابن بواق : اني سآمرك أن تستأسر للقوم ، فلا تنا عنهم ولا تمكنهم من نفسك ، ثم مر تأبط شرآ حتى ورد الماء فحين كرع في الحوض شدوا

⁽١) الخطب المكروه والقصد حسن التصرف •

 ⁽٢) قريع الدهر المجرب وحول بصير والشطر الثاني يعني اذا سد أمامه باب نفذ من
 باب آخر ٠

⁽٣) تحيان محاصروه وصفرت خلت والوطاب يعنى اناء العسل ويومى ضيق البحر يعنى هو يوم لا منفذ فيه ومعور منكشف العود يريد يوما قاسيا .

⁽٤) خطتا يريد خطتان أي حالان اما الأسر أو القتل •

⁽٥) أسادي أستشير وأخرى يريد الحيلة يفكر فيها •

⁽٦) الصفا الحجارة وجؤجؤ عيل صدر ضخم ومتن ظهر ومخصر تحيل •

⁽٧) يكدح يؤثر يريد لم يؤثر قيه الصفا ولم يخدشه حتى وصل الأرض ناجباً من موت ماثل

⁽A) آب رجع ولم أن آيبا لم يكن بنتظر رجوعى ومثلها يمنى مديلا وتصفر آسفة يريد تجوت منها كثيرا •

⁽٩) المبحيح براقة لأنه اسم أمه •

عليه فأخلوه وكتفوه بوتر ، وطار الشنفرى ، فأتى حيث أمره ، وانحآز ابن براق حيث يرونه ، فقال تأبط شرا : يامعشر بجيلة ، هل لكم فى خير أن تياسرونا فى الفداء ويستأسر لكم ابن براق ؟ قالوا نعم ، فقال : ويلك ياابن براق ، أما الشنفرى فقد طار ، وهو يصطلى نار بنى فلان ، وقد علمت ما بيننا وبين أهلك ، فهل لك أن تستأسر وييا سرونا فى الفداء ؟ قال : لا والله حتى أروز نفسى شوطا أو شوطين فجعل يستن نحو الجبل ويرجع ، حتى اذا رأوا أنه قد أعيا طمعوا فيه فاتبعوه ، ونادى تأبط شرا : خدوا خدوا ، فخالف الشنفرى الى تأبط شرا : فقطع وثاقة ، فلما رآه ابن براق وقد خرج من وثاقه مال الى عنده ، فناداهم تأبط شرا : يامعشر بجيلة : أعجبكم عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا ينسيكم عدوه ، ثم احضروا (١) ثلاثتهم فنجوا ، وفى ذلك يقول تأبط شرا :

ليلة صاحوا واغروا بى سراعهم بالعيبتين للى معسلى ابن بسراق كانما حثحشوا حصا قوادمه أو أم خشف بلى شث وطبساق لا شئ أسرع منى غير عسله أو ذى جناح بجنب الربد خفأق

فكل هؤلاء الثلاثة كانوا عدائين (٢) وقد ساق الضبى القصيدة التى اقتطف منها الميدانى الأبيات السابقة كاملة فى المفضليات (٣) ، وفيها يصرح بنسب أعدائه فيقول :

نجوت منها نجائى من بجيلة ١١ القيت ليلة خبت الرهط أوداقي

وقصص الحيل التى نجا بها العداون من الصعاليك وأشعارهم فيها كثيرة ، ومنها قصة أبى حراش الهذلى فى نجاته من خزاغة بحيلة بارعة وهى كما رواها صاحب ديوان الهذليين فى شرحه « وكان من حديث أبى حراش أنه خرج بزوجة أبيه مرة – وكان مرة خلف بعد لبتى أم أبى خراش واخوته السبعة عليها – وأن أبا خراش أتى بها مكة وأمرها أن تقضى ما أرادت من نسسك أو غيره ، وقعد لها بالأخشب (٤) وقال لها : احذرى أن يعرفك أحسد ، فأن بهذا البلد قوما قد وترتهم من بنى كعب بن جزاعة ، فلقيها فائد فعرفها ، وقال لها : كم معك من بنيك ؟ فائى رجل من عشيرتك أحد بنى سسهم ، فأن بهذه القرية قوما قد وترهم أبو خراش ، فاقعدى وأخبرينى بحسوائجك ، فأقعدها واشترى لها حوائجها ، وقال لهسا : أى بنيك معك ؟ (٥) قالت : أبو خراش ، قال : وتقدم فائد

⁽١) أحضروا عدوا مسرعين ٠

⁽٢) مجمع الأمثال ٢/٢٤ ، ٤٧ والقصة أيضًا في خزانة البغدادي •

⁽٣) المفضليات ٢٧ ـ ٣١ وعدتها سنة وعشرون بيتا •

⁽٤) الأخشب جبل وهو أحد الأخشبين المشهورين *

⁽⁰⁾ یعنی آی بنی زوجك النها زوجة آبی آبی خراش ولیست آمه ، وآبو خراش اسمه خربلد بن مرة وخراش ابنه .

لابي خراش حتى قعه له بالطريق ، ورجعت المرأة الى أبي خراش ، فقــــال لها : من لقيك . ومن رأيت ؟ قالت : رأيت رجلا من بني سهم ، وكان احرص على أن أخفى أمرى منك ، فنعته لها أبو خراش ، فقالت . نعم أنه لهــو ، قال : ذلك فائد ، وقد قتلتني ، قالت : فارجع الى قريش ، فخذ منها جوارا ، فأبي عليها أبو خراش وذهب بها ، وقال لها : القوم بالمغمس فأمضى اليهم ، وحملها على جمل لمرة نجيب ، وقال لها ، اذا خلفت القسوم فاجهدى بعيرك فانى ساغلهم عنك ، ولن يتعرضوا لك حتى يينسوا منى ، فمضت ، وجاء أبو خراش يبطىء في المشي ويصلح نعله حتى خلفتهم المرأة ، ثم جهـــدت بعيرها حتى كان خمارها في اطراف الشبجر نسبج العنكبوت ، واتاهم أبو خراش حتى سلم عليهم يطمعهم في نفسه لتذهب المرأة فقالوا : مرحباً يا خويلد ، وأقبلوا اليه غير سراع وهم يميلون نحوه ، ولا يريدون ذعره ، وقسد قدموا فائدا بذنب الثنية ، ثم عدوا عليه ، وشهد ابو خراش يؤم ذنب الثنيسة أسفل من قائد ، وقالوا : اليك يا فائد ، اضرب يا فائد ، ارم يافائد ، وزعموا أن قوس أبي خراش انقطعت حمالتها وانفلت أبو خراش ، وجساءت امرأة مرة اليه (١) ، فقال لها : ويلك ما فعل أبو خراش ؟ قالت : قتل ، قتله فائد وأصحابه ، قال : ويلك ، قتل وأنت تنظرين ؟ قالت نعم ، قال : كيف انفلت أنت ؟ قالت : أنه لم يقتل حتى خلفت القوم ، قال : فأخبريني كيف كان قتله ؟ قالت : عهدى به وقد التف عليه القوم ، فقال : همل سمعت من شيء ؟ قالت : : سبعت « يا فائد اضرب ، يا فائد ارم » فقال : ان أخطات سهام القوم أجابني ، وصرخ مرة ، فاستجاب له أبو خراش ، ففي ذلك يقـــول أيو خراش :

رقبوني وفالوا يا خويلد لا ترع فقلت وانكرت الوجوه هم هم (٢) الى أخر الفصيدة ، (٢) والقصيدة وصف دقيق لأحداث القصة ومطاردة أعدائه له ، وسرعة عدوه ٠

والسليك بن السلكه له قصص فى حيله ، وقد سجل بعضها فى شعره ، ومنها قصه غارته مع صاحبيه على جوف مراد باليمن ، حيث طلب من صاحبيه أن ينتظراه فى مكان فريب ، على ان ينهب هو الى ابل رأوها ، ليدرس خطه سلبها والنجاة بها ، وقال لصاحبيه : سأعلم من الرعيان مكلن الحى ، فان كانوا قريبا رجعت اليكما ، وان كانوا بعيدا لحنت لكما بقول فأغيرا ، وذهب فعلم من الرعاء أن الحى بعيد ، وأنهم ان طلبوه بعد سلبه الابل فلن يدركوه فقال للرعاء : الا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فقال باعلى صوته مخاطبا رفيقيه اللذين ينتظرانه فى مكان قريب :

⁽١) يمنى جاءت الى زوجها مرة بمد أن تركت أباخراش يراوغ خزاعة ٠

⁽٢) الرقو التسكين يمنى حاولوا خداعه بأنهم لا يريدون به شرا وخويله اسم أبى خراهل

⁽٣) ديران الهذللن ١٤٤/٣ ـ ١٤٨ والغمبيدة أربعة عصر بيتا ٠

الا عبيد وآم بين اذواد (١) بسالوادي ام تعدوان فان الربح للعادى (٢) التظران فليلا ريث غفلتهم

ومع أن ما سبق يبدو صراعا في حياة الصعاليك ، فأنه في جملته يعتبر مجرد أسلحة يتذرع بها الصعاليك للصراع الحقيقي العنيف الذي جابهوه في العسماكة ، والذي تمخض عنه دخولهم هذا الميدان .

والصراع العنيف الذي جابهه الصعاليك منذ اختار كل منهسم الصعلكة طريقاً له ، يمكن حصره في ثلاث جبهات محيطة بالصنعاليك ، وتكاد تتكافأ في خطورتها وقسوتها علىالصعاليك ، وهي :

١ ـ الصراع النفسى: وأقساه وأشده شعور الصعاليك بالمطاردة ؛ فانه ببدو في شعرهم شعورهم بأنهم مطاردون ، ويبدو أيضا أن هذا الشعور كان تقيل الوطأة على نفوسهم وهم وان تفاوتـــوا في مقاومته ، وان اختلفت قوة كل منهم في احتماله ومحاولة التغلب عليه الا اننا نحس بصفة عامة انه كان شعورا مؤرقا لصاجعهم جميعا ، وباعثا فيها قلقا وتوجسا شديدين ، وبلغ هذا الشعور من يعضهم حد الخوف الدائم من كل شيء ، بل بلغ من بعضهم حسد الوهم ، وتصور أعداء لا وجود لهم ، ومخلوقات لم تخلق قط الا في خيساله وخيسال الأساطر كالغول

٢ - صراع الأعداء : وما أكثر أعداء الصعاليك ، بل لا يبالغ من يقول أن الناس جميعا اعداؤهم ، لأنهم بسلوكهم اعلنوا الحسرب على جميع الناس ، أليس كل انسان معرضا لسطوهم ؟ اما على شبخصه ، واما على ماله ، واما على شيء يعز عليه كالقبيلة والحرمات ، فالناس بالنسبة للصعاليك نوعان ، نوع معتدى عليه ، فهو موتور يريد أن ينتقم من واتره الصحمعلوك ، ونوع مترقب المدوائهم عليه ، أن سنحت لهم الغرصة ، وكلا النوعين عدو للصعاليك .

٣ - صراع البيئة: فإن البيئة التي كانت مهيأة بطبيعة تكويتها لأن تكون مجالا صالحاً للصعلكة ، كانت من جانب آخر تحمل في ثناياها أخطارا بالغة عليهم ، في نواحي عديدة ، أيسرها وأخطرها معا صعوبة الحصول على الماء ، ثم الوحوش والهوام والحيات ، ثم المجاهل نفسها ، تلك التي تعرض رائدها الفيلال والهلاك كما حدث لعمرو بن عجلان (٣) ٠

⁽١) مجمع الأمثال للسيدائي ٢/١١ وآم جمع أمة والأفواد جماعات الابل ٠

الربح القوة والغلية ٠

٢٦ انظر مهذب الأغانى ٢/٨٨٨ وفي موته خلاف انظر أيضا ديوان الهذليين ٢٠٠/٣٠.

٤ ــ هناك جبهة رابعة قوية ، لم يعان منها صعاليك الجاهلية ، لانهم لم يدركوها ، وهى السلطة بنوعيها التشريعي والتنفيذي ، قد عــاني منهــا للخضرمون والمسلمون ، الأنها كانت أقوى سلاح يهدد سلوكهم العــدواني ، ولنتحدث عن هذه الأنواع من الصراع في شعرهم .

الشعور بالطاردة

ليس من الغسريب أن يسيطر على الصعاليك شسعور نفسى عسام بأنهم مطاردون ، بل الغريب ألا يكون لديهم هذا الشعور ، فطائفة أعلنت الحرب على الناس جميعا ، وأصبح المجتمع بالنسبة لهسم بين طالب ومطلوب ، وأصبح شعارهم هم أيضا نحو المجتمع كله أن يكونوا طالبين أو مطلوبين ، ولا وسط بين المرحلتين ، طائفة كذلك من الطبيعى أن تواجه بالعداء ، ومن الطبيعى أن يكون في نفوسها من الشعور نحو المجتمع بقدر ما تحمل هذه النفوس للمجتمع ، ومن نوع ما تحمله نفوسهم ، ونفوسهم لا تحمل للمجتمع الا عدوانا وتربصا أو «لادرك ذحلا أو أشيف على عنم » كما يقول قائلهم (١) •

وبده هذ االشعور كان عدم تكيفهم مع المجتمع ، وتفورهم منه ، وهجرتهم عنه للعوامل التي أدت بهم الى الصعلكة ، فنرى الصعاليك بصفة عامة يحملون طابعا بارزا من النفور من المجتمع ، وقد عبروا عن هذا الشعور بصراحة ، كما يقول الشنفرى انه مصمم على هجرة الناس جبيعا الى أى مكان لا أجاور فيسه أناسا ، ولا أتعامل مع بشر ، وقد كان المكان الأثير لديه بعد تصميمه هذا هو الصحراء الموحشة المقفرة من البشر ، وكان أهله ومجتمعه الذى استبدله بمجتمع البشر ، هو مجتمع الوحوش ، فيعبر عن نفوره من الناس وهجرته عنهم بقوله من اللامية :

اقيموا بنى أمى صدور مطيكهم فأني ألى قسوم سواكم لأميل فقهد حمت العاجات والليسل مقمر وشهدت لطيات مطايا وارحل وفي الأرض منساى للكريم عن الأذى وفيها لمن خساف القلى متعسزل

ويعبر عن مدى سخطه على الناس جميعا ، وايثاره كل أبواع الوحوش على البشر في جوارهم وخلقهم بقوله :

ولى دونكهم اهلون ، سهيد عملس وارقط زهلول وعسرفاء وجيال (٢)

 ⁽١) هو أبو خراش من قصيدة ميمية بديوان الهذلين واللاحل الثار وأشيف أشرف •
 (٢) السيد الذئب والأرقط النس وجيسال الفسسيع والعملس القوى والزهلول الأملس

وعرفاء طويلة ٠

هـم الرهط لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بما جـر يعدل

وفى المعنى والهدف نفسهما يقول عروة بن الورد كما سبق « اقيموا بنى البنى صدور مطيكم » •

وهو معنى شائع فى شعرهم ولو منطويا فى معنى آخر ، فهذا أبو النشناش النهشلى يجعل الصعلوك شيئا مستقلا عن الناس ، بعيدا عنهم كأنه فى غيب ، وحتى ان دنا فليس من حقهم أن يدخلوا عالمه ويطلعوا على دخيلته ، وهذا المعنى يعبر عن هجرة نفسية عن المجتمع حيث يعتبر الصعاليك أن الأسباب قد أنبتت بينهم وبين الناس فيقول قائلهم :

وسائلة بالغيب عنسى وسسائل، ومن يسال الصعلوك أين مداهبه ؟ (١)

وهذا يعنى أن الصعاليك في عزلة نفسية عن المجتمع بالاضافة إلى عزلتهم الواقعية في حياتهم ·

وهذه العزلة حملت معها الى الصعاليك شعورا ثقيل الوطأة يأنهم أصبحوا مطاردين من أعدثهم ومن الناس جميعا ، في صور كثيرة مختلفة يعبر بها شعرهم عن هذا الشعور •

فالشنفرى يرسم صورة دقيقة لهذا الشعور ، بأنه أصبح طريدا ، وطريد لجنايات كثيرة جناها ، فهو لذلك لا يستطيع أن ينام مطمئنا ، لأنه أن اطمئن فى نومه ، فهناك عيون كثيرة غير مطمئنة فى نومها ، بل هى يقظى شديدة اليقظة فى نربصها به ، وتعجلها أن توقع به فى أقصى سرعة مكنة فيقول :

طرید جنایات تیاسرن احمه عقسیرته لایها حسم اول (۲) تبیت اذا ما نام یقظی عیونها جنانا الی مکروهه تتعجسل

وتأبط شرا موقن بأنه مطارد من أعدائه الكثيرين ، ولكنه يضيف أنه موقن أيضا بأن أعداء ، سينالونه يوما ما ، ومعنى ذلك أن الشعور بالمطاردة قد بلغ منه حدا بالغا فيقول عن نفسه :

ومسن يغسر بالأعساء لا بد أنسه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا (٦)

بل يبلغ هذا الشعور من نفس الأعلم الهذلى حدا رهيبا ، حيث يتصور أن كل ما حوله من شجر يخيل اليه أنه أعداء ، وأن فروعه سهام وسيوف مسلولة موجهة نحوه لتودى به فيقول:

⁽۱) حماسة أبي تمام ١١٦/١ ٠٠

⁽٢) من اللامية وتياسرن تقاسمن وعقيرته لحمه وحم يريد اذا نزل به الموت من حم القضاء.

 ⁽٣) حماسة ابن تمام ١٩٠/١

واحسب عسرفط الزوراء يودى على بوشك رجع واسستلال (١)

وهناك ارتباط بين طابع الحسندر واليقظة الذى تحدثنا عنس بالنسبة للصعاليك وهذا الشعور الذى يعانونه ، وهو الشعور بالمطاردة ، فكثير من صور الحذر واتجاهاتهم فيه مرتبط بشعور المطاردة ، ويصلح أن يكون مثالا له -

وما من شاعر من الصعاليك الا ونجد في شعره هذا الشعور بالمطاردة ، ان تصريحا وان تضمينا ، على تفاوت بالطبع في الاحساس والتأثر به ٠

فمالك بن الريب يصور لنا حياته في مهمه مقفر لا يرى فيه أحدا ، ثم يخيم عليه الظلام في هذه الوحدة الموحشة ، فيتضاعف شعوره بالرهبة والخوف غير المحدود ، لأنه خوف من كل شيء ، بل وخوف من لا شيء ، لأن هذه الوحدة نفسها وما يكتنفها من ظلام ووحشة هي في ذاتها مصدر رهبة ، بالاضافة الى ما يتوقع صاحبها من أحداث فيها ، ولذلك يصبور مالك رهبته حينئة في قوله :

أدلجت في مهمه ما أن أرى أحدا حتى اذا حان تعريس لمن نزلا وضعت جنبي وقلت الله يكسلوني مهمسا تنم عنسك من ليسل فما غفلا والسيف بيني وبين الثوب مشسعره أخشى الحوادث اني لم أكن وكلا (٢)

ولئن كان السبب الأساس في هذه الرهبة الشمور بالمطاردة ، الا أنه يصرح بأثر الوحشة ورهبة المكان المقفر حيث يقول:

أما ترى الدار قفــرا لا أنيس بهـا الا الوحـوش وآسى أهلها احتمــلا

والأعلم الهذلى يحكى صورة من صور خوفه ، وهذه الصورة وان كانت مرتبطة بحادثة معينة ، هى فراره رنجاته من أعدائه بالعدو ، لأنه كان من العدائين المشهورير الا أننا نجد معانى الخوف التى راودته ترتبط بشعوره بالمطاردة أكثر من ارتباطها بالموقف نفسه ، فاننا نراه لا يخشى أعداءه فقط ولا يخشى مجرد وقوعه فى أيدى مطاردين وانها يخشى حسابه على جنايات جناها ، وجزاؤها السيف وأن يصير جسده صيدا للضباع والطيور والذئاب والمعالب وهذا هو أثر الشعور بالمطاردة فيقول :

لا رأيت القوم بالعليـــاء دون قــدى المناصب (٣)

⁽۱) ديران الهذلين ۱۸۰/۲ والعرفط نوع من الشجر والزوراء موضع ويودى يهلك والوشك المجلة والسرعة ، والاستلال من سل السيف ومن شرح السكرى له « يقول كلما طلمت عرفطة احسبها انسانا يعين على من الفرق » والفرق الخوف الشديد ومنه أيضا « كلما مردت بشبجرة طننتها تعين على » •

⁽٢) مهذب الأغاني ٥/١٣ والتعريس في البيت الأول نزول السفر آخر الليل ٠

⁽٣) ديوان الهذلين ٢٧/٢ مـ ٧٩ وقدى بمعنى قيد من قولهم قيمه رمح والمنامسب بله .

وفريت مين فيزع فلا ادمن ولا ودعت صاحب (١) ثم يقول:

وخشيت وقسع ضيبة قد چربت كل التجارب (٢) فاكرون صيدهم بهسا وأصير للفسيع السواغب (٣) جيازا وللطهي المسربة والانساب وللتعالب (٤)

ولكن الشنفرى كان معتدلا فى أثر شعور المطاردة فى نفسه ، وقد تمثل هذا الشعور الذى صوره فى أنه أصبح طريد جنايات وأنه أصبح نومه غرارا ، تمثل فى خوف عادى لا يبلع حد الدهش الذى عرا الأعلم ، وأنما هو شعور بين مشاعر أخرى كثيرة ، منها الاحساس بالجوع والاحساس بالبرد والرعدة فيقول عن ليلة باردة ممطرة :

دعست عسل غطش وبغش وصحبتي سعار وارزيز ووجر وأفكل (٥)

وأما عبيد بن أيوب الذى ألجأته مطاردة المجتمع والسلطان الى الفسلوات ليعيش فيها وحيدا خائفا قلقا مترقبا كل شر، في كل وجه من وجوه حيساته ووجوه الصحراء، فقد سيطر عليه الشعور بالمطاردة حتى أمسح يتلهف على أن يدوق طعم الأمن ولو لحظة ، لأن فؤاده قد خلعه الخوف والترقب فيقول:

الذقئى طعهم الأمن أو سهل حقيقة على وان قامت ففهه بنانيا خلعت فهوادى فاسهم الأمن أو سهار قاميحت ترامى به البيد القفار تراميا (٦)

ويصرح عبيد مشيرا الى سبب خوفه ، بأنه يشعر بأن كــل شيء من حوله عدو مطارد متعقب له ، حتى طبران الحمامة يظنه عدوا ، وحتى أصبح لا يصدق الاحديث الخوف ولا يثق في أحد •

لقد خفت حتى لـو تطـير حمـامة لقلت عـدو أو طليعـة معشـر فان قيـل شر قلت حقـا فشمر وخفت خليـل ذا المـــفاء ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحـدر (٧)

⁽۱) فریت تحیرت ودهشت یعنی عجزت عن الرمی لاضطرابی ولم أستطع تودیع صاحبی الذی فررت عنه و ترکته ۰

⁽٢) الضريبة السيسيف وجربت يعنى سيفا معودا على الشرب به يريد تجوت بعدوى من اعدائى خوف ضربى بالسيف والأحوال الآتية التي سيذكرها •

⁽٣) الضبع جمع ضبع دالسواغب الجياع •

⁽٤) المربة المقيمة بالمكان الملازمة له -

⁽٥) من اللامية سبق نصها والدعس الوطء والغطش الظلمة والبغش المطر الخليف والسعار الجوع والارزير البرد والوجر الخوف والأفكل الرعدة ٠

⁽٦) الشمر والشمراء لابن قتيبة ١٨٢ م اخانجي ٠

⁽V) الحيوات للجاحظ ٢٤١/٥ ·

بل العجيب أنه وصل به هذا الشعور لدرجة أنه يطلب من طباء الوحش أن تخفيه فيقول:

الا يا ظباء الوحش لا تعسدرينس وأخفينني اذ كنت فيكن خافيا

صراع الأعسساء

ولئن كان يمكن اعتبار . المجتمع كله عدوا للصعاليك ، مما كان له اثر في طابع العزلة النفسية والواقعية التي فرضها الصعاليك على أنفسهم ، ولئن كانت هذه العزلة نوعا من الصراع والحرب بين الصعاليك والمجتمع ، وجبهة من الجبهات التي يصارعون فيها ، الا أن الجبهه البارزة المحسوسة كانت الصراع المباشر مم الأعداء المباشرين • وأغلب هؤلاء الاعداء المباشرين للصــعاليك كان يتمثل في نوعين ، نوع نتج عن حياتهم في الصعلكة وجناياتهم فيها وهو الاكثر والاظهر في صراعهم مع الأعداء ، ونوع كان نتيجة ارتباط بعضهم بأقوامهم في الحروب والتطاحن مع الأحياء والقبائل الأخرى ، فكان هذا البعض من الصعاليك يزاول هذا الجانب من الصراع بالاضكافة الى حياته في الصعلكة وصراعه في جوانبها المختلفة ، ولكن هذا التعاون الذي يبذله الصعلوك مع قومه في حروبهم بصفته فردا منهم كان يتحول الى عداء شخصى بينه وبين هؤلاء الأعداء ، ويصبح صراعه معهم جزءا من حياته وصراعه في الصعلكة كما كان الوضع بالنسبة لمالك بن حريم وعمرو بن براقة وصعاليك هديل ، والذي يعنينا من هذا الجانب هــو أثره مي حياة الصعاليك ، ومدى دلالته على وضعهم بين أقوامهم ، ودلالته أيضًا على صفتهم كمقاتلين في الحروب ، كما سنرى ذلك في شعرهم ، والواقع أن الصماليك يختلفون اختلافا بينا في صورة صراعهم مع الأعداء في كلا النوعين ، فالعداءون بالذات كان يغلب عليهم طابع معين ، هو عدم الاشتراك في الحروب القبلية أو حتى الجماعية ، وأنما كانوا يؤثرون الرفقة المحدودة التي لا تتعدي غالبا الشحص الواحد كما نرى في شعر الأعلم (١) وشعر أبي خراش (٢) الهذليين ، أو الشخصين كما نرى في رفقة السليك (٣) ، ورفقة الشنفري (٤) ثم يغرون بهذه الرفقة المحدودة مترقبين الغرة ، معتمدين في سلاحهم على السهام التي تنال عن بعد ، دون السيوف التي تحتاج الى المجابهة مع الأعداد ، والمجابهة في حاجة الى عدد كبير لا يملكونه ، ولذلك ترى وصف القوس والسهام شائعا بادى الاهتمام

١١) أنظر ديران الهدلين ٢/٧٨ = ٨٠٠

⁽٢) المصدر السابق ٢/١٣٤ وما بعده ٠

۱۱/۲ انظر مجمع الأمثال ۱۱/۲ .

⁽٤) المعدد السابق ٢/٢٤ •

فى شعر العدائين أكثر من غيرهم وأكثر من حديثهم عن الاسلحة الاخرى ، فاذا ضاقت عليهم السبل أطلقوا لسبيقانهم العنان ·

وكان بعض هؤلاء العدائين يبلغ من ثقته بنفسه وسرعة عدوه أن يغير وحده كما كان يفعل تأبط شرا (١) وكما كان يفعل الشلسنفرى في كثير من الأحيان (٢) ٠

ونجد شعر العدائين صورة واضحة مفصلة لا عن صراعهم وحياتهم فقط ، وانما عن كل ما يحيط بالحروادث وتفاصيلها ، فشعر العدائين ادق شرح الصعاليك من حيث دلالته على حياتهم وعلى البيئة من حرولهم ، وعلى نفسياتهم وتقلبهم مع الأحداث ، وشعر الهذليين من أوضح الأمثلة لذلك ، فمثلا نرى صغرا الغي في قصيدة واحدة ليستبالطويلة (٣) يصف حياته كلها في الصحراء ، واصفا الصحراء نفسها ، وما يراه حوله من أحوال الطبيعة ، مركزا على منظر السحاب الذي تشبه قطعه الضخبة السائرة سفنا ضخمة محملة تمخبر عباب البحر ، والبرق يلمع بينها كأنه قدح البشرير ، ثم يصفه حين أمطر و «أسال من الليل أشجانه » وكيف أن الوديان الشاسعة تحولت الى أحواض كبيرة من الماء ، حتى ان ما بين وادى القصور الى يلملم أصبح حوض ماء ، وكيف أنه حين جفت الأرض وأصبحت صالحة للمشي أراد أن يستفيد من ذلك المطر ، وكبل فائدته بالنسبة وأن يملأ قريته عن أحد هذه الأحواض قبل أن تجف متحدثا خلال ذلك عن أن هذه الأحوال كلها لا تمنع أعداءه أن يتربصوا به ، ولذلك فهو يحاذر حذرا شديدا في كسل خطرة ، ويتخير الطرق التي يامل فيها النجاة من تربص أعداءه أن عدائه ،

والأعلم الهذلى فى قصيدة أخرى يقص قصة دقيقة مفصلة لحادثة نجاته من أعداء كانوا مترصدين له ، وفى هذه القصيدة نجد القصة كاملة ، بل نجدها أدق وأكثر تفصيلا وتوضيحا للمشاعر مما ترويها الروايات (٤) وفيها يصف انه فرجى بأن أعداء قيد رمية منه فانتابه فزع شديد أذهله عن كل شيء الا انطلاقه الشديد فى العدو ، مصورا مطاردة عدائين آخرين لهما وكيف أن الأعداء يغرون عداءيهم باللحاق بالأعلم وصلحبه ويحثونهم باقصى قوة ، والأعلم أيضا يحث صاحبه باقصى قوة على العدو ، والطريف أن الأعلم خلال عدوه ظل يتصور صورا مفزعة من حاله لو تمكن منه أعداؤه ، متصورا سيغا صارما يهوى عليه (٥) ومتصورا نفسه جثة تهوى عليها الطير ، وتتسابق اليها الضباع والذئاب

⁽١) انظر الشمر واشمراه لابن قتيبة ١/٢٧١ -

⁽٢) أنظر اللامية وخاصة البيت الرابع والخممين ٠

⁽٣) انظر ديوان الهذليين ٢/٨٦ ـ ٧٦ وهي نحو اثنين وعشرين بيتا ٠

⁽٤) المسدر السابق ٧٧/٢ ـ ٨٣ وهي تحو اثنين وعشرين بيتا وأولها :

لا رأيت القوم بالعلياء دون قدى المناصب .

٥١) أنظر البيت التاسع من التصيدة .

والثعالب مصورا تصويرا جميلا هذه الضباع التي يخشاها في سعدواد جلودها الذي يشبه ثياب الرهبان ، ونزع الضباع لجلد الفريسة كما ينزع الحداد عشاء عن جفن السيف ، وآذان هذه الضباع التي تشبه مغارف الطعام الكبيرة ، ويصف كيف أنه ظل يعدو كذلك حتى انتصف النهار عدوا دائبا جاهدا ، وصور الخوف من وقوعه في ايدى أعدائه وما يفعلونه به وما يترتب على ذلك ، فمن هذه الصور أولاده وأهله البؤساء لو هلك لاضطرتهم الحاجة الى سؤال الاقارب وهكذا •

وفى تصيدة تلى هذه القصيدة يصف جوانب أخرى من الحادثة السابقة فى مطاردة جذيمة العبدى (١) وفى قصيدة بعدها يصف الأعلم صراعه مع عدو آخر ، واعداده سلاحه لهذا الصراع ،

وأبو خراش يصف أيضا في شعره صورا من صراعه مع أعداء كثيرين ، في حوادث كثيرة ، منها قصته مع ابنى شعوب واصفا عدوه ، واعتزازه بقوته وقوة قومه (٢) وقصته مع واقد (٣) ، وقصة نحاته من خزاعة بعد أن كادوا يفتكون به (٤) وقصة صراعه مع بنى بكر (٤) .

وأما غير العدائين فنجد التعبير بالحرب والقتال شائعين في شمسعرهم ، الأنهم يعتمدون في صراعهم المباشر مع الأعداء على القتال بالسيف وأدوات الحرب العادية المألوفة لديهم • وصور الصراع مع الأعداء في شعر الصعاليك عامة كثيرة مختلفة ، ولكنها جميعا توحى بصراع دائم أو مترقب دائما ، كما يقسول عبيد لبن أيوب :

فما زلت منذ كنت ابن عشرين حجة أخا العسرب مجنيا على وجانيا (٥) ويعبر عمرو بن براقة عن استمرار صراعه مع أعدائه فيقول:

فلا صلح حتى تعثر الخيسل بالقنا وتفرب بالبيض الخفاف الجماجم (٣) ويصف حاجز بن عوف راحة نفسه وشفاء صدره حين رأى صورة من صور نصره على أعدائه فيقول:

ولقسد شفاني أن رأيت نسساءكم تبكين مردفة على الاكفسال (٧)

⁽١) ديوان الهذلين٢/٨٣ ـ ٨٥ وأولها

أعبد الله يندر يا لسعه دمى ان كان يصدق ما يقرل

⁽٢) المصدر السابق ٢/١٣٢ ـ ١٣٦ وأولها ﴿ عدونًا عدودٌ لا شك فيها ، ٠

⁽٣) المصدر السابق ١٣٨/٢ ـ ١٤٠ وأولها ﴿ أَوَاقَدُ لَمُ أَغُرُوكُ فَي أَمِنَ عَ *

⁽٤) المبدر السابق ١٤٤/٢ ــ ١٤٨ وأولها و وثوتي وقالوا يا خويله لا ترع ،

⁽a) الحيوان للجاط ٦/١٦٥ ·

رام أمالي القالي ١١٩/٢ ٠

⁽٧) مهدَب الأغاني ١٩٣/١ •

ويصف عبرو بن عجلان تصميمه على مواصلة صراعه مع أعدائه حتى يرى نسامهم يضربن صدورهن بالنعال كعادتهن في البكاء على القتيل فيقول:

وأبرح في طوال النهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعال (١) ويصف مالك بن الريب صورة من قتاله مع منازليه فيقول:

خــدها وانى لفراب اذا اختلفــت أيدى الرجال بضرب يختل البصلا (٢)

ويصف مالك بن حريم صراعهم مع أعدائهم ، وشفاء تفوسهم بدماء العدو ، وبسالة فرسانهم في طلب الثار والدفاع فيقول :

نرید بنی الخیفان أن دماءهم شفاء وما والی ذبیسه وجمعا معسود بارسسان الجیاد سراتئسا لینقمن وترا او لیدفعن مدفعا (۳)

وجعدر بن ضبيعة الذي كان معدودا من فرسان قومه بني بكر ، بالاضافة الى صفته كصعلوك ، يتحدث عن وضعه في الحرب فيقول :

اذا الكماة بالكماة التفت أمغدج في الحرب أم أتمت (٤)

وأما سعد بن ناشب فلا يقبل من عدو أن يصعر له خدا ، وانما يخطمه بشراسة وفظاظة حتى يقيم معوجه فيقول :

أقيم صعفا ذي اليسل حتى أرده وأخطمه حتى يعسود الى القدر (٥)

ولكن عروة بن الورد يرسم نموذجا عاما للصعلوك ، كما ينبغى أن يكون عليه صراع كل صعلوك مع أعدائه ، أو هو الوصف لصراع الصسعلوك الحقيقى كما يراه فيقول:

وللسه مسعلوك مسفيعة وجهه كفوء شهاب القابس المتنور (٦) مطسلا عسل اعسدائه يزجسرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر (٧)

⁽١) ديوان الهذلين ١١٥/٣ .

 ⁽۲) مهنب الأغانى ۱٦/٥ وخدها يمنى الضربة ويختل يريد يغلق والبصل الخوذة من الحديد على الرأس ٠

⁽٢) الاصمعيات ٦٠ ويلاحظ أنه قال هذه القصيدة في أخريات عمره كما يدل مطلعها فهي لا تبثل الا ذكرياته كصملواء ٠

⁽٤) حماسة أبى ثمام ١٩٩/١ والمخدج الناقص يعنى حينلذ يعلم الناس هل ولدتنى أمى

⁽a) المصدر السابق ١/ ٢٧١ والصغا الميل والقدر الاعتدال -

⁽٦) الاصسميات ٣٥ وحماسة أبى تمام ١٦٠/١ والقابس والمتنور حامل النار يعنى متوقدا حركة وحيوية .

⁽٧) المنبع المشهر توع من قداح الميسر السيئة العظ يعنى ينفرون منه نفور اللاعب من القدح التعمى .

صراع الهمسوم

قد يبدو غريبا أن تقرد هموم الصحاليك بحديت خاص ، ولكننا حين نستعرض شعرهم ترى أن حديث الهموم فيه غير خفى ولا عابر ، بل نحس أن الهموم كانت جانبا من الجوانب القاسية فى حياتهم ، والتى عانوا منها وظلوا فى صراع غير يسير معها .

ولكن الذى يلفت النظر هو التساؤل عما يمكن أن يكون مصدرا للهموم فى حياة الصعاليك ، مع بساطتها وعدم تعقيدها ووضروح أهدافها ، ومع قوتهم البالغة فى مواجهة الصعاب وتخطى العقبات أن لم يكن تحطيمها ؟

والواقع أن ذلك لا ينفى وجود الهموم ، ولا يتعارض مع كون الهموم جانبا باررا في حياة الصعاليك بل يمكن اعتبار بعضه من الأسسباب المهمة 'فى سيهلرة الهموم على نفوس الصعاليك ، فهذه القوة التي وهبوا اياها في نفوسهم عامل من عوامل الهم والانقباض ومن المعروف أن أقرب النفوس الى القلق والهموم والانقباض هي النفوس القوية ، سواء كانت قوية في تفكيرها أو آمالها أو مقوماتها الأخرى ، لأن هذه القوة تفتح أمام صاحبها أبوابا كثيرة من الادراك ، وأبوابا كثيرة من الادراك ، وأبوابا كثيرة من الأمال والأهداف ، وأبوابا أخرى من الاحساس بأشياء قد لا يحس بها غيرهم، ومن التفكير فيها ، وكل هذه الأبواب والأحاسيس منافذ وثقوب وشقوق في نفس صاحبها من شأنها أن تخلق في نفسه صراعا ودوامات ، يحس بها هو ، لأنه يديرها في نفسه ويتأثر بها ، ولا يحس منها غيره الا وصف هذا الشخص بأنه يعاني هما أو قلقا •

وقد تكون أبعد النفوس عن القلق والهموم النفوس الضعيفة ، الضعيفة فى ادراكها وتفكيرها والضعيفة فى آمالها وأغراضها ، والضعيفة فى احساسها بما حولها وبحقيقة الطريق الذى تسلكه فى حياتها وما يكمن فى هذا الطريق لهم ولغيرهم ولكن نفوس شعرائنا الصعاليك كانت قوية فى كل شىء ، قوية فى ارادتها ومقوماتها كما راينا فى أخبارهم وشعرهم ، وقوية فى ادراكها وتفكيرها ، وليست فى حاجة الى التدليل على ذلك ، لأن شعرهم تفسه هو الدليل •

فهذه القوة في نفوس الصعاليك اذن أول منابع الهموم في نفوس الصعاليك وهناك منابع أخرى تخص الصعاليك بعضها عام وبعضها خاص ، فمن العام مثلا

⁽١) المتنظر المنتظر الرجوع يعنى يترقبون سطوه عليهم ترقب أهل الغائب المرتقب الرجوع ٠

شعور الصحول ولو شعورا خفيا بأنه يملك من المقومات ما لا يملكه كثير من الناس ، يملك شجاعة وبأسا شديدا تهفو كثير من النفوس الى أدناه فلا يتاح لها ، ويملك عقلية فدة وتفكيرا عميقا يصوغه شعرا ، ويملك أشياء أخرى قد لا يملكها كثير من الذين يتمتعون بالسيادة والغنى والجاه فى الناس ، ومع ذلك فهو لا يملك حتى لقمة العيش ، ويقضى حياته يصارع صخور الجبال ورمال الصحراء ووحوش القفار وأعداء كثيرين لا لشىء الا لمجرد أن يعيش ، يشعر بصفة عامة أنه فى غير المكان الذى يليق به ، وأنه لم ينصف بهذا القسط القاسى المظلم الذى أعطيه من العياة ، ظلمه الناس حيث أنكروا أن يكون له فى مكانتهم مكانا ، وأن يكون له فى عيشهم عيشا ، أليس ذلك شيئا يبعث الهم والانقباض فى كل نفس حساسة كنفس الشماع ، قوية كنفس الصحاليك ؛

وهذا كله يعتبر من الأسباب العامة التي يمكن أن تكون سببا مباشرا أو غير مباشر للهموم ، ولكن حياة الصعاليك لا تتركهم للأسباب العسامة وحدها ، وانما تهيل عليهم كل يوم أسبابا خاصة بكل منهم من شأنها أن تمسلا النفس هما وحزنا وانتباضا ، فهذا مثلا واحد منهم له رفيق يعانيان معا مخاطر الحياة ومشقاتها ينظر فاذا رفيقه قد اغتاله سهم من سهام الأعداء ، وهـــذا شخص يضطره العيش الى أن يترك صبية أشوق ما يكون الى التمتع بحياته معهم ليشمخص في رحلة نائية مسرفة في الناي ، مبتعدا عنهم غير آمن أن يعود اليهم مرة أخرى ، وهكذا من ظروف كثيرة تنبت في حياة كل منهم كما سنرى بعض ذلك خلال هذا الحديث ، والذي يبدو واضحا من حديث الصعاليك عن الهموم أنهم لا يتخذونها موضوعا مستقلا كشانهم في أغلب ما يعرض له شعرهم ، وانها يتحدثون عن الهموم حديثا عارضا ، والفارق بين الاثنين أن الموضوع المخصص يدعو الشاعر الى المخوض في معانيه محاولا بما توحى شـــاعريته أن يبرزه في ثوب من الخيال أو المبالغة أو التزيد حتى يصبح موضوعا متكاملا ، أما عرض الصعاليك لهمومهم وأغلب ما يعرض له شعرهم فهو حديث النفس المجــرد من الخيالات في انشاء المعاني أو المبالغة التي تخلق معاني غير واقعيمة ، أو التزيد الذي يقال على المعنى ليخرجه موضوعا متكاملا ، حديث النفس كمجرد انعكاس لما تعانيه وتصارعه ، في صورة الخبر الموجز ، بل الذي يصاغ في أتصى ما يمكن من أيجاز في كثير من الأحيان ، ولذلك نجد عمق الصعالبك وكثرة ما يحمله شعرهم من معان ليس في كثرة الألفاظ أو تعداد المعاني وانما في الإيحاءات التي يوحيها الصدق والتجربة بأكمل ما يعنيه _ لا أقول هذان الاصطلاحان على أنهما من اصطلاحات النقد الأدبى - وافعا أقول بأكمل ما يعنيه هذان اللفظان، لأن صدق الصعاليك ليس مجرد صدق فني - وانما هو صدق حقيقي ، وتجربتهم ليست تجربة نفسية شعورية فحسب ، وانها هي التجربة الحقيقية الواقعية في كل ما يعرض في حياتهم ويعانونه ، بل يصارعونه ، ثم يعكسونه بصورته فى نفوسهم ليكون شعرا مطابقا كل المطابقة لصورته فى نفوسهم ، ولصورته فى صراعهم معه فى واقع الحياة •

والشنفرى يصف لنا همومه وثقلها على نفسه ، وأن هجومها أقوى من أى محاولة لردها ومهما حاول صدها فانها تأبى الا أن تعود ، حتى أصبح يعسرف ويترقب مواعيد زيارتها كمسا يترقب صاحب الحمى المتقطعة زيارة حمساه ، فيقسول :

والف همسوم ما تسزال تعسسوده عيادا كحمى الربع أو هى اتقسل (١) اذا وردت أصسدرتها تسم انهسا تثوب فتأتى من تحيت ومن عسل (٢)

ومع دقة هذه الصورة عن هموم الشنفرى ، أعنى تصويره لاحساسه بالهموم ، مع ذلك نجد أدق ما فيها ايحاءات الفاظها البالغة الايحاء ، فمثلا لفظ « الف ، يوحى بأنه أصبح اليفا للهموم معتادا عليها وكذلك « ما تزال » يوحى باستمرار توارد الهموم عليه وكذلك تعوده يوحى بثقل الهموم عليه كأنه مريض منها ، وكذلك «اذا وردت أصدرتها، يوحى بالصراع العنيف الذي يعانيه مريض في مد الهموم وجزرها في نفسيه وكذلك « من تحيت ومن عل ، تعبير يوحى بأن الهموم قد لفته وأغرقته ، وأنها تأتي من مصادر عدة وأسباب مختلفة ، وكذلك لفظ « تحيت ، وحده يوحى بقربها والتصاقها المؤلم به ، وكونها كالفراش ولكن لا مهرب منه ، بالاضافة الى ايحاءات أخرى مشل التأكيد الذي يوحيه « تعود عيادا ، والتغضيل في « أثقل » والاطلاق في « عل » بما يوحى من فضاء واسم قد يكون كله هموما متلاحقة نازلة عليه ، والصورة كلها مع ذلك لها في جملتها ايحاء خاص فوق ايحاء الألفاظ والتراكيب، وقد يكون ذلك من نواح كالتنكير. في هموم الذي يوحى بكثرة الهموم وتنوعها ولكن الذي يستوقفنا باعجاب أمام صورة الشنفري هذه أن يكون علم النفس الحديث مؤيدا للشنفري في تشبيبه عيادة الهموم بعيادة الحمى المتقطعة ، فإن من أحدث ما وصلت اليه بمحوث علم النفس منذ بضع سنوات فقط ، أن الشحص الذي تنتابه الهموم والانقباض تنتابه فی فترات تردد دوری ، بحیث یستطیع آن یسلجل ترددها . وبالتالی يستطيع أن يعرف مواعيد ترددها (٣) ٠

ومعنى هذا أن الشنفرى لم يكن متخيلا ولا متكلفا في مسورته هده عن الهموم ، واقما كان معبراً عن واقع يحسه ويعانى منه ، وهذا هو السبب تى أنه

 ⁽١) من اللامية وحمى الربع بكسر الراء المشدة من الحمى التى تأخذ يوما دائدع يومين ثم تحى، يوما ثم تنصرف يومين ومكذا

⁽٢) أصدرتها صددتها وتثوب ترجع وتحيث تصغير تحت ٠

 ⁽٣) أنظر صحيفة الاخباد ، أعداد شهرى ابريل ومايو سنة ١٩٦٣ بأب « أخبار العلم»
 تقبلا عن مجسلة أجنية ٠

استطاع أن يسبق بمعنى واقعى يبدو فى صورته التى صورها الشنفرى وكأنه خيال شاعر ٠

ويؤيد هذا أن الشنفرى وان كان سابقا بهذا المعنى وتصويره ، الا أنه لم يكن الوحيد الذى صوره من الصعاليك ، فهذا جحدر بن معاوية (١) يعبر عن هذا المعنى بالصورة التى صورها الشنفرى ، وبالمعنى الذى توصل اليه علم النفس الحديث ، حيث يقول وهو فى سجن الحجاج :

"تأوینی فیت لهیا کنیعیا هموم ما تفارقنی حسوانی (۲) هی العواد لا عسواد قسومی أطلن عیادتی فی ذا المکان اذا ما قلت قد أجلین عنی ریعانهن علی ثسانی وکان مقر منزلهین قسلبی فقد أنفهنه والهیم آنی (۳)

ومهما تكن من أسباب عامة لهموم جحدر ، فهناك سبب خاص واضح من أسباب هذه الهموم ، وهو كوئه في السجن حبيسا يترقب نهاية رهيبة كما نقول بعد ذلك في القصيدة .

وتأبط شرا يتحدث أيضا عن الهموم التى تنتابه ، وعن الأرق الذى يعتاده، وهو وان لم يوضح هذا المعنى كما وضم حجه الشنفرى وجحدر ، الا أنه يصرح به فى قوله « يا عيد » من التعود وفى قوله « ايراق » من الأرق ، مبينا سبب هذا الهم المؤرق ، وهو أنه يعيش حياته طيفا يسرى فى ظلام الليسل طراقا للأهوال ، ساريا فوق المخوفات من الحيات وغيرها ، حافى القدمين على هذا السرى الطويل ، وفوق ما يطؤه من مخاوف فيقول :

يا عبد مالك من شوق وايسراق ومر طيف على الأهوال طراق (٤) يسرى على الاين والحيات محتفيا ﴿ نفسى فداؤكمن سار على ساق(٥)

ويشير قيس بن الحدادية الى تعود الهموم وترددها عليه ، حيث بدلت حياته بالرداعة والأنس صراعا رهيبا مع الأعداء فيقول :

وبدلت من جلواك يا أم مالك طوارق هم يحتضرن وساديا وأصبحت بعد الأنس لابس جبة أساقي الكماة الدارعين العواليا (٦)

⁽۱) أنظر أمالى القالى ١/٢٧٧ وفيه (لبحدر وكان لمسا مبرا فأخذه الحجاج فحبسه ١٠ الغ) وفى الصماليك جعدران ، ابن ضبيعة وهو جاهلى ، وابن معاوية وهو معاصر للحجاج فتعين أن يكون المقصود جعدربن معاوية ٠

⁽٢) الصدر السابق ، والكنيع المنقبض *

 ⁽۲) انفهنه أعيينه وهـذا البيت يعتبر سابقاً لقول المتنبى فى قصيدة الحمى المسمودة
 (بذلت لها المطارف والحشايا ٠٠ فعافتها وباتت فى عظملى) يعنى الحمى ٠

 ⁽٤) العيد ما يعتاد الانسان والايراق من الارق وطيف يعنى نفسه في الظلام .

⁽٥) الاين الكلال والجهد والشطر الثاني يعني لاراحلة له ، الغضليات ٢٧ •

 ⁽٦) أعانى الأصفهانى ١٥٤/١٤ وجبة يعنى الدرع ولعل أصلها جنة بالنون والكماة الشجعان
 و الدارعرن لابسو الدروع والعوالى إلرماح ومن الجميل فيه للغل « أساقى » •

ومالك بن الربب يعرض بعض الأحداث التي أثارت في نفسه الهم والألم ، ومن ذلك اضطراره لترك ديار قومه ، وترك ابنته ليسافر الى خراسان مع الوالى (١) طلبا للعيش الذي ضاق في موطنه ، ويصف مالك وداعه لابنته ، وبكاء ابنته في توديعه ، وأثر ذلك في نفسه وصفا مؤثرا بالغ التأثير فيقه ولابنته حين رأها تبكي بكاء مرا وهي تودعه :

اسكتى قد حززت بالدمع قلبى طالما حسز دمعكن القلوبسسا فعسى الله أن يدافع عسنى ريب ما تحدرين حتى أؤوبا (٢) ودعى أن يقطع الآن قسلبى أو ترينى فى رحلتى تعذيبا

وحتى حينما أدركه الموت في رحلته هذه لم ينس ألم هذا لوداع المحزن فيقول من مرثيته :

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي سفارك هذا تاركي لا أباليا

ومرثيته هذه التى قالها عندما أحس الموت فى غربته ، تعتبر كله الله انة حزينة عميقة الحزن ، نفت فيها مالك بن الريب هموم حياته كلها ،ومشاعر حاضره كله ، وصاغ ذلك كله فى أبيات تحدرت من فمه كما تتحدد دموع حرى من مآقيها (٣)

وابو خراش انبعثت له فى حياته أحداث كثيرة أثارت الهموم والأحزان فى نفسه ، وملأت قلبه كآبة وانقباضا ، ومن ذلك فقده لبعض اخوته الذين يقول عن فقدهم :

فقدت بنى لبنى فلما فقدتهسم صبرت ولم أقطع عليهم أباجل (٤)

وأشد ما ملأ نفسه حزنا وهما فقد أخيب عروة ، الذي كان ساعدا له في حيساته ، والذي كان يرجيه لعظائم أموره ، حتى أنه كان يتصور أن مما يهون عليه الموت شعوره بأن وراءه سندا هو عروة حيث يقول لعروة قبل مقتله .

لعلك نافعى يا عرو يوميا اذا جاورت من تحت القبور (٥) اذا راحوا سيواى وأسلمونى لخشناء الحجيارة كالبعير

ولكن الأمر انعكس ، فعروة هو الذي مات قتيلا قبل أبي خراش فحزن عليه أبو خراش حزنا عمية المتصلا ، فمرة يقول عنه ٠

⁽١) سعيد بن عثمان بن عفان ٠

⁽٢) ما تحدرين يمنى الموت وأووب أرجع والأبيات في مهذب الأغاني ٥/٥٠٠

⁽٣) القصيدة سبق ذكرها عند الاختلاف في شعرهم •

⁽٤) ديوان الهذلين ٢/١٣٣ والأبجل أحد العروق •

⁽٥) ديوان الهذلين ٢/١٣٦ ومن بمعنى الذين وخشناء الحجارة يمنى الحفرة والبعير تشبيه للقبر بالجمل البارك ٠

فوالله لا أنسى قتيلا رزئته بجانب قوسى ماهشيت على الأرض(١)

ويصور أبو خراش تجدد خزنه وهمه على فقد عروة كلما تذكر مبيتك أو مقيلا جمعهما ، ويصور الهموم التي تعاوده كلما طلع عليه صباح ، فيقسول مخاطبا امرأة عروة :

الم تعلمي أن قد تفرق قبلنسا خليلا صفاء مالك وعقيل (٢) أبي الصبر أني لا يزال يهيجني مبيت لنا - فيما خلا - ومقيل واني اذا ما الصبح آنست ضوءه يعاودني قطع على ثقيـل (٣)

ولکن صبری یا امیم جمیـــل

وقد تجمعت هموم أبي خِراش كلها ، وحزنه كله في صورة رثاثه لقريبه خاله بن زهير ، ومن الواضح أنه ليس حزنه على زهير وحده مصدر هذه الهموم الطاحنة التي يعانيها ، ونما هي احدى المناسبات التي يبيح لنفسه أن يتحدث بقناع المناسبة التي يتحدث فيها فيقول من شعره في هذه المناسبة ، وكمـــــا المعنى في قوله :

فباتت تراعى النجم عين مريضة وما بعد أن قد هدئى الدهر هسدة تضال لها جسمى ورق لها عظمى (٥) وما قد أصاب العظم مني مخسامر وأن قد بدا منى لا قد أمسابني من العزن أني ساهم الوجه ذوهم شديد الأسى بادي الشحوب كانتي آخو جنة يعتاده الخبل في الجسم (٧)

لا عالها واعتادها الحزن بالسقم (٤) من الداء داء مستكن على كلم (٦)

ومالك بن حريم الهمداني يستعرض همومه وأحزانه على قتل أخيه أيضاء ويقارن همه وحزنه بحزن الناس فلا يرى له مثيلا مهما كانت دواعي الحسزن المالوفة لديهم ، حتى اصبح « ينظر في وجه الرجسال فلا يعرف شبينا ، وحتى أصبح الفراش غريبا عليه ، لأنه لم يعد يالف مضجما فيقول :

لا أسمع اللهو في الحديث ولا ينقعني في القراش مضطجع كما وجدت ولا وجد عجول اضلها ربسع او وجد شيخ اضل ناقته يوم رواح العجيج اذا دفعوا

لا وجد لكلي

⁽۱) المصندر السابق ۱۰۸/۲ وقوسی موضع ٠

⁽٢) شنعمان يضرب بهما المثل من غابر الأمم .

⁽٣) ديزان الهذليني ٢/١١٦ ، ١١٧ ·

⁽٤) ديوان الهذليين ١٠١/٢ ، ١٠١ وهالها القلها وبلغ منها ٠

⁽a) تضال تضاءل ورق عظمی تحل جسمی ·

⁽۱) مخامر دا^و مستكن ملازم والكلم الجرح •

⁽٧). الأسى الحزن والجنة من الجنون والخبل بسكون الباب قساد العقل والجسم ، وقبه اشارة واضحة في الاتفاق مع الشنفري وجعدر في تصويرهما السابق للهموم .

- ينظر في وجه الرجال فـــلا يعرف شيسنًا فالوجه ملتمع (١) وكذلك عبيد الله بن الحر يتحدث عن فلق الهم قلبه فيقول:
- فلو فلق التلهف قلب حى لهم اليوم قلبى بانفلاق (٢) وهذا سبحين من الصعاليك يصف ما يورده عليه السجن من همروم مختلفة ، وما يدكره به من ذكريات مؤلة فيقول:

أقيد وحبس واغتراب وفرقة وهجير حبيب ان ذا لعظيم (٣)

وهكذا نجد الهموم كثيرة متلاحقة في نفوس الصعاليك ، وهي وان اختلفت أسبابها وتنوعت مثيراتها الا أنها في نهايتها هموم تتوالى عليهم ، وتمثل جانبا مهما من جوانب صراعهم في الجوانب المختلفة من حياتهم ، ومع ذلك فحين نتأمل همومهم وأسبابها المباشرة ، قلما نجد ثقل الهموم التي يعانونها مناسبالله للسبب المباشر الذي يذكرونه ومن هذه الاسباب القليلة المناسبة لما يذكرونه من هموم قول أبي الطمحان :

أرقت وآبتني الهموم الطــوارق ولم يلق مالاقيت قبل عاشق (٤)

فمثل هذا النوع المألوف ، والذى يتناسب مع السبب المقرون به قليل جدا في شعرهم ، أما الغالب فهو همدوم ثقيلة الوطأة ، مضنية للنفس ، طاحنة في القلب ، ككتير مما مثلنا ، ومثل هذا النوع من الهدوم لا تستطيع ان تقتنع بأن مصدره سبب معين مباشر ، وانما المعقول أنها هموم دفينة كثيرة ، متعددة الأسباب والدوافع في نفوسهم ، وأن الأسباب المباشرة التي يذكرونها انمدا هي مفتاح تفتح به مخازن ضخمة لهموم كثيرة دفينة ،

الوحوش

ومن الواضح أن بين الصعاليك بحكم اعتمىاد حياتهم على التنقل فى الصحراوات والتخفى بما وبين الوحوش احتكاكا مباشرا ولذلك تجد الحديث عن الوحوش شائعا بارزا فى شعرهم ، بل لا يكاد شاعر يخلو شعره من حديث عن الوحوش ، بل أكثر من هذا أننا لا نكاد تجد قصيدة كاملة تخلو من الحديث عن الوحوش ، ادا صرفنا النظر عن المقطوعات التى بلغتنا لانها قيلت مقطوعات عن الوحوش ، ادا صرفنا النظر عن المقطوعات التى بلغتنا لانها قيلت مقطوعات

 ⁽۱) أمال القال ۲/۱۲۰ وربع فى البيت الثانى يعنى ضالة نم مكان مضل ومن معانى
 الربع المنزل والكان ٠

⁽٢) خزانة البغدادي ١٨/٢ في رئاء الحسيق بن عل ٠

⁽٣) العيوان للجاحظ ١٥٨/٧٠

⁽٤) مهذب الأغالى ١/٢٦ -

أو لأنه لم يصلنا منها الا هذا القدر من الأبيات، وليس من ريب في أن الوحش من أعداء الانسان ، أن لم يكن من أخطر أعدائه .

ولكن الذي يلفت نظرنا في حديث الصعاليك عن الوحوش على كثرتب أنه مسوقٌ في غير الصورة التي نتوقعها ، فالواقع أن الصعاليك لا يبدون خوف من الوحوش ولا يظهر من شعرهم أنهم يعتبرون الوحوش مخطرا في حياتهم او مصدر قلق لهم كما يتبادر الى أذهاننا ، بل نجد حديثهم عن الوحوش ياخذ طابعين ، الظابِع الأغلب ، وهو عكس ما نتوقع تماما ، حيث نراهم فيه يأنسون الى الوحوش ويمتدحونها وكثير منهم يعتز بجوارها وخلقها ويبدو في حديث وكأنه يتغزل فيها ، والطابع الثاني وهو الأقل ، نجد فيه حديثهم عن الوحوش عاديا ، يصفونها ويصفون حياتها وبعض خلقهنا ، وأحيانا قليلة خطورتها ، ولكنهم أيضًا لايتحدثون عنها على انها مصدر خطر عليهم ، أو على أنها عدو يشغل بالهم كما تحدثوا عن مجالات كثيرة للصراع والعداء وسواء كان هذا أو ذاك فانه مما لا شك فيه أن شعرهم لا ينبيء عن أنهم يعتبرون الوحوش خطرا عليهم ، أو أنهم يضيقون بجوارها أو توقع لقائها أو ترقب هجومها أو غير ذلك ، بل على العكس الذي يظهره شعرهم أنهم يأنسون اليها ، أو يرون جوارها شيئا عاديا على أقل تقدير ، هذا لا مجال للشك فيه كما يبدو واضحا من شعرهم ، ولكن هل يمكن أن تعتبر هذا أمرا عاديا لا يحتاج الى تفكير أو تعليل ؟ ومن حق المجيب عن هذا أن يجيب بأن هذا الحديث من الصعاليك عن الوحوش لا يمثل حقيقة احساسهم ، وأنهم يحاولون تغطية شعورهم الحقيقي وهو الخوف من الوحوش متنعين اياً وبقناع من أحاديث الشجاعة والجرأة وعدم الحوف من الوحوش ، ومن حق معترض أن يعترض على هذا المجيب ، بأن الصعاليك لم يظهروا في حديثهم عن الوحوش شبجاعة أو بأسا ، ولم يتخذوا من هذا المجال ميدان فخر لهم حتى نتهمهم بأنهم ينسجون لأنفسهم أثواب بطولة غير حقيقية يغطون بها خوفهم من الوحوش ، قلم يكن حديثهم عن الوحوش أنهم قاهرون لهذه الوحوش ، وانما يريدون أن يقولوا: الوحوش أهلنا وأصدقاؤنا وجوارهم خير لنـــا من جــوار البشر · ومن حق مجيب آخر عن السؤال أن يجيب بأن الانسان ابن بيئتــه كما يقول علماء الاجتماع ، والناس ينفرون من الوحوش ويروئ فيها نكرا منكرا لانها بيئة غير بيئتهم ، أما الصعاليك فالأمر بالنسبة لهم عكس ذلك ، لقسد هجروا في جملتهم بيئة الناس ، ليس بأجسامهم ومعيشتهم فقط ، وانما بنفوسهم وعواطفهم أيضا ، بمعنى انهم أصبحوا أعداء كارهين للنساس ومجتمعاتهم ، وأصبحت بيئتهم التي يعيشون فيها باحسامهم ونفوسسهم والمالهم هي بيئه الوحوش فليس غريبا أن يحاولوا التكيف مع الوحوش ، فيروا فيها من الفضال ما لا يراه غيرهم ، ويروا فيها مخلوقات تشاركهم آلام اليبئة وآمالها ، بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من حقيقة لا تجوز فيها ، بل ليس غريبا أن يتابع بعضهم هذا المنطق فيرى في الوحوش بيئته التي يالفها كل الالف ، ويرى في الناس بيئة غريبة عليه ينكرها كل الانكار ، كما ننكر نحن الوحوش، لانها بيئة غريبة علينا • ومن هذا البعض الأحيم السعدى الذي يقول : عوى الذئبفاستة نست باللائباذ عوى وصوت انسان فكدت أطسير (١)

وقد يجيب عن السؤال السابق مجيب ساخط على الناس ، بأن الوحوش ليست من النكر بالدرجة التي تصورها أو نتصورهـ ، وان في الحيوان من الفضائل ما يخجل أخلاق البشر، أليس في الحيوان ما يضرب به المسل في الوفاء ، في حين يغيدر الناس بعضهم ببعض لأتفه المطامع ؟ وأليس الحيدوان أعف من بنن ادم فرجا ، حيث لا يتناكحن الا لبقاء النوع بالحمل ، في حين يملأ بنو آدم أرضهم نتنا بفضائح الاعراض والفروج؟ وأليس الحيوان أملاً نفسا بالقناعة والرضا ، حيث لا يطلب رزقا الا حينما يجوع ، فاذا شبع كان عفيف أزاهدا مهما أغرته المغريات ، في حين لا يملأ جوف أبن آدم الا التراب ، وفي حين يسمعي الشبعان المتخمة خزائنه منهم ، ليغتصب لقمة الجائع الهزيل ؟ ، وقد يضيف هذا المجيب بأنه اذا كان الناس يعلمون ذلك وغيره من فضائل الحيوانويضربون ببعضه الأمثال فان هناك فضائل أخرى للحيوان قد تكون أكرم وأسمى ،ولكنهم لا يحسونها لأنها في بيئة غريبة عليهم ، فلم لا يكون الصحاليك بعيشمهم في تلك البيئة وتكيفهم معها قد أحسوا تلك الفضائل فأنسوا اليها وآثروها ، حتى زادتهم رغبة في جوارها والقرب منها ، ورغبة في البعد عن مجتمعـــات البشر ، وآية ذلك هذا الألف والود الذي يبدو واضحا بينهم وبين الوحوش ، في حديثهم عنها ؟

وقد يجيب مجيب آخر يغير ذلك ، ولكنى أقول لهذا وذاك ، فلننظ بعض شعرهم ، فقد يهدينا الى جواب آخر ، وقد نجد فيه هو الجواب ، فيكفينا جهد الخلاف ، وحين نذهب الى شعر الصعاليك ، نقول أولا أنهم تحدثوا عن كثير من الحيوان الذي يعيش فى الصحراء وحشيا ، سواء أكان مفترسيا أم غير مفترس ، بل لا نعلم أن حيوانا من حيوانات بيئتهم لم يتحدثوا عنه ، وفى كتاب الحيوان للجاحظ مجموعة من شعرهم عن حيوانات مختلفة ، يتفق كثير من حديثهم عن هذه الحيوانات مع معلومات بيئتهم عنها ومع الأمتال المضروبة بهذه الحيوانات (٢) ولكن معظم حديثهم عن الحيوانات غير المفترسية كان حديثا عارضا غير مقصود لذاته ، يسوقه في سياق مثل أو تشبيه ، كما يتول عبيد بن أيوب مشيرا الى زعم العرب أن الضب يصبر على العطش أمدا طويلا ، والى أسطورة عن فرخ الضب والضفدع يرويها الجاحظ :

ظللت وناقتى نضوى فـــلاة كغرخ الضب لا يبغى ورودا (٣)

⁽١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٨٣٠

 ⁽٢) أنظر مجمع الأمثال للميدائي وخاصة ما جاء على أفعل من الأبواب المختلفة .

⁽٣) انظر الحيوان للجاحظ ١٢٨/٦٠

وفى الهجاء تشبيها بالضب (١) ، وكذلك القنفد (٢) والغراب فى ضرب المثل بحدة بصره (٣) والفارة تشبيها بها فى الهجاء (٤) والأرنب (٥) والظبى فى الصيد (٦) ٠

ولكن حديث الحيوانات المفترسة كان أحظى واكثر اهتماما ، فهم حتى وان ساقوه خلال غرض آخر الا أنهم عندما يتحدثون عن هذه الوحوش يتوقفونوقفة متانية لتنال من حديثهم قدرا غير يسير ، فالشنفرى مثلا في سياق حديثه عن سخطه العارم على الناس ، وتصميمه على أن يهجرهم الى مجتمع آخر ، ننظر فاذا المجتمع الآخر هو مجتمع الوحوش ، واذا هو يتحدث عنها لا حديث الخائف الوجل ، ولا النافر المتوجس ، وانما حديث الألف والود والاعجاب فيقول مخاطبا الناس جميعا في لاميته :

ولى دونكم أهلون سيد عملى وأرقط زهلول وعرفاء جيال (٧٠ هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بما جر يخلل وكل أبى بأسل غير اننى اذا عرضت أولى الطرائد أبسل (٨)

فهو أذن يهجر الناس إلى بيئة الوحوش ، ثم يرى في الوحوش أهسلا كراما لا يدعن سرا ، ولا يتخذلن جانيا ، ثم يبدأ في التكيف النفسي معهن ، جامعا بينه وبينهن في معيشة مشتركة وسباق مشترك في الميشة ، وهدف الشركة في الحياة والآمال أتوى روابط التكيف الاجتماعي ومن هذه الزاويسة لا يكون حديث الصعاليك عن الفهم مع الوحوش خيالا أو مجازا أو أي شيء غير الحقيقة وأن لم تكن حقيقة كاملة ، ويوضع الشنفري بعد ذلك في القصيدة نفسها هذه المشاركة مشبها حياته وسعيه لطلب الميش في الصحراء ، بحياة الذئب وطلبه للعيش فيقول:

واغدو على القوت الزهيد كما غدا أذل تهاداه التناثف اطحسل(٩) وتتزايد هذه المساركة والألفة بينه وبين الوحوش حتى تنتهى الى التوافق بينهما ، وكانه واحد منها كما يقول في آخر القصيدة أن أناث الوعسول الفته كانه ذكرها:

⁽١) انظر الحيوان للجاحظ ٢/٧٦ ، ١١٣ ٠

۱۲۷ ، ۱۲۹/٤ ، ۱۲۷ ، ۱۲۷ .

⁽٣) المعدر السابق ٣/ ٤٣١ .

⁽٤) المصدر السابق ٥/٢٦٣ ٠

⁽٥) انظر مهذب الأغالي ١٩٣/١ •

⁽١) مهذب الأغاني ١/١٢ ٠

⁽٧) السيد العملس الذئب التوى وأرقط زهلول نس أملس وعرفاء جيال ضبع طويلة •

 ⁽A) يقارن بينه ربين الوحوش قائلا مع بسالتها قانا أسرع منها الى المبيد .

 ⁽٨) الازل الذاب الخليف الوركين والتنولة المفازة والاطحل الأغبر اللون وبعدم أبيات مكملة للممنى ٠

ترود الاراوى الصحم حول كانها عدارى عليهن الملاء المديل (١) ويركنن بالآصال حسول كأننى من العصم أدفى ينتحى الكيح اعقل(٢)

وعبيه بن أيوب يصف أيضا مراحل الفته مع الوحوش ، قائلا انهـــن أنكرنه أول الأمر ، فلما تعودن عليه ألفنه ، وازداد هذا الألف توثقاحين شاركهن جفاف الحياة وصعوبة العيش فيقول :

فاجفلن نفرا ثم قلن ابن بلدة قليل الأذى امسى لكن مصافيسا الكلت عروق الشرى معكن والتوى بحلقى نور القفر حتى ورانيسسا (٣)

ويؤكد عبيد حلفه للوحوش ، ولكن هذا الحلف لا يعنى تنخل كل منهمــــا عن طبعه ، فاذا بدر الطبع من أحدهما فالآخر متيقظ له فيقول :

وحالفت الوحوش وحالفتيني بقرب عهودهن وبالبعياد وأمسى الذئب يرصدني مخشا لخفة ضربتي ولضعف آدى(٤)

ويتحدث الاحيمر السعدى عن حياته مع الوحوش في القفار حين خلعـــه قومه وطارده السلطان فيقول:

د كنت أرى النوى فع رجيع الذئاب ، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهاثم الوحش ولا تنفر منى لأنها لم تر أحدا قبل ٠٠ ، (٥) ويؤكد هذا بقوله : عوى الدئب فاستأنست بالذئب اذ عوى وصوت انسان فكنت اطبير (٦)

وتابط شرا أيضا يتحدث عن ألف الوحوش له ، وأطوار هذا الألف ، فيقول ال الوحوش تعودت رؤيته ليل نهار ، بل تعودت أن يبيت بعراى منها ، فالفته لتعودها رؤيته ، ولكونها لم تجد منه أذى أو تعرضا لها في معيشتها ، تحول الألف بينها وبينه إلى ما يشبه الود ، حتى أنها لتوشك أن تسلم عليه لو كانت تحسن السلام فيقول :

يبيت بمغنى الوحش حتى الفئه ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا (٧) ثم رأين فتى لا صيد وحش يهمسه فلو صافحت انسا لصافحته معا (٨)

⁽۱) ترود تذهب وتبيء والادوى أنثى الوعل والصبحم السود الى صفرة والملاء نوع من التياب •

⁽٢) الآصال جمع أصيل والأعصم الوعل في ذراعه بياض والأدفى طويسل القرن وينتحى يقصد والكيع عرض الجبل وسنده والاعقل المعتنع .

⁽٣) الحيوان للجاحظ ٦/٥/٦ .

⁽٤) الحيسوان للجاحظ ١٥٩/٦٠

⁽٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣٩٠/٣ والشمر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م المانجي مع اختلاف بسير في الألفاظ ٠

⁽٦) الشعر والشعراه لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجي ٠

⁽۷) سماسة أبى تمام ۱۹۰/۱ والمفتى مكان النزول والشيطر الثاني يعنى لا يمنعها من رثم لها ٠

⁽٨) الشطر الأول يعنى رأينه منصرفا عن صيدهن ال شيء آخر ٠

فهذا الفريق من الصعاليك الذي مثلنا له بما سبق لا يرى في الوحوش عدوا ، بل يرى فيه اهلا أو شريك حياة أو جارا غير لئيم على أدنى الفروض ، ولا يرى في صلته بها عداء ولا صراعا ، وانسا يرى ألفا وودا أو سلسلاما على أقل الفروض .

وهناك قريق آخر من الصعاليك ، لا يرى فى جوار الوحوش الفا و لا ودا ، ولكنه أيضا لا يرى فيه عداه ولا صراعا صريحا ، وانما نحس أن فيه مجرد الربية والتوجس ، أو لحذر على أبعد الفروض ، فما لك بن الربب يتحرد عن البيئة التى اضطرته الصعلكة الى ملازمتها والعيش فيها فيقول :

أما ترى الدار قفرا لا أنيس بها الا الوحوش وأمسى أهلها احتملا (١)

وحتى حينما عدا ذئب عليه ليغتاله فقتله بسيفه ، اعتبر مالك هذا الحادث فرديا ، فلم نسم أنه غير رايه أو أظهر رأيا أو مشاعر نحو الوحوش كلها ، وانما قصر حديثه على الذئب الذي عدا عليه وحده ، بل أكثر من هذا لم يذمم الذئب بأكثر من قوله « أذلب الغضا قد صرت للناس ضحكة » (٢) ، بل مدحه في مقابلة مدح نفسه بقوله :

فأنت وان كنت الجرىء جنانه منيت بضرغام من الاسد الغلب (٣)

ولكن المهم أن هذه الحادثة لم ينعكس أثرها في نفسه على نوع الوحوش كله وأكثر ما بلغنا من شعر الصعاليك عن الوحوش وعن البيئة بصفة عامة في ثوب الصدق والواقعية الحقة كان من شعر صعاليك هذيل وشعر الشنفرى ، وقد مثلنا من شعر الشنفرى واتجاهه نحو الوحوش .

وأما صعاليك هذيل فنجد فى شعرهم طابع المعاناة الحقيقية لحياة الموحوش والفها ومراقبتها عن كثب، وفى شعرهم صور رائعة عن بعض الوحوش، تمثل لوحات فنية فى أدق صورها وقد أشرنا الى شىء من ذلك فيما سبق .

وصخر الغي يرسم لوحة من هذه اللوحات ، تمثل حماري وحش ، ويبدآ منظرهما في روضة من أعشاب الصحراء يرعيان فيها ، وبعد أن شبعا تهيآ لطلب الماء يشربان ، وقربا من الماء ، ولكنهما أحسا صائدا يرصدهما ، فدارا والتفساحتي بعدا عن الماء ، ثم صعدا مرتفعا غليظا من الأرض ، ثم انحدرا بقوة ، وهما ما يزالان في بحثهما عن ماء آمن ، وظلا طول الليل هكذا ، وحينما أطل عليهما الصباح ، ظنا أن أزمتهما قد فرجت ، ولكنها كانت في الواقع أزمة جديدة فيها الردى لهما ، اذ فوجنا بخيل الصائدين تشيم الرماح في صدورهما فيقول :

ولا علجسان ينتابان روضسا نفسيرا نبته عمسا تؤامسا (٤)

⁽١) انظر مهلب الاغاني ٥/١٠ .

⁽٢) أنظر مهذب الأغاني ١٦/٥ البيت الأول من التصيدة ٠

⁽٣) المدر السابق د البيت الثاني من التميدة »

ديوان الهذليين ٢/٦٢ - ٦٦ والعلج حساد الوحش والعم بضمه العين تام النبات وتوام مزدوج .

الى آخر هذه الصورة ، والذى يعنينا منها أنه ساقها مساق المرئيات التى يشاهدها ويتتبع أحوالها ، ثم نرى علاقته بها ، انها علاقة لا يتحدث فيها عن صراع ولا عداء الا فى حالة واحسدة ، هى حالة الصيد ، حينما يحتاج الى أن يصيد ، وهو يصف نفسه صائدا فبقول :

التيسح لها القيد ذو خشييف اذا سامت على الملقات ساميا (٢) خفى الشيخص مقتدر عليها يشن على ثمائلها السماما (٣) فيبدها شرائعها فيرمى مقاتلها فيسقيها الزؤاميا (٤)

فهذه صورة صراع مع نوع من الوحوش ، ولكنه صراع الخائف أو المدافع عن النفس ، وانما صراع الصائد المهاجم ، الذي يسمع صيده الموت الزوام كما قال :

والأعلم الهذلى يخشى الضبع ، ولكنه لا يخشاها وهو حى قوى ، وانها يخشى سطوها على جثمانه لو صرعه أعداؤه ثم تركوه جزرا للوحسوش من ضبع وذئب وثعلب وكذلك الطسير ، ولكن ذهنسه تركز على الضبع لشهرتها بتتبع الجيف ، فتصور نفسه جثة ملقاة ، تتجمع حولها ضباع سود كأن جلودهن ثياب رهبان في سوادها ، ذات آذان طويلة كأنها مغارف الطعام ، يعملن في نزع جلده كما يعمل القين في غمد السيف ، ولا يكتفين بأن يأكلن منه ، وانها يجسرون جثته الى جرائهن الصغار اللائي تركنهن وراهمن كما يقول :

فاكسون صيدهم بهسا وأصير للفسيع السواغب (ه) جزرا وللطبير المسرية والدئساب وللتعسالسب وتجسر مجسرية لهسا لحمى الى أجسر حواشب (٦) سسود سيحاحيسل كسان جلودهسن ليساب راهب (٧) آذانهسن اذا احتفسس ن فريسة مشل المذانب (٨)

⁽١) أصمر صيعرى لاوى العنق والنسيل ما تطاير من شمره والثغام نبات جاف ٠

 ⁽۲) المسدر السابق ۳۹۳/۲ وأقيدر قصير المنق والحشيف الثوب الخلق والملقات جمع ملقة المكان الأملس •

⁽٣) خفى مختبى لصيدها ومقتدر قادر ويشن يصب والثمائل مواضع الطعام يصيبها منها والسمام روى السهام •

⁽٤) الزوَّام الموت العاجل · والوحوش التي يعنيها في الأبيات الوعول والنمام كما ذكر في بيت سابق ·

⁽٥) ديوان الهذليين ٢٩/٢ ، ٨٠ والسواغب الجياع ٠

⁽٦) مجرية ذات جراء هي صغارها وحواشب متتفخات البطون •

⁽V) سحاليل يريد شنخمة ·

⁽٨) المذانب مقارف الطعام •

ينزعسن جملد المسرء نسسز ، ع القين أخسلاق المداهب (١)

ومثل هذا المعنى يراود الشنفرى فى تصوره أن أعداءه سيقتلونه ، ويحملون رأسه ، ثم يتركون جسه للضباع (٢) •

ونخرج من هذا الحديث بان نقول انه لا يبدو من شعر الصعاليك انهسم كانوا يعتبرون الوحوش على خطورتها مشكلا أساسيا في حياتهم ، او عقبة في سبيل صعلكتهم ، حتى اننا نرى مشاكل أخرى قد تبدو أيسر من الوحوش كالحصول على الطعام والماء كانت تشمسخل حياتهم وتؤرقهم أكثر ممسا تشغلهم الوحوش ، وقد يكون لمعيشتهم في بيئة الوحوش والفهم لها ، وشعورهم النفسي بأنها البيئة التي لا مفر لهم منهسا أثر في وجود شيء من التقارب بينهم وبسين الوحوش من حيث الالف ، وذوبان شيء من النفور الطبعي بسين مجتمع الناس والوحوش ، ولكي ذلك كله لا ينفي خطورة الوحوش ، ولا احساسهم بالتوجس منها ، والمحاذرة من طبعها ، أعنى لا يعنى جهلهم أو تجاهلهم طبيعة الوحوش ،

الوهسم

فى المجتمعات البدائية تشيع الخرافات والأساطير ، يلقنها الطفل مع فطامه ، وتظل عالقة بذاكرته مهما أنسسته الأيام اياها ، فاذا أحاط به ظرف يساعد على ظهورها برزت فى ذاكرته وخياله الىالوجسود ، بل الى التأثير فى نفسيته وسلوكه وادراكه أو احساسه .

ومن هــذه الخرافات في المجتمعات البدائية وخاصـــة البادية ، الغيلان والسعالي ، والصور المختلفة للجن .

وحين نتحدث عن هذه الخرافات بالنسبة للصعاليك لا نستطيع التعميم ، فالواقع أننا حين نستعرض شعرهم نجد قلة قليلة هى التى تحدثت عن هذه الحرافات كشىء فى حياتها ، بل لعلنا لا نعدو الواقع اذا قلنا أن اللذين تحدثا عن الخرافات بهذه الصورة هما عبيد بن أيوب العنبرى وتأبط شرا على وجه التحديد ،

فأما عبيد بن أيوب فقد تحدث كثيرا في شعره عن خرافات كثيرة كالغول والسعلاة ، والجن لا على أنها أشياء موجودة فحسب ، فلو كان الأمر كذلك لاختلف الحديث عنه ، رلكنه تحدث كثيرا عن أنه حالف هذه المخلوقات وعاشرها وجاورها ، أو صارعها وقاتلها ، في صور لا شك قط في أنها أبعد ما تكون عن الحقيقة وعن أدنى مراحل العقل في تصديقها ،

⁽١) القين الحداد والخلق البالى والمداهب الحل المدهبة على جنن السيف .

⁽Y) انظر حماسة أبي تبام ١/٨٨١ ·

فهو يتحدث عن الغول مثلا بأنه رافقها بعد أن أوقدت حوله نارا وطلت ترن بألحان مختلفة فيقول :

ولة در الغول انى دفيقها لصاحب قفر خانف يتستر الدنت بلحن بعد لحن واوقعت حسوالي نيرانا تبوخ وتزهسر (١)

بل يزيد الأمر تفصيلا فيصف أنه لقى غولين ذكرا وأنشى فيقول :

وحالفت الوحسوش وحالفتنى بقسرب عهودهسن وبالبعساد ثم _ وغولا قفرة ذكر وانثى كان عليهما قطع البجاد (٢)

وفي مرة اخسرى لم يانس الى الغول ، وانما لقيت منه الدواهي كما يقسول :

ولقــد لقيت منى السباع بليــة وقد لاقت الغيلان منى الدواهيا (٣) ومرة يتحدث عن السعلاة والغول فيقول :

وساخرة منى ولسو أن عينها رات ما الاقيسه من الهسول جنت أذل وسسعلاة وغسولا قفسرة اذا الليل وارى الجن فيه أرنت (٤)

ويتحدث عن صفائه مع الغول بعد عدائهما فيقول :

وصار خليل الغول بعد عداوة صغيا وربته القفاد البسابس (٥)

أخو قفرات حالف الجين وانتفى من الانس حتى قد تقضت وسيائله له نسب الانسى يعيرف نجيله وللجين منه خلقه وشمائله (٦)

وينكر على أعداثه أن يغيروا عليه وهو الذي ﴿ يثير الجَنَّ وهي هجـــود ﴾ كما يقول :

اقسل بنو الانسان حتى اغرتم على من يثير الجن وهي هجود ؟ (٧)

⁽١) الشمر والشمراء لابن قتيبة ١٨٢ م الخانجي وقبي الحيوان للجاحظ ٤٨٣/٤ برواية عائف متقفر ء وقفر ٠ مكان مقفر ٠

⁽٢) العيوان للجاحظ ٦/١٥٩ ٠

⁽٣) العيوان للجاحظ ٦/١٦٥٠

⁽٤) الحيوان للمجاحظ ٣/١٩٥٠ .

⁽٥) المدر السائق ٠

⁽١) المدر السابق .

⁽٧) المددر السابق ١٦٩/٦ وأقل استقهام بمعنى عل قل ٠

ويزعم أنه أصبح معروفا بأنه خليل الغول فيقول :

تقسول وقسد المت بالانس لمسة مخفية الاطراف خسرس الخلاخل اهسانا خليل الغول والذئب والذي يهيم بربات العجال الكواهل ؟ (١)

واما تأبط شرا فلم يبلغ ما بلغه عبيد بن أيوب من الوهم والاسراف في الحيال ، وانها هي حادثة واحدة ، تحدث عنها تأبط شرا في شعره بأنه قتل فيها الغول ، ولكونها حادثة واحدة قلنا فيما سبق انه من الناحية النظرية ، اذا نظرنا الى خبر كهذا فليس من الحتم أن نكذب دعواه ، لجواز أن يكون قد قتل حيوانا غريبا في الصحراء ، تمثل من شكله أنه الغول كما ارتسمت في خياله ولكننا من الناحية التطبيقية حين نرى حديثه عن هذا الحادث لا نجد مفرا من حمله على الوهم ومجانبة الواقع والحقيقة ، ومن الحديث العادى الذي يمكن معه محاولة الدفاع عن تأبط شرا قوله :

الا مسن مبلسخ فتيسان فهسم بمسا لا قيت يسوم رحى بطسان بانى قد لقيت الغسول تهسوى بقفر كالصحيفة صحصحان (٢)

ومن الحديث المسرف الذي لا يترك مجالا للدفاع عن تأبط شرا ، قوله انه جاور الغول وتأمل خلقتها ، بل وطالبها بضعها حيث يقول :

فاصب بعث والفيول لي جيارة فيا جيارتا انت ما اهيولا وطالبتها بفيعها فالتيوت بوجه تهول فاستغولا (٣)

واذن فهذا النوع لا يمثل واقعاً ولا حقيقة ، بل ولا استنادا الى شيء من الحقيقة ، وانما يمثل مجرد أوهام وخيالات يحتة ٠

ومع أن هذا النوع من الوهم لا يمثل ظاهرة عامة في الصعاليك ، وانما هو من قبيل الحالات الغردية التي يمكن أن تكون الى الشانوذ في محيط الصعاليك أقرب منها إلى الظاهرة العامة بينهم ، نقول مع ذلك فهو في حاجة إلى التعليل ، وفي محاولة تعليل هذا الوهم نعود فنقول أن بذوره من غرس الاساطير والحرافات التي تشبيع في المجتمعات البدائية ، وخاصة البوادي ، حيث يلقنها الصغار مع أقاصيص الطفولة ، ثم تظل متداولة بين السذج والبسطاء ، وحين ينمو الطفل وتنضع شخصيته يحاول أن يتناسي هذه الخرافات والأساطبر التي علقت بذاكرته طفلا ، ولكن هناك ظروفا يمكن أن تستخرج صور هذه الاساطير من الذاكرة وتعيدها ماثلة أمام الأعين ، وأكمل هذه الظروف وأصلحها لبروز الخرافات والأساطير عبيها الخرافات والأساطير عبيها الخرافات والأساطير حياة الصعاليك ، ألتي يعيشها معظمهم وحيدا أو شبيها

⁽١) المبدر السابق •

⁽١) سجم ما استمجم للبكرى ١/٢٥٧ •

⁽٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ والبقيع اللرج .

بالوحيد ، في صحراء مقفرة فيها كل عوامل الوحشة والخوف والرهبة الى أبعد حدودها ، هذه الحياة التي يرسم الأحيس السعدى صورة منها ، كما يروى ابن قتيبة فيقول ، د وكان لصا كثير الجنايات ، وخلعه قومه فخاف السلطان وهرب ، وخرج الى الفلوات ، وتفار الأرض • وقال : انى ظننت انى قد جزت نخل وبار (۱) أو قد قربت منها وذلك انى كنت أرى في رجيع الذئاب النوى ، وصرت الى مواضع لم يصل اليها أحد قط ، وكنت آخذ منها لطعامي ما شئت الا الوحش فلا تنفر منى لأنها لم تر غيرى قط ، وكنت آخذ منها لطعامي ما شئت الا النعام فانى لم أره قط الا شاردا نادا ، (٢) ومهما يكن في هذا من المبالغة أو النعام فانى لم أره قط الا شاردا نادا ، (٢) ومهما يكن في هذا من المبالغة أو شيء من الوهم الذي نتحدث عنه ، فانه يدل على حياة الوحدة والوحشة والرهبة التي يعيشها بعض الصحاليك وهذه الحياة هي التي نعني أنها أهم الظروف التي تساعد على تجسيد الخرافات والأوهام •

ومن هذا نقول أن حياة الصعائيك وبيئتهم تساعد على ظهرور الخرافات والأوهام ، وأنها لو كانت شائعة بينهم لما كان ذلك غريبا ، بل يكون هو النتيجة الطبيعية المنتظرة ، خاصة وأنه صاحب وحشة البيئة ومخاوفها ووحدتهم فبها شعور عام بينهم بايهم مطاردون ، مطاردة مطلقة مرتقبة من كل الوجوه ، من الأعداء وغير الأعداء كما سبق ، وهو شعور نفسى ثقيل الوطأة ، خطير الأثر ، وقد صور القرآن الكريم أثر هذا الشعور في المنافقين بأنه يبلغ منهم أن يتصوروا أن كل صيحة أنما هي خطر متجه اليهم ، حيث يقول تبارك وتعالى « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو » (٣) وهو تحليل نفسى بالغ العمق والتعبير ، وقد كان هذا المعنى مورداللشعراء ينسجون على منواله ، وقد عدد المفسرون كثيرا من الشعراء الذين أخذوا من هذا المعنى (٤) وهذه الآية يمكن أن تكون تفسيرا للوهم الذي تتحدث عنه ، من حيث أن الشعور بالمطاردة يمكن أن تكون تفسيرا للوهم الذي تتحدث عنه ، من حيث أن الشعور بالمطاردة الادراك وسلامة الشعور فيتولد فيها الوهم مختلطا بالحقيقة ، كما توهم المنافقون تحت وطاة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم المنافقون تحت وطاة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم المنافقون تحت وطاة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم النافقون تحت وطاة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم المنافقون تحت وطاة الشعور بالمطاردة والخوف أن كل صيحة عدو يتعقبهم

ومن حق معترض أن يعترض هنا بأنه أذا كان الأمر كذلك نقد كان ينبغى أن يكون الوهم شائعا في شعر الصعاليك وأحاديثهم ، حيث أنهم بصفة عامة للما تقرر سابقا ـ قد عانوا من الشعور بالمطاردة ، فقد كان ينبغى أن يكون لهذا الشعور العام بالمطاردة تتيجة عامة أيضا هي شيوع الوهم لديهم ممثلا في المرافات والأسماطير ، ولكن قلة قليلة منهم قد لا تتعمدى عبيد بن أيوب

⁽١) مَكَانَ ترْعم العرب الله لم تطَّاه قلم السان •

⁽٢) الشمر والشعراء لابن قتيبة ١٨٣ م الخانجي وانظر المقد الفريد ٣٩٠/٣ أيضا .

 ⁽٣) الآية ٤ من سورة المنافقون ٠

⁽٤) أنظر للمثال تنسير الكشاف للزمخشرى في علمة الآية .

وتابط شرا ، والأحيمر السعدى ، أن اعتبرنا في بعض حديث عبيد السسابق شيئا من وهم ، هذه القلة فقط هي التي نجد الوهم في كلامها ، فلماذا لسم يهم (١) الباقون ؟

ونجيب عن ذلك بأن الباقين كانت لديهم أسلحة مضادة للشعور بالمطاردة والنوف ، وهى القوة التى تعيز بها الصعاليك ، والتى كانت ولا شسك قوة غير عادية ، بل لا ينازع فى أنهم فى جملتهم كانوا من القوة فى قمة عالية ، وأبرز مظاهر هذه القوة التى قاوموا بها الشعور بالمطاردة والخوف هو الاستهانة بالموت كما سبق ، فهذه القوة التى تبلغ فى بعض جوانبها حد الاستهانة العامة بينهم بالمرت كانت سلاحا مكافئا للشعور بالمطاردة ، فلم يشمر شعور المطاردة ثمرته المنطقية المنتظرة ، وهى الوهم .

هذا عن أكثرية الصعاليك ، الذين حمتهم قوتهم واستهانتهم بالموت من سيطرة الشعور بالمطاردة الى حد الوهم ، أما الأقلية التي لم يكن نصيبها من القوة كبيرا فقد تمكن في نفوسهم شعور المطاردة ، وسيطر عليها الحوف حتى بلغ التفريق بين الصعاليك في هذا المعنى نظريا ، انها هو واقع ملكوس في شعرهم، فالواقع أن المستعرض لشعر الصعاليك يجه حديث الخرافات والوهم نشرا فيه، فمع كثرة حديث الصعاليك عن الوحشة والفقر والوحدة والوحوش ، مع كثرة ذلك كله في شعرهم لا نجد اتجاها الى حديث الخرافات والأوهام الا لدى هذه القلة ، وقد قلنا أن أهم سبب من أسباب هـنه الخرافات والأوهـام سيطرة الشعور بالمطاردة والخوف الى درجة تتغلب على قوة صاحبها ، بمعنى أن تكون قوته أضعف من مقاومة هذا الشعور • وهــذا الفارق بينهم في قوة المقــاومة وضعفها نجده واضحا في شب عرهم فأغلبية الصعاليك نجدهم مع حديثهم عن الشعور بالمطاردة أو حتى الخوف أن عرضوا به يتحدثون أيضا عن قوتهم وصلابتهم واستهانتهم بكل شيء حتى الموت ، أما القلة التي غلبها الشمعور بالمطاردة والخــوف وغلب قوتها ، فائنا نجــد ضعف المقــاومة بارزا في شسسعرهم •

فعبيد بن أيوب الذى تمثل الوهم المشار اليه فى شعره . حيث كان أكثرهم حديثا عن الخرافات والأوهام بصورة ظاهرة ، عبيد هذا نجد حديثه عن الخوف البالغ المتمكن من نفسه ظاهرا متميزا فى شعره ، وكأنه هو نفسه يسوق لناسب الأوهام التى شاعت فى شعره وهو الخوف الشديد غاية الشددة حيث يصور معنى الآية الكريمة السابقة تصويرا يكاد يكون حرفيا فى قوله :

لقد خفت حتى لو تطيير حميامة لقلت عيدو او طليعة معشر (٢)

⁽۱) يهم مضارع ومم ومما ٠

⁽١) الحيران للجاحظ ٥/٢٤١ ٠

ويصور مبلغ شعوره بفقدان الثقة في عليا درجاتها فيقول:

فان قيل خير قلت هـلى خديعـة وان قيل شر خلت حقـا فشمور وخفت خليــلى ذا الصـفاء ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحـلر (١)

ويبلغ قمة الشعور بالمطاردة حينما يطلب من وحشى الصحراء أن يخفيه عن مطارديه فيقول:

الا يا ظباء الوحش لا تحسدرينني وأخفينني اذ كنت فيكن خافيسا

بل انه ليثير الاشفاق عليه حينما يبلغ منه ذلك كله أن يتمنى مستعطفا طظة يذوق فيها قلبه المخلوع طعم الأمن فيقول :

أذقنى طعم الأمن أوسسل حقيقة على وأن قامت فغصسل بنانيا خلعت فسؤادى فاستطير فأصبحت ترامى به البيد القفسار تراميا

وعبيد بن أيوب بهذا يريح المستنتجين وملتمسى الأسباب ، حيث يضرح لهم بأن الخوف والشعور بالمطاردة قد بلغا منه هذا المبلغ ، فيقطع نصف الطريق نحو النتيجة بذكره المقدمة المنطقية لها ، بل يمكن أن يقال انه صرح بالمقدمة المنطقية ، وصرح أيضا بنتيجتها ، غاية الأمر أنه ذكرهما منفصلتين، فلا ينقصهما الا الترتيب المنطقي .

والجاحظ يسوق في تعليل هذا الوهم سببين احدهما قوله « اذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير كبيرا ، وارتاب وتفرق ذهنه ، فراى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير الحقير أنه عظيم جليل » (٢) وهو بهذا يشير الى بيئة الصعاليك التي قلنا أنها من العوامل المساعدة على ابراز مكنونات الذاكرة من الخرافات والأوهام وتجسيدها بقوله « اذا استوحش الانسان » •

ولئن كان السببان كلاهما ينطبق على عبيد بن أيوب ، فائنا نرى أن السبب الثانى وحده هو الذى يمكن أن ينسب الى تأبط شرا فى حديثه المحدود عن بعض الخرافات ، لأن تأبط شرا فى جملة صغائه وأخباره وشمره ، لم يكن

⁽١) الحيران للجاحظ ٢٤١/٠٠

⁽٢) الحيوان للجاحظ ٦/ ٢٥٠٠

⁽٣) المدد السابق ١/١٥١ ٠

من الذين يفقدهم الخوف أو الوحشة سلامة حسهم وادراكهم لما حولهم ، خاصة . وأن في هذا الميدان كأن عن حادثة واحدة هي حادثة قتله الغول فيما زعم ، وأنه لولا التفاصيل التي ساقها في هذه الحادثة لكان يمكن ان تلتمس له فيها وجها من وجود الصدق .

صرأع السلطة

وقد انفرد صعاليك الاسبلام بصراع عنيف جديد ، هو صراع السلطة ممثلة في السلطتين التشريعية والتنفيذية -

وقد نظر صعاليك الاسلام فاذا شيء جديد يأخف عليهم حياتهم من جميع اقطارها ، ويترصد مسالكهم ، بل يلاحقهم حتى في كهوفهم وخلواتهم ، بل وينفذ الى خبايا نفوسهم ، في كل وجه يجدون أمامهم هذا الشيء ، وفي كل خلوة ينفذ اليهم هذا الشيء ، لا يترك لهم ظلمة يتحصنون بها ، ولا منعرجا يأمنون فيد . وكانه ضوء النهار يكتسح كل ظلام ، ويكشف كل مخبأ وكان هذا الشيء الذي فوجئوا به هو الاسلام .

ولا شك أن الاسلام كان أخطر عدو واجهه الصعاليك ، كما كان أكبر ضربة منيت بها الصعلكة وقد كانت هزيمة الصعلكة والصعاليك أمام الاسلام أيضا أكبر هزيمة منوا بها ، أن لم تكن الهزيمة الوحيدة التي وضعت حدا فاصلا مميزا بين صعلكة الجاهلية وصعلكة الاسلام ، سواء في الأساليب والمشاعر .

ولا نعنى بانتصار الاسلام على الصعلكة أنه قضى على الصعاليك أو حتى قلل من عددهم ، وأنما نعنى أن انتصاره كان فى تغيير النظرة الى الصعلكة تغييرا كاملا ، فبعد أن كانت الصعلكة ميدانا للبطولة والتنافس ، ومعظا للاعجساب والتطلع ، أصبحت جريمة منكرة بغيضة ، لا تلقى من الاسلام الا انكارا شديدا ، وعقابا صارما ، ولا تلقى من المسلمين الا نبذا وبغضا ومطاردة .

وقد كان أثر الاسلام في قصم ظهر الصعلكة واضحا كل الوضوح في نقطة هامة جدا في شعر الصعاليك ، تعتبر محورا فيه ، هذه النقطة هي الذاتية ، في شعر الصعاليك ، فمن السمات البارزة في شعر الصعاليك كله الذاتية ، حيث يجعل الواحد منهم ذاته محورا لكل شيء ومنطلقا لكل معنى ، ومشرفا على كل ما يعرض له في شعره مصاحبا له ، ولكن هذه الذاتية تختلف اختلافا اساسيا في شعر الصعاليك الاسلاميين عنها في شعر الجاهلين ، فبينما نجد ذاتية صعاليك الجاهلية تتسم بالعزة البالغة ، والاعتداد الشهديد بالنفس ، والاستهانة المطلقة بكل شيء ، فجد ذاتية صعاليك الاسلام عكس ذلك ، تتسم بالشعور بالشيعة ، وبالأتين ، والرغبة في التخفى والظروف المحيطة بكل بالشعور بالشيعة ، وبالأتين ، والرغبة في التخفى والظروف المحيطة بكل

منهما لا تجعل في شيء من هذا غرابة ، قبينما يسعر الجاهل أن سنوكه محط الاعجاب والرهبة والتقدير من المجتمع مما يدعوه الى الاعتزاز والفحر به ، يسعر صعلوك الاسلام أن سلوكه محط الانكار والبغض والمطاردة ، مما يدعوه الى عكس ما يشعر به صعلوك الجاهلية .

وقد تمثلت سلطة الاسلام التي واجهها الصعاليك في ناحيتين ، السلطة التشريعية ، وهي الاسلام من حيث أنه دين ، والسلطة التنفيذية ، وهي سلطة القائمين على تنفيذ أحكام الاسلام من الحلفاء والولاة ٠

رأ) السلطة الشريعية:

وليس من المستطاع أن نطلع على صراع الصعاليك مع الدين من حيث هو دين ، فالمفروض أنه صراع نفسى لا يحس به الا صاحبه ، وانما عبرنا بلفظ « صراع » لأننا بعتقد أن الصعاليك لم يكونوا من الذين استجابوا للاسلام بسهولة ويسر ، وذلك لأكثر من سبب ، وأهم هذه الاسباب أنه اذا كان غير الصعاليك ليس بينه وبين الاسلام في غالب الأمر الا العقيدة ، بمعنى أنه حين يعتنق الاسلام فلن يتغير في حياته شيء الا العقيدة ، أما الصعلوك فحين يعتنق الاسلام ينقلب كل شيء في حياته رأسا على عقب ، وأهم هذه الأشياء جميعا أن الصعلكة مورد رزقه ، والمصدر الوحيد لعيشه ، ومعنى ذلك أنه حسين يعتنق الاسلام يفقد مصدر رزقه الذي لا يملك سواه ، وهناك سبب آخر ، وهو أن الصعلكة أصبحت في حياتهم كالحرفة التي تملك على صاحبها كل مشاعره واحساسه ، وكل هواه في كثير من الأحيان ، وهذه الحرفة التي تشبعت بها نفوسهم ، والفهم الطويل لها ، قد تجد نفوسهم شيئا من أحجام في التخلي عنها ، ولو من باب فراق شيء اليف ، وقد يالف الإنسان شيئا ولو غير حبيب الى نفسه فلا يرحب بغراقه ، كما يقول المتنبى :

خلقت اليفسأ لو رددت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيسا

وهناك سبب آخر قد يزيدون به عن المترددين في الاسراع الى الاسلام ، وهو مااشرنا اليه في أسباب الصعلكة منانه قد يكونمن دوافع الصعلكة واسبابها الاستعداد الشخصي في التكوين ، والتهيؤ النفسي لدى بعض الأفسراد بطبيعة تكوينهم للصعلكة ، مما يجعلهم أكثر من غيرهم ترددا في الاسراع الى الاسلام ومع ذلك نود أن نقول انه مهما اختلفت الأسباب وتنوعت العلل ، فأن شعرهم نفسه يشير بوضوح الى أنه حتى الذين تابوا عن الصعلكة باسلامهم أو خسلال عصور الاسلام ، يبدو من شعر أكثرهم أن التوبة لم تبلغ من نفوسهم مبلغ الاطمئنان الكالى ، ولم تحل بين نفوسهم والحنين ولو في خفية الى حباتهم في

الصعلكة ، ولـــم تغضض جفونهم عن أن ترنو الى ماض يبــدو أنه حبيب الى نفوســهم .

ومن الطريف في ذلك تعبير أبي خراش الهذلي عن تقييد الاسلام لسلوكه ، وحيلولته بينه وبين ثارات كان يمنى نفسه بالانتقام لها من أعدائه ، وعن أن الاسلام يرد طيش الشباب فيجعل منه اتزانا كاتزان الشيوخ فيقول :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل وعاد الفتى كالكهدل ليس بقسائل سوى الحق شيئا فاستراح العواذل(١)

والأحيمر السعدى مع توبته لم يستطيع أن يغالب شوقا الى أيام غابرة كان يجد فيها متعته بالسطو على مثل هذه الزوامل فيقول :

أشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما ألاقى اذا مروا من الحسزن قل للصوص بنى اللغناء يحتسبوا بز العراق وينسوا طرفة اليمن قرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن (٢)

ولئن كان الصراع فى الأبيات السابقة واضحا فى نفس الأحيمر بين شعوره بالتوبة ورغبته فى التمسك بها ، وبين حنينه الى الصعلكة ، فان الصراع فى شعر يزيد العقيلى أخفى من دلك حيث يقول بعد توبته :

الا قل الأرباب المخائض اهملوا فقد تاب مما تعلمون يريد وان امرءا ينجو من النار بعد ما تزود من اعمسالها لسعيد (٣)

فالبيت الثانى وان كان يظهر سعادة بالتوبة واطمئنانا اليها ، الا أن البيت الأول لا يخلو من الماح ولو يسير الى الحنين الى المخائض .

ولكن هذا الحنين لا يقلل من أثر الاسلام في الصعلكة ، فأن التوبة نفسها أثر من آثار الاسلام ، والذي يعنى التشريع من الناحية الاجتماعية هو الكف عن السلوك المنوع بصرف النظر عن نفسية صاحبه ، على أن بعض توبتهم توحى بالصدق الحالص ، واستهجان الماضي كقول عبيد بن أيوب :

يارب عفوك عن ذى توبة وجل كانه من حدار الناس مجنون قد كان قدم أعمسالا مقاربة ايام ليس له عقل ولا دين (٤)

⁽١) الكامل للمود ١/٢٦٧ .

 ⁽٢) إمال الغالى ١٩/١؛ والزوامل الابل المحملة والقطار الابل المقطورة بعضها في أثر بعض والبيت الثانى نصح للصوس بالتوبة والأبياث في جملتها تصور صراعا بين التوبة والحدين الى السملكة .

 ⁽٣) الكامل للمبرد ١١/١ والمخافض الإبل في من مدينة ، وأهملوا يعنى الحمثنوا ويعنى بقوله تعلمون ما يعرفونه عنه من أساليب المسلكة .

^(£) البيان والتبيين للجاحظ ٢٢/٤ .

ب ـ السلطة التنفيدية :

ومع أن الروايات لم تحدد من الناحية الزمنية مراحل حياة الصعاليك ، بحيث نعلم مثلا متى تاب التائبون منهم ؟ بالإضافة الى نواحى غموض أخرى، الا أننا مع ذلك نحس بصغة عامة أن التوبة غلبت على الذين عاشوا في صدر الاسلام ، وعلى المخضرمين ، ومعنى ذلك أن صراع السلطة التشريعية كان في الذين عاشوا أول الاسلام أوضح منه في المتأخرين ويتضع هذا من شعر السابقين منهم ، كابي خراش الذي مات في خلافة عمر ، وكان من المنضرمين ، حيث نجد هذا المعنى في شعره ، كما راينا آنفا في تعبيره عن احاطة الاسلام برقاب الصعاليك كما تحيط السلاسل .

ويبدو رغم عدم وضوح الروايات أن الفترة منذ سيطرة الاسلام على شبه الجزيرة الى خلافة على ابن أبى طالب كرم الله وجهه قد خفت فيها صهوت الصعاليك ، وشلت فيها حركتهم ، بتأثر أغلبهم بالاسلام وتوبتهم الى الله ، كما تاب أبو خراش ، والحارث بن بدر التميس (١) أو بتعرض بعضهم للعقاب كجعفر ابن علبة الحارثي (٢) •

ويبدو أيضا أن شيوع الفتن والخلافات والحروب في الدولة منذ بدء خلافة على بن أبي طالب وخصومته مع معاوية ، فقد أتاحت للصعاليك أن يعاودوا نشاطهم مرة أخرى ، ولذلك نجد عددا من شعراء الصعاليك معاصرين لبده هذه الفترة ، كعبيد الله بن الحر ، الذي تحدثت أخباره باتصالات وخلافات مع كل من معاوية وعلى ، ومثل شبيب بن عمرو الذي طارده جنود على بن أبي طالب • ثم أخذ الصعاليك ينتشرون مع انتشار الفتن •

والذى نريد أن نقوله ، هـ و أننا بعد هـ في الدين ، بمعنى أنهم شعروا أن الصعاليك كان مع السلطة الروحية الممثلة في الدين ، بمعنى أنهم شعروا أن الوازع الديني بدأ سلطانه يخف عنهم ، ولذلك قل التأثبون منهم بعد ذلك ، في حين بدأوا يزدادون عددا ، وأصبح صراعهم ليس مع السلطة الروحية ، ولا مع السلطة التشيية لذاتها ، وأنها أصبح صراعهم مع السلطة التنفيذية الموكول اليها تنفيذ التشريع ، وقد عانى الصعاليك من صراعهم مع الولاه والخلفاء عناه شديدا ، كما كان الحال مع عبيد الله بن الحر ، الذي تحدي معظم ولأة عصره (٣) وطل في صراع معهم أمدا طويلا ، وهذا شبيب بن عمرو الذي كان يقطع الطريق ، يصور مطاردة على بن أبي طالب له ، وخوفه من الوقوع في قبضته ، ورهبته من محيس فيقول :

⁽١) انظر الكشاف للزمخشري تفسير الآية ٣٤ من سورة المائدة ٠

⁽٢) أنظر خزالة الأدب للبقدادي ٢/٢٤ ، ٤٧ ، ومواضع أخرى •

⁽۲) المسدر السَّابِق ۱۸/۲ ـ ۲۲ -

ولما أن رایت اپنی شمیسط تجللت العمسا وعلمت اني ولو أنى لبثت لهم قليسلا شسديد مجسامع الكتفين باق

بسكة طيىء والباب دوني (١) رهین مغیس آن ادرکونی (۲) لجروني الى شيخ بط____ين على الحدثان مختلف الشيئون (٣)

وسىعد بن ناشب يحتدم الصراع بينه وبين بلال بن أبي بردة عامل بني مروان على البصرة (٤) وقد هدم الوالي داره تنكيلا به ، ولكن هذه المطاردة بما فيها هدم داره لم تفت في عضده وانما تلقاها بالصمود الشديد ، والتحدي العنيف ، فيقول مستهينا بهدم داره :

واذهل عن دارى وأجعل هدمها ویصغر فی عینی تلادی اذا انثنت فان تهدموا بالغدر دارى فانها

ثم يخاطب بلالا يقوله :

لا توعدنا يابلال فاننــــــا وان لنا اما خشيناك مدهب فلا تحملنا بعد سمع وطاعسة فانا اذا ما الحرب القت قناعها ولسبنا بمعتلين دار هضيمية

لعرضى من باقى المذمة حاجيا يمينى بادارك الذي كنت طالبا تراث كريم لا يبالي العواقبا (٥)

وأن نحن لم نشقق عصا الدين أحرار الى حيث لا نخشاك والدهر أطوار على غاية فيها الشقاق أو العار بها حين يجفوها بنوها لأبسرار مخافة موت أن بنا نبت الدار (٦)

ويتحدث عبد الله بن سبرة الحرشي عن الأمير ، فيقول أنه لا يقيد نفسه بسلطانه ، وانه قادر على مخالفته ، لأنه يستوحى سلوكه من سلطان نفسه لاسلطان الأمير فيقول :

وانى اذا ضن الأمسير باذنه على الاذن من نفسي اذا شئتقادر (٧)

ومالك بن الريب تعرض لمطاردة أكثر من وال من ولاة بني أميـة ، فقد طارده الحارث بن حاطب وتوعده ، ولكن مالكا يرد عليه ساخرا من وعيده ومن أيمانه التي حلفها متوعدا فيقول:

⁽١) حماسة أبى تمام ٢٥٢/١ ، ٢٥٣ وأبنا شميط اللذان وجهما الخليفة لمطاردته والسكة السطر من الشبجر •

⁽Y) المصا قرصه ومخيس بتشديد الياء المكسورة سجن بالكوفة بناه الامام على ·

⁽٣) البيتان الأخيران وصف لعل رضى الله عنه . (٤) قيل هو الحجاج انظر شرح الحماسة عن التبريزي ١٥/١٠.

⁽٥) حماسة أبى تمام ١٥/١ والبيت الأول يمنى أجمل مالى فداء لعرضى والشانى يمنى يمسفر مالي مادمت منافذا عزمي .

⁽٦) المصند السابق ۲۷۲/۱ ويروى أن بلالا الذي يخاطبه خارجي ولكن موضوع الشسمر وحوادثه مع بلال بن أبى بردة ترجع أنه بلال الوائى ابن أبى بردة ٠

⁽V) حماسة ابي تمام ١٨٦/١ •

تالى حلفسة في غسير جسرم أميري حارث شبسه الفرار على الأجلان في غيير جيرم وقلت وقسد ضممت الى جأشي

ولا أدنى فينفعنى اعتسسداري تحلل لا تال على حــار (١)

ثم يفسر في شعر آخر سر تحديه للولاه وتدرته على الاستهانة بمطاردتهم ، وهو أنه قادر على التنقل والرحلة إلى أي مكان فيقول :

أحقا على السلطان أما الذى له فيعطى أما ما يسراد فيمنسع اذا ما جعلت الرمل بينى وبينه وأعرض سهب بين يبرين بلقع فشانكم يا آل مروان فاطلبوا سقاطى فما فيه لباغيه مطمع (٢)

وحين طارده الحجاج الثقفي عامل بني مروان لم يخضع ولم يهن أمام سيطوة الحجاج وبطشه الشديد ، بل تحداه وتحدى بني مروان معه ، بسلاحه الذي يتحصن به الصعاليك من كل شيئ ، وهو الرحلة ، والتحكم في الأماكن المقفرة التي لا يجرؤ غير الصعاليك على ارتيادها فيقول لمني مروان :

ان تتصفونا يا آل مروان نقترب اليكم والا فاذنوا ببعــــاد فان لنا عنكم مراحا ومرحـالا. بعيس الى ريح الفلاة صوادى ففى الأرض عن دار المدلة مذهب وكل بلاد اوطنت كبالادى (٣)

وهذا السلاح ، سلاح الرحلة يروزه للحجاج ، هاجيا آياه هجاء موجعا . سأخرا منه سخرية قلما استطاع أحد في عصره أن يهديها إلى الحجاج فيقول معرضا بالرحلة ، مشيرا الى تعليم الحجاج للصبيان في كتابه قبل أن يصبح أمرا

> فهاذا ترى الحجاج يبلغ جهده فلولا بنو مروان کان ابن یوسف ا زمان هيو القيير بدلية

اذا نحن جاوزنا حفير زياد كما كان عبدا من عبيد اياد يراوح صبيان القرى ويغادى (٤)

السيجن

وكانت حصيلة صراعهم مع السلطة ، ومطاردة السلطة لهم أن أنتهى بعضهم الى السبجن ولئن كانت الروايات أيضًا غير واضحة كل الوضوح في أسباب دخولهم السبجن ، ثم مصيرهم بعد السجن ، أو على الاقل لم تكن واضحة كل الوضوح

⁽١) مهذب الأغاني ٥/١٠ وتحلل يعني من اليمين ولا تأل لا تحلف وحماد مرخم حادث ٠

⁽٢) المصدر السابق ٥/١٢ ٠

⁽٣) الكامل للمبرد ١/٣٠١ ٠

⁽٤) الكامل للمبرد ٢٠٢/١ .

بالنسبة لبعضهم ، الا انه من المفهوم أن الصعلكة كانت طريقهم الى السجن ، مهما اختلف أسلوب الصعلكة ، من قطع طريق أو سرقة أو قتل ، أو غير ذلك •

وقد التهى السبجن ببعضهم الى القتل ، كجعفر بن علبة الذى حبس فى سبجن المدينة ، ثم قتل لدم أراقه (١) ومنهم من قدر له أن يخرج من السبجن ، كمالك بن الريب الذى حبس بمكة لاتهامه بالسرقة (٢) ومنهم من لا نعلم عن سبجنه ونهايته الا آهاته التى انبعثت منه فى سبجنه ، كجحدر بن معاوية (٢) والجرنفس (٤) ومهما يكن من شىء فقد كان السبجن والحوف منه من العقبات التى أرقت مضاجع صعاليك الاسلام ، وكذلك من العقبات التى أثرت فى سلوكهم وحيائهم نفسها ، فان كثيرا من الذين هجروا حياة الناس الى القفار كالأحيمر السعدى وعبيد بن أيوب كان السجن هو السيف المصلت الذى أرهب بريقه نفوسهم فضلا عما يتوقعون بعد هذا السبجن ه

وهذا شبيب بن عمرو حين فر من مطاردة جنود على بن أبى طالب يركز خوفه ورهبته من مخيس وهو السجن الذي بناه على رضى الله عنه بالكوفة فيقول:

تجللت العصـــا وعلمت انى رهين مغيس ان ادركوني (٥)

ولذلك قال على حين بلغه هذا الشعر « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، لو ظفرت به لصدقت ظنه » (٦) يعنى لوضعته في مخيس ·

ومالك بن الريب يبدى حزئه على حبسه في سجنه بمكة ، متذكرا رفاقه وصحبه في الريب من ارض بني مازن فيقول :

اتلعق بالريب الرفساق ومالك بمكة في سجن يعنيه راقبه (٧)

والجرنفس يبعث الى قومه برسالة يصف لهم فيها حياته ، وما يعانيسه تهاره من القيه والسلاسل وما يعانيه ليله من ضيق السجن ووحشته فيقول :

ابلغ بنى ثعل عنى مغلغها فقد أنى لك من نى، وانضاج الله النهار ففي قيد وسلسلسلة والليل فيجوف منحوتس الساج (٨)

⁽١) خزانة البندادي ٢/٢٤ •

⁽٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٢/١ .

۲۷۷/۱ القال ۱/۷۷۲ •

٤) الحيوان للجاحث ١٥٨/٧ •

⁽٥) حماسة أبي تمام ١/٣٥٣ ٠

⁽٦) شرح حماسة أبي تمام عن التبريزي ٢٥٣/١٠

⁽٧) الشعر والثبعراء لابن قتيبة ١/٣١٢ والريب موضع لقومه تحدث عنه في مرثيته · ويجوز أن يكون المراد به أباه ·

⁽٨) الحيوان للجاحظ ١٥٨/٧ ٠

وهذا لص آخر من الصعاليك يهوله ما هو فيه من قيد وحبس ، وما يعانيك من وحشة وشعور بالغربة وهجر الآحبة فيقول :

اقيد وحبس واغتراب وفرقـــة وهجر حبيب أن ذا لعظيــم (١)

ولكن رسالة جحدر بن معاوية الى قومه من سجن الكوفة ، كانت أشسه الما ، فهو لا يعانى مرارة السجن فحسب ، وانها يحاذر أيضا وقع سيف المجاج ، وهو لا ينكر أن الحجاج وان كان قاسيا، الا أنه لن يظلمه اذا قتله ، لأنه جنى ما يستحق به صولة الحجاج فيقول :

اذا جاوزتما سعفات حجى واودية اليمامة فانعيــانى وقولا جعدر أمسى رهيئـا يعاذر وقع مصقول يمانى يعاذر صولة الحجاج ظلما وما الحجاج ظلام لجانى (٢)

وقد كان يمكن أن تكون لهجة يائس مترقب للموت كجعدر أكثر حزنا وشعورا بالرهبة والفرق الشديد، ولكنه تماسك الصعاليك، وصلابتهم، وتهيؤ أنفسهم دائماً للموت، ولكنه مع ذلك صب حزنه ويأسه في ثنايا القصييدة كلها، حين تحدث عن الهموم التي تكنفته وأقعمت قلبه في أبيات منها •

تاوبتی فبت لها کنیعیا هموم ما تفارقنی حسیوانی

اليس الله يعلم أن قسلبى يحبك أيهسا البرق اليماني؟

ولكنه يصب سخطه كله ، ونقمته كلها ، وياسه كله ، على السبخ الذى صوره بأنه قطعة معجلة من سقر ، حيث يقول في شعر غير الشعر السابق • يا رب أنفض بيت أنت خالفه بيت بكوفان منه استعجلت سقر ٢٠)

الشفالأجتماعي

وبحكم أن الانسانى اجتماعى بطبعه ، فليس من المعقول أن يكون الصعاليك بمناى كامل عن المجتمع ، ولا أن يكونوا خلقا آخر فى نفسياتهم وعواطفهم الاجتماعية فكل منهم لابد أن تربطه بالمجتمع أى رابطة ، ولو كانت هذه الرابطة عسداء وخصرمة من باب اعتبارهم الضدية نوعا من الروابط ، ولكن الصعاليك لم تكن

⁽١) الحيوال للجاحظ ١٥٨/٧ .

۱۲) آسال الفال ۱/۸۷۲ ٠

⁽٢) نمج ما استعجم للبكري ١١٤١/٤ وكوفان يعني الكوفة .

الضدية ، أو الضدية وحدها هي الرابطة بينهم وبين المجتمع ، بل كانت تتخلل حياتهم فترات كثيرة يرتبطون فيها يمجتمعاتهم كأحاد منهم ، فضلا عن أزواجهم وأولادهم ، وفضلا عن أن كثيرا منهم كما قلنا كان معدودا من فرسان قــــومه وشبجانهم ، وشارك قومه حروبهم وبأساءهم ، واصطلى بآثار هذه الحروب فوق ما اصطلاه في حياة الصعلكة ، لذلك نرى هذا الجانب الاجتماعي من حياتهـم متعكسا في شعرهم بجوانبه المختلفة ، وهم في هذا مختلفون ، ولئن كان الشعر السابق في الموضوعات المختلفة ينطبق عليهم بصفة عامة ، فانه في الشميعر الاجتماعي لا ينطبق كل موضوع أو كل معنى عليهم جميعا ٠ لأن الشعر السابق يمثل حياتهم في الصعلكة وصراعهم في هذه الحياة ، وهم في الصعلكة سواء ، لذلك كانت الموضوعات والمعانى السابقة شاملة لهم في جملتهم الاحين يشار الى استثناء واحد أو بعض بعينه ، أما في الشعر الاجتماعي فانهم مختلفون ، نبعض الموضوعات تنطبق على بعضهم ، لأن هذا البعض زاول هذا الجانب من المياة الاجتماعية ، ولا ينطبق على البعض الآخر لأنه لم يزاوله أو لم يتعرض له ولو كانت هذه التفاصيل تعنينا لذاتها لأمكن بسطة الحديث فيها ، ولكننا انما يعنينا اتجاه شعرهم وخصائصه ، ومبلغ تميزه عن شعر غيرهم ، ولذلك نجدنا مضطرين الى مدرد الجوانب البارزة في شعرهم الاجتماعي مكتفين بالاشارة الى منهجهم وطابعهم فيها • ويمكن تقسيم شعرهم الاجتماعي الى نوعين :

١ ـ النوع التقليدي في اغراضه كالمدح والهجاء والرثاء والغزل ٠

- ٢ ــ النوع الذي يمثل خلق الصعاليك الاجتماعي ، وطابعهم في هــــــذا الخلق •

ولكتنا نقول بصغة عامة ، أن الناحية الاجتماعية قد تكون بارزة في شعر بعض الأفراد من الصعاليك ، ولكنها غير بارزة في شعرهم ككل ، وحتى أذا يرزت في بعض النواحي فأننا نجدها وقد اكتست ثوب الصعاليك ، وشعارهم الذي يكسو شعرهم كله ، فشعر الصعاليك في جملته لا يبرز فيه الا طهابع المصعلكة ، مهما تعددت أغراضه وموضوعاته وكأنه الخاتم التي يختم به كل شعر الهم •

الأغراض التقليدية

 الفخر صفة مستركة بين الشعراء جميعا قديمهم وحديثهم ، فلا يتصبور شاعر قط لم يفخر بنفسه وان لم يكن يستحق من الفخر شيئا ، بل كثير من الشعراء على مر العصور يعلم ويعترف بأنه لا يحمل مما يستحق أن يفخر به شيئا ، ومع ذلك لا يستطيع آلا يفخر ، وكأنه يشعر بأنه يتميز بنوع من للوهبة غير المتاحة لكل الناس ، وهي الشعر ، ومن ثم يجد في نفسه احساسا خفيسا بأنه يستحق أن يفخر بنفسه ، فأن لم يفخر بشاعريته نفسها ، فخر بنفسه في أي صورة من صورها ، ومعنى ذلك أنه يمكن القول بأن الشاعرية نفسها من من المصدر الأول للشعور بالفخر عند الشعراء ، بالإضافة الى ما يدعمهسا في شخصية الشاعر من صفات تستحق الفخر .

واذن فمن الطبعى أن يفخر شعراء الصعاليك بأنفسهم ، وقد فخروا بولكنتا نلاحظ أنهم لم يجعلوا الفخر موضوعا ولا حتى غرضا مقصودا لذاته ، وانسا يأتى فن معظم الاحيسان عرضا ، واستنتاجا من أحداث ومعانى سابقة ، وكانه تعليق أو تعقب على حديث ، على أن فخرهم لا يخلو في معظم الاحيان أضسا من كونه في محيط الصعلكة ، اشادة بجانب أو صفة من صفاتهم السابقسة التي جعلوها أسلحة لهم في الصعلكة ، كقوة الارادة والحزم والجرأة والاستهانة بالموت وبقية ما سبق هن ذلك ، وحتى في بعض المعانى التي تخرج من محيسط الصعلكة نحدها مقرونة بصفات الصعلكة ، كقول الشنفرى بعد حديث عن صبره وقوة ارادته •

ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أدء

وكقول مالك بن حريم مشيرا وآخذ للمسول اذا ضيم حق

وقد فخر مالك هذا بعفسه ، فو وان كان عدها فى شعره أربعا ، اثن واحدة ، وواحدة فى العفة التى سيأتو عصر الصعاليك ، والثالثة وهى أوله تمثل الحذر واليقطة حيث يقول :

فواحسة ألا أبيت بغسسرة اذا ما سوام الجي حولي تصوف رمه

⁽١) من اللامية .٠

⁽٢) الاصمعيات ٨٥ والأعيط الأبي .

⁽١١) أنظر الإمبيعيات ١١ - ١٢ .

⁽٤) الاصمبيات ٥٨ •

وعروة بن الورد يعخر باكرامه الضيف ، واكرام الضيف والفخر به شائم في شمر المرب ، ولكن غير الشائع ما قرنه به عروة ، من أنه يجعل من اكرامه الضيف محادثته حيث يقول :

فراشی فراش الضیف والبیت بیتــه ولم یلهنی عنه غزال مقنع آحدثه ان الحدیث من القـــری وتعلم نفسی انه سوف یهجـع (۱)

وتأبط شرا يفخر بأنه يضرب هام العدا ، وضرب هام العدا أيضا شائع في الفخر ، و لكن غير الشائع أن يقول انه لا يهدف من ذلك الى فخر أو ذكر بين الناس فيقول :

يماصعه كل يشجع قـــومه وما ضربه هام العدا ليشجعا (٢)

وهكذا حين نتتبع فحر الصهاليك نجد أنه ليس فخرا عاديها كالمألوف في فخر غيرهم ، وانما نجد لهم دائما طابعهم المعين ، او اتجاها خاصا يميزون به أنفسهم ، ويميزون به شعرهم .

٢ ـ الاعتزاز بالقبيلة:

والاعتزاز بالتبيلة من أكثر الموضوعات والأغراض شيوعا في الشعر العربي القديم ، نتيجة لوضعهم القبلي الاجتماعي ، وما يترتب على ذلك مساهو معروف في علم الاجتماع ، من تأثر الفرد بالقبيلة ، وترابط أفرادهـــا وطغيان شخصية القبيلة من حيث هي على شخصية الأفراد في جملتهم •

ولكن الصعاليك شذوا في جملنهم ، حيث كان الواحد منهم يعتبر نفسه قوة مستقلة ، وكيانا مستقلا ، ولذلك انفردوا بأن الواحد منهم كثيرا مايتصدى لقبيلة أو حي بأكمله ، ويهدده ويتوعده بعفرده ، وكأنه قوة معاثلة لقسوة تبيلة أو حي ، كما فعل الشنفرى مع بنى سلامان وكما فعل تأبط شرا مع بنى لحيان من هذيل ، ولكن بعض الصعاليك كانوا من العمد التى تقسوم عليها قوة قبيلتهم ، كجعدر بن ضبيعة البكرى ، ومالك بن حريم الهمدانى ، وعروة بن الورد العبسى ، وقيس بن منقذ السلولى قبل خلعه ، وهذا النوع من الصعاليك شارك قبيلته في كل ظروفها ، من حيث صراعها مع القبائل من الصعاليك شارك قبيلته في كل ظروفها ، من حيث صراعها مع القبائل والارتباط بعصير القبيلة وظروفها احساس الفرد بأنه مستمد لجانب من قوته من قوة القبيلة نفسها ، وهذا هو المصدر الإساسي للفخر بالقبيلة والاعتزاز

⁽۱) ديوانه ۱۰۰ ٠

بها ، وهذا المعنى نجده في شعر افراد من الصعاليك ، منهم مالك بن حريم(١) وأبو الطمحان القيني (٢) وعروة بن الورد (٣) وقيس بن منقذ (٤) .

وهناك صورة من صور هذا المجال ، تتمثل في المنافرات الشميرية التي كانت بين بعض الصعاليك وأفراد من القبائل أو الاحياء الاخرى ، ومصدر هذه الخصومات في معظم الأحيان خصومة القبيلتين أو الحين يمثلها شاعر من احدى القوتين في منافرات مع شاعر من القوة الاخرى ، ولم يكن همذا الجانب واضحا في شعر الصعاليك ، باستثناء منافرات صغر الغي مع ابي المثلم الهذلي (٥) ومنافرات قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدواني (١) ، ولكن الذي نلاحظه على المنافرات التي اشترك فيها الصعاليك أنها كانت منافرات كريمة ، لم يشبها قط هجاء مقذع ، أو سباب قبيح ، بل لم تشبها روح الحقد والغل ، وانما كان طابعها كرم الخصومة وتقدير الخصم ، وأوضح ما يكون ذلك في منافرات صخر الغي مع أبي المثلم فانها تموذج للخصمومة السامية الكريمة التي لا يتحامل الخصم فيها على خصمه ، ولا ينكر عليه فضائله ، بل كثيرا ما يعترف لحصمه بغضائل لم يزعمها لنفسه (٧) ، وكذلك مفاخرة قيس بن منقذ مع ابن الأحب العدواني اثر حروب كانت بين قوميهما ، فان أقسى ما بلغه قيس من ابن الأحب قول قيس :

غداة توليتم وأدبس جمعكم وابنا بأسراكم كانا ضراغم (٨)

والذى نريد أن نلقت النظر اليه أنه كان بعضهم قد تحدث كثيرا فى مجال الاعتزاز بالقبيلة ، الا أن هذا الاعتزاز لم يطغ على شخصياتهم كما طغى فى شعر كثير من غير الصعاليك ، وانما نحس أن شخصية الصعلوك هى البارزة ، وهى التى يجعلها الصعلوك محورا لكل شىء ، وكأن قوة قبيلته أوحيه سلاح من أسلحة قوته هو كسائر الاسلحة التى يدعم بها صراعه وقوته .

٣ _ اللح :

لم يكن الشعرى الجاهلية الأولى كما هو معروف وسيلة للكسب ، شم عرف الشعراء طريقهم الى الكسب بالشعر على يد نفر منهم في مقدمتهم النابغة

⁽١) أنظر الإصمعيات ٥٦ - ٦٣ -

۲۱ ° ۳۰/۱ الكامل للمبرد ۱/ ۳۰ ° ۲۱ ٠

⁽٣) أنظر ديوانه ٩٧٠

⁽٤) أنظر أغالى الاصغهالي ١٤٤/١٤ - ١٦١ ٠

⁽٥) أنظر ديوان الهادليين ٢/٣٢/٢ - ٢٤٠٠

⁽٦) انظر آغانی الاصلهائی ۱۲۱ / ۱۲۱ ۱

⁽٧) أنظر للمثال ديوان الهذليين ٢٠٠/٢ من شعر أبي المثلم و يا صغر أن كنت ذابز تجمع ٠٠ » ردا على شعر صغر ٢٢٨/٢ « ماذا تريد باقوال أبلقها » ٠٠

⁽٨) مهذب الأغاني ١٠٤/١ •

الذبياني، ثم الأعشى وبعض من عاصرهما ، وما جاء الاسلام حتى كان التكسب بالشعر قد وضع ، وأصبح مشهورا غير خفى ، ومعروفا غير منكر عليه ، فمنذ بدء الاسلام كانت رحلة الأعشى الى النبى صلى الله عليه وسلم متكسبا بقصيدته التي يقول فيها عن ناقته ورحلته الى النبى :

فآلیت لا ارثی لها من کسلالة ولا من حفی حتی تلاقی محمسدا متی ما تناخی عند باب ابن هاشم تراحی وتلقی من فواضله ندی

فانه وان كانت رحلته لم تتم بسبب منع قريش اياه ، الا آنيه كان معروفا أنه متكسب بقصيدته ، وأن النبى كان سيمنحه عطاء سمحا كعهد الناس بسماحته دائما ، وكما أعطى شعراء آخرين وحين جاءت خلافة عمسر كان الأمر أكثر شهرة وأوضع عرفا ، حتى ان عمر يقول مقرا للشعراء على تكسبهم بالشعر ، نعم ما تعلمته العرب ، أبيات من الشعر يقدمها المرء بين يدى حاجته » .

واذن فقد كان التكسب بالشعر سبيلا غير خفية ولا منكرا عليها ، سواء في الجاهلية والاسلام ، بل كثيرا ما رفع التكسب بالشعر بعض الشعراء في مكانتهم ومعيشتهم الى مستوى السادة والأمراء ، كما كان النابغة في ايامه مع آل المنذر ، وكما كان شعراء كثيرون في الاسلام ، وقد يسأل سلسائل هنا : فلماذا لم يرح شعراء الصعاليك أنفسهم من هذا العذاب الأليم الذي عانوه في الصعلكة ليتكسبوا بشعرهم ، خاصة وأن التكسب بالشعر لم تكن فيه غضاضة على شاعر ؟

والجواب أنها عزة النفس ، والحرص على حريتها في غير حدود لهــــذه الحرية ، هذه العزة وهذه الحرية التي لا تحد ، هي التي منعتهـــم من التكسب بالشعر ، وحيث ان لكل قاعدة شذوذا ، فان قلة قليلة جدا من الصعاليك ، تكاد تنحصر في بكر بن النطاح ، وأبي الطمحان القيني ، همـــا اللذان اتخذا شعرهما وسيلة للكسب في فترات من حياتهما ، وأما من عداهما من شــعراء الصعاليك ، فقد أبي أن يبيع حريته وعزة نفسه لسيد أو أمير لقاء أي شيء ، وأصروا على التزام هذا المبدأ أشد الاصرار ، مفضلين مخاطر الصعلكة وشقاءها على التفريط في شيء من هذه العزة ، وقد صور الشنفري وأبو خراش هــذا الاصرار تصويرا واضحا ، حيث يقول الشنفري :

وأستف ترب الأرض كي لايري له على من الطول امرؤ متطول (١)

⁽١) من اللامية والطول المن •

بل يوضح اشارته الى التعقف عن أى أسلوب كأسلوب التكسب بالشعر أو غيره فيقول:

ولولا اجتناب الدام لم يلف مشرب يعاش به ألا لدى وماكل (١)

وأبو خراش يعبر عن هذا كله بقوله :

وانى لأثوى الجوع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى واغتبق المساء القررح فانتهى اذا الزاد أسى للمزلج ذا طعم مغافة أن أحيا برغم وذلـة وللموت خير من حياة على رغم (٢)

ويعبر بكر بن النطاح عن شعار الصعاليك في هذا المعنى قبل أن يتخصل هو عن هذا الشعار فبقول:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناسيسال (٣)

نقد كانوا اذن يعرفون ان هناك وسائل سهلة وادعة للكسب منهـــا التكسب بالشعر ، وكانوا يعرفون انه يمكنهم أن يعيشــوا من ورائها في لين ورغد ، ولكنهم فضلوا على هذا الرغد أن « يستفوا الترب » وأن « يثووا لجوع » الى أبعد مداه ، لا لشيء الا د مخافة أن أحيا برغم وذلة » كما يقول أبو خراش ، أو أن يرى أحد له عليهم « طولا » كما يقول الشنفرى •

وقد يثور سؤال آخر وهو: كان التكسب بالشعر يتمثل في المدح ، فهل معنى ذلك أن شعر الصعاليك خلا من المدح ؟ والجواب أنه ورد لنا في شعر الصعاليك مدح وان لم يكن كثيرا ، ولكننا باستثناء الشذوذ كبكر بن النطاح الذي انقطع فترة من حياته الى مدح نفر من السادة والأمراء كخربان بن عيسى وأبي دلف متكسب بذلك (٤) باستثناء هسذا الشذوذ نلاحظ أن لمدحهم على قلته طابعا خاصا يتميز به ، وهذا الطابع يتضح في ناحيتين ، احداهما أنهم في أغلب الأحيان لا يقصدون المدح لذاته ، وانما يكون مدحهم مرتبط بحياتهم في الصعلكة ، أو شكرا على موقف نبيل كان فيه نفع لهم أو لم يكن ،

والناحية الأخرى أن مدحهم باستثناء الشذوذ أيضا الذى يكاد ينحصر في بكر بن النطاح وأبى الطمحان القينى ، من أعف أساليب المدح وأبعده عن التمجيد والمبالغة ، حيث يكتفى بسرد بعض الفضائل فى بساطة وحرص على المقيقة ، ومجافاة للغلو والتصوير والافراط اللائى يشعن فى مدائح غيرهم

⁽١) من اللامية أيضا والذام الذم •

 ⁽٢) ديوان الهدلين ٢/١٢٧ ، ١٢٨ وأثوى يعنى أحبس والجرم الجسم والمزلج المخيل
 أو القمية والرغم الهوان والذل •

۸٤/۸ ، الأغاثى ٨٤/٨ .

⁽٤) أنظر أمال القالى ١/٢٣٦ وكامل المبرد ١/٨٧ ومهذب الأغاني ٨٤٨٠٠

من الشعراء ، بل فلاحظ أن كثيرا من مدحهم لا يبرز في الممدوح الا الصفات التي عرف بها الصعاليك او اختصوا بها ·

ومن هذا النوع الاخير مدح تأبط شرا لقريب له ، يصفه بالصبر ، والتنفل بين المخاطر والمهالك ، وسرعه العدو ، والحذر واليقظة ، والجرأة والاقدام ، ويصفه بايثار الوحشة والعزلة على الأنس ، وبهذا يكون قد جمع فيه أهم ما يميز الصعاليك في صفاتهم فيقول :

انی لهد من تنائی فقاصسد اهز به فی ندوة الحی عطفه قلیل التشکی للمهم یصیبه یظل بموماة ویمسی بغیرهسا ویسبق وفد الریح من حیث ینتحی اذا حاص عینیه کری النوم لم یزل ویجعل عینیه دیئة قلبه اذا هزه فی عظم قرن تهسللت یری الوحشة الانساویهتدی

به لابن عم الصدق شمسبن مالك كما هز عطفى بالهجان الاوادك(١) كنير الهوى شتى النوى والمسالك جحيشا ويعرورى ظهور المهالك (٢) بمنخرق من شده المتدادك (٣) له كالىء من قلب شيحان فاتك (٤) الى سلة من حد اخلق صائك (٥) نواجد افواه النايا الضواحك بحيث اهتدت ام النجومالشوابك (٢)

وآبو خراش له شعر فی المدح ، ولكننا نجد مدحه اما لشخص يعتبره عضدا له فی الصعلكة وعونا علی أعدائه كخالد بن زهیر ، أو ذامنة ومكرمة ، كالشخص الذی انقذ ابنه خراشا من القتل حین كان خراش مع عمه عسروة فی رحلة صعلكة ، فقتل عروة ، و نجا خراش بفضل شخص القی علیه رداءه فحجبه عن القوم حتی عدا و نجا بنفسه ، فمدح أبو خراش هدا الرجل دون أن يعرف (۷) وقيل فی هذا أنه لا يعرف شاعر مدح من لا يعرف قبل أبی خراش (۸) وفضالة بن شريك يمدح يزيد بن معاوية ، ولكن لا متكسبا ولا متوددا ، وانها شاكرا له حمايته من أمير المدينة الذی طارد فضلله له جائه عاصم بن عمر (۹) ، وقيس بن منقذ بمدح أسد بن كرز شاكرا له انه تحمل عنه ما جناء ، ويمدح عدى بن عمر حين آواه بعد أن خلعه قومه وتبرأوا منه ، ويسدح عدى بن عمر حين آواه بعد أن خلعه قومه

⁽١) حماسة أبى تمام ٢٢/١ ، ٢٣ والهجان الابل الكريمة والأوارك واعية شعر الأراك ،

⁽٢) الموماة المفازة لا ماء فيها والجحيش المنفرد ويعروري يركب ٠

⁽٣) وقد الربح أولها وينتحى يقصد والمنخرق السريع والمتدارك المتلاحق .

⁽٤) حاص خاط والكرى النوم الخفيف والكالى الحافظ والشبيحان القاتك الحازم •

⁽a) الربيئة بمعنى الرقيب والسلة المرة من سل السيف والأخلق الأملس والمسائك القاطع ·

⁽٦) أم النجوم يعنى الشمس أو المجرة يريد أنه يستأنس بالرحدة ولا يضل في سراه بالليل.

⁽٧) انظر ديوان الهدليين ٢/١٥٧ وحماسة ابي تمام ١/٢٣٦٠

⁽A) انظر شرح حماسة أبى تمام عن التبريزي ١/٣٢٦ عن الأصمعي وأبي عبيدة ·

⁽٩) انظر مهذب الأغاني ٢/٠/٢ .

⁽١٠) انظر أغاني الأصفهائي ١٤٤/١٤ - ١٦١ •

وكذلك مدح قليل من مالك بن الريب لسعيد الوالى على اجرائه عليه رزقا (١) ولكنه كما تفيد القصة والشعر لا يعتبر تكسيا •

٤ - الهجاء

ولئن كان مدح الصعاليك لغيرهم لم يجر على عزة نفوسهم ، ولم ينزل الى لطابعهم الذاتي في صفاتهم الشخصية ، والاجتماعي في خلقهم العام ، على أن بعضهم تعفف عن الهجاء قاطبة كعيدة بن الطبيب الذي ترفع عن الهجاء (٢) وحين تنظر الى هجاء الصعاليك لغيرهم نجد أول ما يبادهنا منه عفة بالغـــة. في هجائه لأحد مهما يبلغ بينهما من عداء ، ثم نرى بعد ذلك أنهم يعف ون عن أن يجعلوا سبب هجائهم لأحد سببا من الأسباب الشائعة لدى الشعراء . كحرمان من عطاء ، أو نكوص عن قرى وضيافة ، لأنهم لا يطلبون عطاء ، ولا . يلتمسون قرى وضيافة ، باستثناء الشذوذ في هذا المعنى كهجياء فضالة بن شريك لعاصم بن عمر لعدم استضافة عاصم آياه (٣) ، وأنما يغلب على هجا ثهم أن هجوا أن يكون سببه العداوة (٤) ، أو موقف خصومة أو ايذاء صدر من المهجو ، بل أحيانا يكون سببا انسانيا نبيلا لا نعلم أن أحدا تأثر بـــ من الشعراء غير الصعاليك ، كقصة أبي خراش مع غاسل السبعدى الذي قتسل جارا له ، مم أن غاسلا كان من قبيلته ، ولكن أبا خراش لامه بشعره لومسا عنيفا على هذه الفعلة التي يأباها الخلق الكريم ، وتنكرها تقاليد العروبية ، وكان القتيل غلاما تميميا من بني حنظل ، ومن لوم أبي خراش لغاســل على قتله ٠

ابات على مقراك ثم قتلته على غير ذنب ذاك جد بك الثكل فهل هو الا توبه وسيلاحه وما بكم عرى اليه ولا عسزل (٥)

وقد تهاجى صخر الغي مع أبي المثلم في منافراتهما ، ولكنا نجــــده هجاء بالغ العفة ، حتى ليحسبه الحاسب عتابا بين صديقين ، على ما بين صخر

⁽١) أنظر مهذب الأغاني ٥/١٠ •

⁽٢) أنظر شرح حماسة أبي تمام عن التبريزي ١٠٨/١ "

⁽٣) المصدر السابق ٢/٠/٢ •

⁽٤) أنظر دوان الهدليين ٢٢٣/٢ ـ ٢٤٠ بين صخر التي وأبي المثلم .

⁽٥) انظر ديوان الهذائين ٢/١٢٤ - ١٦٦ والمقرى القصمة يقرى فيها الفسيف وجد بك التكل دعاء على القاتل ومعنى الشعل الأخبر استم عربا ولا عزلا من السلاح حتى تقتلوه من أجل ثوبه وسلاحه •

وابى المثلم من عداء (١) والأعلم الهذلى وان كان أيضا قليل الهجاء ، الا أن هجاءه على قلته يمتاز دائما بطابع معين ، وهو كونه صدى لحياته فى الصعلكة ،وهو ما لم يؤلف فى الهجاء ، فأحيانا يشبه مهجوه ببعض مرئياته فى حياة الصعلكة فيشبهه بالضبع فى عدم عفة نفسها وتخنثها (٢) وأحيانا يصفه بقصـــور الهمة عن مراتب السيادة ، ثم يبين له مراتب السيادة فاذا بعضهـا من صفات الصعاليك (٣) .

ولعل آكثر من بلغنا في شعرهم هجاء فضالة بن شريك ، وهو وان كان هجاؤه يعتبر من الشذوذ في شعر الصعاليك ، حيث انه هجا لمنع العطاء وكف القرى عنه ، الا أن هجاءه يتسم مع نيله من المهجو بعدم الفحش والاقذاع فقد هجا عاصم بن عمر لأنه لم يقره فكان مما قاله :

الا أيها الباغي القرى لست واجدا قواك اذا ما بت فى دار عاصم ثم تذكر أباه عمر فخفف من غلواء هجائه قائلا:

ولولا يد الفاروق قلدت عاصما مطوقه يخزى بها في المواسم (٤)

وكذلك هجا عبد الله بن الزبير لتجاهل ابن الزبير عطاءه (٥) ، حين قدم على ابن الزبير قائلا: ان ناقتى تعبت ودبرت ، فقال له ابن الزبير: ارقعها واخصفها ، قال فضالة: انما جئتك مستحملا لا مستشيرا ، فلعن الله ناقصحملتنى اليك ، قال ابن الزبير: ان وراكبها (٦) ، ثم قال فضالة من هجائه:

شكوت اليه أن تعبت قسلومى فرد جواب مشدود الصسفاد يضن بناقة ويسروم ملكا محال ذلكم غير السداد (٧)

ويبدو أن فضالة كان نزاعا الى الهجاء مع عفة الفاظه ، فقد قلنا أنه يعتبر شاذا بين الصماليك فى هجائه من ناحيتين ، احداهما أنه أكثر من بلغنا هجاء في شعره منهم ، والأخرى أنه الوحيد من بينهم الذى بلغنا أنه هجا لعدم القسرى والعطاء ، وكان مظهر مقدرته فى الهجاء أنتا نجد لهجائه وقعا بليغا عميقا يهز كيان المهجو مع عدم الفحش فى الهجاء ، والمتأمل فى هجائه يجد أنه بارع براعة

١٤٠ .. ١٢٣/ بين ١٤٠ ..

⁽٢) انظر الصدر السابق ٢/٨٦ ، ٨٧ ·

⁽٣) انظر البيان والتبين للجاحد ١/٥٧٥ ببتان أولهما (وان سيادة الأقوام) والذي سده

⁽٤) انظر مهذب الأغاني ٢/ ٢١٠

⁽٥) قيل أن ابن فضالة هو صاحب النصة المذكورة وليس فضالة مفسه ·

⁽٦) انظر مهذب الأغاني ٢١٠/٢ وان بسنى نعم وواكبها أي لعنها الله ولعن واكبها .

⁽٧) المسدر السابق ومشدود الصفاد كتابة عن البخل من قوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك .

بينة في اصابة المواضع القاتلة من مهجوه ، ففي هجائه السابق لعاصم بن عمر بن الخطاب ، يصيب نقطة خطيرة من عاصم تكفى لهدم مركزه في مجتمعه ، فمن أهم مفاخر قريش في العرب منذ القديم الانتماء الى قريش نفسها ، ولكن فضالة يريد أن يستل عاصما من مجد قريش فيقول في أسلوب البساطة :

فتى من قريش لا يجسود بنائل ويحسب أن البغل ضربة لازم

وفى قوله « فتى من قريش لا يجود بنائل ، شى، من التعجب الخفى ، وكذلك مع ابن الزبير ، كان أهم ما يطمح اليه ابن الزبير ويقال من أجله بلوغه الحلافة ، ولكن فضالة يضع بينه وبين الخلافة عقبة صلبة ، ويتعمل أن يحاربه فى أهم آماله حيث يقول : « يضن بناقة ويروم ملكا ؟ ، ولو كان ابن الزبير يدرك ما لهذه العبارة من أثر فى الدعاية ضده لملأ له الوادى نوقا وكذلك فعل فضالة بن شريك مع ابن مطيع الوالى الذى كان يدعو لعبد الله الزبير بالكوفة مبايعا له ، ثم استحوذ على الأمر المختار بن عبيد (١) فقال فضالة يهجو عبد الله بن مطيع هجاء بالغا ، مع أنه لم يكد يهجو منه غير فضالة يهجو عبد الله بن مطيع هجاء بالغا ، مع أنه لم يكد يهجو منه غير كفه ، ولم يهج كفه ببخل أو شىء ، غير شكلها وملمسها ، فيقول (٢) .

الى بيعة قلبى بها غير عارف بكفى لم تشبه أكف الخـالائف فرورا اذا ما كان يوم التسايف وليستعن البيض السباط اللطائف (٣)

دعا ابن مطيع للبياع فجئته فقرب لى خشناء لما لستها معودة حمل الهراوى لقومها من الشثنات الكزم أنكرت لمسها

ه ـ الرئاء:

وأما رئاء الصعاليك لغيرهم فقد كان أضيق نطاقا ، حيث لا نجد فى شعرهم رئاء الا لدى نفر معدود منهم ، ويتسم رئاؤهم بالطابع الشخصى • بمعنى أنه لا يبدو أن الرثاء غرض مقصود لذاته لديهم ، وانما كان تنفيسا عن عواطف حقيقية أحسوا بها ، وذلك لأنا نجد الذين رئاهم الصعاليك ذوى صلملكة ، شخصية وثيقة بهم ، كان يكون المرثى ابنا أو أخا أو زميللا فى الصعلكة ، أو معينا فى وجه من وجوه حياتهم •

فمثلا نجد أبا خراش ورد في شعره رثاء كثير ، ولكنه جميعا لأشـــخاص تنطبق عليهم الصلات السابقة ، فقد رثى أخاه عروة الذي كان فضلا عن اخوته

⁽١) انظر مامش البيال والتبيين ٣/١٥ وانظر مهذب الأغاني- ٢١٣/٢ •

⁽٣) انظر مهذب الأغاني ٢١٢/٢ وفي البيان والتبيين للجاحظ ١٥/٣ خلاف في الترتيب وبعض الألفاط ٠

زميلا في الصعلكة (١) ورثا نفرا من اخوت الأسبقاء بني لبنس (٢) ورثى زهير بن العجوة الذي قتله المسلمون في عزوة حنين (٣) ورثى دبية السلمي سادن العزى الذي قتله خالد بن الوليد (٤) ويبدو من حديثه أنه كان صديقا له ، ورثى زهيرا أخاه حين قتله بنو لحيان (٥) ، ورثى خالد بن زهير صديقه وزميله (٦) .

وصخر ألغى رثى أخاه عبد الله (٧) ، وكذلك يرثى ابنه (٨) ، وله تصيدة أخرى في رثاء ابنه فيها حزن عميق ، حيث يشبه صخر نفسه بحال حمامة مفجوعة في مخاطبة مع هذه الحمامة ، هو يشكو اليها فجيعة فقد ابنه تليد ، وهي تشكو اليه فقد فرخها الذي سماه « ساق حر ، ومن هذا الشميم يقول :

وما أن صوت نائحة بليال بسبل لا تنام مع الهجود تجهنا غاديين فساءلتنى بواحدها وأسال عن تليدى فقلت لها فأما ساق حير فبان مع الأوائل من ثميود وقالت لن ترى أبدا تليدا بعينك آخر العمو الجديد كلانا رد صاحبيه بياس وتانيب ووجيدان بعيد (٩)

ومن أشهر رثاء الصعاليك ، رثاء عبدة بن الطبيب لقيس بن عاصيم المنقرى ، الذى نافسه فيه بعض الشعراء فلم يلحقوه (١٠) ، وهو

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء ان يترحما تحية من غادرته غرض الردى اذا زار عن شحط بلادك سلما فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما (١١)

وقد أشار الى صلته به ، وسبب رثائه بقوله « من غادرته غرض الردى» يعنى نفسه ٠

⁽١) انظر ديوان الهدلين ٢/٣٦٠ - ١٣٨٠

⁽٢) المصدر السابق ١٢٣/٢ ٠

۲) المخدد السابق ۲/۱٤۸ - ۱۵۰ ، ۲/۷۵۱ .

الصدر السابق ۲/۱۰۰ م ۱۰۱ - ۱۵۱

⁽٥) انظر معجم ما استعجم للبكرى ٢/ ٥٣٠ ٠

۱۵٤ - ۱۵۱/۲ الظر ديوان الهذلين ۱۵۱/۲ - ۱۵٤ .

⁽٧) المعدر السابق ٢/١٥ ، ٥٢ •

⁽٨) المندر السابق ۲/۲٪ ٠

۹) ديران الهذلين ۲/۷۲ ٠

⁽١٠) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١٢٢/١

⁽١١) حماسة أبي تمام ١/٣٢٨ والشحط البعد -

٦ ـ الغيزل :

ومهما تكن عزلة الصعاليك ، ونايهم عن المجتمع ، وايثارهم للعزلة ، فهم بشر ، فيهم ما في الناس من عواطف وغرائز ، ولذلك لم يكن غريباً أن يكون في شعرهم غزل ، بل الغريب ألا يكون

وليس يعنينا كثيرا غزلهم لذاته ، وانما يعنينا طابعهم في الغزل ، ومنهجهم في حديثهم عنه و وأول ما يطالعنا من طابع الصعاليك في الغزل العفة في اكرم صورها ، سواء في حديثهم عن عواطفهم وأشواقهم ، أو عن صلفات حبيباتهم وخلقهن ، وستأتي لهذا الحديث بسطة ، ثم أمر آخر يبدو واضحا في غزل الصعاليك ، وهو الواقعية الحقيقية ، والصدق في تصوير صلاته العاطفية ، مما يتبن منه أنهم يتحدثون عن حقائق عاشوها وتأثروا بها ، خاصة وأن بعضهم كان من مشهوري العشاق في العرب ، كتوبة بن الحسيد ضاحب الحب المشهور مع ليلي الأخيلية (۱) وعمرو بن عجلان الذي ضرب به المثل في الحب (۲) ، فليس في غزلهم شطحات الحيال ، ولا أوهام الأماني الكاذبة ، وهناك أمر آخر يتميز به غزل الصعاليك ، وهو شيوع الغزل بالزوجات (۲) وهو ما لم يؤلف في غزل الشعراء ، حتى أن النقاد عدوا رثاء جرير لزوجه الذي يقول فيه :

لولا الحيساء لها جنى اسستعباد ولزرت قبرك والحبيب يزاد

عدوه غريبا في الشعر العربي ، وبين الرثاء والغزل رابطة ، كما ان بين الرثاء والمدح رابطة أيضا ، ومعنى ذلك ان الغزل بالزوجات غسير مالوف ولا شائع في الأدب العربي ، وهو حقيقة ، ولكن الصعاليك يشيع في غزلهم الغزل بالزوجات بل لا تقل حرارة عواطفهم في آكثر الأحيان حين يتحدثون عن أزواجهم عنها حينما يتحدثون عن حبيباتهم ، ويمكن تعليل ذلك نظريا بكثرة اسفار الصعاليك وتنقلهم بين أماكن متباعدة تضطرهم الى الاغتراب والبعد المتواصل ، فيجدون في هذا البعد من الحنين الى أزواجهم ما يجده العاشق المحروم من حنين الى من يعشق ، ومن المعروف ان المرمان روح المب وانه كلما فقد الحب شيئا من الحرمان فقد جانبا من حدته ، وفي أسفار الصعاليك وبعدهم عن أزواجهم ما يحقق كثيرا من هذا الحرمان .

وثمة أمر رابع يبدو في غزل الصعاليك ، وهو ابتكار معان كثيرة لا نعلم انهم سبقوا اليها وتعتقد أن الصدق والتجربة الحقيقية كانت أهم الدوافع في ابتكار هذه المعانى •

⁽١١) انظر الشمراء لاين فتيبة ١٠٢ م الخانجي وحماسة أبني السام ١٠٨/٢

۲۱٦/۲ الطر المالي العالي ٢/٢١٢ ٠

⁽٣) انظر مثلا الأصمعيات ٥٧ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م غالجي

وحين نسوق بعض الأمثلة للميزات السابقة ، نقول : من أمثلة السبهة الأولى في غزلهم وهي العفة ، قول الشنفري يصف امراة :

اذا ذكسرت ولا بدأت تقلت (١) اذا ما مشت ولا بدات تلفت خارتها اذا الهـــدية قلت (٢) اذا ما بيوت باللمية حلت (٣) عسلى أمها ، وان تكلمك تبلت (٤) مآب السعيد لم يسل اين ظلت (١٦)

فيا جسادتي وأنت غير مليمة لقد أعجيتني لا سقوطا قناعها تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها تعل بمنجاة من اللوم بيتها كان لَها في الأرض نسبيا تقصه اميمة لا يغزى نثاها حليلها اذا ذكر النسوان عنت وجلت (٥) انا هو أمسى آب قـــرة عينه

وأما عن السمة الثانية وهي الواقعية ، ونقول أن واقعية غزل السعاليك ليس معناها انها في طايع أو معان واقعية ، وانما معناها انهم عانوا ما تحدثوا عنه من غزل حقيقة ، ومعانيهم في واقعيتها وقربها من الحقيقة تزيد ذلك يل هناك معان تبدو متسمة بالخيال المبعد كقول جحدر بن معاوية :

اليس الليل يجمع ام عمسرو وايانا فذاك تداني نعم وترى الهلال كما أراه ويعلوها النهار كما علاني (٧)

فمثل هذا المعنى يبدو لذاته مسرفا في التخيل ، مبعدا عن الواقع ، من حيث أنه يقنع بأن الليل يجمعها ، وأنهما يريان الهلال مما ويعلوهما النهـــار معا ، وإنه يعد ذلك تدانيا بينهما ، ولكنا حين نلم بظروف الشاعر نعلم انه لا خيال ولا تكلف ، فأن جحدرا قال هذه القصيدة وهو مودع في سبجن المجاج يترقب قتله جزاء جنايات جناها فليس في مستطاعه حين قال ذلك ، بل وليس في أمله من لقاء بينهما الا في هذه المشاركة الطبيعية ، والعزاء النفسي كذلك من الواقعية البينة الصدق لهجة قيس بن الحدادية في غزله بنعم بنت ذؤيب على كثرة غرله بها ، ومن أمثلة ذلك عي عزله بها أنه لم يجنح الى الحيال أو المثالية الانسانية التي يعزى اليائسون بها أحيانا أنفسهم ، وأنما كان واقعيا فن أمله فيها ، وواقعيا في خوفه من أن يبعد البعد قلبها عنه ليدنيه من شخص آخر ، وكان واقعيا في ثورته على هذه الصورة ، معرضا بالدعاء

⁽١) المفضيات ١٠٨ ، ١٠٩ ومليمة أي غير ملومة ولا بدأت تقلت أي لا يقال فيها ألها ذات تقلت وتقلت من القل ومو البنش ،

⁽٢) الغبوق شراب الليل يعنى تؤثر جارتها بشرابها .

⁽۱۲) روی البیت باختلاف نی اللاطه .

⁽٤) النسى المنسى والأم يفتح الهمؤة القميد وثيلت توجز -

⁽٥) النثاميرة الغالب وحليلها زوجها

^{. (}٦) أب رجع وقرة عينه يمنى قرير العين والجملة الأخيرة يعنى ملازمة بينها .

۱۵ المال العال ۱/۸۷۲ .

عليها وعلى من تختاره ، بالا يذوقا لذة عيش ، ولا يحرما من فجيعة ، جسزاء نكرانها وتحولها عنه ، فيقول من ذلك :

فان كانت ا لايام يا ام مالك تسليكم عنى وترضى الاعاديا فلا يامنن بعدى امرؤ فجع لذة من العيش أو فجع الخطوب العوافيادا)

ويقول عن صلتها به ، ومبلغ عنتها في هذه الصلة :

قد اقتربت لو ان فی قسرب دارها نوالا ولکن کل من ضن مانع وقد جاورتنا فی شهور کثیرة فما نولت والله را، وسسسامع (۳)

واما غرلهم بالزوجات نقد شاع في شعر نفر منهم ، على دأسهم عروة ابن الورد ، ومالك بن حريم ، وعبدة بن الطبيب (٣) •

وأما المعانى التى لا نعلم ان أحدا سبقهم اليها ، والتى كانت موردا للشعراء من بعدهم ، والتى نعتقد ان المعاناة الحقيقية ، والصدق ، هو الذى هيا لهم هذا السبق بها ، بالاضافة طبعا الى قوة شاعرية السابقين منهم بهذه المسانى .

ومن هذه الماني قول الشنفري في الوصف بالعقة والحياء:

كان لها في الأرض نسيا تقصه على أمها ، وان تكلمك تبلت (٤)

واذا كان قول النابغة الذبياني في وصف المتجردة زوج النعمان :

نظرت اليك بعاجة لم تقفيها نظر السقيم الى وجوه العود

ادل على جمال العينين وآكثر ايحاء بالانوثة ، فان وصف الشنفرى أدل على العفة والحياء بالاضافة الى ايحاءات أخرى يوحيها بيت شعره ، على أن بيت الشنفرى آكثر ملاءمة لحلقه ، وأدل على ما يريد التعبير عنه ، فأن اتجاهه فى شعره كله فيما يتعلق بالغزل هو العفة البالغة ، سواء من ناحيته هو ، ومن ناحية من ارتضاها حبيبة له ، فى حين يعتبر بيت النابغة غير مستوف لما بقتضيه الحال مما ينزل بدرجته فى ميزان البلاغة التى تعتمد على مراعاة مقنضى الحال ، ومقتضى الحال لشاعر كالنابغة يصف اموأة ملك محسن اليه كالنعمان أن يفضل وصفها بالعفة على ما يوحى بأنه غزل بها ، ولو قال النابغة مثل بيت الشنفرى مكان بيته لكان أبلغ وأنسب لما يقتضيه المقام ،

⁽١) أغانى الأصفهائي ١/٤٥١ •

⁽٢) أنظر مهذب الأغاني ١٠٢/١ .

⁽٣) انظر للمثال ديوان عروة بن الورد ، والمضليات ٣٥ ، ١٣٦ ومصادر مالك بن حريم في ترجمته •

⁽٤) المفسليات ١٠٩ والنسى المنسى وتفصه تنتقى أثره والام بقتع الهمزة القصه وتبلت توجز

ومن هذه المعانى التي تفوق بها الصعاليك ، وكانت موردا للشعراء من بعدهم ، قول بكر بن النطاح الحنفي :

پیضاء تسعب من قیام فرعها وتغیب فیه وهو وحف اسحم (۱) فکانها فیه نهار سـاطع وکانه لیل علیها مظلم (۲)

فالبيتان وخاصة الثاني منهما كان معناهما موردا لشعوراء كثيرين بعــــد بكر بن النطاح ، حتى عصرنا الحاضر ·

ومن هذه المعاني أيضا ما سبق من قول جعدر بن معارية :

الیس اللیل یجمع أم عمرو وایانا فذاك تنــا تـــدانی نعم وتری الهلال كما اراه ویعلوها النهار كما علانی (۳)

ويزيد جحد عمن أخذوا هذا المعنى انه أقربهم الى الحقيقة والاقنساع لأنه قال ذلك وهو يائس في سبجنه •

ومن الحق أن نضيف الى ما سبق من سمات غسزل الصعاليك مسمتين أخريين ، قد تكونان أكثر تمييزا لغزلهما من السمات الأخرى ، لوضوحهمسا دكرنهما حسيتين لا تحتملان التأويل واختلاف الرأى .

واحدى السمتين أننا كثيرا ما نجد غزل الصعاليك يأتى فى حسسو القصيدة (٤) ، لا مطلعا لها كما هو مألوف لدى الشعراء ، وحين نحاول أن نلتمس أوضح تعليل لذلك نقول أنه الصدق فالصعاليك يتحدثون دائما عن واقع حياتهم ، وشعرهم دائما يمثل مشاغلهم ومشاكلهم وما يعانونه في الحياة فحين ينشىء الواحد مثلا قصيدة يغلب أن تكوذ تعبيرا عن شسواغل نفسه وما يعانيه في حياته ، فينحدث عن هذه الشواغل ، وقد يكون من بينها حب يعانيه ، فلا يعنيه أن يكون أول القصيدة أو آخرها ، أنما يعنيه تعبيره عن احساسه به كما يعبر عر احساسه بأى شى من الأغراض التي احتسوتها القصيدة ، أما الشعراء الآخرون ، فهم بالنسبة للقزل بين حالتين ، أما أن تكون مبدوءة بالغزل تكون مبدوءة بالغزل

 ⁽١) أمالى القال ١/ ٢٢5 حماسة أبى عام ٩٤/٢ والفرع يعنى الشمر والوحف الكثير الاسود
 والسحم ثون -

 ⁽۲) على منوالة نسج شعراء كثيرون منهم على محدود طه في قولة ودخلت في ليلين شعرك والدجى ولثمت كالصبح المنور فالح

⁽۱) أمالي القالي ١/٨٧٧ .

^(\$) انظر للمثال ديوان الهذلين ٧٣/٢ وأمالى القال ٢٧٨/١ ومهذب الأغانى ١١/٥ الأول من غزل صغر الني والثانى لبحدر بن معاوية والثالث لمالك بن الريب وانظر الاصمميات ٥٧ لمالك بن حريم ٠

واما أن يكون حدف القصيدة غرضا يستدعى بدءها بالتشويق كالمدح وطلب العطاء فيبدؤها بالغزل .

والسبة الأخرى انه باستثناء الأفراد الذين اشتهروا بحب امرأة معينة كتوبة بن الحمير صاحب ليلى الاخيلية (١) ، وقيس بن الحدادية صاحب نغم بنت ذؤيب (٢) نجد الغزل ليس من الموضوعات الأساسية ، أو الأغراض البارزة في شعر الصعاليك ، حيث نجده في أغلب الأحيان غرضا عاديا يتحدثون عنه كما يتحدثون عن سائر مشاغل حياتهم وآلامها وهمومها ، ولعل هذا من أسباب كون غزلهم يأتى كثيرا حشوا في القصيدة لا مطلعا لها .

الخلق الاجتماعي للصعاليك

ولسنا نريد الحديث عن خلق الصعاليك بصفة عامة ، فان كثيرا مما سبق يمثل خلقهم ، كالصبر والجرأة وقوة الارادة والحزم ، والحذر واليقظة وتحوهن فهذه ولاشك صفات لهم ، وتعتبر خلقا لهم ، ولكنها صفات ذاتية شخصية كان تأثيرها في ميدان صعلكتهم حتى انهم تسلحوا بها لنجاحهم في حياة الصعلكة ، ولم يكن يتسنى لهم أن يكونوا صعاليك بدونها .

ولكننا هنا نريد أن نتحدث قليلا عن الجانب الاجتماعي في خلق الصعاليك والصلات والروابط الاجتماعية كثيرة متشعبة ، ولكننا كهدف البحث كله نقتصر منها على الجوانب التي كان للصعاليك فيها طابع معين ، ومنهج متميز عن غيرهم ، وفي هذا النحو كان للصعاليك ثلاثة جوائب ، لهم في كل منها طابع خاص ، ومسلك معين يمتازون به في جملتهم عن غيرهم ، ويمكن حصر هذه الجوانب فيما ياتي :

١ ـ الصلة الشخصية:

فقد كان كما يبدو من شعرهم لهم اتجاه معين في صللاتهم وصداقاتهم الشخصية من حيث الصنفات التي يرونها الازمة فيمن تروق لهم الصلة به ، ومن حيث سلوكهم هم نحو من تربطهم به صلة شخصية .

⁽۱) أنظر مصادره في ترجيته وللبثال الشمر والشمراء لابن تثيية ١٠٢ م الخالجي وحباسة أبي تمام ١٠٨/٢ ٠

⁽٢) أنظر مصادر ترجبته فيما سبق وللمثال أغاني الأصفهائي ١٥٤/١٤ وما بعدها حث ساق له غزلا كثيرا -

٧ _ الغسسة :

حيث يبدو واضحا من شعرهم ان نفوسهم كانت تتميز بطسايع خلقى. ممتاز بنبله وسموه ، في عفتها عما من شأنه أن يكون حطة خلقية ، أو سعبة اجتماعية وخاصة فيما يتعلق بالأعراض .

٣ _ الاشــتراكية:

وقد كان للصعاليك طابع اشتراكى من حقه أن ينوه به ، حيث لمع هذا الخلق الأصيل فيهم منذ الجاهلية الأولى بين ظلمات ظلم اجتماعى حالك ، وفى مجتمع كان من هذه الزاوية بالذات كالسمك يآكل كبيره صيغيره ، حتى أن الذى يشذ بمظهر فردى من مظاهر التعاون والتعاطف الاجتماعى كان ينظر اليه بعين الاكبار والاعجاب لغرابة سلوكه بالقياس الى الوضع العام فى المجتمع ، ولكن الصعاليك كانوا فى هذا الميدان يمثلون غرة فى مجتمعاتهم ، ولكن هذه الغرة لم يقدر لها اللمعان والبروز لظروف أحاطت بالصعاليك كما سيأتى .

وهذه الجوانب على الحصارها تبرز الاطار العام لوضعهم في المجتمع ، وتشمل أهم النواحي التي تربط فردا أو طائفة بمجتمعه •

١ - السلة الشخصية

يطالعنا في الصلات الشخصية للصعاليك طابع معين يغلب عليهم جميعا هو بعد صلاتهم عن النفاق الاجتماعي ، مما يسميه الناس مداراة او سجاملة او مصانعة ، فهم لا يقرون هذه المصانعات ، ولا يعترفون بالمداراة والمواربة وانما يؤثرون دائما الصراحة الواضحة في صلاتهم ، بحيث نشعر بأنه ليست هناك مرحلة وسط عندهم بين الصداقة والعدارة فاما صداقة خالصة نقية ، وما عداوة صريحة بيئة ، أما ما بينهما من مصانعات ومداورات والتواءات وسائر الأصباع التي تغطى الوجوه غير المحبوبة فلا يعترفون بها ولا بقرونها ويمكن تعليل ذلك بأن اشتراك المصالح والمنافع ، والاحتكاك الدائم بين الناس في صلاتهم بعضهم ببعض ، يضطرهم الى المصانعة والمداراة والتجاهل ، لأنه لا تستقيم حياتهم الاجتماعية الا بذلك ، ولو كشف كل منهم ما في نفسه للآخرين من مطامع وعواطف بأنواعهما وتضاربهما لتحولت حياة الناس الى حرب دائمة لا هوادة فيها ، فهم مضطرون الى تجاهل ما في نفوس الآخرين نحوهم ، وتعطية ما في نفوسهم شحو الآخرين ، حتى تستقيم لهم الحيسساة

آو تكون أدنى إلى الاستقامة ، أما الصماليك فبحكم أشياء كثيرة منها عزلتهم التي تتيح لهم الاستفناء عن حياة الناس بما فيها ، ومنها فقرهم الذي لم يبق لهم شيئا يصانعون الناس من أجله ، ومنها طبيعة نفوسهم المقطورة على القوة التي لا يحتاجون معها إلى منافقة أو مناورة تحميهم من غيرهم ، بحكم أشياء كثيرة منها هذه الأشياء لم تكن بالصماليك حاجة إلى أن يضعوا في صلاتهم مرحلة وسطا بين الالف والرغبة أو الصداقة ، وبين المداوة ، فاما أن يكون المرء بالنسبة اليهم مرغوبا فيه بأى مرتبة من مراتب الرغبة ، واما أن يكون مرغوبا عنه بأى مرتبة من مراتب الرغبة ، واما أن يكون مرغوبها عنه بأى مرتبة من مراتب الرغبة ، واما أن يكون نفوسهم عنه ، ولا يضللونه ، كما أنهم لا يحاولون تضليل أنفسهم ،

هذا شعار عام للصعاليك فى جملتهم ، نحسه من خلال شعرهم ، حيث نراهم ينبذون من لا يجدون لنفوسهم رغبة فيه على النحو الذى أشرنا اليه ، وأما الذين يجدون فى نفوسهم رغبة فيه ، فنشعر من خسلال شعرهم انهم يؤثرون فيه صفات معينه ، معظمها صفاتهم كصعاليك وكأصحاب خلق معين وهم بهذا يسلكون الطريق الطبعى فى الصداقة ، فمن المسروف ان أوثق الصداقات ما قامت على نشابه وتقارب بين الصديقين .

وهذا تأبط شرا يبين لنا مذهبه في الصداقة ، فيقول أن الصداقة الواهية التي لا يرجى منها بذل ولا تضحية في الشدائد ينبذها غير مشتاق اليها • ولا مشفق من نبذها فيقول :

انى اذا ما خلة ضنت بنسائلها وأمس نجوت منها نجائى من بجيسلة اذ القيد ثم _ ولا اقول اذا ما خلة صرمت يا وي

وامسكت بضعيف الوصل احداق(١) القيت ليلة خبث الرهط اوراقي (٢) يا ويح نفسي من شوق واشفاق (٣)

ويبين الصفات التى يلتمسها ليكون صاحبها صديقا محببا اليه ، وهى صفات كثيرة ، ولكن تبرز من بينها صفات للصعاليك وخاصة فى البيت الثالث مما ياتى :

لکنما عولی ان کنت ۱۱ عسول سباق غایات مجد فی عشسیرته عاری الظنابیب ممتد نواشسره

على بصير بكسب الحمد سباق مرجع الصوت هدا بين ارفاق (٤) مدلاج ادهم واهى الماء غساق (٥)

⁽١) المنشليات ٢٨ والخلة الصداقة والوصل يمنى حبل الصدَّاقة والاحدّاق المتقطع •

 ⁽۲) ببيلة قبيلة أسرته ثم نبا منها والخبت اللين من الأرض والرهط موضع وأوراقى
 يمنى بذلت جهدى عدوا •

⁽٣) مسرمت قطعت ٠

⁽٤) مرجع الصوت تأمر وتنهى وهدا رافعا صوته يعنى وليس جماعته أو عصابته *

⁽٥) الطنابيب حروف عظم الساق والنواشر عروق ظاهر اللراع يعنى هزاله مدلاج كثير سقر الليل والادهم الليل و وواهي الماء صفة الليل يعنى شديد المطر و

حمال الوية شــهاد اندية قول محكمة جواب افساق (١)

فمن أهم العسمات التي يطلبها اذن في صديقه أن يكون نحيلا ، كثير الحركة والعمل في الليل جوابا للآفاق ، وكانه يشترط أن يكون صديقه صعلوكا وهو فعلا ما يريد أن يقوله وبعد هذه الأبيات أبيات أخرى تؤكد هذا المعنى ،

والشنفرى يصوغ هذا المعنى فى صورة آخرى ، فهو أن أحس فى الصداقة شكا أو شيئا يشكوه أعرض عنها لاجئا الى قوته ، مبينا انه بين حالين لا ثالث لهما ، فهو حلو لمن طلب حلاوته ومر اذا توجس أو انكو من أحد شيئا ، وليس ينتظر منه بين الحالين حال أخرى فيقول :

الا لا تعدنی ان تشکیت خلتی شفانی باعلی ذی البریقین عدوتی (۲) وانی خلو ان اریدت حلاوتی وهر اذا نفس العزوف استمرت (۳) ابی لا آبی سریع مباءتی الی کل نفس تنتجی فی مسرتی (٤)

ويعبر الشنفرى مرة أخرى عو هذا المعنى في صورة أخرى أيضا فيقول :

وانی کفانی فقد من لیس جازیا بحسنی ولا فی قربیه متعلل الله اصحاب فیواد مسیع وابیض اصلیت وصفراء عیطل (٥)

وسعد بن ناشب يعبر عن هذا أيضا ، فيجعل نفسه في طرفين متباعدين فهو اما حلو كريم ، واما شرس عنيف ، ولكنه حين يعنف فلا حدود لشراسته وعنفه فيقول :

تفندنی فیما تری من شراستی فقلت لها ان الکریم وان حسلا وفی اللین ضعف والشراسسة هیبة وما بی عسل من لان ل من فظاظة

وشدة نفسى أم سعد وما تدرى (٦) ليلفى على حال أمر من الصببر ومن لم يهب يحمل على مركب وعر (٧) ولكنتى فظ أبى على القسير (٨)

ويتحدث مالك بن حريم عن أصدقائه واخوان صفائه ، بأنهم حين رأوا شيبه أعرضوا عنه الى من رأوه أكثر نفعا لهم ، وأجدى عليهم عونا ، وكأنه يؤيد

⁽١) المحكمة الكلمة الفاصلة وجواب آفاق صاحب أصفار وغارات •

 ⁽٢) المفضليات ١١٢ ولا تعدنى تعيير عن السخط والخلة العبداقة وذو البريقين موسع
 والعدوة المرة من العدو »

⁽٣) استمرت أرادت المرارة ٠

⁽٤) المباءة الرجوع تنتحى تقصه ٠

 ⁽٥) من اللامية ومتملل يمنى النفع ومشيع قوى كان له شيمة والإبيض السيف والمسلماء
 اللوس ٠

⁽٦) حياسة ابن تمام ٢٧٠/١ ، ٢٧١ وتفندني تلومني وتجهلني ٠

⁽٧) يمنى من لم تكن له ميبة يستطبط •

⁽A) المطاطة الدلظة والقسر يمنى الطلم ·

مذهب الصعاليك فى صداقاتهم حيث لا يبقون منها ما يتوجسون فيه ريبة وما لا يثقون ثقة كاملة فى صدقه ونقائه ، فيقول عن اخوان صفائه ، بعدد حديثه عن شبيب رأسه :

واقبل اخوان الصفاء فاوضعوا الى كل أحوى في المقامة افرعا (١)

وليس معنى ذلك ان الصعاليك انفردوا بهذا الاتجاه في الصداقة ، وانها نعنى منه اننا قد نجد بعض هذا في شعر غيرهم ، ولكن بصورة فردية ، وغالبا ما بصحبه في شعر غيرهم خلق وسط ، يعسبر عنه بالحسلم ، أو التفاضي أو التسامح او نحو ذلك ، ولكن هذا الاتجاه في شعر الصعاليك ليس فرديا وانها هو عام يغلب على شعرهم في جملته ، دون أن تصحبه مرحلة وسط في صلاتهم العردية ، وحتى ان وردت عبارات توحى بالتوسط ، فاننا نجسدها كالشاذة هنا لا تمثل خلقا ، ولا يدعمها السياق ، كقول الشنفرى ؛

ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أدى ستولا بأعقاب الأقاويل أنمل (٢)

٢ _ العفية

قد يبدو الحديث عن عفتهم متعارضا مع مسلكهم ، حيث يعتمد سلوك الصعاليك على العدوان على أموال الناس ، وحيث يعتمد رزق الصعاليك على سلب ممتلكات غيرهم ، ولكن الواقع ان هذا السلوك مذهب اجتماعي آمنت به نفوسهم ، وارتضوه لحياتهم ، لا يرون فيه غضاضة ولا خزيا ولا شيئا يسيء الى مرؤتهم ، وانها يرون فيه عكس ذلك ، كرامة لهم ، وارتفاعا بانفسهم عن ذل السؤال ، وهوان المن بالاحسان والتفضل عليهم كما رأينا ، وكما عبر عن ذلك بكر بن النطاح بقوله :

ومن يفتقر مشا بعسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسال وكما يقول الأحيير السعدى :

وائى الستحين النفسى ان ارى أجرد حبلا ليس فيه بعير وأما عفة الصماليك في خلقهم الاجتماعي كما يبدو واضما من شعرهم فقد سمت الى درجة من البيل ، لا نظن ان شعرا صور خلقا أو نبلا أسمى منها

⁽۱) الاسمعيات ٧٧ وأوضعوا أسرعوا والأحوى أسود الشعر والمقامة المجلس والافرع التأم المنس ، يعنى تركوه الى مجالس القبياب ٠

⁽٢) من اللامية : سبق تصها مشروحا .

وليس شعرهم وحده هو الذى يصور هـــذه المســالية الرفيعة فى أخلاقهم فأخبارهم أيضا لا تعارض هذا ولا تنفيه ، بل تؤيده وتؤكده ، فهذه زوج عروة ابن الورد ، تصفه قائلة : « انى لا أعلم امرأة ألقت سترا على خير منك ، أغفل عينا ، وأقل فحشا ، وأحمى لحقيقة ، (١) ، ولم تقل ذلك وهى فى كنفه رانما قالته حين هجرته هجرة لا أمل فى رجوعها عنها ، مختارة عليه قومها ، فى قصة نخيرها بين زوجها عروة وقومها (٢) ،

وعفة الصعاليك في ترفعهم عن كل ما يسى، الى المروءة ، وكل ما يخدش الكرامة والخلق النبيل عفة مطلقة ، غير محدودة بنوع أو مجال معين ، ففي كل مجال من مجالات السلوك الاجتماعي يتميزون بهذه العفة والخلق الكريم وقد عرف هذا عنهم حتى ان واحدا منهم شذ عن هذا الخلق ، كان شذوذه بينا متميزا ، وكان موضع غرابة واتكار من رواة الأخبار وكانهم يقولون ان هذا ليس خلق الصحاليك ، وهو أبو الطمحان القيني في بعض أفعال تسى، الى المرأة وعرضها بعد أن أحسنت اليه (٢) .

وأوضح ما تكون عمة الصعاليك فيما يتعلق بالمرأة ، ومن نواحى هذه المفة انفرادهم بالغزل في الزوجة ، مما يوحي بالاتجاء الخلقي المشروع في عواطفهم .

وأما عن الغزل بصفة عامة عند الصعاليك ، فالواقع انه من الهضم لحق الصعاليك أن يوصف غزل قط بأنه أعف من غيزل الصعاليك ، ولئن كان غزل بنى عذرة قد إشتهر بالعفة ، فإن غزل الصعاليك كان أسبق وأعف .

وبينما نجد الشعراء يفرغون معظم جهدهم الشعرى في الهيام بالمرأة مركزين معظم هذا الجهد في تتبع مواضع الانوثة والعفة ، مما يشف عن شهوة جامحة الى تل شيء في المرأة ، بل ان كثيرا من شعرهم يتتبع اعضاء المرأة عضوا عضوا ، وجزء جرءا من أعلاها الى أدناها ، مما تفيض به كتب الأدب والشعر (٤) بينما نجد الشعراء كذلك ، نجد غزل الصعاليك يسمو عن ذلك كله ، فلا يعرض قط لعورة ، ولا يشير قطه الى موضع انوثة أو عفة ، ولا يشف قط عن تهافت أو جموح ، بل على العكس نلمس فيه تعمد الحديث عن العفة مواء في خلق المرأة المتغزل بها ، أو في حلق الشاعر نفسه ، بل نجد شخصا كالسليك يضع لنفسه هذا الشعار الذي ينبيء عن العفة المترفعة باحتقاره لغير النوار وهي المرأة النفور من الربية فيقول :

⁽١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٩ ، ١٦٠ م الخانجي ٠

⁽٢) أنظر المعدر السابق وديوان عروة ٠

⁽٣) انظر الأغانى للأصفيائي ٧/١٣ •

⁽٤) انظر للمثال نهاية الارب للتويري ٢/١٨ ــ ٦٥ عما قاله الشهمراء في تتبع أعضاء المرأة وكذلك ٢/١٣٤ ــ ٢٧٧ عما قالوء في أحوال العشيق ٠

- يعانى وصال ذات البذل قلبى ويتبع المنعة النــوادا (١) ويصف الرأة التي يتحدث عنها بقوله :
- من اخفرات لم تفضع أباها ولم ترفع الخوتها شنارا (٢) ويصف الشنفرى من يتفزل بها بقوله :

فيا جارتى وانت غير مليمسة اذا ذكرت ، ولا بلات تقلت (٣) لقد اعجبتنى لا سقوطا قناعها اذا ما مشت ولا بدات تلفت تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجارتها اذا الهدية قلت (٤) تحل بمنجاة من اللوم بيتهسا اذا ما بيوت باللمة حلت كان لها في الأرض نسيا تقصه على امها ، وان تكلمك تبلت (٥) اميمة لا يخسرى نثاها حليلهسا اذا ذكر النسوان عفت وجلت (٦)

وهذا توبة بن الحمير مع عشقه المشهور لليلى الأخيلية ، هذا العشـــــق الذي يبيح له في عرف العشاق أن يطمع وأن يؤمل ، ولكنه لا يطمع ولا يؤمل وإنما يكتفى منها بما لا يكفى سواه فيقول :

ولو أن ليل الأخيلية سلمت على ودونى جندل ومسلمانع لسلمت تسليم البشاشة أوزقا اليها صدى من جانب القبر صائع واغبط من ليلى بعما لا اناله الاكل ما قرت به العين صالح (٧)

وليلي الأخيلية هذه تعترف لتوبة بعفته وحيائه فتقول عنه بعد موته : فتى كان أحيى من فتاة حيية وأشجع من ليث بخان خادد (٨)

وقيس بن الحدادية مع هيامه الشديد بحبيبته نعم بنت ذؤيب ، يصف عفتها مع مبادلتها ايام الحب في شعر كثير يقول منه :

قد اقتربت لو ان فی قربها نوالا ، ولکن کل من ضن مانع وقد جاورتنا فی شهود کثیرة فما نولت والله داء وسامع کان فؤادی بین شقین من عصلا حداد وقوع البین والبین واقع (۹)

⁽١) مهذب الأغاني ٢/ ١٧٠٠ •

⁽٢) المسدر السابق •

⁽٣) المنضليات ١٠٩ وتقلت من القبل البنش ٠

⁽٤) الغبوق شراب الليل •

⁽٥) الأم القصد وتبلت توجز الكلام •

⁽١) نشاما سيرتها ٠

⁽٧) حماسة أبي تمام ١٠٨/٢ والصفائح الحجارة وزقا صاح ٠

⁽A) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٢ م الخانجي ·

⁽٩) أغانى الأصفهاني ١٥٤/١٤ •

وبكر بن النطاح يصف عفة حبيبته ، وياسه من الطمع فيها ، مع ما تفعله هذه العفة في نفسه من ترديده بين نوازع مختلفة ، ولكنه مع ذلك قانع رأض عفيف فيقول :

فلا كبدى تبلى ولا لك رحمية ولا عنك اقصار ، ولا فيك مطمع فلا تساليني في هواك زيسادة فايسره يجزى وأدناه مقنع (١) ومالك بن حريم يحدثنا عن حبه ، وعفة هذا الحب فيقول :

اهيم بها لم اقض منها لبانة وكنت بها في سالف الدهر موزعا (٢) ويقول أيضا عن عفته عن التطلع الى جارته أو ايذائها في عرضها ويجعل ذلك احدى صفات أربع عدها في نفسه :

وثالثة ألا تقدع جــارتى اذا كان جار القوم فيهم مقدعا (٣) وأبو خراش الهذلي يصف أخاه ورفيق صعلكته زهيرا حين قتل فيقول:

قتلتم فتى لا يغجر الله عامسدا ولا يجتويه جاره عام يمحل (٤) ولئن كانت العفة فى صلة المرأة بارزة فى شعر الصعاليك ، فليست عن الجانب الوحيد فى عفتهم ، ولا هى أبرز الجوانب ، وانما نحس ان العفة خلق أصيل فى الصعاليك تبدو فى كل ما يمكن أن يوصف بالعفة كما يقول مالك ابن حريم :

وأكرم نفسى عن أمود كثيرة حفاظا وانهى شحها ان تطلعا (٥) والشنفرى يتحدث عن نحو ذلك من العفة فيقول :

ولولا اجتنباب الله لم يلف مشرب يعاش به الا لمدى ومساكل (٦) بل يبلغ بالعفة الى مراعاتها حتى في أدب الطعام فيقول :

وان مدت الأيسدى الى الزاد لم اكن باعجلهم اذ اجشع القوم اعجل (٧) ومن صور المغة عند الصعاليك عنة اللسان ، حتى في الشتم وإلهجاء كما يقول مالك بن الريب :

⁽١) مهلب الأغاني ٨٤/٨ ٠

۱٤ الأصمعيات ٨٠٠

⁽٣) الأصمعيات ٥٨ والقدع المعشى ٠

⁽²⁾ معجم ما استسجم للبكرى ٢/ ٣٠٠ ·

⁽٥) الأصميات ٨٨٠

⁽١) من اللامية والذام المدمة •

 ⁽۷) من اللامبة •

وقد كنت صبارا على القرن في الوغي وعن شتمي ابن العم والجاد وانيا (١)

وشعر الصعاليك كله شاهد على عغة السنتهم ، فلم يبلغنا شعر كان فى جملته أعف لفظا وأكرم معنى من شعر الصعاليك ، فغزلهم كريم عفيف كما قلنا وهجاؤهم أيضا كله كرم وعفة لسان اذا قيس بغيره من الهجاء فى أى عصر من العصور ، فبينما نجمه هجاء الشمواء يفيض تجريحا وسبا للمهجوين ونيلا من أعراضهم ومرواتهم ، نجد شعر الصعاليك مسكما أشرنا ميلتزم حدود العفة الكريمة ، فلا يفحش ولا يقذع ، بل سما كثير منه الى النماذج المثالية فى المصومة ، كما فى خصومة صخر الغى وأبى المثلم الهذلى (٢) .

وقد يبدو غريبا ظهور العفة في طابع متقارب بين طائفة لم يجمع أفرادها مكان واحد ولا زمان واحد أيضا ، بل عاشوا في أماكن وأزمنة متفرقة ، ولكننا يمكن أن نحاول تعليل ذلك بأنهم وان اختلفوا في المكان والزمان ، الا انهم اتفقوا أو تقاربوا في صفاتهم الذاتية ، من حيث الصفات والأخلاق التي سبق الحديث عنها بالنسبة لهم ، ومحورها القوة ، وقد تكون هذه القوة فيهم بجوانبها مصدر عفتهم ، لأن عدم العفة نوع من الضعف لا يلائم قوتهم المتعددة الجوانب ، كما انهم وان اختلفوا في الأماكن ، الا أنهم جميعا تجمعهم بيئة الصعلكة ، وأماكنها المفضلة من الصحراوات والقفار كما سبق .

٣ _ الاشتراكية

ولقد كان من العجيب أن يبرز في الصعاليك خلق اجتماعي كريم ، هو الاشتراكية في خبر صورة يدعو اليها تشريع ، أو تهتدي اليها حضارة •

ومصلد العجب ان الظروف الشخصية والاجتماعية التى أحاطت بالصعاليك لم تكن لتساعد على خلق كهذا ، فأما الظروف الشخصية فلأنهم كانوا فقراء ، وظلوا طوال صعلكتهم فقراء كما قلنا ، ومع فقرهم هذا فقد كانت الاشتراكية طبعا أصيلا في حياتهم ، وأما الظروف الاجتماعية ، فنعنى بهساظروف المجتمع الجاهلي ، حيث كان مجتمعا طبقيا ، لا يبرق فيه أى وميض من مصانى التعاون أو التكافل الاجتماعي الا ما يتفضل به بعض المحسسين من الاغنياء على الفقراء ، بصورة فردية لا يبدو فيها التعاون الاجتماعي ، أو حتى الحلق ، بمقدار ما تبدو فيها الانانية والرغبة في الفخر والتمالي .

ومم هذه الظروف الشخصية القاسية للصعاليك ، ومع هـــذا الظلام

⁽١) انظر مراتبته : سبق نصها ٠

⁽٢) أنظر ديوان الهذليين ٢/١٢٣ ــ ١٤٠٠

التعاون الحالك في المجتمع فقد رفع الصعاليك لواء مشرقا من اشتراكية كريمة كانت محط اعجاب المجتمع ، ومضرب أمثاله ،

ونحب قبل أن نتحدث عن اشتراكية الصعاليك ، أن نلقى نظرة على اثـر الاشــتراكية على اشتراكيتهم ، وهــل الاشــتراكية على اشتراكيتهم ، وهــل استطاعت أن تتقدم عن اشتراكية مجتمعهم أم لم تستطع ؟

والواقع أن هناك صفات لا ينازع في وجودها في المجتمع العربي ، كاكرام الضيف ، والسخاء والجود ، واعانة المنكوب ، ولكنها ليست في درجة واحدة من وضعها في المجتمع أو التزام الأفراد حيالها ٠ فاكرام الضيف وحده هو الذي يمكن أن نعتبره صفة عامة في المجتمع العربي بحيث يلتزم الأفراد اياها بصفة عامة ، وهذه الصفة وان كانت في صورة التعاون الاجتماعي الا انها على أهميتها ، وعلى ما أدته من فوائد حيوية لا تعتبر في أصلها أو في الدافع اليها ، تعاونا اجتماعيا رائما تعتبر ضرورة اجتماعية ، والفارق بين المعنيين كبير ، رغم اتفاقهما في النتيجة ، لأن التعاون نزعة اختيارية ، و عمل يقوم على الاختيار مهما دعت الظروف اليه ، أما الضرورة فأمر لا مفر منه من الناحية الاجتماعية ، وتطبيق ذلك بالنسبة لاكرام الضيف ، ان طبيعة البيئة والحياة حينذاك كانت تحتم التزام المجتمع رعاية الضيف ، لأن الضيف عندهم رجل مسافر ، في بيئة قاحلة قد لا يجد فيها طعاما ولا شرابا ، ومهما حمل من زاد ، فطول السفر ، وتباعد أماكن البيئة ، يعرضه لنفاد زاده ، وليست هناك أماكن لبيع الطعام ، أو لتقديمه ، فضلا عن أنه في معظم الأحيسان ، حتى لو فرضناً وجود أماكن عامة للطعام ... وهو فرض غير واقعى في بيئتهم ... فان هذا المسافر قد لا يجد ما يشتري به ، والأهم من هذا ان السفر والتنقل ليس في حالات فردية في مجتمعهم ، وأنما هو طابع البيئة كلها فالقبائل دائمة التنقل وراء الرعى والأفراد دائمو التنقل وراء رزقهم ، وحتى أصبحاب المدن ، دائمو التنقل والاستفار في تجارتهم ورحلاتهم ، ومراعيهم أيضًا ، واذن فكل فرد معرض لأن يكون مسافرا ، ومعرض لأن يكون ضيفا نازلا لدى أى انسان ، في أى مكان ، فهو ملزم بأن ياوى أى انسان يمر بهذا الظرف ، طرف الضيافة لأنه هو أيضًا معرض دائما لهذا الظرف أيضًا ، فالضيافة في العرف العربي حينذاك ، غير الضيافة التي يعنيها عرفنا اليوم من انها استضافة شخص معروف ذي سلة في ظروف تختلف كل الاختلاف عن تلك الظروف ٠ لأن الظروف المحيطة بالضيافة كما قلنا هي التي جعلت رعاية الضيف عنـــدهم ضرورة اجتماعية ، ولذلك نجد الضيافة والاهتمام بها تتأثر دائما من مجتمع الى آخر حسب علم الظروف ، كما نلمس في الفارق بين نظرة القرية الريفية الى الضيافة من حيث الاهتمام بها • وبين نظرة المدينة من حيث عدم الاهتمام بها ، لأن ظررف الضيف في المدينة غيرها في الريف ، حيث يستطيع أن يجد في المدينة من حاجته في المطاعم والفنادقها لا يجده في القرية ، واحساس مجتمع المدينة ، ومجتمع القرية بظروف الضيف في كل منهما هو الذي يحدد السلوك نحو الضيافة ·

واذن فالفسيافة العربية القديمة على أهميتها في حياة المجتمع ، وحلها السكلة كبرى في حياة الافراد كانت ضرورة اجتماعية آكثر منها مظهرا من مظاهر التعاون الاشتراكي وأما المظاهر الأخرى التي كانت تأخذ جانبا من طابع الاشتراكية في مظهرها ، كالجود واغاثة المنكوب ، فقد كانت أقرب أيضا الى النزعة الفردية والرغبة في الفخر والتعالى منها الى التعاون الخلقي الاشتراكي كما يبدو ذلك واضحا في أشعار الكرماء والمحسنين من العرب ، حيث نجدهم دائما يتخذون من مواقف الجود والاحسان موردا فياضا للفخر والتعالى ، وليسوا هم وحدهم الذين يفخرون ، انما يفخر أيضا أولادهم وأقرباؤهم بهذه المواقف بل بتوارثون هذا الفخر جيلا بعد جيل ، وهذا التهافت الواضع في الفخر بعواقف الجود والاحسان يدل على أن هذه المواقف مهما سمت فهي أقرب الى الأنانية منها الى الخلق الاشتراكي النابع من الايمان به لذاته ،

ولسنا بهذا تريد أن نقلل من قيمة الفضائل العربية ، فالواقع أن هذه الفضائل كانت سناء مشرفا في طلام الطبقية الجاهلية ، التي يتصارع فيها الأفراد على الثروة في أنانية لا تبالى أن تحطم في طريقها أي شيء ، وأي انسان ، في سبيل الوصول إلى غايتها .

ولكن الذى نريد أن نقوله أن هذه الفضائل على أهميتها في حياتهم ، وحلها لكثير من مشاكل بعض الأفراد ، لا تعتبر خلقا تعاونيا بالمنى الصحيح ويكفى في بعدها عن الاشتراكية الصحيحة أنها مطبوعة دائما بطابع المن والتغضل والتعالى ، وقد يكون هذا الطابع على دقة مدلوله ، من الفسوارة الأساسية بين الاشتراكية الصحيحة ، وبين صورة من صور الاحسان والتغضل الفردى أو الجماعي ، وقد أشاد القرآن الكريم الى هذا الفارق في وضوح مبينا الفرق بين الصورتين في قوله تعالى : « واللدين في اموالهم حق معسلوم مبينا الفرق بين الصورتين في قوله تعالى : « واللدين في اموالهم حق معسلوم الاشتراكية الصحيحة ، ولذلك نجد التشريع الاسلامي يهدف دائما الى تقرير الاشتراكية الصحيحة ، ولذلك نجد التشريع الاسلامي يهدف دائما الى تقرير عذا المعنى وتوضيحه ، مبعدا بكل شدة وأصرار ، الشعور بالتفضل والمن عن نفوس المتصدقين والمزكين ، كالذي ينفق هاله رئاء النساس ولا يؤمن بانة نفوس المتصدقين والمزكين ، كالذي ينفق هاله رئاء النساس ولا يؤمن بانة واليسوم الآخر فعثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدون على شيء مها كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ، (٢) ، واضعا الزكين والمتصدقين بين شعورين اثنين ، لا ينبغى أن يتعدوهما الى ثالث ، ومما المزكين والمتصدقين بين شعورين اثنين ، لا ينبغى أن يتعدوهما الى ثالث ، ومما

⁽١) الآيتان ٢٤ ، ٢٠ من سورة المارج .

⁽٢) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة •

ان ما يخرجونه من أموالهم حتى واجب عليهم ، وان جزاء ما يخرجونه عند الله وحده ، وليس عند الناس ، ولا عند أحد من الذين ينالون هذا المال ، وعندئذ لا يجد المتصدقون والمزكون فرصة قط للشعور بالتفضل والمن ، ولا لانتظار المدح أو التأثر باحسائهم لدى أحد من الناس "

والراقع ان هذا الحديث يحتاج الى بسطة واسعة لا يقتضيها الموضوع ولذلك نعود الى الصعاليك ، فنقول ان اشتراكيتهم كانت أقرب ما تكون الى الاشتراكية الأصيلة فى أوضيح صيورها حتى التى عرفتها الشرائع والحضارات .

وأخبار الصعاليك تؤكد اشتراكيتهم قبل شعرهم ، فمن أخبار عروة بن الورد انه « كان اذا أصابت الناس سنة شديدة (١) تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون عشيرته ، ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن قوى منهم اما مريض يبرأ من مرضب ، أو ضعيف تثوب قرته ، خبرج به معه ، فأغار وجعل الصحابه الباتين في ذلك نصيباً ، حتى اذا أخصب الناس والبثوا ، وذهبت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى ، (٢) ومن أخباره أيضا « أجدب ناس من بنى عبس في سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد ويؤس فأتوا عروة بن الورد فجلسـوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك (٣) أغثنا فرق لهم ، وخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا، (٤) ومن أخباره في اشتراكيته مع رفاقه أنه د خرج هو وأصحابه حتى اتى ما وان (٥) فنزل أصحابه ، وكنف عليهم كنيفا من الشجر ، ثم مضى يبتغي لهم شيئا ، (٦) وفي تكملة هذه القصة السابقة نجد صورة بالغة من صور الاشتراكية ، حيث أنه يعد أن ترك هؤلاء الففراء الذين كنف عليهم كنيفا من الشبجر ومضى يبتغي لهم شيئا يعولهم به ، قدر له أن يصيب عددا كبيرا من الابل ، ويصيب معها امرأة ، ورجع بالابل والمرأة ، فقسم الابل بين هؤلاء الفقراء الذين لم يصنعوا شبيتًا غير انتظار احسانه ، وجعل لنفسه نصيبًا مثل وأحد منهم ، ولكنهم أبوا ﴿ عليه أن يأخذ المرأة ، وقالوا كما تسوق الرواية . لا واللات والعزى لا نرضي حتى تجعل المرأة نصيبا ، فمن شاء أخذها » ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم

⁽١) يعنى المجاعة والقعط ٠

⁽٢) مهذب الأغاني ٢/ ٢٦٠

 ⁽٣) يعنون بالصعائيك هنا المعنى اللغرى وهو الفتراء ، وكان عروة يسمى عروة الصعائيك
 أى عروة الفتراء ، انظر القاموس المحيط مادة صعاك •

 ^{41/}٣ (٤) اغانى ١٤٠١ (٤)

⁽۵) موضع ۰

⁽٦) أغاثى الأصفيائي ٣/٨٥٠

فينتلهم وينتزع الابل منهم ، ثم يذكر انهم صنيعته ، وانه أن فعل ذلك أفسد ما كان يصنع ، فأفكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الابل ألا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه ، حتى انتدب رجل منهم ، فجعل له راحلة من نصيبه » (١) ، وواضع من هذه الأخبار إنها ليست مجرد جرود أو كرم ، وانما هى شعور بالرعاية الاجتماعية . والتكافل الاجتماعي ، وهما جوهر الاشتراكية ، بل أنهم بلغوا فى الشعور بالاشتراكية حدا أبعد من هذا حد استباحة أموال الأغنياء ليردوها إلى الفقراء ، وهم فى هذا لا يختلفون عن جوهر التشريعات السمارية والوضعية ، ولا ينقص سلوكهم هذا الا الحماية التشريعية ليكون سلوكا مشروعا ، ومن أخبارهم فى هذا أن عروة بن الورد سمع أن رجلا من كنائة بحيل ، فبعث عليه عيونا ، فأتوه بخبره ، فشد على ابله فاستاقها ، ثم قسمها فى قومه » (٢) ومما قاله فى ذلك :

واذا افتقرت فلن ارى متخشعا لأخى عنى معروفه مكدود (٣)

اليس هذا السلوك من عروة يتفق مع قول النبى صلى الله عليه وسلم لعامله على الصدقة : خدما من أغنياتهم ، فاجعلها في فقرائهم ؟ (٤) غير أن مسلك عروة ينقصه حماية التشريع ، والصفة الشرعية ، فأصبح صعلكة ، وليس سلوك تشريع .

وكذلك مالك بن الريب ، حينها سأله سعيد بن عثمان الوالى قائلا « ويحك يا مالك ، ما الذى يبلغنى عنك من العداء وقطع الطريق ؟ » أجابه مالك بأن سببا واحدا يدعوه الى العداء وقطع الطريق ، ولم يكن هذا السبب طلبا لنفع شخصى ، وانها كان مظهرا من مظاهر الاشتراكية ، حيث أجابه قائلا « أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان » (٥) •

وهكذا بجد أخبار اشتراكيتهم كثيرة متعددة الجوانب ، وقد عرف المجتمع فيهم هذه الصفة ، حتى أصبحوا مضرب المثل ، ففى أمثالهم ، كل صحعلوك جواد ، (٦) ، وقد نال عروة بن الورد بسبب شهرته الاشتراكية هذه منزلة رفيعة في المجتمع ، وظلت هذه المنزلة مقرونة بسيرته عدة أجيال ، حتى قال معاوية بن ابن سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم(٧)

⁽١) أنظر مهلب الأغاني ٢٧/٢ •

⁽٢) شرح ديوان عروة بن الورد لابن السكيت ٨٧٠

⁽٣) ديران عروة بن الورد ٨٧ •

⁽٤) انظر صحيح البخارى والرواية بالمعنى *

⁽٥) انظر خزانة الأدب للبغدادي ٢/١٥ وأمالي القالي ١٣٦/٣٠٠

⁽١) النظر مجمع الأمثال للميداني ٢/١٥١ المثل ٢١٣٤ .

⁽٧) ديوان عروة بن الورد ٨٠٠

وحتى قال عبد الملك بن مروان : ما وددت أن أحدا من العرب لم يلدني كان ولدني الا عروة بن الورد لقوله :

وانی امرؤ عسافی انائی شرکة وانت امرؤ عافی انائك واحد (۱)

وقال عبد الملك ايضا : من زعم ان حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد (٢) ، والذي نريد ان يكون واضحا في حديثنا عن هذه الصفة في الصماليك ، انها لم تكن مجرد كرم أو رغبة في الجود ، وانما كانت صفة أصيلة في نفوسهم ، توحي پايمانهم بأن ما في أيديهم ينبغي أن يكون شركة بينهم وبين غيرهم ، وبأنه لا ينبغي أن يترك محروم أو بائس دون عون ورعاية وهنان المعنيان بالذات ، هما اللذان نريد أن نصل اليهما في حديثنا عن اشتراكية الصعاليك ، لأنهما المعنيان اللذان امتازوا بهما عن مجتمعهم ، وسبقوا بهما كل اتجاه الى الاستراكية من حيث التطبيق والتنفيا والالتزام وأهم هذا السبق الذي حازوه في هذا المجال ، ان ايمانهم هذا ، وسياوكهم الاشتراكي لم يكن نابعا من دعوة خارجية ، او اقتداء ، أو من أي مؤثر خارج نفوسهم ذاتها .

وحين نذهب الى شعرهم نجده يفيض بأخبار اشتراكيتهم هذه ، ومهما صورها شعرهم في صورة الكرم أو البذل أو العون ، فاننا نحس أن وراء هذه الصور جميما صفة أصيلة غير متكلفة ، وصفة انسانية لا يراد بهما فخمر او استعلاء ، وقد يقال أن كثرة الحديث عن هذه الصفة في شعرهم ، تسوحي بالرغبة في الفخر ، مما يتنافي مع ما قررناه آنفا ، والجواب عن ذلك ، ان حديثهم كله في جملته عن صفة الجود الأصيل فيهم تلك التي سسسيناها اشتراكية ، لا يبدو منه نزوع إلى الفخر ، بل ولا مجرد الحبر في معظم الأحيان وانما نجه حديثهم هذا في أكثر الأحيان دفاعا عن انفسهم ضد لاثميهم على الاسراف وتبديد المال ، ومعظم اللائمين كن أزواجهم ، وفي الأحيسان القليلة الأخرى كان حديثهم أخبارا عن حادث من حوادث اشتراكيتهم ، أو دعوة اليها اما نزعة الفخر التي نراها في شعر غيرهم فلا تبرز قط في شعرهم بروز العجر والتعالى وطلب الذكر • وكما كان عروة بن الورد اكثر الصعاليك حرصاً على الاشتراكية ودعوة أليها ، كان شعره أيضا أكثر شعرهم حديثا عنها ودعوة اليها ، وكثير. من شعره هذا اقترن بحوادثه الاشتراكية ، ففي قصة اصحاب الكنيف السابقة يصور نفسه بالنسبة لهم كالأم المنون التي لا تبخل على وليسدما بأعز ما تملك ، فيقول من شمره في هذه القميلة عن اصحاب الكنيف :

⁽۱) دیوان عرود ۱۰ م ۰

⁽١) المساو السابق •

له ما عينيها تفيدي وتحمل (١) وانى وإياهم كلى الأم أرهنت

وامرأته نصده عن المخاطرة بنفسه في غارات الصعلكة ، فيتول لها : انه يطلب الغنى ، ولكن ليس لنفسه ، وانما لاغاثة المنكوبين الذين تفجؤهم المغارم والديان ، وفي هذا يستعظم عروة أن يرى أحدا منكوبا ويجد نفسه عاجزا عن عونه ويرى الموت خيرا له من هذا العجز فيقول :

دعيني اطوف في البـــــلاد لعلني افيد غني فيسه لذي الحق محمل (٢) اليس عظيما أن تلم ملهة وليس علينا في العقوق معول (٣) ان نعن لم نملك دفاعها بعادث تلم به الأيام فالموت اجمهل

ولنا أن نسأل : هل يبدو في الأبيات السابقة أثر قط لفخر أو ما يشبه الفخر ؟ وهل هناك سماحة أو اشتراكية أبلغ من اشتراكية شخص يدفع بنفسه الى مخاطر في مقدمتها الموت ، لا لشيء الا ليتحسل عن المنكوبين نكباتهم ؟ لا أظن في الجواب خفاء ، ويتحدث عروة أيضا عن معنى نبيل آخر مو انه قد يكسب مالا ، ويخيل اليه حينئذ أنه سيصبح غنيا ، واذا هو يرى صورا من الفقر والحاجة تدفعه الى نبذ ماله ، ليعود فقيرا ، ومن هذه الصور ، فقير ذو عيال ، يشكو هزال جسمه وحاجة أولاده ، وهو مع ذلك كريم ، ولكن الأيام والحوادث أصابت كرمه ومكانته ، فيقول مخاطبا امرأته التي تصر على صده عن المخاطرة بنفسه في حياة الصعلكة :

ارى أم حسان الفسداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف (٤) لعل الذي خوفتنا من أمامناً يصادفه في أهله المتخلف (٥) اذا قلت قد جاء الغني حال دونه أبو صبية يشكو المفاقر أعجف (٦) له خلة لا يدخسل الحق دونهسا كريم اصابته حوادث تجرف (٧)

وتواصل امرأته كفه عن المخاطرة ، ولكن ايمانه بأن في الناس من هم في حاجة الى عونه يزيده اصرارا على معارضتها ، وتنفيذ ما يؤمن به ، فيقول لها ان في قرابتي نساء قد أرهقهن كدح الميش ، ورجالا ينتظرون عوني ، ولا أستطيع أن أخيب أمل أولئك ولا هؤلاء ، فيقول :

⁽١) أغاني الأصفهائي ٨٥/٣ وانظر ديواله ٠

⁽٢) حياسة أبي تمام ٢/٣٠ ، ٣١ وذو الحق يعنى شنعما لزمته ديات ومغارم ومحمل بسنی حمل آی عوث •

⁽٣) يستعظم أن يرى نكبة تلم بأحد ولا يستطيع عوله والحقوق يمنى الديات لانها كالت ابرز مشاكل الاحتياج للمون والمساعدة حينذاك ا

⁽٤) حماسة أبي تمام ٣٣٨/٢ والنفس أخوف يعنى الموت العادى آقرب من القتل .

⁽٥) يمنى قد أموت في بيتي اذا لم أتعرض للأعداء في فاراتي *

⁽٦) المناقر الحاجات والأعجف الهزيل •

 ⁽٧) الخلة الحاجة والحق يمنى القرابة وتجرف تلحب بللال ٠

فرینی ونفسی ام حسان اننی ابی اخفض من یفشاك من دی قرابة ومستهنی، ، زید ابوه فسلا ادی

بها قبل آن لا املك البيع مسترى(١) ومن كل سوداء المعاصم تعترى(٢) له مدفعا ، فاقنى حياءلاواصبرى(٣)

ويقول عروة لامرأته أيضا :

سل الطارق المعتر يا أم مالك اذا ما أتانى بين قدرى ومجسزرى أيسفر وجهى أنه أول القسرى وأبدل معروفي له دون منكرى ؟ (٤)

والشنفرى يرسم لنا صورة من صور الاشتراكية فى حياة الصعاليك ، حيث جعلوا زادهم وكل ما يكسبونه من قوت الى واحد منهم ، هو تأبط شرا وكان يعولهم كما تعول الأم أولادها ، ويتحكم فى الانفاق عليهم كما يشاء بما تقتضيه ظروف الرحلة ، فلا ينكرون ولا يناقشون ، مع انهم شركاء له فيقسول :

وام عيسال قد شهدت تقوتهم اذا اطعمتهم او تحت واقلت (٥) تخاف علينا العيسل ان هي اكثرت ونحن جياع اي آل تالت (٦) وما ان بها ضن بما في وعسائها ولكنها من خيفة الجوع ابقت (٧)

ويقول أبو خراش في رثاء أخيه ورفيقه زهير بن مرة ، متحدثا عن اعتماد جاره عليه حين تصيبه الفاقة :

قتلتم فتى لا يفجر الله عامدا ولا يجتويه جاره عسام يمحل (٨)

وأما تأبط شرا فانه لا يبقى على مال ، ويجد لوما عنيف من اللائمين واللائمات ، ولكن هذا اللوم لا يثنيه عن خلقه في البذل والعون ، ويبلغ بن نمسكه بخلقه الاشتراكي ، أن يهددهم بهجرهم الى الأبد ، بحيث لا يعلمون عنه بعد ذلك خبرا ، ولا يجدون له أثرا فيقول :

⁽۱) الاصمعیات ۳۷ ، ۳۸ ، ۳۹ وقبل أن لا أملك البیع یعنی قبل الموت ، ومشعری یعنی طالبا مجدا وخیرا -

⁽٢) الخفض اللين والشطر الثاني كناية عن كثرة الممل باليدين •

⁽٣) مستهنىء طالب عطاء وزيد أبوه يمنى يجمعنى واياه زيد فى القرابة .

 ⁽٤) حماسة أبى تمام ٢٥٨/٢ والممتر يعنى الفتير الذي لا يسأل والمجزر موضع الذبح
 ويسفر يتهلل •

 ⁽٥) المنشليات ١٠٨ وأم عيال يعنى تابط شرا وأو تحت أعطت قليلا وكذلك اقلت حوف.
 نفاد الزاد ٠

⁽۱) العيل الفقر والحاجة وأى آل ثالث ؟ تعجب يعنى أى سياسة ساست تعجبا من سسن مياستها ،

 ⁽٧) أبقت أدخرت يمنى أن تقتير تأبط شرا عبيهم ليس بغلا ولكن خوف تفاد الزاد خلال السفر
 (٨) سجم ما استعجم للبكرى ٢/ ٣٠٠٠ •

بل من لعدالة خدالة اشــب يقــول اهلكت مالا لو قنعت به عادلتى ان بعض اللــوم معنفة انى زعيم لئن لم تتركوا علل ان يسال القوم عنى اهل معرفة سدد خلالك من مال تجمعــه

حرق باللوم جلدی ای تحسراق(۱)

هن ثوب صدق ومن بز واعلاق
وهل متساع وان أبقيتسه باق ؟
ان يسال الحی عنی أهل آفاق
فلا يخبرهم عن ثابت لاقی
حتی تلاقی الذی كل أمرى، لاقی

وهكذا نجد تأبط شرا بعد انفاقه ماله ، لا يحس شعورا بالفخر ، ولا رغبة في المباهاة ، وانعا يجد حربا مع لائميه وعذاله من أهله ، ولكن هذه الحسرب لا تزعزع إيمانه بمسلكه ، بل تزيده اصرارا عليه .

وسعد بن ناشب يرد على عاذلته أيضا ، بأنه قد يفتقر ، وقد يغنى ، ولكنمه حين يفتقر يمسك نفسه عن التعرض لعون الناس واحسانهم ، فلا يظهر على حاجته أحدا ، أما حين يغنى ، فغناه شركة بينه وبين الناس ، فيقول :

أن تعدليني تعدلي بي مرزءا كيم نثا الاعسار مشترك اليسر (١)

ويعبر عروة بن الورد عن كراهته للبخل ، وانه لا يقبل قط أن يتصف به ، بل ولا يلم به مهما تكن حاله حتى انه ليعتبر هو والبخل ضدان فيقسول:

وقد علمت سلیمی ان رأیی ورأی البخل مختلف شتیت وانی لا یرینی البخل رأیا سواء ان عطشت وان رویت (۳)

ومالك بن حريم ، يعدد صفات أربعا له ، احداها انه لا يحجب قدره وطمامه حين يشتد احتياج الناس في الشتاء الى الطعام ، ولا يرى من الحلق أن بشمعوا هم والناس جياع ، فيقول :

ورابعة الا أحجل قــدرنا على خمها حين الشتاء لنشبعا (٤)

واذن فهذه النزعة لم تكن فردية أو شاذة فى محيط الصعاليك ، وانسسا كانت عامة فيهم ، وقد عبر المثل العربى القديم « كل صعلوك جواد ، عن هذا العموم ، ولم تكن أيضا فى حوادث فردية عرضت فى حياة الصعاليك ، وانما كانت نزعة أصيلة عميقة فى نفوسهم وأخلاقهم وأوضح دليسل على تأصلها تكلفهم المخاطر والمشقات من أجلها ، كما رأينا فى حوادث عروة بن

⁽١) المفضليات ٣٠ والتاء في عدّالة وخدّالة للمبالغة في عدّال وخدّال والأشسب المعترض وثابت اسمه

 ⁽۲) سماست ابی تمام ۱/۲۷۱ والرزأ کثیر الرزایا تصبیه والنا المغیر والیسر الفنی ۰
 (۳) دیوان عروة بن الزده ۸٦ ۰

⁽٤) الاصمعيات ٩٩٠

الورد ، وفي جواب مالك بن الربب لسعيد الوالى ، وحيث كانت عامة فيهم ، وأصيلة في نفوسهم ، فهي اذف صفة من صفاتهم ، وخلق من أخلاقهم ، وكما رأينا في مسلكهم ازاء هذه النزعة ، لا نرى انه يكنى التعبير عنها بالجود أو الكرم أو السخاء ، وإنها من حق ما تميزوا به في هذا الخلق أن يعبر عنه للفظ يبرد هذا التميز كالاشتراكية ،

الطبيعسة

احتلت الطبيعة مكانا بارزا في شعر الصعاليك ، والواقع أن الحديث عن الطبيعة ومناظرها أمر متوقع من طائفة كالصعاليك ، يعيشون مع الطبيعة وجها لوجه بحيث تحجبهم عنها حجاب من الحياة الصناعية بمبانيها وزروعها ومظاهرها المختلفة ، كما يعيش معظم الناس في بيئات من صنعهم هم ، أما الصعاليك فبيئتهم المقيقية التي تناسب صعلكتهم • البيئة الطبيعية بجبالها وصحراواتها وسحبها وامطارها ، ورمالها ، وكهوفها ، وما يلازم حياة هذه الوحوش والحيوانات من صور حياتها ومعيشتها ، وتآلف بعضها ، وتنافر البعض الآخر •

هذه البيئة الطبيعية التي عاش فيها الصعاليك ليزاولوا تصعلكهم وقد تشبعت نفوسهم بها ، وانفعلت مشاعرهم بأدق تفاصيلها ، ولذلك نجد حديثهم عنها يختلف عن حديث غيرهم من الشعراء ، فهم لا يتحدثون عن هذه البيئة ومشاهدها خديث المتخيل ، أو حديث المشاهد العابر ، كما يتحدث الشعراء ، وانما يتحدثون حديث المنفعل المتأثر ، وحديث الخبير المجرب عن تفاصيل لا يتسبني للمشاهد العابر أن يحيط بها .

وبيان ذلك أن أى شاعر من غير الصعاليك لا نتصور منه ازاء هذه الطبيعة الا احدى حالتين ، أما أن يكون متخيلا ، مجرد خيال فى حديثه عن هذه البيشة ومشاهدها ، واما أن يكون صادقا ، ولكن صدقه يتمثل فى مشاهدة أو رؤية عابرة ، كان يكون فى سفر مثلا فيرى بعض الصور الطبيعية فى ارضها أو سمائها أو يرى بعض وحوشها وحيواناتها ، فيصف ما رآه من هذه المناظر ، وصف المشاهد لمناظر متحركة عابرة أمام عينيه ، أما الصعلوك ، فمناظر هذه البيئة غير متحركة ولا عابرة بالنسبة له ، وانما هى ثابتة ملازمة للبيئة ، وملازمة له هو بحكم معيشته فى هذه البيئة ، وقضائه معظم وقته وحياته فيها ، ولذلك حينما يصفها ، يصف تفاصيل دقيقة لا يتاح للمتخيل ولا للمشساهد السابر أن يصفها ، ومثال ذلك وصف الشنفرى لحياة وحوش الصسحراء وحيدواناتها يتأملها ، ومثال ذلك وصف الشنفرى لحياة وحوش الصسحراء وحيدواناتها ومعيشتها ، فقد وصف مثلا فى اللآمية ثلاث صور ، عن حياة الذئاب ، وعن حياة النحل ، وعن حياة النحل ، وعن حياة النحل ، وعن حياة النعل ، وعن حياة التبح له الا

منظر هذه الحيوانات ، فيصفها كما رآها بما تتيع له شاعريته في تصويرها ولكن الشنفري لا يتحدث عن منظرها أو لونها ، أو شكلها ، أو ناحية من نواحي الرؤية العابرة ، وانما يرسم صورة كاملة لجانب من جياة هذه الحيوانات ، ويتتبع جوانب هذه الصورة يتفاصيلها التي لا يتاح الاطلاع عليها الا لشخص مقيم في هذه البيئة ، خبير بطبائع مخلوقاتها وأسسساليب هذه المخلوقات في حياتها ومعيشتها ، وكل ما يتعلق بها ،

وامر آخر يمتاز به شمر الصعاليك عن غيرهم فيما يتعلق بالبيئة ، وهــو انهم لا يتحدثون عن مشاهد البيئة ومخلوقاتها لذاتها ، كما يشيع في وصف الشعراء لهذه النواحي ، مما يشعر دائما بأنه وصف مقصود لذاته ، فقد يصف الشاعر مثلا السحاب والمطر والرهما ، فيجعلهما موضوعا وغرضا مقصودا لدّاته ، وقد يستوعب ذلك قصيدة كاملة ، أو ما يمكن أن يكون قصيدة مستقلة ثم لا نشيس باثر للشاعر نفسه في هذا الوصف ، لأنه كالمشاهد المنفرج ، الذي يصف ما يعرض أمامه ، أو ما يمر في خياله ، دون أن يكون له هو دخل في الموضوع الا مجرد الوصف ، ونقل الصورة الى غيره ، أما منهج الصعاليك فغير ذلك ، انهم دائما جزء أساسى من الصورة نفسها ، بحيث تقرأ وصف الصعلوك لهذه المساهدة ، فتراه هو جزءا من الموضوع ، وفي مكان بارز من الصورة • لأنه لم يكن في موضع المشاهد المتقرج كغيره من الشعراء ، وانما كأن هو نفسه جزءا من البيئة ، ومنظرًا من مناظرها الثابتة الملازمة ، أو كالثابتة الملازمة · فهو يصف المنظر على اساس أنه هو جرء منه ، وعلى أساس مراعاة مدى ارتباط الأجزاء الاخرى به مو ، فالشنفري مثلا حينها يتحدث عن الذئاب في اللامية لا يصفها لذانها ، وانما لأنه هو وهي شريكان وشبيهان في حياتهما في الصحراء وفي بحثهما عن الطعام ، وفي نواحي أخرى ، وحينما يتحدث عن سرب القطا • لا يتحدث عنه لذاته ، وانما يتحدث عنه لأنه يستدل به على وجود الماء الذي هو في حاجة اليه ولأنه شريك وشبيه به في السعى الى الماء ، بل ومنافس له في الحصول على بقع الماء اليسير الذي تخلفه السيول والأمطاد في الصحراء •

وحينما يتحدث الأعلم الهذلى عن الضباع مثلا ، فيصف ضخامة أجسامها يضخامة آذانها التي تشبه معارف الطعام ، وسواد جلودها الذي يشبه تياب الرهبان ، لا يتحدث عنها كمنظر طريف أو غريب رآه ، وانما يتحدث عنها على أساس أنها احدى جيرانه وشركائه في البيئة ، ولكنها جار رهيب ، ولذلك يركز حديثه عنها على أنه يتوقع أن تسطو على جثمانه يوما فتنزع جلده عنه . كما ينزع الحداد الغشاء عن غمد السيف البلسه غشاء آخر ، فهو لا يعنيه حديث الضباع لذاتها ، وانما يعنيه احتكاكه بها ، وتأثره بحياتها في حواره (١) .

⁽١) انظر ديوان الهذلين ٢٩/٢ ــ ٨١ وأول الابيات و قاكون صيدهم بها ٠٠ الخ ٠

وعمرو بن براقة مثلا حينها يصف فترة معينة من ليل الصحواء ، بأن الظلام قد خيم على كل شيء فلم يبد فيه الا تالق النجوم ، وبأن السكون قد عم كل شيء فلم يقطعه الا صياح بومات من الجبال القريبة ، وبأن النوم قد أغرق كل ساكني هذه البقعة ، هذا المنظر لا يصفه عمرو بن براقة لذاته ، ولا لأنه فترة شاعرية ، ولا لشيء الا أنه الوقت المفضل لديمه للانقضاض على أعدائه وضحاياه (١) .

والشنفرى حين يصف في اللامية ليلة نحس شديدة البرد ، ذات مطر ووحل ، لا يصفها لذاتها ، ولا وصف المشاهد المتفرج ، وانما يصفها لأنها أثرت فيه حتى أرعشت جسده ، وحتى اضطرته شهدة بردها الى تحطيم قوسسه ليوقدها ويستدفى بها ، وحتى اضطره جوعه مع بردها ومطرها ووحلها الى مواصلة المشى والسرى طلبا للطعام والانتقام من أعدائه ، وكذلك حين وصف الحر الشديد في الصحراء ، هذا الحر الذي ملأ الفضاء خيوطا تشبه خيوط العنكبوت ، والذي بلع من قسوته أن الأفاعي ضاقت بها حجورها ، وهدف الصورة لم يتحدث عنها الشنفرى لذاتها ، وانما لأنه عاني من هذا الحر ما عانته الأناعي التي واجهت حرارة الجو ، ونار الرمال بجلودها ، فواجه هو أيضا كل هذا وليس على جسده الا ثوب ممزق لا يحميه من لذع هذا الحر ، ونعسل ممزقة أيضا لا تحمي قدميه من الرمضاء (٢) .

وكذلك حين يصف ابو خراش ليلة دجن شبيهة بليلة النحس فى لاميــة الشنفرى ، لا يصفها لذاتها ، وانما لأنه جزء من صورتها ، وقد عانى عواملها وتأثيرها ، حيث اضطر الى السرى فيها (٣) .

وصخر الغى حين يصف الوعل وسسسيره فى الرمال ، وتباهيه بقرون كاشراف الرواجب ، ثم ايثاره مبيت العزلة والانفراد ، ثم روعه ورهبته من صوت الغراب ، وحياته في بيئته ، معنيا من ذلك كله بما يتعلق به هو ، وبترصده لصيد هذا الوعل (٤) *

وتابط شرا يصف طريقا ملتويا في الجبل ، يشبه في تلويه خياطة النوب ويصف ما يحيط بجانبيه من بقع الماء الصغيرة ، والفدران الكبيرة ، حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها ، ودرجة أنخفاض الحفر ، بما تحمل من مياه خلفتها سبول جارفة ، لخريرها من المرتفعات ، واصطدام مياهها بالصخور في قرقرة ذات صوت رتيب ، ولكن تابط شرا لا يعنيه هذا المنظر الطبيعي لذاته ، وانما يعنيه وضعه وتاثره حو بهذا المنظر ، من حيث قدرته على اجتياز وعورة هذا الشعب ،

⁽١) الطر إمال القال ١١٩/٣ اذا الليل الدجي ٠٠ وما بعد ٠

⁽٢) انظر اللامية (سبق صبها مفروحاً) وكذلك الصور السابلة عن الذلاب والعجل واللطا

⁽٣) انظر ديوان الهدليين ٢٠/٢ ١٠

⁽³⁾ Hanke Hantin 7/10 - 20 .

ومعرفته لثناياه والتواءاته معرفة دقيقة لا يحتاج معها الى دليل ، ولا الى خابر يثبت له نعته (١) .

وعبدة بن الطبيب يصف منظر طلوع الشمس ، في انفتاق قرنها ، وما يزال يخالط الفضاء رداء من سواد الليل ، تتردد أصوات الديكة تبشر بالصباح ، ولكن عبدة أيضا لا يعنى بمنظر طلوع الشمس وما يحيط به لذاتها ، وأنسسالانه وقت حركته ، وسعيه الى بغيته من التجار (٢) .

وليس معنى ربط صور الطبيعة باشخاصهم ضعف التركيز في وصفها أو ابراز جوانبها بل على العكس ، كان لاحتكاكهم الدائم والمباشر بصور الطبيعة ومناظرها وملازمتهم اياها قوة في الوصف والتصوير واستكمال دقائق الصورة التي اشرنا اليها ، والتي سبق ذكر الشعر الخاص ببعضها وخاصة في حديث الأياكن والوحوش ، تبلغ درجة من الروعة في التصوير بالغة • حتى ليخيـــل للدارس المتأمل لها ، أنه أمام لوحة فنية رائعة التجسيد ، ومن روائع هسذه اللوحات الفنية للطبيعة احدى قصائد صيحر الغي الهذل (٣) عن البرق والسحاب والمطر ، وما يحيط بهذه العوامل ، حيث يشبه تراكم قطع السحاب الضخمة بالسفن الكبيرة المليثة بسلم بيعت جزافا بغير كيل لكثرتها ، ويشبه السر البطيء لهذه الكتل الضخمة من السحاب بتهادى السفن بعضها في أثسر بعض ، وبمشى المقيد القدمين الذي يرسف في سلاسله ، وبأن هذه السحب حين أشرفت على بعض المواضع ، كانها أحست شجنا فسالت منها دموع فياضة في صورة مطر ، وظل هذا المطر يهطل بغزارة ، فلو نظرت الى جبل ذى السطاع بعد هذا المل الذي غسل صخوره السمراء لحسبته جملا قد نتفه الجرب فلم يبق في جلده شعره ، فطلاه صاحبه بالقطران ، ويشبه سير السحاب بتشبيهات أخرى ، ثم يصف أثر الأمطار الغزيرة ، بأن ما بين وادى القصور ويلملم أصبح كانه حوض ماء ، ويتابع صخر تصوير هذا المنظر بما فيه من برق ورعد ، حتى يبلغ منه ما يريد ، ولكننا نجد أنه هو ليس بمناى عِن هذا المشهد ولا معزل ٠ ولا يكتفي بان يكون في موضع المشاهد المتفرج وحسب ، وانعا يبين ارتباطه بهذه العوامل من الطبيعة ، وموضعه من المشهد مبينا أن مثل هذا المشهد الرهيب هو بيئته التي يدير منها الحرب والغارة على أعدائه ، بالاضافة الى آثار أخرى من هذا المشهد في حياته ، منها أن هذه المياه كلها تصبح فاذا هي بقع وغدران تغدو من

⁽١) أنظر الأمسميات ١٣٥ وأول الأبيات « وشعب كشل الثوب ١٠٠ الغ ء ٠٠

⁽٢) أنظر المنضليات ١٤٣ وأولها « وقد غدوت وقرن الشبس ١٠ المخ » ٠

⁽٣) يمتبر شعر صماليك هذيل وخاصة المدائين منهم وهم أبو خراش وصخر الفي والأعلم يعتبر شعرهم كله في جملته فموذجا دائما لا جمل ما وصفت به الطبيعة من شعر ، ويكاد شعرهم يستقصى كل مشاهد البيئة ومخلوقاتها في تصويره ، أنظر ديوان الهذايين ،

حولها الأوابد التي يترصيدها صائدا لها ، أو يسعى الى هذه الغدران ليملأ قربته منها (١) •

وكذلك يصور أبو خراش حياة حمر الوحش ، في صورة رائعة في تفاصيل هذه الحياة وحركاتها ، وألوان الحمر ، راسما خلال ذلك صورة جميلة ، ليسوم شديد الحر ، ومنظرا لغروب الشمس وشعاعها الذي يشبه قطيفة ذات خمائل ، ولكننا نجد أبا خراش نفسه صلب الصورة وأوضح جزء فيها ، لأنه يصور المشهد في سياق تربصه بحمر الوحش ليصيد واحدا منها ، واصفا ما حدث خلال ذلك من منظرها ، وفزعها حين أحست به الى آخر صورته (٢) .

واذن فالظاهرة المميزة دائما لشعر الصعاليك في الطبيعة عن شعر غيرهم هى أن الصعاليك يجعلون أشخاصهم دائما جزءا أساسيا في المشهد ، بل كثيرا ما يكون شخص الصعلوك أهم جزء من المشهد ، بخلاف شيعر غير الصعاليك ، حيث تجد الشاعر مجرد مشاهد أو ملاحظ من خارج المشهد ، ولعل هذه الميزة في شعر الصعاليك هتي التي أشار اليها كارل بروكلمان في سياق حديثه عن لامية الشنفرى ، ونفيه نسبتها الى خلف الأحمر (٣) حيث يقول د أما أبو على القالى فقد صرح في الأمالي بأن اللامية من صينع خلف الأحبر ، ولكن القصائد التي وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائما بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما في لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعرى مستقل ، كما أكد ذلك بحق جورج ياكوب فن تقديمه للامية ، وعلى حين يجعل الشعر الجاهل وصف الطبيعة من الجبال والفيافي وغيرها غرضا مقصودا لذاته ، يتخذ شاعر اللامية هذا الوصف بمثابة منظر أساسي بهيج لتصوير الانسسان نفسه وأعماله (٤) ، ولكن هذا المذهب الشعرى الذي أشار اليه كارل ليس مذهب الشنفرى وحده ، ولا اللامية وحدها ، وانما هو مذهب الصعاليك الجاهليين جميعا كما مثلنا لمعظمهم في مشاهد مختلفة عن طلوع الشمس وعن غروبها ، وعن الليل ، وعن الحر ، وعن البود ، وعن الجبسال وطرقها وعن الأرض ، وطبيعتها ، وعن السحاب والأمطار ، وعن الوحوش والحيوانات وحياتها ، وغير ذلك •

والواقع أن هذا المذهب ليس للجاهليين من الصعاليك وحدهم ، ولا هو في شعر الطبيعة وحده ، وانما هو مذهب الصعاليك جميعا ، وفي شعرهم جميعه أيضا ، وان كان الجاهليون في بعض موضوعاته كشعر الطبيعة أوضح

⁽١) أنظر ديوان الهدليين ١٨/٢ ـ ٧٧ واولها و لشماء بعد شتات النوى ١٠٠ الغ ، ٠

⁽٢) المصدر السابق ١١٧/٢ - ١٢٣ وأولها « أدى الدهر لا يبقى ١٠٠ الغ a ٠٠

 ⁽٣) ناقشنا هذا الموضوع في موضع خاص باللامية خلال الحديث عن الاختلاف في شهر لمساليك -

⁽٤) أنظر تاريخ الأدب العربي لكادل بزوكلمان ترجمة النجار ١٠٥/١ .

فى هذا المذهب من صعاليك الاسلام ، بسبب عاملين ، غلبا على صعاليك الجاهلية ، هما سرعة العدو ، وشدة الفقر الى درجة الجوع المضنى كما أشرتا الى ذلك سابقا ، هذان العاملان جعلا صعاليك الجاهلية الزم للصحراء ، وأكثر اقامة وتوغلا فيها ، فاتيح لهم الاحتكاك المباشر الطويل بكل مشاهد البيئة ومخلوقاتها ، بل أصبحوا كما قلنا كأنهم جزء ثابت من البيئة ، وكأنهم نوع ملازم من أنواع مخلوقات هذه البيئة ، مما جعلهم يتفوقون على صعاليك الاسلام فى بعض موضوعات شعرهم وفى مقدمتها شعر الطبيعة .

ولكن هذا التفوق لا يقصر هذا المذهب عليهم ، وأنما هو مجرد تفضيل أو زيادة بطلو ما يعنيه لفظ التفوق ، وفي بعض الموضوعات فقط كما أشرنا فيما سبق ، وأهمها ما يتعلق بالأماكن والبيئة بصفة عامة .

ومع ذلك فشعر الصعاليك كله جاهليه واسسلاميه ، يتسم بهذا المذهب ، ويعتبر هذا النهج من المميزات الأساسية التي تميزه عن غيره من الشمعر ، بحيث نجد شعرهم دائما مرتبطا بأشـخاصهم ، لا يتحدثون عن موضوع ، ولا يعرضون لمعنى الا وأشخاصهم جزء أساسي من الموضوع ، ان لم تكن محورا له ، وهذا ما سميناه فيما سبق من الموضوعات بالصراع ، حيث رأينا كيف أنهم تناولوا كل ما تناولوه من الموضوعات السابقة _ باستثناء بعض الشعر الاجتماعي _ لا من زاوية الشاهدة والملاحظة كما يغلب على شعر غيرهم ، بل من زاوية الاحتكاك والصراع ، وحتى الشعر الاجتماعي ، تناولوا معظمه من هذه الزاوية أيضًا ، والاحتكاك والصراع جوهر هذا المذهب كما هو واضح · وتعود الى حديث شعرهم عن الطبيعة ممثلة في البيئة ومشاهدها ومخلوقاتها ، فنقول : انهم لم يكادوا يتركون شيئا من ذلك كله الا وتحدثوا عنه ، فبالإضافة الى الصور السابقة يحدثنا مثلا شعر الشنفرى عن الرياحين (١) وعبدة بن الطبيب عن المطر ، وعن الأوابد (٢) ومالك بن حريم عن البقر الوحشى وعن القطا ، وعن أماكن الماء في الجبال (٣) ومالك بن الريب عن القطا وعن الرياح ، وعن الذئب وعن الظباء ، وعن النجوم ، وعن البيئة وبقرها الوحشى (٤) وصحر الغي عن الطيور الجوارح وقلوب الطير من ضحاياها حول أوكارها ، وعن الأوابد ، وعن النعام وحياتهما وخصائصهما ، وعن حمر الوحش وصراعه معها في صيدها ، وعن الحمامة وحواره معها (٥) ، والأعلم للهذلي عن السلحاب وحمر الوخش ، وعن النعامة ، وعن الضباع والذئاب والثعالب ، مكررا حديثه عن الضباع .،

⁽١) أنظر المفضليات ١١٠ .

⁽٢) أنظر الفضليات ١٤٢٠

⁽٣) أنظر الاصمعيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ٠

⁽٤) أنظر مرثيته وانظر مهدّب الأغانى ٥/٠١ ــ ١٩٠٠

⁽٥) انظر ديوان الهدليين ٢/٢٥ - ٧٦ •

وعن حمر الوحش بصفة خاصسة (١) ، وأبو خراش الهذلى عن حمر الوحش وصيدها ، وعن الصفر وحياته ، وعن غروب الشسمس ، وعن الجراد ، وعن العقاب ، وعن النعامة ، وعن الحمام (٢) وتوبة بن الحمير عن الحمامة وتشبيه حاله بهسا (٣) وتأبط شرا عن الليل وتداخل الصبح فيسه وتمزيق جلباب الليل (٤) وعمرو بن براقة عن الليل وسكونه (٥) وجحدر بن معساوية عن الليل وعن حمامتين يشبه نواحهما نواحه (٦) وهكذا عن كسل ما تحوى البيئة من مشاهد ومخلوقات ، وليس شعرهم بالطبع في هذا درجة واحدة من الجودة أو دقة التصوير ، ولا أيضا من الاهتمام بتصوير ما يتعرض له من هذه المشاهد والمخلوقات ،

وتبدو روعة شعر الصعاليك عن البيئة ومشاهدها حينما يصور المنظر كاملا، وحينما لا يكون حديثه عارضا ، كما يقطى السياق بذلك أحيانا ، فحين يصور المنظر كاملا يتجل طابع الصعاليك الذى أشرنا البه آنفا ، والذى يتمثل في امرين ، أحدهما دقة الملاحظة الى حد بعيد ، بحيث يصف أحدهم مساهد لا يعن لأحد أن تكون موضع ملاحظة أو حديث ، كما يصف الشنفرى جماعة من النحل ، عادت الى خلاياها فوجدت أن أحد جامعى العسل قد عدا على الحلايا فحطمها ليجمع عسلها « فاعترى النحل دهش شديد جعلها تفتح أفواهها كأن فحطمها ليجمع عسلها « فاعترى النحل دهش شديد جعلها تفتح أفواهها كأن صببن حزنهن ووجومهن في مأتم صاخب أقمنه على خلاياهن المهدمة ، يقودهن في هذا الماتم المشرم (٧) فأصبح الحشرم وجماعته من النحل في مأتمهن كأنهن نساء نوح ثكل ، وطللن في ضجيجهن ومأتمهن ، ثم بدأن يحسسن بأن هذا المأتم لن يجدى عليهن شيئا وانه لا مفر لهن من التعزى ومعاودة الحياة والبناء من جديد ، فيقول :

او الخشرم المبصوث حثحث دبره مهرتة فسسوه كان شسلوقها فضست وضبجت بالبراح كانهسا والخفى والخفيت واتسى واتست به شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وفساء وفساءت بادرات وكلهسا

محا بيض رداهن سام معسل شعوق العصى كالحات وبسل واياه نوح فوق علياء لكسل المسل عزاها وعزته مرمسل وللمسبر ان لم ينفع الشكو أجمل على نكظ ممسا يكاتم مجمل (٨)

⁽١) أنظر ديوان الهذلين ٢/٧٨ ـ ٨٣ -

[·] ١٤٥ ... ١١٧/٢ ... ١٤٥ .

⁽٣) انظر الشمر والشمراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ .

^(£) أنظر الشمر والشمراء لابن قتيبة ١٠٢ م العالجي ·

⁽ه) آلما القالي ۲/۹/۱ •

⁽١) اتظر أمالي القالي ١/٧٧٧ ، ٢٧٨ -

⁽V) التخشرم ملك النحل ورئيس جماعته وهو المروف الآن بسلكة النحل ·

 ⁽٨) من اللامية : سبق نصها مشروحة • ونوح وثكل جمع ثالحة وثكل ·

فدقة الملاحظة التى تبلغ درجة مراقبة حركات النحل ، ووصف افواهها وما يمتريها من آثار وانفعالات ، ثم متابعة موقف كامل من طروف النحل وحياته حتى يبلغ الشاعر بعراقبته وملاحظته نهايته ، هذه الدقة لا تتاح للمشاهد العابر ، وانما تتاح لشخص ملازم للبيئة ، خبير بها وبحياة مخلوقاتها فيها كالصعاليك .

ومن ذلك هذه الدقة البالغة في الملاحظة التي يرسمها أبو خراش لصورة من صور حياة حمر الوحش ، تتمثل هذه الصورة في قطيع من حمر الوحشي اشتد به العطش في يوم شديد الحر ، فيصفه أبو خراش في أبيات طويلة (١) متبعا حركاته منذ خروجه باحثا عن الماء ثم وقوفه على مرتفع متطلعا باحثا عن الماء ، ثم سعى القطيع الى الماء ، فيصف أبو خراش غريزة الحذر في القطيع ، وكيف أنه يسعى مرهفا آذانه لما يبدو حوله من حركات حذر أن يكون في طريقة مشيه ، وصلابة أرجله ، وشدة وقعها على الأرض طريقه صائد ، ويصف طريقة مشيه ، وصلابة أرجله ، وشدة وقعها على الأرض الغليظة ، ثم يصف كيف يفتح الحماد رجليه الأمليتين ، ليجتاز فيما يشسته الغليظة ، ثم يصف كيف يفتح الحماد رجليه الأمليتين ، ليجتاز فيما يشسته الفليظة ، ثم يصف كيف يفتح الحماد رجليه الأمليتين ، ليجتاز فيما يشسته

فلما دنت بعد استماع دهفئه بنقب الحجاب وقعهن رجيل (۲) يفجين بالأيدى على ظهر آجسن له عرمض مستاسد ونجيل (۳)

وهذه الدقة في ملاحظة طبيعة حمر الوحش وحذرها ، وتسبعها الشديد لل يحسسنه حولهن من حركات ، ثم طريقة مشيهن في اجتياز هذا النبات الصلب في الأرض الموحلة المبللة ، هذه الحركات لا يتاح وصلها للمشاهد العابر ، وانعا لملازم البيئة الخبير بها وبطبيعة مخلوقاتها وحياة هذه المخلوقات، ولا تتاح هذه الملازمة الالمثل الصعلوك •

ودقة الملاحظة ، هذه التي أتاحتها لهم ملازمة البيئة ، والخبرة المباشرة بخصائصها ، وخصائص مخلوقاتها ، هي احدى جانبي الطابع المعيز لشعر الصعاليك نحو البيئة ، والجانب الثاني هو ما قلنا من أن شعر الصعاليك يتميز دائما ببروز شخصياتهم في صوره ومشاهده ، وهو ما سميناه بالصراع ، لانهم كما بينا في أكثر من موضع ، لا يبدو أنهم يقولون الشعر لذاته كما يبدو في شعر الشعراء ، وائما يقولونه كالتعبير عن صراعهم في كل وجه من وجوه حياتهم من حيث احساسهم بهذا الصراع ، وتاثرهم به ، وهـو فارق اساسي

 ⁽۱) تحو المنى عشر بيتاً ، انظر ديسبوان الهذلين ۱۱۷/۲ ــ ۱۲۱ وأولها « أرى الدهر
 لا يبقى ۱۰ المنع » وفيها ترصده هو وزميل له للصيد من هذا القطيع •

 ⁽۲) بعد استماع رحمت یعنی بعد استماع ارحمن قیه آذانهن والنقب الطریق والحجاب المرتفع ووقعهن أی وقع ارجلهن ورجیل قوی شدید .

 ⁽٣) يفجين يفتحن أيديهن والآجن الماء الراكد والعرمض نبات صلب ومستاسد قوى والنجيل
 ترح من الحشائش يمنى يفتحن ما بين أيديهن لاجتياز مذا النبات الصلب نى الأرض المرحلة

بين شعرهم عامة وشعر غيرهم ، وأن كانت بعض الموضوعات أكثر أبرازا لهذا

ولذلك تجد كما قلنا أشخاصهم دائما في الصورة ، فحين يقول الشنفرى مثلا واصفا ليلة شديدة البرودة :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها واقطعه اللاثى بها يتنبسل نجده مو بارز المرضع في الصورة فيقول عقب ذلك :

دعست على غطش ويغش وصحبتى سعاد وارزيز ووجر وافكسل (١) وحين يقول واصفا الحر الشديد :

ويوم من الشعرى يدوب لوابه افاعيه في رمضائه تتملل نجده مو بارز الموضع في الصورة أيضا فيقول عقبه:

نصبت له وجهى ولاكن دونه ولا ستر الا الأتحمى المرعبل (٢) وحين يقول أبو خراش واصفا أيضا ليلة باردة مظلمة ممطرة :

وليلة دجن من جمادى سريتها اذا ما استهلت وهيساجية تهمى (٣) يبرز موضعه من الصورة بقوله « سريتها »

وحين يصف أبو خراش حمر الوحش السابقة ، يبرز موضعه من صورتها ايضا بانه كان مترصدا لها بغية الصيد منها بقوله عن موضعه من هذه الحمر :

منيبا وقد امسى تقلم وردها أقيدر محموز القطاع نذيل (٤)

وحين يصف تأبط شرا واديا واسعا ضخما يشبه في نواحي منه جوف العير ، ويتردد فيه عواء الذئاب ، يبين موضعه من الصورة أيضا فيقول :

وواد كجوف العير قفير قطعته به الدئب يعسوى كالخليع الميل فقوله د قطعته ، هو موضعه البادز من الصورة ·

وهكذا حين نتتبع شعر الصعاليك عامة ، وكثيرا من اغراضه خاصة كشعر الطبيعة ، نجد أنه لابد أن يكون للصعلوك فيه أثر يدل على شخصه ، وموضعه من الصورة فقول الشنفرى « دعست » وقوله « نصبت له وجهى »

⁽١) البيتان من اللامية : سبق نصبها مشروحا ٠

⁽٢) البيتان من اللامية أيضا •

⁽٣) أنظر ديوان الهذليين ٢/١٣٠ .

⁽٤) ديوان الهذلين ٢/ ١٣٠ ومنيبا راجما والورد مكان ورود الماء والاقيدر قصير المنق والمحموز شديد الفؤاد والقطاع السهام يريد حاد السهام والنذيل الرث الهيئة المتقشف •

وقول أبى خراش « سريتها » وقوله « تقلم وردها أتيدر » وقول تأبط شرا « قطعته » فى الأبيات السابقة أمثلة للأثر الذى يدل دائما على اشخاص الصعاليك فى شعرهم ، ويجعلهم دائما جزءا مما يعرضون للحديث عنه ، وليسوا مجرد مشاهدين أو متفرجين من خارج الصورة ، كما يغلب على شعر غيرهم .

النحصائي العامة

ونعنى بعموم الخصائص، تلك السمات التى يتغق فيها شعر الصحاليك،

سواء كان من شعر الجاهلين منهم، أو المخضرمين، أولا الاسلاميين، لأننا

سنتحدث بعد ذلك عن بعض سمات ينفرد بها شعر الصعاليك الجاهليين، وأخرى

ينفرد بها شعر الاسلاميين منهم، وحينذاك تؤثر عدم افراد شعر المخضرمين

بقسم خاص في خصائصه لسببين، أحدهما أننا تحس أن شعر المخضرمين

الذى قالوه في الاسلام كان يحمل روحهم الحاصة بهم، أعنى روح الصعاليك،

نتيجة لانطباع نفوسهم بحباتها ومشاعرها الحاصة، وأوضع دليل على ذلك

أنه حتى الشعر الذى قالوه في التوبة عن الصعلكة لم يخل من هذه الروح(١)،

فكان الأسب الحاق هذا الشعر، بالشعر الجاهلي لهم، الا ما كان أثرا مباشرا

من آثار الاسلام كصراع الولاة والسجن، فقد الحقناه بالشعر الاسلامي لهم،

والسبب الثاني علم وضوح الروايات، بكونها لم تحدد الشعر الذى قالوه

في الاسلام، من الذي قالوه في الجاهلية، ولذلك كان جل الاعتماد في هذه

النقطة على موضوع الشعر نفسه وملابساته،

ونعنى بالحصائص السمات العامة التى يتسم بها شعر الصعاليك فى جملته ، والتى يتميز بها عن غيره من الشعر ، ومن الواضح فى هذا أن المقارنة ليست بين شاعرين ، أو قصيدتين ، حتى نتوقع شمول المقارنة واستقصامها لكل المواضيع والنواحى ، ولكننا نقارن بين شعر طائفة مهما اتفقت فى البيئة والنزعة والظروف ، فلا تخلو من بعض ما يقتضيه اختلاف العصور والظروف المحيطة بكل شاعر ، ولكن هذا الاختلاف ، أو مخالفة الحكم العام الذى نطلقه على شعرهم ، لا يؤثر على الحكم ، ما دام فى نطاق الندرة أو القلة أو الشدوذ ، بمعنى أننا حين نطلق حكما على شعر الصعاليك ، ثم نجد مقطرعة أو قصيدة أو شعر شاعر منهم يخالف هذا الحكم ، فلن نعد هذا غريبا أو نقضا للحكم ، فمن العروف أن لكل قاعدة شدودها الذى لا يؤثر فى سلامتها *

فلنتحدث عن أهم ما قراء مميزا لشعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم

⁽١) أنظر فيما سبق قصل صراع السلطة التشريعية •

١ _ تميز روح الشعر

ان أيسر ما يجده الباحث في شعر الصعاليك ، وأبرزه أيضا ، أن شعرهم عامة متميز عن غيره من الشعر تميزا واضحا ، لا يحتاج الى عناء كبير في تبينه ، ولا الى عمق نقد في الاحساس به ٠

وهذا التميز الذي يتسم به شعر الصعاليك لا ينحصر في موضوعات ، ولا في أغراض ، ولا يتمثل في أساليب ومعان ، ولا في منهج واتجاه ، فحسب، تتمثل أحيانا في اختياره أغراضا تتمثل أحيانا في اختياره أغراضا تتمثل أحيانا في اختياره أغراضا لا يطرقها غيره ، أولا تشيع في غيره ، وتتمثل أحيانا في منهج واتجاه لا يظهر في غيره من الشعر ، وتتمثل أحيانا في منهج واتجاه لا يظهر في غيره من الشعر ، وتتمثل أحيانا في تتميز بها ، ولكن ذلك كله يكون تميزه في أغلب الأحيان تأبعا من تميز الروح التي تسرى فيه ، ولكننا لا نستطيع أن نحس بها ، وان كنا ندركها ونشعر بها ،

وعلاقة الشعر بالروح ليست غريبة ، بل يمكن اعتبار الشعر أوثق الانتاج البشرى صلة بالروح ، أو بهذا الشيء الخفي الذي اتفقت العصور على ربط الشعر به ، فقد أحس الناس بصلة خفية بين الشعر ، وبين شيء خفي في الشاعر أو في النفس ، وكانهذا الاحساس منذ القديم ، بل منذ قالوا الشعر وعرفوه ، ثماختلفوا في تصويره ، وفي التعبير عنه ، فسموه أحيانا الهاما ، ثم اختلفوا أيضا في مصدر هذا الالهام ، فعزاه بعضهم الى الآلهة ، كما فعل نقاد اليونان الأقدمين ، وعلى رأسهم افلاطون وتلاميذه (١) ، وجعل بعضهم مصدره العبقرية والموهبة ، كبعض كتاب الرومانتيكية ومن تابعهم من كتاب عصر النهضاة (٢) وجعل البعض الآخر مصدره الروح ومجاهل خفية مستسرة في النفوس البشرية (٢) ، وسمى يعضهم هذا الشيء الحفي ، أو الصلة بين الشعر وهذا الشيء الحفي بالشيطان ، كما فعل شعراء العرب الأقدمين ، حيث صور كل منهم لنفسه شيطانا يوحى اليه الشعر كما يقول حسان بن ثابت :

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطورا أقسول وطورا هوه (٤)

⁽١) أنظر النقد الأدبى الحديث الدكتور محمد غنيمي هلال ٣٧٢ ، ٣٧٣ •

⁽٢) المسدر السابق ٣٧٥ ٠

 ⁽۲) أنظر المصدر السابق وأيضا كتاب في الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ١٠٥ ـ ١١٦ (٤) العيوان للجاحظ ٢٣١/٦ .

ومهما اختلف تصويرهم أو تعبيرهم عن هذا الشيء الخفي ، أو عن الصلة بين الشعر وهذا الشيء ، فأن هناك اتفاقا بين كل العصور والامم على أن هناك رابطة ما بين الشعر والنفس أو الروح أو هذا الشيء الخفي ، وعلى أن هسنه الرابطة ليست كرابطة الانتاج العملي البحت ، وقد يختلفون أيضا في تصوير هذه الرابطة والتعبير عنها ، ولكنهم لا يختلفون على مبدئها وجوهرها وقد عبر نقاد العسرب القدامي عن جانب من ذلك بقولهم « وانها سمى الشاعر شاعرا لانه يشعر بسالا يشعر به غيره » (١) .

واذن فالشعر يرتبط ارتباطا مباشرا بروح الشاعر ومشاعره ، وبالتالى تنعكس هذه الروح ، وتلك المساعر في شعره ، وهما سبق كله علمنا أنه كانت للصعاليك روح خاصة في مقوماتها الذاتية ، ومشاعر خاصة نحو انفسهم ونحو الناس ، ونحو الحياة نفسها ، كما كانت لهم حياتهم ومعيشتهم وأساليبهم الخاصة التي أثرت في نفوسبهم ومشاعرهم ، ومن البدهي في الاستنتاج أنه ما دام الشعر مرتبطا بالروح والمشاغر أرتباط الاتعكاس والتأثير ، وما دامت للصعاليك روحهم ومشاعرهم الخاصة ، فينبغي أن يكون شعرهم ذا طابع خاص نتيجة لذلك ،

وكما قلنا لا نعنى من هذا الحديث الآن أن نفرق بين شدم الصعاليك وغيره من حيث الموضوعات والأغراض ، أو من حيث النواحى المحسوسة فى الشمر ، وانها نعنى الروح التى تسرى فى الشعر فيصطبغ بها ، ومن الواضع أنه يمكن التفريق بين شعر وآخر بمجرد اختلاف صبغة هذه الروح ، كما يمكن التفريق مثلا بين روح شعر الرئاء وروح شعر الفخر أو المدح ، وإن كان التفريق أو النقد لمجرد الروح ، دون تمثل هذه الروح فى مواضع محسوسة ، من الدقة بمكان فى أغلب الأحيان .

وقد أحس نقاد العرب بهذا الفارق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، فنراهم قد اعتمدوا في بعض المواضع في التغريق بين شعر الصعاليك وغيرهم ، لمجرد احساسهم بروح الصعلكة في الشعر ، سواء تمثلت هذه الروح في موضع محسوس من الموضوعات التي طرقها الصعاليك وغلبت عليهم دون غيرهم ، أم لم تتمثل ، فنجد البغدادي مثلا يخرج أربعة أبيات من معلقة أمرى القيس اللامية وهي :

وقربة اقدوام جعلت عمسامها على كاهدل مثى ذلول مسرحل وواد كجوف العبر قفر قطعته به الدئب يعوى كالخليع الميل فقلت له لا عوى ان شسائنا قليل الغنى ان كنت لما تمول

⁽١) الممدة لابن رشيق ١١٦/١ وخزالة البفدادى ١٨٤/١ (الشاهد ٣٨) ولفظ الخزالة ه ٠٠٠ لانه يقسر لمالا يشمر له غيره » ٠

كلانا اذا ما نال شيئا افاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل (١)

وقد أيد البغدادى نفى هذه الأبيات عن امرى القيس ونسبتها الى نابط شرا ، مكنفيا فى تعقيبه على نسبتها لتأبط شرا بقوله « وهذا الشعر أشبه بكلام اللص والصعلوك ، لا بكلام الملوك (٢) » فحكم بنسبتها الى تأبط شرا لمجرد احساسه بأن دلالتها وروحها توحى بأنها شعر صعلوك .

ومما يجعل هذا التمييز بين شعر الصعاليك وغيره واضحا ، أن شعر الصعاليك في جملته لا يعدو تصوير حياة الصعاليك ونفسياتهم ، وحياة الصعاليك بطبعها متميزة كل التميز عن الحياة العادية للناس ، وكذلك نفسياتهم متميزة أيضا نتيجة لتكرينها الخاص ، ولانعكاس حياتهم عليها ، وقد وأينا فيما سبق أن موضوعات شعرهم لا تكاد تخرج عن هذين الحدين ، تصوير حياتهم ونفسياتهم ، وأن شعرهم كان وسيلتهم الى تصوير هذين الجانبين ،

وبعد هذا الحديث عن الطابع العام الذى يتسم به شعر الصعاليك ، والذى يبكن اعتباره لدى الناقد الدقيق الحس من أهم الفواصل التى تميز شسعر الصعاليك عامة عن شعر غيرهم ، بعد ذلك نستعرض أهم الحصائص الموضوعية والفنية التى تراها بعد دراستنا لشعرهم مميزة له عن غيره .

ومن الواضع أن الخصائص والمزايا التي يحملها أي شعر ، ليست حواجز حسية غير قابلة للرأى والاختلاف ، كما أن الحديث عن كل من هذه الخصائص والمزايا لا يعنى الاستقصاء الكايل ، ولا يعنى أن الخصيصة والمزية موجودة في كل شعر ، ولهي كل شعر ، ولهي كل شاعر ممن يعينهم الحديث ، وائما يكتفى في ذلك كله بالاكثرية والغلبة ، كشأن الاحكام العامة ، وعلى هذا الأساس نتحدث عن أهم خصائص شعر الصعاليك ومزاياه .

٢ - الخصائص السلبية

و نعنى بالسلبية أن فن الشعر العربى عامة موضوعات تشيع فيه ، ولكننا لا نجد هذه الموضوعات فى شعر الصعاليك ، فخاو شعرهم من هذه الموضوعات هو ما تعنيه بالسلبية •

والمرضوعات والأغراض التى خلا منها شعر الصعاليك مع شيوعها فى غيره من الشعر غير قليلة ، ويمكن أن القول عنها بصفة عامة ، أن الفارق بينهم وبين غيرهم من الشعراء فى اختيار الموضوعات والأغراض ، بمقدار الفارق بين رجل

⁽١) الشعل الأول يعنى به سرعة عدو كل منهما ، والشعل الثاني يعنى أن معيشة كل منهما تجعل جسمه هزيلا لعيلا .

⁽٢) خُزَانَةَ الأدب للبغدادي ٩٣/١ (الشاهد ١٥) ٠

مجاف للمجتمع ، يعانى مرارة الفتو ، ويصارع أشد الصراع ليحصل على عيشى يقيم أوده فى كرامة وعزة ، وليثبت لنفسه مكانا وموضعاً فى مجتمعه ، وبين رجل وادع مادىء الحياة ، ميسور الحال ، شديد الخلطة بالمجتمع وبما فيه من الوان الحياة والمعيشة .

وحين لا نرى بدأ من تحديد هذا الحكم غير المحدود ، نقول أن أبرز ما خلا منه شمس الصماليك مع شيوعه في غيره ما يأتى :

١ _ شعر الترف:

*

والترف بالطبع أمر نسبى يختلف باختلاف المجتمعات من حيث أسلوب حياتها ، ومن حيث مستوى معيشتها ، ومن حيث نواح أخرى كثيرة ، ففلاح القرية مثلا يرى ترفا شديدا في أشياء يعدها ساكن المدينة من أبسط ضروريات الحياة ، وهكذا فالترف الذي تتحدث عنه هو الترف في عرف البيئة التي عاش فيها الصعاليك •

واهم مجال لترف الحياة في البيئة حينذاك كان يتمثل في ناحيتين احداهما مجالس اللهو ومتعتها الحمر والأخرى التهافت على المرأة والتمتع بها ، واذا كان لنا أن نعتبر أن في الله ر النفسي ترفا ، فان هناك ترفا ثالثا في بيئتهم، هو الشعور بالزهو والحيلاء .

هذه المجالات الثلاثة للترف نجدها في ثلاثة موضوعات رئيسة في الشعر العربي ، تفيض بها دواوين الشعراء ، وروايات الرواة ، هي أشنعار المهمر ، وما يحيط بها من وصف مجالس الشراب ، وما فيها من قيان في الجاهلية والاسلام ، ثم الغلمان في بعض عصور الاسلام ، وأشعار الغزل وما أفاض فيه الشعراء من هيام بالمرأة ، ولهفة جامحة اليها ، واسراف أحيانا في فحش الفزل وتتبع العوزات فيه ، وأشعار الفخر ، وما أفاض فيه الشعراء ، وخاصة فرسائهم من زهو وخيلاء شديدين ولكننا حين لذهب الى شمعرا وخاصة فرسائهم من زهو وخيلاء شديدين ولكننا حين لذهب الى شمعرا الصعاليك نجده يختلف عن غيره اختلافا واضحا في هذه النواحي جميعا •

فاما الخبر ، فلا نكاد نجد لحديثها اثرا في شهه الصعاليك ، جاهليهم ومسلميهم ، فلم يتخذها شاعر منهم قط موضوعا مستقلا أو غرضا بارزا في شعره ، أو حتى عنصرا في قصيدة ، ومن باب أولى ما يحيط بها من مجالس الشراب وما فيها ، ففي المرات المعدودة التي عرض فيها ذكر الخمر في شعر الصعاليك ، لم يتخذوها حينئذ موضوعا ولا غرضا ، وانها ذكرا عابرا حينا ، ونفورا منهها أحيانا ، وفي كلا الحالين لم يبد قط أنهم اتخذوها متعة من متع حياتهم ، أو حتى شيئا مالوفا ، وأبرز حديث على ندرته في شعرهم عن الخمر ، حيث يتحدث عن الخمر واصفا مجلس شرابها فيقول :

وقد غلوت وقرن الشهس منفتق الى التجهار فاعهدانى بلاته خرق يجد اذا ما الأمر جهد به حتى اتكانا عهل فرش يزينها فيها الدجاج وفيها الأسد مخهدة

رخو الأزار كصدر السيف مشمول(۱) مغاط اللهو واللذات فسليل (۲) من جيد الرقم أزواج تهساويل (۳) من كل شيء يرى فيها تماثيل (٤)

ودونه من سواد الليل تجليل

الى أن يقول :

ثم اصطحبت كميتا قرقفا أنفيا من طيب الراح واللذات تعليل (٥) مروا مزاجيا واحيانا يعللنا شعر كمذهبة السمان محمول (٦)

نعبدة بن الطبيب بهذا يصف الخمر وساقيها ومجلس شرابها وصف الشارب ، المتلذذ ، ولكننا حين ننظر الى الظروف المحيطة بهذا الشمار ما ناتم : -

القادسية وكان حينئذ في أخريات أيامه حيث يتحسدت في البيت الثامن من القصيدة نفسها عن شيبه ، ومعنى ذلك أنه كان حينئذ قد ترك الصعلكة أما لتوبته بدليل أنه شهد الفادسية كما روى الطبرى (٧) ، وأما لأن شيخوخته قد صرفته عن الصعلكة ، وحيث أن القصيدة قد صدرت في ظروف بعيدة عن حياة الصعلكة ، فقد كان من المكن استبعادها من شعر الصعاليك بالمعنى الدقيق لشعرهم لولا انها تحمل بقية من روح الصعلوك ومشساعره وذكرياته في الصعلكة ،

٢ ــ القصيدة طويلة ، تبلغ واحدا وثمانين بيتا ، وأبيات الخمر هذه تعتبر
 قلة فيها ، بالاضافة الى أنها مسوقة فى آخر القصيدة .

٣ - أخبار القصيدة ، وموضوع القصيدة نفسه ، كل ذلك يفهم منه أن هذه الحادثة التي وصفها عبدة لم تكن بموطنه ولا بارض العرب ، وإنما كانت في العراق ، حيث شهد عبدة مع المسلمين وقعة القادسية ، وإن كان سبب سفره الى هناك أنه تمع حليلة له هاجرت إلى هذا الموطن ، وأبت أن تعود معه ، وهناك في احدى بلاد العجم عرض له هذا المجلس بخمره ، أو هذه الحمر بمجلسها ، ووصفه للستائر والبسط ، والمبانى ، والرسوم والتماثيل يؤكد ذلك ، حيث لم تكن هذه المظاهر قد عرفت حينذاك في موطن عبدة من بلاد العرب ، ومعني

⁽١) المغضليات ١٤٣ ــ ١٤٥ والتجار يعنى الخمارين وأعدائي أعانني ٠

⁽٢) خرق بمعنى متفئن مختلف الشيئون والضليل المتمادي في غيه ٠

⁽٣) يعنى الرسوم في البسط والستائر •

⁽٤) من أتواع الرسوم في البسط -

⁽٥) الكميت الخمر والقرقف التي ترعش شاربها والأنف يعني البكر ٠

⁽٦) السمان وشي مقارب مأخوذ من سم الخياط ٠

۷) تاریخه ۱۹۳۶ ۰

ذلك أن حديثه هذا ، أو حادثته تلك ، لا تمثل أسلوب حياته ، ولا طابع معيشته وانما تمثل فترة عارضة عابرة في حياته ، ولذلك لم تتكرر في شعره • واذن فلا تصلح هذه الحادثة التي وصفها عبدة مثالا لحياة الصعاليك ، ولا لحياته هو وبالتالي لا يعتبر الشعر المصور لها مثالا لشيء من ذلك *

وعروة بن الورد يتحدث مرة عن الخمر ، ولكن ليس حديث الود بينـــه وبينها ، وانها حديث السخط عليها ، حيث ارتبط شربه اياها بموقف آلمه وبعث في قلبه ندما شديدا ، وذلك أنه كان قد أصاب في أحدى غاراته امرأة كنانية من مزينة ، فاتخذها زوجا ، ومر بها على بني النضير ، فراق لهــم أن يسلبوها منه ، فدبروا حيلة خبيثة ، مؤداها أنهم أسكروه بشرب الحمر ، ثم استوهبوه زوجه ، فوهبها لهم وهو سكران كما يقول ابن السكيت (١) ، أو رهنها في سكره ثم ظلوا يسقونه مستزيدين اياه في الرهن حتى غلق كما يقول الأصفهاني (٢) ، وأياما يكون فقد كان تصرفه بالهبة أو الرحن لحلال سكره ، ثم أفاق على هذه الحقيقة المؤلمة التي يأبي العرف الرجوع فيها ، وقد عبر عروه بعد ذلك عن سخطه على الخمر وعلى اليهود بقوله :

فلا والله لو ملكست أمسسرى ومن لى بالتدبر في الأمسسور

سيقونى الخمس ثم تكنفوني عسلاة الله مسن كذب وذور وقالوا لست بعد فداء سلمى بمغن ما لديك ولا فقسير اذا لعصيتهم في حب سملمي على ما كان من حسمك الصدور فيا للناس كيف غلبت أمسرى على شيء ويكرهسه ضسميرى (٣)

وهكذا استطاع اليهود بخبثهم وحديعتهم أن يسلبوا عروة زوجه ، ثم كانت سلمي هذه معهم حين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة (٤) .

وهذه القصة توحى بأن عروة لم يكن مدمن خمر ، فلو كأن كذلك لم يكن حديثه عن الخمر ، بهذا التعبير الذي يوحى بأنها شيء غريب على حياته ، وليست شيئا اليفا له ، وهو « سقوني الخمر ، بدليل أننا لم نر له حديثا آخر عن الخمر ومن الواضع أن ذكره للخس بهذه الصورة لا يعتبر من باب الحسريات ، من حيث وصفها ووصف مجالسها ، أو الولوع بها أو تحو ذلك ٠

⁽١) أنظر شرح ديوان عروة لابن السكيت ٨١ .

⁽٢) إنظر أغانى الاصلهائي ٧٥/٣ وابن قتيبة في الشمر والشميعراء ٥٩ لم يذكر قصة الخبر في أخبار سلمي هذه ٠

⁽٣) أغاني الأصفهاني ٣٧/٣ وديوان عروة بن الورد ٨١ والشعر والشعماء لاين قتبية ١٥٩ - ١٦٠ مع اختلاف في السياق حيث ذكر أن سبب قراق سلمي هذه لعروة اختيارها قومها عليه ، مع اختلاف في الغاظ الشعر أيضا *

⁽٤) أغانى الأصفهائي ٣/٧٥ ٠

على أننا يبعب أن نعقب على هذه القصة التي سلب فيها عروة زوجه ، يأنها لا تسيء الى عروة ، لأنه لم يتعد في شريه الخبر سلوكا يقره عرف مجتمعه وانما الاساءة كل الاساءة من اليهود ، ومن العرف الذي يجعل مثل خديعتهم هذه عملا مشروعا ، ومن العجيب أننا في الوقت الذي نعتقد فيه أن مثل مذا السلوك وهذا العرف كان في جاهلية متخلفة ، نجد هذه القصة ، وبصورتها تحدث في أيامنا هذه ، كما طالعتنا الصحف منذ بضعة أيام فقط ، بقصة كهذه القصة (١) وحين يصدق القول بأن عروة بن الورد كان يعيش في مجتمع جاهلي ، لا يصدق القول بأن المجتمع الذي حدثت فيه قصة اليوم جاهلي ، ولكنه مع وضوح خبث اليهود في قصة عروة ، لا تستطيع اعفاء مجتمعي الفصتين من جريمة الاعتراف بمثل هذا المسلك الخادع في غير شرف ، واعتباره عملا مشروعا ، وهذا المعنى بالذات ، هو الذي يلفت نظرنا في قصة اليوم ، فهي لا تعنينا من حيث انها حادث ، فالشذوذ الفردي لا يخلو منه مجتمع وانما تعنينا من حيث اعتراف المجتمع بهذا الشذوذ ، وحمايته له ، واعتباره عملا مشروعا ،

ولسنا نمتطى الشطط حين نقول أن مجتمع قصة اليوم ، لم يرتفع كثيرا عن جاهلية مجتمع عروة من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، أن لم يكن قد نزل عنه درجات باسم الحضارة والقوة والحرية .

فاذا كان مجتمع ايطاليا الذى يبيح عرفه وتشريعه لرجل قانون أن يشترى المرأة من زوجها جاعلا لرأة كاى سلعة تباع وتشترى ، فليس هسو المجتمع الوحيد فى الغرب الذى ينزل الى هسذه الجاهلية الخلقية والاجتماعية ، السنا نرى هذه الأسابيع فى بريطانيا موجة من الاحياء والحماية لرذائل كانت تنفر منها أشد المجتمعات ايغالا فى الجاهلية والبداوة ؟ كما فعل مجلس عمومهم وهو أعلى هيئة فى الدولة سحين وافق بما يشبه الاجماع على اباحة الشسنون الجماض واعتباره عملا مشروعا ، كما وافقوا بما يشبه الاجماع أيضا على اباحة الاجماض (٢) الذى يعنى سفضلا عن قتله نفوسا بريئة ساباحة البغاء ، لأن الاجهاض فى معظم صوره تخلص من ثمرة خطيئة ،

وألسنا نرى في أمريكا اليوم صورا من التفرقة العنصرية لم يعرفها أنسسد

⁽۱) ورد فی صحیفة الأمرام بتاریخ ۱۹۷۷/۷/۱۱ بعنوان « رجل یبیع زوجته ب ۱۱ جنیها و ۱۰ شلنات « باع رجل زوجته ب ۱۱ جنیها و ۱۰ شلنات فی مدینة میلانو الایطالیة ، قال الرجل واسمه انطونینی داندیتا و هو فلاح عبره ٤٢ سنة فی بلاغه الی البولیس آله کان یشرب الخمر فی بار ، واستمو فی الشرب حتی فقد وعیه الی حد آن صدیق زوجته وهی شابة جمله یوفع علی عقد یبیع فیه الزوجة ، قال الزوج السکران الشاکی آن صدیق زوجته معام ، وقد استفل خبرته القانونیة فی تحریر العقد ، وهو ینص علی آن یبیع زوجته لقاء ۲۰ الف لیرة الطالیة ، آی ما یقرب من ۱۱ جنیها استرلینیا و ۱۰ شلنات ۰

المجتمعات أبعادا في الجاهلية ، حيث لا يستطيع الرجل من غير البيض أن يركب عربة أو يدخل مطعما أو ينتسب الى مدرسة فيها البيض ؟

واذا كانت هذه الصور تعنى على وجه اليفين التاريخي ، كما يؤيد التاريخ كله ـ أن هذا الانهيار الخلقي والاجتماعي يعنى ارهاصا مباشرا ، يؤذن بافول الدولة ، والانحدار السريع لمجدها وحضارتها ، فان ذلك لا يمنع من القول كنوع من التعليل بأن مجتمع الغرب اليوم شديد الشبه بمجتمع عروة بن الورد في وقوع كل منهما خارج اثرة النور السماوي بهديه وخلقه وتشريعه ، حيث كان مجتمع عروة سابقا لنور السماء ، وحبث يعيش مجتمع اليوم في ظلامه الخلقي والاجتماعي منذ أطفأ البقية الباقية من نوره السماوي منذ نحو قرن من الزمان فيما سموه في الغرب حينذاك بالاصلاح الديني ، وبينما يمكن لمجتمع عروة أن يجد ما يدافع به ، لا نرى لمجتمع اليوم في الغرب هذا الدفاع ، على أنه مما لا يجد ما يدافع به ، لا نرى لمجتمع اليوم في الغرب هذا الدفاع ، على أنه مما لا شك فيه أن مجتمع عروة ربا بنفسه عن كثير من تلك الحطايا ،

ولم نعن بهذا الحديث استطرادا ، وانما هى تكملة صورة اقتضاها مقسام المقارنة بين مجتمع من مجتمعات موضوع البحث ومجتمع يزعم لنفسه حضارة وخلقا ومبادى، ، وأهم من ذلك توضيح ملابسات أحاطت ببعض سلوك شاعريهم موضوع البحث وهو عروة بن الورد ·

و نعود الى عروة بن الورد ، فنقول انه لم يكن شعره هذا واصف خمر ، وانها كان شاكيا خبث قوم حمتهم جهالة المجتمع

بل من الغريب أنه حتى الذين اتصلت حياتهم بحياة المجتمعات ، ومجالس السادة والأمراء ، كبكر بن النطاح ، وأبى الطمحان القينى ، لم يرد فيما بلغنا من شعرهم حديث للخمر • فقد خلا اذن شعر الصعاليك من هذا النوع من الترف الذى كان أبرز مجال للترف والمتعة واللهو حينذاك ، كما كان من أبرز موضوعات شعرهم وأغراضه أيضا •

ولم يكن خلو شعرهم منه ، ومن الترف بصفة عامة غريبا ، فحياتهم جادة كادحة لا تحتمل ترفا ولا دعة ولا لينا ، فضلا عن أنهم لم يكونوا بملكون ما يترفون به ، حتى ان الرواية التى ذكرت ان عروة رهن زوجه فى القصة السابقة ذكرت أن اليهود استغلوا فقر عروة ، حيث لم يكن لديه شىء يرهنه غبر زوجه (١) وحتى اننا نرى صعلوكا كالأعلم الهذلى ، لا يرقى خياله فى الترف الى أن يملك زقا من خمر ، وانها يتصور أن أقصى ما يتخيله من ترف يجعله كالملوك أن يملك قربة صغيرة يملؤها من طعام جيد فيقول عن نفسه :

⁽١) أنظر الأغانى للأصفهاني ٣٨/٣ •

ويحسب نفسه ملكا أذا ما توسه ظبية الأقط الجلال (١) ومالك بن الريب يحدثنا عن أنه لم يذق طعم الترف قط فيقول عن نفسه : للم يدر ما غهرف القصور وفيؤها طيبا ونخسل سهوادها المتمايل (٢)

وحين نعود الى حياة الفقر والجوع والهزال التى عاشوها وعانوا منها ، والتى كانت فى جملتها غالبة عليهم جميعا ، والتى لسم تستطع جهودهم على صلابتها فى الصملكة أن تخرجهم منها أو تبعدهم عنها كثيرا ، حين نعود لنلقى نظرة أخرى على هذه الحياة نعلم أنه لا غرابة فى أن تخلو حياتهم وبالتالى شعرهم من أى مظهر من مظاهر ترف المعيشة ، بل الغرابة أن يوجد فيها ذلك ، حينئذ كان سيبدو التناقض أو التباعد الشديد بين بعض شعرهم كشعر الفقر وآثاره ، والبعض الآخر كشعر الترف .

٢ _ الف_حش :

ومما خلا منه شعر الصعاليك بصورة واضحة أيضا الفحش ، فبينها نجد الفحش في الألفاظ والمعانى شائعا في كثير من الشعر ، وخاصة في شعر الغزل ، وشعر الهجاء ، نجد شعر الصعاليك كما أشرنا إلى ذلك في هذين الموضعين أعف الشعر لسانا ، وأبعده عن الفحش والبذاءة ·

فمما يبعث على التقدير لشعر الصعاليك ، سواء جاهليه واسلاميه ، أن نراه دائما متزملا رداء من العفة والحياء ، ومكتسيا ثوبا ناصعا ، لا تدنسه بقعة من فحش ، ولا يعيبه ثقب يكشف عن ستر •

ومما يدعو للعجب ، أننا نحاول أن نجد كلمة لهم نستثنيها من هاده القاعدة ، أو شيئا فيه حتى شبهة فحش تستدعى شرحها أو بيان موقفهم منها ، فلا نعشر من ذلك على شيء •

بل نجد شعرهم على العكس من ذلك ، لا يكتفى بمجرد خلوه من الفحش ، وانما يفيض بالفاظ العفة ومعانيها ، واضعا نفسه موضع النموذج والقدوة الكريمة في هذا المجال •

ومن الغريب أنه حتى من شذ منهم _ على الندرة _ في خلقه كابي الطمحان

⁽١) ديوان الهذلبين ٨٣/٢ والطبية جراب صغير قبل أنه يتخذ من جلد الظبية . والأعط طمام يتخذ من الملبن المخيض يطبخ ثم يعرك حتى يمصل .

⁽٢) مهذب الأغاني ٥/١٤ -

القينى الذى يصفه الأصفهانى بأنه « أدرك الجاهلية والاسلام فكان خبيث الدين فيهما » (١) والذى يصفه أبن قتيبة بأنه « كان فاسقا » (٢) والذى اتفقوا جميعا على مزاولته شيئا من سلوك ينافى الخلق ، وينافى ما عرف عن الصعاليك كما قلنا سابقا ، نقول أنه حتى مثل أبى الطمحان ، مع مزاولته لبعض الفحش فى سلوكه ، الا أننا لا نجد فيما بلغنا من شعره فحشا ، ولا ما هـو قريب من الفسحش .

واذا أردنا أن نتبين مدى نصاعة شعر الصعاليك وطهره من الفحش ، فلنلق نظرة عليه ، ثم لنلق نظرة على ما ساقته كتب الأدب من فحش الشعراء ، وخاصة فى الغزل وتتبع عورات النساء (٣) وكذلك أبواب الهجاء فى دواوين الشميع وكتب الأدب ، فاننا حين نرى ما تفيض به من فحش ، نرى فى أى موضع من العفة والحياء كان الصعاليك وكان شعرهم سواء فى الجاهلية والاسلام ،

٣ _ الزهو والخيلاء:

ومما خلا منه شمر الصعاليك أيضا ظهور الزهو والخيلاء ، وليس معنى ذلك أنه خلا من الفخر ، الذى ينطوى فيه الزهو ، فقد فخر الصعاليك كما فخر غيرهم ، ولكن فخرهم يختلف اختلافا بينا عن فخر غيرهم ، فأول ما يلاحظ على فخر الصعاليك أنه يبدو وكأنه غير مقصود لذاته ، بل كثيرا ما يبدو في ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده بعيدا عن الفخر ، بل قد يحمل شيئا مما يتعارض مع الفخر ، وأبواب كثيرة مما سبق يصلح شعرها كله مثالا لذلك ، فشعرهم في الصبر وقوة الارادة ، والاستهائة بالموت ، قد يبدو كل ذلك في ظاهره فخرا ، ولكننا حين نتأمله نجده لا يحمل الا شعورا بجهد الحياة ، والصراع معها ومجالدتها .

ولذلك كان فخرهم قليلا محدودا ، ومع قلته فانه يختلف بصورة بينة عن غيره من أشعار الفخر ، فبينما نجد أشعار الفخر لدى غيرهم تفيض مباهـــاة وتحديا وزهوا وتهويلا في وصف القوة والاعتداد بالنفس وفضائلها ، نجد فخر الصعاليك رزينا متواضعا كريما ، لا يلجأ قط الى تهويل أو مبالغة ، بل يكتفى في أقل الأحيان بتصوير موضع الفخر في بسـاطة وقرب شـــديد من

⁽١) الأغاني ١٣/٢٠٠

⁽٢) الشيمر والشمراء ١/٣٤٨ ٠

 ⁽٣) انظر معاهد التنصيص، للعباسى وانظر نهاية الارب للنويرى وخاصة المواضع الآتية ١١/٢ ــ ١٥ ، ٢/٥/٢ ــ ١٣٤ ، ١٣٤/٢ ــ ٢٧٧ ٠

الحقيقة ، أما في أكثر الأحيان فانه يكاد يمحو الفخر محوا ، كأن يتحدث مثلا عن قوة الارادة أو الصبر ، وقد يبدو هذا الحديث سياق فخر ، واذا الشماع يكسوه صبغة الصراع ، وكأنه يقول : لا تظنوا أنى أفخر ، وانما أضرب لكم مثلا مما أعانيه ، وكأن يتحدث مثلا عن كرمه وجوده ، وكان يمكن أن يتخذ منه مجالا رفيعا للفخر في مجتمع يمجد الكرم ، وإذا الشاعر يحول أنظارنا عن الفخر الى معركة حول هذا الجود ، هو أحد طرفيها ، والطرف الآخمر خليط من زوجه وعذاله وأهله والطامعين في الكرم ، وكأن الشاعر يقول لنا أيضا أنني لا أفخر بهذا الكرم ، وأنما أشكو الذين يريدون أن يحولوا بيني وبينه ، كما سبق عند الحديث عن اشتراكيتهم ، وقد يتحدث أحدهم أيضا عن القوة والبسالة والجرأة ، فيبدو وكأنه يفخر ، وأذا هو يحول الأنظار عن أن نفهم ذلك بأى معنى يبعد حديثه غن الفخر ، وأنه يقول : أنني لا أعنى من حديثي فخرا ولا زهوا بقوتي ، وأنما أعنى أنني قادر على أنفاذ ما أريد ، وقادر على تحدي الأعداء ، ومستهين بالنتائج مهما تكن ،

وهذه المعانى نجدها دائما محور شعر الصعاليك حين يتحدثون عما يوحى بأنه فغر ، ونجدهم دائما يحولون وجههة حديثهم عن طريق الفخر الى طريق الصراع ، أو طريق الرزانة والاعتدال ، وفى كلا الحالين نشعر كأنهم يتعمدون عدم الفخر ، هذا قى الوقت الذى نجد فيه غيرهم من الشعراء يحاول على عكسهم أن يكبر الصغير فى صفاته ، وأن يجعل من يسيرها شيئا عظيما بما يضفيه عليها من صور المبالغة والخيال ويمكن تعليل علم نزوع الصعاليك الى الجمور والتطرف فى الفخر ، بأنه تكملة لصفة الثبات والاعتدال فيهم ، تلك الصفة التى بدت فى تحملهم للفقر وآثاره ، وللمشقة العنيفة التى يقاسونها فى حياتهم ، بدن ضجر أو تذمر ، فكما أن جهد الحياة ومشقتها وآلامها لم تزعزع ثباتهم ، ولم تخرجهم عن ثبات نفوسهم واعتدالها لتدفعهم كما دفعت غيرهم الى صورة من مور التطرف ومجاوزة الاعتدال كالزهو والخيلاء والغرور ،

وهذا الثبات والاعتدال ليس اختياريا بالنسبة لصاحبه ، بمقدار ما هو صفة أو أثر لصفة فيه ، فيمكن أن تردهذا الثبات والاعتدال في حالى الخير والشر في نفوس الصعاليك الى قوة نفوسهم ، حيث كانت نفوسهم أقوى من أن تجذبها عوامل الابتئاس الى أسفل بالضعف والانهيار ، أو أن تجذبها عوامل الفخر الى أعلى بالزهو والغرور ، وشعرهم نفسه يصرح بهذا المعنى ، حيث يتردد فى شعرهم كثيرا أنهم لا الفقر يضعف نفوسهم أو يغيرها عن خلقها ، ولا الغنى يزدهيهم أو يخرجهم عن وقارهم كما يقول الشنفرى من اللامية :

وأعدم أحيانا واغسني وانمسا ينسال الغسني ذو البعدة المتبذل

فيلا جيزع من خلة مكتشف ولا مسرح تحت الغنى أتخيل (١) وكما يقول سعد بن ناشب عن هذا المعنى أيضا :

فان تعمدليني تعمدل بي مرزءا كريم نثا الاعسار مشترك اليسر (٢)

فكما كان الصعاليك مثلا رائعا في الصبر والقدرة على مشقات ومصاعب لا يقوى على احتمالها غيرهم ، كذلك كانوا مثلا في تجنبهم الزهو والخيلاء ، مح أنهم كانوا يملكون قدرا عظيما من أهم صفتين يتفاخر بهما مجتمعهم ، وهما القوة التي لا ينازع في أنهم بلغوا منها مكانا رفيعا ، والكرم الذي سبقوا باشتراكيتهم فيه مجتمعهم ، حتى ضرب بهم مجتمعهم المثل فيه ، حيث قالوا « كل صعلوك جواد » (٣) .

٣ ـ تمثيل الحياة الشخصية

نعنى بتمثيل الحياة الشخصية أن شعر الصعاليك يصور الحياة الشخصية لكل منهم ، ولئن كان شعرهم متفقا أو متقاربا في تصويره هذا ، فلأن حياتهم نفسها متفقة أو متقاربة، ومن البين الواضح في شعر الصعاليك أننا حين نقرأ شعر أحدهم نستشف من خلاله حياة صاحبه ، وأسلوب معيشته ، ومذهبه في الحياة ، وصلاته بغيره ، بل وأفكاره ومشاعره في أغلب الأحيان ، ولذلك نلاحظ بوضوح أن المؤلفين يتخذون دائما من شعرهم مصدرا أساسيا في أخبارهم وتراجمهم ، وأن اعتمادهم في هذا على شعرهم نفسه أكثر من اعتمادهم على الروايات والأخبار، نظرا لأن الروايات عن أشخاص الصعاليك وظروفهم وأحداثهم ليست ، بالكثرة التي ترسم لكل منهم تاريخا وترجمة كالملة ، لعدة أسباب منها تعثر الرواية في العصر الجاهل ، ومنها عزلة الصعاليك ، وصدور معظم أحداث حياتهم في أماكن عزلتهم بالصحراوات ، مما لا يتيح للمجتمع أو الرواة الالمام بها الماما واضمحا مفصلا كأحداث غيرهم من سكان المجتمعات ، وقد يكون منها أيضا شيء من حذر أحاط بالعلماء في الاسلام في تناولهم لأحداث الصعلكة وجرائمها الثي ينكرها الاسلام ويحاربها ، ولذلك كان هم العلماء نحو من تناولوا ذكرهم من الصعاليك منصباً على شعرهم نفسه ، لأن الاسلام من فضائله اقرار الشعر لذاته ، بصرف النظر عن صدوره من شعص مرضى عنه أو مسخوط عليه ، وبصرف النظر عن تناول الشبعر نفسه لموضوع معروف أو منكر ، وبالاضافة الى سماحة أخرى في الاسلام ، وهي عدم الانكار على راو في رواية معروف أو منكر مما صـــوره

⁽١) اللامية : والخلة الغقر ومتكشف يعنى لا ينكشف فقرى لأحد وأتغيل من الخيلاء ٠

⁽٢) حماسة أبى تمام ١/٢٧٢ والنثا الخبر والاعسار الغقر واليس الغنى •

⁽٣) مجمع الأمثال للميدائي ٢/١٥٩ •

العلماء في قولهم « ناقل الكفر ليس بكافر » ولولا هذه السماحات في الاسلام لحسرنا جوانب كبيرة ومهمة من الأدب العربي وتاريخه ٠

ومهما تكن الأسباب ، فمن الواضح أن المؤلفين اعتمدوا في جانب كبير من أخبار الصعاليك على شعرهم ، حيث وجدوا هذه الاخبار واضحة في شعرهم ، وأوضح ما يكون ذلك في حديث الأصفهاني عن الصعاليك ، بل الأغرب من ذلك أننا نجد وصف أجسام معظمهم وأشكالهم في شعرهم (١) وقد يكون شمعر الصعاليك بهذه الميزة منفردا عن غيره قاطبة من الشعر ، فقد نقرأ ديوانا لشاعر من غير الصمعاليك ، فنرى فيه موضوعات شتى ، وافكارا مختلفة ، وأحداثا متنوعة ، ولكننا لا نكاد نعلم عن شاعر الديوان نفسه كثيرا ، ونجدنا بعد قراءة ديوانه كله في حاجة الى أن نعلم من هو ؟ وما معيشته وعمله ؟ وما أخباره وأحداث حياته ؟ لأن شعره أن يكن أظهرنا على أفكاره واتجاهاته ، وعلى أحداث بارزة في حياته أو حياة مجتمعه ، الا أنه لم يظهرنا على الحياة والظروف الشخصية بهذا الشاعر ، ويمكن أن يقال هذا بالنسبة للشعراء جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ،

أما شعراء الصعاليك ، فحين نقرأ شعر أحدهم نجد فيه حياته وظروفه الشخصية ، ان لم تكن مفصلة كل التفصيل ، فهى واضحة كل الوضوح ، بل لسنا في حاجة الى أن نستقصى شعر الشاعر منهم كله لنعلم حياته وظروفه ، وانها يكفى أن نلم بقدر من شعره ، فنعلم عنه وعن حياته الكثير ، وأول هـنه الدلالة الهمة أن نعلم أنه صعلوك ، فنعلم عنه بذلك شيئا مهما ، ثم نجد تفاصيل حياته وصورتها ماثلة في شعره ، ونعود فنقول أن أبلغ دليل على هـنه الظاهرة في شعرهم اعتماد المؤلفين عليه في استنباط أخبارهم واحداث حياتهم وظروفها ، ولذلك نجد شعرهم دائما مقترنا بأحداث أو صور من حياتهم ، فمثلا نذهب الى شعر عروة بن الورد فنعرف منه أنه فقير ، وأنه دائم الفارات والغزو ، وأنه يؤوى المحتاجين دائما ، ويغزو ليعولهم ، ثم نجد في شعره أخبار حوادث كثيرة تعرض المحتاجين دائما ، ويغزو ليعولهم ، ثم نجد في شعره أخبار حوادث كثيرة تعرض المحافة الحقية أن يمتاز عنهم في نصيبه مع أنهم صنائعه ، وقصة سطوه على منزل رجل بارع الخبرة بالأرض ، دقيق الملاحظة لما حوله ، وهكذا نجد أحداث حياته مسطرة بوضوح ، بل وبتفصيل في شعره .

وكذلك شعر الشنفرى نعلم منه عن شخصيته ومعيشته وظروفه آكثر مما نعلمه عنه من أخباره ، فأخباره فى الروايات محدودة ، لا تكاد تتعدى نسبه ، ثم انتقاله أسيرا بين قبيلتين ، ثم نقمته على بنى سلامان ، واحداثا معدودة خلال ذلك فى صعلكته ، وفى رفقته مع تأبط شرا وعمرو بن براقة ، ولكن شهموه يطلعنا من شخصيته ومعيشته وظروفه على أكثر من ذلك بكثير ، فحين نقراً ديوانه

⁽١) أنظر للمثال ما ورد من شعر في فصل اللغر وآثاره فيما معلق

على قلة شعره ، نجد فيه حياته كاملة بظروفها وأحداثها ومشاعرها ، بل حين نقرأ لاميته نجده هو أوضح فيها منه في الاخبار والروايات ، حتى ليخيل الينا أننا نراه بأعيننا ، ونتابع حركاته وأعماله ، ومعيشته ، ونسمع نجوى نفسه ، ونرى مشاعره وأفكاره ، فترى مشاعره نحو الناس بهجرته عنهـــم ، وترى أسلحته التي يحملها بألوانها وصفاتها ، ونحس البرد والحر الذي يعانيه ، ونرى الوديان والقفار التي يعيش وينتقل فيها ، ونرى في هذه البيئة مخلوقاتها التي يشاطرها الشنفري حياتها ، بل ونرى وصفا دقيقا للشنفري نفسه ، فنرى تحول جسمه ، وبروز عظامه وفقار ظهره ، ونرى ثوبه ونعله المهزقين ، ونرى شعره الضافي الذي لم يقص ولم يغسل ولم يدهن ولم يفل منذ حول كما وصفه ونرى حدة بصره ، ثم نرى معيشته وطريقة حصوله على الطعام والماء ، وحاله أن فقدهما ، وهكذا في تفاصيل كثيرة دقيقة عنه ، في جسمه ، وفي نفسيته ومشاعره ، وفي بيئته ، ومخلوقاتها ومشاهدها وفي معيشته وفي أشياء أخرى نخرج منها جميعا ، ولسنا في حاجة الى السؤال عن شيء من أحواله ، فقد علمنا منها كل شيء عنه ، حتى اسمة ، واشارة الى نسبه في أحاظة اليمنية كما يقول في اللامية عن ركب أحاظة المجفل ، وهكذا في شعر الصعاليك كله ، بل اننا لنرى البيتين والبيت الواحد أحيانا يطلعنا على صورة من حياة الصعلوك ، ويشرف بنا على معيشته ، فبيت واحد لتأبط شرا كقوله مثلا يخاطب الذئب :

كـــالانا اذا مانــال شـــيئا أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل (١)

نعلم من شطره الأول أنه عداء ، ومن شطره الثانى أنه يعيش حياة قاحلة تنتج الهزال ، بالاضافة الى ما يوحيه كل معنى منهما من تصور ، وحين نقسرا قول ابن براقة :

اذا الليل أدجى واكفهل ظلامه وصاح من الأفراط بوم جلواثم ومال بأصلحاب الكرى غائباته فانى على أمر الغلواية حازم (٢)

نعلم أنه صعلوك ، وتعلم أسلوبه في الصعلكة ، وكذلك قول مالك ابن الريب :

حيث الدجى متطلعاً لغف وله كالذئب في غلس الظلام الخاتل (٣)

وكذلك قول الأحيمر السعدى مبينا أسلوبه في حياته :

وأنى الستحيى لنفسى أن أرى امر بحبل ليس فيه بعسير وأن أسسأل العبد اللئيسم بعسيره وبعسران ربى في البسلاد كثير (٤)

⁽١) خزانة البغدادي ٩٣/١ ٠

 ⁽٢) أمالى القالى ١١٩/٢ والافراط جبال والكرى النوم وأمر الغواية يعنى أعمال الصملكة .

⁽٣) مهذب الأغاني ٥/١٤ ٠

⁽٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣١٢ ٠

وكقول الشنفرى واصفا المكان الذى اتخذه رصدا وكمينا ، والوقت الذى يختاره للترصد وحاله أثناء الترصد

ومرقبة عيطاء يقصر دونها نميت الى أعسل ذارها وقسددنا فيت على حسد الدراعين محسدبا

أخو الضروة الرجل الخفيف المشفف من الليل ملتف العديقة أسسدف كما يتطوى الأرقش التقصيف (١)

ومما لا نشك فيه أن شعر الصعاليك بهذه الميزة يتفسرد عن غيره من الشمس قاطبة ، واذا أردنا أن نقرب هذه الميزة الى الأذهان كما أشرنا فيما سبق نقول: أن شعر الصعاليك في تسجيله لحياة الصعاليك ، وتتبع أحداث حياتهم، وابراز مشاعرهم نحو هذه الحياة وهذه الأحداث ، أشبه ما يكون بالمذكرات الشنخصية ، التي يروق لبعض الناس أن يسجلوا فيها أحداث حياتهم ومشاعرهم نحو هذه الأحداث ، راحساسهم بما حولهم من الناس والأحداث وبالجياة نفسها ، وحين نلقى نظرة على مجرد عناوين الأغراض الكثيرة التي سبق عرضها ، والتي شملت حياتهم من فقر وجوع وهزال ، ومذهبهم نحو هذه الحياة من حرص على العمل واستهانة بالموت ، ثم أســــلحتهم الحسية والنفسية التي لازموها ، ثم صراعهم مَع كل شيء ، وهكذا من موضوعات وأغراض شتى ، ان لم يكن اتخذها كل فرد منهم موضوعا وغرضا فقد اتخذوها في جملتهم كطائفة أغراضا وموضوغات،وساهم كل منهم بقدر كبير أو يسير فيها ٠ حين نلقى نظرةعلىشمرهم في هذه الأغراض جميعا ، نعلم أن شعرهم أشبه ما يكون بالمذكرات الشخصية ، وُلُو تَتَبِعْنَا شَعْرَ كُلِّ شَاعَرَ مِنْهُم ، وجمعنا شعره في كل غرض من هذه الأغراض والموضوعات ، لخرجنا بمذكرة شمخصية نجده قد سمجل فيها ما نريد أن تعلمه عنه ، وأحيانًا فوق ما نتوقع أن نعلم عن شخصه وظروف حياته ، وعن نفسيته واتجاهه ، وحتى عن شكله وصفاته الجسمية في كثير من الأحيان •

ويمكن تعليل ذلك بأمرين: الأمر الأول أنه لا يبدو من شعرهم كله أنهم يقولون الشعر لذات الشعر، بما يتضمنه هذا المعنى من حوافز تغلب على الشعراء في انتاجهم الشعرى، كرغبة الشاعر في أن يبرز في ميدان الشميعر، وأن يثبت لنفسه مكانة في مجتمعه بهذا الشعر، وما الى ذلك مما يدفعه الى اختيار أغراض وموضوعات يصوغ فيها الشعر وقد لا تكون هذه الموضوعات شاغلا له هو بالذات، أو مو كأحد أفراد من مجتمعه في تأثره بهذه المشاهد أو الاغراض، ومما يدفعه إلى مراعاة اعتبارات أخرى، حاشدا كل امكانياته لينجع كشاعر،

أما شعراء الصعاليك فلسنا تقول انهم لا يراودهم شيء من هذا الشعور ، ولكننا نقول انهم لم يتأثروا بهذا الشعور ، ولم يكن موجها لهم ، أو مؤثرا في

⁽۱) مهذب الأغالى ١/٩٥٠.

شعرهم تأثير الوضوح والجلاء ، كما يتضع ويتجلى في شعر غيرهم ، وهذا المعنى المبيز لهم له تأثير في طابع شعرهم ، وفي خصائصه في أكثر من موضح كما معنوى ، وقد كان تأثيره فيما نعنيه الآن ان الشعراء الصعاليك لم يعنهم الشعر لذاته حين قالوا الشعر ، وانها عناهم احساسهم بحياتهم وأحداثها ومشقاتها فسيجلوا هذا الاحساس ممثلا في الأحداث والصدور ، ولذلك حين ننظر الى شعرهم ، لا نجد في شعر الفرد منهم موضوعات وأغراضا مقصودة لذاتها ، وإنها نجد حياته هو مصورة في سلسلة أحداث ومشاعر وان بدت في أحيان قليلة ، في صورة أغراض وموضوعات .

والأمر الثاني وان كان في بعض جوانبه متداخلا مع الأمر الأول ، الا أن مصدره متميز عنه ، وهو عزلتهم النفسية والاجتماعية عن المجتمع ، هذه العزلة بجانبيها جعلت مشاعر الصعاليك وحواسهم مركزة على أنفسهم ، وعلى حياتهم الشخصية لكل منهم ، فنشمعر من حديث شعرهم واتجاهه أنهم لا يعنيهم المجتمع وما فيه ، ولا تنصب مشاعرهم الا على ذواتهم وحياتهم وما يعانونه ويشعرون به ، وحتى اذا نظروا الى المجتمع ، أو الى أى شيء خارج نطاق حياتهم ، فانمسا ينظرون اليه من زاويتهم هم ، ومن خلال احساسهم بحياتهم هم ، كما رأينا في منهج شعرهم الاجتماعي ، حيث نجه فيه دائما نظرتهم الخاصة ، وانعكاس حياتهم في الصعلكة ، فحتى الرئاء مثلا نجدهم يركزون حديثهم فيه عن المرثى ، على صفات الصعلكة وطابعها ، وليس ذلك تعبيرا عن أعجابهم بحياتهم أو فتنتهم بها ، وانما هو تعبير عن أن شاغلهم الأول هو حياتهم الشخصية ، وعن أن تفرغهم لهذه الحياة وانقطاعهم لها قد ملأ عليهم مشاعرهم واحساسهم بها ، فانعكس ذلك كله في شعرهم ، بحيث أصبح شعرهم كالمرآة الخاصة التي يمسكونها بايديهم ، فأول ١٠ يطالعنا فيها أشخاصهم وانفعالاتهم ، وحركاتهم ، وحتى ان بدا فيها شيء غيرهم ، فانما يبدو وكأنه خلف ظهر الصعلوك ، أو نطاقا مضروبا من حوله ، ويهذا أصبح شعرهم كالمذكرات الشخصية ٠

والشى المستوك الذى قد يثور التساؤل به فى مواضع كثيرة ، منها هذا الموضع ، هو ، كيف تسنى اتفاق شعر الصعاليك ، ووحدته أو تقاربه فى منهجه وخصائصه ، مع اختلاف الصعاليك فى أشخاصهم ، وبيئاتهم ، وعصورهم ؟ ونقول عن ذلك أنهم جمعتهم المهنة الواحدة ، وهى الصعلكة ، والصعلكة متشابهة فى دوافعها وأساليبها ، حيث يجمعها جميعا أنها سلوك عدوانى ، ومتشابهة فى المبيئة التى تصلح لمزاولتها من الصحراوات والجبال والمراقب ، ومتشابهة أيضا فى الأشخاص الذين يصلحون لمزاولتها فلابد أن تكون فى الصعلوك صفات معينة مما سبق الحديث عنه حتى يصلح للصعلكة ويقوى على مزاولتها ، والصعاليك مما سبق الحديث أله عنه دالسفات ، وبهذا نرى الصعاليك أشد الناس تشابها يتفقون أو يتقاربون فى هذه الصفات ، وبهذا نرى الصعاليك أشد الناس تشابها

أو نقاربا ، فى اشخاصهم وصفاتهم وبيئاتهم وأسلوب حياتهم ، مهما تباعدت بينهم العصور ، أو نأت بينهم الأماكن •

ومن هــــذا أصبح شعرهم أشد الشــــعر تشباعه م تقاربا ، في طابعه ، وخصائصه ، وفي زوايا منهجه ·

٤ ـ الذاتيسة:

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

ومن كل ما سبق نجد أن شعر الصعاليك ذاتي ، ولكنها ليست ذاتية اصطلاحية ، كالتي يعرفها نقاد الأدب الغربي في الرومانتيكية التي تعتمد في مصدرها على الروحيات وفي كيانها على مشاعر الفرد وسبحاته نحسو الطبيعة والخيالات (١) ، والتي ضل في متاهاتها الروحية والوهبية كثير من الشها والأدباء ، والتي ابتذل الأدباء فيها أنفسهم وأدبهم حتى ذابت ذاتيتهم نفسها في صور من ابتذال منكر ، وضياع في أجواء خيالات مختلفة متناقضة ،

ولكن ذاتية الصعاليك شيء آخر ، فهى ذاتية حية متحركة ، وذاتية واقعية معقولة في آن واحد . وفي كلا الحالين ، فهى ذاتية متميزة محددة ، لا تلتبس بغيرها ولا تخضع لمذهب بعينه من مذاهب النقد ، لأن طابعها لا يشيع في أدب آخر غير أدب الصعاليك ، حتى يتخذ من الجميع مذهب أدبى وكما كان الصعاليك في أشخاصهم وأسسلوب حياتهم طابعا فريدا بين الناس ، فكذلك شعرهم ، لا يعدو الحقيقة كثيرا من يقول أنه فريد في طابعه وصبغته ، وليس في هذا المعنى بالذات تقد أدبى له ، أو حكم على مستواه من الوجهة الأدبية ، وانما هو حكم على طابعه من حيث التميز لذاته ، بصرف النظر عن تقويمه والحكم عليه ، ولكننا من جهة أخرى نجد أن التميز لذاته فضيلة أدبية ، فمن الواضسح أن أوضح مراتب الجودة في الأدب ، بل وفي الانتاج البشري كله ، هو التميز ، أوضح مراتب الجودة في الأدب ، بل وفي الانتاج البشري كله ، هو التميز ، وانه لا يصبح الأديب أدبيا حقا الا أذا كان له طابعه المميز ، الذي يبعده عن التقليد ، وعن الذوبان في قصيلته التي ينتمي اليها ، بل يسرى هذا الحكم على التقليد ، وعن الذوبان في قصيلته التي ينتمي اليها ، بل يسرى هذا الحكم على التي تنسم بالطابع الفني ، لا يعتبر الصائع فيها صانعا حقا الا أذا كان لصناعته التي تنسم بالطابع الفني ، لا يعتبر الصائع فيها صانعا حقا الا أذا كان اصناعته طابعها الميز لها ، فان نزل عن هذه المرتبة كان عاملا وليس صانعا ،

ولكننا لا نعنى هذا المعنى الآل فى حديثنا عن ذاتية شهم الصعاليك ، وانما نعنى أن ذاتيتهم كانت طابعا مختصا بهم ، لم يستوحوه من نقد أو مذهب شمعرى ، ولا من ثقافة البيئة واتجاهها الأدبى ، ولا من شىء آخه الاحياتهم الشخصية ، وأحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة .

⁽١) انظر كتاب في الأدب والنقد للدكتور محمد مندور ص ١١٠ ــ ١١٧٠

فالصعلوك يجعل نفسه فى شعره دائما صلب الحديث ، وكل ما يصفه أو يتحدث عنه ، مشدود الى شخصه بخيوط واضحة ، وعلاقته بكل ما يتحدث عنه بينه واضحة كل الوضسوح ، فهو لا يتحدث عن شى، لذات هذا الشى، وانما يتحدث عنه من حيث علاقته هو بهذا الشى، وقد أشرنا الى ذلك عند الحديث عن شعرهم فى الطبيعة ، حيث قلنا ان من أبرز ما يميز شعرهم عن غيره ، ان غيرهم من الشعراء يغلب عليه حين يصف شيئا ان يقف خارج هذا الشى، ، ثم يصفه وصف المشاهد المتفرج ، أما الصعلوك فلابد أن يكون داخل هذا الشى، ، ولابد أن تكون هناك علاقة بينه وبين هذا الشى، وأغلب ما تكون هذه العلاقة الصراع فى أى صورة من صوره بين الصعلوك وهدذا الشى، فحينما يصف الصعلوك مثلا ليلة باردة مظلمة ، أو يوما قائظا شديد المرفحينما يصف الصعلوك مثلا ليلة باردة مظلمة ، أو يوما قائظا شديد المرف من ذاوية ما يعانيه فى علاقته بهذا الشى، وشعرهم فى الطبيعة كله يصلح من ذاوية ما يعانيه فى علاقته بهذا الشى، وشعرهم فى الطبيعة كله يصلح مثالا لذلك

وهكذا حين انتتبع موضوعات شعرهم وأغراضه ، نجد كل هذه الموضوعات والأغراض مسدودة الى اندخاصهم ومرتبطة بها ، فهم مثلا حينما يتحدثون من الفقر ، أو الجوع ، لا يتحدثون عنه من الزاوية العامة أو من وجههة الحكمة والفلسيفة ، فيتحدثون مثلا عن الفقر أو الجوع لذاته ، وأشره في النياس وما ينتج عنه من شر أو أثر أو يدعون الى محاربته وعلاجه ، أو غير ذلك من الزوايا التي يتناول منها الشعراء ما يعرضون له من أمور ، وانما يتناولونه من ناحية أثره فيهم ، واحساسهم به ، ووسيلتهم لعلاجه ومقاومته كما يقول الشنفرى :

اديم مطال الجوع حتى أميت واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل (١) والواقع ان التمثيل لا يبرز هذا الطابع في شعر الصعاليك ، لان هذا الطابع ليس في موضع بعينه من شعرهم ، ولا هو لدى شاعر مخصوص منهم وانما هو طابع عام في شعرهم ، نحسه بوضوح في كل شعرهم ، ولدى جميع شعرائهم ،

واوضع ما فى هذا الطابع احساسنا دائسا بشخصية الشاعر من الصعاليك فى كل شعره ، ووراء كل تعبير من تعبيراته *

واذا أردنا التعليل لهذا الطابع ، نقول أن أهم ما يمكن أن يعلل به هو طابع المذكرات الشخصية الذي تحدثنا عنه آنفا ، فمن الطبعي أن تكون مذكرات أي شخص عن نفسه ذاتية ، وأن نحس بشخصيته في كل ما يتحدث عنه في هذه المذكرات .

⁽١) من اللامية : البيت العشرون .

ه ـ الواقعيــة

يعرف نقاد الأدب الواقعية على أنها عدم خسروج الأديب بأدبه عن دائرة الواقع المألوف الذي يألفه الناس ، ويتفق مع معلوماتهم عن طبيعة الموضوع وتقابل الواقعية عندهم المثالية حيث يحلق الأديب فيها في أجواء مثالية يتخيلها وتهفو نفسه الى تحقيقها ، كما تخيل المفكرون والأدباء منذ القديم مدنا فاضلة تخلو من الشر والفساد ، وتتسم في جميع جوانبها بالحير الكامل الذي لا يعكره شر ولا فساد كمدينة أفلاطون الفاضلة كما تخيلها ، وكما تصور الأدباء في قصصهم وأشعارهم نماذج من شخصيات تمثل المثل العليا في الأخلاق التي يصفها الأديب ، من شجاعة أو عدل أو احسان أو غير ذلك من صفات الحير بحيث يكون تصور هذا النوع من الأدباء لهذه الصفات وحديثهم عنها في أدبهم بحيث يكون تصور هذا النوع من الأدباء لهذه الصفات وحديثهم عنها في أدبهم وأحلامهم في أن يروا مجتمعهم وقد سادت فيه هذه الصفات بالصورة التي تخيلوها .

فهذا النوع من الأدباء يسمى المثاليين ، وهم مقابلون للواقعيين الذين لا يسبحون مع الخيال المبعد ، ولا يصبورون في الناساس ما ليس فيهم وانما يصفون الواقع كما هو (١) .

وقد اختلفت نظرة النقاد العرب الى الواقعية من حيث تصورهم لها فى الصورة المثلى التى توصف بالاعتدال والجودة ، ولم يضع نقاد العرب مصطلحات فنية للواقعية وما يقابلها من المثالية ، وان كانت قد غلبت على أحاديثهم الفاظ جرت مجرى الاصطلاح ، حيث يعبرون دائما عن الواقعية بالصدق ، ويعبرون عما يقابله بالغلو والافراط ، ويقرنون بالصدق الكذب فى الشعر ، ولكننا نحس انهم لا يجعلونه مقابلا للصدق دائما ، بل يختلفون ، فمنهم من يرى الكذب مقابلا للصدق ، وبهذا يكون الكذب رداءة أدب عند هؤلاء ، ولكننا نرى بعضا آخر من النقاد العرب ، لا يجعل الكذب مقابلا للصدق بل نشعر بأنه يعنى بالكذب التصوير الشعرى بما يكتنفه من مبالغة وخيال ، فلا يكون الكذب بهذا مقابلا للصدق عند مؤلاء ، وانما هو صورة من صور الواقعية والصدق الفنى ، وان للصدق عند مؤلاء ، وانما هو صورة من صور الواقعية والصدق الفنى ، وان

⁽۱) انظر أسس النقد الأدبى للدكتور أحمد بدوى ١٣٥ ــ ١٤٥ وفى الأدب والنقد للدكتور مندور ١١٦ ــ ١٢٠ .

⁽٢) أنظلَ العمدة لابن رشيق ٢/٢١ - ٢٦ والشمس والشمسمراء لابن قتيبة ٣٦/١ _ ٣٩ . اسس النقد السابق ٤٣٩ .

هؤلاء العبارة المأثورة « خير الشعر آكذبه » (١) ، وقد اختلفت وجهات نظر النهاد في القديم والحديث حول الواقعية ، وعلى الأخص حول الوضع الأمثل فيها ، فما الواقعية المثلى التي تعتبر مقياسا يقاس به الأدب ويوزن به شعر الشعراء ؟ والى أى مدى يباح للشاعر الخروج عن الواقعية المثلى الى المسالغة أو الخيال ؟ والى أى مدى أيضا يباح للأديب والشاعر الدخول في الواقعية الى ما يسمونه « أدب الكاميرا » ؟ الذي يعنون به الامعان في الواقعية حتى يصير الأدب صورة حرفية مباشرة للواقع ،

والاجابة على هذه الأسئلة ظلت في القديم والحديث موضيح خلاف ، وستظل أيضا موضع الحلاف ، لأن الأدب ليس أقيسة منطقية محددة لا تقبل الحلاف ، ولا هو أمر حسى لا تختلف عليه الحواس ، وليس الأدباء أيضا مصنعا يحرج سلعا ذات أوصاف محددة يحاسب الصناع على تجاوزها .

واذا نظرنا الى واقعية شعر الصعاليك نجدها تتمثل فيما يأتي :

ا مسترهم كله لا يعدو تصوير الواقع الذي يعيشمون فيه ، وتصوير الحساسهم بهذا الواقع ، ويكفى توضيعا لذلك ما قررناه آنفا من أن شعرهم يعتبر كالمذكرات الشخصية ، التى دون كل منهم فيها خواطره الواقعية ، فى نطاق حياته ومعيشته ، وصلاته وصراعه مع ما حوله ومن حوله .

ولو رجعنا الى كل الموضوعات والأغراض التى طرقها شعرهم ، لوجدناها جميعا تصويرا لواقعهم الذى يعيشون فيه ، ولوجدنا التصوير نفسه واقعيا فالموضوع وافعى ، وتصويره أيضا واقعى ، فمثلا قول أبى خراش يصور صراعه مع أعدائه ، واستفادته بموهبة العدو ، فيقول :

فان تزعمی أنی جبنت فاننی أفر وارمی مرة كل ذلك اقتل حتى لا أدى ل مقاتلا وانجو اذا ما خفت بعض الهالك (٢)

فقد علمنا من ذلك صفتين في أبي خراش ، انه بحسن القتال ، وانه عداء وقد كان يمكن أن يتخذ من الصفتين سبيلا للتصوير والخيال ، مبعدا بذلك عن الراقع والحقيقة ، ولكنه آثر أن يصور واقعه تصويرا حقيقيا لا مبالغة فيه ولا خيال ، ولا مغالطة ، فوصف انه أحيانا يفر من أعدائه ، ولكنه فرار المقاتل لا فرار الجبان المذعور ، بدليل انه أثناء قراره يلتمس كل فرصة ليرمى فيها بسهامه ، ثم يقول انه يعتمد على الحكمة ، فحين يجد نفسه قادرا متمكنا ، يقاتل حتى يحطم القوة التي يقاتلها ، وحين يجد ان الموقف ليس لصالحه ، لا يعطل موهبة وهبها وهي العدو .

⁽١) أنظر العمدة لابن رشيق ٢٢/١

⁽٢) ديوان الهذليين ١٦٩/٢ ٠

والاحيمر السعدى يصور لنا نفسيته تصويرا واقعيا صادقا ، فمع انه كان حيثند قد تاب عن الصعلكة ، الا انه آثر الواقعية والصدق ، فى حديثه عن مشاعره كلما رأى قافلة من التجارة ، وكيف أن رؤيته للقوافل تبعث فى نفسه حنينا إلى الصعلكة ، أو شيئا من حزن على فراقها حيث يقول من شعره فى ذلك

اشكو الى الله صبرى عن زواملهم وما الاقى اذا مـروا من الخزن فرب نوب كريم كنت آخـده من القطار بلا نقد ولا ثمن (١)

وكذلك يصدق الأعلم الهذلى ، في واقعية صريحة لم يكن هناك ما يدعوه الى ابرازها لأنها في خفايا نفسه ، ولكنها رغبة الصدق والواقعية ، حيث يصور كيف انه في أثناء عدوه لينجو من الأعداء كان يخيل اليه ان الأعداء قد أخذوا عليه كل سبيل ، حتى ان الشجر الذي يمر به كان يحسبة أعداء يسلون سيوفهم عليه فيقول ،

وأحسب عرفط الزوراء يسودى على بوشك رجع واستلال (٢)

وكذلك أيضا يصف لنا عبيد بن أبوب نفسيته وصفا واقعبا دقيقا لا يمكن اتهامه معه بغير الصدق لأنه وصف لا يفخر به عديث يقول:

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو أو طليعة معشر فان قيل خير قلت هذى خديعة وان قيل شر قلت حقا فشمر وخفت خليل ذا الصليفا ورابنى وقلت فلانا أو فلانة فاحدر (٣)

ويصف السليك بن السلكة حرمانه وبؤسه فى أشد أيام الناس خصبا وكيف انه حتى فى الصيف الذى يكثر فيه الحير عند الناس يبلغ به الجوع حد الهزال والضعف ، حتى أنه اذا وقف اعتراه دوار فأطلمت عيناه ، فيقول :

وحتى رايت الجوع بالصيف ضرنى اذا قمت تغشائي ظلال فأسدف (٤)

وهكذا نجد شعرهم دائما في محيط الواقع من حيث الأغراض ، فلا يخلق موضوعات خيالية ، ولا موضوعات عامة لا تعنى أشخاصهم ، بل دائما نجد واقع كل منهم باعتبار شخصه هو وما يرتبط به ، سواء أكان يعنى غيره أم لم يكن من حيث اعتباره هو ، لانه كما قلنا لا يظهر من شعر الصعاليك رغبتهم في الشعر لذاته ، وانما الذي يبدو واضححا رغبتهم في التعبير عن حياتهم واحساسهم بها ، وهذا الفارق النفسى بينهم وبين غيرهم من الشعراء فارق يتعلق بجوهر الاتجاء ، وتترتب عليه آثار كثيرة مهمة في كثير من الموضوعات

⁽١) أمالي القالي ١/ ٤٩ والزوامل الابل عليها احمالها والقطار الابل المقطورة •

⁽٢) ديوان الهذلين ٢/٨٥ والمرفط شجر والزوراء موضع والوشك العجلة •

⁽٣) الحيوان للجاحظ ٥/ ٢٤١ .

⁽٤) مجمع الأمثال ٢/٢ _ ١١ وأسدف أدخل في السدفة وهي الظلام ٠

والجوانب، ومنها ما يعنينا الآن أن نقوله، وهو أن من أسباب واتعيتهم عام احترافهم الشعر لذاته، حيث اقتصروا منه على تصوير حياتهم ومشاعرهم نحوها، ولو قد عناهم الشعر لذاته من حيث احترافه والتفرغ له والمباهاة به لكان من المتوقع أن يحاولوا طرق موضوعات محتلفة، منها الواقعى، ومنها غير الواقعى، وأن يطلقوا لخيالهم الشعرى العنان في كل اتجاه، وقد يكون من هذه الاتجاهات كثير من صود الخيال ومجافاة الواقع، خصوصا وأن قدراتهم الشاعرية كما يبدو في شعر كثير منهم تهيى له القدرة على الخوض في أى مجال من مجالات الشعر، وأى اتجاه من اتجاهاته، ولو وقفنا وقفة تأمل مقارنين التزام الصعاليك الوافعية الكاملة والمثلى كما يراها نقاد العرب، من حيث بين التزام الصعاليك الوافعية الكاملة والمثلى كما يراها نقاد العرب، من حيث التزامهم الواقعية مجردة من المبالغة والغلو والافراط والحيال المبعد عن الحقيقة حيث يرى معظم النقاد العرب أن هذه الصور أهم ما يخل بالصدق والواقعية المندق والواقعية، نى الوقت الذي تكثر الشعر وواقعيته، ملتزمين المنهج الأمثل في الواقعية، في الوقت الذي تكثر فيه صور الاخلال بالواقعية المثلى في شعر شعراء معاصرين لهم، من مبالغة وغلو فيه صور الاخلال بالواقعية المثلى في شعر شعراء معاصرين لهم، من مبالغة وغلو وافراط وخيان غير واقعى النسج ؟

لو تساءلنا عن السبب في الفارق بين الاثنين لوجدنا انه من الأسباب البارزة في هذا ، هو ان الصعاليك لم يحترفوا الشعر ، حتى يفرغوا كل جهدهم ويستفرغوا كل طاقتهم الشعرية في معان وأغراض يحساولون اكثارها ، وان لم تتح البيئة لهم استنفاد طاقتهم هذه ، خلقوا من خيالهم أغراضا يستفرغون فيها هذه الطاقة ، ولم يتفرغوا أيضا للشعر لينكبوا على تنميقه واستقصاء تفريعات معنوية فلسفية فيه ، أو متابعة صوره حتى يبلغوا بها مراحل من الحيال والتصوير الشعرى البحت ، كما تفرغ كثير من الشعراء لشعرهم وخاصة أصحاب الحوليات (٢) ، وكان من أوضح آثار عدم احترافهم الشعر لذاته وعدم تفرغهم له أو من أوضح أسباب هذا أيضا انهم لم يتكسبوا بالشعر سواء جاهلوهم ومسلموهم سالا من شذ منهم كما قلنا ،

Y - والأمر الشالى الذى تتمثل فيه واقعية شعر الصعاليك ، انهم بالاضافة الى أن موضوعات شعرهم وأغراضه كانت واقعية بحتة ، كان تعبيرهم وتصويرهم لها واقعيا بحتا أيضا ، ومن الواضح ان هناك فرقا بين الناحيتين فلا يلزم من كون الموضوع واقعيا أن يكون تصوير الشاعر له وتناوله أيام واقعيا ، فكثير من الشعراء قد يتناول موضوعا واقعيا ، ولكنه يتخد منه منطلقا

⁽۱) أنظر أسس النقد الأدبى للدكتور أسهد بدوى ١٣٥ ــ ١٤٥ وانظر المعدة لابن رشيق أيضا ٢٢/١ الى ٢٦/١ في بعض عدا ٠

⁽٣) من أشهر أصحاب الحوليات زهير بن أبى سمسلمى الذى كان يقشى فى اعداد بعط نصائده حولا كاملا •

الى أجواء خيالية ، أو جوانب غير واقعية لا يربطها بالموضوع الا مجرد المقارنة أو تفسية الشاعر وعواطفه نحو كل منهما ، كما في سينية شوقى التي قالها في منفاه بالأندلس ، حيث جعل موضوعها الأساسى أطلال المجدد العربى في الاندلس ، ولكنه اتخذ من الموضوع مرتكزا للانطلاق الى مقارنات يستعوض فيها حاضر مصر ، ومجدها الفرعوني القديم بآثاره ، متحدثا عن خواطره في رحلة البحر والسفينة ، وأغراض كثيرة يتعرض لها بجامع المقدارنة ووحدة مشاعره نحوها

ولكن الصعاليك لا ينهجون هذا المنهج في واقعيتهم ، وانما يلتزمون أن يكون الموضوع من واقع حياتهم ، ثم يلتزمون أيضا حدود الموضوع ، لا يخرجون منه الى نطاق آخر ، ويلتزمون أيضا الواقع نفسه في تصوير الموضوع والتعبير عنه ، فكثير من الشعراء يجنحون أيضا في تصويرهم للموضوع الواقعي الى صور خيالية ، كما شبه ابن المعتز الهلال بزورق عليه حمولة من عنبر ، ولكن الصعاليك لا يتعدون في تشبيهاتهم وحتى في خيالهم الصور الواقعية البحتة بعنى أنهم حينما يريدون تشبيه شيء واقعي لا يشبهونه بشيء خيالى ، وانما يشبهونه بشيء واقعى أيضا ، كما فعل أبو خراش في تشبيهه للقبر ، حيث شبه القبر البارز فوق الأرض بالبعير البارك في قوله :

لعلك نافعى يا عــــرو يوما اذا جاورت من تعت القبور (١) اذا راحوا ســواى وأسـلمونى خشــناء الحجـارة كالبعير (٢)

فالموضوع وهو القبر واقعى ، والمسبه به أيضا واقعى ، وهو الجمسل البارك وحين نستقصى تشبيهات شعر الصعاليك وصوره الشعرية ، نجعها من صميم البيئة ، وفى أقرب حالاتها من الواقع والحقيقة المحسوسة فى حياتهم بل تبلغ واقعية الصعاليك اننا نرى المشبه به فى شعرهم ـ على عكس غيرهم ـ أقرب الى الواقعية أحيانا من المشبه نفسه ، حيث نرى أغلب الشعراء يحاولون أن يضفوا على صورة المشبه به ثوبا من الحيال والرونق ، لأن الشاعر يعتبر المشبه به صنيعته وخلقه هو ، وهو الواقع لأن الشاعر يأتى بصورة المشبه به من خياله وتصويره ليعبر بها عن شعوره نحو شىء واقع يتحدث عنه هو المشبه ، فحين يريد الشاعر مثلا أن يصف زهرة ، أو أن يصف معركة ، تكون الزهرة والمعركة شيئين واقعين ليسا من صنع الشاعر ، وانما الذى من صنعه هو الوصف والتصوير اللذان يتمثلان أحيانا في تشبيه الزهرة والمعركة بنشية ومنسوية ومنسوية أنسياء أو بصور أخرى ، وهذه الأشياء والصور الأخرى من صنعه ومنسوية

⁽١) ديوان الهذليين ٢/١٣٦/وعروة أخوه ومن بمعنى الله ين يعنى اذا أكامت ٠

⁽٢) أسلمونى يعنى تركونى يريد الشيعين لجنازته وخشناء الحجارة يعنى حجارة القبر وأصله لمجارة خشناء وكالبعير يعنى ظهر القبر كانه بعير بارك .

اليه ، وهى فى الوقت نفسه مقياس وحكم على شاعريته ، ولذلك يجتهد كثير من الشعراء أن يلبسوها ثوبا شاعريا مزخوفا بما يستطيعون ، وما يروق لهم من خيال وصور ،ومن هذه الزاوية نجد المشبه به فى أغلب الأحيان وان كان أوضح من المشبه فى المعنى الذى يريده الشاعر ، ألا أنه أبعد عن الواقع بسبب ما اكتنفه من خيال وتصوير كما أشرنا اليه من تشبيه أبن المعتر للهلال بزورق عليه حمولة عنبر

ولكن شعر الصعاليك غالبا ما نجد المشبه به فيه أقرب ألى البساطة والواقع والالف من المشبه ، كما رأينا في تشبيه أبي خراش للقبر بالبعير البارك ، وكما في تشبيه الأعلم الهذلى لنزع الضباع جلد الفريسة بنزع الحداد حلية جفن السيف ، فهم يألفون أن غمد السيف يوضح عليه غشاء موشى ليكون حلية له ، وحين يبلى هذا الغشاء ويخلق يذهبون به ألى الحداد لينزع مذا الغشاء البالى ويضع مكانه غشاء جديدا محلى بالوشى ، فيشبه الأعلم نزع الضبع لجلد الفريسة بنزع الحداد لهذا الغشاء ، فيقول في سياق حديثه عن الضباع : :

ينزعن جلد المرء نسسز ع القين أخلاق المداهب (١)

ومن جوانب الواقعية في الصورة ، مراعاة ما هو معروف عن الضباع من تتبعها للجثث والجيف ، مما يجعل صورة الأعسلم عن نزع الجلد أعمق في الواقعية والحقيقة ، فان نزع الجلد في الحيوان وهو ميت أيسر منه وهو حي .

ويتأثر الشنفرى بالرئين الذى ينبعث من القوس حين ينطلق منها السهم فيشبه هذا الرئين الحزين بأبلغ صوت تعرفه البيئة في الحزن ، وهو حنين الناقة على ولدها حين تفقده :

الله زل عنها السهم حنت كانها مرزأة ثكل ترن وتعسول (٢)

٦ _ التجربة والصدق

التجربة والصدق اصطلاحان يترددان كثيرا في النقد الأدبي •

ويعنى النقاد بالتجربة الشعوية ، وضوح الصورة الشعرية في نفس الشاعر ، وفهمه الكامل لجوانب موضوع شعره ، بمعنى أن يكون مدركا ادراك الاقتناع والفهم العميق لموضوع شعره ، ولا يقصدون بالتجربة ، التجــربة

⁽١) ديوان الهدَّليين ٢/ ٨٠ والقين الحداد والأخلاق البالية والمذاهب المذهب ٠

 ⁽٢) من اللامية : والمرزأة كثيرة الرزايا تصيبها يعنى نقدما ولدها وتبول من العويل .

المسية التي يتصور معها أن يكون الشاعر قد عانى الموضوع معاناة حقيقيسة واقعية ، فقد يكون الموضوع خياليا ، وقد يكون واقعيا ولكن الشاعر لم يعانه ولم يتصل به اتصالا مباشرا ، بل قد يكون موضوعه تاريخيا في عصور غابرة ، ولكن ذلك لا يمنع من وصفه بالتجربة ، فالذي يعنونه من التجربة أن تمكون صورة الموضوع وعناصره وجوانبه ، واسبابه وملابساته واضسحة في نفس الشاعر ، مؤثرة في انفعاله كأنه عاناها حقيقة واحتك بها احتكاك التجسربة العملية (١) ويجعلون الصدق من مقتضيات التجربة الشعرية السليمة المقبولة في النقد ، بمعنى أن يكون الشاعر صادقا في نقل التجربة الذهنية الماثلة في نفسه للناس ، دون أن يسكون في ذلك مداراة أو التواء أو مجاملة ، ويجعلون الصدق الغنى في نقل التجربة من النفس الى الناس يتسم بالإيمان والاخلاص كايمان الصوفي واخلاصه لعقيدته ، فالشاعر يحتم عليه صدقه الفنى أن ينقل تجربته على الصورة التي يؤمن بها ويعتقدها دون مراعاة أي اعتبار خسارجي ولذلك يخرجون من التجربة الشعرية شعر المناسبات ، لأنهم يرون الصدق ولذلك يغرجون من التجربة الشعرية شعر المناسبة وملابساتها (٢) .

ونقاد العرب الأولون لا يجعلون لفظ التجربة اصطلاحا يتحدثون عنف وان كان مضمونه يتردد كثيرا في نقدهم ، وأما الصدق فانهم وان كانوا قد اتخذوه اصطلاحا الا أنهم لم يضعوا له تعريفا محددا ، كشأنهم في معظمه اصطلاحات النقد الأدبى التي رددوها في نقدهم ، وقد اختلف فهمهم للصدق في الشعر ، فأحيانا يرونه الصدق الذي يقابل الكذب ، وأحيانا يتحدثون عنه على انه الصدق الفني الذي يتمثل في التصوير الشعرى المفنع ، الذي لا يعارض التفكير والمنطق (٣) وحين نطبق التجربة والصدق على شعر الصعاليك ، نجد ان انطباقهما على شعر الصعاليك لا يكاد يماثلة انطباق آخر

فأما عن التجربة ، فقد كررنا أن شعر الصعاليك في جملت لم يعد حياة الصعاليك ومشاعرهم نحو حياتهم ، في نطاق بيئتهم المحددة التي يعيشون فيها ، ولم يعنهم خارج هذا النطاق شيء ، وحين يتحدثون عن هذه النواحي التي عنتهم نجد أن حديثهم حديث المجرب تجربة حقيقية بما عاناه وأحسه ، وبما يراه من حوله ، وقد قلنا في شعرهم عن الطبيعة أنه يمتاز بأنهم دائما في الصورة وليس خارجها ، وأنهم يضعون أنفسهم دائما موضع الجزء الأساسي من الصورة ، وليس موضع المشاهد المتفرج من خارج الصورة والمشهد ، وأن فلك يسرى على شعرهم كله بوضوح في كل موضوعاته وأغراضه ،

واذا كان النقد يشترط في الشعر التجربة ، ويجعلها شرطا اساسيا في

⁽١) انظر النقد الأدبى الحديث للدكتور غنيمي هلال ٣٩٠ ـ ٤٠٠ ٠

⁽۲) المعدد السابق ۲۹۲ ·

⁽٣) أنظر أسس النقد الأدبى للدكتور أحمد بدوى 271 .

تقبله ، فانه يكتفى بموقف المساعد من خارج المشهد والهنورة ، مادام المشهد او الصورة واضحين فى دمنه ، فكيف بالشاعر اذا كان داخل المشهد ، وجزءا منه ، وعاملا من العوامل المحركة فيه ؟ وكيف يقول النقد عنه ؟ لاشنك انب من حيث التجربة _ يكرن جذا الشاعر قد بلغ قمة التجربة المقيقية الواقعية وبالتالى يكون قد بلغ اقصى ما ينتظره النقد من شاعر ازاء التبعربة ، بصرف النظر عن العوامل الأخرى التى تساهم فى جودة الشعر ، وتدخل فى عناصر المكم عليه ، وكون شعر المعاليك شعر تجربة حقيقية أمر لا يجتاج الى توضيح فحين نستعرض موضوعات شعرهم واغراضه نفسها نجسها موضوعات خاصة بهم من حيث انهم عانوها وصارعوا ظروفها ، قالفتر والجوع والهستزال وتوقع الموت ، وقسوة البيئة ، بما فيها من عطش وجوع وخوف ، ومن حر وبرد وما الى ذلك ، كل ذلك عاناه الصعاليك معاناة حقيقية ، ولذلك كان شعرهم عنه شعر التعبير عن ظروف وأحداث حقيقية فى حياة إصحابها فعين يقول أبو خراش مثلا :

وانى الأثوى الجموع حتى يملنى فيذهب لم يدنس ليابي ولا جرمى(١)

واصفا معالجته للجوع ، وموقفه منه ، فانما يعبر عن تجربة حقيقية عاناها وحين يقول الشنفرى واصفا نعليه الباليتين ، اللتين لم تخصف خروقهما :
قليل جهازى غير نعلين اسحقت صدورهما مخصورة لا تخصف (٢)

فانما يصف مشهدا حقيقيا يعانيه ويلابسه ٠

وحين يقول شبيب بن عمرو واصفا هروبه ونجاته من حاردة جنود على رضى الله عنه :

ولسا ان رایت ابنی شمیط بسکة طیی، والبساب دونی تجللت العصا وعلمت انی رهسین مخیس آن ادرکونی (۳)

فانما يصور مشهدا حقيقيا تعرض له ٠

وحين يقول جحدر بن معاوية واصفا نفسيته وهمومه في سجن الحجاج :

تاوینی فبت لها کنیعا هموم ما نفارقنی حسوانی هی العواد لا عواد قومی اطلن عیادتی فی ذا الکان (٤)

⁽۱) ديوان الهدليين ۱۲۷/۲ واثوى من الثواء وهو الاقامة والجرم الجسم يعنى لم يدلس عرضي *

⁽٢) مهذب الأغاني ١/٥٩٠

⁽٣) حماسة ابى تمام ١/٢٥٢ والعصا فرسه ومخيس سجن ٠

۲۷۷/۱ لقالي ۱/۷۷۲ ٠

فائما يصف نفسيته في تجربة حقيقية مر بها وعاناها · وأما عن الصدق في شعرهم فنقول :

ينبغى أولا أن نلقى نظرة على ظروف الصعاليك فى حياتهم ، وعلى بيئتهم أعنى نلقى نظرة على واقع الموضوعات والأغراض التى تعرض لها شعرهم لنرى هل وصفهم يطابق واقع هذه الأغراض أم يخالفها ، وحينئذ نستطيع أن نحكم عليهم بالصدق أو عدم الصدق •

وحين نعود الى حديثنا عن ظروفهم وبيئتهم ، نجدها تتلخص في انهـــــم كأنوا فقراء فقرا أثر في أجسامهم ، وحدد سلوكهم ، ومن هذا التحديد الجاؤهم الى سلوك الصعلكة في بيئة رهيبة بكل ما فيها ، وقد تبيزوا بصفات من القوة النفسية والجسدية أعانتهم عليها ، وانهم كانوا فن شبه عزلة نفسية وواقعية عن المجتمع ، وأنهم حددوا صلاتهم الاجتماعية على اساس هذه العزلة ، ونظروا الى الأمور ، والى الناس من زاويتهم هم ونفسياتهم ، هذه حقيقة الصعاليك وهذا واقعهم • وفي مقام البحث عن مدى صدق شعرهم في التعبير عن هـ ذه الحقيقة ، وفي تصوير هذا الواقع نقول ان شعرهم عبر عن هذه الحقيقة ، وصور هذا الواقع بكل صدق وأمانة ، فاما عن حقيقتهم ومعيشتهم فقد نقيل لنا شعرهم واقعهم فيها في صدق بالغ ، وأوضع دليل على ذلك أن واقع الصعاليك في حياتهم لم يكن موضع فخر ولا مباهاة ، بل كان على العكس ، صورا مؤلمة حزينة ، من الفقر والجوع والهزال ، وتمزق الثياب والنعال ، والخزف والتوجس ، الى آخر ما مثلنا له كثيرا في موضعه مما سبق ، وليس من شك في أنه لولا قوة شخصيات الصعاليك لحجل كثير منهم من أن يتحدث عما من شأته أن يغض من قدره في مجتمع يشيع فيه التفساخر بكل شيء ، وبأدنى شيء ومما لاشك فيه ان صراحتهم هذه في وصف ما يمكن أن يغض من قدرهم تعتبر ناحية من نواحي قوتهم وشجاعتهم النفسية • فحين يصف الشنفرى مثلا حفاء قدميه ، وتمزق ثيابه ، وشعره الضافي الذي مر عليه تحو حول لم يغسل ولم يقل ولم يقص لا يقول ذلك فخرا ، ولا يقول انه أصبح بشعره ذا لبد كالأسد ، وائما يقوله واصفا حاله ومعيشته في عـزلة الصحراء دون مواربة أو تضليل ، وللناس بعد ذلك أن يروا في ذلك ما يروا ، ولهم أنْ يرفعوه في أعينهم أو يخفضوه ، ولكنه لا يعنيه من ذلك شيء وانما يعنيه أنْ يكون صادقا مم نفسه ومع غيره ، فيقول بعد قوله انه يعفى ولا يتنعل ، وبعد وصفه لردائه الأتحم المزق :

وضاف اذا هبت له الريح طرت لنائد عن اعطافه ما ترجل بعيد بمس الدهن والغل عهده له عبس عاف من الغسل محول (١)

⁽١) من اللامية : وضاف يمنى شعره المتهدل وترجل. تبشط والعبس الوسيخ ومحول من الحول يعنى لم يقسل منذ حول ه

وهكذا شعرهم عن أنفسهم ومعيشتهم وحتى نفسياتهم ومشاعرهم التى كان يمكن أن يخفوها آثروا أن يحدثونا عنها في صدق بالغ ، كما يقول صبخى الغي مصورا فزعه حين فر عاديا من أعدائه لم يستطع حتى أن يودع رفيقه من الفزع ، فضلا عن أن يعينه ، فيقول :

وقريت من قرع فسلا المى ولا ودعت صاحب (١)

لقد خفت حتى لو تطبر حمسامة لقلت عدو أو طليعة معشر (٢) وهكذا نجد الصدق في شعرهم يبلغ أقصى ما يتصوره النقاد • وقد يقول قائل : فكيف بحديث الوهم عندهم ؟

ونجيب عن ذلك بأننا تحدثنا حقا عن الوهم في شعرهم ، من حيث انه ورد في شعرهم وهم لا يعقل أن يكون واقعا ولا صدقا ، لأن موضوعه غير موجود أصلا ، كحديثهم عن الغول والسعال ، في معاشرتهم لمها ، ولك التناهم لم يشع في شعرهم الى درجة أن يكون ظاهر ملك حددنا ائنا لا نعلم أن أحدا منهم صدر عنه هذا الوهم الا شخصين عبيد بن أيوب، وتأبط شرا ، فأما عبيد بن أيوب فقد أكثر حقا من ذكر الوهم في شعره ، وأما تأبط شرا فلم يتحدث عن الوهم الا في حادثة واحدة زعم فيها أنه لقى الغول ، وائتهى أمره معها الى قتله اياها ، ومن الواضح أن انحسار معنى من المعانى في شخصين اثنين من طائفة ، لا يمثل هذه الطائفة ، بل يعتبر شذوذا لا يؤثر على الحكم العام بالنسبة للطائفة ككل ، والشذوذ لا يخلو منه حمام ، كما لا تخلو منه جماعة ، ومعنى هذا ان صدور الوهم الذي لا يتفق مع حكم ، كما لا تخلو منه جماعة ، ومعنى هذا ان صدور الوهم الذي لا يتفق مع الصدق والتجربة في شعر الصعاليك ، لأن هذا الوهم الذي صدر من عبيد وتابط شرا كان نشذا شعر الصعاليك ، لأن هذا الوهم الذي صدر من عبيد وتابط شرا كان نشذا شدبد! في شعر الصعاليك ، فلم يكن في شعرهم ما يماثله ، أو حتى يقرب شدبد! في شعر الصعاليك ، فلم يكن في شعرهم ما يماثله ، أو حتى يقرب

على الناحين نعلم الظروف المحيطة بعبيد بن أيوب وتأبط شرا ، وتأثير هذه الظروف في نفسيتهما وأعصابهما ، فقد نغير حكمنا على موقفهم من هــــذا الوهم لنقول (نه حتى وصدق ، وليس كذبا واختراعا .

وذلك أن عبيد بن أيوب كما نبعد في ترجمته وأخباره (٣) ، كان حين قال شعر الوهم قد خلعه قومه لجنايات جناها ، وطارده السلطان طلبا لعقابه

⁽١) ديوان الهذليين ٢/٧٨٠ •

⁽٢) الحيوان للجاحظ ٥/ ٢٤١ مع شعر آخر في المعنى تقسه ٠

⁽٣) أنظر ترجمته وأخباره ومراجعهما فيما سبق من قصل « الشعراء الصماليك » •

على هذه الجنايات ، فاضط الى اللجوء الى الصحراوات وحيدا فريدا ، يعساني اشد الحوف من خلع قومه له ، ومن مطاردة السلطان ، ومن اعداله احسسان الجنايات التي جباها ، ومن الوحوش المحيطة به من كل جانب ، فسيطر عليه رعب شديد ، وجوف مهاك ، وقد عبر هو نفسه في صدق عن مبلغ الحوفه في شعر كثير يقول منه البيت السابق :

لقد خطبت جنى لو تطير حمامة لقلت عدو او طليعة معشر ويقول منه :

اذقنى طعم الأمن اوسل حقيقة على وان قامت فغصل بنانيا خلعت فؤادى فاستنظير فأصبحت ترامى به البيد القفار تراميا (٢)

فهو يصرح اذن بانه اصبح يرى فى كل شىء عدوا ، رفى كل صسوت صبحة عليه من أعداله ، وأن الحوف الشديد ملك عليه نفسه وحواسه ومعنى ذلك ان احساسه وادراكه لما حوله أصبح غير سليم ، بالاضافة الى أساطير وخرافات عالقة بذهنه من أساطير البيئة عن الغيلان والسعالي والجن ، فتحت وطأة هذا الحوف الشديد ، من المحتمل أن يكون قد تصور هسذه الاساطير حقائق مائلة فيما يراه من الظلال والكهوف وأصوات الطيور وأشباح الحيوانات في الليل ، وبهذا لا يكون كاذبا فى دعواه عن هذه المخلوقات لائه تحدث عما خيل اليه أنه رآه وأحس به ، ولذلك آثرنا هناك أن نسمى هذا النوع عما خيل اليه انه رآه وأحس به ، ولذلك آثرنا هناك أن نسمى هذا النوع معبرا عما خيل اليه كحقيقة واقعة فى اعتباره ،

والجافظ يؤيد ذلك ، حيث انه بعد أن ساق شعرا كثيرا من شعر الوهم لعبيد بن أيوب ، لم يتهمه بالكذب والاختلاق ، وانما علل ذلك بقوله « اذا استوحش الانسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وتفرق ذهنه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على اليسير أنه عظيم جليل » (٣) وأضاف الى هذا التعليل قوله أيضا « ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به انهم ليس يلقون بهذه الاشعار والإخبار الا اعرابيا مثلهم والا عاميا لم ياخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق أو الشك » (٤) ولسكن الدليل الثاني لم يسته الجاحظ عن عبيد بن أيوب خاصة ، وانما ذكره في مقام الوهم في الشعر من حيث هو ولذلك ذكر شعرا آخر لغير عبيد فيه مثل هذا الوهم ، كشعر القتال الذلابي ، ومهما يكن فالجاحظ فيما يبسدو من حديثه الوهم ، كشعر القتال الذلابي ، ومهما يكن فالجاحظ فيما يبسدو من حديثه

⁽١) احيوان لمجاحظ ٥/ ٢٤١ -

⁽٢) اشعر والشعراء لابن قتيبة ١٨٢ م المانجي ٠

⁽٣) الحيوان للجاحظ ٦/٢٥٠ ٠

٤) المصدر السابق ٦/١٥٢ •

لم يعتبره كذبا ، بل صرح بالنسبة لعبيد بن آبوب وكانه يقدر طروقه التي اشراب اليها ، والتي صرح بها الجساحظ في الدبيل الأول و (ذا استوخش الانسان ، النع ، صرح بالنسبة لعبيد في أكثر من موضع بأنه تضور حقيدة في كيا في عنوان احد الفصول و شعر فيما يصوره الفزع ، (١) ثم سبان قبول عبيد السابق و لقد خفت حتى لو تطير حسامة ، ، وفي غنوان آخر يقول و مداعب الاعراب وشعرائهم في الجن ، (٢) وفي عنوان آخر يقول وما يتضوره الأغراب من عزيف الجنان تفول الفيلان ، (٣) ومن صده المتاوين تأخب النا المجاهل لا يتهم عبيدا بالكذب والاختراع ، وانما يحمله على انه تصنور حقيقي ناتج من عامل الفزع وتأثير الاساطير في النفس ،

وأما تنابط شراء مانه وان لم يكن خليما ، ولم يتمرض نكل طروق عبيد ابن أبوب، فقد عانى طروف عبيد فى وحشة الصحراء ومخاوفها النديدة وحوفه من أعداثه الكثيرين الذين يتوقع بل يوقن أنهم سيقتلونه كما يقول عن نفسه :

ومن يفسر بالأعسداء لابد أنه مسلقي بهمن بصرع الوت مسرعارة)

ولكن هذه الظروف لم تبلغ من نفسه ما بلغت من نفس عييد ، ولذلك كان حديثه عن الأوهام دون حديث عبيد ، فان تابط شرا كما قلتا لم يتخدث عن وهم الا في حادثة واحدة زعم انه قتل فيها الفول ، وقد قلنا انه كان يبكن أن تتصور انه فعلا قتل وحشا غريبا من وحوش الصحراء طنه غولا ، لولا إنه تحدث عن تفاصيل لا تترك مجالا للدفاع عنه كقوله عن الفول ، وطالبتهسسا بضعها فالتوت ه •

ونعود فنتول ، ان شذوذ شخصين من طائفة باكملها لا يؤثر عسلى الحكم المام بالنسبة للطائفة ، على انه يمكن حمل حديثهما في الوهم على انه مسدق وليس كذبا ، وذلك باعتبار الزاوية التي علل بها الجاحظ هذا الوهم ، من حيث ان الانسان اذا سيطرت عليه الوحشة وما يحيط بها من عوامل الجوف والرهبة تمثلت المامه أشباح وخيالات يظنها مخلوقات حقيقية ،

ولكن الشيء الذي يتبغى الا نغفله انه حتى مع فرض علم الصدق الخلقى في مذا الومم وللاشك أن فيها صورة من الصدق الغبى والتجربة الشعرية كما يقرها النقاد • الن هذا الوهم يدل أول ما يدل على جو الرهبة والوحشة الذي أحس به الشاعر وتأثرت به نفسه ومشاعره، ومن هذه الناحية يعتبر حديث الرهم هذا

⁽أ) الحيوان ١٠/١٤١ ٠

[·] ١٦٠/٦ الحيران ١٦٠/٦ .

⁽٢) . الحيوان ١٩١٦ ٠

^(£) سياسة آبى تمام ١/١٨٩

تجربة شعرية مادقة من الوجهة الفنية ، بصرف النظر عن الصدق الخلفى الذى يقابل الكذب ، إن هذا الجو الرهيب المخيف الذى عاش فيه الشاعر هو حقيف واقعه وكونه عاش فيها وتاثرت بها نفسه يجعلها تجربة حقيقية و ونقله لهذه التجربة يعتبر من الناحية الفنية صدقا في نقل مشاعر وأحاسيس ، والى هذا الحد يسبر تعراء الوهم غير مخلين بالتجربه والصدق ، أما ما بعد ذلك من التفاصيل (١) فهو موضع النظر ، واختلاف النظرة واذن فشعر الوهم من حيث تصويره لجو رهيب مخيف يملا النفس بأحاسيس الخوف والتصورات ، يمثل تجربة حقيقيه، ونقل الشاعر لاحساسه بهذا الجو وانفعالاته واحساسه به في جملته يعتبر صدقا فنيا ، وهذا انقدر يكفينا دليلا على أن شعر الصعاليك كله بما فيه شعر الوهم يمثان وعدا في شعر الوهم مادقين صدقا فنيا بالغا في نقل صورة تجاربهم حتى كأننا نعيش في هدف التجارب ونحسها و

ولا نحب أن يصرفنا حديث الوهم عن الطابع العام والغالب على شسعر الصعاليك ، فالواقع الذي لا ينازع فيه بين الدارسين لشعر الصعاليك أن شعرهم يمشــل تجارب حياتهم الواقعية ، وأنهم قد نقلوا هذه التجارب على حقيقتها ، وكما أحسوا بها · وأن شعرهم بلغ في الناحيتين أقصى ما يتاح لشعر في نمثيل الواقع، وأقصى ما ينتظره النقد من صدق التجربة ، وصدق الشاعر في نقلها . حيث جعلنا شعر الصعاليك كأننا نرى حياتهم وظروفهم باعيننا ، ونلمسهــــا بحواسنا كما رأينا في الحديث عن شعرهم كله في مختلف الموضوعات والاغراض. ونقاد العرب يرون في هذه الصفة ميزة ترتفع بالشعر الى قمة الجودة ، كما يقول ابن رشيق « وأحسن الوصف ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع ، وأحسنهم وصفًا من أتى في شعره أكثر المعاني التي الموصوف بها مركب فيها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها به ، حتى يحكيه ويمثله للحس بنعته ، وقال بعسض المتأخرين أبلغ الوصف ما قلب السمع بصرا ، (٢) والعبارة الأخيرة أصدق ما ينطبق على شعر الصعاليك • وإذا أردنا أن نناقش انحصار شعر الصعاليك في حدود بيئتهم وحياتهم ، نقول أنه لم يكن ينتظر من مثلهم غير ذلك ، لأنهم لم يلموا ببيئة غير بيئتهم ، ولم توسع آفاقهم ثقافة يطلون منها على مجتمعات أو معلومات غير مجتمعهم ومعلومات بيثتهم ، ولا يقلل من قدر شاعر أن تنحصر موضوعاته في نطاق بيئته ومعلوماته ، وانما يقلل من قدره كشاعر أن يقصر في الموضوع من حيث استيفاء معلوماته وتطبيقها وأن يقصر في قدرته على التصوير نفسه، بمعنى أن تكون قدرته الشعرية دون الوفاء بالتصوير الحيد لموضوع شعره ، وقد عرف نقاد العرب منذ القديم أن الشاعر لا ينتظر منه أكثر من صــور بيئته ومعلوماتها ، كما يقارن ابن رشيق بين شعراء البادية ، وشعراء الحضارة المحدثين

⁽١) أعنى بالتفاصيل ، تفاصيل ما دار بين الشاعر والمخلوقات الوهمية فيما يصوره الشاعر في وهم عبيد بن أيوب .

⁽۲) العمدة لابن رشيق ٢/٩٤٢ ... ه ٢٩٠٠ .

فيقول « وليس بالمحدث من الحاجة الى أوصاف الا بل ونعوتها والقفار ومياهها وحس الوحش والبقر والظلمان والوعول ، ما بالاعراب وأهل البادية ، والاولى بنا في هذا الوقت صفات الحبر والقيان والكئوس والقناني والإباريق وباقات الحقة بمعنى يعنينا في الحديث عن شعر الصعاليك من حيث التجربة الشعرية ، قبل أن يعني بها أثارة عيره ، وكانه حين ينسج مشاعره الفنية لا يعنيه أحد ، وانما تعنيه نفسه ، ولا يقصد إلى اثارة مشاعر أحد ، وانما يقصد أولا إلى اشباع شاعريته والى ارضاء مشاعره هو ، فاذا خاطب الناس بعد ذلك بفنه أو شعره ، فهو انَّمَا يَخَاطُبُهُمُ لَيُشَارَكُوهُ فَي لَذَّتُهُ الْفُنْيَةُ ، وَمُتَّعِتُهُ السَّعُورِيَّةُ ، فالمُتَّعَةُ الفُنْيَةُ واللذة الشمورية يقصد بها نفسه قبل كل شيء ، ويصرف فيها النظر عن كل. مخاطب، فاذا خاطب الناس بفنه أو شعره • لم يكن يقصدهم هم في الحقيقة بهذه المخاطبة بمعنى أنه لم ينشىء فنه وشعره من أجلهم وأنما مجرد اشراكهم أو اطلاعهم على متعته الفنية وعلى مشاعره التي تسجها وصورها لنفسه ، وهذا المعنى تترتب عليه آثار كثيرة في منهج كل فنان وشاعر ، والنقاد يعتبرونه من حيث التجربة هو المقياس الحقيقي الذي يتفاوت به الفنانون والشمراء ، فيقولون عن هذا المعنى مثلاً « وقد يوجه التعبير عن الشعور الى مخاطب ، ولكن هذا التوجيه لا يقصد منه أثارة شعور مماثل من الغير ، وأنما يقصد به أن يدرك فقط ما يحسه المتكلم ، (٢) ويقولون أيضًا ﴿ أَمَا المُرَّءُ الَّذِي يَعْبُرُ عَنْ شَعُورُهُ بِحَقَّ فَهُــو الذِّي يقف من نفسه ومن مستمعيه موقفا واحدا فيوضح شعوره لهؤلاء المستمعين توضيحه لنفسه سواء بسواء ٠ والأصل اذن هو تعبير المرء لنفسه عن نفسسه ثم لمن يفهمه ، وهذا تفريق واضع بين من يعبر عن شعوره ، ومن يثير شــعور الآخرين ۽ (٣) *

وحين نعود الى ما قررناه غير مرة ، من أننا نحس دائما كان شعراء الصعاليك لا يقولون شعرهم للناس ، وأنها يقولونه أولا لأنفسهم ، وأن شعرهم في هذا أشبه بالمذكرات الشخصية التي يسجل فيها امرؤ خواطره ومشاعره ومشاهداته لنعسه ، حين نعود الى ذلك نجد أن شعر الصعاليك يمثل التجربة الشعرية في أصدق صور فنية ترجى من شاعر ، وفي أمثل مستوى شعرى ينتظره النقاد من الشاعر اذاء التجربة الشعرية *

⁽١) العبدة لابن رشيق ٢/١٩٥٠ •

⁽٢) الأسس الفنية للنقد الأدبى للدكتور عبد الحبيد يونس ص ٩٨٠٠

۱۹ المبدر السابق ص ۹۹ •

من الملامع الواضحة في شعر الصعاليك ، والتي تميزه عن الشعر المعاصر له و الطابع القاص بوجدة القضيدة ، فبيتما نجد الشعر العربي القديم يلتزم ما يسميه المقاد القدامي عمود الشعر ، وعمود الشعر يتفقون في فهمهم له _ رغم اختصالاف نظرتهم في تفاصيله _ على انه التزام الطابع التقليدي المتوارث عن الشعراء القدامي ، سواء من حيث المطلع أو الماني أو الألفاظ أو النواحي البيانية والبلاغية (١) بينما يلتزم الشعر القديم هذا الطابع ومن بينه اشتمال القصيدة على عدة عتاصر في أغلب الأجيان ، وفي مقدمة هذه المناصر الغزل في مطلع القصيدة ، ثم وصنف حال الشاعر غالبا ثم المرضوع الأسماسي ، وما تستتبعه من عناصر ، وهذا الطابع معروف في الشعر العربي القديم .

نقول بينما يلتزم التبعر القديم هذا الطابع نجد شعر الصعاليك يخالف فيه مخالفة وأضحة عشير الصعاليك مثلا يندر أن نجد فيه بدء القصائد بالغزل كطابع تقليدى ، الا الذا كانت القضيدة نقسها غزلا ، فلا تكون حينئذ ذات مطلع ، لأن مطلعها وموضوعها واحد وهو الغزل ولو ذهبنا نستقضى شعر الصحاليك كنه لما وجدنا فيه قضيدتين أو ثلاثة يبدآن بهذا المطلع التقليدى في الشعر القديم، وحتى بعض هذه القصائد القليلة التي بدئت بالغزل مع اشتمالها على أغراض أخرى ، يحدثنا الزواة بال انفرل فيها حقيقى وليس مطلعا تقليديا ، كقصيدة عندة بن الطبيب التي اولها أ

هل حيل خولة بعل الهجر موصول ام انت عنها بعيد الدار مشغول (٢)

قالرواة يذكرون في منبت هذه القصيدة أن عبده كان قد هاجر لمهاجرة حليلة له ـ وهي التي يتجدث عنها في القصيدة ـ فلما آيسته رجع الى البادية فقال مده القصيدة ، فأول طابع تقليدي كان الشعر القديم يلتزمه وهو استهلال القصيدة بالغزل ، لم يكن شعر الصعاليك اذن يلتزمه .

ثم نذهب الى يقية جوهر الطابع التقليدى ، فنجد شعر الصعاليك لا يلتزمه أيضا ، بل يكاذ يعارضه معارضة واضحة ، وذلك أننا نجد شعرهم لا يتجه الى طابع القصائد التى تشتمل على عناصر أو أغراض متعددة ، وأنما تلتزم القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا وأحدا لا تعدو تصويره ، أو تصوير جوانبه وملابسات المباشرة ، ولو أخذنا أطول قصيدتين وردا لنا من شعر الصعاليك ، وهما لامية عبدة بن الطبيب ولامية الشنفرى ، لراينا أنهما مع طولهما ، ومع ما يبدو في

⁽١) أنظر أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد بدرى ٥٣٥ ــ ٣٩٠ .

⁽٢) المفضليات ص ١٣٥٠٠

بعضهما من معان مختلفة ، يمثلان الوحدة في القصيدة بصورة تخالف الطابع التقليدي في الشعر الماصر لهما ·

فأما قصيدة عبدة وهى ذات المطلع السابق ، وتبلغ واحدا وثمانين بيتا ، فالظروف التى احاطت بانشاء عبدة لها ، أن زوجه خولة رحلت الى المدائن ، وقد ذكر الرواة كما قلنا انه هاجر وراءها فلما أيسته رجع من المدائن التى شهد فيها وقعة القدسية ، الى باديته فى الحجز ، ثم قال القصيدة ، وحين نستعرض القصيدة نجد أنها على طولها لم نعد وصف الرحله وسببها ، فتبدا بحنينه الى خوله ثم حلولها المدائن والكوفه ثم يعبر عن ياسه منها ، ونفض يده متخلصا الى حديث رحلته بقوله :

ان التى ضربت بيتا مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول عمد عنها ولا تشييب تضليل ان الصبابة بعد الشيب تضليل بجسرة تعلاة القين دوسرة عنها على الاين ارقال وتبغيل (١)

ويتخد من هذه الأبيات تحللا من حديث خولة ، ومنطلفا لوصف الرحلة وبمقدار طول الرحلة كان وصفه لها أيضا ، فقد وصف من مطاياهم في الرحلة الناقة والفرس وصفا طويلا جميلا ، ووصف معيشتهم وحصولهم على الطعام أثناه الرحله ، فوصف الصيد الذي يعتمد عليه مسافر الصحراء ، وكان الصيد الذي هز مشاعره صيده ثورا أبيض اللون يخالط قوائمه سواد ، ووصف الصراع مع هذا الثور ، ووصف الثور نفسه وصفا بديما ، كوصفه اياه وهو يعدو من مطاردة الصائد عدوا يثير التراب في كل وجه بكل قوائمه ، وقد نال منه الجهد حتى خرج لسانه مائلا عن شدقه فيقول :

مستقبل الربح يهنو وهو مبترك لسانه عن شمال الشدق معدول يخفى التراب باظــلاف ثمانية في أدبع مسهن الأرض تحليل (٢)

ثم يصف عبدة ما نقيه من البذخ والترف في بلاد العجم ، مصورا اياه مي مجلس شراب بما فيه من بسط وستائر وتماثيل وسقاة ٠

وهكذا نجد القصيدة كلها موضوعا واحدا هو وصف رحسلة مقرونة بسميها ، مستعرضة أبرز المشاهد التي أثارت مشاعره في هذه الرحلة •

وأما لامية الشنفرى فهى جاهلية ، وعدتها ثمانية وستون بيتا ، والظروف المحيطة بها ، ان الشنفرى حين قالها لم يكن له وطن ولا أهل كما كان للناس

⁽١) المفضليات ١٣٦ والجسرة الناقة العملية والقين العداد والعلاة صندان الحواد والدرسرة المسلبة الضخمة والاين الأعياء والارقال والتبقيل توعان من المشي السريع *

⁽٢) المبترك المجتهد في العدو ومعدول ماثل ويخفى بمعنى يظهر ويثير ، والثمانية لأن في كل رجل طلقين وتحليل من تحليل القسم. *

فقد سبى من اهله فى أزد اليمن وهو صغير ، لينقل الى نجد أسسيرا فيها ولم يلبث أن أحس الهوان والذل الذى يعيش فيه بمرارة لم تطقها نفسه ، وقلي ضاعف مسلك بنى سلامان فى اهانته من احساسه بالذل والهسوان ، فامتلأت نفسه سخطا على الناس جميعا ، وآثر الصحراء بوحشتها ووحوشها وقسوة حياتها ومخاطرها على حياة الناس •

وحين نفظر الى اللامية نجدها لا تعدو تصوير هذه الظروف ، ولا تطرق أى غرض آخر خارج نطاقها ، فالقصيدة تبدأ باظهار سنطه على الناس ، وتصميمه الجامع على هجرة مجتمعهم كله الى الأبد حيث يقول في مطلعها :

اقيموا بنى امى صدور مطيكم فانى الى قوم سواكم الأميل فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وارحل

ثم يبين الفوم الآخرين الذين آثرهم على الناس الذين هجرهم فاذا هم قائمة من الوحوش الضارية ، يرى فيها الأهسل والأنس والفضيلة اللائي افتقدهن في مجتمع الآدميين ، ثم يصف حياته في الصحراء ، وهشاهده فيها من الذئاب الجائمة الباحثة عن الطعام مثله ، ومن النحسل الحزين الصاحب لسطو آدمي على خلاياه مهدما اينها خلال جمعه العسل ، ويصف مناخ الصحراء ببردها الشديد في الليل وحرها القائظ في النهار ، وما يعانيه من عطش وجوع ، ويصف نفسه هو في هذه الحياة ، فنراه ناحل الجسم باوز العظام ، مهلهل الثياب حافي القدمين ، ضافي الشعر اللبد الذي لم يرجسل ولم يغسل منذ أمد بعيد .

وهكذا نجد اللامية لا تعدو قط حدود الظروف التي اقتضتها ، ولا نتعرض قط لغرض او معنى خارج نطاق موضوعها ، كما لم تتعرض قصيدة عبدة ابن الطبيب لغرض أو معنى يشذ عن نطاق موضوعها .

واذا كانت هاتان القصيدتان وهما أطول ما وصلنا من شعر الصعاليك تمئلان هذه الوحدة الموضوعية التي لم يخلل بها نشذ فأولى بما دونهما طولا من شعر الصعاليك أن يكون ألزم للوحدة وأحرص عليهما ،ولسنا نقول ذلك استنتاجاً أو قياسا ، فالواقع أن طابع شعر الصعاليك كله يكاد يكون فريدا في التزامه الوحدة في أكمل صورها أذا قيس بالشعر المعاصر له ، وليس معنى ذلك اتهام الشعر المعاصر لشعر الصعاليك بمجافاة الوحدة كما يزعم كثير من النقاد المحدثين الذين أولعوا بترديدهم عبارة الوحدة العضوية ، متخذين منها سلاحا غير لين ولا مرن يحطمون به عن عمد أو عن غير عمد تراثنا العربي القديم .

ولم يصدر أولئك النقاد في مهاجمتهم للقصيدة العربية في وحدتها عن الدراسة وللتذوق والانصاف بقدر ما تأثروا ببريق النقسد الغسربي ومقاييسه

الحرفية الجافة للأدب ، وكان في مقدمة الذين نشروا هذا التشكيك في الشعر العربي حليل مطران (١) ، ثم نتابع من بعده عدد من هؤلاء ، في مقدمتهم أصحاب مدرسة الديوان التي حمل لواها المرحوم عباس العقاد ، ولست أريد أن أخوض في هذا الحديث الا بالقدر الذي يعنينا منه الان ، فاقول : ان هده الدعوة كانت اترا مباشرا لتأثر هؤلاء الادباء بثقافة الغرب وأسلوب نقده ، كما يصرحون جميعا بذلك ، وخاصة في مقارنتهم بين الأدب العربي والغربي وحديثهم عن تاريخ الوحدة العضوية في النقد الغربي ، وفي نظرة مجملة الى عده الدعوة نراها تتضمن أمرين دوى خطورة بالسبه لادبنا العربي ،

ا - لم يراع اصحاب هذه الدعوة طبيعة الادب العربي وتدوقه وطابعه الفكرى والخيالي واللغوى الخاص به ، ومهما يكن الأدب انسانيا أو عالميا فلا شك أن لكل أمه طابعها وأسلوبها ومنهجها الادبى الخاص ولكن أصحاب هذه الدعوة في نشوة تأترهم بالثقافه الغربيه ازادوا أن يطبقوا كل شيء فيها على كل شيء في الثقافة العربيه الشرقية دون مراعاة الظروف التاريخية والطبيعيه في كل من المجتمين مع انهم يعترفون أن الوحدة العضوية حتى في النقد الغربي انما نشأت بالنسبة للمسرحيات والملاحم وظلت حتى اليوم ، وأهم مجال لتطبيقها هو المسرحية (٢) كما أن الشعر الغربي يختلف في طابعه عن الشعر العربي ، ما يجعل لتطبيق الوحدة العضوية فيه أثرا ، وكذلك شعر المسرحيات ، والشعر القصصي (٣) في الأدب الغربي ، يتيح للوحدة العضوية أن تراعي فيه كما يتحدثون عنها ، ولكن أدبنا العربي ، يتيح للوحدة العضوية أن تراعي فيه كما وتتحدثون عنها ، ولكن أدبنا العربي في طابعه وأسلوب اتجاهاته وتكوينه وانتشرت على يد أفراد كانت ظروف المجتمع العربي الثقافية ، تجعل منهم قادة ليسوا لامعين فحسب ، بل وفي موضع القدوة التي تتحكم في توجيه الشباب وفي رسم الكثير من الخطوط الثقافية للمجتمع .

٢ ـ اذا كانت هناك اسباب كثيرة يعلل يها ركود الشعر العربى وضعف مستواه بصفة عامة فى الفترة القريبة فلاشك ان من بين هذه الاسباب هذه القيود الجافة التى أشاعها بعض نقادنا المحدثين وفى مقدمتها الوحدة العضيوية كاصحاب الديوان ومن ساد فى فلكهم ، فمن اليسير أن نتصور الناشئين من الشعراء أمام دعوة كهذه ممن يعتبرونهم قادة لا يرقى الخطأ أو سوء التوجيه اليهم بين أمرين ، فاما أن يحاولوا النسج على منوال هذه الوحسدة العضوية وما صاحبها من قيود وحرفية ، فيأتى شعرهم بعيدا عن روح الشعر العربى وحريته وانطلاقه فى أجوائه الفسيحة التى الفهسا ، واما أن يؤثروا العافيسة

⁽١) النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي ملال ٤٠٦ نقلا عن مرجع آخر ٠

⁽٢) أنظر المعدر السابق ص ٤٠١

⁽٣) انظر المددر السابق ٢٠٦

فيهجروا الشعر الى شىء آخر وقد كانت النتيجة أن أصيب الشعر العربى المعاصر تحت ضربات هذه الوحدة وقيود النقد الاخرى - بالاضافة الى عدوامل الحرى - بضعف وثقل شديد فى الحركة والانطلاق وفى مقدمة الذين تاثر شعره تأثرا ضارا بهذه الدعوة ، أصحاب الدعوة نفسها ، فان منهم من كان يبكن أن يكون شاعرا ذا قدم فى الشعر ، وأن يكون شعره ارفع مما كان عليه يكثير ، لولا هذه القيود التى كبله بها باسم الوحدة العضوية وما احاط بها ، حتى كان كثير منه اقرب الى البحث العلمى منه الى الشعر ،

على انتا نلاحظ أن التأثر الشميديد بنقد الغرب وأدبه لم يجرف كل إ الادباء والنقاد العرب، فمنهم من استطاع أن يحافظ على تذوقه السليم للادب العربي منكرا مهاجمة الشعر العربن واتهام قصائده بمجافاتها للوحدة ، كمسا صرح الدكتور طه حسين بذلك ، حيث يقول بعد أن عرض اتهام بعد النقساد للقصيدة العربية بالتفكك والاخلال بالوحدة ، ممثلا بقصيدة لبيد « وانما اقف معك عند قصيدة لبيد ٠٠ وأتحداك وأسالك أن تبين لى من أين يأتيها الاضطراب والاحتلاف، وكيف لا تتم لها الوحدة الا من الوزن والقافية ١٠ أمامك قمسيدة لبید ، فأرنى كیف تقدم فیها وتؤخر ؟ وكیف تضم فیها بیتا مكان بیت دون ان تفسيد معناها أفسادا ، وتشهره حمالها تشويهما ١٠ انها بناء متقن محكم ، لا تغير منه شيئا الا أفسدت البناء كله ، ونقضته نقضا ٠٠ ، (١) كما أنكر بعض النقاد أيضا التسمية بالوحدة العضوية والزام شعرنا العربي مضمونها الذي يريدونه كالدكتور محمد مندور (٢) ولكننا في الوقت الذي نكبر موقف هذا البعض من الأدباء والنقاد ، من حيث محافظتهم على الذوق العربي في أدبه ، وعدم تخليهم عن مراعاة طبيعة الفارق بين الأدب العربي والغربي في دوقهما ومنهجهما ، في وقت كان يمكن أن يلتمس لبعض المتأثرين بثقافه الغرب ونقده بعض العذر ، من باب قول ابن خلدون ، المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و تحلته وسائر أحواله وعوائده ، (٣) في الوقت الذي نكبر فيه موقف أولئك في ذلك الوقت ، نجد من نقادنا المعاصرين من لا يزال يصر على متابعة هذه السبيل التي جنت على شعر أصحابها ، وعلى شعر مجتمعهم أيضًا من حيث المساهمة في أضعافه بل وعلى تراث العرب الشعرى كله ، من حيث محاولة هدمه والتشكيك في مستواه وسلامته الفنية ، فلازال في نقادنا المعاصرين من يقول « فليست للقصيدة الجاهلية وحدة عضوية في شكل ما من الأشكال ، لأنه لا صلة فكرية بين أجزائها ١٠ على ما بين أجزائها من تنافر

⁽١) حديث الاربعاء ص ٣٠

 ⁽٣) الشعر المصرى بعد شوقى ص ١٠٥ ، ١٠٦ سنة ١٩٥٨ نقلا عن النقد الأدبى الحديث للدكتور غنيمى هلال ٤١٠ وما بعدها ٠

⁽٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٠ (هذه العبادة عنوان للصبل) ٠

يتنافى والوحدة العضوية في معناها الصحيح ، (١) وقائل هذا الكلام لا يكتفي بهدم الشعر القديم وحده ، وانها يهدم كل ما جاراه من الشعر الخديث ، حتى سعر شوقي كنقده الهادم لسينية شوقي الشهورة ، حيث كان من نقده لها ه فهي تسير على طريقة تعليدية محضة ، وقوله ، فنظام القصيدة تقليدي محض اذا ترات فيه وحدة نفسية فلا وحدة عضوية له ، (٢) ونقد كثير هادم لهسا من نواح آخری ولکننا لا یعنینا النقه الموضوعی ، فلیس لنا آن ننکس عــــــلی ناقد اجتهاده في النقد الموضوعي ، وليس لنا أن نسى، الظن به وان أخطأ في هذا ، مادام ملتزما المنهج الموضوعي الذاتي ، مترسما طريق النقد الذي ينبع من تذوقه واحساسه ، ولكن الذي تنكره أن تجعل من مصطلحات النتد الغريب سبيغا على تراثنا العربي رأن نلغي ذوقنا العربي لنضع مكانه ذوقا واصطلاحسا اجنبيا نحكمه في تراثنا وأدينا ، وأن تجعل من مجرد الطابع التقليدي في الادب العربي سبة في الأدب وحطأ من شنانه ، فلسنا نعيب على هذا الناقد أن بنظر الى قصيدة شوقى هذه من أي زاوية يريب ، ولكننا ننكر عليه أن يركز حطه من شانها ومحاولة هدمها على مجرد إنها سارت على الطابع التقليدي في الشمعر العربي ، وكان هذا الطابع سيبة يجب أن ينأى عنها كل شعر ، وأن ينفر منها كل شاعر ، وقد يقال ان الطابع التقليدي قيد أثقل شاعرية بعـــض الشمعراء في القديم والحديث ، وقد لا نتشمد في انكار هذا القول ، واكننا نتشمد كن الشدة منكرين أن يجعل هذا الطابع علامة على رداءة الشعر وجموده وهوان امره ، بل ننكر مجرد ادخال هذا الطابع في نقد أي قصيدة ، فلنا أن نجعل حديثنا عنه مستقلا ، هل أجدى هذا الطابع على الشعر العربي أم لم يجد ؟ ولكن ليس لنا أن نجعله لذاته نقيصة في أي قصيدة فقد تلتزم قصيدة هذا الطابع ، ومع ذلك تبلغ قمة الجودة الشعرية ، وقد تجانب قصيدة أخرى هذا الطابع ، ومع ذلك تنزل الى درك سافل في ميزان الأدب والشعر .

والعجيب أن يرى هذا البعض من النقاد أن هذه الدعوة الى الوحدة المضوية قد أفادت الشعر المعاصر فائدة « بعيدة المدى » كما يقول « وكان لهذه المدعوة أثر ثورى بعيد المدى فن ادراك الشعر ، وفى ادراك القصيدة بوصفها وحدة حية كاملة ، وفى السمو بموضوعها وغاياتها ، وفى صدق صدورها وتآزرها جميعا على الوصول الى هدفها » (٣) ومعنى ذلك أن القصائد العربية لم تعرف السمو فى الوضوع والغايات ، ولم تعرف الصدق والتآزر الا بفضل هذه الدعوة ، وأنهم بمحاولتهم هدم مثل شعر شوقى ، قد رفعوا ما جاء بعده من الشعر رفعا « بعيد المدى » ولكننا نكتفى فى الاجابة عن هذا كله ، بأن من الشعر رفعا « بعيد المدى » ولكننا نكتفى فى الاجابة عن هذا كله ، بأن نسأل هذا البعض ؛ هل حقا تؤمنون بأن الشعر العربي كان وضبعا لم يسم

⁽١) هو الدكتور محمد غنيمي هلال في النقد الأدبي الحديث ص ٤٠٢ ، ٣٠٤ ٠

⁽٢) المصادر السابق س ٤٠٤ ــ ٤٠٥٠

⁽٣) النقد الأدبى الحديث للدكتور محمد غنيمي ملال ٤١٠

الا بالوحدة العضوية الغربية ؟ وهل حقا تؤمنون بأن هذه الوحدة قد سسمت بالشعر الحديث سموا بعيد المدى ؟ وهل حقا تؤمنون بأن محاولتكم هدم مثل شعر شوقى ، قد بنت بعد شوقى شعرا خيرا من شعره وأسمى منه ؟

على ان التأثر بالثقافة الغربية وآراء المستشرقين كما لم يجرف كل أدباء ونقاد الجيل الماضي كذلك لم يندفع كل نقاد الجيل المعاصر في هذا التيار ، بل نرى أن نقدنا يتجه الى الطريق العربي الأصيل (١) وأن التساثر بالروح الغربية ونزعة المستشرقين أخذت تتضاءل في مجتمعنا العربي ، وهذا ولاشك أثر مباشر من آثاد استقلال الكيان العربي ، وشعوره بذاته وضعف نزعة التقليد التي عللها ابن خلدون في نظريته السابقة ، فنجد ناقدا كالدكتور أحمد بدوى يعود الى الروح العربية في النقد بقوة وعمق ، مبينا كيف ان القصيدة العربية مهما بدت مشتملة على أغراض وعناصر مختلفة ، فأن لها أسلوبها في ربط هذه العناصر واحكام وحدتها ، وأن الذوق السليم لابد أن يحس بأن هذه الأغراض عناصر متحدة الغاية والهدف ، محقفة للوحدة ، مستعرضا مواقف نقاد العرب القدامي الذين لم يفتهم الحرص على الوحدة ، ولكن من زاوية الأفق الواسع ، والذوق العميق للروح العربية ، مشيرا الى اثر المستشرقين في بث هذا التشكيك في قيمة الأدب العربي حيث يقسول و وهنا يحسن بي أن أشير الى ما شاع على الألسبنة ، ومسا ردده كشسير من المستشرقين من اتهام القصيدة العربية بخلوها من صليفة الوحدة الفنية ، (٢) وفد بين رأيه في موقف المستشرقين ومن شايعهم من أصحاب الوحدة العضوية فى قوله « هذا الاتهام للقصيدة العربية ولنقاد العرب فيه ظلم بالغ وحيف کیبر ۰۰ ، (۳) ۰

والموضوع الذى آثار هذا الجدل حول وحدة القصييدة العربية ، هو ما شاع فى القصائد العربية ، من اشتمالها على أكثر من عنصر ، ومن ذلك استهلالها بالغزل ، ولو لم يكن موضوعها غزلا ، فيصبح المطلع عنصرا مستقلا يضاف الى ما فيها من عناصر أخرى ، وأوضح ما يكون ذلك فى قصائد المدح حيث يغلب اشتمالها على ثلاثة عناصر ، الغزل ، ثم وصف الرحلة الى الممدوح ثم ما قد يصحب ذلك من حكم أو نحوها وقد بين النقاد القدامى وفى مقدمتها أبن قتيبة (٤) ثم المنصفون من الذين لم يجرفهم تيار المستشرقين فى الحديث ال ذلك لم يخل بوحدة القصيدة العربية ، وأصبح موقف الذين جرفهم تيار المستشرقين لا يمثل فى جملته نقدا موضوعيا للشعر العربى ، وانما عدداء

⁽١) أنظر آراء واتجاهات للدكتور محمد نايل ٥٢ ـ ٧٥ -

⁽٢) أسس النقد الأدبى عند العرب ٣٢٢ وما بعدها منيها ال مراجع اغرى •

⁽٣) المرجع السابق ٣٢٣ وما بعدها ·

⁽٤) الشعر والشعراء ٦٠

سافرا وتنكرا شديدا لكل ما يحمل الطابع العربى من الشعر ، ولو بلغ حد الاعجاز الفنى ، وكأن الطابع العربى لذاته علامة فى نظرهم كما قلنا على الرداءة والتفاهة ، ولا اظن ان هذا يصلح لسبيل النقد الموضوعي المنصف •

وكان لزاما أن أتعرض لهذا الحديث الموجز وحدة القصيدة ، لأبين أن الشعر العربى ، يما فيه الشعر المعاصر لشعر الصعاليك لم يخرج عن حدود الوحدة ، سواء في نظر القدامي من نقاد العرب أم في نظر الذين ظلوا عربيي النقد والذوق والنظرة من المحدثين .

وعلى ضوء هذه النقطة ننظر الى شعر الصعاليك فنقول انه مع كون الشعر المعاصر لهم تمثل قصائده الوحدة التى يقتضيها الفن الشعرى ، الا أن شهر الصعاليك كان أبلغ في تمثيله لهذه الوحدة ، حيا سلك منها منهجا أوضع وأعبق ، وكان له فيها طابع أكثر وضوحا وتميزا .

فقد قلنا انه حتى فى اطول قصيدتين بلغتانا من شعر الصعاليك كانت الوحدة بينة محكمة فيهما ، وقد كان انتقال عبدة بن الطبيب من حديثه عن امرأته التى كانت سبب رحلته الى وصف الرحمة نفسها ، وكان ربطه بين المعنيين يمثل أبلغ ما يصفه النقاد العرب بحسن التخلص ، وقد تمثل تخلصه هذا البليغ فى الأبيات الثلاثة التى ذكرناها آنفا وصلبها :

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ان الصبابة بعد الشيب تضـــليل

فقد جعل هذا البيت حدا فاصل بين المعنيين ، ولكنه مهد له بالبيت السابق له ، كما تدرج منه الى المعنى التالى بالبيت اللاحق له ، فأصبح البيتان من حوله كالحبلين اللذين يربطانه بما قبله وما بعده ٠

ونقول انه اذا كانت القصائد الطويلة في شعر الصعاليك تمثل الوحدة بهذه الصورة ، فان القصائد العادية والمقطوعات أظهر في التزامها وحدة كاملة لا يثور حولها جدل ، ولا يستطع حتى المستشرقون ومن اقتدى بهم من نفادنا الا أن يروا فيها أكمل ما يتحدثون عنه من أنواع الوحدة في المشعر ولان شعرهم كما قلنا خلا من التزام المطلع الغزل ، وكذلك خلا من تعدد العناصر ، فنجد القصيدة أو المقطوعة منصبة على غرض واحد معين ، لا تمهد له في الدخول اليه ، ولا تتعداه حين تدخل اليه ، ولذلك نجد المعانى التي بغلب أن تكون في مقام الاستطراد كالحكمة غير شائعة في شعر الصعاليك ، وقد نقرأ للشاعر القصيدة الكاملة ، بل وعددا من القصائد والمقطوعات فلا تجد فيها بيتا من الحكمة المقصودة ، أو الاستطراد ولو قريباً من المعنى ، ومن أبرز ذيها بيتا من الحكمة المقصودة ، أو الاستطراد ولو قريباً من المعنى ، ومن أبرز في هذه الحوادث مجرد وصف وتعبير عن الشعور ، بصورة مباشرة ليس فيها تمهيد أو استطراد ، وانها يكتفى الشاعر منهم بتصوير الحادث وأقصاء تعقيب

ومثل مشاعره نحو هذا الحادث ، وهذا النوع لا يحتاج الى تمثيل لأنه يمثل ممظم شعر الصعاليك كما رأينا في شعر عروة عن قصة احتيال اليهود لسلبه زوجه ، وقصة أصحاب الكنيف ، وقصة غارة السليك على جوف مراد باليمن وقصائد الهذلين ومقطوعاتهم عن احداث نجاتهم بالعدو ، وصور الصيد ورثائهم لبعض رفاقهم وذوى الصلة بهم لكننا نجد حتى القصائد التي لا ترتبط بحادث معين ، لا تخرج قط عن موضوعها أيضا ، ولا تمهد له · فمثلا رائية عروة بن الورد وهي احدى قصائده غير القصيدة ، اذ تبلغ سبعة وعشرين بيتا ، لا ترتبط بحادث مباشر ، وانما يتحدث فيها عن اضطراره الى حياة الصعلكة على ما فيها من اخطار وكل ما يتصل بالقصيدة من سبب أن زوجه كانت تكثر من لومه على المعاطرة بنفسه ، متمنية أن يستكين الى جوارها تاركا حياة التصعلك فيرد عليها بسخرية تنم عن الاصرار على عزمه ، والاستخفاف بتثبيطها قائلا :

اقلى على اللوم يا ابنة مندر ونامى فان لمتشتهى النومفاسهرى(١)

ثم يتابع حديثه متصلا بصلب الموضوع ، وسبب اصراره على الصـــعلكة قائلا :

ذريني اطوف في البسلاد لعلني أخليك أو اغنيك عن سوء محضر (٢)

وأبياتا أخرى عما يضطره إلى الصعلكة ، مقارنا بين الصعلوك _ بمعنى الفقير _ الحامل الكسول الذي يرضى لنفسه حياة الكسل والهوان ، والصعلوك الأبي الذي يفتصب عيشه ومنزلته بين الناس اغتصابا ، لأنه لا يرضى لنفسه شيئا مما رضيه زميله الذي اختار طريق الكسل والحمول والهوان مختتما القصيدة بالمنزلة الرضية لديه ، والتي أبلغته اياها صعلكته و وهكذا نجد القصيد غرضا واحدا لا يتشعب ولا يتعدد الجوانب و ونجه الطهام الغالب ، أن لم تكن الصغة الملازمة ، لكل شعر الصعاليك أن تكون القصيدة أو المقطوعة غرضا واحدا لا يتعداه الشاعر .

وهذا هو موضع التميز في شعر الصعاليك عن غيره من الشعر العسربي فبينما نجد الطابع الغالب على الشعر العربي تعدد العناصر في القصيدة ، نجد شعر الصعاليك يختلف عن ذلك بأن الطابع الغالب عليه ، عدم تعدد العناصر وبينما كان تعدد العناصر في القصيدة العربية موضوع جدل بين النقساد ، لا يحتمل شعر الصعاليك هذا الجدل ، لالتزام القصيدة أو المقطوعة فيه غرضا واحدا ، وعدم تعدد العناصر فيها ، وبهذا يكون شعر الصعاليك محققا لوحدة

⁽١) الاصمعيات ص ٣٦٠٠

⁽٢) أخلبك يعنى أقتل قبخلى سيبيلك وسوء المعضر يريد ذل الفقر والمراد أغنيك أو ترتاحي من فقرى •

القصيدة على اكمل وجه قنى ، سواء من وجهة نظر نقاد العرب القدامى ، ومن تابع نظرتهم من النقاد المحدثين ، أم من وجهة نظر النقد الغربى ، ممثلة في آراء المستشرقين ، ومن تابع نظرتهم من نقادنا المحدثين وسواء نظر نسالك الوحدة ، على انها وحدة نفسية أو وحدة فنية ، أو وحدة عضوية ، فمن كل هذه الزويا نبعد شعر الضعاليك يحقق الوحدة في قصائده ومقطوعاته في اكمل صورها ، وفي طابع ينميز به عن غيره من الشعر العربي العربي المحدث المربي العربي المحدث المربي العربي المحدث العربي العربي المحدث العربي العر

The state of the s

٨ _ عدم التزام التصريع

ومن السمات الواضعة في شعر الصعاليك عدم التزامه التصريع ، فبينما نجد القصائد العربية يغلب عليها الطابع المروف بالتصريع ، بمعنى أن يكون مصراعا البيت الأول من القصيدة متفقين في الكلمة الأخيرة ، التي هي قافية المقديدة ، فالقافية الملتزمة في أواخر أبيات القصيدة ، فجدها أيضا ملتزمة في آخر الشطر الأول من البيت الأول ،

ولكن شعر الصعاليك يخالف هذا الطابع ، فتجده لا يلتزم التصريع ، بل يغلب عليه كله خلوه من التصريع ، حيث نجد نسبة قليلة منه مصرعــة أما الكثرة الغالبة فلا تصريع فيها ، ويمكن أن نفرق في هذا بين القصائد والمقطوعات .

فأما القصائد التي تعتبر طويلة بالنسبة للمنطوعات القصيرة الكثيرة التي وردت الينا من شعرهم فنقول ان هذه القصائد هي المقياس الذي ينبغي أن يكون محور الحديث، الأنها لا يثور حولها الخلاف، أو لا يقوى الظن بأنها مبتورة المطلع، بمعنى ان المقطوعات القصيرة يمكن أن يقال انها كانت في الأصل قصائد مصرعة، ولكنها بترت، ولم يصل الينا منها الاهذا الجزء، أما القصائد فلا يثور حولها في جملتها هذا الاحتمال •

والقصائد التى وردت الينا من شعرهم فيها أيضا هذا الطابع ، وهو غلبة عدم التصريع عليها ، فقليل منها مصرع ، والكشيد لا يلتزم التصريع · ومن القليل الذي ورد الينا مصرعا قصيدة عبدة بن الطبيب التي أولها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشقول (١) وقصيدة عروة بن الورد التي أولها :

اقلى على اللوم يا ابنة مندر ونامى فانلم تشتهى النوم فاسهرى (٢)

⁽١) المفضليات ص ٣٦ رعدتها واحد وثمالون بيتا ٥

⁽٢) الاصمعيات ص ٣٦ وعددها سبعة وعشروق بيتاً *

وقصيدة قيس بن الحدادية التي اولها :

اجيك أن نعم نات انت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع (١) وقضيدة الشنقرى التي اولها :

الأ أم عمسرو أجبت فأستقلت وما ودعت جيرانها أذ تولت (٢)

وقصيدة مالك بن حريم التي أولها:

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعا وقد فات ربعي الشباب فودعا (٣)

وقصيدة تابط شرأ التي أولها:

يا عيسه مالك من شسوق وايراق ومر طيف على الأهوال طسراق (٤)

وأما الكثرة التى وردت الينا غر مصرعة من شعرهم ، فمنها لاميسة الشنفرى وأولها :

اقيموا بني امي صدور مطيكم فاني ال قدوم سواكم لأميسل (٥)

ومن الكثرة غير المصرعة أيضا مرثية مالك بن الريب وأولها :

ألا ليت شعرى هل ابيتن ليسلة بجنبالغضا ازجىالقلاص النواجيا(٦)

وقصيدة جحدر بن معاوية التي أولها :

تأوبنى فبت لها كنيعا هموم ما تفادقنى حـــوانى (٧) وقصيدة تأبط شرا التي أولها :

وقالوا لهـــا لا تنكحيه فانه لأول نصــل أن يلاقي مجمعا (٨)

وقصيدتان أيضا لتأبط شرا (٩) ، وقصيدة صخر الغي التي أولها : لعمر أبي لقد ساقه المنا الى جدث يوزى له بالأهاضب (١٠)

⁽١) الأغانى للأصفهاني ١٤٤/١٤ ـ ٦٦ وعددها أربعة وأربعون بيتا ٠

⁽۲) المغضليات ص ۱۰۸ ـ ۳٦ بيتا ٠

⁽٣) الاسمعيات ص ٥٧ وعددها أربعون بيتا ٠

⁽٤) المفضليات ص ٢٧ وعددها ٢٦ بيتا ٠

⁽٥) سبق نصها بعنوان مستقل - ٦٨ بيتا ٠

⁽٦) سبق نصها (فصل الاختلاف في شعرهم) وهي ٥٨ بيتا ٠

⁽۷) أمالي القالي ١/٢٧٧ ، ٢٧٨ وهي ٢١ بيتا ٠

⁽٨) حماسة أبي تمام ١/١٨٩ ــ ١٩١ وهي ١١ بيتا ٠

⁽٩) أنظر حماسة أبي تمام ١٧/١ ، ١٨ ، ٢٢/١ ــ ٢٤ وكل منهما ٩ ابيات ٠

⁽۱۰) ديران الهذلين ۲/۸ وهي ۲۶ بيتا ٠

وقصيدة حبيب الأعلم الهذلي التي أولها و مسائل الماضية المناصب (١) الماضية المناصب (١) الماضية (١) الماض

وقصيدتان له أيضا بعد هذه القصيدة ، وكذلك معظم قصائد الهذليين

رفوىي وقالوا عايد خويلد لا مترع الرفقلت وانكرت الوجوه هم مراح

والقصائد التي جاءت مصرعة في شعر الهذايين قليلة معدودة ، أما سائر القصائد فقد جاءت بدون تصريع ، مع أن معظمها واضح اله لا بتر قيه ، والمطلع ينبئ عن أنه المطلع الأصل للقصيدة ، فقصائد الصعائيك معظمها آذن ورد الينا بدون تصريع والقلة هي التي تجدما مصرعة .

واما مقطوعاتهم القصيرة ، فهذه النسبة فيها أشد واوضح ، فقليل جدا من مقطوعاتهم نجد فيه التصريع ، أما سائرها فبدون تصريع ، بل أن المقطوعات التي وصلتنا مصرعة تكاد تكون معدودة محصورة في بضع مقطوعات ، ومنها مقطوعة لابن الطمحان القيني أولها :

ارقت وآبتني الهم وم الطوارق ولم يلق ما لا قيت قبل عاشق (٣)

ومى أربعة أبيات بل تجد فبما وصل الينا من شعر أبى الطمحان بيتن مشهورين ، أولهما مصرع ، وهما :

الا عللانى قبل نوح النوائح وقبل نشور النفس بين الجوانح وقبل غد يا لهف نفسى على غد اذا راح اصعابى ولست برائح (٤)

ولكن هاتين المقطوعتين يبدو منهما بوضوح انهما بدء مبتور من قصيدتين ، لم يصل الينا باقيهما ، وهذا الاحتمال يمكن أن يوجه الى سائر المقطوعات التى بلغتنا من شعرهم ، الا ما كان أولها بوحى بأنه مطلع ، فنستدل منه على انه لم بستر من أولها أبيات ، اذا تجاوزنا عن احتمال أن يكون قد بترت من آخرها أسات ، كمقطوعة عروة بن الورد التي أولها :

ارى ام حسان الفـداة تلومني تعوفني الأعداء والنفس أخوف (٥)

وهى أربعة أبيات ، أو كانت الرواية تصرح بأن ما أوردته من شعر ليس مبتور الأول كما فعل الجاحظ فن روايته لبعض شعر الصعاليك ، حيث يقول

⁽۱) المصدر السابق ۲/۷۷ وهي ۲۳ بيتا ٠

⁽٢) المدر السابق ١٤٤/٢ وهي ١٥ بيتا ٠

⁽٣) مهذب الأغانى ١/٢٧ •

⁽٤) المصدر السابق •

⁽٥) حماسة أبي تمام ٢/٣٣٨ •

سبب تسمية مهلهل آخى كليب ، أن اسمه أمرؤ القيس بن ربيعة (١) وسسمى مهلهلا لأنه أول من هلهل الشعر بمعنى رققه ، وإنه أول من قصصد القصيد وانه لم يقل أحد قبله عشرة أبيات (٢) ، ويروون أن عنترة « لم يكن يقول من الشعر الا البيتين والثلاثة (٣) حنى سابه رجل من قومه فعابه بسواده وسواد أمه وإنه لا يقول الشعر ، (٩) فقال القصائد بعد ذلك و وأذن فليس من الصحيح تصور أن المنطوعات لابد أن تكون مبتورة من فصائد ، وليس من الصحيح أيضا تصور آن القصائد العربية تلتزم التصريع ، وننتهى من هذا الحديث بأن شعر الصعاليك يتميز بأن أغلبة غير مصرع ، وهذه الأغلبية هى التى تعنيها بعدم الترام التصريع .

خصائص الشغالة اهاى

واذا كانت الخصائص العامة السابقة في مقام المقارنة بين شعر الصعاليك عامة وشعر غيرهم ، فان هذه الخصائص التي نتحدث عنها الآن ، منصبة على المقارنة بين الجاهليين والاسلاميين من الصعاليك ، ولكن بعض هذه الخصائص لا يمتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وانما يمتازون بها عن الشعر العربي كله وقد كان يمكن أن نذكرها مع الحصائص العامة ،ولكن تحاشيا لما قد يفهم من اشتراك شعر صعاليك الاسلام في هسذه الخصائص وتوفية لحق شعر الصعاليك الجاهلين في أن ينوه بمزاياه الخاصة به آثرنا أن نضعه في هذا الموضع الذي يبرزه ويميزه .

وهذه الخصائص التى المتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام ، وعن غيرهم فى بعض المواضع ، يرتبط معظم هذه الخصائص بأسباب الصعلكة نفسها ، وبظروف الصعاليك أنفسهم .

فقد أشرنا فيما سبق الى أن بعض أسباب الصعلكة كان خاصا بصعاليك الباهلية دون صعاليك الاسلام ، أو كانت ظروف كل منهما تختلف فيه عن ظروف الآخر ، كالجوع مثلا ، فقد عانى منه صعاليك الجاهلية ما لم يعانه الاسلاميون منهم ، وقد كان لهذا الفارق أثر في حياتهم وسلوكهم ثم في شعرهم تبعا لدلك

⁽٦) قيل اسمه عدى مرجحاً ٠

⁽٢) خزانة البندادي ٣٣/٢ •

⁽٣) خزانة البغدادي ١/٨٨ •

فليس معنى تميز شعر الصعاليك بهذا الطايع أن شعر غيرهم التزم التصريع وانها الواقع أن التصريع غالب مجرد غلبة على القصائد العربية في غير شعور الصعاليك حيث نجد كثيرا من القصائد غير مصرع ، ومنها ميمية حاتم الطائى (١) وعمرية عوف بن الأحوص (٢) ، بل كثير مما جاء أطول من ذلك نجده أينيا غير مصرع ، كقصيدة الحصين بن الحمام المينية (٣) ، ومثل يائية مزرد بن ضراد الذبياني (١٤ ، وعينية متمم بن نويرة (٥) ، ووائية المراد بن منقذ (١) ، وكذلك المية كعب بن سعد الغنوى (٧) ، وميمية عيرو بن الاسود (٨) ، وواؤية الاسعر الجعفي (١٠) ، وغير ذلك كثير من القصائد جاء غير مصرع ، ولكن هذه القصائد على كثرتها تعتير قلة أذا قيست بمجموع الشعر عبد الكثرة الغائبة فيها جاءت غير مصرعة (١١) ،

ومن هذا كله نعلم أن عدم التصريع ليس خاصاً بشعر الصعاليك ، فقسد ررد عدد غير قليل من القصائد سواء للصعاليك أو غيرهم غير مصرع ، وورد عدد أكثر منه من المقطوعات للصعاليك ولغيرهم أيضا غير مصرع ، ولكن الغارق بين شعر الصعاليك وغيره في هذا فارق النسبة كما قلنا فبينما نجد الاكثرية من شعر غيرهم جاءنا من شعر الصعاليك جاءت غير مصرعة ، نجد الاكثرية من شعر غيرهم جاءنا من عا د

على اننا نحب أن نقول ان احتمال كون المقطوعات بترت من فصائد ، ليس الا مجرد افتراض عقلى ، وليس هناك ما يوجب قيام هـــذا الاحتمـــال بالنسبة لشعر الصعاليك ، فالمقطوعات شائعة فيما ورد الينا من الشعر العربى كله ، سواء في الجاهلية والاسلام (١٣) ، وان كان ما ورد منها من شعر الجاهلية أكثر مما ورد منها في شعر الاسلام ، ويؤيد هذا ما تبقله الروايــات من أن الشعراء لم يلتزموا أو لم تغلب على شعرهـم القصائد الكاملة الا قبيل الاسلام أما قبل ذلك ، فكان الشائع لديهم انشاء الأبيات والمقطوعات ، كما يروى في

⁽۱) خزانة البغدادي ۲۹۱/۲ وهي ۲۸ بيتا •

⁽۲) المفضليات ۱۷۳ وهي ۲۳ بيتا •

⁽٣) المغضليات ٦٤ وهي ٤٢ بيتا ٠

⁽٤) المصدر السابق ص ٧٥ وهي ٤٣ بيتا ٠

⁽٥) المعدر السابق ص ٢٦٥ وهي ٥١ بيتا ٠

⁽٦) المصدر السابق ص ٨٢ ومن ٩٥ بيتا ٠

⁽۷) الاصبعیات ص ۷۱ رمی ۲۷ بیتا ۰

⁽٨) المددر السابق ص ٧٧ وهي ١٧ بيعا ٠

⁽٩) المسدر السابق ص ٨٩ وهي ٣٣. بيتا • (١٠) الاصمميات أيضا ص ١٥٧ وهي ٣٠ بيتا •

⁽١١) انظر للمثال المغمليات والاصمعيات •

⁽١٢) أنظر المدرين السابقين •

سبب تسمية مهلهل اخى كليب ، أن اسمه امرؤ القيس بن ربيعة (١) وسسمى مهلهلا لانه اول من هلهل الشعر بعنى رققه ، وإنه اول من قصصد القصيد وإنه لم يقل أحد قبله عشرة أبيات (٢) ، ويروون أن عنترة «لم يكن يقول من الشعر الا البيتين والثلاثة (٣) حنى سابه رجل من قومه فعابه بسواده وسواد أمه وانه لا يقول الشعر ، (٩) فقال القصائد بعد ذلك ، وإذن فليس من الصحيح تصور عن الشعر العربي كله قصائد كاملة ، وأن المنطوعات لابليان تكون مبتورة من فصائد ، وليس من الصحيح أيضا تصور آن القصائد العربية تلتزم التصريع، ونتهى من هذا المديث بأن شعر الصعاليك يتميز بأن اغلبه غير مصرع، وهذه الأغلبية هي التي نعنيها بعدم الترام التصريع ،

خصائصًا لشيع البحاهات

وتجد في شعر الصعاليك الجاهليين، بعض التصائبين التي يمتاز بها عن شعر صعاليك الاسلام على المسالية المسالية الاسلام على المسالية المسالية الاسلام على المسالية المسالية

واذا كانت الخصائص العامة السابقة في مقام المقارنة بين شعر الصعاليك عامة وشعر غيرهم ، فان هذه الخصائص التي نتحدث عنها الآن ، منصبة على المقارنة بين الجاهليين والاسلاميين من الصعاليك ، ولكن بعض هذه الخصائص لا يمتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وانما يمتازون بها عن الشعر العربي كله وقد كان يمكن أن نذكرها مع الحصائص العامة ،ولكن تحاشيا لما قد يفهم من اشتراك شعر صعاليك الاسلام في هذه الخصائص وتوفية لحق شعر الصعاليك الجاهلين في أن ينوه بمزاياه الخاصة به آثرنا أن نضعه في هذا الموضع الذي يبرزه ويميزه ،

وهذه الخصائص التى امتاز بها شعر صعاليك الجاهلية عن صـعاليك الاسلام ، وعن غيرهم في بعض المواضع ، يرتبط معظم هذه الخصائص بأسباب الصعلكة نفسها ، وبظروف الصعاليك أنفسهم .

فقد أشرنا فيما سبق الى أن بعض أسباب الصعلكة كان خاصا بصعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام، أو كانت ظروف كل منهما تختلف فيه عن ظروف الآخر ، كالجوع مثلا ، فقد عانى منه صعاليك المجاهلية ما لم يعانه الاسلاميون منهم ، وقد كان لهذا الفارق أثر في حياتهم وسلوكهم ثم في شعرهم تبعا لذلك

⁽٦) قيل اسمه عدى مرجعا ٠

⁽٢) خزانة البغدادي ٢٣/٢ •

⁽٣) خرالة البغدادي ١/٨٨ •

فشدة الجوع التي عاناها صعاليك الجاهلية أكثر من الاسلاميين ، جعلتهم إلزم للصحراء ، وأحرص على حياتها طلبا لضحاياهم في الصعلكة ، وطلبا للصيد ، وكل الوسائل التي تصد عنهم هذا الجوع المهلك ولزومهم للصحرا والجيال نتج عنه مقدرتهم الفائقة على تصوير منه البيئة يكل ما فيها من مشاهد ومن فَخُلُوقات فَبِالأَضَافَةُ إِلَى الفُرادُهُم بِحَدِيثُ الْجُوع ، نجد انهم القرَّدوا بالقدرة الفائقة على تصوير البيئة بكل مًا فيها من مشاهد ومخلوقات ، وتُنتُج عن ملازمتهم للصحراء أيضا دقة الحُسَ وَدُّقة الملاحَقَّلةُ وليس بالغريب أنْ تَكُونُ مَلازَمَةُ الصحرَّاءَ مرهفة للحس ، منمية لدقة الملاحظية ، فلو قاريا بين شيسيجس يميش في ببئة كثيرة المخلوقات والحركة وشخص يعيش في بيئة ساكنة قليلة المخلوقات والحركة ، لتبينا الفارق ، فالشخص الذي يعيش في البيئة المتحركة كتسيرة المخلوقات ، كالمجتمعات مثلا ، لا تجه حواسه الرقت الكافي للتركيز والملاحظة الدقيقة أمام مناظر ومشاهد كثيرة دائمة الجركة ويمن أناس مختلفين وحيوانات مختلفة ، وطيور متنوعة ، وحركة دائبة ، وأصوات متعددة ، لا يكاد بصره أو حواسه تستقر على شيء حتى تنتقل الى شيء آخر ، فلا تجه فرصة للتركيز على شيء بعينه لفحصه وتمحيصه ، أما الشخص الذي يعيش في بيئة ساكنة قليلة الحركة كالصحرا ، فقلما تتغير أمامه المشاهد وقلما يسمم الصوت • فبين الفينة والفينة ، قد يرى حيـوانا ، فتجد حواســه وقتا كافيا لفحصه بدقة ، ومتابعة حركاته ، وما يصدر عنه من صوت أو مسلك الأنه ليس أمام الحواس مشهد آخد يصرفها عنه ، وكذلك بالنسبة لرؤيتها سحابا أو مطرا أو مشهدا ممينا ، أو سماعها صوتا لحيــوان أو رَعد أو غير ذلك ، فغي كل ذلك تكون المحواس متفرغة كل التفرغ لمتابعة هذا الشيء وملاحظة خصائصه وحركاته ، ولمل هذا أوضح تعليل للقدرة الغاثقة الواضحة التي تميز بها شعر الجاهلية في وصف الطبيعة ومشاهدها وفي دقة الملاحظة العجيبة في الأشياء والحركات والأصوات الدقيقة التي برع فيها شعرهم ، ومن هذا نجد أن هذه الأسباب قد انتجت مزايا معينة في شعرهم كما سياتي *

وكذلك نجد أن ما ساهم فى هذه المتصائص ، بعض المزايا التى امتاز بها صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فى صغاتهم المسخصية ، وأبرز هذه المزايا العدو حيث قلنا أن سرعة العدو كانت شائعة فى صعاليك الجاهلية دون صعاليك الاسلام ، وسرعة العدو وأن كانت مرتبطة أيضا بملازمتهم للمسحراء الا أنها أنتجت فى شعرهم موضوعات خاصة بالإضافة الى مساهمتها فى المرضوعات التى أثمرتها ملازمة الصحراء ، ومن الموضوعات الخاصة التى أنتجتها سرعة العدو شعر العدو نفسه فى تصويره للعداء ، ولطريقة عدوه ، والمواقف التى يتعرض لها ، وكذلك شعر الحيلة ، حيث نجد ما ورد فى شعرهم ما الحيل وصورها وأحداثها مرتبطا بالعدو ،

تسامم عند الاسباب فيها أو لا تسامم م كفشوية الالفاط وغرابتها في كتبر من شعرهم وكالاستاوب القصصي الذي يبدو في بعض شيخ م ونتور أن القارنة الرئيسية في هذه الزايا ليست بين مستخر الصفاليك وغيره من الشعر كما سبق في المزايا العامة ، وأنما بين شمر صفاليك المهلية ، وصعاليك الاسلام بصفة خاصة ، الا ما قد يكون متميزا عن شغر ميعاليك الاسلام وغيره من الشعر عامة ، فنشير اليه في موضعه .

يشيم واوختع منه الحصائص ما يأتى : -

المراج المراج الفراده ببغض الوضوعات

يمتاز شعر صعاليك الجاهلية بأنه طرق موضوعات بدت فيه واضحة ، في جين لم تظهر هذه الموضوعات بهذه الصورة في شعر صعاليك الاسلام، وأهم هذه الموضوعات ما يأتي :

١ - الجوع : (١)

I wo that having their

قلنا أن الحديث عن الفقر كان شركة بين صعاليك الجاهلية والاسلام ، وأن تفاوتت درجة الحديث عنه ، وكذلك نحول الأجسام وهزالها ، وأن اختلفت درجته أيضا ، ولكن حديث الجوع انفرد به صعاليك الجاهلية ، كما رأينا من صور الجوع العنيف المضنى الذى صوره الشنفرى وأبو خراش وتأبط شرا ، والسليك بن السلكة (٢) وقد أشرنا إلى انفرادهم بحديثه ، وأن سببه اختلاف المستوى الاقتصادى والمعيشى للمجتمع فى كل من الجاهلية والاسلام ، واختلاف ما تدره — تبعاً لذلك — أعمال الصعلكة على أصحابها ، ونستطيع أن نقول أن الحديث عن الجوع بهذه الصورة ينفرد به صحابك الجاهلية عن غيرهم من الشعراء على الاطلاق ، سواء كانوا من الصعاليك أو غيرهم .

٢ _ العسدو :

وقلنا أيضا أن ظاهرة العدو لم توجد في صعاليك الاسلام ، ولكنها تبدو بوضوح في صعاليك الجاهلية ، وخاصة الهذليين ، حيث كان معظم هذيل من

⁽١) أنظر فصل الجوع من هذا الكتاب •

⁽٢) مشهور بلقب عمرو ذي الكلب

العدائين ومنهم من الشعراء الصعاليك أبو خراش وصحر الغي وحبيب الأعلم، ومن غير الهدليين جار هديل عمرو بن عجلان (١) ، والشنائري وتابط شرا وعمرو بن برافة وحاجز الازدى ، وقد راينا شعرهم في موضعة (٢) ، وأشرنا الى ان ميزة العدو انفرد بها صعاليك الجاهلية عن الاسلاميين ، وان كاتوا لم ينفردوا بها عن معاصريهم من الجاهليين ،

There is a sure of the same of

The second secon

٣ _ العبلة :

والحيلة مسلك من مسالك الحياة لا ينفرد بها الصسعاليك عن غيرهم . ولكننا حين نقارن بين شعر صعاليك المجاهلية وصعاليك الاسلام عنها ، نجد ان شعر الجاهليين هو الذي التخذها حديثا ، ومرد ذلك أن شعرهم لم يتحدث عن الحيلة من الوجهة النظرية أو الخلقية ، وانها تحدث عنها في أحداث حقيقية مرت بهم ، تتلخص في وقوعهم في مأزق ، لم يكن فيها مغر من الموب ، ولكن شيئا واحدا أنجاهم من الموت المحقق هو العدو ، فحديث شعرهم عن الحيلة اذن ليس حديثا نظريا أو خلقيا ، وانها ارتبط بأحداث معينة مرتبطة أيضا بالعدو ، ولذلك نجد الذين تحدثوا عن الحيلة كانوا من العدائي ، كابي خراش ، والسليك ، وتأبط شرا ، وكان حديثهم عن أحداث معينة استعانوا فيها بالعدو ، ولم يكن العدو من صفات صعاليك الاسلام ، ولذلك لم تترتب عليه أحداث الحيل التي ذكرها صعاليك الجاهلية في شعرهم .

٤ - الطبيعــة :

وتعنى بشعر الطبيعة، شعر البيئة الطبيعية بشناهه ومخلوقاتها اولسنا نعنى مجرد ذكر المساهد والمخلوقات الفلك القدر لا يكاد يخلو منه شعر شاعر فلا يكاد يخلو شاعر من أن يشبه شيئا بالبرق مثلا أو الغمام او الليل أو الشمس أو بحيوان من حيوانات البيئة الطبيعية فلسنا تعنى ذلك أو نحو ذلك اوانها نعنى اتخاذ المشهد أو المخلوق أو غيرهما من محتويات البيئة الطبيعية غرضا بحيث يبرز في صورة واضحة محددة العنى يمتاز به شعر صعاليك الجاهلية عن زملائهم الاسلاميين *

واقوى شعر أبرز لنا صورا تكاد تكون مجسمة واضحة المعالم عن الطبيعة ومشاهدها شعر الهذليين وشعر الشنفرى ، حيث تجد في شعرهم هذه الصور

⁽١) أنظر قصل العدو من هذا الكتاب "

⁽٢) أنظر فصل الحيلة •

عن كل شيء في سينتهم ومشاهدها ، كما رأينا من صور صخر لغي عن الوعول وحياتها وعن حس الوحش وصراعه معها ، وعن الطيور الجوارح ، وعن المحامة وحواره معها وعن السحاب وعن المحامة وحواره معها وعن السحاب والمطر (١) وكذلك شعر الاعلم عن السحاب وعن النعام وعن الضباع (٢) وكذلك قصائد أبي خراش وما فيها عن حمر الوحش والجراد والعقاب ، وعن غروب الشمس والظلبة والمطر (٣) وكذلك شعر الشنفري حافل بصور الطبيعة ومشاهدها وبخاصة اللامية (٤) ، ولكن الذي يلفت النظر أننا نبعد أقوى وصف للطبيعة ومشاهدها ومخلوقاتها ما نبعده في شعر العدائين ، ولعل مرد ذلك الى ملازمتهم للصحراء كما قلنا ، وسرعة تنقلهم مسايتيع لهم تعدد المشاهد •

ب _ القصص والتصوير

وانما فرقنا بين القصة والصورة في هذا العنوان ، لأننا لا نرى ما يراه بعض الباحثين من أن الصور الشعرية التي وردت في شعرهم تعتبر قصصا ، وأن تمثيل شعرهم لأحداث حياتهم وصعلكتهم يعتبر قصصا (٥) ، فقد يكون هذا نوعا من التصوير الفني ، وقد يكون مبادى، قصص ، ولكننا لا نرى فيه معالم القصة الفنية بمعناها الذي يعرفه الفن والأدب ، فالقصة لها اطار ، ولها خطوط أساسية ، ولا نستطيع أن نطلق اسمها على موضوع أدبى الا إذا استوفى المعالم والخطوط الرئيسة في مفهومها على الأقل ولذلك آثرنا أن نفرق بين التصوير الأدبى ، والقصة الفنية ، على أن في شعر الصعاليك ما هو أقرب الى الفصة وأوضع في مفهومها فأولى أن نستشهد به عند حديثنا عن القصة في شعرهم وعلى أساس هذا التفريق نتحدث عن كل منهما فنقول ٠٠

١ ـ الاسلوب القصصي:

یشیع بین الباحثین أن أول من استعمل اسلوب القصة امرؤ القیس فی لامبته التی یصور فیها قصته مع عشیقته ، والتی یقول من قصته معها : نقول وقد مال القبیط بنسا معسا عقرت بعیری یا امسرا القیس فانزل ویری بعض الباحثین الذین تحدثوا عن عمر بن أبی ربیعة أنه خیر من

⁽۱) انظر ديوان الهدليين ۲/۲ه ــ ٧٦ -

۲) المسدر السابق ۲/۸۷ – ۸۳ .

⁽۲) المصدر السابق ۱۱۷/۲ _ 20 ۱۰

⁽٤) انظر نميل الطبيعة من هذا الكتاب

⁽٥) انظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٢٧٦ ـ ٢٨٠ .

استعمل القصية في شعره وذلك في رائيته التي تحدث فيها عن قصعه من المشيقة التي طلع عليه الصباح عندما فدهشت ، ثم استعانت بلختيها استما اخفينه بينهن حتى خرجن به من الحي ، فكن كالمجن له ، كناقال به من الحي ، فكن كالمجن له ، كناقال به من الحي فكان مجنى دون من كنت القيلي تلاث تسبخوض كاعبان ومعصم فكان مجنى دون من كنت القيلي

والواقع أن الدارس لشعر الصفاليك لا يُسك في أن الدين استورا العمل في السعر العربي المستورا العمل في الشعر العربي أن بل والذين وصلوا الى مشتوى القصة الشيرية الكاملة بمفهومها الفتى في شنعرهم ، هم الصفاليك ، وأن هذا النهج لو ربع من السعرا المربي شأن غير ما كانت عليه المستورات المستورات عليه المستورات المستورات عليه المستورات المستورات عليه المستورات المستور

ونضرب مثالاً للمستوى الذى وصلت اليه القصة في شعر الصحاليك و بقصة قيس بن منقذ المعروف بابن الحدادية مع ابنة عبه نعم بنت ذويب كما و سجلها في شعره ، ولكننا لكن نعلم فضله على امرى القيس في حيداً المجال، وكذلك سبقه وفصله على عمر بن أبي ربية ، نقول أن قصتى أمرى القيس وعمر ابن أبي ربيعة المشار اليهما ، لا يمثلان قصة فنية ، وأنما يمثلان موقفا أو مشهدا من قصة ، وأن كان أبن أبي ربيعة أقرب إلى القصة من مشهد أمرى القيس ، وسبواء أكانا مشهدين أم قصتين ، فأن ما ينقصهما من القصة آكثر من حدا ، وهو النواحي الفنية المعروفة في القصة ، أما قصة قيس بن منقذ ، فقد راعى فيها كل الخطوط الأساسية للقصة الفنية من نواحيها النفسية ، ومن جوانب الوصف ومن الموار ، ومن جو القصة وروحها ، وقد سجل قصته هذه في قصيدة طويلة نحتزى ومنها عده الأبيات التي تمس صلب القصه ، لنرى منها الى أي حد بلغ شعر الصعاليك الجاهلين بالقصة (١) :

اجدك أن نعم نأت أنت جاذع قد اقتربت لو أن في قرب دادها وقد جاورتنا في شهود كثيرة وقلت لها في السر بيني وبينها فقالت لقاء بعد حسول وحجة وقد يلتقي بعد الشتات أولو النوى وما أن خلول نازعت حبال حابل باحسن منها ذات يوم لقيتها فقلت لاصحابي اصطلوا الناد أنها بكت من حديث بشه وأشاعه

قسد اقتربت لوان ذلك نافسع نوالا ولكن كل من ضن مسانع فمسا نولست واقد دا وسسامع على عجل أيان من سسار داجسع وشعط النوى الا لذى العهد قاطع ويسترجع الحى السسخاب اللوامع لتنجو الا استسلمت وهى ظالع لها نظر نحوى كذى البث حاشسسع فسريب فقسالوا بل مكانك نافع ورصفه واش من القسوم داصسع

 ⁽١) وظروف القصة أن تيسا يحكى ما دار بينه وبينها من حوار وأحداث ووداع فى ليلة سفرة ، واصفا استعداد الحداة ورفقاء فى القافلة واعدادهم للرحيل •

بكت عين من أبكاك لا يعسرف البكا فسلا يسسمعن سرى وسرك ثالث وكيسف يشبينيع السر مني ودونه وحب لهــنا الربع يمضى أمامه وها راعني الا النادي الا اطعنـــوا فجئت كاني مستفيف وسسائل فقالت تزحزح ما بنا كبر حاجة فها زليت تبعت السيير حتى كأنني قهـــزت الى الراس منى تعجبـــا فايهما منى اتبعت فانثى بكي من فراق الحي قيس بن منقسد باربعة تنهيل لا تقيدمت وما خلت بين الحي حتى دايتهم كان قوادى بين شقين من عصـــا يحث بهم حاد سريع نجاؤه فقلت لها يا نعم حسلي متخلسا فقالت وعيناها تفيضكان عسبرة فقلت لهسسا تأته يدري مسسافر فشدت على فيها اللثام وأعرضت

ولا تتخالجك الأمسسور النسوازع الاكل سر جساوز اننين شسسائع حجاب ومن دون الحجاب الأضسالع قليل القسلي منه قليسل ورادع والا الرواعي غسلوة والقعساقع الخيرها كل اللي أنا صبياتع اليسك ولا منا لفقي رك داتم من الحر ذو طمرين في البحر كادع وعضض مما قد فعلت الأصلاب حزين على أثر الذي أنا وادع وازراء عيني مثله الدهـر شـائع بهم طرق شسستى وهن جسوامع ببيتونة السسفل وهن سسوافع حدار وقوع البين والبين واقع ومعرى عن الساقين والثوب واسم فان الهوى يا تعم والعيش جامـــع بأهلى بين كي متى أنت راجـــع اذا أضمرته الأرض ما الله صــانع وأمعن بالكحل السبحيق المدامع (١)

ققد مهد في الابيات الاولى بوصف بطلة القصة ، وأخلاقها ، والجو الذي جرت فيه القصة ثم هيأ لجو الوداع ، وما صاحب ذلك من ضجة وصخب ، ثم تسلله تحت الستر ، وفزعها من هذا المسلك الحطير على سمعتها ، ثم حوار الوداع بينهما ، واصفا صدق مشاعره وأعماق نفسه ، ثم اللوعة التي اجتاحت قلبه حين سمع مؤذن الرحيل ، ثم حوار الفراق ، وما تخلل ذلك من وصف لجو القصة ، وما يحيط بالحدث الأصلى من أحداث فرعية متصلة به ، واصفا في دقة كل أطراف القصية وأشخاصها ، حتى حادى القافلة لم ينس أن يصفه بهاذا الوصف الشامل ،

يحث بهم حــاد سريع نجـاؤه ومعرى عن الساقين والثوب واسـع

ومما لا شك فيه أن امرأ القيس لم يصل في شعره الى هذا المستوى الفنى او الى هذا القدر من فنية القصة الشعرية ، وكذلك لا نعلم أن شاعرا في الجاهلية بلغ هذا المستوى ، لأنهم لا يذكرون شاعرا اتجه الى أسلوب القصة في الجاهلية

⁽۱) مهذب الأغاني ۱۰۷/۱ •

غير امرى، القيس (١) واذا كنت لا استطيع أن انظع بالضبق الزملي لأي من في المبين الزملي التيس بن منقذ أو امرى، القيس لان الروايات التاريخية _ في المبلغ على على واضحة كل الوضوح في التحديد الزمني للجاهلية ومراحلها واجيالها والشخاصة أقول اذا كنت لا استطيع ذلك ، فاني استطيع أن أقول أن أمرا القيس ليس مو رائد القصة في الشعر العربي ، ولكن الصحاليك ولا ممثلي في قيس بن منقذ ، هم رواد القصة بمعناها الفني كنا رائنا في قصيدة فيس الفائدة التي تمثل قصة كاملة ، ومهما حاول ناقد قصصي أن يقلل من كتالها الفني ، فلابد أن ينقدها على أساس انها قصة الاعلى أساس أنها صنورة أو حلت معرد أو مجموعة مشاعر ، أو أي شي يشكك في مبدأ أنها قصة ، كا يمكن أن يوف المن غيرها مما يوصف بأنه بوادر قصة أو نحو ذلك ، والفارق لبير بين أن ينقد على أساس أنه قصة ، وأن ينقد على استاس عام الاعتراف لبن فصة ، ولهي المعلى المعابية ، يمكن أن يوجه اليه عدم الاعتراف بأنه قصة ، بما فيه حادثة المرى القيس التي أشرنا اليها

واذا كان شعر صعاليك الجاهلية قد وصل الى هذا المستوى الذى نراه متكاملا بالنسبة للقصة الشعرية ، فانه قد وضع أسسا كثيرة عريضة لما يمكن أن نسبيه مبادى قصص شعرى ، وقد وصل بعض هذه النزعة الى درجة تقرب جدا من القصة القصيرة بكل مقوماتها الفنية التى يسبح بها الشعر الونجية صغر هذا كثيرا فى قصائد شعر الهذلين ، ومنه على سبيل المثال ، وصف صغر الغى لحمارى وحش ، وصف جسبيهما وصفا دقيقا حتى ما تساقط عن جلدهما من شعر ، ثم تابع مسيرهما الى الماء ، وما صاحب دلك عن حدرهما وتوجسهما ، ثم رمى الصائد نبله نعوهما ، وخطأ الرمية الذى ترتب عليه تحطم النبل ، وفزع الحمارين من ذلك ، ثم علوهما مرتفعا بأقصى سرعة حتى اثاوا أمامهما الصباح الصائدون بخيلهم التى وصفها ، ووصف تمكن الصنائدين من اصابتهما ، وهذا الوصف رغم أنه لصورة من مشاهد الطبيعة فى الصحراء ، الا أنه يصلح وهذا القصة ويعتبر تقدما كبيرا للدخول فى نطاق القصة الفنية ،

والذى يدل على أن اتجاه صعاليك الجاهلية للقصة كان اتجاها أصيلا بل ومقصودا أننا نجدهم لم يكتنوا بهذا الوصف الذى يمكن أن يقال عنه أنه تصوير لشهد ، يمكن أن نجده فى شعر غيرهم كوصف المعادك والرحلات ومتابعة احداثها ونحو ذلك ، بل اتجهوا الى التخيل فى القصة ، بذكر أحداث أو قصص متخيلة وذكر الأحداث القصصية بطريق التخيل مهما يكن له من مدلولات ، فأن من بين هذه المدلولات نزعة القصة ، أعنى الميل الى القصص ، كالصورة الخيالية التى

⁽١) أثار للمثال الشعراه الصماليك للدكتور يوسف عليف ٢٧٩

توهمها تأبط شرافى محادثته مع الغول ، ووصفه اياها ، ومطالبت اياهسا بضعها (١) ، ثم قتله اياها وقد كان تصويره لهذا في شعره مؤيدا لنزعة القصص حيث كان النصوير والوصف والمحاورة في مستوى يقربها من نطاق القصة ،

وكذلك خيال صخر الغى فى رثاء ابنه تليد ، حيث تخيل أنه لقى بموضع يسمى سبلل حمامة تشبهه فى حاله ، بفقدها ولدها الوحيد الذى يدعى «ساق حر ، وتشبهه فى حزنها ، لأنها لا تنام كما لا ينام هو عندما ينام الناس ، وقد صور حواراً طريفا بينهما ، فيقول فى هذا الخيال :

وما آن صوت نائعة بليسل بسبلل لا تنام مع الهجود (٢) تجهنساً غادين فساءلتني بواحدها وأسال عن تليدي (٣) فقلت لها فأما سساق حسر فبان مع الأوائل من ثمود (٤) وقالت لن تسرى أبدا تليسدا بعينك آخر العمر الجديد (٥) كلانا رد صساحبه بيساس وتانيب ووجدان بعيد (٦)

ومثل هذا النوع الخيالي لا أرى له مجالا نسلكه فيه الا القصة ، فهو ليس تصويرا للطبيعة ، ولا وصفا لمشهد من المشاهد ، فلبس لنا الا أن نعده نوعا من القصة القصيرة ، على أننا بجد فيه كل معالم القصة ، من الوصف ، والحسوار والتحليل النفسى ، وهو أدل على تأصل الاتجاه القصصى في شعرهم لأن الشاعر فيه متعمد خلق الموضوع ، ومتعمد الباسه الثرب القصصى ، بخلاف ما أذا قص الشاعر حادثة رآها أو عاشها ، لأنه حينئذ يحكى شيئا واقعا ، وهو في هذا وان كان أيضا قاصا ، الا أنه قصص عفوى أو غير مقصود ، بخلاف الجسالي المقصود موضوعا وصياغة وقالبا .

وهذه الميزة القصصية لا يمتاز بها صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام فحسب ، وانما يمتازون بها في جملتها عن الشعراء عامة ، لأنهم فضلا عن تفوقهم الفنى الذي وصلوا اليه في مستوى القصة ، فانهم يمتازون بروح القصة ، والاتجاه اليها اتجاها واصحا ومقصودا في كثير من شعرهم ، وليس امتيازهم في حوادث فردية أو فلتات شاذة .

⁽١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٢٧٢ والبضع الفرج ٠

⁽٢) ديوان الهذليين ٢/٧٦ والنائحة الحمامة والهجود النيام .

⁽٣) تجهنا تواجهنا وتقابلنا

⁽٤) بأن ملك ٠

⁽٥) الجديد يعنى أن كل يوم يجيء فهو جديد "

⁽٦) بروی بوجهان شدیه ·

قلنا النا آثرنا فصل التصوير عن القصة ، لأن القصة لها مفهوم فتى لا يستطيع أن نطلقه على موضوع الا اذا استوفى الخطوط الرئيسية والأساسية فيه على الأقل ، والتصوير وان كان يسلك مراحل من القصة " ويترت من نطاقها الا أننا نقلل من شأن القصة ، ونضعف مفهومها اذا أطلقنا على كل محاولة ، أو سمينا كل مرحلة من مراحلها قصة .

وقد يقال أن الترتيب الفني كان يقضى بالبدء بالتصوير أولا ، ثم بحديث القصة بعد ذلك ، كان يقال انهم سلكوا طريق المندمات ، ثم وصلوا الى مستوى كامل أو قريب من الكمال في القصة ، ولكني آثرت البيد بالقصة رغبة في الإيجاز في توضيح الفارق بين أسلوبهم القصصي والتصويري ، فحينما نبين مستواهم في القصة ، يبدو تبعا لذلك أن كل ما دونه أو سواه من هذا الوضيوع مو التصوير ، ونعني بالتصوير الصور الفنية التي رسمها شعرهم ، والتي أشرنا البها فيما سبق ، ويخاصة في الحديث عن الطبيعة في شعرهم ، حيث صَّوروا لوحات فنية رائعة من مشاهد الطبيعة ومخلوقاتها ، ولكون شعر الصعاليك قي منهجه كله سلك طريقا منفردا متميزا عن الشعر العربي كله يما سميناه فيما سبق شعر الصراع أو روح الصراع ، وبما بدا فيه من حركة وَحيوية يجعلُوناشخاصهم محورا لها دائما حتى في شعرهم الاجتماعي كان مجال الحكم والاستنتاج فيه واسعا ، ويمكن أن يكون مجال اختلاف النظرة اليه واسعا أيضا ، لأن شعرهم بهذه المزايا أصبح له أكثر من زاوية ينظر اليه منها ، فمثلا لامية الشنفرى أذا نظرنا البها باعتبار اجرائها ، نبعد أنها تحوى صورا كثيرة لكل حياة الصعاوك وسلاحه ومعيشته وبيئته بمشاهدها ومحلوقاتها ، واذا نظرنا اليها باعتبار روحها نجد أنها تمثل نفسية الصعلوك في عزلته ونفوره من الناس ، وشعوره بالمطاردة وصراعه الدائم مع كل شيء، وفي كل وجهة يتجه نحوها، واذا نظرنا البها في جملتها نجد أنها تمثل ما يمكن أن نسميه حقيقة مذكرات شخصية كاملة عن شخصية صاحبها ونفسيته ومشاعره وحياته وببئته بمشماههما ومخلوقاتها . وصلته بكل شي ، من الناس والبيئة بما فيها ، وحياته وما يعانيه و فرع هذه الصلة التي نربطه بكل هذه الاشياء واذا كان يمكن أن تسمى اللامية في جملتها مذكرات شميخصية على وجه الحقيقة ، لأنها حقيقة تؤدي ما تؤديه المذكرات الشخصية ، فيمكن أن نسميها مجازا قصة ، باعتبار أنها قصة حبياة انسان معين ، ولعل هذا ما حدا بمعض الباحثين أن يعتبروها هي وطرازها من شعر الصعاليك أسلوبا قصصيا (١) ولكننا اذا أطلقنا عليها وعلى طرازها أنه قصص مجازا فلا أظن أن بوسعنا من الناحية الفنية أن تسلك هذا النوع في أسلوب القصة كما فعلوا

⁽١) أنظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٢٧٦ - ٢٨٠ ٠

ولكن الذي يعنينا أبوازه في هذا المقام الذي نتحدث فيه عن إتجاعهم نحو القصة ، ان شعر ضعاليك الجاهلية يمتاز بميزة بارزة فيه ، هي تصوير المشاهد المتجركة ، والواقع إن شيوع التصوير سبة عامة في شعرهم ، سسواء كان للشامة الثابتة كتصوير لامية الشنفري لحياة الذباب ، وصورة من حياة النجل ، وحياة القطا ، وكتصويرها لليلة الباردة بما نيها ، وليوم الحسين بها فيه روكتصوير شعر الهذلين للسحاب الذي يشيبه لسيفن المحسلة ، وتصويرهم جميعاً للمراقب ، ونحو ذلك منا يكتفي في التبثيل له بالاحالة إلى ما سبق من الحديث عن شعرهم في الطبيعة، ونعني بالمشاهد الثابتة فيها المُشَاهَلًا التي تَخْلُو مَنْ أحداث متتابعة كأخداث القصة ، أو تكون ذات أحداث عُشَيْلًا ۗ لا تَكُفَّىٰ لأن نسلكها بها في مرحلة من مراحل القصة ونعنى بالمساهد الْمُعْرَكَة مُ عَكُسُ ذَلِكَ ، وهي المشاهد التي تُشَمَّمل على أحداث متحركة متتابعة تَمَثُّلُ صَوْرَةً مِن صَوْرِ القصة ، أو مرحلة من مراحلها ، وهذا النوع غير قبيل في شعر الصِّعَالَيْكَ أَلِمُ اللِّهِ مَا لَهُ تَعِدُ مَعظم شعراتهم طرقوه ، وخَّاصة شــعراء هَذَيْلُ وَ كُلُّشِرُ ثُمًّا جَاءً فَي شعر صخر الني ، وحبب الأعلم ، وأبي خراش فَعَىٰ عَدْهُ ٱلصَّور تَجَدُ حدثاً أو مشهدا متحركا ، يتابعه الصعلوك بشعره ، كانه يغُصُ قَصَّةً أَ، وهَى فعلا صورة من صور القصة ، أو مرحلة من مراحلها تقرب جداً في بعض الأحيان من نطاق القصة بمعناها الفني الكامل كما قلنا ، وذلك نالصورة الكاملة التي صررها أبو خراش عن تطبع حمار الوحش الذي يطلب ذكوره من أتنه السفاد في غير موضعه لكونهن حوامل ، ثم سعى القطيم ال المرتفع من الأرض ، ثم اشتداد الحر وطلبه الماء ، ثم احساسه بمغيب الشمس وجده في العدو باحثا عن الماء قبل حلول الظلام ، ثم ترصد ابي خراش لهذا القطيع ، ثم تسمع القطيع وارهافه آذانه حذر الصائدين ، الى آخر هذا المسهد المتحرك الذي يشبه القصة الفنية (١) وكدلك مشهد الوعل في سعر صخر الغي (٢) وهكذا ، وفي هذا النحو الذي نحاه صعاليك الجاهلية بكثرة ووضوح نجد فيه معالم من الأسنوب القصصي ، وانجاها قويا نحو التصة ، كان يمكن أن يشمر في الأدب العربي نوعا مزدهراً ، لو انه وجد من الشعراء من يتابعه ويتقدم به نحو الكمال ، وقد بلغ من قوة صعاليك الجاهلية فيه ، ووضوح روحهم القصصى في هذا الشعر ، أن عده بعض الباحثين قصصا أو أسلوبا قصصيا كما قلنا ، وبلغ من قوة هذا المعنى في شعرهم أن عد بعض الباحثين شمر الشنفري « في المرنبة الأولى من ناحية التمثيل والتصوير ، (٣) ·

⁽١) أنظر ديوان الهذلين ٢/١١٧ ـ ١٢٢ وأول الأبيات (أدى الدمر لا يبقى ١٠٠ النم)

⁽٢) المصدر السابق ٢/٢٥ ... ٥٥ وأول الأبيات (فعيني لا يبقي على الدمر نادر ١٠٠ النم)

⁽٣) انظر الشوامخ للدكتور محمد صبرى ص ١٢٥ -

ج _ اختلاف مستوى الالفاظ وغرابتها

يمتاز شعر صعاليك الجاهلية عن صعاليك الاسلام بأنه فى جملته غريب الألفاظ بعيد عن الوضوح فيها ، والواقع أن ألف الألفاظ وغرابتها أمر نسبى فنحن نرى الفاظ قببلة غاية فى الغرابة والصعوبة ، وفى الوقت نفسه قد ترى هذه القبيلة الفاظنا التى نراها نحن سهلة غاية أيضا فى الصعوبة والغرابة لأن الغرابة والصعوبة ليسا فى ذات الألفاظ ، وانما فى استعمالها وتداولها ، فاللفظ سهل مفهوم المدلول طالما استعملناه وتداولناه ، وهو صعب غريب طالما لم نستعمله ولم نتداوله

ولكنهم الفوا ان يجعلوا من لهجة قريش والفاظها مقياسا للالف والغرابة في الألفاظ ، ولم يكن علماء اللغة ونقادها ليستطيعوا غير ذلك ، فقريش في الجاهلية والاسلام مركز الجزيرة ومحورها ، ومصدر الاشعاع الفكرى والدينى فيها ، ولهجتها أوسط اللهجات .

والواقع ان مسالة الألفاظ واللهجات متشعبه واسعة ، تدخل فيها عوامل عديدة ، من حيث التغييرات التى حدثت فيها ، وأبرزها أثر القرآن الكريم ، ثم ما أحدثه الاسلام من كثرة الاحتكاك والاختلاط بين قبائل العرب وأحيائها ثم اثر الفتوحات وما بثته فى العرب من تداخل واختلاط ، ومن دغد وخصب حياة ، وغير ذلك •

ولكن الذى يعنينا من ذلك كله الآن أمران ، أحدهما أن شعر صعاليك الجاهلية لم يكن في مستوى واحد ، من حيث الغرابة والآلف ، والأمر الشائي مو أن شعر الصعاليك الجاهلين في جملته كان أبعد عن الالف ، وأقرب الى الغرابة من شعر الاسلاميين منهم *

قاما عن اختلاف مستوى شعر الجاهليين منهم فنقول اننآ نلاحظ اختلافا شديدا في مستوى الفاظهم من حيث الغرابة والالف ، وأوضح ما تكون المقارنة اذا كانت بين من يعيشون متعاصرين ، واذا أخذنا شعر شاعرين منهم يعيشون في جيل واحد كابي خراش وعبدة بن الطبيب اللذين كان كلاهما من المخضرمين لوحدنا فارقا كبيرا واضحا كل الوضوح ، حيث نجد شعر أبي خراش يعتاز بعصوبة الألفاظ وغرابتها ، بينما شعر عبدة يمتاز بوضوح الألفاظ والفها ، وليس ذلك في مواضع أو قصائد معينة حتى يحتاج للتمثيل وانما طابع شعر وليس ذلك في مواضع أو قصائد معينة حتى يحتاج للتمثيل وانما طابع شعر كل منهما كله ، كذلك هناك شخص معاصر لهما ، وان كان أسبق منهما قليلا ولكن هذا السبق لا ينفى انه عاصرهما وعاش في جيلهما شطرا غير قليل من عمره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي نعلم من تاريخه الزمني ان احسدي عمره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي نعلم من تاريخه الزمني ان احسدي غيره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي نعلم من تاريخه الزمني ان احسدي غيره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي نعلم من تاريخه الزمني ان احسدي غيره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي نعلم من تاريخه الزمني ان احسدي غيره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي نعلم من تاريخه الزمني ان احسدي غيره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي نعلم من تاريخه الزمني ان احسدي غيره ، وهو عروة بن الورد العبسي الذي عليه وسلم من يهود خيبر عن

المدينة (١) ، وأبو خراش وعبدة مخضرمان أدركا الاسلام بعد الجاهلية ، ومعنى ذلك أن عروة عاصرهما ، ولكننا نجد شعره في ألفاظه بختلف عن شعر كل منهما ، فمع أن شعر عبدة بن الطبيب أوضح ألفاظا من شعر أبي خراش الا أن شعر عروة أوضح ألفاظا من كليهما ، وأننا لنلحظ في عجب أن شعر عروة لا يشوبه شيء من الغرابة أو صعوبة الآلفاظ ، بل أنه أوضح ألفاظا من معظم شعر قريش نفسها في الجاهلية ،

ولو ذهبا نعلل ذلك ، لا نستطيع أن نقول أن للصعلكة دخلا في هذه الناحية من الألفاظ ، لأنهم جييعا صعاليك ، وفي عصر واحد ، وبيئة الصعلكة متفاربة ، ومع ذلك فألفاظهم من حيث الغرابة والالف مختلفة أشد الاختلاف ولا نستطيع أن نقول أن التأثر بلغة قريش له دخل في هذا الاختلاف ، أعنى تأثير لهجة قريش في قبائل أولئك الصعاليك لا تستطيع أن تقول ذلك ، لأن الهذلين ومنهم أبو خراش شعرهم أصعب شعر الصعاليك ألفاظا وأكثرها غرابة مع أن موطنهم في أقرب مكان من مكة ، وهو بوادي الطائف وما حولها ونجه شاعرا من صعاليك الجاهلية موطنه في أقرب مكان من موطن هذيل ، وهو ذلك فأنفاظه في غاية السهولة والالف أذا قيست بالفاظ هذيل ، وهو قيس بن منقذ السلول الخزاعي (٢) المعروف بابن الحدادية ، كذلك أذا نظرنا ألى أثر أخصب والقفر والبادية في الألفاظ لا ستطيع أن نقطع به ، لأن الشنفري مثلا عاش معظم حياته في نجد ، وهي أكثر خصبا من بادية اليمامة التي عاش فيها عبدة بن الطبيب التميمي (٣) ، ومع ذلك فألفاظ الشنفري أكثر صعوبة ، عبدة بن الطبيب التميمي (٣) ، ومع ذلك فألفاظ الشنفري أكثر صعوبة ،

ولعل أقرب ما نستطيع أن نعلل به هذه الظاهرة أن الألفاظ في أصلها تتأثر بالبيئة ، بمعنى أن البيئة في الأصل لها دخل كبير في تحديد الألفاظ من حيث الصبعوبة والالف ، ومن حيث الجرس ، ومن حيث نواحي أخرى لا بقتضى المقام الافاضة فيها ، فالبيئة هي العامل الأول ، ثم يأتي النظام القبلي بما يتضمنه من انطواء القبيلة على تراثها وتقاليهما اللغوية ، فيحافظ على الطابع اللغوى لها ، ويظل هذا الطابع اللغوى للفبيلة محفوظا طالما ظلت محافظة على طابعها القبلي الذي يتميز بالاعتزاز بالتراث والتقاليد ، والتشبث بكيان القبيلة ، وحمايته من التفكك وحماية أسراره التي تفصله أو تميزه عن غيره من كيان قبيلة أو مجتمع آخر •

فهذه القبيلة يمكن أن نتصور أنها حتى لو انتقلت الى بيئة مختلفة ،

 ⁽١) أنظر أغاثى الأصلهائى ٧٥/٣ وهى سلمى التى احتال اليهود بستيهم عروة الخمر حتى رهنها وأخذوها •

⁽٢) أنظر خريطة بلاد العرب قبل الأسلام للدكتور حسن ابراهيم ١٩/١ .

١٦) المصدر السابق ٠

أو مجتمع مغاير ، تظل محافظة على طابعها ، طالما ظلت محافظة على كيانها كقبيلة أو على الأقل يكون تأثير البئة الجديدة في لفتها بطيئا شديد البطء ، لا يقاس بالسنين ، وانما يقاس بالقرون .

وتطبيق ذلك أننا يمكن أن نتصور أن قبيلة كهذيل كونت لهجها مي بيئة تقتضى أن تكون لهجتها كذلك ثم ظلت بطابعها القبل تحافظ على هذه اللهجة ، مهما جاورت من لهجات مختلفة ، ومهبا تنقلت في بيئات تختلف عن بيئتها التي كونت لهجتها الأولى ، واذا صح هذا بمكن أن نعلل به اختـــلاف اللهجة عما تفتضيه البيئة ، بأن هذه اللهجة تكونت في بيئة أخرى ثم انتقلت الى هذا الكان ، أعنى انتقلت القبيلة صاحبة هذه اللهجة الى هذا الكان ، ويؤيد هذا ما هو معروف عن طبيعة التنقل في القبائل العربية وما يتحدث المؤرخون به كثيرًا من تنقل قبائلهم بين أماكن كثيرة (١) ، ومن أمثلة هذا ما نراه حتى اليهم في النصف الجنوبي من صعيد مصر ، حيث كثيرا ما نجد منطقتين ، أو قريتين متقاربتين في المكان ، بل أحيانا متلاصقتين ، ومع ذلك فلكل منهما لهجة خاصة متميزة عن الأخرى ، وحين نبحث لا نجد في ظروفهما كلها أي اختلاف جغرافي أو ثقافي أو اجتماعي ، ألا شبيئًا وأحدًا هو احتفاظ كلُّ منهمًا بجوانب من الطابع القبلي ، يتمثل أبرزها في الاعتزاز بالنسب التاريخي الذي تنتمي اليه هذه المنطقة أو القرية ، والعصبية الجماعبة ، التي تجعل من المنطقة او القربة قوة مترابطة ضد المناطق أو القرى الأخرى • واعتقد أن هذا أيضًا شائم في أرياف الأقطار العربية وبواديها ٠

واما عن الأمر الثانى ، وهو اختلاف طابع الألفاظ فى شهد صعاليك الماهلية ، عنه فى شعر صعاليك الاسلام ، فنقول ان مما يميز شعر صعاليك الماهلية فى جملته شيوع الألفاظ الصعبة الغريبة فيه ، مما يجعل له مستوى الجاهلية فى جملته شيوع الألفاظ الصعبة الغريبة فيه ، مما يجعل له مستوى تغلب عليه السهولة والالف فى القاظه ، وهذا أمر واضهم لدارس شعر المجموعتين ، بل الغريب اننا نجد فارقا بينا فى شعر المخضرمين انفسهم ، بين ما قالوه فى الماسلام ، وأوضع ما نكون ذلك فى شهعر أبى خراش الهذلى ، حيث نجد شعره الجاهلي يتسم بغرابة الألفاظ وصعوبتها بينما نرى شعره الاسلامى يجنع بقوة نحو السهولة والالف ، متخليا عن كثير من طابعه الجاهل فى الغرابة ، ولننظر مثلا الى قوله فى الاسلام :

فليس كعهـــد الداريا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوىالحق شيئافاستراحالعواذل(٢)

 ⁽۱) انظر تاریخ الاسلام للدکتور حسن ابراهیم ۱/۸ نقلا عن مراجع آخری •
 (۲) الکامل للمبرد ۲۳۷/۱ ویعنی بالسلاسل تقیید الاسلام لسلوکه واعماله •

وقوله في الاستلام أيضا حين هاجر ابنه خراش غازيا فن خلافة عمر ابن الحطاب ، يعبر في شعره عن وحدته بعد خراش وشوقه اليه :

الا من مبلغ عنى خراشا وقد يأتيك بالنبا البعيد وقد يأتيك بالنبا البعيد وقد يأتيك بالأخبار من لا تجهز بالحذاء ولا تزيد (١) يناديه ليغبقه كليب ولا يأتى لقد سفه الوليد (٢) فرد اناءه لاشىء في المسريد

وأبناتا أخرى من طرازها ٠

ثم ننظر الى الفاظه فى الجاهلية فنجد فيها طابعا من الغرابة والصعوبة يختلف عن طابع الفاظه الاسلامية اختلافا واضحا فمن ذلك قوله يصف صورة من عدوه وفراره من مطارديه:

فعدیت شیئا والدریس کانما یزعزعه ورد من الموم مردم تذکر ما آین المفر واننی بغرز الذی ینجی من الموت معصم (۳)

وقوله من وصفه لليلة باردة ممطرة اضطر فبها الى قطع أشواط واسعة في وديان فسيحة جاد النشاط والعزيمة ليدرك ثارا ويشرف على غنيمة :

وليلة دجن من جمادى سريتها اذا ما استهلت وهى ساجية تهمى وشوط فضاح قد شهدت مشايحا لأدرك ذحلا أو أشيف على غنم (٤)

ومن الواضح فى شعر أبى خراش ان ما قاله فى وصف حياة الصعلكة أصعبه الفاظا ، وابعده عن السهولة واليسر فى فهمنا له ، ولكن ما قاله فى الجاهلية كله ، حتى شعره فى الأغراض الاجتماعية كالرثاء ، يختلف أيضا اختلافا بينا من حيث صعوبة الألفاظ عن شعره فى الاسلام •

واذا كان شعر الشخص الواحد قد تأثر بالاسلام في الفاظه وتعبيره اللغوى فاولى أن يكون هذا الفرق أوضح بالنسبة للذين عاشوا حياتهم كلها في الجاهلية والذين عاشوا حياتهم كلها في الاسلام ، أعنى في المقارنة مين الفاظ شيعر كل منهما .

 ⁽۱) اشارة الى قول طرفة بن العبد : ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ٠٠ وياتيك بالأخبار
 من لم تزود ٠

 ⁽۲) كليب عبد أبى خراش ويغبقه يسقيه اللبن أول الليل • ديوان الهدليين ٢/١٧٠ .
 ١٧١ والغريد يعنى اللؤلؤ وفى الأغانى ١٨/٢١ أن عمر حينت أمر برد ابنه والا يغزو وحيد الأبوين الشيخين الا بعد الاتهما •

⁽٣) ديوان الهذليني ١٤٤/٢ والدريس الثوب البالي والمرم الحمى والمردم الملازم والبيت الثاني يعنى عدوت مفكرا في طريقة للهروب متشبئا يوسيلة الهرب والغراد •

⁽٤) المدر السابق ٢/١٣٠ ٠

والواقع أن هذا الفارق اللغوى بارز في القارئة بين أدب الجاهلية وأدب الاسلام عامة ، ولا نستطيع أن نحصر تعليله في سبب واحد فرعي ، وان كانت كل العلل متصله بالاسلام نفسه واهمها القرآن الكريم ، وبالإنار التي ترتبت على الاسلام من كثرة الاختلاط والتداخل بين أصحاب اللهجات المختلفه ، ومن ظهور لهجة قريش يظهرر قريش نفسها في مقام التوجيه والقدوة ولكن مهما تعددت الأسباب فأننا نعتقد إن السبب الرئيس هو ما أشرنا اليه أنفا ، وهو الكيان القبلي الذي نعتقد أن تفككه أو ضعفه أو تأثره يأى عامل هو في مقدمة أسباب تأثر لهجه القبيلة أو تحولها ، كما أنه يمكن أن نقول أن التأثير الكبير الذي أحدثه الاسلام في اللهجات العربية ، من حيث تقارب لهجات كثير من أينائها ، وانطوائها في لهجة متقاربة تدور حول لهجة قريش ، كان من أهم أسبابه قدرة الاسلام على التأثير الكبير في الكيان القبل للقبائل ، حيث صرف معظم أبناء القبائل عن الانزواء في الكيان القبلي والاعتزاز به وحده ، الى مجتمع أرحب ، هو مجتمع المسلمين عامة ، والى اعتزاز أسمى هو الاعتزاز بالا ملام من حيث هو دين ، وبالأمة العربية الاسلامية من حيث هي امة ، وكان لهذا التغيير آثاره البعيدة المدى ، ومن بين هذا التغيير ، ضعف اعتزاز الفرد بلهجة قبيلته ، وأيثاره لهجة الدين الذي يعتنقه والتي تتمثل في لهجة القرآن الكريم ، وايثاره لهجة الآمة التي استبدلها بكثير من اعتزازه القبلي والتي تتمثل في لهجة قريش مركز قيادة الأمة الديني والسياسي •

على الدارس لشعر الصعائيك ، وبخاصة الجاهلى ، وهى اننا حين نتبع شعر كل شاعر منهم ، نشعر ال مناك فارقا وان كان يتفاوت قوة وضعفا بين شعرهم كل شاعر منهم ، نشعر ان هناك فارقا وان كان يتفاوت قوة وضعفا بين شعرهم في حياة الصعلكة ، أعنى الشعر الذي قالوه في مجال الصعلكة ، وهو ما سميناه شعر الصراع ، وشعرهم الاجتماعي ، حيث نجد الفاظ الشماعر في مجال الصعلكة ، اقرب الى الصعوبة والغرابة ، بينما نجد الفاظه في الشعر الاجتماعي لها طابع آخر أقرب الى السهولة والالف ، وكأنه يصور بذلك نفسيته وحياته في جملتهما في المجالين ، وأوضح ما يكون ذلك في شعر الهذليين ، والشنفري خما ترى في شعر كل من صحر الغي وأبي خراش في ديوان الهذليين ،

خَصَائصُ شَعْمُ الْأَسْلَامِيَّةِ نُ

١ ـ العكوس

وتعنى أيضا في هذه الخصائص مقابلة شعر الصعاليك الاسلاميين بشعر صعاليك الجاهلية • ومن الواضع ال من هذه الخصائص عكوس الخصائص السابقة

في شعر صحاليك الجاهلية ، والتي قلنا انه يتميز فيها عن شعر الاسلاميين منهم ، وابرز هذه العكوس ما يتعلق بالالفاظ ، وما يتعلق بالتصوير ، فنجد في الالفاظ فارقا كبيرا ، حيث يغلب على شعر الاسلاميين سهولة الألفاظ والفها ، بينما يغلب على شعر الجاهليين صعوبة الالفاظ وغرابتها ، ولكننا لانغفل هنا فارقا ملحوظا في شعرهم ، وهو عدم التفاوت البين في شعر الاسلاميين ، فقد قلنا ان شعر صعاليك الجاهلية متفاوت المستوى من حيث الألفاظ ، فنجد فيه شعرا سهل الألفاظ ميسور الدلالة ، كشعر عروة بن الورد ، بينما نجد آخر صعبا غريب الألفاظ كشعر الهذليين ، ولكن شعر صعاليك الاسلام لا نجد فيه هذا التفاوت البين ، بمعنى انه وان كان فيه شيء من تفاوت كشأن التفاوت بين شاعر وشاعر دائما ، الا انه تفاوت غير كبير ، ولا يمثل طابعا معينا ، بى يمكن أن يقال عن شعرهم كله انه يتسم بالسهولة والوضوح ، بالنسبة لشعر صعاليك الجاهلية ،

ومن هذه العكوس يضا ما يتعلق بالتصوير ، فقد قلنا أن شعر صعاليك اجاهلية بتميز بشيوع الصور الفنية فيه ، بمعنى اننا نجد فيه طابعا يمثل صورًا كاملة عن صاحبه ونفسيته ، أو عن مشاهد الطبيعة ومخلوقاتها ، أو غر ذلك ولكن شعر الاسلاميين من الصعاليك عكس ذلك ، لا يشيع فيه التصوير وانما يعتمد على المعاني المفردة المتلاحقة ، التي لا ترسم صورا ولوحات فنية وانما يكتفى فيها غالبا بالمعانى المجردة المرسلة ، ولذلك قلنا ان شعر الصعاليك في الجاهلية انفرد فيما انفرد به عن شعر الاسلاميين بشعر الطبيعة ، وقلنا اننا لا نعنى بشعر الطبيعة مجرد ذكر الجبال أو الصحراء أو الأمطار أو غير ذلك ، فذلك لا يخلو منه عادة شعر عربي قديم ، وانما نعني بشعر الطبيعة الشعر الذى يرسم صورا متكاملة لمشاهد الطبيعة ومخلوقاتها ، ويجعلنا نشعر كأننا نعيش مع هذه اللوحات فننظر اليها ، أو كما يروى ابن رشيق يقلب السمع بصرا (١) * فهذه الميزة بادياً في شعر الصعاليك الجاهلين ، وخاصـة شعر الهذليين والشنفرى ولكن شعر الاسلاميين لا يحمل هذه الميزة بل يندر أن نجد لها في شعرهم أثراً ، وإنما بعتمد دائماً على المعاني المجردة ونعني بالاسلاميين في هذا الحديب الذين نشاوا في الاسلام أما المخضرمون ، فاننا نجد في بعض شعرهم الاسلامي بقية من روح التصوير ، كالصور التي جاءت في لامية عبدة بن الطبيب التي قالها بعد القادسية مصورا فيها رحسلة بدوية بمطاباها ، وصائديها وبحاصة صورة الثور الذي صادوه ثم طبخوه ثم قاموا بعد الأكل الى خيل جعلوا من أعرافها مناديل لأيديهم وما علق بها من آثار الأكل (٢) ، ولكننا باستثناء الآثار التي أدخلها الاسلام في شعر الصعاليك

⁽١) أنظر العمدة لابن رهيق ٢٩٤/٢ .

⁽٢) انظر المفضليات س ١٣٤ ـ ١٤٥٠

من حيث الروح والألفاظ والموضوعات نرى أن شعر المنضرمين من الصعاليك امتداد لشعرهم في الجاهلية أو بمعنى أوضح نرى شعر المنضرمين من الصعاليك فن الاسلام من حيث الصعلكة امتدادا لشعرهم الجاهلي ومنطويا في الحكم العام عليه ، لأن شعرهم الاسلامي يحمل كثيرا من روحهم وذكريات حياتهم في الصعلكة، لا على انها ذكريات يتمسكون أو يعتزون بها ، وانما لأن نفوسهم انطبعت بصورها واتجاهها الشعرى في أغلب انتاجها الاسلامى ، وأن كنا نكرر ما قلناه في بد الحديث عن شعر الصعاليك من أن الروايات لم تكن واضحة في تحديد الشعر الذي قاله المنضرمون في الجاهلية ، والذي قالوه في الاسلام •

ومن هذه العكوس أيضا الجوع ، فبينما نجد شعر الجوع واضحا في أشعار صعاليك الجاهلية كما قال السنفرى « أديم مطال الجوع حتى أميته » (١) وكما قال السنفرى « أدا أبو خراش « وانى الأثوى الجوع حتى يملنى » (٢) وكما قال السليك « اذا قمت تغشانى طلال فأسدف » (٣) بينما نجد مثل ذلك فى شعر الجاهلين من الصعاليك ، لا نجد مثله فى شعر الاسلاميين منهم بل لا نجد الجوع نفسه موضوعا لحديثهم وان كانوا قد شاركوا الجاهليين فى الحديث عن الفقر •

ومن الفوارق أيضا الروح التي يكتسبها شعر كل منهما ، حيث نجد الظروف المحيطة بالجاهلين منعكسة في شعرهم كما نجد ظروف الاسلاميين وخاصة شدة مطاردة التشريع والولاة لهم ، وشعورهم بالانكار على سلوكهم ونحو ذلك من آثار الاسلام منعكسا في روح شعرهم ، وان لم نستطع تحديد موضعه دائما ، ومثاله أشعار عبيد بن أيوب في الخوف الشديد .

٢ - انفراده ببعض الموضوعات

وكما انفرد شعر صعاليك الجاهلية عن شعر صعاليك الاسسلام ببعض الموضوعات ، كذلك انفرد شعر صعاليك الاسلام ببعض الموضوعات عن شعر زملائهم الذين سبقوا الاسلام .

واذا كنا في معظم ما سبق اعتبرنا الشعر الاسلامي للمخضرمين امتدادا المامليتهم ، ففي هذا الموضيع بالذات ، نعتبر شعر المخضرمين بالنسبة للموضوعات الآتية ب من الشعر الاسلامي وليس امتسدادا لشعرهم الجاهلي بن الوضوعات الآتية به كما سنرى به من الآثاد المباشرة للاسلام بصفته دينا وتشريعا ، ونحن قلنا ان شعر المخضرمين انما يعتبر امتدادا لشعرهم الجاهلي

⁽١) من اللامية ٠

⁽۲) ديوان الهدليين ۲/۱۲۷ ٠

 ⁽٣) مجمع الأمثال ٢١/٢ وأسدف أدخل في السدفة وهي الثلام •

اذا كان متعلقا بالصعلكة ، واستثنينا صراحة ما كان أثرا من آثار الاسسلام المياشرة ·

وأهم هذه الموضوعات التي انفرد بها شعر صعاليك الاسلام عن صعاليك الجاهلية ما يأتي :

ا ـ الشعور بالذنب:

ومن الواضح أن الشعور بالذنب غير الشعور بالمطاردة الذى تحدثنا عنه فيما سبق من الموضوعات ، لأن شعور المطاردة معنى عام عانى منه الصعاليك نتيجة لأن سلوكهم بطبعه عدوانى ، ومن شأنه أن يخلق لهم أعداء كشيرين من الذين يتوقعون أو يخشون هذا السلوك ، ومن الذين اصابهم فعلا هذا السلوك ، ولكن الشعور بالذنب احساس روحى دينى ، كان نتيجة لمخالطة الدين الاسلامى نفوس بعض الصعاليك ، وتذوقهم لذة الإيمان بالله ، وتأثرهم بالتشريم وحكمته ،

ولكننا قلنا عند الحديث عن صراعهم مع السلطة ، انه نتيجة لكون الصعلكة متعلقة بارزاقهم ، وكونها المصدر الأساسى لميشتهم ، فلم يكن تقبل نفوسهم للتوبة عميقا ، وهذا لا ينفى أو لا يتعارض مع اسلامهم ، فمن اليسير أن نتصور انهم أسلموا ، كما ورد فى أخبار الذين تحدثنا عنهم من المخضرمين ولكنهم مع اسلامهم صارعوا فى نفوسهم حنينا ولو خفيا الى الصعلكة التى أفنوا حياتهم فى مزاولتها والتعود على حياتها ، بالاضافة الى سبب مهم ، هو كونها مصدر معيشتهم ، ولكن هذا الصراع نفسه دليل على احساسهم بالذنب وقد صوروا هذا الاحساس فى شعرهم عن التوبة ، كما سبق فى موضوع صراعهم مع السلطة مما نكتفى بالعودة اليه ، دون حاجة الى التمثيل (١) ،

فصعاليك الاسلام اذن شاركوا صعاليك الجاهلية في الشعور بالمطاردة ، ولكنهم تميزوا عنهم بالشعور بالذنب •

ومن حق السائل أن يسأل: فلماذا لم يبعد شعراء صعاليك الجاهلية الحساسا بالذنب، والصعلكة سلوك اجرامى بطبعه سواء فى الجاهلية او الاسلام؟ ويمكن أن نجيب عن ذلك بأن أساليب الصعلكة أصبحت فى الجاهلية جزءا من الحياة الاجتماعية للقبائل التى كانت حياتها صراعا متبادلا طاحنا ، لا تنقطع فيه الغزوات والغارات وأساليب التربص ، حتى أصبحت أساليب الصعلكة شائعة يزاولها كثير من الأفراد والعصابات من غير الصعاليك كما قلنا فى مطلم

⁽١) أنظر فصل صراع السلطة من عدا البحث •

البحث ، وحتى أصبح الفارق بين الصعاليك وغيرهم في هذا ، أن الصعاليك يحترفون هدا السلوك ويتفرغون له ، بينما غيرهم يزاوله في بعض الظروف أو تختلط فيه هدرف الصعلكة بأهداف عصبية وقبلية كالتأر والانتقام واظهار الباس ، وإن كانت أهداف الصعلكة وهي المغنم دائما في صلب الأهداف ، فالصعلكة في الجاهلية اذن كانت جزءًا من حياة اجتماعية غير قويمة ، وكونها جزءًا من حياة اجتماعية ، ينزع منها الصفة الخلقية التي تشعر صاحبها وتشعر غيره بأن الخروج على المقتضى الخلقي فيها أمر معيب يشعر صاحبه بالذنب ، ويحمل غيره على توجيه تهمة الذنب والسوء اليه ، ولذلك نرى الجاهلين يعيبون أمورا كثيرة ، ويحملون على أصحابها في نقد مر وهجاء موجع ، كالبخل ونكث الجوار ، وخلف الوعد وغير ذلك مما نرى نقده في أشعارهم وأخبارهم ، وكما نرى في انكار الصعاليك أنفسهم لهذه المعايب ، مثل هجاء أبي خراش لغاسل ابن قميئة حين غدر بجاره الحنظلي (١) ، ومثل ما نجده كثيرا في شعر الصعاليك من تمسكهم بالفضائل ، ونعيهم على الخارجين عليها '(٢) ، وفي حين نجمه الجاهليين بما فيهم الصعاليك ينعون على أمور كثيرة ويعيبونها ، لا نجد مذا النعى موجها الى الصعلكة فلسنا نجد في شعر صعاليك الجاهلية احساسا قط بالذنب نحو الصعلكة ، ولسنا نعلم أن نديا من نوادي الجاهلية التي أقاموها في مكة ، وفي أسواقهم العامة ، قد أنكر الصعلكة أو دعا الى محاربتها ، كما أننا لا نعلم انه ورد في شـــعر الجاهليين قط شيء من ذلك ، فليس بغريب اذن " ألا يشمع صعاليك الجاهلية بالذنب نحو الصعلكة ، لأنها لم تكن حينذاك ذنبا بالمعنى الذي نفهمه من الذبب •

أما ضعاليك الاسلام فقد ووجهوا بعكس ذلك ، وووجهوا بالدين يوضع لهم أن الصعلكة جريمة نكراء ذات عقدوبات صارمة (٣) ، وووجهوا بالمجتمع يعلن لهم استنكاره أيضا ، فكان حينئذ احساسهم بالذنب ، وتمثل هدا الاحساس في شعرهم عن التوبة ، وتمثل أيضا في خوف شديد تجاوزوا فيه الحوف المالوف في حياة الصعاليك ، ويتضع هذا الحوف الشديد في شحعر عبيد بن أيوب (٤) الذي بلغ به حد الوهم ٠

ب ـ صراع الولاة والسجن :

تحدثنا فيما سبق عن صراع الصعاليك الاسلاميين مع الولاة والسجن (٥)

۱٦٤/٢ أنظر ديوان الهذليين ٢/١٦٤ •

⁽٢) انظر فصل الخلق الاجتماعي في شعر الصعاليك من هذا البحث (باللهرس) *

⁽٣) أنظر الآيتين ٣٣ ، ٣٤ من سورة المأثلة •

⁽٤) أنظر الحيوان ٦/ ١٦٥ ، ٢٣٥ •

⁽٥) أنظر فعمل صراع السلطة من هذا البحث (بالقهرس) *

ونود أن نقول أيضا أن هذا المبراع بدأ منذ استقرار سلطة الاسلام ، ولذلك نجد بعسف المخضرمين كجعفر بن علبه يتعرض لهذا الصراع (١) وبعسف الصعاليك تعرض لمطاردة الخلفاء كما سبق في مطاردة على بن أبي طالب كرم الله وجهه لشبيب بن عمرو (٢) وكما في أخبسار عبيد الله بن الحر مع عمال عسلي ابن أبي طالب ومعاويه بن أبي سفيان (٣) ثم تتابع أخبارهم مع الولاة والسجون كما تحدثنا في صراعهم مع السلطة ، مصورين هذا الصراع في شعرهم • على ان اهم ما نتب عن احساسهم الذنب ، ومطاردة الولاة ، فقدان صــــعاليك الاسلام لجانب غير يسير من العزة الذاتية ، فحين نقارن بين شعرهم وشعر صعاليك الجاهلية نحس أن هناك فارقا مهما في روح كل منهما ، فبينما نحس في شعر الجاهليين روح الاعتزاز بالنفس ممثلا في الاعتزاز بالصعلكة نفسها ، بجد شعر الاسلاميين منهم ، وأن كان لا يفقد روح العزة الفردية ، الا أن هذه الروح تختلف اختلافا واضحا في درجة الاعتزاز بالنفس ، حيث تضعف درجة الاعتزاز في شعر الاسلاميين ، وتختلف هذه الروح اختلافا أوضح في الاعتزاز بالصملكة ، حيث نرى الجاهليين عسلي كثرة ما يتحدثون عما يعانونه فيها ، يرتفعون في الاعتزاز بها الى أقصى ما يستطيعون ، بل يتخذون مما يعانونه فيها عنوانا للعزة والاباء ، كما يقول الشنفري تعقيباً على معاناته الجوع الشديد •

واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ متطول (٤) وكما يقول أبو خراش بعد قوله « وانى لأثوى الجوع حتى يملنى فيذهب ، مخافة أن أحيا برغم وذلة وللموت خير من حياة على رغم (٥)

فبينما نجد الشنفرى وأبا خراش يريان فى جوعهما عزة يحرصان عليها، نجد مالك بن الريب الاسلامى يقول للأمير الذى قال له: فان أنا أغنيتك ، فهل تكف عما أنت فيه ، يقسول له مالك « نعم ، أكف كأحسن ما كف أحد » (٦) غير معتز بالصعلكة ولا متمسك بها ، وكما فعل بكر بن النطاح وأبو الطمحان القينى فى دكونهما الى السادة والأمراء معرضين عن الصعلكة ، فى غير توبة عنها ، ولكن التماسا لحياة أيسر وعيش أرغد (٧) .

⁽١) انظر خزانة البغدادي ٢٦/٢ الشاهد ١١٥٠

⁽۲) انظر حماسة أبي تمام ۱/۲۵۲ ٠

⁽٣) انظر خزانة البقدادي ٢/١٩ ــ ٢٢ •

⁽٤) من اللامية : سبق نصها (بالفهرس)

 ⁽٥) ديران الهدلين ١٢٧/٢ .
 (٦) أمال القالي ١٣٦/٣ .

⁽٧) أنظر مراجع ترجمتهما واخبارهما نيما سبق (باب الشعراء الصعاليك) •

وهناك عدد غير قليل مع المراجع أشرت الى بعضه في المتسدمة رايت الا اذكره في هذه القائمة مع اننى استشهدت منه خلال البحث لأن اعتمساد البحث عليه لم يكن قويا ، وقد اكتفيت بالاشسارة اليه في موضع الاستشهاد بالهامش •

واشير الى أن بعض المراجع قد نقلت عنه من نسختين فى طبعتين مختلفتين اثبت احداهما فى القائمة ، والأخرى فى موضع الاستشهاد بها فى الهامش ، على ان بعض المراجع ليست لها الا طبعة واحدة لم أر ما يدعو الى تحديد طابعها أو باشرها

١ ـ الأمالي لأبي على القالي (مطبعة السعادة)

٢ ـ الأغانى للأصفهائي (مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٨)

۳ ـ اعجب العجب فی شرح لامیة
 العرب للزمخشری (مطبعة دار المارف)

٤ ـ الأصمعيات للأصمعي

اسس النقد الأدبى عند العرب
 للدكتور أحمد أحمد بدوى

٦ - الأسس الفئية للنقد الأدبى
 للدكتور عبد الحميد يونس

٧ ــ آراء واتجاهات للدكتور محمد نايل

٨ _ البيان والتبيين للجاحظ

۹ ـ تاریخ الأدب العربی لکادل بروکلمان (ترجمة الاستاذ الدکتور النجار)

١٠ ـ تاريخ الاسلام للدكتور حسن
 ابراهيم (الطبعة السابعة)

١١ _ ثاريخ الأمم والملوك للطبرى (مطبعة الاستقامة)

```
للجوهري
       ( مطبعة السعادة )
                                ١٣ - التنبيه على أوهام القالي للبكري
        ( مطبعة الاستقامة )
                                     ١٤ ـ تفسير الكشاف للزمخشري
                                  ١٥ ـ جمهرة أشعار العرب للقرشي
  ( مطبعة بولاق الأمرية )
                                              ١٦ - الحيوان للجاحظ
                             ١٧ ـ جديث الأربعاء للدكتور طه حسن
           ( مطبعة الحليم )
                                ١٨ - الحياة العربية من الشعر الجاهل
                                               للدكتور الحوفي
       ( مطبعة نهضة مصر )
                                      ١٩ ـ ديوان الهذلين للسكرى
  ( مطبعة دار الكتب المصرية )
                                       ٣٠ - خزانة الأدب للبغدادي
      ( مطبعة داد العصور )
                                    ٢١ ـ ديوان الحماسة لأبي تمام
  ( مطبعة الوهبية سنة ١٢٩٣
                                        ۲۲ نه ديوان عروة بن الورد
          ( مطبعة السعادة )
                                              ۲۳ ـ ديوان الشنفري
( مخطوط بدار الكتب المصرية )
                                        ٢٤ - دائرة معارف البستاني
                                  ٢٥ ـ دائرة معارف القرن العشرين
                                       ٢٦ - رسائل الجاحظ للجاحظ
            ( مطبعة الخانكي )
                                   27 - السلطة في المجتمع للدكتور
                                              عبد العزيز عزت
                                ۲۸ - شرح التبريزي لحماسة ابي تمام
( تحقيق محمد سعيد الرافعي )
                                 ۲۹ - شرح ابن الانباري للمفضليات
         ( مطبعة دار المعارف )
                                ٣٠ ـ شرح ابن السكيت لديوان عروه
                                                   ابن الورد
( المطبعة الوهبية سنة ١٢٤٣ هـ
                                    ٣١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة
             ( مطبعة الحليي )
                                  ٣٢ ـ شرح ديوان الهذليين للسكرى
   ( مطبعة دار الكتب المصرية )
                                  ٣٣ - شرح القصائد السبع الطوال
                                         الجاهليات لابن الانباري
        ( مطبعة دار المعارف )
                                   ٣٤ ـ الشعراء الصعاليك للدكتور
                                                يوسف خليف
       ( مطبعة دار المعارف )
                                     ٣٥ - الشوامخ للدكتور محمد
    ( مطبعة دار الكتب المصرية )
                                                      صبري
```

١٢ ـ تاج اللغة وصحاح العربية

```
٣٦ ـ الصراع الأدبى بين العرب والعجم
      ( الكتبة ) الثقافية ٩٢)
                                     للدكتور محمد نبيه حجاب
          ( المطبعة الأزهرية )
                                     ٣٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه
                                             ٣٨ ـ العمدة لابن رشيق
          ( مطبعة السعادة )
                                   ٣٦ _ العالم غير المنظور للدكتور على
                                               عبد الجليل راضي
 ( مطبعة دار الفكر العربي )
                                    ٤٠ ـ الغيث المسجم في شرح لامية
                                               العجم لابن أيبك
                                       ٤١ _ في الأدب والنقد للدكتور
( مطبعة لجنة المتأليف والنشر )
                                                  محمد مندور
                                  ٤٢ ـ القاموس المحيط للفيروز ابادي
         ( مطبعة الاستقامة )
                                                ٤٢ _ الكامل للمبرد
                                        25 _ لسان العرب لابن منظور
    ر مطبعة دار المارف )
                                 ه ٤ _ مجالس ثعلب لأبي العباس تعلب
                                  ٤٦ ـ مصادر الشعر الجاهلي للدكتور
     ( مطبعة دار المعارف )
                                           ناصر الدين الأسد
      ( مطبعة دار المعارف )
                                             ٤٧ _ المفضليات للفسي
                                              ٤٨ _ مقدمة ابن خلدون
                                       ٤٩ ـ معاهد التنصيص للعباسي
( مطبعة لجنة التاليف والنشر )
                                      ٥٠ _ معجم ما استعجم للبكري
     ( مطبعة السنة المحمدية )
                                        ٥١ - مجمع الأمثال للميداني
 ( مطبعة دار الكتب المصرية )
                                        ٥٢ _ مهدب الأغاني للخضري
                                  ٥٣ _ نهاية الأرب في فنون الأدب ٢
 ( مطبعة دار الكتب المعريه )
                                                     للنويري
```

فهرس

							•																																	
٥		•				, ,								•																					. ,	یم	قد	ق		
10												•			•		٠.		•	 													ل	ڏو	11	ب	لبا	1		
10		•																-														. (4	لک	J.	من	11) /	**	
17															•					 										2	غا	Ui	ڧ	ī	ζĮ	٠.	لص	خرا	5	
٧.																				 							. (ی	حر	:1	ظ	غا	وأا	ã.	لک	رو	لص	1	•	
77.		•																		 						Ĺ	زإ	,	51 0	ن	مرا	Ĵļ	فی	عَد	Σl	۸.	لص	ر ا	Mark Control	
44														-						 											ā	لک	٠,	لم	١,	٠	فه	4-0		1
41			•																•	 									•		. 9	3	ولا	عا	٠	ال	ين	يمو	أكاجع	ξ.
44								• (۱.										•	 												کة	ىل	ب	لد	ة ا	شا	تتعلفه	ن سنة	
44		•				. ,														 						٠									4	با		fC.		
٤٢																																						-		
۳٥																																					عا			
٥٥				•																 					ؽ	į.	ij	,	نقر	ال	ن	، بي	زن	واز	الت	م ا	عد	.		
74			•																٠,										باة	Ł	وا	ن ا	خ	لأر	1	بعة	لبي	,		
74			•																		٠	٠													J	ۣۻ	اگر	į		
74		•														•								٠	٠										_	ياة	بل	١		
77							٠.																٠									ن	نرة	أخ	_	ام	عوا			
77							٠									4									٠								دية	قرا	_	ام	عوا			
٧٧	,																											٠							1	راا	لو	ļ		
۸۱														•	•														3	.ود	ئىذ	إك	د و	داه	نعا		Y			
۸٥				•						•			٠							 •		•					(بة	مل	يا	ĻΙ	فی	3	ζl	۶.	لم	11))		

٨٥)			•	•	•	•		 							•	•		 								. (ع	جتم	بل	زوا	ک	معا	ال)
٩.		,			•	•	٠	• 1	 								•		 										لة	S	ب.	الد	یب	سالا	Į.
98									 									 							,		((K	رس	Ì١,	زق	کا	صعا	ال)
۱۰۷	,																																		
1.4	,																																		
																																	_		
111	,																																		
115																																			
118																																			
110																															~	, .	-		
117																											٠. ر				-	_		_	
117																																			
117 117																											.ان								
114 114																											٠.				_				
11A 119																											انی								
119 119																																			
																																_			
14.																											ی ۔			-		_	-		
																													•	•	_			1	
17	-																												•			_			
24									•			•		•	•					•	•	•						•	ل.	لمذ	ل ا	إش	وخو	أبر	
37																										_	أسلة			_	•	-			
40			,		, ,	, ,																	•			•		نی	لقي	ن ا	حا	لم	رالم	اير	
			,																				•	٠					. (ن	ميو	بلا	الاس)	
77			,		. ,																		•						ب ,	ریہ	الر	بن	لك	ما	
44																													٠ ;	اح	لنط	ن ا	گر بر	بک	
۲۸					,					٠																	ری .	ىئې	ال	_ ب	ايو	ن	بيدب	ع	
۳.																										٠.	ىعقى	Ļ١	لحر	-1,	بڻ	الله	ید ا	ع	
41														•															ي .	ىد		رال	أحمير	الأ	
44												4						 									قیلی	ال	بل	بة,	الص	ن	ید ب	یز	
44		. 1											۰					 				٠						شإ	النه	١,	اش		و الن	أير	

144.	 	٠.			 											سعد بن ناشب المازني
3715	 				 			•					٠.			توبة بن الحمير
140	 				 , .											عبد الله بن سيرة الحرشي
140	 ٠,		• •		 											شبيب بن عمروبن كريب
" 177	 		• •		 					. :						فرغان بن الأعراف المرى
144	 				 											جحدر بن معاوية العكلي
١٣٨	 				 								• .•			الجرنفس اللص
1.40	 				 							 4	• •			(الباب الثالث)
121	 				 											شعر الصعاليك
124	 				 											مصادره
124	 				 											روايته
184	 ٠.				 											الاختلاف في الألفاظ
100	 				 ٠.						•	 • .				الاختلاف في نسبة الشعر
171	 • •				 											لامية العرب
144	 				 									. (نه	۳(منهج شعرهم وموضوعاً
111																مصراع الضياع
110	 				 											ــالفقر وآثاره
140	 				 											-الفقر
19.	 				 											آثار الفقر
14.	 		٠.		 											رالجوع
194	 		٠.		 											رنحول الجسم
199	 				 											مراع الهوان في المجتمع .
																(صراع المهنة)
717																رأسلحة الصعلكة
																الأسلحة المنظورة
710																أسلحة الفتالين
717																
777	 , .					- '		_	 		-	 سنر	ب		•	السيف
	 -		•••	• •	 شن	سلس	مسب	-	 •		•	 •		•	•	القوس
TIT																الرمح
444												_		_		

74.																																			.tı	_	لدر	tı.
744																																						
721																																					عد	
																																			•	_	أما أ	
414																																				•	لطا	
40.																																				-	لخيرا	
307	•	٠	•			•	•	٠	•		•						•		•							 •	•			•				•		4	<mark>إبل</mark>	li
YOY	•	•			. ,	•			•		•														•		•			زة	لوا	لنظ	li_	غير	4	لح	ڏس	1
704	٠	٠	•				•		•															•		 ٠.								. :	إد	¥,	رة ا	ē
777											•		•		,												•									بر	لم	1
377					. ,	•	•	•	•																											1	لجر	1
777													b 1	 																	٠.	ت	لو	با	انة	ستھ	لات	1
777																																	•			•	لحذ	
***																																					لحا	
YAY																																					- •]	
444																																			•	•	ر لشا	
791																																	-		_	_	سر	
797																																		-		•	_	
4.5																																					لو- ا -	
																																				•	لوه	
۳۱.																																				_	<u>سر</u>	
411																																	•				لسا	
414																																_	_				لسا	
410																																					لسا	
414	•		•				•		٠	•	•																		•		٠	اعو	نما	ج	1	مر	لشا	1
414		•												•		•	,														ية	ليد	تق	JI,	نر	راة	Ľż	١
414																														•	. ,					فر	لف	١
44.																							å									لة	لييا	بالة	زب	تزا	Ka	1
441																																					لد-	
440																																						
777																																						
779																																					-	
117	•	•	٠	٠	•		•	•	•	•	•	•		 •	٠	•	•	•	•	•	•	٠	•		• •	•	•	•	•	٠	•		*	• •	•	U	- ر	•

(الخلق الاجتماعي للصعاليك)
الصلة الشخصية
العفة
الاشتراكية الشتراكية
الطبيعة
الخصائص العامة
تميز روح الشعر
الخصائص السلبية
شعر الترف
الفحش
الزهو والخيلاءالله الزهو والخيلاء
تمثيل الحياة الشخصية
الذاتية
الواقعية المواقعية
التجربة والصدق
الوحدة ٢٩٢
عدم التزام التصريع
(خصائصُ الشعر الجاهلي)
انفراده ببعض الموضوعات
الجوع_العدو
الحيلة ـ الطبيعة
القصص والتصوير
الأسلوب القصصي
التصوير
اختلاف مستوى الألفاظ
(خصائص شعر الاسلاميين)
العكوس
انفراده ببعض الموضوعات
الشعور بالذنب
صراع الولاة والسجن
أهم المراجع
٠٠٠٠ المام الورايي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧/٤٦٠٧

ISBN 4VV - • 1 - 1877